الرافعيُّ الكاتبُ

بين

المحافظة والتجديد

تأليف

مصطفى نعمان البدري

دار البيارق
بيروت

دار عمار
عمان - الأردن

الرَّافِعيُّ الكَاتِبُ

بَيْنَ

المُحَافَظَةِ وَالتَّجْدِيد

تَأليف

مُصطفى نعمان البدري

دار الجيل

بيروت

دار عمّار

عمّان ـ الأردن



إرسموا شخصَ الوفا ثم انظروا من بعدُ رسمي
لو يُسمّى في الأنام الحبُّ ما اختار سوى اسمي

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩١م

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى في القرآن العظيم:

﴿وَنُرِيدُ أنْ نَمُنَّ عَلىٰ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا في الأَرْضِ، ونَجْعَلَهُمْ أئِمَّةً ونَجْعَلَهُم الوارِثِينَ. ونُمكّنَ لَهُمْ في الأرضِ ونُرِي فِرْعونَ وَهامانَ وجُنُودَهما ما كانُوا يَحذَرُون﴾.

سورة القصص الآيتان ٥ و٦.

الإهداء

إلى الأُمَّةِ التي يرىٰ اللهُ تَقَلُّبَ وَجْهِها في السَّماءِ؛ تَنتَظِرُ أَنْ تَبِينَ لَها في لَوْحِ الغَيْبِ الاستِجابةُ الربّانيّة، لتعودَ فتحمِلَ رسالتَها وتُبلِغَهَا الناس،

هذه طاقةٌ من أوضاحِ نَفْسٍ منكِ عربيّةِ الميثاق، تألَّقَتْ حيناً باشراقها الوَضيء. ثم حاولَ ضبابُ الأيام أن يَحْتوي افترارةَ الغَبَشِ الذي بَشَّرَتْ فيهِ بميلادِ فجرٍ جديد.

أَزفّها إليك ــ يا أمتي ــ في بهاءِ الوداد وثباتِ الاعتقاد، راجياً منكِ القبول والرضىٰ.

ثناءٌ مُسْتَطاب

حينَ يَفِيضُ الخيرُ، وتَظْهَرُ المنَّةُ، ويَنْعمُ الفَضْلُ، لا يَجدُ المرءُ في لسانِهِ غيرَ بَثّ الشكرِ للهِ يَتْلُوهُ، ونَغَمَ الثناءِ لَهُ يُرسِلُهُ، وينوّهُ بأهليهِ.

وفي الوقتِ الذي يَسَّرَ الله لي في هذهِ، أَراني بَهِجاً أحمَدُ، ولهِجاً أذكر الاحسان، وهَزِجاً للتوفيقِ الذي حَبَانِي.

وأخصُّ بالذِكرِ والثناءِ أستاذي الجليل عمر الدسوقي الذِي صابَرَني على البحثِ، وحَبانِي من لُطفِهِ وكَرَمِهِ ما كادَ يَطبعني على غِرارِ قَلَمِهِ في الموضوع توفُّراً وحماسةً — يرحمه الله[1].

وأنظرُ في وجهِ الفاضلِ محمد بهجة الأثري أقرأُ أساريرَهُ وأملأُ نَفسِي زَهْواً وخيلاءَ — وهو يَرْعَى كلَّ حرفٍ أُخُطّهُ ويتعهّدُ كلَّ حكمٍ أشرفُ عليهِ، ويقوّمُ ما أذهَبُ إليهِ من فكرٍ وأدبٍ في هذه الدراسة — كما كانَ معي أبداً.

---

(١) كانت أمنيته أن يمنحني شهادة الرعاية (الدكتوراه) قَبْلَ مغادرته هذه الفانية. — في نجد عام ١٣٩٨ هـ — وقد استجاب الله له.

وأُثنّي نحو الأسرة الرافعيّةِ التي حَبَتْني من رعايتها ويسَّرتْ لي بجودِها ما لا يفيهِ جزاءً غيرُ الاحسان.

وأعودُ فأذكر أمناءَ دورِ الكتبِ العربية في القاهرة ودمشق وبغداد لما قدّموه من عونٍ يستحقّون عليهِ الثناء، وأدعو للإخوةِ الأصدقاء أن يمُنَّ الله عليهم بالخيرِ واليمن والاقبال.

مصطفى نعمان البدري

فكرة ومنهاج

مقدّمة

الحمدُلله الذي ﴿**بَعَثَ في الأُميّينَ رَسُولاً منهم يَتْلُو عليهم آياتِهِ، ويُزكّيهم ويُعَلِّمُهم الكتابَ والحكمةَ**﴾[1].

والصلاةُ والسّلام على سيّدِ الخَلْق الذي تَلَقّى القرآنَ من لَدُنْ حكيم عليم، ويسَّرَه بلسانه، وإنَّهُ لَتَنْزِيْلُ رَبّ العالمين، بلسانٍ عربيّ مبين، ﴿**وكذلك أنزلناهُ حُكْماً عربياً**﴾[2] حتى قال: ﴿**إنا جعلناهُ قرآناً عربياً لعلّكم تَعْقِلُون**﴾[3].

الأدب : أما بعدُ، فانَّ للآدابِ فِي الأُمم مقامَ التربيةِ الأولىٰ في الحياةِ، ومكانَةَ الرّعايةِ في النّشْأَةِ، ومجالَ الاضطرابِ في الفكر، ومَثارَ الاختلافِ في النظر، ومَيْدَانَ التَجْلِيةِ في الصوابِ وفصل الخطاب، وسَرْحَ التَّرْويحِ عن النفسِ من عَناءِ الأيّامِ، وتجديدَ الرُّوحِ عندَ انقلابِ الزمان.

---

(١) سورة الشعراء ــ الآية ١٩٢ ــ ١٩٥.

(٢) سورة الرعد ــ الآية ٣٧

(٣) سورة الزخرف ــ الآية ٣

وقد كان للأدَبِ في هذهِ الأُمةِ من القيادةِ والانفرادِ بالتوجيهِ والتَّدْرِيبِ والأخذِ بِالأَزمّةِ ما لَمْ تَرْوِ الأيامُ مِثْلَ خَبَرِهِ لغَيْرِنَا من الأمم. وحَسْبُها أن يَتَشَرَّفَ أدبُها بكتابِ اللهِ الذي يمتازُ بهِ قُرآناً يُنْشِىءُ الأُمَّةَ إنشاءً سامياً، ويدفعُها الى المعالي دفعاً، ويَرُدُّها عن سَفْسافِ الحياةِ، ويُوَجّهها بدقّةِ الإبرَةِ المغناطيسِيَةِ إلى الآفاقِ الواسعَةِ، ويُسَدِّدُها في أغراضِها التّاريخيَّةِ تَسْديدَ القُنْبلةِ خَرَجَتْ من مدْفعها الضَّخْمِ المُحَرَّر، وَيَمْلأُ سَرائرَها يَقيناً، ونُفُوسَها حَزْماً، وأبْصارَها نظراً، وعُقولَها حِكْمةً، وينفذُ بها من مظاهِرِ الكَوْنِ الى أسرارِ الأُلوهية[1] ويجعَلُ الأدبَ بَعْدَ ذلكَ فنَّ السّموّ بضميرِ الأُمّة.

وإذا دَارَتِ العُصورُ وانقَلَبَتِ الأَوْضَاعُ، وغَشِيَ الناسَ من هَمّ الحياةِ الدنيا ما يَغْشى، فَتَكِدَتِ الحظوظُ وتعثَّرتِ المساعي كانَ لها في الأدبِ تَعْويذَةٌ، ومن فنونِهِ متنفَّسٌ لكرُوبها، وبينَ آفاقِهِ مرابعُ تَسْتَريح في ظِلالِها الأذهانُ، ومرابعُ تَسْتَمرئ الحياةَ بمعانيها، فكأنَّهُ مَحَطُّ المُراجَعَةِ، وميدانُ الاعتبارِ، ومناطُ التَّوْبة والاسْتِغفار، كما كانَ مَثابةَ الهداية ومجالَ الدَّعْوة ومَشْهَدَ الجهاد.

وإن طَغَت الحياةُ طُغيانَها، وامْتَدَتْ تَلْقَفُ ما زانَها وما شانَها عادَ هو يَتَلَطَّفُ بِها، ويذكِّرُها ويُنبّهُ على مكامنِ الخطرِ ومكايدِ الدّهر،... وربما تنبَّأ لها بمراحلِ اندفاعها وصوَّرَ لها نهايتها، أو عادَ فَقَوَّمَ فيها المروءات.

الرافعي : وقد كان لأديبِ العربية « مصطفى صادق الرافعي » شأنٌ

(١) الرافعي ـــ الرسالة ١١٠، وحي القلم ٣ ـــ ٢١١

عظيمٌ في مضمار حياة الأمّةِ والفكر في العصر الحديث؛ إذ استطاعَ معَاصَرَة الأحداثِ والنّظرَ في الأنواءِ، وتقلَّبَ في تَفْسِيرِ سائرِ ظاهراتِ الحياة الجديدةِ بالايضاحِ والسلوكِ، وراضَ ما قَدْ طافَ بأيّامِ الثّقافةِ والمدنيّةِ والحضارةِ عند العرب.

اختارَ اللهُ لي أَنْ أدرُسَ « الشعر عند الرافعي » في رسالةٍ سابقة، قَدّمتُ فيها ما قدّمتُ، ثم رأى الأستاذ عمر ابراهيم الدسوقي، أنّ تلكَ الدّراسةَ قد تَبْقى يتيمةً مُنْقطعةً ما لم تتبعْها دراسةٌ تُتِمُّ ما بدأتهُ، ويُشرِقُ فيها الرافعي بنثْرِهِ وبيانِهِ، ويثبُتُ بها ضميرُهُ العربيّ، وينتصرُ له الحُكمُ فيهما، فيُثأَرُ لَهُ من أيامِهِ، ويُرفَعُ ما لحقَ تاريخَهُ من غَبْنٍ، وما رافَقَ مُناوئيهِ من إيذاءٍ لَهُ في حياتِهِ، وما أعقبها من إهمالٍ لشأنِهِ، وقلّةِ احتفاءٍ بهِ، وصُدوفٍ عن أثرِهِ.

ولم أَزَلْ بينَ جدّ الأنواءِ وهَزْلها، وافتراقِ الأيامِ وضياعها، وبَيْنَ شدّةٍ وطأةٍ ما التفّ بحياتي؛ أُعاني ما أعاني مَأْخوذاً بالدَّرْسِ، ومَعْنِيًّا بالمراجعة. ومع الانحراف المُقيم في صحّتي — إنْ لم أكُ مَريضاً فما أنا بالمُعافَىٰ، ولا بالموفورِ الصحّة، هذا غيرُ أسرِ الوظيفة وهمّ الولد،... وقد اسْتَوى لي هذا القَدْرُ من الدراسةِ وما سَوْفَ يتبعُهُ من مُلْحقاتٍ جارياتٍ بإذن الله وتوفيقِهِ[1] تعيدُ بنشرِ أدبهِ ما انطوىٰ منه، وما اختلَفَتْ عليهِ الطبعات.

بوادر : لقد عاشَ أدبُ الرافعي معي منذُ طفولتي وأيّامي الأولىٰ،

---

(١) تمَّ لنا بعد هذا كتاب (الرافعي الناقد الأديب) ناولناه « عالم المعرفة » وكتابان آخران..

ولَعلَّ بوادِرَهُ كانت ترتَسِمُ على وجهِ أبي رحمه الله[1] يومَ كان طالباً في دارِ العلومِ بسامراء يَتحمّسُ لَهُ، ويستَظْهِرُ بعضَ كلمِهِ وأوابدِهِ، ويُشاطرُ المُحْتفلين بذكرى المولدِ النبوي الكريم أنْ تكونَ هنالك إشارةٌ الى أدبِ الرافعي وقراءةٌ في صفحاتِهِ النبوية.

وإنْ أنسَ مِ الأشياء لا أنْسى أني يومَ غدوتُ على الابتدائية في سِنّ صغيرة كان يروعُني موقِفُ طالبٍ لا يَفْتَأ يُنْشِدُ قصيدةَ الرافعي[2] :

بلادي هواها في لساني وفي دمي ... يمجّدُها قَلْبي ويَدْعو لها فمي
ولا خيرَ في مَنْ لا يُحِبُّ بلادَهُ ... ولا في حليفِ الحبِّ إنْ لَم يُتَيّمِ

كما كان يبلغُ الشغافَ احتفاء أحدِ أعمامي من المُعَلّمين بتحفيظِ (النشيد القومي) لذي الصوتِ من التلاميذ، وانشادِهِ صبيحةَ كلّ يومٍ بتنغيمٍ جميلٍ ولحنٍ محمّس[3].

حماةَ الحمىٰ يا حماة الحمىٰ ... هلُمّوا هلُمّوا لمجد الزّمن
لقد صَرَخَتْ بالعروق الدّما ... : أموتُ أموتُ ويحيا الوطن!..

ويومَ فتحَ اللهُ عليَّ بالقراءةِ وتلقُّفِ صُحُفِ ذلك العهد، أتناوَلُ الشعر وأنعَمُ بالمقالةِ، وأشرف على الحديث وأتأمَّلُ فيها العلومَ والفنون، كانَت

---

(١) السيد حسين بن الملا علي المتّصل نسبةُ بيدر الدين الحسيني كان من أفرادِ الدنيا المعدودين في الصَّلاح، ولد عام ١٣١٨ هـ وتخرّجَ في دارِ العلوم بسامراء وسلكَ في الوظيفة إماماً وخطيباً ثلثَ قرن اغتالَتْهُ الشعوبية الآثمة فجر الخميس الخامس عشر من رجب عام ١٤٠٠ هـ بحادثِ دهسٍ لئيم!.

(٢) ديوان الرافعي ١ ــ ١١

(٣) أغاريد الرافعي ــ ٧٤

الالتفاتةُ تَحِينُ عندي بينَ الفينةِ والفَيْنة؛ أرقُبُ فيها الرافعيَّ في كلماتِهِ الآبدةِ وحِكمهِ الشاردة، ومقالاتِهِ الأثيرة في بقايا أجزاء « الرسالة » وقد بَعْثَرتها يَدُ التنقّل من بلدٍ الى بلد، ومن مكانٍ الى آخر،... ولكنّي لم أكنْ أقوىٰ على موَاصلةِ حديثهِ — مع حلاوته وطلاَوةِ عبارته. فأنصرفُ عنه إلى غيره.

ولعلّ من الطَّريفِ أنْ أذكرَ أنّي كنتُ أنْتقي مجلة « الهلال » يومئذٍ لأقرأ مقالةَ عباس محمود العقاد وحديثَ طه حسين وكلمةَ أحمد أمين ورِحلةَ عبد الوهاب عزام ومُعاناة الآخرين،... ولكنْ الذي حَدَثَ يوماً أني قرأتُ لأحدهم معانيَ في القُطريّةِ[1] آثرها، فلويتُ عنهُ جيداً، وعُدْتُ أفتّشُ عن ضالّتي في الأدب العربي المبين بقوميّة وضمير وثَباتِ اعتقاد.

ويومَ دَارَتْ بي الأيّامُ دورتَها، وألقَتْ بي في ميدانِ الآدابِ أمْلأُ أفقَ حياتي الجديدة، وأعوّضُ عن آمالي[2] وأصوّرُ بقيّة أحلامي، كانَ أدبُ الرافعي من أمامي ربوةً عاليةً لا بُدَّ في السّعيْ إليها من الجُهْدِ قَبْلَ الوصولِ الى القُطوُف، وبارتيادِ السَّبيلِ إليها غَيْرَ مرّة، حتّى تتكشّفَ لي سماواتُها وتَنْجلي آفاقُها وتظهَرَ آثارها وثمارُها.

ولكنّ ذلك التكرارَ كانَ ذا مَذاق يَتجدَّدُ ويزدادُ، ويَسْتَوْضحُ معانيَ وأفكاراً، ويبعثُ على التأمّل والاسْتغراق الذي قلّما أجدُهُ في أدبِ سواه. حتى لكأنّي لا أجِدُ ما أترجمُ فيهِ أدبَهُ في نفسي غيرَ كلماتِهِ وعباراتِهِ نَفْسِها!

---

(١) العقاد في حديث مع هرون الرشيد الهلال — ٩ — ١٩٤٩

(٢) أملْت في دراسة الطب، فقصرت بي درجاتي.

الدسوقي : ومن هنا أخذَ الأستاذ عمر الدسوقي بيدي، فوجّهني لدراسةِ الرافعي وأدبهِ لبعْثِهِ ثانيةً، فيأخُذَ مكانَهُ اللائق في آدابِ الأمّةِ. وقد آلت الأفكارُ والمذاهبُ الى نَوْعٍ توزُّعٍ وافتراقٍ، ولا سيّما بعدَ الذي رانَ على النَّقدِ من بعض مَفهوماتٍ ومُترجماتٍ تحاول بالروحِ العربية وآدابها غيرَ ما يَنْبَغي لها من اعتقادٍ وحُرّيةٍ!.

ولم تكنِ الالتفاتةُ الدُّسوقيةُ إيثاراً فحسبُ، وإنما كانت مهمّةً قوميّةً، وتَبِعةَ اجتهاد، حَمَلْتُهما بجهادٍ ووداد، واتّخَذْتُهما الرسالةَ والسَّبيلَ والسَّداد، فانثنيتُ أشمّرُ عن ساعِدِ الجدِّ، أتهيّبُ الأناةَ، وأستبقُ السعيَ بالكدّ والسَّهَر، وأصابرُ الجَلَد مع الاختلافِ على دُورِ الكتب وبُيوتاتِ العلم ومَغاني الأدب، ورجالاتِ الفكرْ والفقهِ، وأقيالِ التاريخ؛ أبحثُ عن الآثار، واستخرجُ المعاني، وأفتّشُ عن التفسيراتِ، لتجيءَ « الحيثيات » مستوفاةً في كلّ ما أختارُ الكتابةَ فيه من جوانبِ الرافعيّ الأديب الإمام.

وإذ أَسْتَفتحُ باسمِ اللهِ هذه المقدِّمَةَ، أعرِضُ لمنهاجِ البَحْثِ في أبوابِهِ، وأشيرُ الى الرِّسالةِ في فُصولها، فَأَجعَلُ ذلك كلَّهُ يُسائِلُ عن مدىٰ التوفيق، ومَرْمىٰ الإصابةِ فيما يَتَوَفَّرُ لي من مادةِ الدراسةِ ومجالاتِ الأخذِ والنَّقْدِ التي تُمنْهِج لِنَفْسِها.

* * *

في التمهيد ملاحظةٌ جديدةٌ لِسِرّ خلودِ العربيةِ في آدابِها، وهَلْ هنالكَ سِلكٌ نظيمٌ يَمْتدُّ في أطوارِ الفكرِ العربيّ بجوانبِهِ التي تفقَهُ الحياةَ، ومساربه الفنيّة، ومطارحاتهِ الفلسفيّةِ، وكيفَ أَلِفَ ذلك تمتُّعُ كتّابِ العربيّة في بيانِهم وفنونِ آدابهم؟ فامتدّت بتاريخهم حتّى شهدَتْهُ النهضةُ الحديثة وتوفَّرَ على معرفتِهِ الرافعي الأديب؟!

ذلك أنّ الدالّةَ على توفيقِ الرافعي في فنّهِ، وعبقريتهِ في الكتابةِ والشعر، لا بُدَّ لها أن تكونَ مَسْبُوقةً بعلاماتٍ وآياتٍ لآثارها تلوحُ كالمنائر هنا وهناك؛ تَحَدَّثُ عن الثباتِ الاعتقاديّ، والتوفُّر الفقيهِ، والاستيعاب لِتُراثِ الأمّةِ العلميّ، مع الاجتهاد والإصابة وما سارَ فيه من خُطواتٍ في ذلك على آثارِ مَنْ سَبَقَهُ من نُبغاء وعارفين، حتى وافى سابقاً يلحَقُ هؤلاءِ ويمتازُ على أولئك.

وكذلكَ عَوّلْتُ على أنْ ألْتمِسَ في الفقهِ الاسْلاميّ — من حيثُ هو مادّةُ الفِكْرِ العربيّ في اجتهادِهِ وفتاواه — وشيجةً لما أرى؛ تَجْمَعُ وتُؤَلِّفُ بينَها وتفردُها، فكانَ ذلك دليلاً يأخُذُ بيدي في الأدبِ إلى الأساسِ الاعْتِقاديّ المتين، من النابتَةِ الأدبيّةِ والبعْثةِ المُحَمّديةِ والقُرآنِ المجيدِ وفَضْلِ الصّحابةِ ونُبوغِ التابعين، ومَنِ انفَرَدَ بالاجتهادِ وانتَظَمَتْ لَهُ فُنُونُ الكتابةِ من بَعْدُ الى عَصْرِ النهضةِ — وقد انْتَظَمَهُمْ ذلك العِلْمُ العظيمُ يَفْقَهُ لهم الحياةَ ويأخُذُ بأيديهم إلى الرِّفْعَةِ والبيانِ(١).

وفي ذلك يَثْبُتُ لنا بِدءاً أنّ مثابةَ الصّلاحِ في أمرِ الأمّةِ يقومُ أبداً من حيثُ بَدَأتْ في انتِظامِ وعْيها وعِلْمها، والاستجابةِ الربّانيّةِ لاستعْدادِها بآياتٍ بينات، وقيمٍ وصفاتٍ توفَّرَتْ لها أدباً، ورَعَتْها دَعْوَةً، ثم اتَّخَذَتْها رِسالةً للعالمين.

* * *

---

(١) من هنا يَبين لنا السرُّ في اضطراب الأدب والتواء النَّقْدِ وضعف اللُّغةِ وابتعاد البيان ودورانِ الأفكارِ في مَسارِبَ ومتاهاتٍ، وذَهابِ الأُدباءِ إلى مغاربِ السياسةِ ومهاربِ الاجتماع وصُوَرِ الضّياع الذي يَحْتويهم بَعيداً عن البيانِ والصواب.

المنهاج

البابُ الأوّلُ في عصر الرافعي ـــ وفيه ثلاثةُ فصول. يحاولُ الأولُ منها أن يجيب على ما يثورُ من أسئلةٍ في علاقة الرافعي بعصرهِ من الناحيةِ الاجتماعية، وكيفَ كانَتْ حياتُه بينَ أبناءِ الأمّةِ في طبقاتِهم ودَرَجاتهم وهَلْ تميّزَ بشيءٍ من ذلك؟! ويُجيبُ كذلكَ عما كانَ عليهِ من حالةٍ سياسيّةٍ وكيفَ كان الرافعي ينظرُ إليها أدَباً ومُمارسة، وكيفَ تسامىٰ قوميًّا على الاتجاهاتِ والأفكارِ فيها. ثم يلتَفِتُ ليصِفَ الحياةَ الثقافيّة والفكريّة التي عاصرها الرافعي بأدبهِ ويَبين عن مدىٰ تفاعُلهِ مَعَها وكيفيّةِ أخذِهِ واختيارهِ لأنوارِها وأسرارِها.

ويوجزُ الفصلُ الثاني حياةَ الرافعي ـــ وقد وافىٰ بفرائدِ تلكَ الحياةِ ونوادِرِها من حيثُ النشأةُ والتربيةُ، والوظيفةُ والأسرةُ، وما وَقَعَ له في هاتيكَ الجوانبِ كلّها. ويرسِمُ صورةً مختصرَةً لنشاطِهِ في حياتِهِ الأدبيّة، وهَلْ وفاها حقّها من العطاءِ والالتزام؟!

ويعرّفُ الفصلُ الآخر بفنون النثر والكتابةِ عند الرافعي ويَعْرِضُ لأمثلةٍ منها مُلِمّاً بأكبرِ قَدْرٍ مُسْتطاعٍ من تلكَ الأمثلةِ؛ مما جاءَ فِي كُتُبِهِ أو ما يزالُ مَبْثُوثاً في شتيتِ الصحف والمجلّات.

والفصلُ محاولةُ تجديدٍ في المذهَبِ التقليدي ـــ الذي يُعَرّفُ بآثارِ الشخصيَّةِ الأدبية المطبوعَةِ والمخطوطة ـــ باستعراضِ ما في تلكَ الآثارِ من فنون الأَدَبِ؛

يعرضُ للمقالةِ بأنواعِها وأغراضِها، والرسالةِ بألوانِها، والبحثِ والدراسةِ والتحقيق، ثم التاريخِ والقصّةِ، فالقصيدةِ النثريةِ والآبدةِ، وهَلْ كانَ للرّافعيّ امتيازُ مَعْرِفةٍ وبيان فيها؟

أما البابُ الثاني فإنَّهُ دراسةٌ تطبيقيّةٌ في « الرافعي الكاتب » بين المحافظةِ والتجديد وفيه ثلاثة فصول أيضاً :

يحاولُ الأوّلُ أن يَدْرُس الكتابةَ عند الرافعي في جوانبها الفنيّةِ والنفسيّةِ فيعرِّفُ بهِ ـــ أديباً ذوّاقة، نَهَلَ عِلْمَهُ ومعرفَتَهُ بطريقتهِ الخاصّة، وكيفَ توفر على ذلك بصبرٍ حليمٍ وجَلَدٍ كريم. ثم يبينُ كيف انطَبَعَ على غِرارٍ من البيانِ جَعَلَ منه المُنْشِئَ المكينَ، وكيفَ تحوَّلتْ به الحياةُ الأدبيّة والفكريّة فكانَ الأستاذ الثبْتَ في التأليفِ والتصنيفِ، وكيفَ عَادَتِ الأيامُ لتجعَلَ منهُ الناقدَ القويمَ الذي امتازَ بالعلْمِ والفهمِ والتوجيهِ السَّديدِ،... حتّى يحاولَ صفتَهُ وكيفَ أضحىٰ ذا مذهب في الأدَبِ أحقّ بالاقتداءِ!. وماذا يُؤْخَذُ عليه؟!

ويعرضُ الفصلُ الثاني لموضوعاتٍ مُحْدَثةٍ في أدبِهِ، بدراسةٍ تَسْتَنْبط مَضْموناتٍ اعتقاديّةٍ في أمّهاتِ المسائل الانسانيّةِ والقوميّةِ التي ساهَمَ فيها بأدبهِ وفنّه. وكيفَ رسمَ مذهباً للسّموّ والإخْلاصِ في الحبّ كأنَّهُ يُجدّدُ دينَهُ؟.. وكيفَ وافىٰ العربيةَ في نَهْضتها القوميّةِ بمادةٍ اعتقاديةٍ صوَّرَها في رِفْعَةٍ وعَلاء.

ثم كيف نَظرَ في الاجتماع تلك النظرةَ التي ناقَشَ فيها المذاهبَ المحدَثَةَ والأفكارَ الجديدة ليثبتَ فَضْلَ النظامِ الاسلامي وسُموَّ الدين الحنيف،... وهَلْ وفّق في ذلك كلّه؟!

وفي الثالث رحلةٌ في الضميرِ العربي عنده، وكَيْفَ تميّزَ بدعوتِهِ واجتهادِهِ.

وكُلُّ الفصولِ ومباحثُها تحاوِلُ أن تأتي بحيثيّاتٍ جديدةٍ وفريدةٍ

ـ غيرِ التي دَرَجَ على إيرادِها المهرِّجون[1]ـ تكشِفُ عن كثيرٍ مما انْبهم من أمرِ الرافعي مع بعضِ أدباءِ عَصْره.

ومن بينِ هذه الدراساتِ تبرزُ منزلةُ الرافعي الكاتبِ الأديبِ المحافِظ على العربية وأسرارِها البيانيّة، المجوّدِ لأساليبِ التعبيرِ والانشاءِ والكتابة.

مصطفى نعمان البدري

---

(١) من هنا يبين لنا السر في اضطراب الأدب والتواء النقد وضعف اللغة وابتعاد البيان ودوران الأفكار في مسارب ومتاهات، وذهاب الأدباء الى مغارب السياسة ومهارب الاجتماع وصور الضياع الذي يحتويهم بعيداً عن البيان والصواب.

تمهيد

الأدب والفكر

من المفارقات الواردة في تاريخ الفكر العربيّ أنّ كلمة « أدب » قد تَقَلّبتْ على أدوار لُغويّة من وزْنِ الأخلاقِ والاجتماعِ على الدينِ ــ النظام، والقيام على التّعليم بالرواية والنّسَبِ وفقهِ اللّغة، حتى نَزَلَتْ منزلةَ الحقائق العُرفيّةِ بالاصطلاح[1].

ولكن لم تكدْ تَنتَصِفُ المِئةُ الرابعة الهجريّة حتى كان لفظُ « الأُدباء » قد زال عن العُلماء جُملةً، وانفردَ بميّزتِهِ الكتّابُ والشعراء، ولم يَزَلْ كذلك مُبْتعداً عن معناه الوثيق الذي أُريدَ له في القرآن مَثَلاً يُقتدىٰ به، وهَدَفاً يُتَطَلَّعُ إليهِ، وغايةً يرنُو إليها المؤمنون، ويتوسَّلُون بها على شرفِ الاعتقاد وإرادة الحياة.

وقد كان للأدبِ معنًى يكادُ يَسْتَوعِبُ نَشاطَ الفكر الانساني، ويفقَهُ العلوم والمعارف جميعاً[2] ولكنّه ما برحَ يَضْؤُلُ في مفهومِهِ الخطير

(١) الرافعي ــ تاريخ آداب العرب ١ ــ ٢١

(٢) أحمد حسن الزيات ــ في أصول الأدب ــ ١١

هذا عندَ المؤرخين والنقاد ـــ ولا سيما المحدثين حتى كاد يقتصرُ اليومَ على الشعر والحديث من حوله حَسْبُ، أو ينفرطُ فيتابع « القصة » يدورُ في أفلاكها المُتطايرة، أو ينتشر مع مسالِكِ المُتَمَشْرِقين والمُسْتغربين في مختلفِ الاتجاهات.

* * *

علوم العربية والفقه

ولو أردنا أن ندركَ أثرَ القرآن في الفكرِ العربيّ بجوانبهِ المتعدّدة، ومجالاتهِ التي تَتّسعُ مع الأيام، لكانَ لنا في نهضةِ الآداب وفنونها والروايةِ والنقدِ والجرحِ والتعديل وعلوم اللّغة وفُنون البلاغة وصور البيان، دلائل وعلامات تَهْدي السائرين.

لقد كانتْ عُلومُ العربية كلّها، في نحوِها وصرفها وقواعِدها الأخرى اندفاعات قوميةً في سبيلِ ثباتِ فقه القرآن والإلمامِ بأحكامِهِ، ومن هنا ندركُ أنّ تلكَ العُلوم والفنون لم تَتَمَثّلْ في علمٍ من العلومِ أو فنّ من الفُنون كما تمثَّلَتْ عِرفاناً عمليًّا في الفقهِ الاسلامي للقرآنِ العظيمِ والحديثِ الشريفِ واستيعابِ الحياةِ للأُمّةِ نفسِها.

ولَو نظرنَا في صفحاتِهِ الوِساع من الرأي والاجتهادِ والفُتيا، وتأمَّلْنا في أصوله وفُروعه، وعاودنا المُتون والشروحَ والحواشي والمُعْجمات، لبرزَتْ لنا هذه الحقيقةُ ظاهرةً لا تكَادُ تَفْلِتُ فيها صِفَةٌ في حرفِ جر حتى تُسْتدركَ بصورةِ حكم،... ولتبيّنَ لنا كيفَ فقهَ المجتهدون العربيةَ، وكيف أفادوا من آدابها، وكيفَ استقامَتْ لهم أدواتُ البيان

في الآياتِ وبلوغِ الأحكامِ في النصوص، وكيفَ أتىٰ لهم من ثمَّ اسْتنباط الفتاوىٰ وانتظام الأحكام[1].

الفقه والفكر : وإن نحنُ تحرّينا إرهاصاتِ الانبعاث المحمّدي في الأمة فَلَسَوْفَ نقِفُ على حقيقةٍ في بوادر الوعي القومي عندَ العربِ تمثّلتْ في وَقْدةِ الأذهانِ وجَلاءِ الخواطرِ وانثيالِ الأفكار وبرزَتْ واضحةً في ذلك البُحران الذي عاشَتْهُ الأُمّة، وكيفَ جاءَ في البعثِ الأديبِ والبحثِ الأريب لفقهِ الحياةِ والتثبّتِ فيها مع القيم والأعرافِ والمروءات.

وقد نرى كيفَ سما الإسلامُ في الاستشرافِ بالوسائل، وجَعَلَ الهيامَ بالأهدافِ شهادةَ حُسْنِ الاعتقاد، وكيفَ تقدَّمَتِ الغاياتُ للأُمَّةِ فكانت بحقّ خَيْرَ أمةٍ أُخرِجَتْ للناس، لا حَيَدَ لها عن الصراط، مما لم يُؤثر مثلُهُ عند أمة نالَتْ حظاً كالعرب!..

والنبيّ الأُميّ محمد ﷺ الذي أقرأه ربُّه الأعلى، هو المثالُ الثابت للأُمّة كلّها، بل هو الأسوةُ الحَسَنة كما قالَ القرآنُ تسمو به الحقيقةُ نفسُها ويَتَساموٰ معه العرب أجمعون ــ وقد أدَّبَهُ الرحمن فأَحسَنَ تأديبَهُ، وآتاه جَوامِعَ الكلِم، وعلَّمَهُ من البيان ما ظهر به على النُّبوات والدَّعَوات، وحَسْبُهُ أن يتلقّى القرآن من لدنِ عليمٍ خبير بلسانٍ عربي مبين ليكون هدًى للناس، وفقهاً للحياة، ونِظاماً للانسانية ورسالةَ اللهِ الى خلقِهِ أجمعين.

وقد كان لفُقهاء الصحب والتابعين موافقاتٌ في ذلك العلم الأثير

---

(١) نعى النقاد على بعضِ الأدباء التزامهم قواعد العربية، ونعتوا آثارَهم بشعرِ الفقهاء!!

ـــ الأدب وميادينه تجلّتْ في أروعِ بيانٍ من الحكمةِ والعدلِ، فِقهاً للدّين، وفهماً واثقاً للعلمِ والاجتماع، واستيعاباً لمفهوماتِ الحياةِ الفكريّة بجوانبها الاعتقادية كافة.

الاجتهاد : وكان للمجتهدين من بعدُ التحرّيَ الدقيق والتثبّت الوثيق في دراسةِ اللُّغة وآدابها أمام الفقه وأصوله والتفسير وميادينهِ والحديث وروايته وإسناده، ومرافقةُ الأعرابِ في البوادي، وفيهم الإمامُ محمد بن إدريس الشافعي، ذلك القِمّةُ العالية في الفِكر العربيّ ما طاولتها قِمّةٌ في الفكر الانسانيّ كلّه، فقد حفِظَ أشعار الهذليين ورواهَا، واختلَفَ على الأمصارِ وأنشدَ الشعر وقال في الأدب :

ولولا الشعر بالعُلَماء يُـزري لكنتُ اليومَ أشعَرَ من لبيد

وكانَ له الفقهُ الذي يَسْتَوعبُ المعرفةَ بآفاقها، ويُهَيمنُ على الواقع بإدراكِ مقوّماته مهما استدارَتِ الأيام، وله اللّغةُ بما فيها من المتانةِ والقوةِ ما يَجْعَلُ من بيانِها أساساً متيناً للحكْمِ ومحصلةً فريدةً للتشريع وأسلوباً ينتظم الفقه بأدبٍ، حتى دُعي بحقّ أديب الفقهاء وفقيه العلماء، الى جانبِ ما امتازَ به من عُروبته الوضحاء وإصابتهِ في الاجتهاد[1].

وكذلك كانَ الإمام الممتحن أحمد بن محمد بن حنبل ـــ وقد تفرّدَ بما امتازَ به الشافعيون من اتّقادِ الذّهنِ والاجتهاد، مع الأخذ والمتابعة في جَوّ الحديث الشريف.

(١) حسبُنا أن نقفَ منه على (الرسالة) مقدمته في الفقه وأصوله، لنصدُقَ أنفُسَنا في ذلك، ونعودُ ننظر في فقهِ الشافعية من وجيز الغزالي وشرحهِ لعبد الكريم الرافعي، ومعجمهما (المصباح المنير) للفيومي، لندركَ ذلك الأساسَ المتين الذي بنينا عليهِ الرأي الجديد.

ثم كانَ من جاؤوا من بعدُ ــ على الرغم من تَعاسةِ أيام السياسة على العرب ــ نخصُّ منهم من كانوا يلُوذون بالسُّنَة المطهرة كالإمام ابن قيم المدرسة الجوزية في الشام وأحمد بن عبد الحليم بن تيمية.

لقد كان أثر الفقه والأدبِ مُتلازمين فيهم لا يكادُ ينهض أحدهما دون الآخر... ومن ذلكَ ما كانَ أثرهُ واضحاً لدى الكتّاب والمُتَرَسّلين منذُ كانَ عبد الحميد الكاتب في آخرةِ عهدِ الأمويين ــ في الشام يضَعُ المنهاجَ لهم ويُحمّلُهم أمانةَ الدَّعْوة الاعتقاديّة. حتّى كان أبو عثمان عمرو بنُ بحر الجاحظ في ثباتِهِ القومي بالبيان، أمام محاولات التسلُّل الشعوبي الأثيم على الأمة واعتقادِها ــ على الرغم من إيثارهِ الحريّة في اعتزاله واختراقه أحياناً[1].

الانبعاث القومي

وكذلك كان ديدنُ الكتّاب والأدباء عِبْرَ ديوان الإنشاء والفَتْرةِ المَظْلُومة حتى بوادر النهضة وانتظام الدراسة الحديثة.

وربما كانَ الإمام محمد بنُ عبد الوهابِ التميمي من أظهرِ المتأخّرين في تحرّي الأساس الاعتقادي في الاجْتِهاد، وفي اعتِمادِه سيرة الرسولِ العربيّ ﷺ مثلاً حقاً في الاجتِهادِ وفقهِ الحياةِ ومعرفةِ الدين القيّم، واستهدافِهِ ــ فيما هَدَفَ إليهِ ــ تحرير الذات العربية بالدعوةِ المُشافهةِ من ثمَّ، وفي رسائلهِ التي حرّرها لأمراءِ العربِ ما يَدُلُّ على ذلكَ الأدبِ القوميّ الذي كانَ عليهِ.

---

(١) لا يذهبنّ عنّا ما للاعتزال من هدمٍ خفيّ لأصول العقيدة.

وإنَّهُ لمذهبٌ في الفكر والحريّةِ بعيدُ المرمىٰ، ثابتُ الخُطى ممتازُ الأخذِ والإثمارِ لو مضىٰ على سَنَنهِ ثائراً هادياً، ولم تتلقّفْهُ أو تلتفّ به بعض السياسات!

هو مطلَعُ النهضة العربية التي تَنْبعثُ بالأصالة وتَسْتكشف ذاتها، على هدىٰ فقهِ مَثَلِها الفريد، وصدىٰ دعوتِهِ الانسانية، ومدىٰ من سيرتِهِ الرفيعةِ حيثُ الأسوةُ الحسنة.

ولم يكد القرن الثالث عشر الهجري الذي عُرف به يبدأ حتّى ظهرَ دعاةٌ آخرون في طولِ البلادِ وعرضِها، وكلُّهم كان نصيبُهُ من العربيّة وعلومها وافراً — على بُعْدِ الأيامِ وتوالي المحن والنوازل. وكانَ أثرُهم في مُريديهم أدباً عربياً فذّاً وإن لم يُتوغّلْ في دراستِهِ بعدُ.

النهضة

لقد كان هنالك من يحاولُ بالأمّةِ النهضةَ، ويعملُ على استعادتها لعافيتِها العلمية وحياتِها الفقهيّة، وصفتِها العربية، ويرىٰ إقالةَ أيامها من العثرات،.. ولكن مرافقاتِ الحال السياسيّة وجوانبَ البيئةِ الاجتماعية، ومجالاتِ الحياةِ الثقافية — لم تكن في المُستوىٰ الذي تمكّنُ للأمة من الانتباهةِ الواعيةِ، والإدراكِ السليم، فكانَت جهودُ الأفذاذِ من العُلماءِ والأدباءِ مُضْنِيَةً لهم.

* كان أبو الثناء الآلوسي يبعَثُ النهضة في بغداد ويستحثُّ على المبادرة، ويؤلّف في فقهِ القرآن العظيم ويتحرّى رُوحَ المعاني في آيهِ الكريم، فيلتفّ من حولهِ فتيةٌ مؤمنونَ وأبناء عارفون وتَضْحىٰ أسرتُهُ مضربَ المثل في العلم والفضل.

* وكان الشيخُ عبد القادرِ الرافعي في الشام يرقى في سلّمِ الذكاءِ والتوفُّر العلمي، ويُدْهِشُ الفُضَلاء من شيوخِهِ في الأزهرِ، حتّى كادَ القضاءُ والإرشادُ يكون وقفاً على النبغاء من أبنائهِ وحفدتِهِ في الديار المصرية والشاميّة، بل حتّى العراق واليمن.

* وكانَتْ أسرةُ الخطيبِ في الشامِ وأسرةُ الحسني في المغرب وغيرها من الأسر العلميّة ذات الفضل والنفوذ في الدولة[1].

وكانَتِ العربيّةُ وعلومُها وفنونها وسيلَتَهُم التي يَسْتشرفونَ بها على الأهداف.

* * *

الحركة السلفيّة

تداخَلَتْ مُنْعَطفات النهضة، وتبادرت منطلقاتها، واكتنف غاياتها وأهداف رعاتها الكثير من صورِ الرأي ووجهات النظر[2] ولكنّها في الحصيلةِ كانَتْ ترمي الى محاولةِ تغييرِ الواقعِ الذي رانَ على الأُمةِ في انحسارِهِ عن التقدّم وتخلّفِهِ عن ركبِ الحضارةِ.

* على أنَّ البحثَ عن مواطنِ الإثارةِ الذي رافَقَ شخصيةَ جمال الافغاني، ووضحَ فيه ذكاؤه[3] قد وَجَدَ في (العُروةِ الوثقىٰ) التي تعلّق بها محمّد عبده، الالتقاء والمناولة والارتياض على الدرسِ والاجتهاد، كما عرف لدى الشيخ طاهر الجزائري مجالَ الدرس والمتابعة من

---

(١) راجع عدنان الخطيب ــ الشيخ طاهر الجزائري ــ ٧١ ورشيد رضا ــ المنار ١٣٤٦ هـ.
(٢) عمر الدسوقي ــ في الأدب الحديث ــ ٦٢/١، ١١١
(٣) عمر الدسوقي ــ في الأدب الحديث ــ ٢٥٢/١

تلامذتِهِ، وحلّقَ بعبد الرحمن الكواكبي في آفاق (أم القرى)،.. حتى حاول رفيقُ العظم كتابةَ التاريخ بأسلوبٍ علمي ومنطق جليل.

* وكذلك لاحَ « منارُ » محمد رشيد رضا الحسيني يدعُو إلى إعادة الخلافة العربيّة، وأقامَ علي يوسف « المؤيد » لضمير الأمة، ورفع مُصطفى كامل « اللواء »، للجامعة وتعهّد صادق الرافعي « البيان » للنهوضِ بشبابِ العربيّة والوعي القومي.

وكان ذلكَ التحرير بادياً من ثمّ في الذاتِ العربيّة — وهي تَلْتَفِتُ في الحركات الأدبيّة، وتنتظمُ في البيآت الاجتماعية، وتنعطفُ مع النّزَوات السياسيّة، وتضطَرِبُ بالمحاولاتِ الأخريات.

وكلُّ أولئك كان أخذُهم من الفقهِ وبَصَرُهم بالعربيةِ يكادُ يتعادلُ مع دعواتِهم « ومَنْ يُرِد اللهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ في الدّين ». الحديث.

* * *

اليازجي — السويدي

* في الوقتِ الذي كان فيه الشيخ ناصيف اليازجي يُحاولُ السّباحَةَ في (مجمع البحرين) بصياغةٍ لمقاماتٍ جديدةٍ يُعارضُ فيها مقاماتِ بديع الزمانِ الهمذاني ومقاماتِ الحريري ويجرِي على طريقتهما مُظهراً براعَتَهُ (المُعْجميَّة) في التكلّفِ، ومُصَوّراً لآخرةِ عهدٍ في آداب العربية، ماضِياً على سبيلِهِ هذاك يحسَبُ التفوُّقَ فيه على أبناءِ عصره[1] كان عبدُ الله السويدي في بغداد يَخْتَطُّ لوُحدَةِ الأمة في فقْهِ الحياة[2] وكان عبدالله فكري يحاولُ في النثرِ ما آثَرَهُ سامي البارودي في الشعرِ من فصاحةِ

(١) الدسوقي — نشأة النثر الحديث — ٤٥

(٢) الرسالة الاسلامية — ١١٤

العرب في عصورهم الزاهرة. وكما أعاد البارودي الرُّواء الى الشعر العربي ــ على حد تعبير الرافعي[1] استطاع فكري أن يُعيدَ الى النثر والكتابة بعضَ رونقها الذي غادرته، وكأنّما كانا على مَوْعدٍ مع القَدَرِ في التَّوْطِئَةِ لنهضةِ الآدابِ العربيّة في مصر، وكما مَهَّدَ البارودي لأحمد شوقي وحافظ ابراهيم في رفعةِ شأنِ الشعرِ العربيّ، كذلك وافق ذلك التمهيدُ هوًى في تعريبِ الديوان، وتجديدِ فنون النثرِ والكتابة.

عبدالله فكري

* كان عبدالله فكري قد ولد في مكةَ المكرمة عام ١٢٥٠ هـ ــ ١٨٣٤ م، ونشأ يتيماً تكفَّلَهُ أحَدُ ذوي قرابته من السادة العَلَويّة[2] وتعلّم في « الأزهر » وسلكَ على الطريقةِ الخَلْوتية، وأتقَن اللّغتين التركية والفارسيّة اللّتين كان لهما شأنٌ في آداب ذلك العهد.

وتدرّج في الوظيفة حتى كان وكيلاً لديوانِ المكاتبِ الأهليةِ برئاسةِ علي مبارك، فوكيلاً للمعارفِ فناظراً لها في حكومةِ محمود سامي البارودي.

وقد رحلَ في الآفاق، ورأى دارَ الخلافة في (اسلام بول) وزار القدس وديار الشام والحجاز، وحضَر مؤتمر المستشرقين في استكهولم عام ١٣٠٧ هـ ــ ١٨٨٩ م.

وعلى ما امتازَ به من ثباتِ الأخلاقِ وحسنِ التديّن، وقفَ منهُ بعضُ المتزمّتين مواقفَ غيرَ حصيفةٍ ــ ولا سيّما في أخذِهِ بدعوةِ

---

(١) المقتطف ــ مايو، أيار ١٩٠٥ م.

(٢) الدسوقي ــ نشأة النثر ــ ١٠٢، الأدب الحديث ــ ١ ــ ١١٧

(المقتطف) لدراسةِ العلوم الطبيعيةِ الحديثةِ، ومخاطرتهِ في إحياءِ البيانِ العربيّ في الكتابةِ، حتى اضطرَّ الى القولِ في مجابهةِ تلك المواقف :

« غايةُ الأمر أنّهم قَضَوْا أرذَلَ العُمر في كُتُبٍ معدودةٍ، وشُروحٍ موجودة، وهم يكرّرونها ولا يَدْرُونَها، ويُقَرّرونها ولا يجرونَها، ويَتَداولونها ولا يتعقَّلُونها، ولو صَرَفَ حِماري هذا العمر فيها لأصبحَ فقيهاً، وأضحى نبيهاً »[1].

وقال : « والذي يُظهرُ مَيْنَهم وشَيْنَهم، وعلامةَ ما بيننا وبينَهم، أن يُؤمَرَ أحدُهم برُقْعةٍ تكتَبُ لحاجةٍ مَعْهودة، ويُمتَحَن بكتابٍ غيرِ هذهِ الكتبِ المعدودة، فيه بعضُ كلامِ العربِ وأشعارِها، وشيءٌ من وقائعها وأخبارِها، فإنْ كتَبَ فصيحاً، وقرأ صحيحاً وفهِمَ مليحاً عَرَفْنا أنّه شَمَّ عَرْفَ العِلْمِ، وذاقَ طَعْمَ الفَهْمِ، وسلّمنا لهم ما يَدَّعون، وتركنا لَهُمْ ما يَأتُون، وما يَدَعون ــ وإنْ ارتَبكَ للرَّقَبَة، ووقف حمار الشيخ في العقَبة، عرفنا حالَهُ... » الخ. إذ يعرضُ لِعَجْزهم عن الكتابةِ أو الإصابةِ ووقوعهم في اللَّحْنِ والخطأ « فانهم لا يُحْسِنون مقالاً، ولا يُعربون عن معنى، ولا يَتَصَرَّفُونَ في فنونِ الكلامِ ».

وكان عبدُالله فكري شاعراً بخُطُورةِ الدَّعْوة التي جاهرَ بها آنذاك، واستطاعَ أن يَسْتَردَّ بأسلوبهِ الديواني للّغةِ العربيّة مكانَتَها في المُراسلاتِ الإداريةِ، تلك المكانة التي فَقَدَتْها عدّةَ قرون[2] وتوخّى الفَصاحَةَ

---

(١) العبارة التي استشهد بها الرافعي في خطبة له، راجع العريان ــ حياة الرافعي ــ ٢٦٩ وقد حدثني بتفاصيل الموضوع حسنين حسن مخلوف.

(٢) نشأة النثر ــ ١٠٢

والأُناقَةَ في الأسلوب، ولم يذهب تقليدُه لرؤساءِ ديوان الإنشاء بشخصيتهِ وطابعهِ، ولم يَأسِرْهُ البديعُ ومحسّناتُه فيذهبُ بمعانيه[1].

وهو بعمَلِهِ هذا أعَدَّ التهيئَةَ التي لا بُدَّ منها للانتقالِ بالكتابةِ الى الحركة التي تقدّم بها الإمام محمد عبده في معالجتهِ لبعضِ العيوب الاجْتماعيّة[2] وفي تحريرِ للوقائعِ المصريّة في أوّلِ القرن الرابع عشر الهجري؛ إذ تجرَّدَ من القيودِ اللّفْظيّة في السجع والمحسنات البديعية، فمهد بذلك الطريق أمام الكتّاب ليتحرروا هم أيضاً من تلك القيود[3].

مخمد عبده

على أنّ الإمام كانَ يظهَرُ بأسلوبِ آخر يَحْتَفِلُ فيهِ بعبارتهِ وتصويرِ مشاعرِهِ تصويراً فنيًّا في رسائلهِ الإخوانيّة وتقاريظهِ، يدُلُّ على ذوقٍ أدبيّ وتمكُّنٍ من اللّغة وعلى أنه ذو موهبةٍ شِعريّةٍ تمدُّهُ بالخيالاتِ الطريفةِ والصورِ البيانيّةِ الجميلة[4].

وقد يعزو الإمام ذلكَ التطوُّرَ والاجادةَ في الكتابةِ ــ على ما يَزْعُم عبد الرحمن الرافعي[5] الى الأفغاني وأثرِهِ في العصر. فقد كانَتْ له يَدٌ في إصلاحِ التعليم في الأزهر، ومشاركة في النهضةِ الوطنية، وكان يُوقِن أنّ اللّغةَ مادةُ البلاغة وجمال التعبير يشغَلُهُ إحياء اللّغة مادةً وعلماً، ودراسة وكتابة. فكان يعُينُ جماعةَ إحياء الكتب العربيّة بعلمه ووقته

(١) الأدب الحديث ــ ١٢٦/١
(٢) نشأة النثر ــ ٦٢
(٣) محمد عبد الغني حسن ــ عبد الله فكري ــ ٩٢
(٤) نشأة النثر ــ ٦٨، الأدب الحديث ١ ــ ٣٨٦
(٥) عبد الرحمن الرافعي ــ جمال الأفغاني ــ ١٨

وماله ونفوذه، وكان ينشر أمثالاً من البلاغة السلفيّة ويشرحها بقلمه، أو ينوّه بها في دروسه وتفسيراته[1].

وكان مَذهبُه في ذلك « تحصيلُ مادةِ اللّغة لتحصيل الملكة؛ لأن دقائقَ الفصاحةِ والبلاغةِ وبراعةَ التعبير تحيي الفهم، فالكلامُ البليغ سَهْلٌ على الفطرة وانما يأتي بالمُبالغةِ مَنْ كانَ مجازفاً في رأيه »[2].

الرافعي

وربما كانَ هذا المذهبَ الذي لقفه صادق الرافعي وآثَرَهُ فيما بعدُ، كما سيلوحُ لنا في الدراسةِ التالية، فقد أعجبَ بالإمامِ، وما فَتِئَ يُطري نعتَهُ الى آخر أيامه؛ امتدحه في شعره[3] ونَحَلَهُ حديثَ « البيان » الأول[4] ثمّ عادَ إليه بعد ذلك بسنين يَطيفُ عليهِ في ظُلَلٍ (السحاب الاحمر)[5] وافتقَدَ فيه صورةَ الإمَامِ الذي يجتمعُ إليهِ العصرُ بصفاتِهِ[6] وترحّمَ عليهِ حين حالَ العصرُ في آخرةِ أيّامِهِ، وقد أضحى فيه من هو « أبو حنيفة ولكن بغيرِ فقه، والشافعيّ ولكن من غيرِ اجتهاد، ومالك ولكن بغير رواية، وابنُ حنبل ولكن بغيرِ حديث » قال: فمنذُ ماتَ محمد عبده رحمه الله جرَتْ أحداثٌ ونَشَأت رؤوس، وزاغَتْ طبائع وكأنه لم يَمُتْ رَجُلٌ، بل رُفع قرآن[7].

---

(١) عباس محمود العقاد ـــ محمد عبده ـــ ٢٦٧
(٢) عباس محمود العقاد ـــ محمد عبده ـــ ٢٦٨
(٣) ديوان الرافعي ج ١، ٢، ٣
(٤) البيان ـــ شعبان ١٣٢٩ هـ ـــ ١٩١١/٨ م
(٥) السحاب الأحمر ـــ ١٤٧
(٦) الزهراء ـــ ربيع الأول ١٣٤٧ هـ
(٧) الرسالة ١٩٣، وراجع الدسوقي ـــ الحديث ٢٩٢

كان هنالك كتّابٌ يَتَشَبَّثُون بالأسْجاع والمُحسّنات البديعيّة بعد ذلك التاريخ منهم عبد العزيز جاويش وحفني ناصف وحسن السندوبي وأحمد فؤاد، وقد دافع حفني عنها بمقالةٍ معروفة[1] قال فيها:

« أخذوا في ذَمّ السَّجعِ والمُقَفّى، وأطلَقُوا القولَ في تهجينه، وضلّلوا المتقدّمين من المُنْشئين وأئمة الأدب وفُرسان البراعةِ، ولا أقول إنَّ ذلك ناشئٌ عن عجزهم وقلّة بضاعتهم في هذا الشأن، بل أقولُ إنّ هذا إطلاقٌ في مقامِ التقييد وإرسالٌ للعِنان في موضع الإمساك، وإجمالٌ في ساحةِ التفصيل، والحقّ أن لكلّ مقام مقالاً، وأن السَّجْعَ والتقفية قد يُلبسان القولَ حُسناً، ويكسبانهِ رونقاً،..

وحسبُنا ردُّ الإمامِ على إحدى رسائِله بقولِه في أدبٍ وظرفٍ كالذي يُوهِمُهُ بتورُّطِه في السَّجع إذ يقول:

تَسْجَعُ لي في كتابِكَ، وتطمَعُ أن أسجَعَ لكَ في جَوابك، كأنكَ لم تَسْمَعْ أنّي تُبْتُ من السجع، حتى لو ساق إليهِ الطبع، فماذا أصنَعُ بك وقد نقضتُ تَوْبتي بأدبك »

★ وكان ابراهيم اليازجي يتصيَّدُ شواردَ اللّغة، ويَنْتجعُ للرّائد ويُشرع للوارِدِ في المترادفِ والمتوارد من ألفاظِ العربية وتراكيبها، وما يفتأ في أسلوبهِ يَسْجَعُ برسائلهِ ومُقدمةِ مقالاته[2] ويحاول الرُّقيَّ بلُغةِ الصحف بالتّنبيه على أغلاطِ المولدين. ثم استجابَ لدعوة الإمام، فراحَ يتخلّصُ من الأسجاعِ شيئاً فشيئاً، ويتحلّلُ من قيود المحسناتِ اللّفظية، ويرسلُ الكلام على الطبعِ والسجيّة إرسالاً[3].

(١) نشأة النثر — ١٢١
(٢) عيسى ميخائيل سابا — ابراهيم اليازجي — ٢٤
(٣) عبدالله فكري — ١٥٢

ولو نظرنا في مؤلفات القوم آنذاك وبَصرنا بالإنشاءِ في فنُون الكتابةِ والنشر، لأدركنا هذه الانعطافةَ الحميدةَ في الأسلوبِ البياني عند سائر المُعاصرين، حتى كان الجيلُ البياني الذي أعادَ إلى النثرِ العربي سيادَتَهُ، ووفَّرَ للكتابةِ العربية حياةَ الإلهام.

أصحاب الأسلوب

ولنا أن نَشهَدَ مصطفى لُطفي المنفلوطي في « نظراتِهِ وعَبَراته »، وحسن السندوبي في « ثمراتِهِ » وأحمد فؤاد في « صاعقاتِه » ثمّ نمضي فنتملّى كتابةَ عبد العزيز البشري وأدب الرافعي ونَثر أحمد حسن الزيات ومقالةَ عادل الغضبان لنبلغ هدفاً في حقيقةِ ذلك الأثر في تحوُّلِ الأسلوب وتطوّر النثر، ونلمس السنة الحميدةَ التي انعطَفَ بها عبد الله فكري، ومكَّنَ لها الإمام محمد عبده، وسارَ بها من سارَ في أساليب البيان والوضوح والامتياز ما هي أهلٌ له ولرفعة شأنه في ظلال لُغة القرآن الكريم وتحتَ رايةِ الفقه العظيم.

معين الفقه

إن أولئك جميعاً كانوا ينْهلَون من معيقِ الفقه وأصولِه، ويغترفون من عُلوم العربيّة وفنونها التي تعينُ على فهمِ الفقهِ والاجتهاد في جوانبهِ، وإدراك الفتيا في مسائلهِ وقضاياه.

ومن هنا كان توفيقُهم في الكتابةِ العربية، وبيانُهم في آدابها، وإفصاحُهم في بلاغاتِها.. حتّى استطاعوا أن يُحَملّوا الأدب الحديث رسالةَ الفكر التي هي ابنةُ الفقه، ويكرّموهُ بالعَطاء الاعتقادي؛ ليذهبَ في السياسة والاجتماع مذاهبَ التوفيق والموازنةِ، أو الافتراق والمقارنة

ـــ على ما هو وارد في أمهاتِ الكتب التي دَرَسَتِ الأدب الحديث في فنونه وأعلامه، وإنْ فاتَتْهم الوسيلةُ فقصرت بهم الحيلة فانما ذلك من أثر العصر وتباعُدِه عن هذه الحقيقة.

البناء الاعتقادي

وهكذا استطاع الرافعي أن يمتاز على معاصريه بأدبهِ الاعتقادي وبيانِه الفريد، ويُعرف بأسلوبهِ الخاص، ويتقدم بموضوعاته ومخترعاتِهِ في فنون الأدب والكتابة، كما سيظهر في الدراسة جَليا.

كان التحوّلُ بأسلوب الآداب من طبيعَةِ الحياةِ الوليدة ظاهرةً جديرةً بالأخذ والتوسُّع فيها فهماً وعلماً، وقد تألَّفُها جيلٌ سبق الرافعي في الزمن، ودلّهُ على المحجَّة في ذلك، وإن تبايَنَ أخذُ رجالِهِ، فقصَّر في ناحيةٍ، ووُفّق في نواحٍ أخرى، وجلّى أمامه خلالَ المذاهب والأذواق والمواجد.

وكذلك كان التحوّل والانتقال بموضوعاتِ الأدب وفنونِهِ يأخذُ ما تراءى له من قيم وأعراف، ويتأثّرُ بظاهرات الاجتماع الجديدِ، ويتفاعَلُ مع الأحداث ويُشبههُ بعضَ الشيء في الحركةِ الفكرية والاعتقادية.

ولو جُلْنا في موضوعاتِ الكتابة وميادين النثر، ومُطارحاتِ الأقلام، وعبر الأيام وفلتاتِ الآراء وازدحام الأفكار ومُوافقات الحياة،.. لألفينا ما يروُعنا من ذلك التحول، ولاغْتَبَطنا بما يُعجبُنا من تطوّرِ المثال الأدبي، ولا سيّما في فنونِهِ المُحدثة في المقالةِ بأنواعِها، والرسالةِ بأهدافها، والتاريخ بأوضاعِهِ، والبلاغة بأشيائها، ولتصوّرَ لنا العصرُ ماثلاً بذلك كلّه.

امتياز الرافعي

ثم إذا ما انقلبنا الى الرافعي الأديب، وتقلَّبْنا مَعَه في مراحل تطوره الفكري، ومذهبه وأسلوبه، ووقفنا على فنُون أدبهِ، فَلَسَوْفَ تَتَّضحُ لنا صورةُ العصر، وسوفَ تتجلَّى أمامنا تلك الآثارُ جميعاً في حُريَّةٍ واغتباط.

الباب الأول

مصطفى صادق الرافعي

حياته وآثاره

الفصل الأول

الرافعي في عصره

تمهيد

لقد عاشَ الرافعيُّ في فترةٍ من عصر ازْدحمتْ فيهِ صُوَرُ التحوّلِ المَصيري للأُمم، وتبدّلَتْ فيه كثيرٌ من مفهوماتِ الفكرِ والسياسةِ والاجتماع، واشتبكَتِ الآراء تَبَعاً للحريّاتِ التي وافَتْ مع الحضارةِ الجديدة، وتوزَّعَت المذاهبُ وسلكَت الأقوامُ طرائقَ متعددة في الحياةِ العصرية تأخذُ منها ما تأخذ، وتدَعُ ما سوى ذلك.

زادَ اتصّالُ الغربِ بالشرقِ، واشتدَّ اهتمامُه بهِ، وانفتحَتْ في كليهما أبوابٌ تُطِلُّ على ميراثِ الآخر، وتسابَق العالم في العطاءِ والعرضِ، والتطلّعِ الى الآفاق، بما كانَتْ تمتدُّ بهِ عواملُ النّهضةِ من مُخترعاتِ العلُوم ومبتكراتِ الفنون[1]

ولعلَّ من أخطر الأشياءِ التي أثرت في الرافعي وطبقَتِهِ من أدباءِ العصر، تلكَ العوامِلُ والأحداثُ التي كان لها في آثارِهم صورةُ مواقفَ

(١) راجع الاسكندري ـــ المفصل ٢ ـــ ٢٨٥، والدسوقي ـــ في الأدب الحديث ١ ـــ ٦٢.

وأحوال، تَتفَّقُ لهم فيها الآراءُ أو تختلفُ تبعاً لما هم عليهِ من تقبُّلٍ أو رَفْض.

* * *

ولد الرافعي في « بَهْتيم » — قرية في القَليوبيّة، في بيتِ جَدّهِ لأمه، وبهتيم يومئذ ريفٌ جميل، وتنقَّلَ في طفُولته ما بين دمنهور والمنصورة وكفر الزيات، حتى استقرَّ المقام بأبيهِ الشيخ عبد الرزاق الرافعي — كبير القضاة الشرعيين في « طنطا » ذات المكانة الخاصة في نفوس السالكين من أصحاب الطرق والذين يَدّعون العِرفان؛ يؤمُّونها من آفاقِ الدنيا ويجاورون فيها أياماً، أو يختلِفُ بعضُهم الى « المعهدِ الأحمدي » الذي كانَ يضارعُ الأزهر يوماً ما[1].

أ — البيأة الاجتماعية

في تلك البيأةِ الاجتماعية التي هي أقرَبُ ما تكونُ الى السَّوادِ الأعظم من أبناءِ الأمّة منها الى الطبقاتِ المتميّزة بالثراءِ والجاهِ والسلطان، نَشأ الطفلُ الأريب مصطفى صادق الرافعي، وفي حارةِ سيدي سالم الضيّقةِ المُلْتوية قضى مدَّةً ليسَتْ بالقصيرةِ من يَفاعته[2].

وكونُهُ من أبناءِ الفقهاء، ومن ولْدِ الأُسَر الشاميّة في القطرِ المصري، فقد اعتصَمَ بأدبٍ خاص وتربية مُتَميزة بعضَ التمييز — يحمي نفسَهُ من الاندفاعِ في مَسارب الحياة، أو غشيانِ مجالاتٍ أخرى في الاجتماع، مما كان أثرُهُ واضحاً في إعداده، وربما تحكَّمَ في مُيولِهِ ونزَعاته في

(١) العريان — حياة الرافعي — ٢٦٨
(٢) العريان — هامش — ١٣

وقتٍ مبكر من شبابهِ. فقد ألفَ الصُّورةَ التي كان يُدِلُّ بها على أقرانِهِ بالاخذِ في مضمار المدنيّةِ الحديثة من حيثُ الدراسةُ في المدارسِ النظامية الحديثة، فلا يُجاورُ في الأحمدي أو الأزهر مَثَلاً. ويألفُ اللّباسَ الروماني في المدرسةِ ثم في الوظيفة، ولكنّه يتخفّف بالعباءَةِ والجلبَاب عند عودته الى داره، وربما خرجَ بهِ الى مَتجر أخيه سعيد الرافعي[1] وقد شُوهد باللّباس العربي في رحلاتِه الى الديار الشامية[2]

غير أنه كان يُتمُّ نقصَ علوم الدراسة الحديثة من الفقهِ والعلوم الاسلامية بقراءة على أبيه الشيخ[3] ويُحدّثنا في « قرآنِ الفجر » عن ليلة القدر التي شهِدَها مَعه في جَوِّ المسجد — وهو في العاشرة من عمره:

« لا أنسىٰ أبَداً تلك الساعة ونحن في جَوِّ المسجد، والقَناديلُ معلقةٌ مثل النجوم في مناطِها من الفلكِ، وتلكَ السُّرُجُ ترتعشُ فيها ارتعاشَ خواطِرِ الحبّ، والناسُ جالسون عليهم وقارُ أرواحهم، ومن حولِ كلّ إنسانٍ هدوءُ قلبهِ،..

لا أنسىٰ أبداً تلك الساعةَ — وقد انبعث في جَو المسجدِ صوتٌ غَرِدٌ رخيمٌ يَشُقُّ سُدْفَة اللَّيلِ في مِثل رنَين الجَرس تحتَ الأُفُقِ العالي، وهو يُرتّلُ هذهِ الآيات من آخر سورة النحل:

﴿ أُدْعُ الى سَبيلِ ربّكَ بالحِكْمةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ، وجادِلْهم بالتي هي أَحْسَنُ، إنَّ ربك هو أعلَمُ بمَن ضَلَّ عن سبيلهِ، وهو أعلَمُ بالمُهْتَدين * وإنْ عاقَبْتُمْ فعاقِبُوا بمثلِ ما عُوقبتُم بهِ، ولئِنْ صَبَرْتُم لَهُوَ

(١) حدثني بذلك حمزة الحسيني خادمه الخاص

(٢) رواه لي رجل في فندق « المنظر الجميل » في بحمدون بلبنان.

(٣) الرافعي — الهلال — يناير ١٩٢٧ م

خيرُ الصّابرين * واصْبِر وما صبرُكَ إلاّ بِالله، ولا تحزَنْ عَلَيْهم، ولا تكُ في ضَيْقٍ مما يمكرُون * إنَّ الله مع الذّين اتَّقَوْا والذينَ هُمْ مُحْسِنُون ﴾.

وسمِعْنا القرآنَ غَضًّا طريّاً كأوّلِ ما نَزَل بهِ الوحي، فكانَ هذا الصوتُ الجميلُ يَدورُ في النَّفْس كأنّهُ بعضُ السِّرّ الذي يدورُ في نظامِ العالم، وكأنَّ القلْبَ ـــ وهو يتلَقّى الآياتِ كقلْبِ الشَّجرَة يتناول الماءَ ويكسوها منهُ.

أما الطفلُ الذي كانَ فيَّ يومئذٍ، فكأنما دُعي بكلٍّ ذلك ليحملَ هذه الرسالةَ ويؤدّيها إلى الرَّجل الذي فيهِ من بعدُ. فأنا في كل حالةٍ أخشَعُ لهذا الصوت: ﴿ أدعُ إلى سبيلِ ربك ﴾، وأنا في كلّ ضائقةٍ أخشَعُ لهذا الصوت: ﴿ واصبرْ وما صبرُك الّا بالله ﴾[1].

كتبَ هذا في آخرةِ أيّامهِ كأنَّهُ يُحدّثُ مؤرّخَهُ بخاتمتِهِ، ويَدُلُّه على أوّليتِهِ، ويودعُ هذه الفانية،.. على أنّه بينهما كان العربيُّ المسلم الذي يتفاعلُ مع العصر في أفراحِه وأتراحه، ويَسْتَلْهم موحياتِه ومعانيه، ويبصِرُ في مغرياتِهِ، فيَغْشىٰ دورَ اللّهو كالسيما والأسواقِ الخيريّة، ويشهَدُ مبارياتِ المدارس الرياضية، ومعارضَها الفنية[2] ويحتفل في بيتِه بالأيام والمواسمِ والأعيادِ التي يحتفي بها أبناءُ الأمة.

وقد يجتلي العيد بمثل قوله:

« خَرَجْتُ أجتلي العيد في مَظْهرِهِ الحقيقيّ على هؤلاءِ الأطفالِ

---

(١) الرسالة ١٨٧، وحي القلم ٣ ـــ ٢٩.

(٢) من حديث الحاجة زينب ابنته.

السُّعداء، على هذه الوجوهِ النَّضِرةِ التي كَبُرت فيها ابتسامات الرّضىٰ، فصارَتْ ضحكات، وهذه الأفواه الصغيرة التي تنطِقُ بأصواتٍ لا تزالُ فيها نبراتُ الحنان من تَقْليد لُغَةِ الأم، وهذه الأجسام الغضّة القريبة العهدِ بالضمّاتِ واللَّثمات ـــ فلا يزال حولَها جوُّ القلْبِ، على هؤلاء الأطفال السعداء الذين لا يَعْرفون قياماً للزّمنِ إلّا بالسرور، هؤلاء المجتمعين في ثيابهم الجديدة المصبَّغةِ اجتماعَ قوسِ قُزَح في ألوانِه.. إنَّ لسانَ حالهم يقولُ للكبار:

أيّها الناس: انطَلقوا في الدُّنيا انطلاق الأطفالِ يُوجدون حقيقَهم البريئةَ الضاحكة، لا كما تَصنَعون إذْ تنطلقون انطلاقَ الوَحْشِ يُوجدُ حقيقتَهَ المفترسة »[1]

أو هو يصِفُ تحوّلَ السيرةِ والذكر عبادةً في مثل تقريرِهِ الذي وفىٰ به المولد النبوي، والاحتفال فيه حين قال:

« لمّا لحقَ « ﷺ » بربِّهِ كانَ مدحُهُ في القرآن الكريم، وكان ذكرهُ في الصلواتِ الخمس، ونهج الدين والعلم من قولِهِ وعَمله، فلم يكن مع ذلك حاجة لصفةِ شاعرٍ أو مدحٍ متكلّف،.. وخرج الأمرُ من أن يكونَ خيالاً وصِناعة »[2]. وأرادَ أن يكونَ ذلك قد صار الى الفقهِ وقانونِ الدين، قال: ثم ظَهَر التشيُّع لآل البيت، وتعصَّبَ لهم طائفةٌ من الشعراء، فكانوا يَرْثُونَهم ويمدحونهم ويَنْدِبون، ويَنْحَوْن بشيءٍ من الصفاتِ والأخبارِ النبوية حتى كانَتْ دولة (الفاطميين)،..

---

(١) الرسالة ١٣١، وحي القلم ١/٣٠

(٢) الحال ١٥ ربيع الأول ١٣٣٧ هـ ـــ ١٩ ديسمبر ١٩١٨ م

على أنّ رأينا في هذا البابِ أن الشعراء لم يَتنبهوا للمديح النبوي إلا بعدَ أن بالغ مظفّر الدين صاحب إرْبِل في الاحتفال بالمولد »[1]

وكانَ قربُهُ هذا من سَوادِ الأمّة قد ضاعف عليه أحاسيسَهُ، وبلغ بمشاعرهِ درجاتٍ قصوى، ظهَرَتْ في التأثّر الذي جالَ في أدبهِ — شعره ونثره، وبدا عليهِ في صورة من الايمان بالقضاءِ والقدر، أشبه ما تكون بفلسفةِ القناعة والرضا، وتسويغ الأحوالِ في كثير من الأحيان مع الثورة على الأوضاع والسُّخْط من المآل الذي يَنْتهي إليهِ بعض الاجتهاد، أو هو يفرطُ أحياناً في التنبهِ للأخطار التي تكمنُ وراءَ البُؤْسِ وصُوَرِهِ المحزنة[2].

التفاوت الاجتماعي

ذلك أنّ محصّلةَ العهود من التخلّف والاختلاطِ قد رانت على الشرق العربي بأسواءٍ وأدواءٍ كان لها تأثيرُها البالغ فيما آلت إليه حياةُ الناس من أوضاعٍ وأمزجة؛ فقد بلغ التفاوتُ الاجتماعي والطبقي حَدّاً كان فيهِ الأجانبُ والمرابون من اليهودِ والروم وبيوتاتِ المال الأوربية هم المُتَمتعينَ بخيرات البلاد، فلا يُصيبُ الفلاّح منها ولا العامل ما يسُدُّ دَيْناً أو يفي بنفقات، أو يدفع غوائل الزمن وخائِنةَ المرض،.. أمام الضرائب التي جَلَبتْها عليهم بعضُ الحماقاتِ المالية التي تورّطَ فيها حاكموهم وولاتُهم لأولئك الأدنياءِ من الأجانب[3].

---

(١) الحال ١٥ ربيع الأول ١٣٣٧ هـ — ١٩ ديسمبر ١٩١٨ م.
(٢) سيرد ذلك في فصل آخر
(٣) محمد صبري — تاريخ مصر الحديث — ١٠٥

إنَّ الرافعي يُسارعُ في تحذير الفلاّح بلسانِ زوجه من أنْ يذكر « الخواجا » أو يرهن على الغيطان والأقطان[1] ويعودُ فيقولُ في حكمةِ تحريم الرّبا مُنبّهاً:

« حكمةُ تحريم الربّا في شريعتنا الاسلامية وقايةُ الأمةِ كلّها في ثروتِها وضياعِها ومُسْتَغلاّتها، وحمايةُ الشعبِ وحكامِهِ من الإسرافِ والتّخرُّقِ والكرمِ الكاذب، وردّ الاستعمار الاقتصادي وشلُّ النفوذ الاجنبي »[2].

ذلك أنّ إهمالِ الحكام « المماليك » والموظفين الأجانب لأبناءِ الأمة، وترك حياتهم ومحصولاتِهم للأنواءِ والآفاتِ، قد أدّى الى ارتباكِ الأسرة نَفْسِها، فلم تعُدْ للانسانِ فيها تلك الكرامةُ التي حَباهُ الله بها، فقد بلغَتْ معاملةُ المالكين للفلاّحين وعمّالهم درجةً لا ترتفع كثيراً على معاملتهم للسُّوامِ من الحيوانات، وكأنّما فقد المرءُ شخصيته، فكان يتزوّجُ ويولَدُ له، وهو لا يرتفع بحياتِه عن المستوى الذي كان عليه الجيلُ السابق له، فكان يقعُ فريسةَ الأوهام بين براثن الدجّالين وأيدي المُبَشّرين وذوي المذاهبِ الوافدة والميول والنّزعات المضطربة.

ومن هنا أراد الرافعي أن يلفِتَ نَظَر الانسان الذي كرَّمهُ الله الى فضيلةِ الحبّ والشعور بالجمال، ويزيّنَ له جهادَهُ في الحياة حتى يظفَر بإنسانيته كاملةً، ويرقىٰ الى مرتبةِ السيّد، فلا يكونُ مستعبداً أبداً[3].

وفي الوقت الذي كان الشعبُ فيه يُعاني من ويلاتِ الحروب في

---

(١) ديوان النظرات ٦٩، أغاريد الرافعي — ٨٣
(٢) الرسالة ١٦٤، وحي القلم ٢ — ٢٨١
(٣) حديث القمر — ٦٩

المشرق والمغرب، وتنقَلِبُ أنواؤها عليهِ جوعاً وبؤساً وتعاسةً، كانَتْ دموعُ ذلك السَّواد الأعظم وآهاتُه تجري معاني في قَلم الرافعي الأديب نظيماً ونثيراً، فلا يَفْتأُ يُرسِلُ الحديث، ويكتبُ المقالَة الاجتماعية، يحاولُ أن يَسْتُرَ عُريَ أولئك، ويبدّلَ مَرْقعة المساكينِ بما يدبّجُه من أدب إنساني[1] يُحسِنُ فيه إليهم، ويمدُّهُمْ بطاقةٍ من الإيمان والصبر والمجاهَدة؛ تجعَلُ ما بينَهم وبينَ مصائبهم مع الحياة حقيقةً إلٰهية يدركها الضمير المؤمن، ويرتق فتقها بتقوىٰ الله فيما له من حقوقهم. وتضحي تلك الصفحات من الأدب الرفيع فيما بعدُ كتاباً لهُ خطره في الاجتماع والاقتصاد معاً، وعند مذاهبِ إرادة التغيير التي يُعوِّلُ عليها في النهضة وإعادةِ بناءِ المجتمع وتنظيم حياة الناس.

ولم تكن الحالُ الاجتماعية مقصورةً على هذا السواد، بل كانَ هنالك بؤسٌ من نوع آخر أدّى فيهِ التّرَفُ الى التخنُّثِ والرقاعةِ والسقوط في الآثام — الخمر والسرقة والزّنا — مما كان يُؤذي الانسانَ ويُوجعُ كلَّ ضمير حيّ، فَيَمْتَشِقُ الرافعي قَلَمهُ ينددُ بتلك التخانيث[2] ويَسْتنكرُ على الوعّاظِ والمرشدين مواقفَهم التي يَغْفَلون فيها عن هذهِ الناحية الخطيرة، من الاجتماع بمثل قوله:

« ما يَنْقضي عجبي من هؤلاء العُلماء الذين هم بقايا تتضاءَلُ بجانبِ الأصل، يبحثونَ في سُننِ النبي ﷺ، كيف كان يأكلُ ويشرب ويلْبَس ويتحدَّثُ، كأنهم من الدنيا في قانون المائدةِ، وآداب الولائم، ورسوم المجتمعات!..

(١) محمد لطفي جمعة — الكتاب ج ١ — م ٣

(٢) أنظر الحال ١٠ يوليو ١٩١٩ م، والهلال مايو ١٩٢٩ م — وانتظر ديوان النظرات.

أما تلك الحقيقةُ الكبرىٰ — وهي التي كان يُقاتلُ ويحاربُ لهداية الخَلْق، وكيف كان يَسْمو على الدنيا وشَهَواتِها، وكيفَ صارَ بطباعِهِ القويّةِ الصريحة تعديلاً فعّالاً في هذه الانسانيةِ للنواميس الجائرةِ، وكيفَ كان يحملُ الفقر ليكسِرَ به شِرّةَ النواميس الاقتصاديةِ التي تَقْضي بجعلِ الأخلاقِ أثراً من آثار السَّعةِ والضّيق، فتخرِجُ من الغنيّ مُتعفّفاً ومن الفقير لصّاً!. وكيف استطاعَ عليه السلام بفقرِهِ السامي أن يحوّلَ معنى الفقر في نفوسِ أصحابهِ بجعلهِ ما استغنى عنهُ الانسان من شهوات الدنيا وترك ما نالَ منها وجمع.

أمّا هذا ونحوهُ من حقائقِ النُبوّةِ العاملة في تنظيم الحياة، فقد أهملُوه، إذْ هو لا يوجدُ في الكتب وشروحِها وحواشيها، ولكن في الحياة وأثقالها وأكدارها، وبذلك أصبح شيوخُنا من الأمّةِ في مواضعَ لم يضَعْهم فيها الدين، ولكن وَضَعَتْهُمْ فيها الوظيفة[1].

وهذه هي علّةُ العلَل في ضَعْفِ الدعوة، والتواءِ القصد في المنابر، وانتهاء الإرشاد في الجمعيات التي كلّفت نفسَها ما لا تطيقُ من حملِ الرسالة، وفوَّتَتْ على الأمة فرص الحياة بإلقاءِ التبعة عن كاهلِ « الموظفين »!

* * *

المرأة

وهناك جوانب للاجتماع أخرى، لعلَّ من أبرزها موضوع المرأة؛ الذي كثر فيه الكلام، واصطَبغَتْ فيه الآراء ووجهات النظر بألوان من

---

(١) الرسالة ١٦٣، وحي القلم ٢ — ٢٧٣

المذاهب والأفكار والفلسفات، اختلطت على أصحابها أنفُسِهم، وقد استُغِلَّ الموضوعُ في أغراضٍ غير نسويّة وغير اجتماعية وربّما التفَّ بقضايا سياسية خطيرة، ودار مع مؤامراتٍ. والتاث بدسائس، وتورَّطَ في اتجاهاتٍ، وانزلق عند أخطار مصيرية عانت الأمة منها الكثير.

وكان لرفاعةَ الطهطاوي دعوة في تعليمِ المرأة، ولقاسم أمين صيحة في تحريرها، وكان لبعضِهم نزوة في سَفورها، ولآخرين دورة في حقوقِها، وقد اختلفَتْ على كلّ ذلك في تلكَ الأيّام بين سَلْب وايجاب، ورضا وسخط.. الخ.

أما الرافعي فانَّ له موقف صِدْق يشهَدُ له بالحرصِ والأناةِ، ويميّزهُ على المفترقين بسببِ موضوع المرأةِ حزْبَيْ لَعبٍ وتظرُّف — إن لم نقُلْ مُعابثة، إذ يقولُ فيما ينبغي أن تأخذُه نساؤنا وما تدعه:

« إنَّ الذي يجبُ أن تحتفِظَ به الشرقيّاتُ ثلاث: الحياءُ الصادِقُ، والعفّةُ الصحيحةُ، والخضُوع الجميلُ الذي هو مظهرُ الحبّ لمن يجبُ له الحبّ، وهذه الأخلاق لا تقومُ إلّا بثلاثٍ أخرى: تصاوُنُ المرأةِ من مخالطةِ الرجال إلّا في الضرورةِ الماسّة، وحرصُها أشدَّ الحرص على دينها، والصبرُ أقوى الصبرِ على مكارهِ البيت.

أمّا ما يحسنُ أن تقتبسَهُ نساؤنا من المرأة الغربية فالعِلْمُ وحدَهُ، وما هو من نتائجه كالتدبيرِ والحَزْمِ والبصرِ بأمورِ الحياة وحُسنِ التصرّف فيها.

قال: وما كانَتْ بالمرأة الشرقية حاجة الى هذا من قبلُ، بل إن عليها أن تقتبس من تاريخها لا من المرأةِ الغربية».. وكل فضيلةِ الغربية عندي هي معرفةُ فنّ الحياة المنزلية على أحسنِ أشكالِهِ، وأرقى ما

انتهى إليه من إنشاءِ المرأة للبيت، ثم إنشاء البيتِ للأسرة، ثم إنشاءِ الأُسرةِ للوطن، فكلٌّ ما كان بهذا المعنى فَلتأخذهُ نساؤنا علماً أو عَمَلاً ونظاماً ــ وهو أمرٌ ليس خاصًّا بالغربيّةِ، بل هو حقيقةُ الانسانية في هذه الأنوثةِ إذا ما أُريدَ لها النمط الأعلى من كمالها.

أمّا ما وراءَ ذلك من التبرّج والسفه والاسراف وفُنون اللّهو ونحوه،.. لستُ أرىٰ فيه رأياً إلاّ أنّ الشرقية يجب أن تبقى خالصةً »[1].

وهذه نظرة ــ إن دلّت على شيء، فانما تدلُّ على مبلغ الحرص في الموازنة أولاً، ثم في تعليم المرأة وبنائها، وفي مكانتها من الاجتماع مع الحفاظ عليها في صورة العفاف والطهر والصَوْن، فلا يخدعُها بهرجُ مدنية، ولا تلهيها الحضارة برونق فتنزلقَ بها المزوّقات والمظاهر، فتلتاث بأيامها، وتلتفّ بأحلامها، فتنقُلها من زاوية الإهمال في البيت الى صندوق القمامة في الشارع!.

ومن عجب أن هذهِ النظرة الاخلاقية الرفيعة الملتزمة قد جَرّتْهُ الى مناقشة أغلى حبائبه فيها، حتى وصَلَتْ صفحاتِ مجلّتها « منيرفا »[2]

أما ما سوىٰ ذلك من مواقف الآخرين التي عَرَض لها فيما بعدُ، فلعلَّ من أشهرها ما ضمنَهُ مقالاته في « الربيطة »[3] « وفلسفة طائشة » ــ التي ناقَشَ فيها مُفارقاتِ قاسم أمين، و « دموع من فلسفة الطائشة »، و « شيطانٌ وشيطانة »، التي أزَّ فيها طه حسين ولطفي السيد

---

(١) الهلال ــ ديسمبر/كانون الأول ١٩٢٤ م

(٢) منيرفا ــ ١٩٢٥، ١٩٢٦

(٣) السحاب الأحمر ــ ٥٨

وغيرهما[1]. فانَّ له فيها آراءً ومناقشاتٍ ورُدوداً جِدَّ حفيّة بالموضوع، وسديدةً في القصد، وبارعةً في الالتفاتِ تُؤلّفُ مادةً خِصْبةً لدراسة في الموضوع خاصة[2] حسبُنا الاشارةُ إليها هنا، ضمْنَ هذ البحثِ في الاجتماع الذي رافَقَهُ في حياتهِ، مُوَجّهاً وواعظاً موفقاً في أدبٍ طَبَعَهُ بفقْهِ الحياةِ الانسانية نفسِها، وجعَلَ للشريعةِ فيه نصيباً أوفىٰ وأوفر، لِيُثْبتَ للعصرِ سُمُوَّ الإسلامِ في هذا الشأن.

وقد يكفي للتّدْليل على ذلك ما لاحَقَ فيهِ « التبرّج » والسُّفور المُخزي[3] وأولئك الذين جاؤوا لنا من أوربةَ بالربائِط[4] الغواني، والصورِ الحضارية الساقطة، ولم يَفُوا للأمةِ بأخذٍ في المضمارِ العلمي الذي يتقدم بها، كقوله:

« ألا ليتكم جئتُم للبلادِ من أوروبة بالمحاريثِ بَدَلاً من هذه المواريث، وجئتم بالسَّمادِ، بدلاً من هذي الوساد، وبالبهائمَ للسَّواني، لا بالخلائل والغواني »[5].

ويلاحظُ عليهِ أنّهُ يهدِفُ الى التحوّل العلمي السَّريعِ في النهضةِ حتى في كتاباتِهِ هذه، ويطالبُ التوفيق في الزراعةِ ـــ وقد قضّىٰ عمرَهُ يتمنّى أن تكون له الفرصةُ بالتحوّلِ إليها[6].

* * *

---

(١) أنظر وحي القلم ١ ـــ ١٦١ ـــ ١٩٢
(٢) انتظر لنا « المرأة عند الرافعي ».
(٣) رسائل الرافعي ـــ ٧١
(٤) الربيطة : امرأة كالبغي تتخذ خليلة بأجر، وهي عادة اجتماعية مرذولة التقى فيها نظام المتعة المجوسي ـــ الذي سمّي فاطمياً بالزواج العرفي والمدني ببعض الموبقات الأوروبية!
(٥) السحاب الأحمر ـــ ٦٥، راجع المقدسي ـــ فنون الأدب ٢٥٢
(٦) المجلة الجديدة ـــ مايو/أيار ١٩٣١ م

التقليد

وكان من أثر ازدياد الاتصال بالغرب الغازي أن صار اختلافُ الفرنجةِ فيه والروم على الديار العربية مألوفاً، وفشا في صفوفِ بعض أبناءِ الأمة تقليدُهم في المظاهرِ والأزياء، وقد انتشرَت المقاصِفُ والمراقص وبيوتُ اللَّهوِ غير البريء والقمار ـــ بحمايةِ الاحتلال، ولاكَتْ بعضُ الألْسنةِ ألفاظَهُمْ بِرَقاعَة[1] رأىٰ « أنَّ كثيراً مما يُزَيّنونَهُ للشرقيّ من رذائلِ المدنية الأوربيّـةِ إنْ هو إلا مَنْطقُ شهواتٍ في جُمْلَتِهِ،.. وقد تسمَعُ الجائع يَتَكلَّمُ في الطعامِ، فتسمَعُ كلاماً تحتَه معانٍ ومعانٍ لا يعدّها غير الجائعِ الا حماقة ساعتِها »[2]

* * *

ولعلَّ أخطَرَ من ذلك كلّهِ محاولةُ تنظيم الاجتماعِ الجديد على طرازٍ من الانطباعِ بصفَةِ المحتلّين من قيام الأنديةِ والجمعيات والمنظمات ـــ وقد تسلّلتْ إليها بوادِرُ الأخذ واستيعابِ الأفكار التي عليها القومُ شيئاً فشيئاً، بل حاوَلَ بعضُ الداعين إليها إلحاقَ بعضِ عاداتٍ وتقاليد لها تاريخُها في الأمّةِ وفقهها للحياة، بتلك الأنظمةِ المجلوبةِ فزعم بعضُهم « دمقراطيةَ الاسلام » وسمّى آخرون الاشتراكيّةَ العربية والضمان وما إليها، واستساغَتْ كلّ ما يرِدُ من أوربةَ وإجراءَهُ على هذهِ المَعْدَلةِ من التلفيق والتخريج!.

نشاطه الاجتماعي

وقد حرَكَتْ هذه الحال نوازع في وجدان الأمة شرعَتْ تُعِدُّ للمقاومة، ولكنّها لا تبرحُ خَفِيضَةَ الصوتِ، محدودةَ القُوّةِ أمام الاندفاع الحضاري

(١) الرسالة ١٨١، وحي القلم ٢ ـــ ٢٩٧

(٢) الرسالة ١٧١، وحي القلم ـــ ٣٠٣

ـ ومن يحاولونَها هم من الفَقْر العلمي بحيثُ لا يَسْتطيعونَ إحداثَ الأثَرِ الذي تقِف عليه الأمّةُ متميزّةً بوجودها القومي.

والرافعي معاصر يتفاعَلُ مع الأحداثِ، ولكن لوحظَ عليهِ إخفاقهُ في أن يكونَ له ذلك الأثرُ، عند إرادةِ التغيير التي تُثْبِتُ للأمة أصالَتَها في الاجتماعِ الإنساني؛ فهو في مَطْلَعِ شبابهِ حاول أن يُؤلّفَ جماعة من الشبابِ تدعو الى نوعٍ من الاصلاح الديني[1] ولا سيما حين رأى « جميعةَ شمس الاسلام » التي نَهَض بها الشيخ محمد رشيد رضا الحسيني، تُغِذُّ السَّيْرَ، وتدعو الى تَعْريبِ الخلافة[2] ووشَّحَتْ مجلَتها (المنار) بالتاجِ العربي، وشرعَتْ في مقالاتٍ قومية تتحدث في موضوعِ الوحدة العربية[3].

كتب الرافعي الى الشيخ محمد رشيد رضا الحسيني في موضوع « جميعّة السنّة الاسلاميّة » وقد أرادَها قَبَساً وشُعاعاً من شمسِ الاسلام، ولكنّها سرعانَ ما تفرقت بها الأيام لمَوقفٍ اتّخذَهُ بعضُ شيوخِ الجامع الأحمدي بطنطا[4].

غير أنه كانَ خطيباً دائماً، ومحاضراً في جمعيةٍ (الإحسان) بطنطا، ومن فوقِ منبرها أُرسلَ الكثيرَ من أفكارِهِ الاجتماعية، وآرائِهِ في الفكرِ

---

(١) حياة الرافعي ـ ٢٦٧

(٢) وقف رفيق العظم أمام الموضوع يستهجنه في رسالة (أرجوفة الخلافة العربية) وأبان عن كراهيته مسلماً للرابطة الجنسية والنعرة العنصرية عفا الله عنه.

(٣) المنار ـ المحرم ١٣١٨ هـ، وما بعده.

(٤) حياة الرافعي ـ ٢٦٨

والاقتصاد والنُّظُمِ الاجتماعية، ومنها إشارتُهُ الى الاشتراكيةِ العلمية التي تَنَبأَ لها بقلّةِ التوفيقِ في حَلِّ مُعْضلةِ الانسانيّةِ في الفقر[1].

وعَضَدَ الرابطةَ الشرقيّة أدبيّاً[2]، وأنشَدَ لجمعية الشبان المسلمين ذلك النشيد المُحَمديّ الذي ما يبرحُ الأذهانَ في قوتِهِ الاعتقادية وموسيقى ألفاظِهِ[3] واستبشر خيراً ببعض نشاط الاخوان المسلمين ولا سيما في حماسَتِهِم للقضيةِ الفلسطينية، وذلك بمقالتيه (قصةُ الأيدي المتوضئة)[4] والأخرى التي أرسلَ بها حديثَهُ في « ساكني الثياب »[5].

كما رافق (الرابطة العربية) في دعوتها إلى اقامة الدولة العربية المتحدة، وكان فيها صديقه أمين سعيد وأبن عمه عبد الغني الرافعي، واجتمع إليه (الانصار) من تلامذته ومحبّيه.

تنظيم

وهو بازاءَ هذ النشاط الموزّع حاول أن يرسم الخطة القوميّة للإصلاح الاجتماعي، في مثل قوله: « سبيلُ الإصلاحِ أَنْ ينهض أهلُ الرأي في كلِّ مدينة بين عالم وأديب، ومحام وسَريّ، ومن كانَ بسبيل من هؤلاء، فيُجعَلُ لمدينتهم دار نَدْوة للاجتماع والبحث والمشورةِ، وقولُ « نعم » بالحُجّةِ، وقولُ « لا » بالحجة، ثم يُعْلِنون ذلك في جمهورهم، وينزلونَ منه منزلة الأستاذِ والأبِ والصّديق في تعليمه وهدايته وإرشاده. وتتصلُ

---

(١) المقتطف مايو ويونية ١٩١٣ م.

(٢) لاحظ فيها خرافة طه حسين الجديدة ١٨ تشرين ١٩٢٨/٢ م

(٣) أغاريد الرافعي — ٧٢

(٤) الرسالة ١٥٧، وحي القلم ٣ — ٢٤٤

(٥) الرسالة ١٦٢، وحي القلم ٢ — ٢٧٠

هذه الدور في كلّ قطر بعضها ببعض، وتنتهي بالمجالس، وبذلك يملأ الفراغ الذي نراه خاوياً بين الشعبِ والحكومة، وبين الكبراء والجمهور؛ وإنَّ أكثر مصائبنا من هذا الفراغ، فهو الذي يضيع فيه ما يضيع، ويختفي ما يختفي »[1].

وهو قولٌ مرسلٍ على سجيّتهِ العربيّة، يُمليهِ تاريخُ هذه الأمةِ من حيثُ كانَتْ لها أوّلُ دارِ ندوةٍ، وأوّلُ وحدةٍ، وأوّلُ اجتماعٍ يقيم دعاماتِ وجودها، وصيرورتها الممتازة في الأمم،.. وإنْ دلَّ على شيء فانما يدلُّ على مقدارِ العنايةِ الفكرية والاجتماعية بالأمة، التي جهِدَ الرافعي أن يخلُصَ بهذِهِ المحصلة فيها بتقريرِ السبيلِ الهادف، ودلَّ بذلكَ على تحرّكٍ قومي يسعىٰ للحفاظ على وحدةِ الأمة من التصدّع في الفراغ، أو الانهيارِ في الفجواتِ أمام زُحوفِ الأنظمة المجلوبةِ التي وزَّعَت الأمة في مذاهبَ واتجاهاتٍ تمزَّقَتْ صُفوفها..

* * *

ب ـــ المؤثرات السياسية

العثمانية

لم تكن المؤثرات السياسيّةُ في أدبِ الرافعي على مثلِ الخُطورةِ التي أثرت فيه بها عواملُ الاجتماع ومنازعُ الفكر ومذاهبُ النقدِ والفن، فهو من حيثُ المبدأ عربيُّ الأرومةِ، ينتمي الى أسرةٍ من أشهرِ بيُوتاتِ

---

(١) الرسالة ١٧٣، وحي القلم ٣ ـــ ٣١٥ اليس هذا هو الذي تنهض به الأمة الآن في مجالس الشعب؟! وكذلك يمتدُّ أدب الرافعي في حياة الأمة

العلم في مصر والشام على الاطلاق[1] تتّصِلُ بنَسَبها الكريم بأميرِ المؤمنين الإمام العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد ولد في « بَهتيم » من قرىٰ القليوبيّة لأب من وِلاية طرابلس الشام، وأمٍّ مصريّة المولد[2] وهويتهما عثمانية. فإذا كانَ أخوهُ محمود الرافعي وبعضُ أبناء عمومتهِ: أمين الرافعي وعبد الرحمن الرافعي[3] قد بَلَغوا في السياسةِ القُطريّة والحزب الوطني بمصر، وفي أيام النضال درجة خَلّدتْ لهم تاريخاً من المروءاتِ،..

وإذا كان أبناءُ عمومتِهِ الآخرون كعبدِ الحميد الرافعي وعبد الغني الرافعي قد أسهموا بالنهضةِ العربية في الجزيرة والشام[4] فإنّهُ بإزائهم كان يرقُبُ الأحداث، وقلّما أبدىٰ رأياً فيها،.. فإن أبداهُ فلا يُصيبُ إلّا جهتَهُ العُلْيا من النظرة الاعتقادية والحُسبان الوارد.

المصرية

وعلى الرغم من مُضِي القطر المصري في النظام الخاص الذي لقفَهُ الوالي محمّد علي في معاهدة لندن ١٨٤٠ م لأبنائِهِ من بعدِهِ، وتوالي الأيام على خُلفائِهِ في تورُّطِهم مع الغربِ بالديون والامتيازاتِ[5] التي دأبَتْ على إبعادِ مصر عن عاصمةِ الخلافة، ثم خُضوعها للاحتلال، عقبَ انتفاضةِ أحمد عُرابي في الجيش، وحتّى زوالِ صفةِ السيادة العثمانية

---

(١) المنار — ٣٠ رجب ١٣٤٦ هـ

(٢) الفتح — ١٨٦ — ١٤ رمضان ١٣٤٨ هـ

(٣) الرسالة ١٧٢، ١٦٢ الجمهور والأخلاق المحاربة؛ فيهما صفتا أمين وعبد الرحمن عن محمود الرافعي.

(٤) راجع فصل « الرافعيون في التاريخ » في كتابنا عصر الرافعي.

(٥) محمد صبري — تاريخ مصر الحديث — ١١٩

غداةَ قيام الحرب العالمية الأولى، فقد لوحظَ على الرافعي ما كانَ يُلاحَظُ على مُعاصريهِ من ازْدواجِ الولاء للخليفةِ ـ العثماني، والخديو ـ المصري، وكانَتْ له قصائدُ وأماديح في كليهما[1].

ولكنَّه غضبَ أشدَّ الغَضب لِعَزْلِ السلطان عبد الحميد الثاني، وعَدَّ الاتحاديين المنقلبين عليه مُلْحِدين قد حاربوا الله يوماً[2] فانتقَم منهم بهزائم مُنْكرة لاقَوْها في (البلقان)!

غير أنَّهُ عادَ ينتصر للعثمانيين يومَ همّوا بالدفاعِ عن طرابلس الغرب[3].

القومية

ثم يظهر أنّ هذهِ العثمانيةَ تضاءَلُ عنده وتنتهي قبلَ نهايةِ الحرب، حين همَّ بأَنْ يلتحقَ بالنهضة العربية التي انْطَلقَ بها العربُ من الحجاز بقيادةِ الشريف حسين بن علي، فقد أقنَعَهُ محبُّ الدينِ الخطيبُ بها[4] ولكنَّهُ عَدَلَ عن الالتحاقِ نُزولاً عند رأي عبد الرحمن الرافعي[5] وتنبأ بقولِهِ صادقاً: « سترى أَنَّ تركيا لا تحكُم على رجُلٍ واحدٍ من غيرِ هؤلاء الترك، وأنها ضاقَتْ بحماقاتِ « أنور » وأمثاله »[6].

---

(١) ديوانه الأول والثاني ـ راجع المقدسي ـ الاتجاهات الأدبية ١٥، ٢١

(٢) أنظر قصيدته في المقطم ١٨ ديسمبر ١٩١١ م

(٣) أنظر قصيدته في الهلال ـ فبراير ١٩١٢ م

(٤) حدثني بذلك الخطيب نفسه.

(٥) حدثني بذلك المؤرخ الكبير نفسه.

(٦) أنور وطلعة وشوكة ونيازي... أركان الانقلاب الذي مكّن للغرب من تمزيق أواصر الدولة الاسلامية

ولكنه سرعان ما بارك الحركة الوطنية التي اندفعت بالجمهور المصري[1] عقبَ انتهاء الحرب، وقيام مؤتمر الصلح بتوزيعِ أسلابِ الدولة الاسلاميّة على الحلفاءِ الغُزاة. وتمثّل بقولِ الشاعر ابنُ ابي سلمى:
« ومن لم يكرّمْ نفسَهُ لا يكرّمِ،.. »

واندفع أكثرَ حين رأىٰ من نشاطِ أخيهِ، ومن التزامِ ابن عمّهِ (أمين الرافعي) بأمانةِ الوفدِ الذي مثّلَ قيادة الحركةِ يومذاك يمدُّهَا بمذكراتِهِ ومعلوماته[2]. وراحَ ينظِمُ للنهضة ويُنْشِدُ للحركة يُدِلُّ الجمهورَ على الوحدةِ الوطنيةِ والانتظام بصفوفِ الأمة.

وإزاءَ الأراجيفِ والسّعايات المُغْرضةِ التي راح بها الخونةُ يحاولون تمزيقَ الأمّةِ المجاهدة، افْتَعَلَ معركةً أدبية من حولِ نشيدِهِ الوطني، يفوت فيها على المرجفين سوءَ نيّاتهم مع بعضِ أبناءِ الأمة الذينَ هُمْ من غيرِ الأصل (المصري) — الشاميّين خاصة[3] وكانَتْ في أيديهم أغلبُ الصحف ودور النشر وقد خضع بعضها لِسُلُطاتِ الاحتلال[4].

وأتبع نشيدَهُ (إلى الامام) بآخر يفتدي فيه (مصر) بروحه ما يبرح يتردّدُ على الألسنةِ الى اليوم :

لك يا مصر السلامة / وسلاماً يا بلادي

وراح يكتُبُ في (الاخبار) مقالاتٍ وكلماتٍ خَلْواً من التوقيع،

---

(١) رسائل الرافعي — ٧
(٢) ذكرى أمين الرافعي — ٣٨.
(٣) قد يرد مفصلاً.
(٤) الدسوقي — الأدب الحديث — ١ — ٦٩.

أو مرموزاً لها بالحرف الأول من اسمِهِ (صادق الرافعي) كان من بينهما مقالتُه (صيحة الحق)[1].

أما المقالات الأخريات، فقد عادَ إليها بعد ذلكَ يهذّبُها ويُجْريها مجرى التاريخ أحاديثَ بين يَدَيْ حركةِ الاستقلال التي انتهت بمعاهدة ١٩٣٦ م على لسانِ « الباشا » الذي خبر السياسة وكان حكيماً فهيماً عظيماً، جَعَلَ من تجربتِهِ مادةً لإعادةِ بناءِ الحياة القومية في الأمة[2].

ولكنَّهُ يومَ افترقَت الحركة المصريّة، وانشقَّتْ صفوفُ الجمهور عن زعماء أحزاب، وأصابَ أمينُ الرافعي الأذى، واعتداء « جنود سعد » عليهِ، كتَبَ بالعنوانِ مقالتَهُ المشهورة[3] يَنعىٰ فيها على الزعيم سعد زغلول أن يمدَّ نفسَهُ بمثلِ تلكَ القوى التي تفرّقُ ولا تجمع، وتمزّقُ ولا تدفع.

* * *

ثم حدثَ ــ أثناء ذلك ــ أن أقدَمَ (كمال أتاترك) على إلغاءِ الخلافةِ الإسلامية، وراح يباعِدُ ما بين التركِ وكلِّ آصرةٍ تجمَعُ بينَهم وبينَ العرب من دينٍ أو حضارةٍ أو تاريخ، فأثارَ جُمْهورَ المسلمين عليهِ في صَيْحاتِ استنكار ما تبرَحُ مُعلَنَةً إلى اليوم. وقد كانَ للرافعي فيها مَرْثاة باكية، وأنةٌ شاكية، وصيحةٌ في أسماعِ الدهر[4].

ولوحظَ عليهِ من ثمَّ الانكماشُ في وطنيتِهِ المصريّةِ المحدثة، يأمَلُ

---

(١) سترد في فصل الفنون ــ الثالث

(٢) انظر أحاديث الباشا في وحي القلم ــ ج ٢

(٣) سترد في فصل تال.

(٤) أنظر فصل الفنون الآتي.

الاستقلالَ، ويحاولُ التغيير في سلوكِ الأمة، ويبادِرُ في الإسهام بتربيةِ الشباب على أساس من مَبْدأ الحبّ الذي يُنْشئُ الأمّةَ السعيدةَ، ويَلِدُ الجيلَ المستقلَّ بتربيتِهِ، ويقولُ لمن لاحظَ عليهِ هذا الاتّجاه[1]:

« أمّا رأيكم من عَدَم الكتابةِ في الحُبّ والغَزَل، لما نحنُ فيه، فإنَّ الحبَّ ناموسٌ لا يمنعهُ شيء، وتركُ الكتابة فيهِ لا يمنَعُ وقوعَهُ، والوجهُ أنْ يُكتَبَ في إصلاحِهِ، وتَطْهيرِه، وتحويلهِ الى المعاني الرحمانيّةِ، ليكون وَسيلةَ سُموٍّ في الحياة ».

ويومَ توالى انشطارُ الصفّ السياسي (الوفد) وذَرَّ قرنُ الخصوماتِ الحزبية، وقد أضرَّتْ بالمصْلَحتين الوطنيّةِ والاقتصاديةِ للبلاد، حتّى حانَتْ تلك الالتفاتة الرائعة من « أمين الرافعي » لجمعِ الجمهور ـــ وقد دعا فيها الاحزابَ المُتَفارقة، والسياسيين جميعاً بعد الذي شَجَرَ بينَهم،.. الى لونٍ ائتلافٍ وطني يحفَظُ لمصرَ كيانَها الجديد من التصدُّعِ أو التمزّق، ويعيدُ إليها وحدتَها الوطنية[2].

وهنا نَظَر بعضُ فُضلاء الأدباءِ في ترشيحِ الرافعي ـــ الذي لم يكُنْ له انتماءٌ سياسي ـــ لمنصبِ « شاعر الملك » الفخري[3] حِرْصاً على المظهرِ القومي في كلِّ مجال أن يزكي ترشيحهم حجّةَ الأدبِ ونابغةَ كتّابِ العرب ـــ على حَدّ تعبير البيان. وقد ظفَر ذلك الترشيحُ بقبولِ محمد نجيب (باشا) ناظرِ الديوان الملكي[4] على الرُغْم من معارضةِ

---

(١) رسالته الى الأستاذ محب الدين الخطيب في ٦ مارس ١٩٣١ م
(٢) ذكرى أمين الرافعي ٤٤، ومذكراتي لعبد الرحمن الرافعي ـــ ٥٨
(٣) الفتح ـــ ٣٥ في ٨ شعبان ١٣٤٥ هـ
(٤) حياة الرافعي ـــ ١٣٧

أحمد شوقي ومدافعةِ غيرِهِ أن يكون الرافعي ـــ الشاميّ الأصل شاعر الملك المصري[1].

غير أنَّهُ لم يدُمْ فيهِ طويلاً، فقد انْسَحَبَ منه بعد وفاةِ نجيب باشا، واصطدامِهِ بزكي الابراشي[2] الذي اصطنَعَ عبد الله عفيفي إمام الملك، لينظم فيه الشعر[3].

ومن فوق ذلك المنبر (الملكي) أرسَلَ الرافعي بضعَ عشرةَ قصيدة، جاءَ في بعضِها آراء في السياسةِ أشبهُ ما تكون أفكاراً ساذجَةً أحياناً، وإن أكدّ فيها على المبدأ والذات:

إنَّ فَرْقاً ما بينَ أنصارِ شخصٍ   يَتَولاهُـــــمُ وأنصارِ مَبْـــــدا

فلسطين

أما موقف الرافعي من فلسطين ـــ القضيّة والمأساة ـــ فانَهُ لَيلُوح من خلالِ موقفِهِ القومي، الذي يؤكّدُ فيهِ على الوحدةِ العربيةِ ـــ اللّغوية[4] والجامعةِ الاسلامية[5]، وكأنَّهُ مغاير لمواقفِ المصريين غير الواضحةِ آنذاك، وربما غَيْرِ المتّزنةِ أحياناً!..

ذلك أنَّ مأساة فلسطين كانت تفريعيّة في القضيةِ القومية الكبرىٰ

---

(١) رسالته الى الخطيب في ٣٠ شوال ١٣٤٧ هـ
(٢) رسالته الى الخطيب في ١١ يونية/حزيران ١٩٣٠ م
(٣) العريان ـــ ١٤٠
(٤) على ما يرى السيد محب الدين الخطيب ـــ حديث خاص.
(٥) هي دعوة السلطان عبد الحميد لتمتين المقاومة القومية للغزو الذي استَطْرىٰ في حملتهِ المسعورة آنذاك قنصلياً وسياسيًّا؛ يمهد للانقضاض العسكري الذي تمَّ فيما بعدُ ـــ راجع موفق بني المرجة ـــ صحوة الرجل المريض..

للأمة التي كانَتْ تعاني من المؤامرات ومباضعِ المشروعات[1] وإن كان تَنَبُّهُ الكتّابِ والمفكرينَ سابقاً في الظهور،.. قبلَ أن يُبديَ الزعماءُ السياسيّون أو يعيدوا.

ففي الوقتِ الذي كانَتْ فيه جرائد العالمين تحدَّثُ في موضوعِ مُهاجرة يهود الى فلسطين[2] وانتشار الحركة المسمّاة بالصهيونيةِ[3] لوحظ عدم اكتراثٍ عند سُلُطاتِ الاحتلال البريطاني، ومن يلوذ بهم من النظّارِ والوكلاء وذوي النّزعات الاقليميةِ المُتَمصْرِنة[4] بَلْ كانَتْ هناك عنايةٌ خاصة بآراء ماكس نوردو ــ الزعيم الصهيوني ــ في الفكرِ والقوميّةِ والحياة[5] وتاريخ « أوغستْ لودريك شلوتسر » وما نقله عن التوراةِ من دعوى الساميّة[6].

ويومَ ابتُلِيَت الأُمّة بِمَغارم الحرب بعد الانقلابِ الأثيم في (اسلام بول) وخَلْعِ السلطان عبد الحميد والمجاهرةِ بالطُورانية[7].. وإذ

---

(١) يحاول بعض المتأخرين نسبة محاولة تجديد (الدولة الاسلامية) الى جمال الأفغاني ــ جوّاب الآفاق، ويشيرون الى مشروعهِ في توزيع أقطارِها بخديويات!! حتى يضْحى الخليفةُ العربي ــ المسلم فيها رمزاً ــ أنظر تاريخ الامام محمد عبده ــ ٢٩٣ ــ مثل ملك الانجليز في « الدومينون »، أو (البابا) في روما.

(٢) المقتطف ٤ ــ ٢٢ نيسان/ابريل ١٨٩٩

(٣) المنار ــ ٦ ــ ٢٨ ذي القعدة ١٣١٥ هـ

(٤) مثل لطفي السيد وتجمعه الأقطاعي في حزب الأمة؛ الذي فرّخ الوفد والأحرار اللائذين بالدستور.. الخ.

(٥) مثل عباس محمود العقاد ــ أنظر كتابيه (الفصول) و (المراجعات).

(٦) تدبر ذلك في عناية طه حسين بتلميذه اسرائيل ولفنسون ومجازفاته في « تاريخ اليهود » و « اللّغات السامية »!!

(٧) كتابنا الإمام الرافعي، ص ٧٠.

شاركَ المشارقة العربُ الحلفاءَ في تقويضِ (الدولة الاسلامية — العثمانية).. كان إسفين الانجليز بوعدِ بَلْفور[1] قد وضع اللُّغم المُجزي بتفريق الأمة وشَرْذَمتها في أقطارِها!.. كانت « المقطم » تنشُرُ أخبار « الاتحاد الاسرائيلي » واستعراض كشافتِهِ في الاسكندرية — طريق الحرية، احتفاءً بانطلاقةِ الوعد[2] وتشاطرها « اللطائف المصورة » عند الذكرى غير مرة[3].

ويوم بلغ الأمر حَدَّ الاصطدام المُسلَّح مع يهودِ الاحتلالِ الانجليزي لفلسطين في موقع البُراق من المسجد الأقصىٰ عام ١٣٤٩ هـ — ١٩٢٨ م وسقط الشهداءُ العَرب برصاصِ الانجليز واليهود، كانَتْ بعضُ الصحف في مصرَ تؤذّنُ للصهيونية على صَدْرِ صفحاتها، وتظهَرُ « الأهرام » بعنوان كبير في افتتاحية على خمسةِ أعمدة:

(النهضةُ الاسرائيليةُ باركَ الله فيها وفيمن أيقظها)[4] !

وكان هناك زعماء (باشوات) آخرون يتّخذون طريقَهم الى مَشْفى يهود — حداسا — بفلسطين، حيث ممرضاتهُ البارعات في التدليك[5] وكأنَّ الأمر لا يعني أمةً بإناسيّها وأقطارها!!

(١) في ٢ نوفمبر تشرين الثاني ١٩١٧ م. الذي احتوى « نظرة العطف » على يهود!!
(٢) المقطم — ١٣ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩١٧ م.
(٣) اللطائف المصورة — ٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٨ م
(٤) الأهرام — ١٨ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٢٨ م — وكنت رافقت أختاً فلسطينية في رحلةٍ دراسية بين آثار تلك الصحف وعبر الصحافة اليهودية في مصر أدلُّها عليها وأحسبها أعدّت فيها رسالةً جامعية.
(٥) بما فيهم طه حسين ذي الغظروف كثير الانزلاق!! بيروت المساء — ٢٨ سبتمبر/ايلول ١٩٧٢ م

ولكن الرافعي يستبقُ المفكرين والأدباء وأصحاب الاتجاه العربي[1] فينادي شبابَ العرَب بمثلِ قوله: « ألا إنَّ المعركة بيننا وبين الاستعمار معركة نفسيّة؛ إن لم يُقتَلْ فيها الهزلُ قُتِلَ فيها الواجب!.

يا شبابَ العرب؛ لم يكنْ العسيرُ يعسرُ على أسلافِكم الأولين؛ غلبوا الدّنيا لمّا غَلَبوا في أنفُسِهم معنى الفقر، ومعنى الخوفِ ومعنىٰ المستحيل، وقد اخترعهم الايمان اختراعاً نفسيّاً علامتهُ على كلّ منهم: لا تَذِلّ.

يا شبابَ العرب؛ كانت حكمةُ العربِ التي يعملونَ عليها: أطلُب الموتَ تُوهَبْ لكَ الحياة؛ والنفس إذا لم تخشَ الموتَ كانَتْ غريزةُ الكفاح أوّل غرائزها تعمل »[2].

ويخاطب المسلمين في اندلاعِ الثورةِ الفلسطينيةِ المقاومة للاحتلال الانجليزي والاستيطان الصهيوني[3] بقوله:

أيُّها المسلمون؛ نهضَتْ فلسطينُ تَحُلُّ العقدةَ التي عُقِدَتْ لها بين السيفِ والمكر والذهب. عقدةٌ سياسية خبيثة فيها لذلك الشعب الحرّ قتلٌ وتخريبٌ وفقر.

---

(١) في مقدمتهم محمد رشيد رضا ومحب الدين الخطيب، ومحمد علي علوية، والاخوان المسلمون آنذاك والأنصار وغيرهم ممن كانوا كالردّ الطبيعي لممارسات المصرنة ــ القوقعة القطرية بشكليها ــ الشعوبي الفرعوني المبعوث، والآخر المستغرب! ــ راجع اسحق موسى الحسيني ــ الاخوان المسلمون ــ المقدمة وكامل الشريف ــ المقاومة السريّة.

(٢) وحي القلم ج ٢ ــ ٢٦١

(٣) راجع عبد الوهاب الكيالي في ــ تاريخ فلسطين الحديث.

عقدةُ الحكمِ الذي يحكمُ بثلاثةِ أساليب؛ الوعدُ الكذب، والفناء البطيء، ومطامع يهود المتوحشة.

ليسَتْ هذه محنةُ فلسطين، ولكنّها محنةُ الاسلام؛ يريدون أن لا تثبُتَ شخصيتُهُ العزيزةُ الحرّة.

كُلُّ قرشٍ يُدفَعُ لفلسطين يذهب الى هناك ليجاهدَ أيضاً.

أولئك إخوانُنا المجاهدون؛ ومعنى ذلك أن أحلافنا هي حلفاؤُهم في الجهاد.

إبتلَوْهُمْ باليهودِ يَمُرّون فيهم مرورَ الدنانير بالرّبا الفاحش في أيدي الفقراء!!.

لو صامَ العالمِ الاسلامي كلّه يوماً واحداً، وبذَلَ نفقاتِ ذلك اليوم لفلسطين لأغناها.

ولو صام المسملون يوماً واحداً لفلسطينَ لقالَ يهود اليوم ما قاله آباؤهم من قبلُ ﴿ إنّ فيها قوماً جبارين ﴾[1] الى غير ذلك من خُطُبٍ وأحاديث[2] واستجماع أسبابِ القوةِ والدعْمِ والاسناد.. حتى كان فقدُهُ كبيراً على الناس، صوره الشاعر محمود حسن اسماعيل بقولِهِ في رثائه:

في فلسطينِ لو عَلِمْتَ جراحٌ ما لَها في يدِ الطغاةِ الْتِئامُ

---

(١) الآية ــ ٢٢، سورة المائدة وانْظر وحي القلم ج ٣ ــ ٢٩٩

(٢) وحي القلم ج ٣ ــ الأيدي المتوضئة ــ ٢٧٣، ساكنوا الثياب ــ ٣٠١، وغيرها من أحاديث في الصحف السيارة.

الثورة والميثاق

على أنَّ بعضَ الأحداثِ السياسيّةِ كانت ذاتَ أثرٍ عاملٍ في نفسِهِ، وكثيراً ما كان يشكوها الى خُلصَائِهِ وأصفيائِهِ من الأصدقاء، وقد ظَهَرَ ذلك الأثرُ بعدَ وقوعِها بسنين.. ويومَ همَّتْ مصرُ أن تلقَفَ نوعاً من الاستقلال عام ١٣٥٥ هـ ١٩٣٦ م، استذكر الرافعيُّ واعتَبَرَ بأحداثِ ثورة ١٩١٩ م وعادَ إليها كالذي يستَنْبتُ التاريخَ قيماً وأعرافاً في صفحاتٍ من أيّامه، وقلَّبَ صفحاتٍ لَهُ ومقالاتٍ سبَقَ فيها الرأي والمحاولةُ، فأعَدَّ لمجلةِ « الرسالة » التي سلك في تحريرها يومَذاك، وجَعَلَها بعنوانِ (أحاديث الباشا). ووافَتْ له « كُليماتٌ » تَصِفُ من أحوالِ البلاد السياسيّةِ، وتبيّن عن نظراتٍ فاحصةٍ واعتقاديّة في إرادةِ التغيير والتماس الرُّوحِ القومية ما هي جديرة بالدراسة والتحقيق معاً[1].

ذلك أن فيها ما يتّصلُ بالنظامِ السياسي نفسِهِ، وفيها ما يتعلّق بالمبدأ، وفيها ما يشِفُّ عن الأساسِ الاعتقادي الذي يتحرّاهُ في الحركة السياسيّة الناجمةِ؛ إذ هو للوهلةِ الأولى يبدو كأنَّهُ لا يُرْضِيهِ الشكلُ الذي تقومُ عليهِ الجماعات السياسية، وليس لها من التنظيم غير تقليد الغرب في منظماته، وقد تجرُّ إليها الوقائع والاحداث في مقارنة تثيرُ الإشفاق أحياناً[2]. وقد لا تَسْتندُ الى قواعدَ شعبيّةٍ، وما لها من رصيدِ الأخلاق المجاهدةِ آلةٌ ولا أداة،.. فهو من حيثُ الأساس يرى أن « هذا الشرقَ لا يحيا بالسياسـةِ، ولكن بالمقاومةِ، ما دامَ الغربُ بإزائه »[3]. وحين

---

(١) هي من جوامع الكلم والأوابد والخطرات الرسالة ٧٦،، ٨٤، ٩٤، ١٣٥.

(٢) لاحظ ما سبق

(٣) الرسالة ١٧٠، وحي القلم ٢ ــ ٣٠٦

أبصَرَ العَفَنَ في « الطماطـم السياسـي »[1] ـــ وقـد نَسِـيَ الشرقـيُّ فيـهِ معنـى الحديث الشريف: « اعمَلْ لدُنياك كأنك تعيشُ أبدا » الذي يقررُ للأمةِ أنّ الفردَ يُنبوعُ الأجيال كلّها، فليعملْ لها ولنفسِه كأنّها موقوفةٌ عليهِ وكأنّهُ مُسْتَمر فيها،..

ورأىٰ الشرقي آنذاك « وقد آثَرَ حياتَهُ على وطنِهِ، وقَدَّمَ لذَّتَهُ على واجبهِ، وتعامَلَ بالمالِ في موضعِ المُعاملة بالأخلاقِ، وقَعَدَ تحت حكمهِ ـــ وهو خارجٌ عليه، فتراهُ يؤمِنُ بالله ويحلِفُ بهِ كذباً على دِرْهمٍ، ويُصَلّي ويَفْجرُ في يومٍ واحد »!.

ومتى كانَتْ الحالُ النفسيّة للأمة هي هذه الفرديّةُ ومصالحها ودواعيها، كانَ الكذبُ أظهرَ خِلالِ هذه الأمّة؛ إذْ هو انفرادُ الكاذبِ بخطّهِ ومَصْلَحتِهِ وداعيتِه، ومتى صارَ الكِذبُ أصلاً يُعمَلُ عليهِ، تقرّر عند الناس أنَّ الكلام إنما يُقالُ فقط، ولا أضرَّ على الأمّةِ من هذهِ العقيدة، ـــ وهو في ذلك يفتّش عن حقيقةٍ في أحوالِ رجالِ السياسة والأحداثِ آنذاك، وكيفَ وصلَتْ بهم « الميكافيلية » الى ما وصلت إليه .

غير أنه يقرّرُ بعد ذلك بدقّة وصواب « انَّ الأُمَّةَ لن تكونَ في موضعها إلّا إذا وضعَت الكلمةَ في موضعها، وأن أوّلَ ما يَدُلُّ على صحّةِ الأخلاق في أمةٍ كلمة الصدقِ فيها، والأمّةُ التي لا يحكمُها الصّدْقُ لا تكونُ معها كلُّ مظاهرِ الحكم إلّا كِذباً وهزلاً ومبالغة »[2].

(١) الرسالة ١٦٠، وحي القلم ٢ ـــ ٢٦٣
(٢) السابق

وليس في هذا الرأيِ نقدٌ ومعارضة سياسيّة فحَسْبُ، وإنما هو تجربةٌ حيةٌ تضَعُ أساساً متيناً للبناءِ السياسي والاعتقادي في كلِّ أمة.

ذلك أنه رأىٰ ثوب السياسة المصريّة آنذاك « كثيرَ الرُّقَع دائماً بالجديدِ والخَلِق، فرُقعَةٌ من المعارضين، وأخرىٰ من المُتَعَنّتين، وثالثةٌ من المتخاذلين، ورابعةٌ من المعادين، وخامسةٌ وسادسة وسابعةٌ من الحاسدين والمنافسين والمختلفين لِشَهْوةِ الخلاف، ورقاعٌ بعد ذلك مما نعلَمُ وما لا نعلم، فانَّ من العجيب أن هذا الجوّ الذي لا يتقلّبُ إلّا بَطيئاً يتقلَّبُ أهلُهُ بسُرْعةٍ، وهذه الطبيعةُ التي لا تختلِفُ لا يكادُ أهلها يتّفقون »[1].

ورأى الجمهور « من آفاتنا ــ نحن الشرقيين، أننا نَسْتمرئُ العداوةَ، وننقادُ لأسبابها، ونتطاوعُ لها تطاوُعَ الصغار بأنفسهم لما في أنفسهم، كأنَّ المُسْتَبدّين الذين كانوا في تاريخنا قد انتقلوا الى طبائِعنا، فردّوا الفكر على الفكرِ في مناقشةٍ تَجْري بيننا لا يكونُ من وقع الحقيقة للحقيقة، ولكن من ردّ الاستبدادِ على الاستبداد، أو من توثُّبِ الطغيان على الطغيان، فهو الثَّلْبُ والطعنُ والتجريحُ، وهو الجفوةُ والخصومةُ واللُّدَدُ، وهو المنازعةُ والعنف والتحامل، وهو بهذه وتلك شرٌ وفسادٌ وسقوط.

والجدالُ بين العُقَلاءِ يبعث الفكرَ فينتهي الى الحقّ، ولكنّه فينا يُهيجُ الخُلُقَ، فينتهي الى الشرّ، ومن ثمّ كانَ الدفاعُ بالمُكابرةِ أصلاً من

---

(١) الرسالة ١٧٤، ومن هنا ندرك سرَّ المعاملة القاسية التي مارستها سياسة « الوفد » معه، يوم سعت في نقله الى أسيوط، ثم إلى المنصورة... وكان آخرها يوم حاولت أن تجره إليها « كاتباً » بعد خروج العقاد عليها، ولماذا أبى الرافعي الدنانير،.. وكيف انتقم مكرم عبيد منه بعد موته ــ الرسالة ٣٧١.

أصولِ الطبيعةِ فينا، وكان الاضطهادُ حُجة على الحجة العاجزةِ، وكانَ الإعناتُ دليلاً للدّليل الذي لا يَنْهض بنفسِه »[1].

ويتابع الرافعي أحاديثَهُ فيقِفُ على الأدواءِ قَبْلَ أن يصِفَ العلاج، فيناقش الألْقابَ، وقد رآها شعبَذة من الحكومة وتَضْليلاً وضرباً من التهويل، والمُبالغة: « ألا ترى أنّ الشعبَ لو استردَّ سلطتَهُ الكاملة، وأن الناس لو أيقنوا أنْ الألقاب أُلفاظٌ فارغةٌ من الأمر والنهي والوسيلة والشفاعة، لما بقيَ من يعبأ بها، ولكانَ حاملُها أولَ من يسخرُ منها! »[2].

وكان هو نفسُه قد تلقى يوماً لقب « بك » غداة نَظمهِ لنشيد « اسلمي يا مصر » فأَنِفَ أن يحملَهُ، وناولَ شارتَهُ ابنَ عمّ له (بدر الدين الرافعي) وكتَبَ في ذلك يقول: « أنا قلّما رأيتُ رجلاً يحتاج الى ألقابٍ يتعَظّمُ بها، إلا وهو لا يَسْتَحقها، وقلّما رأيت رجلاً يستحقُّها إلا وهو لا يحتاجُ إليها،.. » وتساءَلَ: فأينَ موضعُ هذه الالقاب؟!

ومن مضاعفاتِ السياسة القُطريةِ أن حصَلَ الأجانبُ على « امتيازاتٍ » كانت تمنَحُهم قوة التَّشبُّثِ في البلاد وإخضاعِ شعبها، وهذه القوةُ الظالمة (الامتيازات) لو أنها كانت قوةً قاهرة نافذة، وأُعْينَ بها طفيلي ليقتحم دورَ الناس آمناً مُطمئناً، لاستحىٰ أن يأكُلَ بها؛ إذ تجمَعُ عليهِ التطفيل والمَقْتَ معاً.

---

(١) الرسالة، ١٧٢ وحي القلم ٢ ــ ٣١٢

(٢) الرسالة، ١٦١ وحي القلم ٢ ــ ٢٦٨، وقد صدق في نبوءته، فأُلغيت الألقاب التي هي من بقايا التبعية لعهد المماليك؛ غداة استرد الشعب حريته في ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

وهذه الامتيازاتُ إن هي إلا معاملةٌ بيننا وبين طبيعةِ الخضوع في الشعب، نعم: إنّها مضرّة ومعرّة، وظلمٌ، وقَسْوة، ولكنّها على ذلك طبيعةٌ في الطبيعةِ، فما دام هذا الشعبُ ليّن المأخَذ فإنَّ هذا يُوجِدُ له من يأخذُهُ[1] فاذا أسقطَ الشعبُ هذه الامتيازاتِ من فكرهِ ورُوحِهِ وأعصابهِ، وثارَتْ فيه كبرياءُ الوطنيّة، فاستنكَفَ من الاستخذاء ونَفَر من الاختضاع، وأبى إلّا أنْ يُعلِنَ كرامته، وصَرَفَ اهتمامَهُ الى حقوقِ هذه الكرامة، وأَصَرَّ أن لا يُعاملَ أجنبيّاً يرى له امتيازاً على وطنِهِ، وقرّرَ ذلك في نفسِهِ ومكّنَهُ في رَوعِهِ وأجمَع عليهِ إجماعَهُ على الدين.

إذا جاءت « إذا » هذه بشرطِها من الشعبِ، جاءَ جوابُ الشرطِ من الأجانب بنُزولِهم عن الامتيازات، وانحلّت المشكلة.

« لهم الإمتيازُ بأنّهم أجانبُ عنّا، فليكُنْ لنا الامتيازُ الآخر بأننا أجانبُ عنهم في المُعاملةِ مثلاً بمثل »[2].

وهو يرجع الامتيازات الى الأساس الرِّبوي الذي قامَتْ عليه، ليقولَ بعد ذلك: « إنَّ حكمةَ تحريمِ الرّبا في شريعتنا الاسلاميّة وقايةُ الأمّةِ كلّها في ثروتها وضياعها ومُستغلاتها وحمايةُ الشعبِ وملوكِهِ من الإسرافِ والتخرُّقِ والكرمِ الكاذب، وردُّ الاستعمار الاقتصادي، وشلُّ النفوذِ الأجنبي »[3]

إنه يُرجع كلَّ حركةٍ في إرادةِ الشعب على الحياة بجدارةٍ وكرامةٍ الى أصولِها من الدين وحكمةِ التشريع؛ ليخرُجَ بالأمة الى الدعوةِ بقوّةِ

(١) (٢) الرسالة ١٦٤، وحي القلم ٢ — ٢٧٩
(٣) الرسالة ١٦٤، وحي القلم ٢ — ٢٨٧

الامتياز الفقهي، فلا تحدُّها الحدودُ القطريّة، التي أريدَ لها فيها أن تقتفي أَثَرَ الحركةِ (الكمالية) يوماً ما.

ويوم دعا إلى التعصُّبِ بمعناهُ السياسي عندنا وما يُقابله عند الانجليز وسواهم، انتهىٰ الى القولِ بما يُعْوِزُنا فيه:

« إنَّ التعصُّبَ في حقيقته هو إعلانُ الأُمّةِ أنها في طاعة الشريعة الكامنة، وأنّ لها الروح الجادّة لا البليدة، وأن أساسها في السياسة الاحترام الذاتي، وأن أفكارها الاجتماعية حقائقُ ثابتةٌ لا أشكال نظريّة، وأنّ مبدأَها هو الحق ولا شيءَ غير الحق، وأن قاعدتها ﴿ **لا يَضُرّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذا اهْتَدَيْتُمْ**﴾[1] فالهدايةُ أولاً وآخراً؛

الهدايةُ في القُوّة، والهدايةُ في السياسة والهداية في الاجتماع[2] فالتعصّبُ في الاسلام هو للنفعِ العام وللمجدِ الصحيح وللهدايةِ الباعثةِ على الكمال، وتعصُّبُ الجيلِ لمثلِ هذا في ماضيهِ هو في اسمِهِ تعصّبٌ، غير أنه في معناه إنما هو العَمَل لتسْليمِ مجدِ الأمة إلى الجيل التالي »[3].

إنه يأبىٰ إلا أن يجعَلَ للعربية في مُفْرداتها غيرَ ما يُرادُ لها في لفظِ الشعوبيين والمُنْحرفين من ساسةِ تلك الأيام وكتّابها ومورثيهم في أيامنا هذه، بالاضافة الى تأكيدِهِ على الحقيقةِ الاعتقاديّة للأُمّةِ التي عنها تَصْدُرُ السياسةُ في تحركاتها وأحكامها.

---

(١) سورة المائدة آية ١٠٥

(٢) الرسالة ١٦٥، وحي القلم ٢ — ٢٨٧

(٣) الرسالة ١٦٦، وحي القلم ٢ — ٢٩١

وفي المعجم السياسي يَرىٰ في السياسةِ الأوروبيّة « موافقات دميمة كالنسّاء المُشَوّهات، ولهم عقولٌ عجيبة في اختراع الألفاظ حتى لتكون من الوضوح في عبارةٍ هي بعينها الطريقة « لإخفاءِ الغموض في عبارةٍ أخرى ». وكثيراً ما يأتون بألفاظٍ مُنتَفخة تُحْسَبُ جَزْلةً بادِنةً قد ملأها معناها — وهي في السياسة ألفاظٌ حُبالىٰ، تستكملُ حملَها ثم تَلدُ، ولهم من بعضِ الكلمات السياسية ما يكون اللّفْظُ لفظاً كاللغةِ وهو مسمارٌ وقوة في وثيقةٍ أو معاهدة[1].

ومن هنا يتبادَرُ للذهن أنّ الرافعي كانِ يَعُدُّ ادَبه السياسيّ هذا من بعدُ مادةً ساميةً في التربيةِ القوميّة، وليصلُحَ من ثَمّ ميثاقاً للعملِ السياسي لو أخذ به على الوجهِ الذي ترتفع فيه السياساتُ والأحزاب والهيآت، فلا تُضيعها المعارضة، ولا يقصرُ بها الاختلاف في وجهاتِ النظر،.. وإنَّ دلَّ هذا على شيءٍ، فإنما يدلُّ على مدى إدراك لمرامي المعاهدات وغاياتها التي تحوَّلَتْ إليها سياسات أوربة مع العرب آنذاك — ومنها معاهدة ١٩٣٦ م.

* * *

ومن ناحيةٍ ثانية فانه كان يفتش عن المُعجم الحيّ في الأمة، ذلك الذي يتألّفُ من مليون جندي، لا مليون كلمة!.. إنّه معجم القوّة التي تعين الأمةَ على المقاومة والرفض، ليقولَ بعد ذلك مقرراً الحقيقةَ الواقعيّة، ويوجه السياسيّين الوجهةَ الصحيحةَ للهدفِ الأسمى :

« إنَّ أوربةَ لا تحترمُ إلا من يحمِلُها على احترامِهِ، فما أرىٰ للسياسيين عملاً أفضلَ، ولا أقوىٰ، ولا أردَّ بالفائدة من إحياءِ الحماسةِ في الشعب،

---

(١) الرسالة ١٦٩، وحي القلم ٢ — ٢٩٤

ثم حياطتها وحسن توجيهها؛ فهذهِ الحماسةُ الدائمة القويّة البصيرةُ هي قوّةُ الرفْض لما يجبُ أن يُرْفَضَ، وقوّةُ التأييد لما يجبُ أن يُقبل، وهي بعدُ وسيلةُ جمعِ الأمرِ وإحكامِ الشأنِ وإقرارِ العزيمة في الأخلاقِ وتربيةِ الثقةِ بالنفس، وبها يكونُ إذكاءُ الحِسّ وتعويدُهُ إدراكَ الأعمالِ العظيمة والتحمُّسُ لها والبَذْلُ فيها، وما علّةُ العِلَلِ فينا إلا ضَعْفُ الحماسةِ الشعبيّة وسوءُ تدبيرها »[1].

إنه يُعيّنُ مكامِنَ الخطر في القوةِ ويُدِلُّ السياسيين عليها، ويعودُ يذكرهم بأنّ « حماسةَ الشعب لا تكونُ على أعدائهِ فقط، بل على معايبهِ أيضاً، وعلى ضعْفِهِ بخاصّة، والشعبُ الفاتر في حماستِهِ لو نال حقّين مَغْصوبَيْنِ لعادَ فَخَسِرَ أحدهما أو كليهما. أما الشعب المُتحمِّسُ القويُّ في حماستِهِ فلو غُصِبَ حقّين ونالَ أحدهما لعادَ فابْتزَّ الآخر »[2].

طريق الاصلاح والحكومة الأخلاقية

وهو إذ يقرّرُ هذه الحقائق الجليلةَ، ويرى النظَراتِ الصائبة، ويُبْصِرُ برشادِ الأريب، ومن حولِهِ تدورُ السياسة في مواضِعها من سَوافي الأحزاب، وأنديةِ الليل، ومجالس النيابة، ورَدَهاتِ القُصورِ، وأروقةِ الفنادق « في صُوَرٍ مُمَثِّلةٍ جافّة منقطعةَ النَّماءِ من أسبابها كالفرع المقْطُوع من الشجرة!. وإنما يتنضّرُ الفرعُ ويُثمرُ إثمارَهُ إذا قام بشجرتهِ لا بنفسه، وما شجرةُ الفرع السياسي إلّا الجمهور السياسي »[3].

(١) الرسالة ١٧٤، وحي القلم ٢ ــ ٣١٠
(٢) الرسالة ١٧٤، وحي القلم ٢ ــ ٣١٢
(٣) الرسالة ١٧٢، وحي القلم ٢ ــ ٣١٥

وهنا عادَ ليَرْسِمَ طريق الاصلاح الذي يملأُ الفراغَ المُسْتحكم، والذي يتّصل بين رجالِ الحكم وأبناءِ الأمة[1] وقد مرَّ بنا آنفاً.

إنه يريد لهذا الشعبِ طبيعةً جدّيّةً صارمةً يَنظُر من خلالِها إلى الحياةِ، فيَسْتشعرُ ذاتَه التاريخيّة المجيدة، فيعملُ في الحياةِ بقوانينها، وهذا شعورٌ لا تحدِثُهُ إلا طبيعةُ الأخلاق الاجتماعية القويّة التي لا تَتَساهُلُ من ضعفٍ، ولا تتسمّحُ من كذبٍ، ولا تترخّص من غفلةٍ. « والحقيقةُ في الحياة كالحقيقة في المنطق إذا لم يصدُق البرهانُ على كلِّ حالاتِها لم يَصْدُق على حالةٍ من حالاتِها؛ فاذا كنّا ضُعفاء كرماء أعزّاء سادة على التاريخ القديم، فنحن ضعفاء فقط! ».

ثم إنّه ليقرّر هذه الحقائق ويؤكّد ما يعوزُ كُبراء الأمة منها، وليفجأ السياسيين أجمعين بدَعْوتِهِ الثورية قائلاً : لن تفلح حكومة سياسية في الشرقِ ما لم يكن شبابُها حكومةً أخلاقيّة، يعدُّها من نفسهِ ومن الشعبِ في كلِّ حادثةٍ بالأخلاق المحاربة[2].

هذا الى كلماتٍ وفقرات مُثيلات أخريات فيها مادة غَنية في هذا الشأن، تدلُّ دلالةً واضحة على مدى تفاعُل الرافعي بالأحداث والمؤثرات السياسية والأنواء والتحوّلات التي كانت في أيامه، وكيف كان ينظر إليها بقلبٍ شهيد، ويدرك أبعادها ومراميها، ويُنبّهُ على أخطارها ويُغري بالأخْذِ بزمام المبادرةِ بالسيطرةِ عليها ومَسْكِ عِنانِ الوقائع بالعمل الجادّ الدؤوب، ذلك أن « أساس العَمَل في الاسلامِ إخضاعُ الحياةِ للعقيدةِ،

---

(١) الرسالة ١٧٢، وحي القلم ٢ ــ ٣١٥

(٢) الرسالة ١٦٢، وحي القلم ٢ ــ ٢٧٦

فتجعلُها العقيدةُ أقوىٰ من الحاجة؛ فيكونُ الفقيرُ مُعْدَماً ويَتَعَفّفُ، ويكون الغَنِي مُوسِراً ويَتَصَدّقُ، ويكونُ الشَّرِهُ طامِعاً ويُمْسِك، ويكونُ القويُّ قادراً ويحجم، وكما قالَ العربُ في تحقيق ناموس الأنفَةِ والحميّةِ وغَلَبتهِ على الناموس الاقتصادي « تجوعُ الحرّةُ ولا تأكلُ بثدييها».

إنه لا يفتأ يذكرُ أنّ لمصر في تحرّكها السياسي والتفاتتها القوميّة ميداناً يتّسعُ للحقيقةِ الاعتقادية للامّة كلّها.

حكومة الأخلاق

أمّا الحكومة، فكان يريدُها صحيحةً يحكمُها الشبابُ في الشعب « حكومة أخلاقيّة نافذة على القانون تَضْبِطُ أخلاقَ النساء والرجال، أو تردُّها أخلاقاً محاربة لا تعرف الا الجهد والكرامة، وصرامة الحق »[1].

ذلك أن المعركة بيننا وبين الاستعمار معركةٌ نفسيّة ــ إن لم يُقْتَلْ فيها الهزلُ، قُتل فيها الواجب، وقد كانت حكمةُ العرب التي يَعْملُون عليها : أطْلُبِ الموت تُوْهَبْ لك الحياة، والنفس إذا لم تَخْشَ الموتَ كانتْ غريزة الكفاح أولَ غرائزِها تعملُ. والكفاح غريزة تجعَلُ الحياةَ كلّها نَصْراً، إذْ لا تكونُ الفكرةُ معها إلا فكرةً مقاتلةً »[2].

* * *

مما تقدم من شواهد وأمثال مما ورد وما لم يرد، يظهر لنا موقف

---

(١) الرسالة ــ السابق

(٢) المضمار ــ ٢٢ ديسمبر ١٩٢١ م.

الرافعي السياسي وهو يبصر بالأحداث من حواليه، وقد تمثل له القطر بمكانه من الأمة وطبقاتها، والعقيدة بعظموتها، ترسم له الصورة السياسية التي يهتمُّ لها ويُعنى بسببها، ويتحراها في لونٍ من ممارسة السياسةِ الوطنية والنظرة القوميّة، يسمو على سائر ما كان عليه أدباء تلك الأيام من الاختلاف على الأحزاب والاضطراب مع سياساتها المداورة والمدابرة وغير المستقرة بحال.

إن وطنية الرافعي من النوع السامي، وقوميته من الاعتقاد الرفيع الذي ينظر الى الآفاق العامة، بعيداً عن الانحياز وبعيداً عن الالتواء.

ج ــ الحياة الثقافية

عاش الرافعي عصراً من الحياة الثقافيّة والفكرية ذاتِ الجوانب المتعدّدة، والجَبَهاتِ المُتَرامية الأطراف والأبعاد، طَبَعَت العصرَ بعواملَ ومؤثّرات؛ جعلت التحوّلَ فيه مبدأً، والتطوّرَ بأساليبِ الأخذِ والاستيعابِ وسيلةً، ورمَتْ الى أهدافٍ وغاياتٍ منها القريب الذي يُحاولُ بالأُمّةَ النهضةَ، ومنها البعيد الذي يلحق بِها في الركب الحضاري، والحياة الوليدة.

التعليم

وقد توفّرتْ على دراسة نواحٍ منها مُصَنَّفاتٌ وتآليفُ، حسبُنا أن نشير إليها بين المراجع والمصادر، في كلّ انتقالة نُعنىٰ بها في هذا الشأن[1].

---

(١) منها التعليم في مصر، وفي الأدب الحديث، وتطور اللّغة، والعوامل الفعالة في الأدب.. الخ.

كان التعليم ما يزالُ موزّعاً بين المدارس المُلْحقة بالمساجد ونُظُمها الأزهريّة، ذات الحفظِ والمُتون، وبين الأخرى التي سلكَتْ على أنظمةِ المدارس الحديثة، وفيها مدارس التبشير والمذهبيّات العقائدية، والمدارس الأميرية — الرسميّة.

ولما كانَ الرافعي أحدَ أبناء الفقهاء الموظفين الذين لا يَسْتَقِرُّ بهم مقامٌ يومذاك، إذ كان النقل في الوظيفة بيّن المدّة مألوفاً، وقد آثر أبوهُ أن يُلْحقَهُ بمدرسة « دمنهور » الابتدائية، بعدما أخذ نصِيبَهُ في الكُتّاب، وحضر دروساً أخرىٰ عليه[1] وظفر بشهادة الابتدائية من مدرسة المنصورة وعمره بضعة عشر عاماً[2].

وما كاد يرسِلُ بعض نظمهِ ونثرهِ حتى راحَ يكشف عما يعوز التعليم آنذاك من الأدبِ التربوي، فيحاولُ وضع أمثلةٍ له[3] ولا سيما بعد حرمانِهِ من متابعة التحصيل في المدارس بسببٍ من مرضه.

الجامعة

وكان من أشدّ الناس اغْتِباطاً بدعوةِ الزعيم مصطفى كامل لإنشاءِ الجامعة، وقال فيها إنها « فكرةٌ وطنيةٌ انْشَقَّ لها مكانُها في الحوادثِ، فجاءَتْ كما تجيءُ الحادثة الوطنية قائمةً على ما قبلها، ليقومَ عليها ما بعدها، وبَذَلَتْ فيها الأمة، وشمرت لها، وجدّ بها الجدّ »[4].

---

(١) الهلال — يناير/١٩٥٧ م
(٢) سعيد العريان — ٢٣
(٣) أنظر ديوانه في الأمثلة — الأول والثاني خاصة.
(٤) المعركة بين القديم والجديد — ٦٨

ويومَ كان يكتبُ للجريدةِ في الأدبيّاتِ وما يَنْبغي أن تكونَ عليه[1] بحيثُ تَرْتفعُ بالأمّةِ درجة فَدَرجة، «كما يَرتفعُ بالطفْلِ الى الكلام من أحرفِ الهجاء» كان يُمَنّي نفسَه بعلمٍ جديد في الجامعةِ، يَلْقَفُهُ فيضيفُ منه الى تحصيلِهِ ولكنّهُ وجدَ أنها «ما اسْتَحْدَثَتْ شيئاً في الأدب يَفْتقر إليه، وما تحدَّثت أساتذتُها حديثاً في الأدبِ لا يَعْرِفُه»[2]. فكتبَ مقالته الشهيرة ينعىٰ فيها على «الجامعة» إغفالَها أمر العربيةِ وآدابها، فلا سبيلَ الى عُذْرِ القوم — وقد نصّوا في (دستور) الجامعةِ على نوعين من الآداب الأجنبية، الخ..[3].

ثم أتْبعها بمقالةٍ أخرىٰ تكلَّم فيها على مَذْهبِ العرب في آدابهم من الروَايةِ والحفظ والجرح والتعديل، ومبحثِ التنظير والموازنة، ومبحثِ الصناعاتِ اللّفظيّة وتحقيقها. الخ[4].

ولم يكن يُلْفِتُ النّظرَ بذلك فحسبُ، وإنما يضَعُ اللّبنَة الأولى في الأساس القومي للتعليمِ الجامعي المنيع، حتى لا تأخذَ الجامعة بمبدأ تقليدِ الغرب في «أدبياتِهِ» فتكون كالمدارس الابتدائية والثانوية..

ولذلك راح يَسْخَرُ من الجامعةِ واستاذ الأدب فيها ورئيسها بعد ذلك بسنين، يوم عادَ الموضوعُ في مُلَفَّقٍ على الشعر الجاهلي، أملاه الدكتور طه حسين على تلامذتِهِ فيها بعد ذلك التاريخ[5].

---

(١) الجريدة — ديسمبر ١٩٠٧ م

(٢) العريان — ٥٠

(٣) المعركة — ٧١

(٤) المعركة — ٧٥ — ٧٧

(٥) يأتي تفاصيل ذلك في (الرافعي الناقد)

ما يعوز التعليم الحديث

ولما صارَ له أولاد يَتَلَقَّوْنَ علومَهم في المدارس الحديثة، ويلجأُ هو إلى معاونتهم في الدرس والمراجعة[1] وينظرُ في أوراقهم الامتحانيّة زادَ حِرْصاً على ملاحقةِ بعض الأنظمة والمناهج في هذا الشأن، وله في ذلك كلماتٌ وشفاعات في الطلبةِ والامتحانات، وأسئلةِ الآداب في الجامعة وفي خريجي المدارس الزراعية العليا، كان لها وقعٌ خاص، وترتَّبَ عليها عِدّةُ أشياء منها توسيعُ المدارس العالية، ومنها تقرير المدارس المُلْحقة[2].

وكان كبيرَ العناية بالتعليمِ الاسلامي والمعاهد الدّينية وفي مقدمتها الأزهر الشريف، وانه لفي عام ١٣٥٥ هـ ــ ١٩٣٦ م والبلادُ يومئذٍ تُقْبلُ على عهدٍ جديد في الاستقلال السياسي وتسبّق الحكومة في الآداب[3]، فيسارعُ الرافعي لابداءِ رأيهِ ضِمْنَ المُسابقة بقوله : « باللّغةِ والدين والعادات يَنْحصِرُ الشعبُ في ذاتِهِ الساميةِ بخصائِصها ومقوماتِها، فلا يسهلُ انتزاعُهُ منها، ولا انْتِسافُهُ من تاريخه، وإذا أُلجِىءَ الى حالٍ من القَهْرِ لم يَنْخَذِلْ، ولم يَتَضَعْضَعْ، واستمرَّ يعمَلُ ما تَعْمَلُهُ الشوكةُ الحادّة،.. إن لم تترك لنفسِها لم تُعطِ من نفسِها إلّا الوَخْزَ »[4].

ثم حمّل الأزهرَ واجباتٍ أخصّ، أن يعمل لاقرارِ معنى الاسلام الصحيح في المسلمين أنفُسِهم؛ ذلك أنّه وَجَدَ أن الحكوماتِ الاسلاميّة

---

(١) رسائله ــ ١٧٦

(٢) هي في المقطم ــ ١٩٢١، ١٩٢٢، ١٩٢٤ م

(٣) رسائله ٢١٤، العريان ــ ١٣١

(٤) الرسالة ١٤٥، وحي القلم ٣ ــ ٣٧

لما لها من وجودٍ سياسيّ، وآخر مدني تُعاني من ازدواجهما ــ فقد بقي الأزهرُ وحدَهُ هو الذي يَصْلُح لإتمامِ ذلك النقص الخطير في تلك الحكومات(١). كما أوجَبَ على الأزهر أن يتناولَ الأمّةَ من ناحيةِ قُلوبها وأرواحها، وأن يُعِدَّ تلاميذَهُ كما يُعِدُّونَ القوانين الدقيقة، لا طُلّاباً يرتزقون بالعلم ــ ومن ثمَّ يكونُ واجبُ الأزهر أن يطلُبَ الإشرافَ على التعليم الاسلامي في المدارس، وأن يدفع الحركة الدينية بوسائل مختلفة(٢).

أمّا الرسالة الكبرى فهي « بثّ الدَّعْوةِ الاسلاميّة في أوربة وأمريكا واليابان بلُغاتِ الأوربيين، والأمريكيين واليابانيين، في ألْسِنةٍ أزهرية مَصْقُولةٍ، لها بيانُ الأدَبِ ودقّةُ العلم، وإحاطةُ الفلسفةِ وإلهام الشعرِ، وبصيرةُ الحكمة، وقُدْرةُ السياسة »(٣). وبذلك يثبت ما يعوز التعليم الحديث من الأساس الاعتقادي والبناء القومي ــ وقد راحتْ وزاراتُ التعليم تمسَحُ في صفوف الشعبِ وتعلّمهم فكَّ الخَطّ به، وهو في ذلك الحال من النقصِ الخطير الذي قد يُضافُ إليه تخريج هذه الكثرة الكاثرة من الموظفين فقط، الذين أضحىٰ وجودُهم عِبْئاً ثقيلاً على الدولة، يتحمّلهُ الشعبُ بنتاجه!

ذلك أنه يأخذُ الطالب فيه زَهْوَ نهارِهِ لسنواتٍ لا يعملُ فيها عملاً يرتزقُ منه، أو يُسْهِمُ في انتاج، وعليهِ فلا سبيلَ له غير الوظيفة، فكأنَّ العلمَ وسيلةُ ارتزاقٍ رديء محدود!

* * *

---

(١) الرسالة ١٤٤، وحي القلم ٣ ــ ٣٩

(٢) الرسالة ١٤٤، وحي القلم ٣ ــ ٤١

(٣) الرسالة ١٤٤، وحي القلم ٣ ــ ٤٢

الصحافة والنثر الحديث

ولما كان العَصْرُ قد حفِلَ بالصحافةِ التي توزَّعت الأيام والأسابيع والشهور، فكانت آية الحضارة الجديدة، وسجّلَ التاريخ الحديث، وقد هُرع إليها الرافعي في شبابهِ، يُناولُها رسائلَهُ وأشعارَهُ ومقالاتِهِ ودراساتِهِ، وقد همَّ غَيْرَ مرّة أن يأْخُذَ سبيلَهُ إليها كاتباً (محرّراً) ولكن عواملَ عديدة كانَتْ تمنَعُهُ وتعوِّقُهُ عن المُضِيِّ في ذلك السبيل، وقد زعَمَ أنه سألَ الأستاذ الإمام محمد عبده يوماً : كيف يكتُبُ العالم؟ وكيف يكتُبُ الصحافي؟ وكيف يكتبُ الأديب؟ وما مقاصِدُ الحدودِ بين الثلاثة؟ قال : فنظرَ إليَّ رحمَهُ اللهُ نظرَتَهُ التي تنفُذُ الى أعماقِ النفسِ فتكشِفُ جَوانبها، وتتصفّحُ جِهاتِها، وتُقابِلُ فيها بينَ معاقِدِ الأملِ ومقاصِدِهِ، وقال :

« أراكَ تَمْتَهِدُ لغرضٍ، وإنَّ وراء لَفْظِكَ القَلَقِ لَمعنىً مُطمئناً، ويُخيّلُ إليَّ أن لك هوىً في مُزاولةِ الصحافة. قلتُ : هو ذلك يا مولاي، وما بي أن أعلمَ إلا ما أعملُ وإلّا فأينَ أقعُ من أدبكَ إذن؟!

قال : فاعْلَمْ أنّ الحقائق النفسيّة مطلقةٌ لا قَيْدَ لها، وأنَّ الحدَّ لا يَثْبُتُ على الحقيقةِ بتمامها، وهي معنى الكمال، إلّا إذا كان للكمالِ المُطْلَقِ حَدٌّ محدود، وإنما تؤتى هذه الحقائق من جهةِ العُرْفِ، وتَنْتقصُ في مواصفاتِ الناس، وأنتَ خبيرٌ بأن مجرى العُرفِ في أمّةٍ من الأمم لا يكونُ إلا بحسَبِ ما في مجموعِها العَقْلي من القوّةِ أو الضعف، فقد اصطلحنا في بلادنا على أن من يحفظ كتاباً أو يقرأ درساً أو يقرر مسألة، يسمّى عالِماً،.. ثم توسَّعْنا في ذلك حتى صار من يحملُ كتاباً أو درساً في « ملزمةٍ » من كتابٍ أو مسألةٍ من درسٍ يسمّى عالِماً أيضاً. وتواطأْنا على أنَّ من يُنشئُ صحيفةً ــ وإن كتبها غيرُه[1]

(١) تأمل هذه؛ وكيف كاد يكشف عن نفسه مهما بالغ في التجريد والحذر!

ـــ وكان هو وصحبةُ كلِّ قرائِها، سَمَّيْناهُ صحفيًّا، ثم غَلَوْنا في ذلكَ حتى صار كلُّ من يقرأ صحيفةً يرىٰ من هوانِ الحِرْفةِ عليهِ أنَّ أَيْسَرَ الأشياءِ عملاً أن يكونَ صاحبَ تلك الصحيفة أو كصاحبها. وتواضَعْنا من قديم على أنّ من يحفظ قطعةً من اللُّغة ـــ نظمِها ونثرها، سمّيناهُ أديباً ـــ وإن كان يرى الأمم الحيّة بعينيهِ وهو نفسهُ كبعضِ الموتىٰ، لا أثرَ له في قومِهِ ولا في لُغتِهِ. ثم بالَغْنا في ذلك حتى صارَ كلُّ من يحصَلُ على شَذْرةٍ من ذَيْنِك المعدَنين النفيسَيْن ـــ وإن كانَتْ سِرْقَةً ـــ سميناهُ أديباً أيضاً.

واصْطَلَح غيرُنا ممن فَهموا أسرارَ الحياة، ولم يُقَدّسوا الموت تَقْديسَ الزُّهاد، ـــ والأمّةُ إذا أفرَطَتْ في واجباتِ الموت فرَّطَتْ في أغراض الحياة ـــ اصطلحوا على أنّ من قامَ به فنٌّ من الفُنون فهو العالِم، ومن تعلّقَتْ بهِ مَصْلَحةُ الأمة فهو الصحفي، ومن كان لأمتِهِ في مواهب قلمهِ لقبٌ من ألقاب التاريخ فهو الأديب.

ليست الصحافةُ عندنا بأحوج الى الحقيقةِ الصحفيّة عند غيرنا، منها الى حقيقةِ العلم، وحقيقةِ الأدب.. فانْ أردتَ أن تُصحّحَ مَعْنى العُرفِ، وتُصْلحَ خطأَ الاصْطلاح ورغبْتَ بحقّ أن تكونَ أَحَدَ الثلاثة، فكُن الثلاثَةَ جميعاً »[1].

إنَّ ما جاءَ في هذا الحديث يُشير بوضوحٍ الى الصُّورةِ التي كان يُريدها الرافعي للصّحافة، وعلى أساسِها كان قد حاوَلَ الكتابةَ فيها، أو مراسَلَتها، أو النشرَ في بعضِ مجلاّتها وجرائدها.

---

(١) البيان ـــ شعبان ١٣٢٩ هـ ـــ ١٩١١/٨ م

وقد كان لانتشارِ الصحف العربيّـة، والطباعة، انقلابٌ في الإثمارِ الفكري في الشرق العربي، تحدّثَ عنه سائرُ من تصدّىٰ لتاريخ هذه الظاهرة الحضاريّة في العصور الحديثة[1].

تأثّره بها وتأثيره فيها

وكان للرافعي مع الصحافةِ تاريخٌ ونُمُوٌّ فكري، وجياةٌ فيها الحُلْوُ وفيها المُرّ، وفيها الأيّام تَداوَلُ من أمامِهِ، وتدورُ بالآراءِ والأفكار هنا وهناك. وإن احتفظَ من جانبهِ بذلك الأساس الذي نَحَلَهُ الإمام.

ذلك أنّه ما كادَ يرسِلُ قلمهُ في نظيمٍ أو نثير، حتّى تراءى له أن يبعثَ به الى الصحف، وكانَتْ أغلبُها يومذاك في أيدي الشاميّين[2] وقد نَشَرَت « المنار »[3] بواكير نظمهِ، وأوائلَ رسائلهِ وموضوعاتِهِ[4] وعَقَّبَتْ على بعضها، كما احتَفَتْ به « الجامعة »[5] وبشّرتْ بنُبوغهِ الشاعر وتحدَّثَتْ عنه[6] وأطلَقَتْ عليه لقب « شاعر الشرق » من أجلِ قصيدتِهِ التي قالها في اللُّغة العربية[7].

ثم أخذ « المقتطف » بيده؛ يَدُلُّه على العلمِ وميادينِهِ، والموضوعاتِ

---

(١) منهم الفيكنت فيليب دي طرازي، والدكتور ابراهيم عبده، وعبد اللطيف حمزة..
(٢) حياة الرافعي ــ ٣٢
(٣) للشيخ محمد رشيد علي رضا الحسيني صاحب الإمام محمد عبده.
(٤) أنظر المنار ــ محرم ١٣١٨ هـ، ربيع الآخر ١٣١٨ هـ.. وغيرها مما ترد الاشارة إليه.
(٥) لفرح أنطون ــ الأديب المترجم الروائي الكبير.
(٦) سلامة موسى ــ الهلال/يناير ــ ١٩٢٤ م
(٧) الجامعة ٧، ٨ ــ ١٣٢١ هـ ــ ١٩٠٣ م

التي يَنْظمُ فيها ويكتبُ ويدرسُ ويجدّدُ ويبتكر[1]. فيُربّي أدبَهُ، ويُقَوِّمُ شعرَهُ، ويحتفي بهِ في الموضوعاتِ الحديثة التي يَبْعَثُ فيها حياةَ الأدب وفنونَهُ والعلمَ بهِ. ــ وإن كان يحذفُ في بعضِ الأحيان ــ ويختصر ما يَهْتمُّ الرافعي ويُعنىٰ بهِ أن يُبْدِيه للناس، ويُظهرُهُ للقُرّاءِ بلا إبطاء[2].

ولعلَّ أروع ما كتبَهُ الرافعي كان يُنْشَرُ في « المقتطف »، وكانت « الهلال »[3] تنشُرُ له أيضاً وتَسْتكتِبُهُ وتحفِلُ بآرائه، التي ينفرد فيها كموضوعاتِ المرأة والنهضةِ والتجديد، والشرق والأخلاق،.. وما إليها من موضوعاتٍ[4] ما تزالُ « الهلال » تحسِنُ إثارتها والجدّ في شَغْبِها، وتَسْتمزجُ فيها آراءَ الكتّاب والأدباء بوجهاتِ نَظَرٍ تتوزَّعُ طرائقَ ومذاهب. كما كانت تأخُذُ ما يَنْشُرُهُ في الصحف اليوميّة فتُعيدُ نشرَهُ[5].

وكانت « الثريا » من أوائلِ المجلّات التي عُنيتْ بمقالاتهِ النقدية ــ ولا سيما تلك التي تَطيَّرَ لها شعراءُ العصر مِن توزيعِهِ لهم في درجات[6].

وكذلك كانت « سركيس » و « الظاهر » و « المنبر » و « المجلة » وغيرها..

---

(١) ليعقوب صروف وفارس نمر ــ نقلت من بيروت الى القاهرة بعد الغزو الانجليزي ــ. أيام توفيق.

(٢) رسائله ــ ١٢٥

(٣) لجرجي زيدان ــ ثم أميل وشكري زيدان.

(٤) تجمعت لديّ مع غيرها من الرسائل في جزء خاص أعدّه من « وحي القلم » باذن الله.

(٥) منها قصيدة الشرق المريض، والسيف العثماني نشرتهما المقطم وأعادت الهلال نشرهما.

(٦) الثريا ــ يناير ١٩٠٥.

كما كان احتفاء الصحف اليوميّة به عظيماً؛ فتحَت « المؤيد »[1] صدْرَ صفحاتها الأولىٰ لمقدماتِ دواوينه، واستبشرَت « اللـواء »[2] ومكتبةُ « الجريدة »[3] من الصفحة الأدبية، وكذلك كانت « الأهرام » و « الشعبُ » و « العلَم » و « الأخبار » و « الصاعقة » وغيرها.

ذلك كان شأنُه مع الصحف في مصر، وكانَت الصحف العربية في بقيةِ الأقطار تنقل ما يكتبُه فيها، وتعودُ فتنشرُهُ على صفحاتِها في احتفاءٍ وإجلال[4].. وإن لم تكنْ تستأذِنهُ في أغلبِ الأحيان، ولا تمدُّهُ بشيء!.

وكان هو لا يَبْخَلُ من ناحيتِهِ على واحدةٍ منها، لا تُعَوِّقهُ عنها سياستُها ولا مَذْهبُها، ولا يهمُّهُ من أيِّ بحرٍ اغْتَرَفَتْ، وفيها صحفٌ كان للسياسةِ فيها النصيبُ الأوفر ــ وقد توزَّعَتْ مع مناطق النفوذ فيها؛ منها ما كان للمحتَلّ يدٌ عليها، ومنها ما كان للأحزاب، وقلَّما استقلّتْ صحيفةٌ بالفكرة العربية أو العقيدةِ الإسلاميّة[5]، فكانَ حالُهُ معها كحالِ ذلك الرجُل الصالح الذي يَطوفُ بحارةِ اليهودِ يومَ السبت يذكرُ الله ويُصَلّي على النبي محمد الكريم ﷺ.

مساهمة وابتعاد

وقد تهيّأ يوماً ليُصْبح كاتباً (محرراً) في « الجريدة » في أيامها الأولى؛ ذكر ذلك في قوله : « فكّرتُ في ــ العمل الصحافي ــ

---

(١) لعلي يوسف ــ وكانت صحيفة العالم العربي.

(٢) للزعيم مصطفى كامل.

(٣) للطفي السيّد ــ صاحب (المصرنة) القطرية.

(٤) ربما وردت الاشارة اليها

(٥) وقد يعجب المرء حينما ترد اشارته على أبي ريّة بقراءة الجريدة ذات الميول الانفصالية والصاعقة ــ وهي عثمانية ــ حميدية، والمقتطف العلميّة، والبيان العربية القوميّة ــ الرسائل ــ ٣٧.

مرةً، أو أيّام الطلَب وعَصَمَني الله وله الحَمْدُ والمنّة، إذ رَدَّني والدي رحمه الله على رأيي، ونَقَض عزيمتي، فكما أوجَدَني حمىٰ وجودي،.. ثم عَرَضتْ مرّةً أخرىٰ عندما أُنْشِئَت « الجريدة » فأرادوني (محرراً) فيها، وأدركتني رحمةُ الله بوالدي أيضاً »[1]، وفي تلك المحاولةِ نَشَر بعضَ فصولٍ في الأدبِ والنقدِ أبرزَتْ فنَّهُ، وعرّفَتْ به، وأوضَحَتْ مذهبَهُ الأدبي، وأعلَنَتْ قَلَمَهُ للنّاس — وهي التي تردُ الاشارة إليها في غير هذا الفصل بصورة أوضحَ وأشمل[2].

وقال أيضاً : « في ابتداءِ أمري كنتُ نَزَعْتُ الى العملِ في الصحافة، وأنا يومئذٍ مُتَعَلّم ريّض ومتأدبٌ ناشِئٌ، ولكن أبي رحمه الله ردّني عن ذلك، ووجهني في سبيلي هذه والحمد لله، فلو أني نشأت صحفيًّا لكنْتُ اليومَ كبَعْضِ الحروف المكسورةِ في الطبع! »[3].

البيان

ولكنّه حين رأى عزيمةَ صَفِيِّهِ عبد الرحمٰن البرقوقي على إصدار (البيان) — وهو في حالٍ لا يسمَحُ له بادارتها بَلْهَ تحريرها وإعدادها، آثر الرافعي أن يأْخُذَ على عاتقهِ هذه المهمّة على الأساس الذي تقدَّم، والخِطّة العربيّةَ القوميّة التي رَسَمَها في افتتاحيةِ الجزء الأول — وما تزالُ تنْسَبُ خطأً الى البرقوقي.

وفي هذه المجلةِ تخرّج العديدون من الأدباء والكتّاب ولا سيما

(١) المجلة الجديدة — مايو ١٩٣١ م
(٢) انتظر الرافعي الناقد الأديب.
(٣) الرسالة ١٨٩، وحي القلم ٣ — ١٨٤.

دعاةُ ما سمّي بالمدرسةِ الحديثة في الشعر؛ عبد الرحمن شكر، وعباس محمود العقاد وابراهيم عبد القادر المازني.

قال الشيخ محمود أبو ريّة : إنَّ الرافعي كانَ يَقْرأ كلَّ ما يُدفع « للبيان » من مقالات وقصائد وأحاديث ومترجمات، ويُجري فيها قَلَمَه (الأحمر) تَصْحيحاً وتوجيهاً في السنواتِ الأربعة الأولىٰ، حتى نَزَلَ بالبرقوقي ما نزل، فأضَرَّ بالرافعي ماديًّا، وقد أشار عليه بالتوقّف عن إصدارها حتى تصلُحَ أحوالُه، فأبى،.. عندئذٍ تركَهُ الرافعي يتخبَّطُ حتى ماتَتْ بين يديه[1].

وربما كان من أعجبِ ما في أمره أنَّهُ لم ينقطع عن مناولةِ الصحف الأخرى ــ كالمقتطف والهلالِ بخاصة، وتلك الصحف التي تتعرّض له بالسؤال أو النقد أو التقريظ.

* * *

وكان زينُ الشباب أمينُ الرافعي ذا باعٍ في الصحافة ومكانةٍ كبيرة، وقد أخرجَ أكثر من صحيفة، منها ما كان متّصلاً بالحزب الوطني كاللواء والعلم والشعب، ومنها ما ينفردُ بهِ « كالأخبار » ذات الانتشار الواسع والنظرة السياسية المُسْتقلّة الحرّة. لم يُشارِكْ صادق الرافعي فيها إلا بمقدارٍ ضئيل[2] عاد إليه فيما بعد ليجعَلُ منه « أحاديث الباشا » التي نَشَرَها في « الرسالة » وقد مرّت الاشارة إليها، وقصارىٰ ما كانَ

---

(١) حدثني بذلك في صيف ١٩٦٦، وكان يحتفظ بأوراق فيها أصول مقالات له وللآخرين ــ وقد أجرى قلمه فيها.

(٢) حدثني بذلك عبد الرحمن الرافعي عام ١٩٦٤ م.

يُساعِفُ به أن يُملي على بعض المحرّرين فيها آراء وأفكاراً، في بعضِ شؤون الحياة السياسيّة والاجتماعيّة والأدبيّة وغيرها.

وقد يُصِيبُ المرءُ بعضَ أسلوب الرافعي في محرري «الأخبار» خاصة مثل: عبد الحميد سالم، وأحمد خير سعيد وغيرهما، وما كان يُمْليه على يوسف حنا في «الضياء» والرسالة واسعد حسني (حنا) في (الإشاعة) وفي (الأسبوع) وغيرها[1].

وكان هؤلاء يأخذون عنه الرأي والفكر بحروفهِ أحياناً، ولا سيما في تلك الموضوعات التي تَعلَّقُ بالمفهومات القوميّة ــ الفكريّة والتاريخيّة والمذاهبِ الأدبية والنقدية التي راجَتْ فيها الآراءُ المُضْطَربة يومذاك. وكانَ للرافعي فيها رأيٌ معلوم ووجهةُ نَظَر ظاهرة.

وعلى ذلك لم يكن الرافعي بَعيداً عن الصحافة ــ وإن كانَتْ عنده مَفْسَدَة للنّبوغ، مَقْتلة للمواهب، ومن أشقّ الأعمال على النفوس الكريمة[2] ولكنّ الذي كان يُؤْذيهِ في الصحافة أنها لم تكنْ في أيدٍ أمينة، وكثيراً ما كانَتْ تحجبُ ردوده وبعضَ تعقيباته لأنها تقع في أيدي خصُومِهِ[3] وكذلك ساءَ رأيهُ فيها، حتّى لم يُسَمّها صحفاً، وإنما هي حوانيت[4] وقد عَدّ الكتّاب فيها (صعاليك) ورآهم ــ وقد

---

(١) راجع ما كتبه الأول في الأخبار ٢٠ شعبان ١٣٤٦ هـ، ١٢ فبراير ١٩٢٨ م و١٦، ٢٠ منه مثلاً، وما كتبه الثاني في الأخبار ٦ منه و١٨ نيسان/ابريل ١٩٢٨ م وانظر الضياء ٣ يناير ١٩٣١ م و٣ فبراير للآخر، والرسالة ٤٣، والأسبوع ٣٨ ــ وراجع العريان ٢٦١.

(٢) المجلة الجديدة ــ مايو ١٩٣١ م.

(٣) رسائل الرافعي ــ ١١٧

(٤) رسائل الرافعي ــ ٢٥٢

انتهوا في الأدب إلى نهايةٍ عجيبة، فأصبح كلُّ من يكتُب يُنشَرُ له، وكلُّ من ينشر له يعدّ نفسَهُ أديباً، وكلُّ من عدَّ نفسَهُ أديباً جازَ له أن يكونَ صاحبَ مذهب، وأن يقول في مذهبه ويرُدَّ على مذاهب غيره[1].

وقد عرض يوماً على الأستاذ أحمد تيمور (باشا) أن يختمَ أعمالَهُ الجليلة بالسَّعْي في إنشاء جريدة إسلاميّة كبرىٰ؛ يجمَعُ فيها الأقلام الإسلاميّة من أقطارِ الأرض، وتكون سياستها إسلاميّة محضة، لتَتساقَطَ بجانبها كلُّ صُحُفِ التدجيل الموجودة آنذاك[2] إنّه يَنْشُدُ وحدةَ الأمة في كلّ جانب من جوانب الحياة، ويريد التفافها حول عقيدتها القرآنية — وإن لم يتهيأ انفاذ ذلك!

حقيقة في المساهمة

هناك حقيقة كبرىٰ هي أن معظم الأفكار السياسيّة والنظرات الثقافيّة، والمذاهب الأدبية، والفلسفاتِ المحدثةِ في الفنّ والاجتماع، كانَتْ تتَّخذُ سبيلَها الى الصحف، أو تَتَسَرَّبُ المعلومات عن تصانيفها إليها، فَتَدُورُ المناقشاتُ على صفحاتها، ويحتدمُ الجدَلُ، وتثورُ المعارك، وتُثْمِرُ الأفكار في ذلك كلّه، بل لعلَّ الرافعي كانَ من أوفر الناس حظاً في هذا المضمار على الرُّغْمِ مما حُجبَ من أدبهِ، وبعضِ اندفاعِهِ في الإجهاز على خُصومِهِ. وإنّا لمُورِدُونَ هنا إشاراتٍ الى بعضِ هاتيك المُساجلات التي بَرَزَ فيها الرافعي على الرُّغم من كلّ المعوّقات التي

(١) الرسالة ١٩٣، وحي القلم ٣ — ٣٠٦
(٢) الرسائل — ٢٥٢

كانت تقِفُ في سبيلهِ، ممثلاً الفكرِ العربيّ المؤمن أمامَ التحديات الغَزْويّة، وتواثبِ الانبعاث القُطْري، وتنطُّعِ الشعوبيّة والمذاهب والأفكار التي تُلْحِدُ للأمّةِ ودينها الحنيف، وكانَ للصُّحُف شَرَفُ الميدان في هاتيك جميعاً.

وقد يكون الرافعي من أبرعِ الكتاب إثارةً للمُناقشات في الموضوعاتِ التي يَتَصَدّىٰ فيها للمخاطرة برأي، أو في الحكْمِ على بعض الحيثيات؛ فيثيرُ عاصِفةً من الآراء تَشْتجرُ فيها الأقلام، رَدْحاً من الزمن، ومن أُولياتِ تلك المثارات ما كانَ قد كتَبَهُ حول الشعر العربي، والشاعر، حتى يُلْفتَ الناس الى ما يقولهُ الشاعرون[1].

ثم تلك المقالةُ النقديّة في طبقاتِ شعراء العصر[2] التي دارَتْ بالشعراء والكتّاب أكثر من عام، وقد تنقلَت في الصحافةِ الشهرية والأسبوعية واليومية[3] ما يزالُ مكانُها في تاريخ النقد الأدبي الحديث كأنما يؤرّخُ لبدايةِ نقد الرافعي، بل نقد العصر كلّه. وقد أشارَ إليها الرافعي نفسُه فيما كتبه « كلمات عن حافظ »[4] وقد شَفَّ فيها عن مقدار النقد ومُسْتواه يومذاك، وكشَفَ عن أذواقِ الكتّابِ والشعراءِ، وأدبهم في المناظرةِ، ورصيدهم في الثقافةِ النقدية آنذاك[5].

وقد أرسلَ على صفحات « الجريدة » و « مجلة الزهور » مقالاته التي أراد بها تنبيه الشيخ طه حسين وغيره الى ناحيةٍ في المجازفات

---

(١) المنار — ربيع الآخر ١٣١٨ هـ، والثريا ٦ — ١٩٠٤ م وسركيس ٧ — ١٩٠٥ م.
(٢) الثريا — يناير — ١٩٠٥ م
(٣) راجع الثريا، والجامعة والظاهر وسركيس والمنبر لذلك العام والذي يليه، وتأمل ردود الكتاب والشعراء وتطبيقاتهم هم للشعراء!.. ولكلٍّ من أنور الجندي ومحمد أبي الأنوار مؤلف فيها.
(٤) وحي القلم ٣ — ٢١٣
(٥) فات الدكتور محمد أبا الأنوار أن يلمّ بها في رسالته بالمعارك.

الأدبية التي يتسرّعون فيها الى الجَهْرِ بالرأي، والتّضْييق في الأخذ، والحَدّ من الحريّة في تَناول الموضوعات[١] ورَدّ أكاذيبِ ناقديه.

ويوم أخذ لطفي السيّد بمذهبِ الشعوبيين من الأعاجم المُسْتَعربين أمثال وليم موير وقاسم أمين ووليم ولكوكس — المهندس المبشر البريطاني[٢] في تَمْصيرِ اللُّغة العربيّة، واستدارَ يُلْفِتُ النظر الى موضوعاتِ التأليف في اللغة العربيّة — وكيف دَخَلَتْ بعضُ الأسماءِ الأعجميّة دخولاً تاماً، واستُعْمِلَتْ استعمالاً شائعاً، بحيثُ لا نستَطيعُ أن نَضَعَ لها أو لغيرِها من المُسَمّيات الجديدة أسماء عربية[٣] وقال: ننصح لزملائنا الكتاب أن يتساهلوا في قَبولِ الأسماءِ الأوربيّة، ويدخلوها في الاستعمال الكتابي، كما أدخلها الجمهورُ في المخاطبة.

ومضى كذلك يُهاجم فكرة تأليف المجمع اللغوي[٤]: « نقولُ إن كلَّ عملٍ لا تقتضيه حاجةُ الأمة اقتضاءً تاماً، إنما هو عَمَلٌ صناعيٌ عَقيم النتيجة ». وقال برأي، يَخْتالُ حَصافةً ويبرَعُ في التمثيل:

« إن الخروجَ باللُّغة من جمودها إلى طَوْرٍ جديد لا بُدَّ فيه من النّهضَةِ الموصولةِ الى الطورِ الراقي، المتّفق مع طِماح الأُمّةِ من التقدّم في كلّ شيء الى الأمام[٥]. نريد أن لا نَذَرَ لُغَةَ الشعب (العامية) تموتُ بإبعاد عربيِّها وفصيحِها عن عالم الكتابة والعلم، وأن لا نَذَرَ لُغةَ القرآن

---

(١) أنظر الرافعي الناقد
(٢) الجريدة لعام ١٩١١، ١٢، ١٣
(٣) أنور الجندي — المعارك الأدبية ٧٣
(٤) ثم أضحى هو أول رئيس للجمع!! فتأمل.
(٥) الجريدة ٢٠ نيسان/ابريل ١٩١٢

محجوبةً بين دفّات الكتُب لا يَنْزلُ منها الى الاستعمالِ اليومي ما يَحْفَظ بقاءَها ويُديمُ جدَّتها »[1].

وراح يدافع أكثر بقولهِ « إن الذين يَطْعنون على رأينا لا يأخذونَهُ مجموعاً مُتّصلَ الأجزاء، ولكنّهم يأخذونَ بعضَهُ، ويعرضونَ عن بعض، فتصبحُ صورتُهُ ناقصة »[2].

وقال : « يحسنُ بنا أن نُصالح بين ذَوْقِ العامة وقوة الرأي العام، وبين اللُّغة الفصحى، وأقربُ الطرق الى هذا الصلح أن نتدرّجَ الى إحياءِ العربيّةِ باستعمالِ اللُّغة العاميّة. ومتى استعملناها في الكتابةِ اضطَررنا الى أن نُخَلّصَها من الضَعْفِ، وجَعَلْنا العامةَ يتابعون الكتاب في كتاباتهم،.. الخ[3].

لقد تصدىٰ الرافعي للطفي السيّد من قبل أن يبدي آراءَهُ هاتيك منشورةً على الجمهور، ومن بعد ما جازَفَ بإلقائها على الناس في صدرِ صحيفتهِ (الجريدة) بمقالين شهيرين لهما مكانهما من تاريخ النقد اللُّغوي الحديث، أشارَ إليهما سائر الدارسين، فقال في الأول :

« لو اعترضْتَ كُلَّ من يُهجّنُ العربية ويُزْري على سَبكها، لرأيتَهُ أجْهَلَ الناس بتركيبها، وحكمةِ اشتقاقها، ووجوهِ تصريفها، ثم لرأيتَ له غِرّةً في تاريخ قومِهِ، فهو إن عرفَ منه شيئاً فقد تجرّدَ من ثمرةِ المعرفة كأنّهُ يحفَظُ طلاسِمَ لا يتخبّط فيها حتى يتخبطه الشيطانُ من المسّ. ثم ترىٰ الآفة الكبرىٰ أنّهُ مستدرَجٌ من حيثُ لا يعلم، فهو

---

(١) الجريدة ٢٧ نيسان/ابريل ١٩١٢

(٢) الجريدة ٣٠ نيسان/ابريل ١٩١٢

(٣) الجريدة ١ مايو/أيار ١٩١٢ م

يكافئُ محبةَ لغةٍ أجنبيّة أحكَمَها بعداوةِ لُغتِهِ التي جَهِلها، ويُجزي منفعةَ تاريخٍ عِلْمِهِ لمضرةِ التاريخ الذي لا يعلمُه، والناسُ أعداء ما يجهلون.

إنهُم يقولون إننا نريد أن نُلائم بين حاجةِ الأمة من الكلام وبين الكلامِ الذي تبلُغُ به هذه الحاجة، ونريدُ الإصلاحَ ما اسْتطعنا، فليس تاريخنا وعاداتنا ديباجاً من الكلام بطراز وغير طراز، ولا نتركُ أُمَّتَنا على سَوْمٍ بينَ العربية واللُّغات الأجنبية،..

ونحن نقول : إنّ هذا الأمرَ ليس له مَتْركٌ ولا عَنْه محيص، ولكن أيْنَ ما ينزعونَ إليهِ مما يَنْزعون بهِ، وهم إنما خَلَطوا عَمَلاً صالحاً وآخرَ سيّئاً، وإنما يُؤتون من حسابِ العربيّةِ الفصحىٰ لغة أثريّة لا تُمادّ الزمن، ولا تُشايع رُوحَ التاريخ، ثم يُفْضُون من هذا الوهم الى تلك المخرقة؛ لأنهم لم يُمارسوا هذه اللُّغة، وإنما علموها عن عَرَض، وهذا ولا جَرَمَ ضربٌ من الجهل،. ولو أنَّهم فقهوا سِرَّ العربيّة، ووقفوا على طُرقِ تركيبها، وجاذَبوا من أزِمّتها، وصَرَّفوا من أعِنَّتها واكتَنهوا محاسِنَها، لَعَرفوا كيفَ يكشِفون لَفْظَ الإصلاح من معنىً غيرِ فاسدٍ كما ذهبوا إليه، ولتقلّدوا البليّة من حيثُ يدفعونها لا من حيثُ تدفعُهُم،.. ولكنّهم يصفونَ الفَوْضَىٰ وهم صِفاتُها، ويُطبّون للأُمّة وهم آفاتُها،.. وما عليهم إذا تَبَيَّنوا أن يُصيبوا قوماً بجهالةٍ،.. »[1].

وأشارَ في المقالةِ الى أنّ « القرآنَ جنسيةٌ لُغويّةٌ تجمَعُ أطرافَ النّسْبةِ إلى العربيّة فلا يزالُ أهلُهُ مسْتَعربينَ بهِ، مُتَميّزينَ بهذهِ الجنسيّةِ حقيقةً أو حكماً؛.. » الى آخر المعاني القوميّةِ التي أدارَها والتي سَتَرِد في فصلٍ

(١) البيان ٨ ربيع الآخر ١٣٣٠ هـ ــ المعركة ٤٢

آخر. وكأنّما استفزّ لُطفي السيّد بذلك المذهب القرآني فكتَبَ بضيقِ صَدْرٍ يقول :

« لقد علمنا أنّه يوجه إلينا اعتراضان، أحدهما : أن الاعتراف بما أدخَلَتْهُ الأمة من الألفاظِ الأعجميّة قد يكون له شبهُ تمصير للّغة، فتعطّلُ بذلك عواملُ الجامعة الاسلاميّة، والثاني أن تُصْبِحَ الألفاظُ العاميّة المصريّة واستعمالها في الكتابةِ معطّلاً للّغة العربية الفصحىٰ،

إننا لَسْنا من أنصارِ هذه الجامعة المُتَخيَّلة، بوَصْفِ كونها دينية!، لاقْتِناعِنا بأن أساس الأعمال السياسيّة هو الوطنيّة وروابط المنفعة »[1] وبذلك كشَفَ لطفي السيد عن حقيقة ما يهدُفُ إليه من دعوتهِ تلك.

وهنا كتب الرافعي في تمصيرِ اللّغة يقول : « نُريدُ بهذا التمصير ما ذَهَبَتْ إليه أوهام قَومٍ فضلاء يَرَوْنَ أن تكونَ هذه اللُّغةُ التي اسْتُحفِظُوا عليها مِصريّةً بعدما كانَتْ مُضَرِيَّة، وأن تَطَّردَ لهم مع النّيل بعَدَدِ التُرع وعِدادِ القرىٰ، حتّى تُرْسَلَ الكلمةُ من الكلامِ فلا يَجْهلُها في مصر جاهل، إذ تتهادَنُ يومئذٍ العدوّتان؛ العاميّةُ والفصحىٰ، وتُصْلِحان ما بينَهما أن لا ترفع إحداهما في وجهِ الأخرىٰ قَلَماً ولا لساناً، وأن تبيحَ كلتاهما للثانيةِ حُريّةَ الانتفاعِ بما يُشْبِهُ حريّةَ التجارة!.

وإنما تلك آراء كانَ يتعلّقُ عليها بعضُ فِتْيانِنا إفراطاً في الحريّة، ومُبالغةً في الحَفيظة لمصرَ، وأمَلاً مما يكبُرُ في صدورِهم،.. حتى تَنَاوَلها مديرُ (الجزيدة) فحذِقَها وسوّاها، وأخرجَ منها طائفةً من الرأي تصلُح أن تسمّى عندَ المعارضة رأياً، فقالَ بالإِصْلاح بين العاميّة والفصحىٰ

---

(١) الجريدة ٤ مايو ١٩١٢ م

على طريقةٍ تجعَلُ هذه تَغْتَمِرُ تلك وتُحيلُها إليها، فعسىٰ أن يأتيَ يومٌ لا تكون فيه العاميّة شيئاً مذكوراً[1].

وقال : نحنُ لا نُماري في وجوبِ الاصلاح اللُّغوي، ووجوب أن يكون للغة في هذه النهضة « مجمَعٌ » يحوطُها ويُصْنَعُ لها، ولا نقول إن هذه العربية كاملةٌ في مفرداتها، ولا إنّه ليس لنا أن نتصرّف فيها تصرُّفَ أهلِها،..

ثم دار مع تلك الآراءِ دورَتَهُ المعروفةَ في ردِّ الرأي وتخطئة مذهبِهِ، وأبانَ ثمّةَ عن فسادِ القولِ في إحالة الفُصحىٰ عن وجهها، ليقول من ثمّ :

« إنّ القائمينَ مهما عَمِلوا، فإنّهم لا يَعْدُون أن يَجْتَذبوا إليهم طائفةً من ضعاف شبابنا المتفرنجين يُناصرونَهم بما تُعدُّهُ الأمّةُ خذلاناً، ويزيدون فيهم بما لا تشعُرُ به الأمة زيادةً أو نقصاناً.

ذلك أنهم يَنْقَلبونَ عن الرُّوحِ الدينيّة التي عليها ينشأُ المسلمون ــ أهلُ هذهِ العربية ــ في جهاتِ الأرض، وأنّ هذه الروح قائمةٌ على نفي العصبيّةِ الوطنيّة كالمِصْريّةِ وغيرها،.. فقد كانَتْ هذه العصبيّةُ عامّةً في قبائلِ العرب حتى محاها الإسلام، فأنزلَ الله على رسولِهِ وعلى المؤمنين، وألزَمَهم كلمةَ التقوىٰ، وجَعَلَهُمْ إخوةً. وما عَصَبيّةُ قبيلةٍ وقبيلةٍ في المعنى الا كعصبيّة بَلَدٍ وبلد، ومَصْرٍ ومَصْرٍ،..

وما يقولونَ به من تمصير اللُّغة لا يعدو أن يكونَ وَجْهاً من وجوهِ هذه العصبيّة الممقوتة؛ فانك لتجد المسلمينَ يختلفون في كلّ شيء

(١) البيان ــ شعبان ١٣٣١ هـ ــ المعركة ــ ٥٢

حتّى في الدين نفسهِ، ولا تجدُهم إلا شُعوراً واحداً بالروحِ العربيّة التي مِساكُها الكتابُ والسُّنّة في عربيتهما الفصيحةِ.

وهو ما لا سبيل الى التغيير أو التبديل فيهما لا على وجه التمصير، ولا على وجهٍ آخر، وسواءٌ كان ذلك إصلاحاً بين العامية والفصحىٰ، أمْ لم يكن »[1].

* * *

وفي الصحافة أيضاً كانت له آراؤُهُ في المذاهبِ المحدثةِ في السياسةِ والاجتماع، والوقوف عليها في وسائِلها وأهدافِها، منها ما وافَق منه هوىً وحاوَلَ رَجْعَهُ الى أصولٍ عربيّة، ومنه ما ردّه الى حقيقةٍ إنسانيّة[2].

كما نَشَرَ فيها فصولَ كتُبه، وأحاديثَ محاضراته وخُطَبِهِ، مما رجعنا إليه بالتحقيق والإشارةِ، وفيها كانت مُحاولاتهُ الأخرى في مذاهب الأدب والنقد التي شاعَتْ في عصره، في ترجماتٍ ودراساتٍ واتفاقاتٍ لجيلٍ ضَخْم من الأدباءِ الذين نَهَلُوا من آدابِ الأمم الحديثة[3]. ومع ذلك كلّه نَسْتطيعُ أن نقول إنّ سوءَ ظنّه بالصحافةِ مُتَأَتٍّ من أنه لم يُصِبْ فيها ما كان يؤمّلُ من هَدَفٍ في نَشْرِ الأدب الاعتقادي الذي يتحرّىٰ، والعِلْمِ الذي يَنْفَعُ، وكونها كانَتْ موزَّعَةً في مذاهبَ واتجاهات، وأنها كانت تحجبُ بعض رأيهِ ودفاعهِ عن نفسه أحياناً. ففي فترةٍ من

---

(١) البيان ــ شعبان ١٣٣١ هـ ــ المعركة ٦٢
(٢) سيرد في الموضوعات المحدثة في أدبه.
(٣) انظر ذلك في المعاصرة والاتجاه ــ الرافعي الناقد.

الزمن كانَ يُحِسُّ أنّه وحيدٌ منفردٌ في معركةِ الفكر القومي، لا يكادُ يظاهِرُهُ أحَدُ[1] وأنه ليقْتَحم على الصحافةِ منابرها بغير قليلٍ من المخاطرة حتى حالَ بعضُ أدبه ودفاعِهِ الى مشابهةِ النظرة القانونية الأوروبيّة في الموضوعاتِ الاسلاميّة، لمّا ألقىٰ في روعِهِ الدكتور يعقوب صرّوف، أنَّ ما يكتُبه يُنْقَلُ الى اللّغاتِ الأوروبيّة، فلا ينبغي أن يرىٰ الأوروبيون والأمريكان فيهِ غير القيم الاسلامية العُلْيا[2].

ومن هنا رأىٰ بعضُ القوميّين أنّ الانسان الأوروبيَّ قد ظَهَرَ على إنسانِهِ الرافعي العربي أحياناً[3] بما كان يُلقىٰ إليه من وَهْمِ العصريّة والحضارة.

* * *

وكان العصر قد ماج بالمُتَرجَمات من القَصص والروايات، وكان رأيُهُ فيها « أنّها تُوضَعُ قَصَصاً، ثم تُقْرأ فتبقىٰ قصصاً.. وإنْ هي صَنَعَتْ شيئاً في قُرّائها لم تزِدْ على ما تفعل المخدّرات؛ تكونُ مسكنات عصبيّة إلى حين، ثم تنقلبُ هي بنفسِها بعد قليلٍ الى مهيّجات عصبيّة »[4].

على أنّ ما حاول « العُريانُ » أن يجعَلَهُ قَصَصاً في أدبِ الرافعي[5] إنما هو إخضاعُ الرافعي للقصّةِ لتكونَ شاهدَ مقالِهِ؛ فهو لم يخضَعْ فيها لمتطلباتِ الفنّ من البداية والعُقْدة والخاتمة، وما إليها من أسسٍ

(١) اسحق موسى الحسيني ــ الاخوان المسلمون ــ ٧
(٢) من رسالته الى الخطيب في ١٩٢٨/٧/٢٥ م
(٣) جامعي ــ الأنصار ١١ رجب ١٣٦٢ هـ.
(٤) الرسالة ٤٠، وحي القلم ٣ ــ ٢٥٧
(٥) حياة الرافعي ٢٠٤ وقد أخرج العريان منها إضمامةً على حدة منتقاة في طبعة خاصة.

هذا الفن، وإنْ كان قد بَدا له أن يَصُوغ مترجمةً لاحداها على طريقةٍ يعارضُ بها مصطفى لطفي المنفلوطي[1].

* * *

مفاعلة عصريّة

لقد تفاعَلَ الرافعيُّ مع عصرهِ بروحِهِ العربيّة المُسْلمةِ، وأخذَ منه بمقدارِ ما تقبَلُ هذه الروح من العلم والتوفُّر على أسبابِهِ، والجدّ في طَلَبهِ من أينَ جاء، كما تجعَلُ الأصلَ في التربية بالحملِ على الأخلاق[2]. وما فتئَ يرفَعُ عقيرَته بقولهَ: أخلاقُنا قبلَ مدنيّتهم[3] في شعارٍ يدعو فيه الى ما يُعْوِزُ العصر الحديث من ثباتِ الأخلاق[4] فهو مُتَماسِكٌ أبداً؛ يصونُ أدبَهُ ويحمي ذاتَهُ، وكان من أسبقِ المحافظين في شَعْبِ الموضوعاتِ الجديدة في المقالة والرسالة وفنون النقد والأدب والقَوْل، ومنازلةِ أدعياءِ التجديد[5].

وبذلك وسواه مما وَرَدَ في هذا الفصل وما فاتنا أن نورِدَهُ أو نقفَ عليه،.. كان ظاهراً في عصرِهِ متميّزاً بذاتِهِ العربيّة، وعقيدتِهِ الاسلاميّة، ودعوتِهِ المؤمنة وأدبهِ الذي جدَّدَ فيه شبابَ العربيّة،.. وكانَت الجملةُ القرآنيةُ ترفِدُهُ بعطاءِ لا مثيلَ له في سائر آداب الأمم التي وَقَفَ عليها قراءةً أو ترجمة، وكان للصَّحافة سَهْمُها في ذلك كما قدمنا.

---

(١) انظر المساكين ١٥٨ وقصة الكونت ولويزا

(٢) المعركة — ٦٣

(٣) الهلال مايو/١٩٢٩ م

(٤) الرسالة ١١٥، وحي القلم ٢ — ٧٣

(٥) المنار ٧ — ٢٧ — ذو القعدة ١٣٤٤ هـ — ١٩٢٦ م عن مجلة (عكاظ — مايو/أيار ١٩٢٦ م

وقد أثر ذلك في العصرِ بابتكاراتِهِ التي جَعَلَت العربيّةَ الفُصحى لُغةَ الجمال، والظرف والغَزَل؛ فَتَحَ فيها أبوابَ الفنُون في النثر لاستيعابِ معانيها الجميلة والوليدة؛ إذ هو — على فَضْلِهِ وعلمِهِ باللُّغة — لم يكن مِثلَ أولئك المتفاصحين من بعض معاصريه، الذين يَقصدُونَ تصحيح الأخطاء؛ يُوردونَ أمثلةً وعَيّناتٍ في ذلك التصحيح والمفاصحة بكتبٍ ورسائل يدُورون من حولها، ويُثيرون المفارقات عليهم[1].

وكان من تَنامي أدبه ونثره بأسلوبه الفريد وتحوّله مع الحفاظِ على قُوّته وأصالته، ما كان من أثرٍ في معاصريه؛ فقد أضحىٰ للصياغةِ قصدُ المعنىٰ والهدفُ الذي يرمي إليه الكاتب، من غير تصنُّع ولا التواء، وصارَ للبيانِ العربيّ مكانٌ يُزهىٰ بهِ على الأيام، وانتهىٰ أو كاد تحكّم السَّجْعُ والمزاوجة وما إليهِ من بديع، فان جاءَ شيءٌ منه عَفْوَ الخاطرِ فأصابَ هَدَفاً في المعنى، وأوفىٰ في البلاغةِ، فذلك هو الفطرة الغالبة،.. وقد استُعيضَ عن التَّرادُف بالتوليدِ وتقليبِ المعاني ومناقَشةِ مفهومِ المخالفةِ، للوصولِ بالحكمِ الأدبي الى هدف جليلٍ بعدما أُشربَ الأدَبُ مادّةَ الفكرِ.

* * *

ولم تكن هنالك الحَسَناتُ حَسْبُ، وإنما كانَ من أثرِ اللّغاتِ التي يدرُس بها شُداةُ الآدابِ والعلومِ، والبُلْدانِ التي يقصدونَ في بِعثاتهم، والحَيَواتِ التي يألَفونَ ويُقلّدون، مضارُّهَا التي تُؤدي أساليبَهُمْ، وتتّهمُ

---

(١) كاليازجيين والمعاليف وغيرهم.

أذواقَهم، وتطعَنُ في ذاتياتهم التي تَنْهارُ أمامَ بهرجِ حضارةِ تلك البُلْدانِ والمعاهد واللُّغاتِ ومظاهرها المدنيّة.

فقد فشا الاسْتِعجام في الأساليبِ عند طائفةٍ من الكتّاب في العُلوم الطبيعيّة والمحاورات الفَلْسفيّة والبضاعاتِ الفكرية الأخرى، وذَلّتْ جُمَلُ بعضهم مُهَلْهَلةَ النسجِ هزيلةً تلتوي على نفسِها دون الإفصاح الجميل، مما تحتاجُ معه الى إعادةِ كتابةٍ وسبك، لتبدوَ لها روحُ العربية في قوة العبارة وروعة البيان.

وقد تصدّى العقلُ العربي المؤمن ــ المُتَمثّلُ في أدب الرافعي لذلك كلّه، وبَلَغ التوفيق في ردّهِ بعضَ الكتّاب بالموازناتِ التي عَقَدها لمن يَتَصَدّى لهم بنقدٍ أو مُساجلة، يَسْتهدون بها سواءَ السبيل.

على أنّ الأخذَ عن آداب الأمم من فنونٍ وأساليبَ قد مضى مؤثّراً في الأدَبِ العربي كلّه بنصيب؛ يختلِفُ فيه أديبٌ عن آخر، وقد اسْتطاع كثيرٌ منهم أن يمثّلَهُ وينتفعَ بهذا الأخذ ويطبَعهُ بتعريبٍ في الأسلوبِ والفن معاً.

* * *

وهكذا نرى من تطوّر النثر أن يبقىٰ على امتناعِهِ، وأن لا ترِقَّ حواشيه بشكلٍ يظهر فيه ذلُّهُ وخُضوعُه لأساليبَ غيرِ عربيّة، يأباها الذوقُ، وتنفرُ منها الأصالةُ، ولا تدلُّ على ثباتِ الذات ــ وهي قِوامُ الأديب في أدبهِ مهما تغيّرت الأحوال.

ولذلك نرى أنّ الرافعي من بين أدباء جيلهِ قد احْتفظ بقوّة الجُمْلةِ

العربيةِ أثيرةً، وجدَّدَ الأساليب، ونوَّعَ التعبير، وجاءَ بالبيانِ في أفصحِ لسان، من غير أن يُغربَ كثيراً، أو أن يَسِفَّ ويتدنَّى.

وهذه هي الصفةُ الممتازة للأديب العربي الذي هو مَنْ كانَ لأمتهِ ولُغتها في مواهبِ قلمه لَقَباً من ألقاب التاريخ.

الفصل الثاني

حياةُ الرافعيّ

١ ـــ اسمه ونسبه

هو زينُ الدين أبو السامي مصطفى صادق الرافعيّ، الفاروقي العُمري الطرابُلسي[١] زهرةُ شعراء العربية ونابغةُ كُتّابها، وإمامُ آدابها في العصر العربي الحديث[٢].

اسْتَهَلَّ على الحياةِ في « بَهْتِيم » إحدى قرى القَلْيوبية بمصر، في الأول من رجبِ الأَصَمّ ـــ منتصفِ عام ١٢٩٨ هـ ـــ الموافق للثلاثين من أيار/مايو سنة ١٨٨١ م[٣].

وكانت أُمُّهُ السيدةُ أسماء، قد آثرتْ أن تكونَ ولادتُها الثانية في

---

(١) هكذا كان اسمُه وكنيته وبعض ألقابه، توفرت لنا من أوراقه وذكريات بنيه، وما اتّفق عليه محبوه وأصدقاؤه وتلامذته ـــ راجع كتابنا ـــ الإمام الرافعي ـــ ٢٠٩.

(٢) تلك نعوت أحمد شوقي ويعقوب صروف وشكيب ارسلان له في رسائلهم ومقارظاتهم.

(٣) محمد صبري ـــ شعراء العصر ـــ ٢١٣، وبعض أوراقه بعد حساب المقابلة.

بيتِ أبيها الشيخ أحمد الطُّوخي الحَلَبي ــ الذي كانَتْ تجارتُهُ تَسيرُ بين مِصْرَ وديار الشام لذلك العهد[1].

وقد سمّاه أبوه « مصطفى صادق » واصطفاهُ من بين أُخوتِهِ لما شبَّ عن الطوق، وتميَّزَ بالذكاء، واشتَهَرَ بالصّدْقِ في الحديثِ، وفاقَ في الحفظ، ودَلَّ عند المراجعة على التيقّظ والانتباه[2].

وهو ابنُ الشيخ عبد الرزّاق الرافعي كبير القضاة الشرعيين في محافظاتِ القطر المصري آنذاك، ابن الشيخ سعيد بن الشيخ أحمد ابن الإمام عبد القادر الرافعي ــ رأس الأسْرة العُمرية الجديدة[3].

والرافعيّ الأُوّلُ هذا هو ابنُ العارف بالله الشيخ عبد اللطيف البيساري ابن الشيخ عمر البيسار[4] بن الشيخ أبي بكر الحموي ــ الوليّ

---

(١) حياة الرافعي ــ سعيد العريان ــ ٢٧.

(٢) أحمد محمد عيش ــ المقتطف ٩١ ــ ٥٢٩، اكتوبر ١٩٣٧ م ــ سيرة الرافعيّ. والجدير بالذكر أن خلّة الأزدواج بتحميدِ الاسم رافعيّة، قلّما خلا اسمٌ منها لواحد منهم، وإن لم تَشْتهِرْ شُهرَتَها في اسمهِ.
والسّيرةُ حلقةٌ واحدة يتيمة، لم تُنْشَر أخواتُها الأخريات في المقتطف، ولا رأيتها في غيره، وقد أعياني البحثُ عن أحمد عيش في القاهرة وميت غمر حتى آيست أو كدت ــ راجع الرافعي الناقد الأديب.

(٣) انظر محمد رشيد الرافعي ــ عبد القادر الرافعي الثاني ــ ١٣، وكان من أمره أن الشيخ محمود الخَلْوتي قال له : أنت من رافعي لواء العلم ــ يوم ظهر عليه النبوغ في الإلمام بفقه الأحناف ــ تشبيهاً له بالإمام عبد الكريم الرافعي ــ الذي صنَّفَ الفتح العزيز في فقه الامام الشافعي ــ أنظر الزهراء الربيعان ــ ١٣٤٦ هـ وصار عبد القادر الرافعي الكبير شيخَ الأزهر فيما بعد ــ راجع كتاب الاحتفاء بشاعر العروبة ــ عبد الحميد الرافعي ــ ٣٨

(٤) « بَيْه سَرْ » مُصْطَلَح عثماني يعني أمانة الرئاسة، ناله الشيخ عمر الحموي بعد أن أُسندت إليه بعضُ المهمّات في ذلك العهد، فاصْطَلَح على يديه أصحابُ المقاماتِ والأحوال.

المدفون بحماه ــ بن الحاج لُطْف بن الشيخ علي البَخْش[1] العُقيلي، المتّصل نسبُهُ بالشيخ عقيل المنبجي العمري[2]. بنَ الشيخ عبد الرحمن ابن أبي بكر بن الشيخ شهاب الدين أحمد البطائحي ــ الهكاري بن زين الدين عمر بن عبدالله البطائحي بن زين الدين عمر بن الشيخ المعمرّ زين الدين العمري المكي المتّصلِ نسبُهُ بأحدِ العبادلة الصحابي الجليل عبدالله بن أميرِ المؤمنين الإمام العادلِ عمر بن الخطاب العدوي القريشي[3] رضي الله عنه وأرضاه.

٢ ــ نشأته وتعليمه

نشأ الرافعي في رعاية أبيه ــ وقد عُني به عنايةً خاصة فيها الكثير من الحُنُوّ والإشفاق، لما كانَ يعْتَورُهُ من اعتلالٍ وانحراف صحّةٍ وقلّةِ عافية، وانصرافٍ عن اللّعب واللهو..

وكانت الأسرةُ الرافعية قد بَلَغَتْ يومئذٍ أوجاً عالياً من المجدِ والرِّفْعة العلميّة[4] وكمالاً خاصاً في تهذيب أبنائها ورعايتهم وإعدادهم للحياة. وقد بدأ الرافعي التحصيلَ على والدهِ الشيخ، وفي الكتّاب مع إخوته،

---

(١) كلمة « بَخْش » فارسيّة مستعملة في التركية ومعناها الكريم المعطاء : الجواد.

(٢) ذكره الشعراني في طبقاته، وقال إنه شيخُ شيوخ الشام في وقتهِ، تخرّج بصحبته الكثيرون، توفي في « منبج » وفي الظاهرية بدمشق مخطوطة « بهجةُ الشيخ عقيل المنبجي » ــ تاريخ أربيل ج ٢ ــ ١٦٧. ينتهي نسبه إلى عمر بن الخطاب.

(٣) هذا ما وردني من « شجرة الأسرة » المخطوطة لدى الحاج فوزي الرافعي بطرابلس الشام، وكما وردت في كتاب الرافعي الثاني، وكتاب الاحتفاء، ولا شكَّ أن في الشجرة قطعاً أُكملتُ بعضه من ترجمة المنبجي، راجع كتابنا ــ الإمام الرافعي ــ ٢١٧، ٢٢٦.

(٤) رشيد رضا ــ المنار ــ المحرم ١٣٤٨ هـ ــ حزيران/يونية ١٩٢٨ م

وما كادَ يُتِمُّ العاشرةَ من عمرهِ حتى استظْهَرَ القرآنَ الكريم على أبيه حِفْظاً وتجويداً[1].

وكان منزلُ الشيخ عبد الرزاق الرافعي في طنطا مَهْبِطَ العُلماء والفُضَلاء من ديارِ الاسلام جميعاً، ما أتَوْا مِصْرَ، وكانَ لوجُودِهم عندَهُ حَفْلٌ دائمٌ للمناظرةِ واحتدام الأفكار[2].

وكانَ التعليمُ يومئذٍ مُوَزَّعاً؛ فالحديثُ قد استأثَرَتْ به مدارسُ الإرسالياتِ التبشيرية وانحسر التعليم الآخر في أروقةِ المساجدِ وبيوتاتِ العلم. وقد تأخَّر دخول أديبنا الابتدائية في « دمنهور » عام ١٣٠٩ هـ ــ ١٨٩٢ م حتى أدرك الثانية عشرة!. ولكنّه نهَلَ من تعليمِ المسجد والبيتِ عُلومَ الفقه والحديث والأصول والعربيّة ما نهَلَ.

ويومَ نُقِلَ أبوهُ الى القضاءِ الشرعي في « المنصورة » التَحَقَ بمدرستِها الأميريّة هناك، ولقيَ صحبةَ عَديدينَ من طَلَبتها، وكانَ له مع بَعْضِهم أكثرُ من مَعْتَبةٍ بسَببٍ من ذكائه وتفوّقهِ، وجدّهِ الذي لا يَرْضىٰ بالهَزْلِ، وانصرافِهِ عن الممازحة،.. وكونِهِ من أبناءِ الفقهاء العرب،. ومن هذه المدرسة ظَفِرَ بالشهادةِ الابتدائية ــ وهي كلُّ حظّه من الشهادات (الرسميّة)، عُومِلَ بها موظَّفاً اربعينَ سنة!!

مفاصحة : وكان قد أظهر نبوغاً في العربيةِ وعُلُومها في أثناءِ دراستِهِ، دُهِشَ لها معلموهُ من ناحيةٍ، وأثار غبطةَ أستاذه مهدي خليل، ولكنّه زَرَعَ الحَسَدَ وأوغَرَ صدور بعضِ زُملاء الدرسِ من ناحيةٍ أخرى!..

---

(١) الرسالة ١٨٣، قرآن الفجر.

(٢) رشيد رضا ــ المنار ــ المحرم ١٣٤٨ هـ ــ حزيران يونية ١٩٢٨ م.

ذلك أنّه آثرَ الفصحى في المخاطبةِ، وجَهَرَ بالدعوة إليها في المدرسة، واستنكَرَ على رفاقِهِ ارتضاخ أَلْسِنتهم لرطانةٍ تضيعُ فيها الحروفُ وتَتَحوَّلُ بين لفظِ السادةِ والعبيد، إذ كانَ كبارُ الموظفين والمُلاّك من التركِ والروم المماليك ـــ.

وربما كانَ في دعوتهِ للمفاصحة في الحديثِ والكلام العام ليسَ بَعْثاً للسانِ العربي المبين وتوحيد التفكير عند النَّشْءِ فحَسْبُ، وإنما كالذي يَتَسَتَّرُ على ما في لسانِهِ من اللَّهْجةِ الشامية أيضاً. فقد وَجَدَ من عيوبِ النطق في هذه العاميّات الكثير، فهو دائبٌ على الحفظِ في الفصحىٰ وإيثارِها والمراجعة في آدابها والتوسّع فيها.

وحين مثُلَ هذا الميلُ لدى أبيه الشيخ عند ولدِهِ الأثير، وأدركَ استعدادَهُ، عَمَدَ الى تنميتِهِ وتزكيتهِ، ووفّرَ له من الدروسِ الخاصّة ما يَسْتوعبُ فيه عُلُومَ العربية والفقه بجدارة وفهمٍ عميقين، فأكبَّ عليها ليل نهار، حتّى أُلقِيَ في رَوعهِ أن يؤلّفَ في العربيّة، ويضع كتاباً يجعلُ شواهدَ عُلومها فيه منْ نَظْمه[1].

وإزاء ذلك لازَمَ أباه يأخذُ عنه، ويتأسّىٰ بهِ، وكان أبوهُ فقيهاً ذوّاقة، له في نظمِ الشعر ومعرفةِ الآداب دِراية ـــ وإنْ غَلَبَ عليه الفقهُ والوَرَع، وأنِفَ أن يسلُك سبيلَ غيرِهِ من الفقهاء المتأدبين، فحجبَ أدبه وشعرَهُ عن النشر، حسبُهُ أن يرعى وَلَده البار، فقد كانَ يستمعُ له في توثيقِ قراءاته، ويتثبّتُ من حفظِهِ للقرآن والأثر؛ إذ هو يفقه عنهُ الروايةَ والتفسير، فيعي خَبَرَ السَّلَفِ، ويعرفُ علماءَ اللغة، ويدركُ فقهاء الشريعة، ويبصرُ بأهلِ الحقيقة، ويقتربُ من ذوي الحال والسلوك[2].

(١) محمد صبري ـــ ٢١٣
(٢) الهلال ـــ يناير ١٩٢٧

وهكذا انطبعَ على ذاك الغِرار من الأسلوبِ الفريد، الذي تميَّزَ به بعدما ارتَسَمتْ على مُخيّلتهِ صورةُ العربية الأولىٰ عن أولئك الأفذاذ من عُلماء الأمّة[1] كأنّما أعدّهُ القدر الآلهي كذلك، ليكتُبَ بنقائها ورونقها صَفَحاتِ البيان والإعجاز فيما بعدُ، وينشُرَ بلاغةَ القرآن العظيم.

كان ذلك في الوقتِ الذي حالَ فيه رفاقُ الدرس والأدب يلوكونَ مُفرداتٍ من لغة الأجنبي، والمحتلّ بتفرنجٍ غبيّ يطعّمون بهِ عاميّتهم المرذولة[2] إذ راح يترفّعُ عليهم، وربما تقاعَسَ عن تعلّم اللّغاتِ الأوروبيّة، ولم يمضِ بالفرنسيّة، ولا انتفع منها كثيراً، حسبُهُ ما يُصيبُ من المَعْلمة[3].

مرضه وانقطاعه : وحدث أن مرض، فقد أصابتِ الحمّى الثقيلة (التيفوئيد) جسمَهُ الضامر، ومَسّتْ شبابه اللّدْنَ الغرانق، تَسْلِبُهُ العافية وتثبتُه في الفراشِ أشهراً، وبينَ معاناةِ التمريض والدَّواء كانت حالُه من الآلام، فلَمْ يَنْج منه ووَطْأتهِ إلا بَعْدَ أن تركَ نحُولاً في جَسَدِهِ، وأثَراً في أعصابِهِ، ومسَّ أكثر من موضعٍ في جوارحِهِ، ونالَ منهُ وآذاه بحَبْسَةٍ عَقَدَتْ حِبالَ الصوتِ في فَمِهِ وكادت تَسْلبُهُ النُّطْقَ، وبِوَقْرٍ في إحدىٰ أذنيه[4] وضَعْفٍ يَعْتريه أياماً في السَّنةِ « يُصَيِّف » فيها[5] لا

(١) العريان ـــ ١٩

(٢) الفتح ١٨٦، الرسالة ١٨١ ـــ اللسان المرقّع

(٣) الفتح ـــ ١٤ رمضان ١٣٤٨ هـ

(٤) ما كاد يتمّ الثلاثين من عمره حتى انقطع عن سمعِهِ كلُّ صوت، وعُقِدَت حبالُ الصوت في فمهِ بما كاد يذهب بنطقه، ولكن الله أرحم من أن يفقد اللّسان إمامُ البيان.

(٥) مُصَيِّف؛ كلمةٌ ما تبرح في استعمالِ عرب الشام والعراق تصِفُ حالاً لمواليد الصيف الذين يعتريهم الضعف والهزال، قالَ سليمان بن عبدالملك :

يبرحُ عنهُ في شِفاءٍ حتى يعودَ إليه من غير عافية،.. وبقي عمرَهُ غُرضَةً للإصابةِ بالحمّيات الطارِئة من البرد والزكام والنَّزلات الشعبيّة[1].

وكان من أثرِ ذلك أنّهُ انْقطَعَ لمدرستِهِ الجامعة؛ يُعِدُّ مناهجها بنفسهِ، ويقومُ شيوخُ مُصَنّفاتها ومُؤلّفو كتُبِها على تعليمهِ وتوجيههِ، وتيسير أمْرِهِ في أخْذِهِ وثقافتِهِ،.. فلم يكن يتركُ شيئاً مما يُطبَع أو يُنشَرُ، أو تمتَدُّ إليه يدهُ دونَ أن يقرأه أو يعرِفَ ما فيه[2].

وكان الشيخ عبد الرزاق الرافعي قد هَيّأ لولدِهِ (الصادق) الأسبابَ المُسْتطاعةِ التي تَمْضي به الى الغاية المُرْتجاة له، مُبْتدراً معه وسيلةَ التحصيل هذه، وتوفيرَ أدواتها،.. وكثيراً ما كان يُرَدّدُ عليه ـــ جبراً لخاطرهِ : إنك يا وَلَدي تجاهِدُ في سبيلِ الله[3]. فكانَ لهذه الاشارةِ البارعة، والالتفاتةِ الأبوية البعيدة ما كان من أثرٍ مُبين في نفسِ أديبنا العظيم. فقد مَسَّتْ منهُ شِغافَ قلبهِ، ومَلأتْ من صَدْرِهِ مكاناً خلّياً بالبثّ والنجوىٰ، وصادفَتْ من نفسِه هوىً، ووافقت منه طِيبَ النزعات.

وكانت أمّهُ الزكيَّةُ هي أيضاً تَخُصُّهُ برعايتها، وتُؤْثِرهُ بالمزيدِ من عَطْفها وحَنانها، وكان هو بَرًّا بها، وقد ظَلَّ الى آخرِ عُمره إذا ذكرها

= إن بَنيّ صِبْيةٌ صَيْفيّون أفلحَ من كانَ له رِبعيّون

وكانت أم الرافعي تناديه (مُصيّف) في طفولتِه حبًّا وكرامة ، وعادت « ميّ » بلهجتها الشاميّة تتودَّد اليه به، فحاولَ أن يلحقه بالتصغير على قاعدة الترخيم ـــ العريان ٨٠.

(١) لاحظ شكاواه من المرض في رسائلهِ الى أبي ريّة، وراجع نعمات أحمد فؤاد ـــ دراسة في أدب الرافعي وكيف زَعَمت مزاعمها في صفةِ أدبه (المريض)!.. وعفا الله عن الزيّات أحمدا.

(٢) عمر الدسوقي ـــ أمالي في مناهج البحث والنقد.

(٣) أحمد عيش ـــ المقتطف السابق.

اغرورقَتْ عيناه كأنَّهُ فقدها بالأمس[1] وكانَتْ في بدءِ طفولته تُعينُهُ على الدرسِ، وفي أيّام صِباه وتحصيلهِ توفّرُ له ما تَسْتطيع من أسباب الهُدوءِ والانقطاع للمذاكرة والمراجعة.

٣ ــ دلائل تأمّله

في سِنيّ يفاعَتِهِ ظَهَرَتْ دلائلُ تأمُّلِهِ في رِحَابِ الكَوْنِ، ولاحَتْ بواكيرُ محاولاتِهِ الأدبيّة في النظمِ والكتابةِ والخطابة. وكانَ المطافُ قد انتهى بالشيخ عبد الرزاق الرافعي الى « طنطا » ذاتِ المركزِ المرموق والمجالِ الذي يتّسعُ للفقهِ والفكرِ والأدب؛ لمكانِ الدعوةِ فيها عند المواسم والموالدِ والأعيادِ، حيث يُؤَمُّها الناسُ من مختلفِ الأوساط، والدّرجات، ولما تَلْتَفُّ بهِ يومئذٍ من طبيعةٍ خلاّبة؛ تَسْتريح في ظِلالها القُلوب، وتَنْعَم بمغانيها النفوسُ، وتَبْتهج الأرواح.

يخْرجُ الرافعي كلَّ يومِ عطلةٍ بأخوتِهِ للنُزهةِ، ويُيمّمُ شَطْرَ الحُقولِ النضيرة، والبساتين الوارفة والتّرعُ الملتفّةِ من حولِ المروج الخُضْرِ في ريفـِ « دمنهور » أو قرىٰ « المنصورة » أو ضَواحي طنطا، بعيداً عن العُمرانِ ومظاهر المدنيّة،.. وهناكَ تمتدُّ الظلالُ النَّديّةُ للأشجارِ الحالمة، وتحت السماء بِغُيومِها المُهَوِّمة، وحيثُ الطيورُ الحائمة في الطبيعةِ الناعمة وعنادِلها القادمة وعصافيرِها الشادية المُزَقْزِقة في تلك الصورة المُجْتَلاةِ؛ كأنَّهُ يَخْشَعُ لله في صلواتِ المتأمّل، ودَعَواتِ الاسْتغراق في محاريبِ آلائه البديعةِ،.. وكثيراً ما كانَ يَنْفَرِدُ دونَ إخوته ليزيدَ في مثلِ ذلك التأمّل، ويمتدُّ في الاسْتِجْلاءِ ويُهوّمُ وَيُدَوِّمُ في خَطَراتِهِ وأفكارِهِ، حتى

---

(١) العريان ــ ١٥

يكادَ يَنْسىٰ نفسَهُ في ذلك المحراب الأخضر، أو يضلُّ عن إخوتِهِ لولا مُناداتُهُمْ عليهِ بالعودة إليهم.

هذه الحالُ كانَتْ تلهمُهُ معاني لا حَصْرَ لها، ويزيدُهُ الاسْتغراقُ في تأمّلها وتمثُّلها، فيقلّب وجهَهُ في السّماءِ كأنّه أحد المُتبتّلين ممّن ينتظرون موعدَهم مع الوحي والإلهام[1] وما برحَ على مثلِ هذه الحال من عِشْقِ الرياضة، واستجلاءِ الطبيعة كلَّ يومٍ بُعَيْدَ صلاةِ الفجر دائماً حتى آخر يوم من حياته[2].

* * *

٤ ــ في الوظيفة

يومَ أدركَ الرافعي حقيقةً وحُكْماً أنه قد انقَطَعَ عن الدراسةِ النظاميّة في المدارسِ، لم يَبْقَ له ما يُؤَخّرُهُ عن العمل، وأن يَلْقَفَ وسيلةَ عيشِهِ التي تَمْلأُ عليه وَحْشَتَهُ من أيّامِهِ.. وكان لأبيه جاهُهُ ومكانتُهُ، فاهتَبَلَ فرصةً نالَ فيها أخوه محمد كامل الرافعي وظيفة «مأمور مركز»[3] فاستدارَ من حولِ أبيه يُحاوِرهُ، ويطلُبُ إليهِ أن يَظْفَرَ بوظيفةٍ هو أيضاً.. وكان له بذلك بعضُ ما أراد ــ وإن لم تكنْ بالمَطْمَحِ الأدنىٰ، ولكنّها الكتابةُ في المحاكم الشرعيّة، حيثُ يغشىٰ الناس، ويحيا الفقهُ بعقودِهِ، وتقومُ المعاملاتُ في الأوقافِ والوصايا والمواريث، وسائر الحالات الذاتية الأخرىٰ.

---

(١) أحمد عيش ــ المقتطف ٩١ ــ ٥٢٩، اكتوبر ١٩٣٧ م سيرة الرافعي.
(٢) العريـان ــ الرسالة ــ ١٩٣٩ م «يومٌ لا أنساه»
(٣) العريان ــ حياة الرافعي ــ ٢٧

وقد تنقّلَ في هذهِ الوظيفة ما بينَ طَلْخا، وإيتاي البارود، وكفر الزيّات، وشبين الكوم، حتى انتهى به المَطافُ أو كاد الى « طنطا » في محكمتِها الشرعية، ثم الأصلية المدنية بعد ذلك بسنين يُقدّرُ فيها الرسومَ التي تُستوفى على القضايا[1].

ومع التزامِهِ بتَبِعات الوظيفة نَشَأ فيها نشأةَ الدلال، لمكانةِ أُسْرتهِ في القضاءِ، ولمنْزلتِهِ هو في دنيا الكتابةِ والأدب، كادَ يتّخذُها مَزْجاةً للفراغ أحياناً، يُفَسّرُ ذلك موقفُهُ مع مُفَتِّش الوزارةِ حفني ناصف — وقد أدرك حُجّةَ الرافعي في قلّةِ اكتراثهِ بالدوام، فكتَبَ الى الوزارة يقول : « إنَّ الرافعي لَيسَ من طبقةِ الموظفين الذين تَسْري عليهم ما للوظيفة من مُسْتَلْزمات،. اتركوهُ يعملْ ويُبدعْ للأمةِ في آدابها، وإلاّ فاكْفَلوا له عيشَةً في غيرِ هذا المكان »[2] إذْ كثيراً ما كانَ ينقطعُ عنها باجازةٍ أو من غيرها، مُلْتَمساً سَبَباً الى مسألةٍ علميّةٍ يُفَتّشُ عنها بين مظانِّها من المراجعِ والمصادر، أو مُتناوِلاً لغرضٍ من الأغراض بالدرس والتمحيص، حتّى أصبحَ لبعض رأيهِ في القَضايا وزنٌ، تَسْعى بهِ وزارة العدل منشوراً الى بقية المحاكمِ كالفتوىٰ السابقة. وكم من المحامينَ استعانَ به فكسِبَ دعواه![3].

وعلى الرغم من تقدُّمِهِ في المضمارِ العلمي، وتوفُّرهِ على المكانةِ الأدبيةِ العاليةِ التي وصلَ إليها بفَضْلهِ عُومِلَ بموجبِ شهادتهِ الابتدائية

---

(١) حدثني بذلك الأستاذ حسنين مخلوف

(٢) من تقرير حفني الى وزارة الحقانية — ١٩١٢ م عن العريان — ٢٧

(٣) لذلك أكثر من واقعة أفاد منها صديقه حافظ عامر خاصة.

حَسْبُ، في هذهِ الوظيفة طِوالَ أربعين سنة!.. قضّىٰ فيها زهرةَ شبابهِ، وأعطاها من يومِهِ أمتَع الساعاتِ في الضحىٰ،.. ويَوْمَ جَرَتْ على لسانِ أحدِ المعجبين به من الصحافيين عبارةٌ تقولُ « إنّه المختارُ لحراسةِ لغة القرآن » تَسَاءَلَ في استفهام ظريف: أرسُولٌ وموظّفُ حكومة؟![1].

ومن هنا كان يَراها والصحافةَ من أشقّ الأعمال على النفوس الكريمة — وإنْ عادَ يعدُّها في أواخر أيّامه مكاناً للأديبِ لَيْسَ أحسَنُ منه في حياتِنا الحاضرة[2] بعدما أتْعَبَهُ التفتيشُ عن سِواها مَوْرِداً لعيشِهِ في التجارةِ أو الزراعة — وقد فوَّتَ عليه أنسباؤُهُ فُرصاً فيها!.

كانتِ الوظيفةُ تضجرُهُ أحياناً، فيتمنّى في إحدى رسائِلِهِ « لَيْتَ الزَّمَنَ يُهيّئُ لي من أسبابِ الكتابةِ والشعر والتفرغ لهما، ما يُغنيني عن التكسُّبِ من هذهِ الوظيفة التي أنا فيها[3] وهَمَّ غير مرّةٍ أن يُحالَ على المعاش[4] فقد كانَ سأمهُ منها مبكراً — وإن لَمْ يستَطعِ الفكاكَ من أسْرِها، وقد رآها مُعَوِّقَةً لطموحِهِ، وتَحُدُّ من أهدافِهِ وغاياته، وربما كانَتْ وراءَ عدم الافساحِ له في المجال للالتحاقِ بالجامعةِ، وكان لَهُ معها مثالٌ أديب.

إزاء ذلك وسِواه من تَوَسُّلِ رفاقِ الوظيفة أنْ لا يَخْلُوَ مكانُهُ في

---

(١) رسائل الرافعي — ٢٢٣، يوسف حنا — السياسة (الكويتية) ٢٨ — ١٩٦٨ م
(٢) كلُّ شيء — ٣ يناير ١٩٣٤ م
(٣) رسائل الرافعي — ٢٥٣
(٤) نفسه

تركها، بَقِي فيها الى آخر يومٍ، ولم يزِدْ مرتبه فيها على بضعةٍ وعشرين جُنيهاً[1].

٥ ــ حياة الحبّ

نشأ الرافعي في أسرةٍ ــ كما قدمتُ ــ تفقّهت في الدّين؛ تَنْهى النفسَ عن الهوىٰ، فكانَ الإسلامُ عندَهُ دعوةً إنسانيّة قائمةً أبداً، يتمثّلُها في ضميرِهِ رائعةَ الجمال، وتُشْرِقُ في وجدانه بديعةَ المثال، وتتراءىٰ له دأباً بما فيها من الحقّ والعَدْلِ، والخير والجمال، ويُدْرِكُ فيها حقيقة الاخلاص وما يُعْوِزُ البشريةَ من أخلاق.

عرفَ الحبَّ في مطلَعِ شبابه، واستَشْعر قلبُهُ نوازعَهُ، وتسامَتْ نفسُهُ فيه، واستطابتْهُ روحُهُ وسيلَة، واتخذَتْهُ سلوكاً يجدُ فيه العِفّةَ وينعمُ

(١) العريان ــ ٢٧.
لقد كانت هذه الوظيفة عِبئاً ثقيلاً عليه، غَلّته إليها أربعين سنة، حتى كانَت مثار السخط عنده، وظاهرةَ النحس التي تُلاحقُه فيتباطأ بهِ الزمن؛ ذلك أنّ المجاهدةَ في سبيلِ الله والسموّ بالاعتقاد وما يرتقي بهما المرءُ تقتضي منه أن يكون حرّ اليد في العمل أولاً، ولكن أنّى له ذلك؟! والأمّة في ضياعها الخطير هذاك وقد انسَحَب نَحْسُ تلك الوظيفةِ على أولادهِ من بعدهِ، فلم يكد يلقى الله ربّه، حتى وقَفَتْ وزارة المالية من حَقّهم في المعاش موقفَ وزيرها الشَّيْنِ، مكرم عبيد ــ! إذ أبَتْ مروءتُه أن يُقرَّ لهم بحقّ أو مكافأة ــ أنظر العريان ــ الرسالة ــ ٢٥٣ الله أكرم!.
وعلى الرغم من هذا الإجحاف الأثيم والظّلم المبين فإنّ الثورة قد تقاعَسَت عن إنصافها للرجُلِ موظفاً ما تهيأ مثلُهُ حرْصاً عليها، وأديباً عَقمت العربيّة أن تَلِدَ له أخاً كما كان إماماً فذاً لحركتها الاعتقادية. فهل تأبى الشعوبيات المبعوثة في الاستغراب والتبشير إلا أن تطيسَ عليهِ وعلى ذكره؟! كما ألحَّ شانئوهُ من مذيعي الغَزْوِ الفكري والممثلين للتهريجِ والانحراف؟! ولا أَحْسَبُ بعدُ نكساتِ الثورةِ وهزائم الأمة إلّا من هذهِ الناحية التي يتسلّلُ فيها ويتلوّن أمثالُ هؤلاءُ وأولئك ــ بعيداً عن الأساس التربوي في إعداد الأمة قوميًّا ــ إضاعةً للأهدافِ والغايات، ولكي لا تجتمع الأمة على هدىً أو صراطٍ مستقيم!.

بالإخلاص، ويَهيم بالإيمان. وكانَ له في يفاعتهِ وشبابهِ المَفْتُون ورجولتِهِ الفذّة سَرَحاتٌ في مراتِعِ الحبّ، وغَدَواتٌ الى مغاني الحُسنِ ورَوَحاتٌ في مساربِ الجمال؛ لَذّعَ نفسَهُ بالحرمانِ فيها، وأورىٰ روحَهُ في تألّقها، وهامَ بها عند تجلّيها، ولَذّهُ الفكرُ والوجدانُ فيها، واستطابَ الحياةَ المجاهدة قُربها، ليبلُغَ قصداً في أهدافِهِ ومَرْمىً بعيداً من غاياتِهِ،.. يَضْطربُ في ذلك كلِّهِ فلا يجدُ له متنفساً غير الشعر — يتمثّلُ بهِ، ويَنْسج على منوالِهِ.

رأى « عصفورةً » على جسرِ كفر الزيّات فألْهمتْهُ قصائدَ الغَزَلِ في ديوانِهِ الأول، حتّى لُقِّبَ بشاعرِ الحُسن[1] وكادَتْ تَغْلِبُهُ على هواه، وقد أرسلَ فيها قصيدته المشهورة[2].

عصافيرُ يَحْسَبْنَ القُلوبَ من الحَبّ فَمَنْ لي بها « عصفورة » لَقَطَتْ قلبي!
وفَرّتْ، فلمّا خافتِ العينُ فَوْتَها أدالَتْ لها حَبًّا من اللُّؤلؤ الرطبِ

وكانَتْ مما تهفو إليه نفسُهُ من الحُسنِ، وما يَرْنُو إليه خاطرُهُ من اللَّمحات،.. وفي ظِلال هذا الحبّ الفريد كادَ يُحيي فنَّ بني أميّةَ في الغزلِ العفيف، ومفتونِ عهدهم قيس بن المُلَوّح العامري؛ إذ قال مُوَرّيًّا[3]:

ما عَابَني أن قيلَ : ذو صَبْوةٍ أو قيلَ مجنون بني عامر

(١) الجامعة ٦ — ١٩٠٦ م
(٢) هي أول ما غنته أمّ كلثوم من الشعر
ديوان الرافعي — ٦٧
(٣) ديوان الرافعي ١ — ١٠٠، وعمر معدول به عن عامر.

ثمّ إنّه « عصفرها » ضَناً عليها بالافتضاح ــ على قاعدةِ ابن المُنَجّم مع ابنةِ عمّه التي كَتَمَ حُبَّها، حتى حسِبَ الطبيبُ أنَّ ما بهِ من أثَرِ « الصفراء »[1].

وعرفَ « هنداً » بعدَها ــ وقد أَقْلَقَهُ التردّدُ مع هواها، واضْطَرَبَتْ بهِ ساعاتُ يومِهِ، ومرحلةُ أدبهِ، كما نمَّ عليه ديوانُهُ الثاني.

وحاولَ أن يَمْلأً قلبَهُ بحبّ آخر كانَتْ فيه « ماري » الحبيبة الآسِية، و « وهيبة » العاطفة الحانية و « سونيا » الفادية، وغيرها التي تَنْظُر إليه مع الأنواءِ[2] وقد صدق حين قال[3] :

آفةُ الحُرّ أن يكونَ مُحِبًّا   وكذا الحبُّ يَتْبَعُ الأحرارا

فقد كانَ له في « بحمدون » من لبنان و « المنظر الجميل » خَيالُ مليحةٍ أَلْهمتْهُ الأَشعارَ، وساهرتْهُ اللّيالي. وفي رَبْوةٍ من رُبى الجَبَل الأشمّ عَرَف « ليلى » وكانت أديبةً شاعرةً آذاه فراقُها، فسكَبَ على صفحاتِ مجلة « الزُّهور » قَصيدتَهُ « عَبَرات البين »، وحبُّها هو الذي أَثْمَرَ عندَهُ « حديث القمر » ذلك الكتاب الفريد[4].

وما زالَتْ به « فتاةُ الشرق » لبيبة هاشم تستحثُّهُ حتى استكْتَبَتْهُ في مَعْنى الصداقة[5] بعدما قَدَّم لها « درسَ الحياة » الذي قالَ فيه[6] :

---

(١) ديوان الرافعي هامش ــ ٦٨

(٢) راجع كتابنا الإمام الرافعي ــ ٣٧٩ وما بعدها

(٣) ديوان النظرات ــ تحت الطبع

(٤) راجع دراساتنا له في الرسالة الاسلامية ــ ٧٦، ٧٩

(٥) فتاة الشرق ــ شباط/فبراير ١٩١٩ م

(٦) فتاة الشرق ــ كانون الثاني/يناير ١٩١٩ م

« إنَّ أحسَنَ العلمِ ما علّمكَ سُنَنَ الحياةِ وأغراضَها. وأقوى القوّة ما غلبتَ بهِ على نفسك حتى تنطبعَ على هذه السنن، وأذكىٰ الذكاء ما أنفقْتَهُ في وجوهِ العمل الذي تقضي به هذه الطبيعةُ، وأهنأُ اللّذات راحةٌ من تَعَبِ العمل الذي تَعِبْتَ فيهِ؛ لِتَسْتَأنفَ عملاً آخر ».

وكانَتْ له مع الأديبة العربية « ميّ » حياةُ حُبّ ساميّةٍ وصَداقة فريدة ارتفَعَتْ على الشبهات، فقد عَرَفَها في دار « الزهور » وكم كانَتْ لطيفةً مَعَهُ، وصار يَلْقاها في « المقتطف » ويتبادَلُ معها الرأيَ في أمهاتِ المسائل الأدبيّة والفكرية، ويُعينُها على الأخذِ والاستيعابِ، ويُحَسّنُ لها أسلوبَ الكتابة، وقد شاركَتْهُ الخطابَةَ في مواسمِ جمعيةِ (الإحسان) وأسواقِها، وكأنّهما مندوبان عن صَرّوف ونمر باشا[1].

ثم حَدَثَ أن دَعَتْهُ لتناولِ الشاي والاختلافِ على نَدْوتها حيثُ يجتمعُ فريقٌ من الفُضَلاءِ[2] فما كادَ يَلْقاها ثَمّةَ حتى تطوّرتِ العلاقات بينهما، وكأنّما أُخِذَ بسحر حديثها، وجَذَبَتْهُ إليها بفتنةِ الاستقبال والاحْتِفاء.. فكانَتْ له معها حياةٌ أدبيّة فريدة، اتّسمَتْ بألَقِ وجدانٍ، واستطارت فيها رسائلُ لهما اجتمعَ بعضُها في « رسائلِ الأحزان » وتفرّقَ الآخرُ على صفحاتٍ في « أوراق الورد » وبقي القِسْمُ الخطير منها في مخلّفاتِ الإثنين[3].

وكانَ لَهُ حبٌّ آخر مع أديبةٍ من لُبنان أيضاً؛ هي التي ظهرَ أثرُها

---

(١) أنظر المقطّم ١٧ سبتمبر ١٩١٣ م مثلاً.

(٢) عن خطاب دعوتها له باسم أبيها إلياس زيادة.

(٣) الإمام الرافعي — ٣٠٠، وقد عرضت لرسائلها هناك، أما رسائله إليها فما زالت في مخلفاتها وربما حيل بينها وبين النشر!

واضحاً في « أوراق الورد » وكادَتْ نصوصُ رسائِلها تَغْشىٰ الورودَ المنثورة على رسائِلِهِ[1]

وكادَتْ بعد ذلك تعصِفُ به حيوات حُبّ أخريات[2] لكنّه كانَ قد اتّجه في أدبهِ الاعتقادي وجهةَ الدَّعْوةِ فيها، إذ ملكَتْ عليهِ جوانبَ نفسِهِ وأدبهِ، ولم تكن تخلُو من الحبّ هذه المادَّةِ الانسانيةِ الأولى في الدين.

* * *

زواجه : كان للرافعي موعِدُهُ مع القدَر في زوجهِ الفاضلة السيّدة « نفيسة البرقوقية » التي لَمْلَمَتْ لَهُ شَعْثَ أيامهِ، وجمعَتْ له أسبابَ أدبه، وحَفِظَتْ له الوداد في شعرهِ ونثرهِ، ووجَّهَتْ نظراتِهِ نحو الحياةِ سَيّداً، يَسْكُنْ إليها فتُشْرِكُه رِحلةَ العمر مودّةً ورحمة.

ذلك أنّه بالروحِ التي سَعىٰ بها الى الوظيفة يَلْتمس أسبابَ الوسيلةِ في العملِ والاستقرار، راضَ نَفْسَهُ على أن يأْخُذَ طريقَهُ الى الطمأنينةِ وبناءِ الحياةِ بكيانِ أُسرتِهِ الخاصة. وكانَ له صَفِيٌّ مودَّةٍ أديب، خَلا إليه يوماً يحدّثُهُ في شؤون الأدبِ والحياة، والشيخ محمد عبد الرحمن البرقوقي يُصغي إليه لِيَظفرَ منه « بِشَرَفِ الديباجة »[3] في التعبير البياني، والرافعي يومئذٍ في الرابعة والعشرين من عمره، يتدَفقَ حيويةً وشباباً، والحماسَةُ والبلاغَةُ تملآنِ عليهِ آفاقَ أدبهِ، دراسةً وممارسة. فلمّا تحركَ

---

(١) الإمام الرافعي — ٣٢٣

(٢) رسائل الرافعي — ٢١٣، الضياء — ٧ فبراير ١٩٣١ م

(٣) ذلك اللقب الظريف الذي لحقه بسبب من عنايته بالأسلوب العربي المبين والصياغة الفنية والبيان.

خاطرُهُ في الحديثِ يَتنَقَّل في الكلام من فنونٍ الى شجون، راحَ يصِفُ لصديقه الصفيّ صُورةً لفتاتهِ كما يراها في أحلامهِ، وما كادَ ينتهي من قولٍ فيها، ونعتٍ لصفاتِها، حتى أدركَ الأديبُ دعوى الأريب، وفَطِنَ الصَّفيُّ لروحِ النجيّ، فمدَّ إليه يدَهُ يصافِحهُ ويُهنِّئُهُ، ويذكرُ له أنَّها أختُهُ، وأنه يُسعِدُهُ أن يزفَّها إليهِ عروساً، فما برِحا مكانَهما حتى قرءا الفاتحة[1].

وهكذا بَنىٰ الرافعي بأَهْلِهِ، وعاشا أهنأ ما يكونُ زوجٌ وزوجٌ وكأنَّهما في شهر عَسَل مُسْتدام، رزقهما الله سبحانَهُ صفوةً من البنين ونُخبةً من البناتِ، يتضمخونَ اليوم وأبناؤهم بطيبِ ذكراه.

وإلى هذهِ الزوجِ الفاضلةِ يعودُ الفضلُ الآخر الذي وافىٰ بالخيرِ على الرافعي الأديبِ، وقد ارتَفَعَ بهِ من الشاعريّةِ والوجدان حتى بَلَغَ ضميرَ الأُمّةِ في البلاغةِ والفكرِ، والإمامةَ في فِقْهِ بيانها.

ذهبَ العريان يحسَبُ أن قَوْلَةَ الرافعي «إذا رأيتَ رَجُلاً موفقاً فيما يحاوِلُه، مُسَدّدَ الخُطىٰ الى الهَدَف الذي يَرْمي إليه، فاعْلَمْ أنّ وراءَهُ امرأة تحبُّه ويُحِبّها» تنطبق عليهِ بالذاتِ وكأنَّهُ فيها يَسْتَبطِنُ ذاتَهُ في إرسالِها، ويَتَمَثَّلُ نَفْسَهُ في أدبهِ، ويُتَرْجمُ عنِ واعيتِهِ الباطنةِ والظاهرة معاً، وعقّبَ عليها بقولِهِ: إنني لا أعرِفُ فيمن أعرِفُ أحداً تنطبِقُ عليهِ هذه الحكمةُ مثلَما تنطبق على حياة الرافعي[2].

وكذلك كانت حياتُهُ في بيتِهِ مثالَ الرجولةِ والأُبوّة والمسؤوليَة؛

---

(١) حياة الرافعي — ٤٤
(٢) حياة الرافعي — ٢٤

فهو يكدُّ في الوظيفة أولَ النهار، ويكدَحُ في الكتابةِ والتأليف طَرَفاً من النهارِ والليل، ليُعِدَّ لهذهِ الأسرة الحياة الكريمةَ، ويُهيِّىء لها أسبابَ الرّفاء وسِتْرِ الحال، ثم الامتياز.

وكثيراً ما كانَ يشركُ زوجه وأولادَهُ في شؤونهِ الخاصة، ويلتمسُ عندهم الرأيَ والمشورة. ومن ذلك إشارةُ زوجهِ عليه بالردّ على رسائِل حَبائبه واطّلاعِها على رسائلهنّ.

وقد يتركُ محرابَ فنّه أحياناً، ليعكِفَ على تَدريسِ أبنائهِ ساعاتٍ من اللّيْل، ليمتازوا في النجاح بالامتحان[1]، كما يَصْحَبُهم معه في نزهاتهِ بين الحقول النضيرة، أو يسهَرُ معهم في « السيما » حيث يَشْهَدُ العالم الخارجي[2] ومن هنا شمل التوفيق معظم أبنائه، فنالَ بعضُهم الحظوةَ العلمية، وما خابَ منهم أحد[3].

* * *

٦ ـــ حياته الأدبية

كان الرافعي منذُ طفولتهِ، وفي أيّام يفاعتهِ كالذي يُحِسُّ كأنَّ « روحاً رفّافةً تطيفُ به، فتوحي لَهُ بالشعورِ المرهفِ، والإحساسِ البعيد المدىٰ، أنَّ لَهُ شأناً تُجَلّيهِ فيهِ الأيّام[4] وكان قلِقاً مُنطوياً على نفسِهِ أحياناً، كثيرَ الانفراد والتأمّلِ، يألَفُ الوحدةَ ويبتعِدُ عن الناس، ما لذَّعَهُ الحرمانُ، وما صبا فيه الميلُ الى الجمال؛ فيُقاسي من الوَحْشةِ حين « ينطوي على عِشْقٍ بعض الصُّوَرِ الحسنةِ في « المنصورةِ » مثلاً، حتّى يَلْجَأَ

(١) حياة الرافعي ـــ ٢٤

(٢) رسائل الرافعي ـــ ١٣٣

(٣) حدثني بذلك محمد الرافعي

(٤) أحمد عيش ـــ المقتطف ٩١ ـــ ٥٢٩، اكتوبر ١٩٣٧ م ـــ سيرة الرافعي.

الى شاطئ النيلِ وراءَ النهرِ الصغير بعيداً؛ يَجِدُ في تلكَ البُقْعة وَحْشَةً تُعالجُ وَحْشَتَهُ »[1] وربما اضطربَ فلا يجدُ له متنفّساً لِهُمومِهِ وأحزانِهِ يتنفَّسُ بهِ غيرَ الشعر، يحفَظُ منه روائعَهُ، ويتمثّلُ بهِ، ثمّ ينْسُجُ على منوالِهِ[2].

وهو في عِفّتِهِ وشبابِهِ، والتزامِهِ بقيمِ دينهِ الحنيف، ونوازع وجدانهِ، ودواعي الصبوة عندَهُ، كادَ يُخفِقُ في الاتّجاه، ومن ذلك محاولتُهُ الأدبية ــ في أول أيامه ــ منظومةً جارَى فيها شيخَ الاسلام تقي الدين بن تيميَّة في « ذم الهوى »، وتكلّفَ لها حالةً من الوعْظِ لم ينَلْ فيها، ولا سيما في مثل قوله[3]:

لعمركَ ما الهوىٰ إلا هوانٌ　　وهل رضي الخنا إلا اللّئامُ؟

ثم إنه كالذي يتدارك في كلمةٍ يرسلُها عَفْوَ الخاطر على سجيته ــ وقد خُيّلَ إليه أن « الشاعر مخلوقٌ فوقَ الانسان، غريبُ المزايا والأطوار، لا يُحْسَبُ من الناسِ ولا من الملائكةِ، أيْ أنَّهُ حائزُ على مزايا المخلوقاتِ بأسْرِها »[4].

غير أنّهُ سلكَ السبيلَ الى الشعرِ والقَوْلِ، فما كادَ يُرْسِلُ فيه بعضَ القوافي حتّى تَلَفَّتَ حواليهِ كأنَّهُ يبحثُ عن الصدىٰ، فأطال الحديث له في « الشعر العربيّ » دارَ فيه مع فُنونهِ جميعاً، وعرَفَ أغراضَهُ، وجمع عناصِرَهُ، وقالَ في بديعيّاتِهِ ومُوَشّحاتِهِ وأزجالِهِ.. وقَدَحَ في

(١) الرسائل ــ ١١٢
(٢) ص. ش. ــ البصير ــ ٢٢ مايو/أيار ١٩٢٥ م
(٣) المنار ــ رمضان ١٣١٧ هـ ــ يناير ١٩٠٠ م
(٤) الثريا ــ ٧ ــ ١٩٠٤ م

القديم وأهابَ أن يُنظَرَ الى ما يقولهُ الشاعرون[1] من شعرٍ فيهِ روحُ العصر، وكأنَّه يرشّحُ نفسَهُ أو يعرضُ بِضاعَتَهُ، ويَسْتَلْفِتُ الأنظارَ إليها بما يَعْلَمُهُ من الشعر.

ولكنه على الرغم من هذهِ الاستطالةِ في البدايةِ، واضطرابهِ في المخاطرةِ، استطاعَ أن يكْسِبَ العَطْفَ عليه، لا من والدِهِ وأصدقائِهِ فحسْبُ، بل من أدباءِ الجيل وشُعرائهِ، حتى قدّروه فوق قدرِهِ في تلك الأيام. فمضىْ في سعيهِ ليؤكّدَ صلتَهُ بشيخِ الشعراءِ العائد من المَنْفى السحيق في الهند ـــ محمود سامي (باشا) البارودي، وعَقَدَ له آصرةً مع الإمام محمد عبده، يَخْتلِفُ عليه كلّما هَبَطَ إلى القاهرة؛ وعرّفَ نَفْسَهُ وفنّه لذوّاقة الشعراء إسماعيل صبري (باشا)، ولَقِيَ خليلَ مطران، وراح ينافِسُ حافظ ابراهيم ويطاوِلُهُ، فلا يكادُ يقولُ في معنىً أو يرسِلُ قافيةً حتى يلاحِقهُ الرافعي فيه، وربما وَلّدَ في معانيه، وتعلّقَ بقافيتِهِ، ودَلَّ عليهِ بأنه لا يقولُ في الغَزَل[2] كأنّه يَسْتَطِيلُ في السباقِ مع أولئك جميعاً.

ولما كان فيه من الاستِعدادِ الأدبي الكبير، وبما في أعصابِهِ من إحساس مُرْهَفٍ، وما في ذهنه من جَلاءِ الخاطر وسُرعةِ الاسْتجابة لدواعي القولِ فيما يَنْفعلُ بهِ، ووفرةِ ذكائِهِ، وشعورِهِ المُفْرط،.. قد يَسَّرَهُ الله لما خُلِقَ له، وكما أراد أن يطمَحَ، وأن يَبْلُغَ بنفسِهِ هذا المكان بين أدباء العربية[3].

---

(١) المنار ـــ ربيع الآخر ١٣١٨ هـ ـــ تموز ١٩٠٠ م

(٢) العريان ـــ ٣٠

(٣) العريان ـــ ٤٩، وقد تنبأ له يومئذ علية القوم كالزعيم مصطفى كامل والإمام محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا، ويعقوب صروف ولطفي السيد وغيرهم.

حَدَثَ له مرّةً أن اصطدمَ بالشاعر عبد المحسن الكاظمي ــ إذ لَمْ يَلْقَهُ كما أرادَ، فتصدّى له بمقالةٍ ينعىٰ عليه فنّه الشعري، ويتّهمه في أسلوبهِ، ويخمِلُ شأنه[1] حتى اضطرّهُ أن يُصافيهِ ولا يجافيهِ[2].

وربما كانَ في تلك الأيام يشعُرُ بأن جُهْدَهُ لم يُنِلْهُ بفنّه الشعري المنزلَةَ التي يطمَحُ، فكان له من قلمِهِ الآخر في التصدّي لشعراءِ العصر بتقويمٍ يُوَزّعَهُم في درجاتٍ، فنَفَسَ على أحمد شوقي شاعريّتهُ وحُظْوَتَهُ، وآذاهُ بالغمزِ واللَّمْزِ تارة، وبالنَّقْدِ الموجع أخرى[3] ومسَّ أكثر من شاعرٍ في بعضِ خصائصِهِ، وارتَفَع بنَفْسِهِ الى الطبقةِ الأولىٰ، فأثارَ عاصفةً بين الأدباء، جعلتِ الصحافةَ تَشْتَجِرُ فيما بينها، وتدورُ في معاني النقدِ والمُوازنة، والامتياز لها مكانُها في تاريخِ الأدبِ الحديث[4].

الشاعر المخاطر : وبهذهِ الروح المخاطرةِ في المباراةِ أسرعَ فأخرجَ ديوانه الأول، يُثْبِتُ فيهِ وجودَهُ الشاعر، ويأخذُ مكانَهُ بجدارةِ الفارسِ، ويكسِبُ من الثناءِ عليهِ وإطراءِ نَعْتِهِ وأدبِهِ، ما جَعَلَهُ يقِفُ على الصراطِ الذي مضىٰ بهِ الى ما شاءَ الله.

وعلى الرغم من أنّهُ حَشَدَ في « ديوان الرافعي » بأجزائهِ الثلاثة من فُنون الشعر ومذاهبِ القول فيه ومعانيهِ ما كادَ يجمع بينها بطريقةِ تأليفٍ خاصّة وزناً وقافيةً وموضوعاً، يُخيِّلُ فيها الى القارئ الناقد كأنما كانَ يريدُ تجديدَ معاني الشعر العربيّة بديباجتهِ هو، وأسلوبهِ الخاص

---

(١) الظاهر ــ ١٩٠٤ م
(٢) العريان ــ ٣١
(٣) وحي القلم ٣ ــ ٣٧٢
(٤) راجع ص ٩١

ـــ وإنْ تهافتَ أو تهلْهَلَ نَسْجُهُ أحياناً ـــ ممّا حَملَ حافِظاً والمطرانَ على نَعْتِهِ بالمكثار[1].

غير أنّ الجديرَ بالذكرِ، والأثيرَ بالملاحَظَةِ أن مَفْهومَهُ لبعضِ القضايا المصيرية والاعْتقاديّة ومواقفَهُ القوميّة، والاجتماعية كانَتْ تختلِفُ عن مواقِفِ ومفهومات أولئك جميعاً،.. فلا يَرىٰ فيها رأيَ الانْطِباع والمُتابعة حَسْبُ، وإنّما له الامتياز والانفرادُ بآراء خاصّةٍ في ذلك الوقتِ المبكّرِ من القرن ـــ يَتَجَلّىٰ فيها بُعْدُ النّظَر والموضوعية في آنٍ، وقد تكون هي التي باعدَتْ بينَهُ وبينَ الصدارةِ التي طمح ـــ وقد لَقَفها سابقُوه من المعاصرين[2].

ومن هنا ندركُ حقيقةً في حياة الرافعي هي التي مَيّزَتْهُ على محيطِ الناس والموظفين والأدباء بخاصّة وربما أهل بيته أيضاً؛ ذلك أنّه كان يَعْتَدُّ وُجُودَهُ قدراً، فيه ذلك الانفرادُ بالرأيِ والامتيازُ بالدعوىٰ، وحملُ تَبِعاتِ الفكر والإصابة، وهي التي عَرّفَتْ به في الآفاقِ.

٧ ـــ أخلاقه وسيرتُهُ

كان الرافعيُّ مَهيبَ الجانب، يَدُلُّ بمَلْبِسِهِ الحديث وزيِّهِ الأنيق، ومَظْهرِهِ الرائع كأنَّهُ مَدْعوٌّ للاحتفاءِ أبداً، يَمْلأُ الوقارُ عليهِ مجلسَهُ ويصُونُهُ، ويحولُ بينَهُ وبين أن يَتَدَنّى أو يختلطَ ـــ وإنْ جالَ في الظَّرْفِ أو حاوَلَ الدُّعابَةَ، أو أثارَ النكتةَ؛ فانّهُ يشِفُّ عن جَلالِ العُلماء، ويعرِضُ

---

(١) سركيس ٩ ـــ ١٩٠٦ م

(٢) زعم غبيٌّ أنّه لم يكن يعيشُ في عصره ـــ المجلة الجديدة ـــ نوفمبر ١٩٣٥ م كأن العصرية هي التمرغ في أوحال العصر!..

في بسطةِ أهلِ الفقهِ، ويزهُو بالأدب، ويُفصحُ عن لَفَتاتِ ذوي الرأي والسيادةِ بقِوامٍ مثيل.

لم يُعرَفْ عنهُ التطفّلُ أو انتهازُ الفُرص والتقرّبُ من الكبراءِ والعظماء، وكانَتْ له قَناعَةُ الأبرياء، وصَفْوةُ أهل الفكر، وابتعادُ المجتهدين، يألَفُ الوحدةَ مع التأمُّلِ في مغاني الطبيعة، ويغشىٰ أنديَةَ القومِ أحياناً، ولكنَّهُ كانَ يختلِفُ على ديارِ أهليه في الشام والجَبَلِ الأشَمّ؛ يَتَملّىٰ في أغراسِ الفِتْنةِ عندَ أوديةِ الهوىٰ، ويتأمَّلُ خَطَراتِ الجمال على الشطآنِ، ويَنأىٰ عن الصَّخَبِ والزحام واضطراب الحياة.

وكم كانَ له من معارِفَ وأصدقاء وأحبّةٍ من شَتّى الدَّرجات! فيهم الأميرُ المَهيب والسَّفير الأديب ومنهم الزبّالُ الفيلسوف، وبينَهم المهندس والطبيب والغنِيّ والفقير — وقد أثَّرَتْ حياتُهُ هذه فيهِ أيّما تأثير، فترجَمَ عن ذاتِهِ، وصَوّر نفسَهُ بأدبِهِ، وتَعَهّدَ أهلَهُ برأيهِ ورَبّىٰ أولادَهُ بأغاريدِهِ، وناجىٰ الطبيعةَ والشعبَ بأناشيدِهِ، وعَمَرَ الشّعر بأوزانِهِ وقوافيهِ، وأشرَفَ على الحياةِ في مُعظم مظاهرها، ومجالاتِ سَعْيِها وخوافيها، كأنّما كانَتْ له من هذه وتلك وهاتيك موحياتٌ غادياتٌ رائحات، لا يَفْتُرْنَ عنه في أدبٍ، ولا يَبْخَلْنَ عليهِ عن عطاء.

وما كادَتْ بوادرُ الاستقرار تقفُ بهِ على صِراط الفكر وتَمْضي بهِ الى صَدارة العُلَماء، حتّى تصَدّى للجامعةِ في بدءِ إنشائها، فنعىٰ عليها خُلُوَّ دروسِها من موضوعاتِ الآداب العربيّة، وأنَّ ما يُلقى فيها لم يكن فيه جَديدُ مَعْرِفةٍ، ولا امتيازُ علمٍ يرتفع بها الى ما يُراد[1].

(١) أنظر المعركة بين القديم والجديد — ٦٩

ثم عادَ فسابَقَ عُلماءَ الأدب فيها، وأدهَشَهم بموفورِ عِلْمِهِ، حتى خَرَجَ عليهم بمُصَنَّفِهِ الجليل في « تاريخ آداب العرب » الذي دَرَسَ فيهِ اللّغةَ والرواية — في الجزءِ الأوّل، وتاريخ القرآن والبلاغة النبوية في الجزء الثاني، وأثبَتَ فيه من الدِّقّةِ وتحرّي الحقائق ما أكبَرَهُ عندَ المقتطف، كبرىٰ المجلات العلميّة يومئذٍ، وأعجبَ به جيلُ الأساتذة والمحاضرين — في منهاجٍ افْتَرَعَهُ وجلّىٰ فيه، — وإنْ أوغَرَ صُدُورَ حاسِديهِ على توفيقِهِ فيما أصابَ[1] من علمٍ وإحكامِ صنعة.

ويومَ استقرَّ الرأيُ عندَ صِهْرِهِ وصفيِّهِ عبد الرحمن البرقوقي أنْ يخرجَ مجلة « البيان » غشيَ الرافعي ميدانَ الصحافة — الأدبيّة، بما عَقَدَهُ للمجلّةِ من المقالاتِ الافتتاحية، والفصول النقديّة والتقويميّة، التي تُعَدُّ اليوم من الوثائقِ القوميّة الخطيرةِ التي يُشير إليها الدارسون لِبَوادِرِ الوَعْي العربي في مصر وسابقاتِهِ في هذا المضمار[2].

وكانَتْ آيةُ ذاك المقالةَ التي صَرَفَ فيها وَجْهَ الحديث الى القمر، وقد ناجىٰ ليلاهُ هناكَ على رَبْوة من جَبَل لبنان، وحاوَرَها في شؤونِ الحياةِ والفكر والأدبِ والاعتقاد، في صورةٍ من البيانِ الفريد والغزلِ الطريف والمجازِ الوليد[3].

---

(١) كجورج زيدان الذي ابتسر كتاب بروكلمان لمجلته الهلال عام ١٨٩٢ م، وعاد يُسابق الرافعي به عام ١٩١٢ م وطه حسين — وقد أشهدَ الناس أنّه لا يفهمه — وإن عاد يأخذُ عنه — في الشعر الجاهلي ٩٧، ويُطْري نعته — من بعيد — ٢٦٥

(٢) العريان — ٢١٥، والإمام الرافعي — ١٣٠، وقد ذكّرت محمود الفياض بذلك لدراسته في الصحافة الأدبية، ومُسَوَّدة الافتتاحية الأولى بالقلم الرصاص — في محفوظات محمود أبي ريّة.

(٣) لنا دراسة في الكتاب أدركنا فيه « ميثاقاً قوميًّا » ودعوة عربية مؤمنة — أنظر الرسالة الاسلامية — ٥١، ٥٣

٨ ـــ الكاتب الانسان

ولمّا كانت هنالك بعضُ المَذْهبيّات المُتَرْجمةِ في الفكرِ والاجتماعِ أيّامَ الغزو الصَّليبي العائد بالتبشير والاستعمار، تحاولُ أن تغشىٰ الحياةَ الاجتماعية للأُمّة بآراء في تحرير الفرد من رِبْقةِ الأيام، وأخرى في تمكين المرأةِ من الاسْتقلال الذاتي،.. ونظرياتٍ في الاقتصاد الربوي، وما سُمّي بمذاهبِ الاشتراكية،.. راحَ الرافعي يُحاضِرُ جمعيةَ (الإحسان) في طنطا من حولِ هذه الموضوعاتِ، ويَبْعَثُ بمحاضراتِهِ الى الصحفِ كالمقطم والبيان والزهور والمقتطف، ليجتمعَ له من ثمّ « كتابُ المساكين » الذي يَعْدِلُ ثورة تفكيريّة بمُعْطياتِها الإيجابية جميعاً.

لقد تحرّى في « الكتابِ » الواقعَ الحقّ للفقر والفقراء بآلامِهِ من أخطاءِ الناس. وتصدّىٰ للمُقارنَةِ، ونَظَرَ في طبقاتِ الاجتماعِ الإنساني ودرجاتِ الفقر، فلم يُفرّقْ بينَ أميرٍ ولا صعلوك ما دامَ الفقرُ يحتويهما بشكلٍ من الأشكال، وكشَفَ عن الكذبِ والدَّجل والتلفيق، وما يَغْشىٰ الأفكارَ من أوْهامِ الآراءِ. فَلَمْ يَنْخَدِعْ بالمتخيّلاتِ النَّظَريَّة من الكُتبِ والرسائل، ولا أغرَتْهُ الفَلْسفات بالموائدِ الخياليّة[1] على الرغم مما كانَ عليهِ من اعْتِلالِ الصحّة وقلّةِ العافية في تلك الأيام السّودِ من الحربِ وتمكّنِ الاحتلال.

* * *

٩ ـــ النشيد الثائر

وما كادَتْ ظروفُ الحرب الآثمة تتمخّضُ عن المقاومةِ القوميّة في الديارِ العربيّة التي احتلّها الحُلفاءُ ـــ وفي مقدمتِها مصرُ الباسِلة،

(١) انظر المقتطف ٦ ـــ ١٩١٣ م والهلال ٢ ـــ ١٩٢٤، والرسالة ـــ ٥٤

حتّى كانَ الرافعي لسانَ الأمّةِ المناضلةِ عن قيمها وكرامتها بأدبهِ وفنّهِ، وقد رَفَع لها أكثر من شعارٍ، وكانَتْ بعضُ منظوماتِهِ نشيدَ اليقظةِ القوميّة ومرددات أبناءِ الأمة، وعُنوانَ الكرامة الوطنية، على الرّغْمِ من انقسام وسائلِ المقاومةِ، واضطرابِ تحرُّكاتِ العرب في أقطارِهم، بين الكياناتِ، التي فَرَضَتْها أحداثُ الانحسارِ العثماني، والاحتلال الأوروبيّ البغيض، الذي مَزَّقها في قُطْريّاتٍ وطائفياتٍ يُدابر بعضُها بعضاً. ونشيدُهُ الأثير « اسلمي يا مصرُ » ما يَبْرحُ الألْسِنَةَ، ولا يُغادِرُ الأذهانَ الى الآن. وكذلك نشيده الاعتقادي الأثير « يا شباب العالم المحمدي » الذي كان صرخةَ الدماء في الانتباهة الفكرية التي تستأثر بالامتياز العقليّ والتدبر الحكيم.

ثم نشيدُه الآخر « حماةَ الحمى » الذي أضحى النشيد القوميّ للأمّة العربية، بعدما شرّق في العراقِ والشام، وغَرّب في تونس والمغرب[1] فأضحى الرافعيّ بذلك الأديب الشاعر لسانَ النهضة العربيّة، ومثال يقظتها القوميّة لا مُنازع.

* * *

١٠ ــ جهاده الفكري

لقد تمكّنَتْ بعضُ الدعوات الغزوية ــ بعد الاحتلال وتمزيق الوطن بالقُطريات ــ من عقول الكثيرين من ذوي المكانة العلمية والتبعات الدراسيّة، والمجالات الثقافيّة والسياسيّة،.. ومضَتْ تصوّرُ للناس دينَ المحبّة الانسانيّة في صورتيه؛ الماسونية والتبشيرية، بتَصَدٍّ ظاهرٍ للعروبةِ،

(١) أنظر « أغاريد الرافعي » أخرجته وزارة الثقافة العراقية ــ ١٤٠٠ هـ ــ ١٩٨٠ م.

وإلحادٍ لدينها، ومَسٍّ بفضائِلها، وفي بُغْضِ العَرَب وخَصائصهم، وتَسْفيهِ لإعرافِهم وأحلامِهم، وحطٌّ من عاداتهم وتقاليدهم التي تجتمع في المروءاتِ، وتَسْتقيم بالتقوىٰ وثباتِ الأخلاق،..

التجديد الفريد : أدرك الرافعي ذلك في مرماه ومبتغاه، ولكنَّهُ سلكَ طريقَهُ الفكري المجاهد بثباتٍ اعتقادي متين، وجَلّىٰ في مضمارٍ لم يُعرَفْ لسواه؛ فمضىٰ يحاربُ في ميدانين، ونازَلَ هؤلاءِ وأولئك ومَنْ وراءَهم في جَبهتين، وجالَدَهم جميعاً بسِلاحين.

كانَ في الأول منهما ينتقي موضوعات الحُبّ، وفنون فَلْسَفَةِ الجمال، ونوازع الوجدان، يَسْتَبْطن ذاته المؤمنة فيها؛ ليثبتَ للعَرَبِ من الخصائصِ النفسيّة، والميّزاتِ في المقوماتِ، والشأوِ الوجداني البعيد ما لا يُجاريهم فيه قومٌ، ولا تُباريهم أمّة، ولا تكادُ تدرِكُهم نِحْلَة، وذلك في رسائلَ يُسَمّي بعضها (رسائل الأحزان) فيتحدَّثُ عن نفسِهِ بضمير الغيبِ مثلاً للإنسان العربيّ الذي تَجْتمع فيهِ الرّجُولةُ والضمير والدم الكريم. أو يَنْثني يَسْتَمطر (السحاب الأحمر) معاني في قيمِ الإنسانيَّةِ وأحوالِ الناس وأمزجَةِ النّساءِ في الحبّ خاصة، وكيفَ تتجلّىٰ هذه العواطفُ الإنسانيّةُ أو تتهافَتُ عند هؤلاء وأولئك. أو ينْعَطِفُ فيكتُبُ على (أوراقِ الورد) بانْفعالٍ عاطفي سامٍ، وكأنّهُ يجدّدُ تاريخ دينٍ بتطوّرِ أفكارِ أنصارِهِ؛ فهو يأْخُذُ بأيديهم أبداً من الآلامِ أو الشحناءِ، أو الحروب الى افتعالِ الفكْرِ، والامتيازِ على الفَلْسفةِ، وإرسالِ الحكمةِ، والإصابةِ في التجربةِ والنداء.

يقرِنُ ذلك المذهبَ بحقيقَةِ الاعْتقادِ الإنساني الذي يتمثَّلُ بالمروءةِ، وينْهَضُ في التقوى ويقوم على الإخلاص، ما امتدَّتِ الفِطرَةُ الالهيّةُ

التي فُطِرَ الناسُ عليها. — والإسلامُ الحنيف يأبىٰ إلا أنْ يحفظَ على الناسِ ذلك الناموس، وأن ينزَعَ التكلّفَ عنهم، ويرى العودة بهم الى ذلك الغَرْسِ الإلٰهيّ مروءةً وتقوى!.

قَصَدَ الرافعي ذلك — وقد وفّقَ له سبيلُهُ في التجديد بالأسْلُوب، والإحياءِ للبْلاغة، والإشراقِ على المعاني، والتوليدِ في الأفكار، وتمكين المجازِ من الحقيقةِ، أو بعبارةٍ أدَقّ؛ في الإقبالِ بالبيانِ أدباً اعتقادياً، وفكراً عربيًّا مبيناً، بما يهدُفُ إليه من جِلْوةِ الآراء وإشراقِ الجُملةِ الأدبية، وإرادةِ الاعتقاد التي تَسْتبدُّ بالتكوين العقليّ للأُمّة، وتقيمُ له المَعْدَلةَ مع الذّوْقِ والضمير واتّقاد الوجدان، إعداداً وتقويماً مع الحياة.

ربما كانَ ذلك الحادثُ — الغريب نَوْعاً — الذي ألقىٰ بهِ في خِضَمّ هذه الأمواجِ أَحَدَ وَسائلِ القَدَرِ لهذا المآل، مُذْ يومِ أُمَّ « لبنان » ولقِيَ في إحدى رَبَواتِهِ صُورَةً من بقايا أحلامِ صباه،.. ويومَ نادَتْهُ أديبةُ (المقتطف) « ميّ » ليحضُرَ نَديَّها في حَفْلِ شاي أقامته، وليتردَّدَ على مجلسِها كلَّ يومِ ثلاثاء،.. فكانَ له ما كانَ من تلك الثمراتِ والرسائل التي سَدَّتْ نَقْصاً في تاريخِ الأدب العربي وفنونه.

وكذلك حينما ألقى البريدُ إليهِ برسائلِ العاطفةِ، وخَفَقاتِ القُلوب، ونوازع الشّباب، وصُوَرِ الحبّ التي أفاضَتْ عليهِ بوَقْعِها وإلهامِهَا جُزْءاً أكبرَ من « أوراقِ الورد » وجَعَلَتْ منه العَطاء الطيّب، فكانَتْ « ماري ينى » بِدَلّها هذاك بُرْءَ هواهُ، وتتمّةَ وسيلتِهِ، وظهورَ مذهبِهِ على سواه، وميزتَهُ على آدابِ الأمم، فكان أعجوبةَ الأعاجيب حادِثةً وفنًّا[1] حتّى

(١) الإمام الرافعي — ٢٧٩

غدا الكاتبَ القدير عند الجميعِ، لا يَتَرَدَّدُ في الاقرارِ له بذلك أَعْتَى مناوئيه .

تحت راية القرآن : وأما الميدانُ الثاني فكانَ في حملِهِ « لراية القرآن » مُجاهداً في سبيلِ الله بمعاركَ فكريّةٍ رهيبة، نازَلَ فيها شانئيهِ من حَمَلةِ فكر أوربة الضلّيل، بلا هُوادة. وكانت مجالاتُهُ في الأدبِ والنقدِ والتاريخ ذاتَ خُطورةٍ بالغةٍ؛ كَشَفَتِ الزَّيْفَ والدّجل والتضليل والنفاق، وما كانَ يدورُ من اتّجاهاتٍ في تمصيرِ اللّغة وما حاوَلَه « لطفي السيّد »، أو ابتسار الفكر الغربيّ الذي توخّاه « سلاّمة موسى »، أو ادّعاء البحث الذي تورَّطَ فيه طه حسين، أو النقل والأخذ غير الأريب الذي تمثّل به « عباس محمود العقاد » أو محاولات غيرِ هؤلاء، ومداورات أولئكَ ومَنْ يلحقُهم أو يلوذُ بهم.

أدركَ الرافعي بثاقب بصرِهِ وبُعْدِ نَظَرِهِ؛ أنَّ الفكرة لَيْسَتْ بنت أحد، وإنما هي إذا ما نَبَتَتْ بخبثٍ فلن يكون ثمرُها إلا نكِداً.. « ولَنْ تجدَ ذا دخْلةٍ خبيئَةٍ لهذا الدّين إلّا وجدتَ له مِثْلَها في اللُّغةِ. وإنّ ـــ أصحابنا ـــ لا يَجْهَلُونَ أنَّ الأصل في التربية بالحملِ على الأخلاقِ، وعلى روحِ الأمّة التي تتمَيَّزُ بها[1]. وحين رأىٰ أحدَ هؤلاء ـــ وقد أعياهُ الفَهْمُ، علَّل ذلك بإحدى ثلاث؛ إمّا طبعٌ مُسْتَوْخِمٌ في النَّفْسِ مَبْنِيٌّ على المُكابَرةِ والمراءِ في اللَّجاج والسَّفْسَطَةِ، كما يَفْعَلُ أهلُ الجَدَلِ في غلبةِ ثرثرةٍ.. وإمّا خَلْقٌ في الخيالِ والفكرِ لا يَرْتَفعُ وإنما يَسِفُّ ويَهبِطُ، وإما عَقْلٌ ولا كالعقول »[2].

---

(١) المعركة ـــ ١٠١

(٢) وحي القلم ٣ ـــ ٣٠١

وبهذا وذاكَ أصبح الرافعي من أكبر النقّاد، لا يملكُ قُوَّتَهُ ناقِدٌ آخر، ولا يُطاوِلُهُ في البيان مطاوِلٌ، كما لم يفُتْهُ من مذاهبِ النقدِ الحديثةِ شيءٌ — وقد توفَّرَ عليها جميعاً — وزاد هو ما برع فيه من تحليل واختبار.

* * *

١١ — المعاصرة والاتجاه

كانتْ حياةُ الرافعي في النصفِ الأول من القرن، وما كان يَجْري فيهِ من تحوُّلٍ في السياسةِ القوميّة وتبدُّلٍ في القيمِ والأعراف، وتقابُلُ في العاداتِ والتقاليد، وانتظامٍ وافتراقٍ في المذاهب والأفكار والآراء. كان ذلك الانسانُ العربيُّ الذي عاشَ في مصر بِوجدانِهِ، وفي الأُمّةِ العربيةِ بضميرِهِ، ومُثّلَتْ له الحياة بحقائقها ووقائِعِها وفجائعها، ولَفَتات القدر فيها، حتّى عَظُمَ إنتاجُهُ الأدبي كمًّا وكيفاً، وانفردَ بالنظرة التحليليّة التي كثيراً ما كانَتْ تُصيبُ في الهَدَفِ، وتوضحُ في المقصودِ، وربما اسْتمزَجَ الأنواءَ بعبقريته في المحاذيرِ، والنُّذُرِ في البشريات[1].

وعلى أنّه من أبناءِ الفقهاء، وأنَّ معظمَ أهليهِ وأبناءِ عمُومتهِ قد سلكوا سبيلَهم في التعليمِ الى الأزهرِ وأروقتهِ، فقد اتخذ طريقَهُ الى المدارسِ الحديثة، فكانَ يَسْتعينُ بأبيهِ على ما يُعوز تلك الدراسةَ من عُلُومِ الشريعةِ والفقهِ والعربية[2] — وقد لبسَ البدلةَ الرُّومانيّة، وراح يفتّش عن مكانِهِ

(١) أنظر قوله في مستقبل الترك — الرسائل ٧٠
ورأيه في قيام العربية من العراق الى الأطلسي — الهلال ١٩٢٠/٢ م.

(٢) الهلال ١ — ١٩٢٧ م

في الوظيفة ودنيا الأدب والصحافة، وما أحضَرَهُ العصر من صِفاتِ المدنية وعاداتها، بل يُسارِعُ الى إدخالِ الكهرباء الى بيتِهِ، وقد ألْحَفَ بطلبِ السمّاعة المخترعة قبلَ أن يعرفها أحد، ويسجل صوتَهُ على اسطوانةٍ لحسابِ شركة «ماركوني».

ويومَ شرَعَ قلَمَهُ ورفَع عقيرتَهُ، نَظَمَ وكَتَبَ في الموضوعاتِ المُحْدَثة مُوازناً ومسابقاً لكثيرٍ من اتّجاهات الأدبِ والفنّ والاجتماع التي تُعَدُّ من الجديداتِ في اللُّغة العربية[1]. ولعلّ من أبرعِها ما كانَ له فيه التوفيق في الموضوعاتِ الغزَليّة من الحبّ ورسائلهِ، وفلسفةِ الجمال، كما خرجَ بالنثرِ العربي الى المعاني الوجدانيّة، بل جَعَلَ فيهِ قصائِدَهُ ذات المعاني الشعريّة الفريدة[2].

وكان له في تجديدِ المَفْهومات الإسلاميّةِ ما عُرِفَ بالامتيازِ فيه بين مُعاصريهِ ممّن حاولوا محاوَلَتَهُ — وقد سَبَقَهم في التحرّي، ونبّههم الى موضوعاتٍ عادوا فيها يجارُونَهُ، أو يبدعون في جوانب أخرى[3].

غير أنّه في الوقت الذي كانَ فيه الأدباءُ يَفْترقونَ من حولِهِ في تجمّعاتٍ تَلْحق بالسياسات أو تلوذُ ببعض المبادئ والأفكار المَجْلوبَة، كان ينفردُ بِصِفَتِهِ من الاسْتقلالِ بالفكر والمثابرة على عُروبته، والالتزام بدعوتِهِ المؤمنة، ورُوحِهِ الإسلاميّة الفقيهة.

---

(١) راجع فصل الفنون الآتي.
(٢) أنظر «الانبعاث القومي للضمير العربي في أدب الرافعي».
(٣) الإمام الرافعي — ١٥١

١٢ ــ الأديب الإمام

أجل لقد تفاعَلَ مع عصرهِ وتأثّر بعواملِ الحضارةِ وجدّدَ في مُعْطياتهِ الوجدانية وتثبَّتَ من الوعي القومي، وآثَرَ الحياةَ الحرّة الكريمةَ في أدبهِ وفكرهِ؛ يُحافظُ على سيما العربيةِ وطابَعِهَا في فنونِها جميعاً، مع ما يُلقي عليها من فنّهِ من مِسْحَةِ الإبداع في التوليد والعطاءِ الفكري، والجمالِ الفنّي الآسِر في الكتابة وانتظامِ معانيهِ في روائع من أسلوبِهِ الفريد.

قالت (السياسةُ) يوماً[١]: « خَطَبَ الرافعيُّ في حَفْلٍ خاص بطنطا، وكانَ ترتيبُه بعد شوقي وحافظ والمطران، فكانَ ظريفاً معهم جميعاً ». وقالَتْ أيضاً : حضَر الرافعي حَفْل تكريم « كريمان » ملكة الجمال؛ فقال : إني راضٍ عن سُفورِ هذهِ بعينها لأنّها أشبَهُ بتسبيحةٍ إلَهيّة، فقدّر الجميعُ فيه هذه الالتفاتَةَ البارعةَ في تقدير الجمالِ وخَطَرهِ[٢].

ولم يَزَلِ الرافعي كذلك يتحوَّلُ في أدبِهِ من طَوْرٍ الى طورٍ، حتّى انْطَلَقَ فنُّهُ البياني من صَفّ الأدبِ وفُنونِهِ، الى الاعتقادِ وفلسفتِهِ؛ يَفْقَهُ الحياةَ الفكريّة وما يُعوزُها من رسالةِ الدين الحنيف، فيصوّرُ مذهبَ العُروبةِ في الإشراقِ على الدنيا بنورِها الربّاني، وفضائِلها النفسيّة ويُعظّم شعائرَ الله ببَعْثِ قيمها، وأعرافِ أهليها.. وربما انفتَح هذا المذهبُ أكثر وأوسع في دراستِنا التالية، حين ندركُ فيه شخصيّة المفكر الفيلسوف.

* * *

---

(١) السياسة ــ ٢١ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٢٧ م

(٢) السياسة ــ ٢ مارس/آذار ١٩٣٣ م

وقَفَ الرافعي في أخرةِ أيّامه يتأمَّلُ عصرَهُ، ويَسْتبطنُ ذاتَهُ، ويراقب أعمالَهُ، وكادَ يدرِكُ في نفسِهِ مهمّة الناقد الذي يملأ فراغَ العصر[1] وقد أعياهُ التفتيشَ عنه ثُلْثَ قرن، بين أبناء جيلِهِ من المفكرينَ والفُقهاء والأدباءِ، حتى راح « يَسْتعِدّ لحملةِ التطهير التي تَهْدِمُ العصرَ من أركانه الضعيفةِ، لِتُعيدَ بناءَهُ على أسسٍ سليمةٍ من المتانةِ والقوة »[2] ذلك ليحفَظَ للأمّةِ القُدْرةَ على التغيير، ويمكّن لها إرادةَ الحياة. وعادَتْ به ذكريات أيامِهِ في طفولته، وكيفَ دُعيَتْ لتحمّلَ الرجلَ الذي فيها تلكَ الرسالة والدعوةَ المؤمنة في قولِهِ تعالى ﴿**أدعُ الى سبيلِ ربّك بالحكْمةِ والمَوْعظةِ الحَسَنة**﴾ وكيفَ كان يخشعُ في كلّ ضائقةٍ لهذا الصوت ﴿**واصْبِرْ وما صَبْرُكِ إلاّ باللهِ**﴾[3].

ورأى الايّام من حوالَيْهِ ــ وقد حالَ فيها كلُّ شيءٍ، فأُولو الأمر مماليك أحَقّ بالبيعِ أولاً ثم العتق، من الحكم أو التدبير[4]، والعُلماءُ ما فيهم الإمام الذي يَلْتقي عليه الإجماع، ويكونُ ملءَ الدهر في حكمتِهِ وعقلِهِ، ورأيِهِ ولسانِهِ ومناقبِهِ وشمائِلِهِ[5] والأدباءُ « كلُّ من يُنْشَرُ لَهُ يعُدُّ نفسَهُ أديباً، وكلُّ من عَدَّ نفسَهُ أديباً جازَ له أن يكونَ صاحبَ مذهب، وأن يقول في مذهبِهِ، ويَرُدّ على مذاهِبِ غيره »[6].

وبينما هو يُخَطّطُ للرَّدّ على إحدىٰ المُفتريات على الدّين الحنيفِ،

---

(١) الرسائل ــ ٢٥١

(٢) الزيات ــ الرسالة ١٧ مايو/أيار ١٩٣٧ م

(٣) آخرة سورة النحل ــ أنظر وحي القلم ٣ ــ ٢٨

(٤) الرسالة ٢٠٠ ــ ٣ مايو ١٩٣٧ م

(٥) الرسالة ١٩٣ ــ ١٥ مارس ١٩٣٧ م

(٦) الرسالة ١٩٣ ــ ١٥ مارس ١٩٣٧ م

وموقفهِ من الحضارة[1] التَفَتَ الى أهليه كالذي يُلْفِتُ نَظَرَهم لشيءٍ بقوله : « ... ربما تَرَكْتُ السّفينة في المحيط ». وتوجَّه الى زوجهِ كأنَّهُ يستدركُ ــ وقد رأى أبناءَهُ وكبيرُهُمْ لم يَنْتَهِ من دراستِهِ في أمريكا، وصغراهُنّ تَلْتَغُ بالراء، وتضُمُّ شفتيها على الباء[2] ــ « ولكنكِ ستصلين بها الى شاطىء الأمان! ».

ولما ساءَلتْهُ وجوهُهم عن المَعْنىٰ الذي وراءَ هذا البيان قال :

« رأيْتُ حُلماً بأنَّ الناس يَحْملُونني على أكتافِهم في الأزهرِ الشريف، وأعتقدُ أنّها النهاية، وقد دَنَتْ »[3].

وهكذا كان حكمُ القضاءِ ماضياً، فقد وافَتْهُ المنيّةُ عقبَ صلاةِ الفجر يوم الإثنين التاسع والعشرين من صَفَر عام ١٣٥٦ هـ الموافق للعاشِر من أيار/مايو ١٩٣٧ م وكأنّ الله قد استجابَ لدعائِهِ المُتواصل، أن لا يَرُدَّ الى أرذَلِ العُمر قَبْلَ أن يلقاهُ راضياً مرضياً يرحمه الله.

١٣ ــ تأثُّره وتأثيره

كان الرافعي بأدبه العربي، وفكره الاعتقادي، ونشاطه القومي، كالخلاصة المُنْصِفة لتألُّقِ الحضارة الواثقة بالعلمِ والعرفان؛ إذ هو بعد أن وقَفَ على تُراثِ الأمّةِ وما فيه من مواضِعِ الاتّساق وما يُعوزُها، أوقفَ نفسَهُ لدراسةِ الحياةِ العلميّة مَنْبهةِ الأمة وسبيلها القويم.

---

(١) أنظر المجلة الجديدة مايو ١٩٣٧ م ومحاضرة اسماعيل أدهم فيها.

(٢) العريان ــ ٢٨٤

(٣) حدثتني بذلك الحاجة زينب صادق الرافعي ــ ابنته.

وبثباتِ المُطمئنِّ الى المنهاج أخذ بانعطافةِ الإمام محمد عبده في تجديد الدعوة الاسلامية، وجَعَلَها سُلُوكاً مثمراً بالآراء والأفكار أمام المنطلقات الفلسفية الحديثة التي يظاهرها الغزو التبشيري، وتهرّج لها المذاهب المحدثة في الغرب ما بين رأسمالية وشيوعية.

وقد وقف على الفلسفة النظرية لمفكري أوربة بما فيهم أصحاب المنفعة من الاشتراكيين الأوائل[1] والقوميين والفوضويين بمذاهبهم الاجتماعية المختلفة[2]، ولكنه ارتفع على أحوالهم الواقعية بقوام خُلقي متين؛ يستأنف عليهم محاضراتهم وتخيّلاتهم النظرية بمواءمة عبقرية تنهض بالإنسانية كلّها في كلّ أمة — إن هي أحسنت إرادة التغيير،.. حتّى عدّ عصرنا هذا عَصْرَ الاشتراكية العلمية، وزعم أنها لن تكون الحلّ الأمثل لمعضلةِ الفقر والغنىٰ — شاغل الحياة الشاغل[3].

كما سار أشواطاً مع الحركة العربية التي سارَ بها محمد رشيد رضا الحسيني في تعريب الخلافة، وتمثلها محبُّ الدين الخطيب دعوة سياسية متميزة؛ فهو دائم التقريب والملاءَمة ما بين وجهات النظر في القضية القومية للأمة وبين الاتجاهات الفكرية؛ يعتدّ بالعروبة أصالةً ومُفاصحة، كما ينافح عن الدينِ بحُسن درايةٍ واستباق.

ثم أنّه عادَ لتخليص التاريخ من ألواثِ ما عَلِقَ به من سوءِ التفسير وخَطَل الحكم، محذراً من إضافةِ أخطاء مترجمةٍ أخرىٰ الى صفحاتِهِ التي آذاها النُسّاخ من الأعجام[4].

---

(١) ديوان الرافعي ٣ — ٢٦

(٢) وحي القلم ٣—٦٨

(٣) المقتطف — مايو/أيار ١٩١٣

(٤) البلاغ — ٨ سبتمبر/أيلول ١٩٣١ م

وعلى الرغم ممّا حِيلَ فيه بينَهُ وبينَ أن يسلكَ سبيلَهُ الى الجامعةِ طالباً أو أستاذاً، فقد توفّر له من التلامذةِ والأنصار مَنْ سلكوا بنهجهِ في مجالي الحياة، وكان لهم في أدبهِ وفنِّهِ مادَةَ الحركةِ العربيةِ الحديثة ورصيدَ الاتجاه.

كان هنالك بعض أبناء عمومته — وفيهم محمد سعيد الرافعي صاحب المكتبة الأزهرية، وولده توفيق وَمَنِ استماله منهم كتباً ورسائل في معان مختلفة، حتى اجتمع له بعد ذلك جملة صالحة انتفع بها، ولما أراد طبعها نهاه الرافعي[1].

وراسله محمود أبو ريّة ثلث قرن واجتمع له (رسائل الرافعي) حتى أخذ عنه بعض رأيه في تدوين الحديث النبوي الشريف ونسق البلاغة النبوية[2]. فغامر في دراسة السنة المحمدية بعنوان غريب (أضواء على السنة..) كأنها في محاق!! وجازف في نعت الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله عنه « بشيخ المضيرة » موافقاً لرأي بعض ذوي النزعات الباطنية. حتى اتهم نفسه ودراسته وتسبب في أشياء كانت الأمة في غنى عنها — غفر الله له حسبانه في هذا الصنيع.

وكان محمد صادق عَنْبر يُلْحِفُ في التوليد الذي عرف به أدب الرسائل الرافعي، فراح يرسم (رسائل مجنون ليلى) ويكتب فيها قطرات الندى في التعريف بأوراق الورد، وكثيراً ما كان يقلد الرافعي في أسلوبه[3].

(١) رسائل الرافعي — ٣٦، وقد أعياني البحث عنها في بيوت الرافعيين بمصر!
(٢) الإعجاز — ٤٢٢، والكتاب النبوي.
(٣) الرسائل — ٧١، ١٥٧.

ولكن سعيد العريان كان هو صاحب الحُظّوة الأثيرة، فقد تحول معه من القصة الى المقالة، فالدراسة التاريخية، ثم انعطف مع الأنصار بالدعوة العربية، وقد تلقفته الثورة في أيامها الأولى، فأحسن الاتجاه بالمؤتمرات التربوية والأدبية،.. ولعلَّ مَنْهَجَتَهُ للأزهر وإعادتَهُ الانفتاحَ به على الدراسة العلمية على ضوء ما وصف الرافعي[1] خير ما ختم به جهاده.

أما محمود محمد شاكر فقد كان الرافعي يؤثره ويُصفيه المودة، ويؤمل به أن يخلفه في الاتجاه بالفكر الأدبي، وقد باداه بدراسة أبي الطيب (المتنبي) ثم الردّ على الدراسات المستغربة الناقلة فيه[2] ثم تحقيقه لأمهات الكتب العربية.

* * *

وكان محمد بهجة الحق الأثري بالغ الحب والإيثار للرافعي، جهد أن يلقاه أولاً، حتى فضّله على سواه من أدباء العصر وكتابه، فرافق نزعته العربية الصادقة، وسلوكه الاسلامي باعتقاد عظيم،.. وما فتىء يغري بفنه وأدبه.

وكان الرافعي قد رحب بأصحاب « الأيدي المتوضّئة » من الإخوان المسلمين ــ وإن لم يبلغوا شأواً في الفكر القومي الذي كان عليه،.. حتى تهيأ « الأنصار » يؤلفون صحبةً اعتقادية ويتدارسون أدب الرافعي

(١) وحي القلم ٣ ــ ٤٢ وما حدثني به رحمه الله

(٢) كتابنا ٤٧١، المتنبي ط ٢ ــ ١ ــ ١٤٢

بمنهاج عربي مُبينٍ لا يخلو من قسوة في النقد امتثالاً لوصيته[٣].
فكان منهم عمر الدسوقي رأس الدراسات الأدبية والقومية في دار العلوم المحروسة، وأمينهم أحمد موسى سالم الذي كشف « قناع الفرعونية » ودرس التوحيد العربي، وألقى الأضواء على حقيقة التصوف، وآثر الهجرة الى سينا قبل أن تدخلها يهود، حتى عاد يستجلي الرؤية الوضحاء بخطوته الأثيرة في دراسة القرآن العظيم بالتدبر والافتكار والتبصر لتفسير الحياة العصرية على هدى وبصيرة من الإيمان والبيان، وإنهاض المعدلة من أمر الناس!

وربما كان لهذا الاتجاه بالأدب الرافعي والفكر الأنصاري أثره في التوجّـه القومي الذي آثره البعثيون فيما بعد، فقد كان لأمين الحزب العام ـــ ميكال أفلق[١] إعجاب بالرافعي فضله فيه على سواه، ولا سيما بعد نشره لمقالاته النبوية[٢] وعقده الموازنة بين موقف المسيح عليه السلام من قومه، ذلك الموقف الذي كأنه يمهد لفصل آخر وبين موقف النبي محمد ﷺ من قومه، إذ يقول الرافعي :

« لقد هزأوا من قبل بالمسيح عليه السلام، فقال للساخرين منهم : ليس نبيّ بلا كرامة إلا في وطنه وفي بيته »..

أما نبيُّنا محمد ﷺ فلم يجب المستهزئين؛ إذ كانت القوة الكامنةُ في العرب كلّها كامنةً فيه، فلم يرد، ولكنه سكت سكوت المشرع الذي لا يريد من الكلمة إلّا عملها حين يتكلم »[٣].

---

(١) الأنصار ٣٧، وما بعدها.
(٢) هكذا يحلو لي تعريب اسمه قرآنياً.
(٣) جمعتُها في (الكتاب النبوي) هديتي للأسرة الرافعية.
(٤) وحي القلم ٢ ـــ ٣٩

فقد أخذها الرفيق بقوة الثبت فقالْ : كان محمد كلُّ العرب؛ فليكن كل العرب محمداً، حتى ذهبت مثلاً للدعوة القومية[4].

وما كاد الرافعي يدرس « سموّ الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم » فينادي الاشتراكيين بقوله :

« تعالَوا أيها الاشتراكيون فاعرفوا نبيكم الأعظم؛ إن مذهبكم ما لم تُحيهِ فضائل الاسلام وشرائعه كالشجرة الذابلة تعلقّون عليها الأثمار تشدونها بالخيط كلّ يوم تحلّون وكلّ يوم تربطون ولا ثمرة في الطبيعة »[1].

حتى أردف ميكال بقوله :

« هل يحسب أصحاب النظريات في الاقتصاد والاجتماع أنهم بإلصاقهم ثماراً من الشمع على عود جاف ينفخ الروح في هذا العود ويجعل منه شجرةً حيّة »[2].

ذلك أنه كانت للأمين العام ألفة مع الاسلام منذ الطفولة، حتى مسح على حالتِهِ بعروبة مؤمنة وضحاء معلنة، ثم قرأ الاسلام بعد قراءة الشيوعية من خلال موقف مصيري من تحديات الاستعمار، ومن تحديات الفكر الشيوعي معاً[3]؛ فاكتشف أن الاسلام ثورة هائلة، وأنه

---

(١) ذكرى الرسول العربي ــ ١٢
(٢) وحي القلم ٢ ــ ٧٠
(٣) نضال البعث ــ ١٢
(٤) البعث والتراث ــ ٨٢

عقيدة ونضال في سبيلها، وقضية أمة بتصور إنساني، فهو تجربة وتنظيم وتثقيف، وإنه لدين أيضاً[1].

* * *

ولكاتب هذه الصفحات مصابرة على الحياة الثقافية، ما برح يستكشف فيها معالم وصوراً ظاهرة يدل فيها على تأثير الرافعي في العصر ومداه. ويشتد بالزعم في ظهور تأثيره في خُصومه بالتفاتِهم الى التراث العربي يصنفون فيه ويترجمون لتحسين مواقفهم أمام الناس، كما هي حال طه حسين ومسعاة عباس محمود العقاد وفي كتاب « الرافعي الناقد الأديب » تفصيل آخر.

---

(١) البعث والتراث ـــ ٨٠، نكتفي بالقدر هنا، وموعدنا مع الاتّساق الفكري.

الفصل الثالث

فُنون النَّثْرِ والكتابة عند الرافعي

لم يَدَعِ الرافعيّ فنًّا من فُنونِ الكتابةِ والنثر العربي لم يُحاوِلْهُ بجدارةٍ، أو بتَحَدٍّ أمامَ جيلِهِ من الأدباء والكتَّاب، وإنَّ أشهر تلكَ الفنون هي التي نَعْرِضُ لها بالتعريفِ في هذا الفصل، مُؤْثرين الاستِشْهادَ بآثارِهِ فيها جُهْدَ الإمكان.

١ ــ المقالة

من أحدثِ فُنون الكتابة في العربيّة، للترجمةِ والأخذ عنِ اللّغات الأوربيّة أثرٌ فيها واضحُ المعالم[1] وإن لم تكُنْ في كثيرٍ مِن جَوانبها بعيدةً عن محاولاتِ أدباء العربية في صدرِ أيامها، بل ربّما كانت مُتطوّرةً عن الخُطْبَةِ، أو هي من بعضِ رسائلِ المتأخرين في الموضوعاتِ التي تُفرَدُ لها، وقد كانَتِ الصحافةُ سبيلَ ذيوعها، حتى كادَتْ تطبَعُ آدابَ العصر[2]. والمقالةُ بعدُ أنواعٌ، منها :

(١) فن المقالة ــ ١٢

(٢) راجع عمر الدسوقي ــ نشأة النثر وتطوره ــ ٩٧ وفي الأدب الحديث ١ ــ ٤٠٨

أولاً : المقالة الأدبيّة

التي تُعنى بشؤون الأَدَب واللُّغة والنقد، وميادينُهَا في :

١ً ــ التقرير

الذي يتحدَّث فيه الكاتبُ عن موضوعٍ بعينِهِ، أو شخصيَّةٍ بذاتها، مُسْتَوعباً لمعانيهِ، يَصُوغُ بأسلوبِهِ ما تداعَتْ عليه المعاني، دونَ الاستشهاد بكلام الآخرين، إلاّ فيما ندَرَ، ومن غيرِ الإشارة الى المكان،.. ومن ذلك مقالةُ الرافعي في « أمير الشِعر في العصر القديم »[١] وفيها يبيّنُ كيفيّة التجديد في مثل قوله : « التجديدُ في الأدب إنّما يكون من طريقتين ؛ فأمّا واحدة فابرازُ الحيّ في آثارِ تفكيرِهِ بما يخلقُ من الصُّوَر الجديدة في اللّغة والبيان،. وأمّا الأخرى فإبداعُ الحيّ في آثار الميت بما يتناولها به من مذاهبِ النَّقْد المُسْتَحْدثة وأساليب الفنّ الجديدة.

في الإبداع الأول إيجادُ ما لم يوجَدْ، وفي الثاني إتمامُ ما لم يَتمّ، فلا جَرمَ كانت فيهما معاً حقيقةُ التجديد بكلّ معانيها، ولا تجديدَ إلاّ مِن ثَمَّةَ، فلا جديدَ إلاّ مع القديم »[٢].

ومنه المقالةُ التي كتبَها في أميرِ المؤمنين عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، التي وضعَتْ من بعدُ مقدّمةً لكتاب (الفاروق عمر)[٣]. وقد قال فيها :

---

(١) المقتطف ٧٧ ــ ٧ ــ ١٩٢٧ م
مقدمة كتاب محمد صالح سمك ــ أمير الشعر امرؤ القيس ــ في العصر القديم ــ الأخبار ١٩٢٠ م
(٢) وحي القلم ٣ ــ ٤١٥
(٣) لمحمد دياب عثمان ــ المطبعة اليوسفية بطنطا ١٩٣٤ م

« هو رجلٌ لبِسَ الدينَ سابغاً عليه، سبُوغَ القميصِ على الجسمِ ؛ يكسُوهُ ضافياً، ويَسْترسلُ عنه حتّى يجُرَّ من ذَلاذِلهِ جَرًّا منهُ بِمَقْصرٍ يفضُلُ بعضهُم بعضاً ولا يفضُلُونَهُ في الدين، ويتعاونون فيما بينهم، او يفوتُهم جميعاً. لا نقصَ فيهم إلا بالتّمامِ فيه، ولا تقصيرَ لهم إلاّ بالقياسِ الى قُدرتِهِ، وما أطاقَ مما ضعفوا عنهُ، فهو كمالٌ لكمالهم، لا دليلَ نقصٍ ولا تقصير.

بذَّ الملوكَ وهو زاهد، وبذَّ الزُّهادَ وهو ملكٌ، وفاتَ الحكماء ولم يَتَعَلَّمْ، ووَقَفَ من الأخلاقِ على غايةٍ بعيدةٍ انقْطَع الفلاسِفةُ دونها، وكانَ في أعمالِهِ وأحوالِهِ تفسيراً واضِحاً صريحاً لقانون الإنسانيّةِ الذي جاء بهِ الدين الإسلامي، وجمع المتناقضات في وحدةِ نفسِهِ العظيمة، فبطُلَ تناقُضُها، وائتَلَفتْ فيه وآتتهُ بحقائقها ؛ فاحتملَ كلَّ شيءٍ بحقّهِ الذي هو له، لا بخيالِهِ الذي يتخيّلهُ الناسُ كَذِباً وصدقا.

وكيف يجتمع مِلْكُ النفسِ وعبوديّتُها، وتأتلفُ القّوةُ واللّين، وتتصلُ الرهبةُ والرجاء، وتنتظمُ البطولةُ والحكمة، ويجيءُ الدينُ والدنيا معاً، ويقوم العدلُ والقدرةُ على سنّةٍ واحدة ؛ فيتساوقُ هذا الكلُّ المتناقض فيعتدلُ، فيتّزنُ، فيطَّردُ كلُّه نَسَقاً واحداً في نفسٍ وثيقةٍ صافيةٍ مؤمنةٍ رحيمة، لا سبيلَ عليها الى طوارق الشهوات، وبَغَتات الطبيعة، ونزوات الحياة،.. كأن هذه النَّفسَ لا تتعرّفُ من الدنيا قريباً ولا بعيداً... الخ.

ولو سُئِلْتُ بعدُ أن أجمعَ عمر العظيم بكلّ مزاياه في جُملةٍ واحدة يتّخذُها رجالُ الاسلام ميثاقَهم الذي يعملون عليه لقُلْتُ : إنّهُ رجلٌ أَرْصَدَ عقلَهُ سِجلاً لهفواتِهِ المعدودة، التي لا تخلُو الطبيعةُ منها، فلا يُغادرُ الهفوةَ، ولا شِبْهَ الهفوةِ إلاّ أثبتها ليعملَ ما يمحوها، ويخرجَ

الى الله والناس من تبعاتِها، وبذلكَ صارَ التاريخُ سِجلاً لحسناتِهِ التي لا تعدّ ».

ومنه المقالةُ التي أرسلَها على لسانِ تلميذةٍ في المسيح عليه السلام[1] :

« ملكٌ من ملائكةِ الرحمةِ يَهْبطُ من سماءِ الله آتياً من حُدودِ الأَبَدِ، ولجناحَيْهِ حفيفٌ طالَما آنسَتْ به نَسَماتُ الجنّة، وتعلَّقَتْ بأطرافِهِ أرواحُ أزهارها الخالدة، كأنّها معاني الوَرْدِ في عطر الورد.. »

ومنه مقالاتٌ كُثُرٌ أُخريات، بينها مقالتُه في أحوالِ العرب، وقوله فيها[2]:

« التاريخُ كلُّه دليلٌ على أنَّ العربَ مادةٌ كريمةٌ في عُنْصرِ الإِنسانيّة — وقد خصَّهم الله بإقليمٍ وطبيعةٍ لم يَخُصَّ غيرَهم بهما، فخرجوا من أثر هذا الإقليمِ وهذه الطبيعة وهم أكرمُ الخلْقِ غريزةً وطَبْعاً في النّفْسِ والخُلُقِ والعَقْلِ والرُّوح. لا يحتاجُونَ من التهذيب والتدريب الى أكثر مما يحتاجهُ الألماس الكريم في الصَّقْلِ والرونق ؛ فاذا هو مُشْرِقٌ يتلألأُ من كلّ جهاتِه، وإذا هو يُنبئُ عن صفاء معدنِهِ بنُوره، ويبينُ عن كرمِ عنصره بفضيلته.

ولمّا أراد الله أن يبعثَ في الأرض خَلْقاً جديداً، ويُنشىءَ للدنيا أمماً مُسْتحدثةً فتيّة، بثَّ فيها العرَبَ تحتَ ظِلال سُيوفهم، وأروقةِ أخلاقهم

(١) العريان — ٢٦٤، الرسالة ٢٨١ — ١٩٣٨/١١/٢٨ م

(٢) مقدمة — أعجب العجب من أحوال العرب — منظومة عبد الحق الأعظمي — ٣ وهي تؤلف ميثاق الأنصار — راجع أحمد موسى سالم — لماذا ظهر الاسلام في جزيرة العرب.

وطباعهم، فكانوا مادّةً قويّةً في دماءِ الشعوب، انْبَعَثَتْ بها تلك الأجيالُ المتحضّرة التي أنشأت التاريخ العظيم، وأدارت الأرض دورةً جديدة، بما دفَعَتْ فيها من القُوّة والنشاط والحركة ».

٢ً ــ الترجمة

هي الكتابة في حياةِ شخصيّةٍ علميةٍ أو أدبيّة بأسْلوبِ الكاتب، يعتمدُ فيها الوقائع والأحداثَ دليلَ توثيقٍ ومُثاقفة،.. وقد حفِلَتْ بها كتُب الطبقات والمناقب والمصنّفاتُ الأُخرى[1]، وللرافعي منها :

ما كتَبه في الشاعر محمود سامي البارودي ــ وإنْ كانَ قد خرج بها الى الدراسةِ الأدبية والتقويم ؛

« كانَ البارودي من صفاء الفطرة ونَقاءِ الذهن وكمالِ الاسْتعداد، ونصيحةِ أهلِ البصر بحيثُ وجَدَ السبيلَ فابتدَرَ الغايةَ حتى جاءَ شِعرُه مُونَقَ الرويّ، متلائمَ حُسْنِ العَرْضِ، مطروحَ العبارة الى حيثُ تشير القلوب،. ولو أنَّ الله مع ذلك أعطاهُ خَيالَ حَكِيمِ كالمتنبي أو غيرِهِ لكانَ أشعرَ مَنْ سَمِعَتْ له أذُنٌ شِعراً،.. الخ[2].

ومنها ما كتبه في الإمام محمد عبده ــ وكأنّها صورةٌ قَلمية :

« رجلٌ كان في تركيب العالم الإسلاميّ أشبَهَ بالجبهةِ من جسمِ المؤمن ؛ هي مَجْلى نورِ الإيمان، وأعلى ما يرتَفعُ للأعيُنِ، ولكنّها مع ذلك أوّلُ ما يَسْجُدُ للهِ من هذا الجسمِ كلّه،.

(١) راجع المحفوظات (بيلوغرافيا).
(٢) المقتطف ــ مارس/أذار ١٩٠٥ م

خُلقَ فصيحاً مُبينَ اللّهجةِ لأن لسانَهُ أُعِدَّ لتفسيرِ مُعْجزةِ الدنيا في هذهِ اللّغةِ، فكانَ لسانُهُ — ولا غَرْوَ — مُعجزةً في الألْسِنةِ».. وكانَ له عَقْلٌ لو وُزِنَ في رُجحانهِ لعُدَّ بين العُقولِ من موازينِ التاريخ».. لم يُخلَقْ من قَبْلِ زمنِهِ لأنّ الأقدارَ المُصَرِّفَةَ ذَخَرَتْهُ للقرنِ الرابع عشر تجعَلُه وأصحابَهُ النهضةَ الثالثةَ في الإسلام[1].

كانَ في تفسيرِ كتاب الله رجُلاً وحدَهُ على بُعدِ عصرِهِ من فَجْرِ الإسلام ؛ فاذا تكلّمَ في آيةٍ رأيتَ كأنّها الآيةُ نفسُها تتكلّمُ على مَلأَءِ العَقْلِ بين مشارقِ الأرض ومغاربها. ولستُ أدري على أيّ روحٍ نبَتَ هذا الرجلُ، ولكنّ الذي أعرِفُه أنّه حين أثمر فنضجَ فَحَلا أُذاقَ الناس من ثَمَرِهِ طعم مُعْجزةِ العقل العربي »[2].

ومنها ما كتَبَهُ عن نَفْسِهِ ترجمةً ذاتيّة في مَطْلعِ « رسائل الأحزان » وقد « اجتمَعَ لَهُ من تاريخِهِ إنسانٌ بلَغَ الزّمَنُ تحتَ عينِهِ نَيِّفاً وأربعين سنة، تلكَ السنة التي ينقَلِبُ فيها الآدميُّ من وَفرةِ القُوّةِ ليثاً، ويرجعُ من قُوّةِ الحكمةِ نبيًّا، ويَعُودُ من تمامِ العقل إنساناً».. أعرِفُه أسلُوباً من الكِبَرِ ولكنْ على نَفْسِهِ، ومن الشّذُوذِ ولكن في نفسِهِ».. كأنّما فُتحَتْ أفواهُ عُروقِهِ جَنيناً وملأَتْها الوراثةُ من دمِ ملكٍ كانَ في أجدادِهِ، مُسْتَصْعِبِ المِراس ؛ فهو أبداً في حياتِهِ كالملكِ حالَت السيوفُ والأَسِنَّةُ والقَوانين بينَهُ وبين تاجِهِ».. » الخ[3].

---

(١) الرافعي : نهضةُ الأخلاق زمن الصحبة والتابعين، ثم نهضةُ العلم من بعدهم ثم نهضة العقل العربي التي يدعو اليها الإمام رحمه الله.

(٢) السحاب الأحمر — ١٦٢

(٣) رسائل الأحزان — ١٦

وربّما كانَتْ هذهِ السيرةُ الذاتية سبَباً غيرَ مباشَرٍ في « أيّامِ » طه حسين و « حياةِ » أحمد أمين و « طفولةِ » سيد قطب وغيرِها من تراجُم الحياةِ، ولا سيّما في ما فطِنَ إليه من إعمالِ الرويّة في تجربةِ الحياة.

٣ً ـــ التقويم

هو المقالةُ الأدبيّة التي تبرُزُ فيها قيمةُ الآثارِ العِلْميّةِ والانسانية، وبيانُ خطورتها، ومنزلةُ أصحابها.. ويَجيءُ التقويمُ في :

أ ـــ **التعريف** : الذي يُعنى بالنظرة الأولى في هاتيكَ الآثار، ويدلُّ على بعض مزاياها.. ومن أوائلِ محاولاتِ الرافعي في التعريف، مقالتهُ في شعراءِ العصر التي أثارتْ زوبعةً من المصاولاتِ والمناقشات لها مكانُها في تاريخ الأدب الحديث.. وفيها يقول :

« ما لي لا أنفثُها والقومُ قد أصبَحوا يتنافسونَ في أسماءِ الشُّعراء كما يتنافسونَ في ألقابِ الأمراء ـــ وقد استويا في الزُّورِ ـــ فلا أكثَر أولئك شاعر، ولا أكثر هؤلاءِ أمير، وأنت ترى أنّ ما يُشترَطُ بكمالِ الشاعر أن يكونَ ذا قلْبٍ قد وسعَ منه الاختيار، فتقلَّبتْ فيه المعاني من كلّ طائفةٍ، وفكر قادر بما اكتسبَهُ من القوّةِ أن يكوّن ما شاءَ من المعاني على التجلّي، فيأخذُ منها ويَدَعُ، ومع ذلك عَقْلٌ يتعهّدُ الفكرَ فيَسْقيهِ، والقلب فيزيدُ فيه، فاذا جرىٰ الكلامُ على إعرابِهِ في لُغتِهِ، ووقَفَ من غايتِهِ عند حَدّ الصواب، تناوَلَ اللّسان بأسلتِهِ ومَرَّ بهِ فكان شِعْراً[1] ».

---

(١) الثريا ـــ يناير/كانون الثاني ١٩٠٥م

وبهذا المعيار يزِنُ ويعرّفُ شُعراء الطبقةِ الأولى؛ محسن الكاظمي طويل النفس قويّ العارضة، والباروديّ ذا الشعر الجيّد البديع، وحافظ ابراهيم شاعر مصر الذي نصبهُ حكيمُ الشرق الإمام محمد عبده، والرافعي ـــ نفسه ـــ وولَعَهُ الشديد بالغزل وبلوغه ما يبلغ الشاعر فيه.

الطبقة الثانية: إسماعيل صبري أبلغ الشعراء وأسماهم خيالاً، وأحمد شوقي الذي انزلَهُ هذه المكانة بعد ما رأى من انقلابه في قصيدة رثى بها حبيب مطران فنزَلَ بها الى ما ينطق فيه الصبيّ، وعَدَّ له سرقاتٍ. وخليل مطران ووَلَعَهُ بانتهاج أساليب الفرنجة، فهو ينظم شعرَهُ قصصاً، وداود عمون وإساءة الاقتباس، وقلق السبك، والبكري وشعره المغتصب المكرَه على البقاء في جلده، وغيرهم.

والطبقة الثالثة : كالكاشف احمد وخياله الضئيل، وسبكه المخيل، ومصطفى لطفي المنفلوطي وعينِه السارقة لا البارقة، وأحمد محرم وسليقته العربية.. الخ.

ب ـــ **التقريظ:** هو ذكرُ المحاسن والتنويه بالفَضْل، والثناء على المؤلف، والعنايةُ بمبلغ توفيقه، وللرافعي في هذا المجال عديدٌ من المقالات؛ منها تقريظُه لكتاب « البؤساء » الذي اختصر له حافظ ابراهيم الشاعر ترجمةً عربيّة فقال: « ... ما البؤساء في ترجمته إلا فكرُ فيلسوف تعلّق في قلم شاعر، فانعطفَتْ عليه حَواشي البيان من كلّ نواحيهِ، وجاءَ ما تدري أشِعْراً من النثرِ أم نثراً من الشعر، وخرجَتْ به الكتابةُ في لونٍ من الصفاءِ كأنما تَنْحَلُّ عليهِ أشعةُ الشمس،..الخ[1].

---

(١) وحي القلم ٣ ـــ ٣٦٠

وقَرَّظَ « الجمعيّات التعاونية » كتاب عبد الرحمن الرافعي، وكتابَ « سِرّ النجاح » للدكتور يعقوب صروف فقال في هذا:

« ما رأيتُ كتاباً تلاءَمَ نسجُهُ، واستَوَتْ أجزاؤه، ووضعَ آخرُهُ على أوّله، وانصَبَّ كلّه من الغرضِ الذي كُتبَ فيهِ، وجاءَ مَقْطَعاً واحداً في معناه وفائدته، كهذا الكتاب، الذي يُعلّمُ الضعيفَ كيف يقوى، والعاجزَ كيف يعتمد، والمُضْطربَ كيفَ يَثْبُتْ، والساقِطَ كيف ينهض،.. ويُعلّمُكَ مع ذلك كيف تَرِيحُ الكدَّ بالكدّ، وكيف تسقِطُ التَّعَبَ بالتعب، وكيف تمضي عزيمتك وتعتقدها، وتضرب كرةَ الأرض بقدميك ــ وإنْ لم تكُنْ ملِكاً، ولا قائداً ولا فاتحاً »[1].

وقرظ « تاريخ الإمامِ محمد عبده » للأستاذ محمد رشيد رضا الحسيني فقال:

« كانت نفسي ممتلئةً بهذا الرجل العظيم، وكنتُ أراهُ وحدَهُ يمثّلُ معاني القوّة في الحياة الإسلامية كلها،.. وهذا تاريخُه كتبه تلميذُه وخليفتُه ووارثُ علمه السيد رشيد رضا الحسيني. فما أدري أهو يكتب التاريخ أم يصبُّه صباً، وهل هو يجمَعُهُ عن الشيخ أم يُلَقّاه من روحه؟ فلقد اتّسع وأحاط كأنما يضربُ الحصار على أربعين سنة من نهضة لا يُريد أن يهربَ منه يوم!. وقد استوعب الحوادثَ فلاءَم بين جماعتها أحسن ملاءمة، ثم جنّسها أجناساً، ثم فصّلَها أنواعاً، ثم مضى بكلِّ حادثةٍ ــ وأوتي من القُوّةِ على ذلك ما لا يقومُ فيهِ أحد مقامَهُ، ولا يجري غيرُه مجراه؛ إذْ جمعت له مادتا التاريخ من البيان والخبر،

---

(١) المقطم ١٠ مايو/أيار ١٩٢١ م

فهو يشهَدُ بما عاين، وينبئ بما سمعَ، وإذ هو يكتبُ بقلمِهِ وقلمِ الإمام،.. فترى في هذا البحرِ من الورقِ كلَّ ما كتبه الإمام عن نفسه، وما دون من مقاصدِهِ وأغراضِهِ وما جهد به للنَّاس، وما أسرَّ به للسيد رشيد وحده،.. وتاللهِ إن الشيخ الإمام ليطالِعُنا في هذا الكتاب تاريخاً وأعمالاً بأهيب ما يطالعنا صورةً وهيأة،..[1] »

وقرظ في الشعر ديوان الأمير شكيب أرسلان فقال:

« الأمير كوكبٌ سيّار ـــ إن غابَ عن أرضٍ، فالعلم بهِ في كلّ أرض، وهو إمام في كلِّ فنُونِهِ من الأدبِ واللغة والترسُّلِ والشعرِ والتاريخ والسياسة، مُقَدّمٌ في جميعها منظورٌ إليه نظرةَ أهلِ المسجدِ لإمام المسجد،.. ولو أوجزتُ في شرحِ حقيقتِهِ العظيمة لقلت: إنه رجلٌ بَعْثَرتْهُ القُدرَةُ الإلَهية في أقطار الدنيا لتُخرجَ هذا المجموع الذي لا يجمعُهُ فردا.. ثم لتخرج من هذا المجموع قُوة، ثم لتعمل بهذه القوّة عَملها في نهضةِ العالم العربي، فروحُهُ للثورة، وقلبُه للإيمانِ، وعقلُه للسياسةِ، ولسانهُ للبيانِ، وهو في مجملِهِ جملةٌ متميزةٌ تعارف عليها الأفراد، ولا يُعارَض هو بفردا..

وهذا ديوانه نشرَهُ لخصال ثلاث: أن لا يُنْسَبَ إليه غيرُ شعرهِ، ولا يُنسَبُ شعرهُ الى غيره، والثانية أن بعضَ قصائدِهِ تتعلّق بوقائع تاريخيةٍ مشهورة، فنشرها حصةٌ من التاريخ، والأخرى توفية الذين رثاهم في ديوانهِ من أعلامِ العصر بعضَ حقوق الوفاء،.. وهذا تواضعٌ منه وسمو أدبه، وإلّا فكلّ ما نفاه عن نفسِهِ أثبتَهُ شعرُهُ، فهو شعرٌ مفاخر بفصاحته وبراعتِهِ، يَنْزِلُ من شعرِ العصرِ منزلةَ فصحاء الاعراب من المُوَلَّدين

---

(١) المقتطف ـــ ديسمبر ١٩٣١ م ـــ رجب ١٣٥٠ هـ

في صدر تاريخ اللغة والبلاغة، ففيه السليقة على أصحّها، والموهبة على أتمها، وهو آيةٌ في الجزالةِ وقوّةِ السبك وإشراقِ البيان، وحسنِ العرض وكمالِ الصنعةِ يتحدَّرُ من طبعٍ مبين رزين، وينفجرُ من يُنْبوعٍ هدّار فوّار.. فالشاعر تام بكلّ أسبابه ولكنّه مصروف عن الشعر برسالةٍ عظيمة يؤدّيها في غيرِ مملكة الخيال، فهو في الميادين لا في الرياضِ، وفي الخنادق لا في القصور، وفي الحقائق لا في الأخيلةِ، ومع الأسود لا مع الظبيات، وهو لتأليفِ أمّة لا لتأليف ديوان، فكان الشعر له دلالة على ناحيةٍ واحدة من نواحي كمالِهِ، فهو بقدرِ هذه الدلالة في قلبِهِ وعظَمَتهِ وانحصارِ أغراضِهِ. وهذا فرقُ ما بين الأميرِ وبينَ رجُلٍ كأحمد شوقي عاش مدة عُمرِهِ ليكون لِساناً للذةِ والألم... »[1].

وديوان « الملاح التائه » للشاعر علي محمود طه (المهندس) فقال:

« الشاعر الصحيح يُريكَ بقوّتِهِ وعبقريتِهِ أنَّ الشعرَ نفسَهُ يخدمُهُ ليكونَ هو شاعرَهُ، وديوان « الملاح التائه » الذي أخرجَهُ هذا الشاعر لا ينزلُ بصاحبِهِ من شعرِالعصر دونَ الموضع الذي أومأنا إليهِ، فما هو إلّا أنْ تقرأَهُ وتعتبرَ ما فيهِ بشعر الآخرين حتّى تجدَ الشاعر المهندس كأنه قادمٌ للعَصْرِ محمّلاً بذهنِهِ وعواطفِهِ، وآلاتِهِ ومقاييسه، ليُصْلِحَ ما فَسَد، ويُقيمَ ما تَداعىٰ، ويرسِمَ ما تخرّبَ، ويهدِمَ ويبني.

« وعلي محمود طه » ينظمُ حين يُخْرِجُ المعنىٰ من عصرِهِ ويلتحقُ بالتاريخ؛ كرثاءِ شوقي وحافظ وفوزي المعلوف والملك العظيم فيصل،..

(١) المقتطف ـ ديسمبر ١٩٣٦ م

على أنَّهُ في كل ذلك إنما يرمي إلى تمجيد الفن والبطولةِ في مظاهِرِها متكلمةً ومالكة »[1].

وقرظ كتاب توفيق الحكيم في النبيّ محمّد ﷺ فقال:

« قرأ الحكيمُ كُتُبَ السيرة وما تناولها من كتب التاريخ والطبقات والحديث والشمائل بقريحةٍ غير قريحةِ المؤلف، وفكرة غير فكرة الفقيه، وطريقة غير طريقة المحدّث، وخيال غير خيال القاص، وعقل غير عقل الزندقة، وطبيعة غير طبيعة الرأي، وقصد غير قصد الجدل، فخلُص له الفن الجميل الذي فيها؛ إذ قرأها بقريحتِهِ الفنيّة المشبوبة، وأمرّها على إحساسِهِ الشاعر المتوثب، واستلَّها من التاريخِ بهذه القريحةِ وهذا الإحساس كما هي في طبيعتها السامية متجهةً الى غرضِها الإلٰهي محققةً عجائبها الروحانية المعجزة »[2].

وقرَّظَ غير هذا وذاك من الكتب، ولا سيما تلك التي أعانَ عليها، مثل « رسالة الحجِ » التي نُشِرت باسم حافظ عامر ـــ صديقه الموظف السياسي فقال:

« رسالةُ الحجّ يتكلّمُ الحجُّ نفسُه فيها، حتى لو أوحِيَتْ لما جاءَتْ إلا هكذا،.. وما أشبَهَ مؤلّفها بالجُنْدي المجهول (!) يجتمعُ التقديس على طبعِهِ، فيُصبحُ في الحقيقةِ هو القائد المجهول، ليسَ له فخر النصر، ولكن لَهُ المجدُ »[3].

ومثلُ مقتطف (المتنبي) الذي قال فيه:

---

(١) وحي القلم ٣ ـــ ٤٢٣

(٢) وحي القلم ٣ ـــ ٤٣٣

(٣) رسالة الحج ـــ ط ٢ ـــ ٣٥، العريان ـــ ٣٢١

« بدأ المقتطف مُجلَّدَهُ بعددٍ ضَخْم أفردَهُ للمتنبي، وَلَئِنْ كانت الأندية والمجلات قد احتَفَلَتْ بهذا الشاعر العظيم، فما أحسَبُ إلا أنَّ روح الشاعر قد احتفلَتْ بهذا الجزء من المقتطف. ولَسْتُ أغلُو إذا قُلْتُ إنّ هذه الروح المتكبِّرة قد أظهرت كبرياءَها مرّة أخرىٰ؛ فاعتزلَت المشهورين من الكتّاب والأدباء (!)، ولزَمَتْ صديقَنا المتواضع محمود محمد شاكر مُدَّةَ كتابتِهِ هذا البحث النفيس؛ تُدِلُّهُ في تفكيره، وتُوحي إليهِ في استنباطه، وتنبهه في شعوره، وتبصّرهُ في أشياء كانت خافية — وكان الصدق فيها، ليرُدَّ بها على أشياء معروفة — وكان فيها الكذب، ثم تعينُه على أن يكتب الحياة التي جاءَتْ من تلك النفس ذاتها ».

وكان الرجل مطوياً على سِرّ ألقىٰ الغموض فيهِ من أول تاريخِهِ — وهو سِرُّ نفسِهِ، ومن هذا السرّ بَدأ « كاتبُ المقتطف »[١] فجاءَ بحثُه يَتحَدَّرُ في نَسَق عجيب، مُتَسلسلاً بالتاريخ كأنَّهُ ولادةٌ فنمو وشباب.

ومن أعجبِ ما كشفَهُ من أسرارِ المتنبي سرُّ حُبّه، فليسَ من أحدٍ في الدنيا المكتوبة (التاريخ) يعلَمُ هذا السرّ أو يظنُّه. والأدلةُ التي جاءَ بها المؤلّفُ تقِفُ الباحث المدقق بين الإثبات والنفي... ومتى لم يَسْتطع المرءُ نفياً ولا إثباتاً في خبرٍ جديد يكشفُه الباحث لم يهتدِ إليه غيرُه، فهذا حسبُكَ إعجاباً يذكر، وهذا حسبُهُ فوزاً يُعَد[٢].

---

(١) كاتب المقتطف: نعت كان يلحق بالرافعي.

(٢) وحي القلم ٣ — ٤٣٠، ومما يؤسِّف له أن إشارتي الى الشبه بين التقريظين الواردة في الرافعي الامام ٤٧١، ما راقَتْ للأستاذ شاكر العليم، فأغفلها في الطبعة الثانية — راجع ٧٢، ١٠١ — ١٠٥ ولكنه حين أشار الى ما تهدم في نفسه أقرّ بانقطاع الوحي عنه بموت الرافعي — ١٤٢. عفا الله عنه.

ولا ننسىٰ تقريظَهُ لكتابه « تاريخ آداب العرب » ــ وقد زَعم العريانُ أنّه نَحَلَه أحمد زكي (باشا)[1]. وفيه يقول:

« يحقّ لنا بعد أن قرأنا « تاريخ آداب العرب » ــ الذي سبك قَوالبَهُ وهّذبَ مطالبَهُ شاعرُ الحقيقة والخيال، وكاتبُ العباراتِ يصوغُها صوغَ اللّآل مصطفى صادق الرافعي ــ أن نقولَ : إنّ في الحلبةِ جياداً، وإن للنهضة الحديثة رواسي وأوتاداً، وأنّ للأدبِ وجهة سامية هو مُوَلّيها، وساعة قد آنَ وقتُها فهو يُجلّيها،.. فلا أكتمُ قومي أنّي أحمد اللهَ على أنَّ هذا الكتابُ خرج للناس في مصر ولم يجيء إليها من غيرها، فانه دليلٌ من الأدلّة القليلة التي تُقيم بها البرهان الصحيح على نظرية النهضة عندنا.

تصفّحتُه وقرأت ما تيسّرَ منه فرضاً ونافلة فرأيتُ مؤلّفَهُ الفاضل لم يُبالِ بالتقليد، فجاءَ بطريقةٍ جديدةٍ وأبواب جديدة لم يجرَأْ غيرُهُ على اقتحامها، ولا تسبَّبَ لفَتْحِها. ونظر الى ما يحتاجُ إليه الأدب العربي بعينٍ تَسْتشِفُّ غوامضَ الاستنباط، وتستكشفُ دقائقَ التاريخ ؛ فلم يألُ جُهداً، ولا ضَنَّ بشيءٍ عنده.

وأعانَهُ ابتكارُه في الشعر، فعرف كيفَ يبتكرُ في التأليف، وكيف يجعل كتابه نسيج وَحدِهِ وكتابَ فَنّه. ولا يلُمني القرّاء بالإطراء ؛ فانَّ إحياءَ الآداب العربية بناءٌ شَامخٌ فريد أن يقيمه كالأجبال على أكتافِ الأجيال، ــ وقد جاء الرافعي بحجرٍ لاحدٰى زواياه لا يَعْدِلُهُ غيرُهُ في مزاياه،... وبالجملة فان « تاريخ آداب العرب » هو الكتابُ الذي

---

(١) العريان ــ ٢٦١

ليسَ لنا غيرُهُ الى الآن في موضوعهِ مما يَفي وفاءَهُ، ويغني في الأدب غناءَهُ، ويفيدُ مطالعيه وقرّاءَهُ. عسى أن يكون فاتحة تستهلُّ بعدها الآيات وتدنو بها الغايات،.. »[1]

ج ــ **النّقد** : هو صَيْرفةُ الآثار الأدبيّة والعلميّة بالإشارةِ الى المحاسِن في الموضوع ومنهاجهِ، والتّنبُّهُ على الهفواتِ والغَلْطات، وكشفُ أسرارِ التدقيق، أو الغفلةِ أو الاختلاط في كلّ ناحية منها. ومنه في :

١ ــ **المراسلة** : التي يَسْتوضحُ فيها السائلُ عمّا يَبْدو لَهُ من آراء ومفارقات، من حولِ بعض الموضوعات،.. ومنه :

سؤال الرافعي لمجلة المقتطف عن حقيقة الهاتف الذي هتف بأُخته في « الجيزة » غداةَ موتِ أبيها في « طنطا »،.. قال :

« لم يقَعْ لأُخْتِنا قبلَ هذه المرّة أن سَمِعَتْ هاتفاً، أو تخيَّلَتْ أنّها تسمع، ولا أراها تعلَمُ من أمرِ الهواتف شيئاً،.. ولستُ أذكر أن بعضَ ما تقرأ عنهُ من هذه الهواتف يرجعُ ــ إن صَحّت الرواية ــ الى المُبالغةِ في خطأ الحِسّ، أو خطأ الوهم، وخاصّة فيما زعموهُ من أخبارِ الجاهلية،.. ذلكَ أنّنا تِلْقاءَ مذهبٍ كمذهبِ ذلك الذي قال : لا أصدّق حتى أضَعَ أُصبعي »[2].

وكذلك سؤالهُ فيما وقَع لأخيهِ ــ وكانَ قد « وجَدَ في نفسِهِ ضيقاً،

---

(١) الجريدة ٣ ربيع الأول ١٣٣٠ هـ ــ ١٩١٢/٢/٢١ م
وقد كان من بعده كتب في تاريخ الأدب، لم يستطع واحد من مؤلفيها أن ينسج على منواله، أو يتم ما بدأه تصنيفاً ولا تفريعاً ــ راجع الدسوقي ــ في الأدب الحديث.
(٢) المقتطف ٨ ــ ١٩١٩ م ــ ٢٤٨

وفي صدرِهِ حَرَجاً، وفي جوفِهِ ظمأً من حَرّ الغُرفة التي هو فيها، فقامَ إلى الماءِ فشرب، ثم انقلب الى مَضْجعِه، فاطمأنَّ فيه، وأخرَجَ رأسَهُ من الكُلّةِ يَسْتروحُ الى الهواء، وكانَت الغُرفة التي أمامَهُ قد تركَ مصباحَها مُضيئاً، وأكفأ بابها إلا فُرجَةً بين مصراعيه تمُجُّ رشاشاً من الضوءِ.. فبينا هو ساكنٌ الى حالِهِ تلك، إذ سمعَ في جَوْف اللّيلِ قَرْعاً على البَلاط، فأنصَتَ مستوفِزاً، ولم يكَدْ يَسْتَجمعُ حتى أبصَرَ بعَينَيْ رأسِهِ أباه مُقبلاً على الغُرفةِ، وفي يدهِ عصَاه ينقلُها على الأرضِ كما كانَ يصنَعُ إذ يمشي في حياتِهِ، فلَمّا صارَ قريباً من البابِ نظر إليه مُبتسماً، ثم أخَذَ سيرَهُ الى غُرفةٍ أخرىٰ.

قالَ : فاقْشَعرَّ جِسْمُهُ، وتَلَجْلَجَ لسانُهُ، وأخذتهُ رَجْفَةٌ، وجعلَ يتلو آياً من الذكر الحكيم، ثم وثَبَ الى مفتاحِ الكهرباء، فأطلَقَ النّورَ ولَبِثَ لا يغتمضُ له جَفن،..

لقد رأى أباه في ثياب من ثيابه التي كان يلبسُها في حياتِه، ولم ينكر منه شيئاً، إلاّ نُوراً خفيفاً يُقبلُ من وجههِ فيُلقي على ناظرِه هيبةً أخرى ليسَتْ من هذِهِ الدنيا.. فما رأي أستاذِنا في هذه المكاشفة ؟! »[1].

أجابَ المقتطف « بأنّ الهواجسَ والأحلام ناتجةٌ عن محفُوظاتٍ في الدماغ، يَنْتَبهُ العقلُ لها بسَبب مؤثر أثّر فيه.

أمّا الأحلام التي تُعزىٰ أسبابُها للوحي والمكاشفَةِ من الخالق أو ملائكتِهِ وقدّيسيهِ، فلها أسباب أخرىٰ لم يصِل العلمُ إليها بعدُ ».

---

(١) المقتطف ٥ ــ مايو ١٩٢٠ م

٢ ـــ **التعقيب** : ومنه تعقيبُه على جوابِ المقتطف السابق يذكر فيه له أن مثلَ هذا الهاتف يقَعُ في النُّدرةِ والفَلْتة لأمرٍ من الله ﴿ **وما نَتَنَزَّلُ إلاّ بِأَمْرِ رَبّكَ له ما بَيْنَ أَيْدِينا ومَا خَلْفَنَا وما بَيْنَ ذلكَ وما كانَ ربّك نَسِيّا** ﴾[1] وما تشير إليه هذه الآية الكريمة هو رأي هذا الضعيف،.. وما بنا عن رأي الأستاذ الجليل غِنى، وقد سقطت الحادثة على وجهها، ورأيُه الموفّق إن شاء الله[2].

ومنه تعقيبُه على اعتراض عبّاس محمود العقاد في مسألةٍ خطّأً الرافعيُّ فيها الشاعرَ أحمد شوقي، إذ قال :

« سرَّني ما قرأتُ للفاضل من دفاعِهِ عن شوقي وتخطئتي في مسألتين، استخرجهما من مقالي، وزادني سُروراً أن أكون الذي جعلَ العقاد ينحازُ إلى شوقي » ؛

الأولى : إشارتي إلى غَلْطةِ شوقي في رفْعِ جواب « إنْ » الشرطيّة في قولِهِ :

إن رأتني تَميلُ عنّي كأنْ لم ... تكُ بيني وبينَها أشياءُ

قال العقاد : .. الذينَ يَعرفُونَ النحو يعلَمون أنَّ الخطأ إنما هو في تصحيح ــ كذا ــ الرافعي، ويشيرُ الى القاعدةِ المذكورة في كُتُبِ النحو من أنّ الجوابَ يُرْفَعُ أو يجزم إن كان الشرط ماضياً[3].

---

(١) الآية ٦٤ من سورة مريم

(٢) المقتطف ١٩١٩/٥ ــ ٢٤٨

(٣) منه قول الرافعي نفسه :

فما إنْ رأى في الحُسْنِ أبدعَ صامتٍ ... يُجَلُّ به في الشعر أروعُ ناطق

وبعد أن يَدُورَ بهِ مع مذاهبِ النحاة، ويأخُذَ على سيبويه وضعَهُ لمثالٍ من الشعر محلّ الضرائر يتساءَلُ :

« ما هو الوجهُ الصحيح ؟ وكيفَ يدفع السّماعُ الذي نصُّوا عليهِ، وكيف يكونُ الدفاع عن هؤلاءِ النحاة ـــ وهم قد عَجزوا عن البُرهانِ القاطع ؟!.

والثانيةُ : قولُ العقاد : إنّ الرافعي قد ظنّ أنَّ الشعورَ زائدٌ في قولِ شوقي :

عـــيسى الشعـــور إذا مشىٰ ردَّ الشعـــوب الـــى الحيـــاة

والصواب أن عيسى الشعور من تشبيه الإضافة المعروف في البلاغة، وليس ثمّة حشوٌ ولا إقحام.

يأخذُ الرافعي العقادَ فيدورُ بهِ تعقيباً على « الديوان » الذي لم يَعرِفْ من مآخذ شوقي إلّا بَيْتاً واحداً هو قولُه في الهلال :

تطلعُ الشمسُ حين تطلعُ صُبْحاً وتنحّـــى لمنجـــلٍ حَصّادِ

وظنَّ أنّه أخذَهُ من قول ابن المعتز :

أنظر الى حُسنِ هلالٍ بدا يهتِكُ من أنـوارِهِ الحِنْـدِسا
كمنجلٍ قد صِيغَ من فِضّةٍ يَحْصِدُ من زهرِ الدجىٰ نرجسا

وكلامُ العقّاد هو الذي نبّهني إلى نقدِ الإضافة في عيسى الشعور ؛ لأن شوقي لم يأخُذْ من ابنِ المعتز، بل أخذَ من شاعرِ العراق عبد الباقي العمري من أبياتٍ يُقالُ إنها من مبتكراته، وهي :

علينا أهلّةُ هـذي الشهـورِ غَدَتْ تحصِدُ العُمْرَ فِي مِنْجلِ
وداسَتْ بيـــادرُ أيّامِـــهِ نبـــاتَ لياليـــهِ بالأرجـــل

وفي هذه الأبيات يقولُ العمري إنَّ هذا الحصاد طُحِن وعُجِن.

وقد خَبَزَتْهُ « سُليمى الهموم » بمسجورٍ تَنوّرها المصطلي

فمن هنا تَنَبَّهْنا الى « عيسى الشعور » وما كان العمري إلّا مُقلّداً الفُرسَ والترك، والغريب أن العقّاد الذي قال في الديوان[1]: « ولكن شاعر العامة يعكسُ الآيةَ، فيقول إنّ الشعور ردّ الحياة ــ وكلّنا يعلم أنّ الحياةَ هي التي تنشِيءُ الشعور »، هو العقاد الذي فسّر لنا « عيسى الشعور ».

لقد قلتُ في مقالي : ان شوقي أرىٰ مَنْ حاولوا إسقاطَهُ مِراراً ــ غُبارَهُ، ومضىٰ متقدّماً، ورجع من رَجَعَ ليغْسِلَ عينيه ويرىٰ.. وتفسيرُ العقاد دليلٌ بيّنٌ على أنّهُ غَسَلَ عينيه »[2].

ومنه تعقيبُه على « المقتطف » بعد الذي أخذه عليه في « السحاب الأحمر » من أنّه لم يَرْحَمْ قارئاً، فزادَ في معانيهِ غموضاً باستعماله ألفاظاً غيرَ مألوفة (!) وتراكيبَ غير مأنوسة، كما فَعَلَ كارليل في كتابه (فلسفة اللباس)، وقال : هذا غير كثير في « السحاب الأحمر ».

ولكن إذا أُضيفَ إليه دِقّةُ المعاني، وكونُ بعضِها جديداً استَنْبطَهُ من صُوَرٍ تخيّلَها، أو من مباحثَ عِلميّة جديدة وقَفَ عليها. زادَ فهمُ الكتاب صُعوبة،..[3]

---

(١) الديوان : كتاب في (النقد) وضعه عباس العقاد لهدمِ عدوه أحمد شوقي، واثنى فيه على صديقه عبد الرحمن شكر، وأستاذه الرافعي،.. اشتهر لما فيهِ من جرأة ومجازفة.

(٢) المقتطف ــ نوفمبر ١٩٣٣، فبراير ١٩٣٤ م.

(٣) المقتطف ــ مارس ١٩٢٥ م

ولكنا نرجّحُ أنّ مَن يُمعِنُ النَّظَرَ فيهِ من الأدباء، والمتأدّبين لا يتعذّرُ عليه فهمُه »[1] فقد عقبَ عليه الرافعي بقوله :

« ودِدتُ ــ والله ــ أن أرفّهَ عن نفسي وأطّرح عنّي الكدّ فيما عانيتُه من أسلوب « حديث القمر » و « المساكين » و « رسائل الأحزان » و « السحاب الأحمر »، ولكنّي أجدُني كالمُسخّر في ذلك لقُوّةٍ تُساورني في أوقاتها، وتهبُّ عليَّ كالريح من سكون وركود، فلم أفكّرْ قَطُّ في كتابٍ من هذه الكتب، ولكن تقع الحادثةُ فيجيءُ بها الكتاب،.

أمّا الذي يُسَمُّونَهُ غموضاً[2] وتدقيقاً فما أنا بصاحبهِ ا، ولا العامل فيه، ولكنّه طورٌ من أطوارِ الزَّمَن لا بُدَّ أن يَسْبقَ نَهْضَةَ التجديد كما سبقَها من قبلُ، فقد كانوا يصفُونَ به سَيّدي شعراء العربية قاطبةً : أبا تمّام والمتنبي.

إنَّ أرفَع منازل البلاغةِ أن يكونَ في قُوّة صانعِ الكلام ؛ أن يأتي مرّةً بالجَزْلِ، وأخرى بالسَّهْل، ولا يبلُغ أحدٌ هذه المنزلةَ فيحكمُها ويُعطيها حقّها من التمييز، إلا جَعَلَتْهُ الأقدار وسيلةً من وسائلِ حفظ البلاغةِ، يَتَسَلَّمُ الزمنَ ويُسلّم، بل قل بالألفاظ الصريحة : يتسلَّمُ لُغَة القرآنِ ويُسلّمها »[3].

ومنه تعقيبه على الدكتور صروف في استعمالِ كلمة « فحَسْبُ » وقوله :

---

(١) علّة الدكتور طه حسين ادعاؤه أنه لا يفهم!..
(٢) كذلك درج الآخرون في نعت الرافعي وأدبه.
(٣) المقتطف ــ مايو ١٩٢٥ م

« لم يردْ في كلامِ الأدباءِ والمترسّلين استعمالُ كلمةِ فحسبُ — كما قلْتُمْ — وإنّما استعملها بعضُ العلماء، وكنت أوّلَ مَن استعملَها في هذا العصر، وأوّلَ مَن أتبعها وأجراها في كتابتِهِ ؛ إذ أتيتُ بها مراراً في كتابي « تاريخ آداب العرب » واستعملتها بالفاء تقويةً لمعناها وتحقيقاً لغرابتها، وليَسْتمرّ الكلامُ بها على سَنَنِهِ، ويتحدَّرَ في مجراه، ثم تعلّقها الكتّابُ بعدُ.

على أنّي لم أسْتَعملْها ابتداءً من نَفْسي، وإنّما رأيتُها في كلامِ سيبويه كقولِه في كسرةِ فيَّ — أي فمي — : إنها أولُ دليلٍ على أنهم لم يُراعُوا حديثَ الاستثقال والاستخفاف حَسْبُ وأنّه أمرٌ غيرهما ».

ثم رأيتُ أبا الفتح بن جنّي — يردّدُها في كتابهِ « الخصائص » كقوله : ليسَ اعتدال الثلاثي لقلّةِ حُروفه حَسْبُ، لو كان كذلك لكان الثنائي أكثر منه. وقوله : فإذا ثبت ذلك عرفتَ أن ذوات الثلاثة لم تكُنْ في الاستعمالِ لقلّة عددِها حَسْبُ » وقال في موضع آخر « وليس كذلك قولُنا زيدٌ قام ؛ لأنَّ هذا لم يرتفع لإسناد الفعل إليه حَسْبُ دونَ أن انضمَّ الى ذلك تعريتُهُ من العوامل اللّفْظية »..

ولم أرَ هذا الاستعمالَ لغيرِ سيبويه وأبي الفتح، ولكنْ مَن هما ؟! »(1)

* * *

ومنه أيضاً تعقيبُه على استعمالِ كلمة « الطبيعي » وقوله فيها :

---

(1) المقتطف — مايو/أيار ١٩٢٢ م

لم تُعرفْ كلمةُ « الطَّبَعي » في هذهِ العربيّة من يومِ خَلَقَها الله إلى أن أرسَلَ معجزتها الكبرىٰ الخالدة للأحمرِ وللأسود،.. إلى أن تناولها العلماءُ من كلّ لسان في ثلاثة أركان الأرض.

ولقد سُئلتُ فيها مِراراً لأني لم أستعملها قط على ذلك الوجه الثقيل، ولا أرىٰ وجهاً لاستعمالها،.. ولعلَّ أقدم ما عُرِف من تاريخ النسبة الى الطبيعة كتاب (السماع الطبيعيّ) الذي نقله سلاّم الأبرش حين ابتداء النقل عن اليونانيّة وغيرها.

أمّا وجه تصحيح هذه النسبة فهو أنّ العرب لم يكونوا يعرفون القواعد أو ينزلوا عليها، إنما ذلك علمٌ منتزعٌ من استقراء الّلغة، ولا قاعدةَ للعربيّ إلا غريزتُهُ، وإلّا الاستحسان والاستخفاف والاسْتثقال.

ولهذه العلّة لا يَنْسِبون إلى فَعِيلةَ في المضعّف والمُعْتل العين إلا بالتصحيح ؛ إذ يَسْتثقلون أن يقولوا حَقَقي وطَوَلي، فيعدلون الى حقيقي وطويليّ. ــ وقد تطّردُ الكلمةُ في استعمالها ــ وهي مع ذلك شاذةٌ في القياس، فيقولون : استَصْوَبَ واستحوذَ واستنوَقَ، ولا يقولون استصابَ واستحاذَ، على ما هو عليه القياسُ في مثل استقام واستخارَ.. الخ.

وفي نحو الفتوىٰ والتقوىٰ قلبوا الياء واواً من غيرِ علَّةٍ ولا ضَرورة، إلّا علّة الاستحسان والاستخفاف،..

وقد نصَّ سيبويه على أنّهم قالوا : سَلِيقيّ للرجل من أهلِ السليقة، ولم يقولوا سَلَقي على القاعدة. فان لم يكُن العلماءُ قد استَنْطقوا العربَ في النسبةِ الى الطبيعة، فهذا عندنا هو الأصل الذي عَمِلُوا عليه والوجه الذي اتّبعوه. ولا يُقالُ أنّ « السّليقيّ » شاذّة لا قياسَ فيها، فإنَّ الشذوذَ ليسَ بشيءٍ عندهم ولا يعرفونَهُ، بل كلّ شاذٍ له وجهٌ في استعمالهم،

والسليقَةُ والطبيعة والغريزةُ والبديهة ألفاظٌ مُتجانِسة تتلاقى معانيها على أصلٍ واحد، وفي وزنٍ واحد، فلا جَرمَ أخذَ بعضُها في النسبةِ مأخَذَ بعضِها، وصَحَّ فيها القياسُ لتماثُلِها في الصيغةِ والمَعْنَى، ولتجانُسِها في العلّةِ ـــ وهي الاشْتقال ـــ إذا قيلَ: سَلَقي وغَرَزي وطَبَعي وبَدَهي،... »[1]

ومنه تعقيباته الكثر على قارئيه وسائليه والمتربّصين به وناقديه في « المقطّم »، من حول التكرار في القرآن[2]، وفي « البلاغ » حول العبقرية[3] والمعرفة[4] وأبولو[5] والرسالة[6]. أنظرها في كتابنا (الرافعي الناقد الأديب).

٣ ـــ **المناظرة**: هي المناقشة والحوار من حول الموضوعات باسْتحضارِ الحيثيّاتِ العلميّة، وطرائق البحث والتحليل والموافقة للوقوفِ على الحقيقة جليّة واضحة. ومنها تلك التي ناظر فيها الأب انستاس ماري الكرملي « كَلَدة » في عروبة بعض الكلمات ذاتِ العَراقة العربية، ومنها: الأدب، وقريش، والخليفة،.. الخ. وكان الأبُ قد ذهبَ في تفسيرِ معانيها مذاهبَ غريبة لا تخلُو من مجازفةٍ وتورُّطٍ أحياناً؛ قال الرافعي ـــ بعد مُناقلةٍ في الرواية والإسناد، وإعادة الأخبار الى أهليها،

---

(١) المقتطف ٨ ـــ ١٩٢٢ م
(٢) المقطم، مايو ١٩٢٥ م
(٣) البلاغ ٣، ٢٤، ١٢١ ـــ ١٩٣٣ م
(٤) المعرفة ٩ ـــ ١٩٣١ م
(٥) أبولو ـــ ١٩٣٢ ـــ ١٩٣٣
(٦) الرسالة ـــ حواشي مقالاته فيها خاصّة.
.. وقد جمعت هذه الفنون في جزء خاص

والكشفِ عن صنيعةِ الكرملي في تفسير كلمة (الأدب) ليقربَ معناها من اللَّفظ اليوناني الذي يريد :

« إنّ المعنى الذي جاءَ به (كَلَدة) مَصْنوعٌ لا رِوايةَ فيهِ، ولا أساسَ له، ولا شاهدَ عليه، ولا مُشابهةَ أبقَتْهُ بين معنى اللفظ اليوناني واللفظ العربي.

والمادّة نفسُها « أدب » أصيلةٌ في اللّغةِ العربيّة، ولو هُمْ كانوا أخذوها من اليونانيّة لما جاوزوا بها المعنىٰ الذي أخذوها لأجلهِ، ولا صرّفوها في المعاني التي تُروَى في كتب اللغة »[1].

وحين لَجّ الأَبُ بدعواه « أن كلمة الأدب يونانيّة — وإن لم يقُلْ بها أحدٌ من اللّغويين أو ينطق بها أحدٌ من الشيوخ، أو رُويتْ عنهم »[2] ردَّ عليه بإسهابٍ اجتزأه المقتطفُ، إذ قال :

« زعم كَلَدة أن للأدبِ والأديب معاني قَديمةً، وأن معنى الأديبِ في الجاهليّة وصدر الاسلام هو الطيِّبُ الحديث الحَسَن الصوت، الذي يُؤْنِس السامِعين بِسِحْرِ مقالِهِ، ويجذبُهم إليه برقّةِ منطقِهِ ولذيذِ صوتِهِ ».. الخ، وأنا أطلبُ منه البيّنَةَ على دعواه، ولو شاهداً من كلامِ العرب يدلّ عليها، أو رواية تثبتها، أو أساساً من التاريخِ يُسوّغ له ما ذهَبَ إليه، ويخرجُهُ من باب الوضع »[3].

---

(١) المقتطف — مايو/أيار ١٩٢٣ م
(٢) المقتطف — نوفمبر ١٩٢٣ م
(٣) المقتطف — ديسمبر ١٩٢٣ م

ثم أتبع ذلك بقوله :

« بالأمسِ قام اللورد « جسبرد » في مؤتمر يهودي بلندن يزعم فيه أنَ الإنجليز من نَسْلِ بَني اسرائيل، وأنّهم حقّقوا النبوءَةَ التي ورد فيها أن هذا النَّسْلَ يملأ الأرض، وأن الدليلَ على ذلك ؛ أن كلمة British التي معناها بريطاني هي من كلمتين عبرانيّتين « بريت »، أي العهد و « إش » أي الشعب ؛ قال جسبرد ؛ فالشعب الانجليزي هو شعب العهد، أي شعب اسرائيل،.. فلم ينكِب العرَبَ وحدهم بكلمتين يونانيّتين، بل نكبَ الانجليز بكلمتين عِبْرانيتين !.. وإنَّهُ لمَصْعَدٌ يَثِبُ إليهِ كلُّ من أصابَ مشابهةً في مقابلةِ اللغات »[1].

* * *

ويومَ ذهب الكرملي في مجازفاتِهِ اللُّغوية إلى كونِ كلمة قُريش يونانيّة، ولفظة الخليفة يونانية، وأن الأولى معناها رئيس المُغنّين charegas[2]، والثانية : الذي يدير حركة الرقص ناظره الرافعي بردّ مناظر أديب يقول فيه :

« إنّ كلمةَ قريش أصبحَتْ في التاريخ الاسلامي ميراثاً دينيًّا، يُقالُ فيها ما قيلَ في لسانِ أهلِ الجنّة، ولَيْسَ في كلّ ما نقلَهُ كَلَدة ما يُشيرُ إلى أنها من القِرْش الدابّة البحريّة،. إلّا أنّ الرواية تنتهي الى ابن عباس ـــ وكم كذّبَ الناسُ على ابن عباس ـــ رضي الله عنه ـــ حتى لَجَعلوهُ وحدَهُ ديوانَ العرب.

---

(١) المقتطف ـــ ديسمبر ١٩٢٣ م
(٢) المقتطف ـــ يناير ١٩٢٤ م

الروايةُ الصحيحة في تَسميةِ قُريش أنّها من التجارة، ولم يعرف العهدُ الأول وما تلاه من عُصور التحقيق إلاّ هذا المعنى، والقرآن نفسُه يكادُ يكون نصًّا في ذلك ؛ فقد وصفَهم في سورةِ قريش بقوله ﴿ **فَلْيَعْبُدوا رَبَّ هذا البَيْتِ الذي أَطْعَمَهُمْ من جُوعٍ وآمَنَهُمْ من خَوْف** ﴾ وما هذه بصِفَةِ الدابّة البحريّة، بل هي صفةُ قوم تجّار أَلِفوا لمعاشهم رِحلَتَي الشتاء والصيف الى اليمن والشام،.. حتى كادت التجارةُ أن تُلهيهم عن عبادةِ ربّ البيت، وما دامَ في اللغة القَرْشُ بمعنى الكَسْبِ والتجارة، فلِمَ لا يكونُ اسمُهُمْ مُشتَقًّا من هذه المادة ؟ »[1].

وراح يدورُ به في رواياتٍ بين كتب اللغة وعلمائها، فيقولُ له : « تأمّلْ يا سيدنا العلاّمة أين هذا من charegas رئيس المغنين[2].. وهل حرَّمَ الله على ألسنةِ اليونان أن تنطق بكلمةٍ فيها قاف وراء وشين أو جيم ؟! مع ما تمَحَّلْتَ في إبدالِ هذه الجيم، فانّ الإبدال شائع في أكثرِ الحروف، وهو لغات ينطقُ بكلّ منها قبيلٌ من العرب ».

ثم ساقَ إليهِ نصًّا آخر من كلام الجاحظ في رسالةِ التجارة يَعْني قُريشاً ؛ قوله : « وليس قولُهم قريشيّ كقولهم هاشِمي وتيمي ؛ لأنَّهم لم يكن لهم أبٌ يسمى قريشاً، فينسبون إليه، ولكنَّهُ اسمٌ اشتق لهم من التجارة والتقريش[3] وهو أفخم أسمائهم »

وعاد فذكَّر المناظر بأن ابن الكلبي ــ المرجوعِ إليه في هذا الشأن

---

(١) المقتطف ــ مارس/آذار ١٩٢٤ م

(٢) لعلّ كلمة « قراقوز » منها!

(٣) ما تبرح الكلمة في العراق والشام بهذا المعنىٰ من التجارة والتسليف والصيرفة خاصة.

ـــ من أكذبِ مَن وضَعُوا على العرب، وقد كذّبه العُلماء وردّوا عليه[1].

أمّا كلمة « الخليفة » التي زعم كَلَدة أنها يونانية الأصل أيضاً، وقال إنه وقفَ عليها في كتابِ الدلائل لأبي المنذر هشام الكلبي : « كَان الخليفةُ في آنفِ الدَّهْرِ يتولّى تدبير العجّ والثجّ في الحج، ويُديرُ حركةَ الرقص في أيامِ أفراحهم ومحافل أعيادهم، ثم نقَلَ الحرفَ الى مَن بيدِهِ السلطة العليا، أو يحاول أن تكونَ له السلطةُ العظمى،.. »[2]

قال الرافعي : تلكَ دُوَيْهيَةٌ تَصْفَرُّ منها الأناملُ، وتَحْمَرُّ أيضاً،.. ولكني أنا الضعيفُ يا العلاّمة كَلَدة أُقسمُ لكَ أنّ النسّابةَ العظيمَ لم يقَلْ هذا الكلام، وأن ليس له في النّصْ إلاّ هذه الكلمات « كان الخليفةُ في آنفِ الدهر يتولّى تدبيرَ العَجّ والثجّ » فَفهمتَ منها معنى الحركةِ، فأكملتَ النصّ من عندكَ ليلائم معنى الكلمةِ اليونانيّة، كما فعلتَ في تعريف كلمة الأديب[3]. وهل يَخفى على مَن يتذوّق البلاغة العربيّة، ويعرف كيف تُسْبَكُ أن أحداً من الرواةِ أو العلماء أو العرب لا يقولُ أبداً، بل لا يطوعُ لسانهُ أن يقول (يدير حركة الرقص) وأيام أفراحهم، ومَحافل أعيادهم، ومَن بيده السلطة العليا،.. وأن تكون له السلطة العظمى،.. أيُّ كلام هذا ؟!

---

(١) المقتطف السابق ــ وابن الكلبي هذا أخباري ملفق هو غير أبي المنذر النسابة العظيم.
(٢) المقتطف يناير ١٩٢٤ م
(٣) راجع ما مرّ، ومما يؤسف له أن يُعنى بالكرملي ومطارحاته اللغويّة ومعجمه (المساعد) وتصنّف فيه اثبات المصادر والمراجع، ولا يُلاحظ إسقاط مناظرة الرافعي له في دَيْدَنِهِ مع العربيّة وما وراءه.

لقد ضاعَ عمري باطلاً إن لم أميِّزْ بين كتابتين إحداهما كُتِبَتْ من نيِّفٍ ومئةٍ وألفٍ سنة، والثانيةُ لم يَجِفَّ حِبرُها بعدُ..

دلّنا يا العلاّمة على كتاب هشام، وآتينا بالنصّ بحَرْفِهِ، وإلاّ فانَّ معنى العج والثج ما يضجّ به الحجيجُ من الدُّعاءِ لله مكتظّين مُجتمعين،.. فلا رقصَ ولا أغاني ولا أضاحيك ولا سخافات، وكلُّ ما بنيتَهُ على هذا النصّ فاسِدٌ، وإني أقول بملءِ فمي بأن النصّ موضوعٌ وألفاظهُ شاهدةٌ شهادةَ العدُول »[1].

* * *

ومن المناظرةِ ما كتَبَهُ في نشأةِ فنّ « المقامات » التي ذَهَبَ فيها الدكتور زكي مبارك الى اكتشافٍ له في كتاب « زهر الآداب » يقولُ فيه « إنّ بديعَ الزمان لم يكن مُبتدعاً لفنِّ المقامات، وإنّما قلّدَ فيها ابنَ دُريد »، وإنّ الدكتور طه حسين قد دلَّهُ على كتاب « الأمالي » لأبي علي القالي، فوجَدَ ذلك حقًّا[2].

قال الرافعي : هل نسيتَ أنَّ الرواية عِلْمٌ دقيقٌ له آدابٌ وشروط؟!

وأنتَ ترى القالي في أماليهِ يروي من شعر ابن دريد، وينسبُه إليه، فما الذي يمنعُهُ أن يفعل مثل ذلك في أحاديثِهِ التي ألّفها من ينابيع صَدْرِهِ ومعادن فكره » ؟!

لا شكَّ عندي أن البديع قلّدَ غيرَهُ، وهذه طريقتهُ، وقد وقفْتُ على

---

(١) المقتطف — آذار ١٩٢٤ م
(٢) المقتطف — آذار ١٩٣٠ م

خبرٍ مصنوعٍ كُتب قبل البديع بنحو مئةِ سنة ــ ولو حُذفَ اسمُ صاحبِهِ منه لما شكَّ أَحَدٌ أنّه من كتابةِ البديع؟.. ولا أملك وقتاً الآن لهذا البحث»[1].

وممّا يلحَقُ بالمناظرة أحاديثُ الرافعي في اللغة والآداب التي ناظَرَ فيها لطفي السيد في دعوتِهِ لتمصير اللغة العربيةَ، والتي وجّهها الى الجامعةِ للتأليف في تاريخ آداب العرب[2] وتلك أحادِيث لها شهرتها في الدراساتِ الحديثة[3].

* * *

٤ ــ **الملاحاة**: وهي شدّة الوَطْأةِ في النقدِ، وغِلَظُ القولِ في المناقشةِ، واتّقاد المشاعر عند المُساجلةِ؛ وقد تكونُ ذاتَ دَوافعَ نفسيّةٍ، أو بمنافرةٍ علميّة تقتضي التوثيق والملاحظة، أو مشاكسةٍ دأبُها الغَلَبة.. وربما تكونُ توجيهاً للدَّرْسِ والمتابعة، وللرافعي فيها صولاتٌ موفقات ذات أهداف عالية، منها:

أ ــ **موقفه المستخفّ**: بسلاّمة موسى، واحتقارُهُ له، ونعتهُ إياه بـ «الخواجا»[3] فقد أهملَهُ مرّةً فلم يردَّ على سؤالٍ له في المقتطفِ من حولِ محاضرة للرافعي في الفقر والفقراء، التي أشار فيها الى تقصير المذاهب الاقتصاديّة ــ ومنها الاشتراكية العلميّة ــ عن حلّ يكونُ

---

(١) واضيعتاه!.. أنظر المقتطف ــ مايو/أيار ١٩٣٠ م

(٢) راجع أنور الجندي في مصنفاته، والدكتور محمد أبا الأنوار في المعارك الأدبية.

(٣) الخواجا: تقابل السيد بالعربية، ينعت بها غير المسلمين.

فيه بُرءُ الانسانيّة من أوضارِ مُعْضلتها هذه[1].. إذ حاول سلاّمة أن يجُرَّ الرافعي الى معركةٍ جانبيّة فيها من الالتواءِ بجدوى الرّبا، والانحرافِ بالفكر ما يُبعِدُهُ عن قصْدِ الدراسة وهَدَفِ الاتجاه[2].

وحين نَحلَ الرافعيَّ زعامةَ ما سَمّاهُ بالقديم[3] رَدَّ عليه الرافعي بقُوّةٍ يقول :

« زعم الخواجا موسٰى فيما كَتَبَهُ عن هذا الضعيف أنَّ ما نقولُ به من احتذاءِ العرب في أساليبهم، والارْتياضِ بكلامِهم، والحرصِ على لُغتهم، وأن يكونَ الكاتبُ في هذه حَسَنَ البيانِ رشيق المعرِض رائعَ الخَلابةِ يَتَثَبَّتُ في ألفاظِهِ وينظُرُ في أعطافِ كلامِهِ، ويَفْتَنُّ في أساليبهِ « مذهبٌ قديم، وَوَطنيّة أدبيّة ؛ ترجعُ العِلّةُ فيها الى ذلك العَقْل الباطن الذي يَخْلِطُ بين الدّينِ والقوميّةِ العربية والأدب »..

ثم قال : « وأهلُ هذا المذهب القديم يهْمِلُون العِلْمَ ؛ لأنَّ العلومَ تتعارض ومعتقدات العرب » وظاهرٌ أنه يَعْني بالعربِ المسلمين لا غَيْرَهم، فإنَّ الجاهليّةَ أصبحَتْ من أكاذيب التاريخ !. فالمذْهَبُ القديم أنْ تكون اللّغةُ لا تَزالُ لغةَ العرب في أصولها وفُروعها، وأن تكونَ هذه الأسفارُ القديمة التي تَحْويها لا تزالُ حَيّةً تَنْزلُ من كلّ زمنٍ منزلةَ أمّةٍ من العَرَبِ الفُصحاء، وأن يكون الدينُ العَرَبيّ لا يزالُ هو هو، كأنّما نَزَلَ به الوحيُ أمسِ، لا يَفْتِتُنا فيه علمٌ ولا رأيٌ، وأن يأتي الحرصُ على اللّغة من جهةِ الحرص على الدين، إذ لا يزالُ منهما شيءٌ قائم كالأساسِ والبناءِ، لا مَنْفَعَةَ فيهما معاً إلا بقيامِهما معاً.

(١) المقتطف — يونية ويولية ١٩١١ م
(٢) المقتطف — سبتمبر ١٩١١ م
(٣) الهلال — يناير ١٩٢٤ م

ولكنْ.. ما المذهبُ الجديد ؟! أنأخذُ بالمُقابلةِ فنقولُ : الركاكةُ وإهمال القوميّة التاريخيّة، والتحلُّل من قيودِ الواجباتِ، والانسلاخُ من الجِلْدةِ، لأنها غير أوربية، كلُّ ذلك قديم، فكلُّ هذا جديد ؟!..

العلّةُ في الحقيقةِ ترجعُ إلى الضَّعْفِ في اللّغةِ العربيّة والقُوّة في اللُّغةِ الأجنبيّة، التي أكثرَ من الإقبالِ عليها، فعادَتْ الى نوعٍ من العصبيّة للأدب الأجنبي وأهلِهِ.

فلمّا ضَرَبَتْ هذهِ العصبيّةُ واستحكمَتْ، وجَّهَت الذوق بحكم الهوىٰ ــ وأنتَ تعلم أنَّ الذوق الأدبيَّ في شيء إنما هو فَهمُهُ، وانما الحكم على شيءٍ إنما هو أثرُ الذوق فيهِ، وأن النَّقْدَ إنّما هو الذَّوْق والفهم جميعاً »[1].

* ومنها ما تناولَهُ طه حسين من الفقرةِ الأخيرة ــ ودارَ بها في عَبَثٍ من حولِ الذَّوْقِ والفهم[2] إذ رَدَّ عليه الرافعي برفقٍ ولين وعَجَلةٍ، ولكنّه قال :

« أنا مع إعجابي بالفاضل أرىٰ أنه مُسْتَهْتِرٌ بأشياءَ، وأنَّ من خُلُقِهِ أنَّ ما لا يرضَى عَنْهُ وما لا يفهمهُ، ليسا شيئين مُخْتلفين !.. فاذا لم يكُنْ من الفَهْم بُدٌّ قال إنّه لا يقتنع فاذا ضايَقْتَهُ وضيّقْتَ عليهِ لم يَبْقَ إلّا ما يقولُ النُّحاة في « أيّ » التي حَيّرهم إعرابُها وبناؤها ــ أيّ هكذا خُلقَتْ !..[3]

---

(١) الهلال ــ فبراير ١٩٢٤ م

(٢) السياسة ٢٣ فبراير ١٩٢٣ م

(٣) وحي القلم ٣ ــ ٣٩٠

* ثم إنَّ « سلاّمَةَ » هذا عادَ ينقد « السحاب الأحمر » فعدَّهُ من أدبِ الفقاقيع، ووصفَه باللَّهْوِ والعبث، وأن نِصابَ القَلَم الذي تَراءىٰ للرافعي فيهِ السحابُ هو من زجاج يُباعُ في القاهرة[1].

وقد أهمَلَهُ الرافعيُّ ثانيةً ؛ لأنَّ كلامَهُ سخيفٌ لا يُسَمّى نقداً، وقد وصفَ القلمِ الذي تشعَّعَ منه السحابُ وصفاً مُضْحكاً، فما هو بهذِهِ الصفة، ولا هو بنصفِ قرش[2].

ولكنّه حينما لجَّ في دعواه، وافتُضِح أمرُه سياسيًّا[3] عادَ الرافعي فأَجْهَزَ عليه، ونَعَتَهُ بعدوّ العروبة والإسلام وقال فيه :

« رأيي في سلاّمة موسىٰ معروف، لم أغيّرْهُ يوماً، فانّهُ كالشجرةِ التي تَنْبُتُ مُرّةً، لا تحلو — ولو زُرِعَتْ في تُرابٍ من السكّرا.

ما زالَ هذا الدَّعِيُّ يتعرّضُ لي منذ كانَ كأنه يُلْقِي عليَّ أنا وحدي تَبعةَ حمايةِ اللّغةِ العربيّة، وإظهار محاسِنها وبيانها فهو عَدُوُّها وعدوُّ دينِها وقرآنِها ونبيِّها، كما هو عَدُوُّ الفضيلةِ أين وُجدَتْ.

دعا الى اتخاذِ العاميّة وهدمِ العربيّة فأخزاهُ الله على يدي، وأريتُهُ بملءِ عَيْنَيْهِ أنّه لا في عيرِها ولا نفيرِها، وأنّهُ في الأدب لا قيمةَ له، وفي اللّغة دَعِيٌّ لا موضعَ له، وفي الرأيِ لا شأنَ له،.. فلمّا ضَرَبْتُ وجهه عن هذهِ الناحية، دارَ على عقبَيْهِ واندسَّ إلى غَرَضِهِ من ناحيةٍ

---

(١) الهلال — أبريل — نيسان ١٩٢٥ م، على أن العنوان نفسهُ سرقة من الرافعي كان قد نعتَ به بعض أدب المتأخرين — المنار ربيع الآخر ١٣١٨ هـ.

(٢) رسائل الرافعي — ١١٨

(٣) راجع الدنيا المصورة لأبريل ومايو ١٩٣١ م وما فيها من مقالات المجلة وحسين شفيق وابراهيم المازني في تلك الفضيحة التي أثبتت فيها تجسسه وخيانته.

أخرىٰ، فقامَ يدعو إلى « الأدب المكشوف » ولم يزدْ بِعَمَلِهِ على أن انكشَفَ هو،. فلمّا خابَ من الناحيتين، اتّجَهَ الى الشارع الثالث فانتحلَ الغيرةَ على النّساء، والإشفاق عليهنَّ، وقامَ يدعو المسلمين إلى إبطال حكمٍ من أحكام دينهم، وإسقاطِ نصّ من نُصوصِ قرآنِهم، ظنًّا منه أنّهم إذا تجرأوا على واحدة، هانَت الثانيةُ، وجاءَت الثالثة والرابعة، وانفَتَحَ البابُ المغلق الذي يُحاولُ فتحَهُ طولَ عمرهِ ـــ من نَبْذِ القرآن وتركِ الإسلام، وهجر العربيّة،.. فكانَت البدعةُ الثالثة لهذا المغرور أن يَدْعُوَ المسلمينَ جَهْرَةً إلى مساواةِ المرأةِ بالرجل في الميراثِ، فأخزاهُ الله على يديَّ وغير يدي مرةً ثالثة.

ثم قامَ المفتونُ يدعو إلى الفرعونيةِ، ليقْطَعَ المسلمين من تاريخهم ـــ وما علِمَ أنّه مفضوحٌ، ولو جاءَ العِجْلُ (أبيس) نفسُهُ الى المصريين لساقوهُ الى المجزرة.. » الخ[1].

* * *

ب ـــ **التوثيق** : ومن هذهِ الملاحاةِ ما يكونُ توثيقاً، كملاحاتِهِ لِلُطفي السيّد في شأنِ اللُّغةِ العربية وتمصيرها،.. فقد كانَ هذا دعا الى اتّخاذ لُغةِ المصريين العامة في الكتابة، وذلك بعناوينَ مختلفة منها : « الى الأمامِ في اللّغة »، ومنها « في اللغةِ العربية »، ومنها « رقّوا لغتكم »[2].. الخ.

لقد رَدَّ الرافعيُّ عليه بأناةِ الحكيم، وصَبْرِ الحليم، في مجلةِ « البيان » يُنبّهُ على ما وراءَ الأكمة،.. فقال :

(١) الدنيا المصورة ـــ ١٣ مايو ١٩٣١ م ـــ الفتح ٢٩ رجب، ١٣٤٧ هـ
(٢) أنظر (الجريدة) مارس وأبريل ١٩١٢ م، وقد جمعت في كتاب على حدة.

« اللُّغةُ مظهرٌ من مظاهرِ التاريخ، والتاريخُ صِفةُ الأمة، والأمّة تكادُ تكونُ صفةَ لُغتها ؛ لأنّها حاجتُها الطبيعيّة التي لا تنفكُّ عنها، ولا قِوام لها بغيرها، فكيفما قلّبْتَ أمْرَ اللُّغةِ من حيثُ اتّصالها بتاريخ الأمةِ وَجَدْتها الصفة التي لا تزولُ إلّا بزوالِ الجنْسيّة، وانسلاخِ الأمّة من تاريخها واشتمالِها جِلْدةَ أمّةٍ أخرى، فلو بقي للمصريّين شيءٌ متميّزٌ من نَسَبِ الفراعنةِ لبقيَتْ لهم جملةٌ مستعملة من اللّغةِ الفرعونيّة ـــ المكتوبة بالحروف المصوّرة (الهيروغليفيّة).

إنَّ السرّ في العربيّة هو هذا الكتاب المبين ـــ القرآنُ الذي يُؤدَّىٰ على وجههِ العربيّ الصحيح، ثمّ هذا المعنى الإسلامي ـــ الدّينُ القيّمُ على الفطرة الانسانيّة حيثُ توزّعت.

انّما القرآنُ جنسيّةٌ لُغوية تجمَعُ أطرافَ النسبةِ الى العربيّة، فلا يزالُ أهلُه مُسْتَعْربين بهِ، مُتميّزين بهذِهِ النسبةِ حقيقةً أو حكماً، حتّى يتأذّنَ اللهُ بانقِراضِ الخلْق وطيّ هذا البسيط »[1].

وبثباتٍ قوميّ هادف يقول : « .. ولولا هذه العربيّةُ التي حفِظَها القرآنُ على الناس، ورَدَّهُم إليها، وأوجبَها عليهم، لما اطّرَدَ التاريخ الإسلامي، ولا تماسكتْ أجزاءُ الأمة، ولا استَقلّتْ بها الوحدة الإسلاميّة[2].

وعندما تراجَعَ لطفي السيد قليلاً، يدعو للمصالحةِ بين الفصحى والعاميّة، عاد الرافعي بمقالٍ آخر في « تمصير اللغة » فقال :

---

(١) البيان ٨ ـــ ٢ ربيع الآخر ١٣٣٠ هـ ـــ المعركة ـــ ٤٧

(٢) البيان ١٠ ـــ جمادى الأول ١٣٣٠ هـ ـــ المعركة ـــ ٥٦

« وليس عندنا في وجوهِ الخطأ اللُّغوي أكبرُ ولا أعظمُ من أنْ يظُنّ امرؤٌ أن اللُّغةَ بالمفردات، لا بالأوضاعِ والتراكيب »[1].

ثم نَظَرَ في أحوالِ الأدباء وما هُمْ فيه من « التعادِي بين الأذواقِ، والإسفاف بمنازع الرأي، والخلْطِ والاضْطراب في كلّ ذلك، حتى أصبح أمرُ الأدبِ على أقبحه في قومٍ يَرَوْنَهُ على أحسَنِهِ، وقِيلَ في الأُسلوبِ أسلوبٌ بَرْقي — تلغرافي — وفي الفصاحةِ فصاحة مطبعيّة، وفي اللّغةِ لغةُ جرائد »[2]. حتى صرّح بجرأةٍ بالغةٍ لها دويّ اعتقادي فقال :

« لن تجدَ ذا دِخْلةٍ خبيْأةٍ لهذا الدين إلاّ وَجَدْتَ له مثلَها في اللُّغة، وإنّ أصحابنا لا يَجْهلون أن الأصْلَ في التربيةِ بالحَمْلِ على الأخلاقِ، وعلى رُوحِ الأمة التي تتميّز بها »[3].

* ويلحق بها موقفُ الرافعي من الدكتور طه حسين، فقد كانَ هذا الأزهريُّ قد انتقَلَ إلى الجامعةِ المنشأة آنذاك، وأولعَ بالتردّدِ على دورِ الصحف ومكاتبها — يُعلِنُ عن بضاعتِهِ بذكاءٍ تَنْفَسحُ له ميادينُ القول، وكانَ من أمره بَدِيًّا أن أغرى بمهاجمةِ المنفلوطي لما جاءَ في « نظرات » له من مَسٍّ ببعضِ أعضاء الحزب الوطني، فكان محمد صادق عنبر يقدّمُ له المادّة اللُّغوية والعلميّة، ليُضفي عليها من أسلوبهِ ما يُؤْذي ويوجع بالتعريض[4] فراح ينافق للرافعي — قريب الحزب الوطني —

---

(١) البيان ١٠ — جمادى الأولى ١٣٣٠ هـ

(٢) الزهراء — ربيع الأول ١٣٤٧ هـ

(٣) المعركة — ٦٣ وقد مرّ بنا الحديث في الفصل الأول

(٤) الزهراء — ربيع الآخر ١٣٤٥ هـ

بأنَّ المنفلوطي سرق نظراتِهِ من عنوانِ ديوان الرافعي (النظرات)[1].

ثم أن طه انتقل الى « الجريدة » التي أنشأها لطفي السيد، وكانَ الرافعي قد همّ أن يكونَ أحد كتّابها للترقّي بالأدبيات — على حَدِّ تعبيره[2] ولكن أباه الشيخ عبد الرزاق الرافعي كان قد ردّه عنهُ بعد أيام[3]، « وقد حَدَثَ أن طافَ بكتّاب الجريدة (المحرّرين) يوماً يُحيّيهم وبينهم طه حسين، ولكنّ الذي كانَ يصحَبُ الرافعي لم يُعَرّفْهُ بطه، ولم يقدّم أحدهما الى الآخر، وعرفه الرافعي، ولكنّه لم يُحيّهِ رِعايةً لعاطفتِهِ، وخِشيةَ أن يَفْهم طه أنَّ الرافعي لم يعرفْهُ إلّا بعِلّتهِ، فيألَمَ وتتأذّى نفسُهُ، ولكن طه طوىٰ صدْرَهُ على شيءٍ للرافعي من يومئذ »[4].

وكان الرافعي قد خاطبَ « الجامعة » يومئذ بمقالَيْنِ مشهورين كانا السبَبَ في تدريس آدابِ العربِ فيها[5]، إذ لم يقِفْ على جديدٍ في محاضراتِها. فانْبعَثَ فيه بروح التحدّي بالواجب، وأثْبَتَ جَدارتَهُ بتأليف « تاريخ آداب العرب » دالاً على الجامعةِ نفسها، حتى عرفَهُ الناس المؤرِّخَ الراويةَ والعالمَ الأديب، وقد استَقْبلَ العلماء كتابَهُ بحفاوةٍ بالغة[6] ولكن طه حسين وحدَهُ الذي أشهَدَ اللهَ والناس على أنّه لم يَفْهَمْهُ[7] حين تصدّى للكتابةِ فيه والتعريف بهِ ونقده !.

---

(١) محمد سيد كيلاني — طه حسين الشاعر الكاتب — ١٠٠

(٢) مقالة في الجريدة — ١٩٠٧/١١ م

(٣) المجلة الجديدة — مايو ١٩٣١ م

(٤) العريان — ١٢٣

(٥) المعركة — ٤٥، الرسائل ٢٤٤

(٦) راجع المعاصرة والاتجاه في (الرافعي الناقد).

(٧) الجريدة — ٢٥ يناير/كانون الثاني ١٩١٢ م

وعاد ثانية يتصدّى للرافعي وينْقُضُ ثناءَ حِفْني ناصِف على كتابهِ « حديث القمر »[1]، فقال : « لا نَسْتطيعَ أن نحمدَهُ، ولا أن نثني عليهِ، لأنا لا نَفْهمه، ولم نَهتدِ الى غرضهِ ولم نقِفْ على مذهبِ الكاتب فيه ؛ إمّا لغباوةٍ فينا، وإمّا لأنّهُ قضى الله على الكتاب بالغموض[2].

وقد قابَلَ الرافعي ذلك التصدّي بشموسٍ وخُلُقٍ عال، ثم كتَبَ في « حرفة الأدب »[3] يقولُ : أريد أن أصِفَ شيئاً من أخلاق جماعة يَحْترفُونَ من الأدب صناعةً كسائر المهن والصناعاتِ التي بها قِوامُ العَيْشِ لهؤلاءِ المستأكلين والمتكَسّبين من السوقة والمرتزقة لا على جهةٍ ما تحتاجُ إليه الحِرفةُ من نَفاقِ السُّوق،..

وعند تقليبِ النظر في أقوالِ الحُرفاء وما أفاءَ الله عليهم من خَيْرٍ، وما بسَطَ لهم من سَعَةٍ، وعند اهتمام القلب بكسادٍ ــ إن وقَعَ في الحرفةِ، وضَعْفٍ إن أخذَ في أطرافِ العمل، فهذا كُلُّهُ وما كان من بابِهِ، ويتّصلُ بأسبابهِ، رأيناهُ في كثيرٍ من أهلِ الأدب الذينَ اتّخذوا من الأدب حِرْفَةً، وذهبوا بها يتّجرون في أخلاقِهم على الناس،.. والغُرورُ ألأمُ اللّؤمِ في محترفِي الأدبِ خاصة، قلّما يؤتى أحدهم إلا من جهتِهِ،.. ولو قيلَ لي : إنَّ في أديبٍ مئةَ فَضيلةٍ، وفيه الغُرور، لما صَدّقْتُ أن تكونَ فيه مع هذِه الرذيلة فضيلة،..

وصِفةُ الغرور أن يكونَ لسانُه فوقَ عَقْلِهِ، وتكونَ نفسُهُ تحت لسانِهِ،

---

(١) الجريدة ــ ٦ ديسمبر/كانون الأول ١٩١٢ م
(٢) الجريدة ــ ١٤ ديسمبر/كانون الأول ١٩١٢ م
(٣) الزهور ــ ١٠ مايو/أيار ١٩١٣ م

فكيفَ تراهُ يكونُ لو تَمّتْ له هذه الصفةُ : قُوّةُ اللّسان، وسُرْعةُ البديهةِ، وشدّةُ العارضة، واستجابةُ المعاني — وهي أخصُّ أدواتِ حرفة الأدب ؟!.. الخ.

وهي مقالةٌ طويلة، مُرَّةُ الوقع شديدةُ الوطأة.

وطه على ما فيهِ من الذّكاء والفِطْنةَ — فيه من المُفارقةِ الشيءُ غيرُ الاعتيادي، فهو ما يَفْتأ يناوىء الرافعي ويَغْمِزُهُ بقارصِ الكلام، ويَلْمزُهُ بلسانِهِ الذَّلِق، ويُباغِتُهُ عَبَثاً واستهتاراً، فيعودُ الى طبيعتِهِ مُتّخذاً من فهمِهِ مقياساً أدبياً، ومن ذوقِهِ ميزاناً للتقويم، ومن نظرتهِ دَليلاً للعصر،.. فيَعْترِضُ سبيلَهُ في رسالتِه الأثيرةِ (العتاب)[1] ورسائل الأحزان[2] يُعيبُ عليه الأسلُوبَ والفنّ، ويتّهمه بتخلُّفِهِ عن ركبِ الحضارة والعَصْر، وأنّهُ محافظٌ وزعيمُ المذهب القديم[3].

هٰهنا كانَ التحرّشُ والإيذاءُ قد بَلَغَ مداه، فلم تَعُدْ ردودُ الرافعي الكُليّة، ولا ضمائرُ الغيب تجدي مع هذا الأديب المحترِف المتمادي في غيّهِ.

وما كادَتْ تحين فرصة كتاب (الشعر الجاهلي) لطه، حتى اهْتَبَلَها الرافعي سانحةً ليعلن الحرب على خَصْمِهِ العابث، ويُقيمَ الدنيا ويقعدها عليه، ويَسْتَعملَ معه جميع الأسْلحة العلمية التي يمكنُ أن تردَعَهُ عن تماديه في احترافِ الأدب والتاريخ[4].

(١) السياسة ٣٠ مايو/أيار ١٩٢٣ — أوراق الورد — ٢٠٦

(٢) حديث الأربعاء ٣ — ١١، المعركة ١٠٩

(٣) حديث الأربعاء ٣ — ١١، وحي القلم ٣ — ٢٨٨

(٤) ربما كان الرافعي يستفزُّ طه باهدائه مؤلفاتهِ إليه، ليثيرَ فيه طبيعَتَهُ هاتيك، وبنضج المسألة=

وفي الوقت الذي كانَ يمكن للرافعي أن يعرضَ عِلْمَهُ وفنَّهُ في نقدِ هذا المصنّف بإعادةِ توثيق شواهِدِهِ، وبيانِ أفكارِ مؤلِّفِهِ، وخَطَلِ حكمه، ورَدّ التداعي والإضافاتِ والخَلْط والخطأ فيه، والتنبيهِ على زَيْفِ المنهاج الذي يَنْتهي بصاحبهِ الى المنزلقاتِ والمهاوي في الأحكام المُتَسَرّعة، ويَسْتأنِفَ عليه مذاهبَ القَوْلِ في الرواية والعلم والتاريخ وسوءِ فهمِه في الأخذِ.. تمّلكَت الرافعي الحماسةُ، واندَفَعَتْ بهِ شَهْوةُ الانتقام، وصارَ إلى حالٍ مُتواجدة ؛ يَدْفَعُ فيها عن دينِهِ وحُرْمةِ تُراثِهِ.. فسارعَ في الكتابةِ قَبْلَ أن يقفَ على الكتاب نفسِهِ !..[1] كالذي يثأرُ لعِرْضِهِ !..

ثم لمّا وَقَفَ على الكتابِ زادَ حماسةً وعُنفاً، فَبَثّ عِلْمَهُ وتوثيقَهُ في تلك النَّبْرة الحادّةِ، والصوتِ العالي، والتهكُّم والسخرية وكل ما يُؤذي الجامعةَ ويُوجعُ أستاذ الآداب بها، ويَرُدُّ على طه حسين أسواءَهُ وأذاهُ الذي مارسَهُ مع الرافعي خمسةَ عشر عاماً.

ولكن المقالات على كلّ أحوالها فيها من العِلْم والتوثيق ما لم يكُنْ يقوى عليه غيرُهُ، وربّما كانَتْ مَنْبهة لآخرين تَصَدّوا للموضوعِ من جوانبَ مختلفة[2].

ذلك أنّنا نجد الرافعي يرُدُّ كلام طه الذي تَمَحَّلَهُ بالقصصِ والأخبارِ، والأشعار التي رُويت عن المعمرين، فيعيدُها إلى قالةٍ للجاحظ يثبتُ

= بينهما، فيتوفّر على سبب في النقد يوثق فيه قيمه وخصائصه وينشر دعوته، ويذيع الفكر الذي يراه في طريقتهِ العلمية ــ الرسائل ١١٥

(١) العريان ــ ١٢٥

(٢) راجع الرافعي الناقد.

نصَّها، ثم يعودُ الى الموازنةِ بين رأي الجاحظ وبين كلامِ طه وتَخْليطِهِ وإضافته[1].

ويصنَعَ كذلك مع نُصوص لابْنِ سلاّم وللمرزباني، فيعيدُها مجلوّةً تأخذُ مكانها وتبعاتِها التاريخيّة في هذا المجال، بعد أن يُنَبِّهَ عَلى سُوءِ أخذ طه حسين لها، وسوءِ فهمه لمحتواها،.. وهكذا حتى يأتي على منهاجِ الكتاب، فيتّهم طه وفهمهُ لمنهاجِ « ديكارت » ويُخيّلُ إليهِ أنه ألقىٰ عليه القَبْضَ مُتَلَبِّساً بالسرقةِ، والتزوير وضُلّةِ الترجمة، وسوء التأويل،.. ثم إنّه يشكُّ في دينِهِ ومروءته.

وأعجبُ من ذلك كلّه أنه لم يتَعَدَّ هذه الحدود فيتّهمهُ بالأخذِ عن كتابِ أو مقالةِ « مرجليوت » ـــ كما شاع آنذاك[2] أو نقلِهِ لرأي المُبشّرينَ عن كتابِ « مقالة في الاسلام » أو ما إليها من التُّهم الواردةِ الأخرى[3].

بل هو لم يُشِرْ أو يَعْتدّ بِسَبْقِهِ في الموضوع[4] وهذه مِيزةُ فضيلةِ للرافعي، حتى لنجدَهُ يخرجُ من المعركة ـــ كما سُمِّيَتْ ـــ وقد سَئِمَ أحداثَها ووقائعَها[5]، ونشهدُهُ ينتهي الى القولِ من بعدُ حيثُ تَصَدَّتْ لطه « الرابطة الشرقية »[6] وكوكب الشرق[7] في حُسبانِهِ لأسماءِ الإشارةِ ضمائرَ في القرآن :

---

(١) المعركة ١٨٨ ـــ الشعر الجاهلي ـــ ١٠٢

(٢) أنظر الزهراء ـــ ١٣٤٧ هـ ـــ وراجع محمود محمد شاكر ـــ المتنبي ط ٢ ـــ السفر الأول.

(٣) حلمي البارودي ـــ الأهرام ٣ أكتوبر ١٩٢٩ م

(٤) أنظر المقتطف ـــ مايو/أيار ١٩٠٥ م، الرواية والرواة للرافعي.

(٥) رسائل الرافعي ـــ ٢٠٦

(٦) ٦ نوفمبر ١٩٢٨ م

(٧) ٦ نوفمبر ١٩٢٨ م « خرافة طه حسين الجديدة ».

« إن أمرَ طه حسين أمرٌ هَزْلٌ، لا ينتج أكثر ممّا أَنْتَجَ من قبلُ »[1] وما أَصْدَقَهُ !

* ومنها نقدُهُ لقصيدةِ حافظ ابراهيم في الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه « العمرية » وكان الشاعر قد نظم في أمير المؤمنين قصيدةً طويلة، امتَدّ فيها نفَسُهُ الشعري، ولكنّه لم يَسْتطع أن يجمع الحكمة الى الوجدانِ من غير أن يجورَ على الروايةِ التاريخية، فتفلَّتَتْ منه بعضُ الوقائع، وتأبّتْ على شاعريته أن تجيءَ كما هي، فقد تصّرف بعبارتها بما يُوهم ويضطرب،.. قال الرافعي :

« أمّا أثرُ الروح الالهي في القصيدةِ، وما يَتَجلّى فيهِ من الحكمةِ الرائعةِ والوصفِ البارع، والإبداع والسمو وفلسفة الحياة، وما الى ذلك من مظاهرِ الروح والفكرِ،.. فهو أثرٌ ضيّقٌ جدًّا لا يكاد يُحَسُّ، على أنَّهُ مع ذلك من روعةِ تاريخ الفاروق وسمُوّه الطبيعي وروحانيّته، لا من نفس الشاعر، ولا من قوّتِهِ الذهنيّة ؛ فانَّ حافظاً لم يَعْرِف الحكمة ولا الفَلْسَفة، ولا هو ممّن يضربُ الأمثالَ للناس، ويشرح لهم معاني الحياة، ولا هو بالشاعر الذي يَغُوص وراءَ المعنى الى سِرِّهِ أو صميمِهِ، ويَتغَلْغَلُ برُوحِهِ في ضمائرِ الأشياء — كما هو حقُّ الشعر،.. وذلك هو السرُّ في أن أكثر قصائده أنفاسٌ ضيّقة، وأبياتٌ معدودةٌ،.. فلمّا أدرك أخيراً أن الشعر هو تعبيرٌ عن أسرار المعاني في هذا الكون، وأنَّهُ لذلك يجري مجرى الشرح والإفصاح عمّا في الطبيعةِ من أسرارِ النفس، وما في النفسِ من معاني الطبيعة، فيجب أن تكونَ أكثرُ قصائدِهِ طويلة، عمَدَ صاحبُنا الى الإطالةِ، ولكنّه لم يجدْ في ذهنِهِ المادّة الفلسفيّة

---

(١) الرسائل — ١٨٧

التي تُعطيهِ أسرار الأشياء، وتكشِفُ له عن آثارِ الشعر في المناسبات المعقودة بين النَّفْسِ وهذه الأسرار،. بل رأىٰ أنَّ كلَّ بضاعتِهِ حافظةٌ جيِّدة تواتيهِ شيئاً فشيئاً من الألفاظ الجزلةِ، والعباراتِ المُونَقَة، والمعاني التي طالَ عليها القدم،..

ومن هنا طالَت « العُمريّة » ؛ لأن تاريخَ الفاروق طويلُ الذيل، مبسوطُ الجناحينِ على الآفاق، وهي مع ذلك تصلحُ شاهداً على ما قدّمنا »[1].

وقال : « إنَّ حافظاً نَظَمَ وتصرّفَ في عبارةِ التاريخ، فجاءَ بعضُ كلامه مُوهِماً معانيَ غيرَ صحيحةٍ،.. والقصّةُ التي أشار إليها يمكن أن يؤخَذُ منها كما هي في نظمِهِ : أن النبيَّ ﷺ كانَ يسمَعُ الغناءَ ويشهد الرقص النسائي !! وكان أضعَفَ في الدين من عمر !!.. الخ[2].

ولكن القصّةَ في نفسها لا تفيدُ شيئاً من هذا كلِّه ؛ فالرّوايةُ أن جاريةً سوداء جاءَت النبي ﷺ، لمّا انصرَفَ من بعضِ مَغازيهِ، فقالت : إنّي نَذرتُ إن ردّكَ الله سالماً أن أضربَ بين يديكَ بالدُّفّ، قال ﷺ : إن كنتِ نذرتِ فاضْربي، وإلّا فلا،.. فجعلَتْ تضربُ ثم دَخَلَ أبو بكر ثم علي ثم عثمان ــ رضي الله عنهم ــ وهي تضربُ، فلمّا

---

(١) البيان ٤ ــ ٦ مارس/آذار ١٩١٨ م.

(٢) قال حافظ ــ ديوانه ١ ــ ٨٧

أريتَ تلك التي لله قد نذرت ... أنشودة لرسول الله تهديها
والمصطفى وأبو بكر بجانبه ... لا ينكران عليها من أغانيها
حتى إذا لاح من بُعدٍ لها عمرٌ ... خارت قواها وكاد الخوف يُرديها
قد فرَّ شيطانها لما رأى عمراً ... إن الشياطين تخشى بأس مخزيها

دخل عمر رضي الله عنه ألقَت الدفّ، وجلسَتْ عليه، فقالَ النبيّ ﷺ : إنّ الشيطانَ ليخافُ منك يا عمر. فلم يفرّ الشيطانَ، فهي عبارة مجازية،.. وهذا كانَ من عاداتِ سائر العرب إذا انقلَبَ أبطالُهم من الغزوِ، وأنّ النبيّ ﷺ لم يُرَخّصْ للجارية إلّا لتوفي نذرَها، فأيُّ شيء في هذا كلّه ؟!

كان خليقاً بحافظٍ أن يضع تاريخاً كما يكتب « كارليل » في كتابِ الأبطال »[1].

* * *

وقال في الظاهرةِ وأمثالِها وقد عَدّها من « المتون » منظومات العلوم..

« ما كنّا نظنُّ أنَّ لمتنِ « العمريّة » ذيولاً وحواشيَ، وأنّه سيحْدثُ في الأدبِ أحداثاً تفتّقُ في جوانبه، وتُطفئُ من كواكبِهِ، حتى جاءَ عبد الحليم المصري ببكريّتِهِ، وجاءَ ابراهيم العرب بعلويته، والشيخ القصري بما لا نعرفُ كيف يُسمّى : أعلوية أم سفليّة ؟!

كيفَ انْبَعَثَ القوم لتقليدِ حافظ؟! كأنّهُ لا ذوقَ لهم في الشعر، ولا بَصَر بفنونه وصناعتِهِ، ولو عَرفوا أنّ حق الشعر أن يُصْلِحَ الشاعرُ الفحل غلطةَ حافظ، ويكفّر عن سيّئتِهِ، ويَسْتَنّ للأدبِ غيرَ سنّتِهِ، فيقرضَ عمريّةً جديدة يدور لها الفلك، وينقضَ تلكَ البنية الخربة المتهدّمة، ويرفعَ مكانها صرحاً من الشعر العربي المتين، يتراءىٰ فيه الذوق والفن والقريحة، أحسن ما تكون ثلاثتها في أثرٍ من آثار البيان »[2].

* ثم قوله في « الشعر العربي » : « لا تكادُ تجدُ شِعراً عربياً بعد

(١) الرسائل ــ ٥٧

(٢) البيان ٨ ــ ٦ ــ ١٩١٨ م

القرنِ التاسع الهجري إلى أول النهضة الا رأيتَهُ صُوراً ممسُوخةً مما قبله، وكلُّ شعراء هذه القُرون ليسوا مِمّن وراءَهُ الا كالظلّ من الانسان لا وجودَ له في نفسِهِ!.. إلّا في النُّدرة حين يَسْطعُ في مرآةٍ صافية،.. فما ثَمَّ جديدٌ في الأدبِ والفنّ إلّا ولادة الشعراء وموتُهم، وإلّا تغيّر تواريخ السنين!..

ولا تكادُ تَجِدُ شعر أديبٍ متأخّرٍ يَسْتَقيمُ له أنْ يذكر في شعرِ كلّ عَصْرٍ من لدن زمننا الى صَدْر الإسلام، ثم لا تنحطُّ مرتبتُه غير كلام البارودي؛ لأن شعرَهُ هو الذي نَسَخَ آيةَ الصناعة، ودار في ألسنةِ الرواة، وكان المثَلَ المُحتَذىٰ في القوة والجزالة ودقّة التصوير وتصحيح اللُّغة؛ لأن النهضةَ الاجتماعيةَ في الشرقِ العربي كانت في علم الله مرهونةً بأوقاتها وأسبابها.

ونشأت العصابَةُ البارودِيّة وفيها إسماعيلُ صبري، وأحمد شوقي، وحافظُ والمطران، وأدركوا ما لم يُدْرِكْهُ البارودي، وجاؤوا بما لَمْ يجئْ به، واتّصلَ الشعر بعضُهُ ببعضٍ، وسارَتْ به الصحف، وتناقَلَتْه الأفواه، وأُنسِيَ ذكر البَلاغةِ وفنونها بالنشأةِ الحديثة التي جَعَلَتْ من تركِ البَلاغةِ بلاغةً؛ لأنها صادفَتْ أول الانقلاب لا غير، وبذلك بطُلَ في مصر عصرُ أبي النصر واللّيْثي والساعاتي وطبقتهم، وفي الشام عصر اليازجي والأنسي والأحدب وأضرابهم، وفي العراق عهد الفاروقي بالموصل والبزاز والتميمي وسواهم،.. واستقلَّ الشعر عربياً عَصْرياً، وخرج ــ كما يخرُجُ الفكر المخترعُ ماضياً في سبيلٍ غير محدود.. الخ»[1].

---

(١) المقتطف ــ يناير/كانون الثاني ١٩٢٦ م

ولعلَّ من أَفْضلِ هذه المقاولات جميعاً، ذلك الفصلُ الذي عقدَه لنقدِ الشعر وفلسفته[1] فقد جعل من الرافعي الناقد الحقَّ الذي يَحْتوي العصرَ حين قال :

« الشاعرُ في رأينا ذلكَ الذي يرىٰ الطبيعَةَ كلّها بعَيْنَين لهما عِشقٌ خاصّ، وفيهما غَزَلٌ على حِدَةٍ، وقد خُلِقَتَا متهيّأتين بمجموعةِ النفسِ العصبيةِ لرؤْيةِ السحر الذي لا يُرىٰ إلا بهما، بل الذي لا وُجودَ له في الطبيعةِ الحيّة لولا عَيْنَا الشاعر !.. كما لا وجودَ له في الجمالِ الحيّ لولا عينا العاشق !..

بالشعرِ تتكلَّمُ الطبيعةُ في النفس، وتتكلَّمُ النفسُ الحقيقة، وتأتي الحقيقةُ في أظرف أشكالها وأجمل معارضها، أي في البيان الذي تصنَعُهُ هذه النفسُ المُلْهَمةُ، حين تَتَلَقّىٰ النورَ من كلّ ما حَوْلَها وتعكِسُهُ في صناعةٍ نُورانيةٍ متموّجة في المعاني والكلماتِ والأنغام »[1].

وقد أثارت هذه المقالة بعض الأسئلةِ النقديّة والتعقيبات وتَداعي الخواطر، أجابَ عليها بظرفٍ وأدب جم[2].

ج ــ ومن النقد ما هو **مشاكسة والتفاف وإيقاع**، كما هو حالُ الرافعي مع عباس محمود العقاد، فقد كانَ له عليه يدٌ في وظيفتِهِ، وفي السعي معَهُ الى « الجريدة » و « الدستور » ثمَّ في دعوتِهِ للترجمة والكتابةِ في مجلةِ « البيان » وعنايتِهِ بهِ من هذه الناحية[3]؛ حتى كانَ

---

(١) أبولو ــ مايو/أيار ١٩٣٢ م
(٢) أبولو ــ مارس/آذار ١٩٣٣ م ويونيو/حزيران ١٩٣٣ م
(٣) الأقلام ١ ــ ١٩٦٧

الرافعي عند العقاد « المُنْشِيء المكين[1] الذي يَتهيّأ له من أساليبِ العربيّة والبيان ما لم يكُنْ يَتهيّأ لغيرهِ في صدر أيامها »[2].

ولكن طبيعةً في العقاد — عفا الله عنه — كانَتْ تعودُ به الى الإساءةِ من حيث يريدُ التطلُّعَ بالنقدِ أو التنطُّعَ بالعِلْم ؛ فيغمزهُ في « المؤيد » ويجعَلُ من قياسِهِ لابن أبي العوجاء والحيوانِ المتنفس[3] « فائدةً من أفكوهةٍ » زعمَ عامر العقاد أن الرافعي تداركَ القياسَ بهامش[4].

ويعود بعد تركه « البيان » وانضمامِهِ الى سياسة سعد زغلول والوفد، يؤزّهُ بقارصِ الكلام، ويُؤْذيهِ بشدّة الوطأةِ عليه في « الديوان » ينعتُه بأنه عاميّ من فرعِهِ إلى قدمِهِ،.. وأنّه يسرقُ مقولاتِهِ !![5]

أمّا الرافعي فيكتفي بإهماله مرّتين، ولما عادَ في الثالثة بلهجةٍ استعلائية يدعو للرافعي بأن يجزىٰ على نيّتِهِ الحسَنَة فيما ذهب إليهِ من تأليف كتاب (إعجاز القرآن)،.. وينزلق في رأيٍ يتورَّطُ فيه الى ما يُشْبهُ اختلالَ التوازن أو المروقَ من الاعتقادِ بالقرآن[6].

وفي امتناع « البلاغ » عن نشر ردّ الرافعي عليه، ثُمَّ في مجابهةِ العقاد للرافعي واتّهامهِ بتزوير كتاب سعد زغلول في تقريظِ كتاب الإعجاز، في إدارة « المقتطف ».. كلُّ أولئك قد أوغَرَ صدر الرافعي،

---

(١) العقاد — الرسالة — ٢٦١ — ٣ يونية ١٩٤٠ م
(٢) المؤيد ٤ مايو/أيار ١٩١٤ م والعريان — ١٥
(٣) المؤيد ١٦ مايو ١٩١٤ م
(٤) إعجاز القرآن — ٢٠٩، عامر العقاد — العقاد والتجديد، ٢٧٦، وما هنالك من هامش!!
(٥) الديوان ج ٢ — ٧٩
(٦) ساعات بين الكتب — ١١ وقد أعاد صياغة العبارة بعد تنبيه الرافعي له.

وجَعَلَ الحِقْدَ فيه يَتَلَهَّبُ، فَيَسْتعِدُّ له بحملةٍ نقديّة لها مكانها في تاريخ الأدب الحديث؛ إذ وضَعَ العقاد ــ شعره وأدبَهُ ــ «على السَّفُّود»[1] بعد صدورِ ديوانه ذي الأجزاء الأربعة، ثم راحَ يقلّبُه على الجَمْرِ، يَشْويهِ ويَلْهُو به، كأنه يَعْبَثُ بالنقد والعقاد معاً!!

ولما أصدر العقاد «وحي الأربعين» تابَعَهُ بنقدٍ آخر، أفقَدَهُ صوابَهُ، وتركه لا يلوي على شيء غير السباب والبذاءة..

ثم لاحقه في دراستِهِ لابنِ الرومي الشاعر.. وعادَ فسخرَ منه ومن طه حسين حين حاولَ هذا أن يقلّدَهُ «إمارةَ الشعر» بعد أحمد شوقي..

وقد أجهز عليه أخيراً وهو يسقط سياسياً خارجاً على الوفد «أحمق دولة»[2].

* * *

* ومنه منازلته للدكتور زكي مبارك بمقالات «صعاليك الصحافة» ردًّا على ما جاءَ في كلام الدكتور من نقدِ «وحي القلم» والتعريض بأدبِ الإنشاءِ الرافعي[3].

إنَّ مقالات النقد هذه ــ على ما فيها من العِلْم والفن والضَّلاعَة الأدبية والبراعة في تناولها أسلوباً وإدارةَ كلام ــ كانَتْ مشاكسةً والتفافاً

---

(١) في العصور ١٩٣٠ ــ ١٩٣١.
(٢) الأسبوع، والبلاغ، وكوكب الشرق وغيرها من صحف ذلك العهد، راجع كتابنا (الرافعي الناقد).
(٣) أنظر «المصري» لعام ١٩٣٧ ومجلة الرسالة وعاين وحي القلم ٣ ــ ١٨٤ ط ــ المعارف.

وإيقاعاً بالعقاد أديباً وشاعراً، والهزءَ بالمبارك، والسخرية منهما ومن غيرِهما !..

د ـــ ومنه «**التقويم**»، وما يكون تَوْجيهاً وثباتاً على الصراط،.. ويَتَجلّىٰ الرافعي في ذلك أروعَ ما يكون الأديبُ في دعوتِهِ، وصاحبُ الرأي في مذهبِهِ، والفقيهُ في حرصِهِ وتفانيه، والإمامُ في القُدْوة،.. ومن ذلك :

١ ـــ إجابته في نهضةِ اللغة العربية وامتيازها، وفيها جاءَتْ نبوءَتُهُ بقيام الوحدة العربيةِ إذ قال : .. وما أراها إلّا سَتَنْهض في مصر والشام نَهْضَةَ مَن يَسْتجمع، وربما شَهِدَ الناسُ ما بين العراق الى الأطلنطق « جُمهورية اللغة العربية » وما هو ببعيد والله غالبٌ على أمره »[١].

٢ ـــ رأيه في نهضةِ الشرق العربي وقوله : « الرأي الذي أراهُ أنّ نهضةَ هذا الشرق العربي لا تُعدُّ قائمةً على أساسٍ وطيد إلّا إذا نَهَضَ بِها الركنان الخالدان : الدينُ الإسلامي واللّغةُ العربية، وما عداهما فعسىٰ أن لا تكونَ له قيمةٌ في حُكْمِ الزمن الذي لا يَقْطَعُ بحكمِهِ على شيءٍ إلّا بشاهدين من المبدأ والنهاية »[٢].

٣ ـــ ومنه رأيه في **المرأة**، وما يَحْسُنُ أن تَسْتبقي من أخلاقِها، وما تَقْتنيه من شقيقتها الغربية وقوله :

« الذي يجبُ أن تحتفظ به الشرقياتُ ثلاثة ؛ الحياءُ الصادقُ، والعِفّةُ

---

(١) الهلال ـــ فبراير/شباط ١٩٢٠ م ويريد بجمهورية العربية أن تكون مفاصحة جمهور الأمة بها في وحدة اللّسان والفكر والسداد.

(٢) الهلال ـــ يونية/حزيران ١٩٢٣ م

الصحيحةُ، والخضوعُ الجميل، الذي هو مظهر الحبّ لمَن يجبُ له الحب».. وهذه الأخلاقُ لا تقوم إلا بثلاثةٍ أخرى ؛ تصاوُنُ المرأةِ عن مخالطةِ الرجال إلّا في ضرورةٍ ماسّة، وحرصُها أشدّ الحرصِ على دينها، والصبرُ أقوى الصبر على مكارهِ البيت.

أمّا ما يحسُنُ أن تَقْتَبِسَهُ نساؤنا من المرأةِ الغربية، فالعلْمُ وحده، وما هو من نتائجه ؛ كالتدبير والحزم والبصر بأمور الحياة، وحسن التصرّف فيها »[1].

٤ — ومنه في **الكتب** التي أفادَتْهُ، والكتُب المحتاج إليها في الإعداد، إذ يقول : « في أيامِ التحصيل كنتُ أقرأ كلَّ ما أصابتْهُ يدي، وكنْتُ أكثرُ من الملاحَظةِ، وأدقّقُ فيها، فلا أعرفُ كتاباً أنا منه أكثرَ ممّا أنا في غيرِه».. ولكنْ إن يكن كتاباً بعينِهِ فَلَعلَّهُ في الحديثِ اسمهُ « الجامع الصغير » كنت أحضّر به درس أبي رحمه الله.[2]

لا بُدَّ من كتب الآداب الدينيّة قبل سواها، فاذا استوفى الشابُ منها قانونَ ضميره، فهو من بعدُ أبصرُ بحاجتِهِ، ثم ليقرأ ما يشاءُ — وليكُنْ عربيًّا[3] فالصحّةُ تجعَلُ كلَّ غِذاءٍ صحة»..

كما لا بدَّ من تهذيبِ المكتبة تهذيباً فَلْسفيًّا[4]، وبيان أسرار

---

(١) الهلال — ديسمبر/كانون الأول ١٩٢٤ م — وما ضرّ لو قال : تأخذه — بدل هذه الكلمة البلاغية تَقْتَبِسُهُ.

(٢) الهلال — ديسمبر/كانون الثاني ١٩٢٧.

(٣) لاحظ دقّة الإحساس القومي عنده.

(٤) أنظر كيف أغارت نعمات أحمد فؤاد على الفكرة، وأوردتها في مقدمةِ ملفقها في « أدب الرافعي »!

حضارة الشرق في أديانِه وآدابه[1]، ونقلِ أسمى ما في الأدبِ الأوربي،.. ولو أحياني الله حتى أرىٰ لقومي مجمَعةً ــ أنسكلوبيديا ــ عربية، لكنْتُ سعيداً حقَّ سعيد، فلنحرصْ على أن نساعِدَ بوضعِ ما يعَدُّ من موادِّها وأجزائها »[2].

* * *

٥ ــ ومنه رأيه في **الحضارة الغربيّة** إذ يقول :

« هذه الحضارةُ أطْلَقَت العقولَ تجدّ وتبدع، وأطلَقَتْ من ورائها الأهواءَ تَلَذُّ وتَستمتع وتَشْتهي ؛ فضَربَت الخير بالشرّ ضربةً لم تَقتُل، ولكنّها تركت الآثار التي هي سبَبُ القَتْلِ، إذ لا تَزالُ تمُدُّ مدَّهُ !.. حتى تنتهي الى غايتها، وذلكَ هو السرّ في أنه كلّما تقادمَت الأزمنةُ على هذهِ الحضارة ضجَّ أهلُها، وأحسّوا عِلَلاً اجتماعية لم تكُنْ من قبلُ،..

إنّي لا أرىٰ أكثرَ مظاهرِ هذه الحضارة إلّا أسلحةً قاتلة ؛ تَقْتُلُ الخيرَ والرَّحْمةَ في قُلوبِ الناس ؛ فهي ترفَعُ تكاليفَ الحياة وتزيدُ فيها، وتعمر آمالها، فتُنشِيء بذلك الفقر المدقع، وتخرجُ منه الفوضٰى والاختلال، وتحدثُ به الأخلاق السافلة.

والروحُ الانسانيةُ متى أصبحتْ موتورة ساخِطةً متبرّمةً بأسبابٍ مختلفةٍ كأسبابِ هذه المدنيّة من سياسية واجتماعية ووطنيّة، لم تكنْ روحَ الحياةِ، ولكن روحَ القتل وما في حكْمِهِ، ومن ثمّ فلا بُدّ في هذه الحضارة من انفجارات حربيّة مستمرّة، ولا بُدَّ لها أن تجد مَن تقتله

(١) تدارك الأنصار ذلك برؤيةٍ مستنيرة للقرآن الكريم، ولماذا نَزَلَت الأديان في الجزيرة العربية!
(٢) الهلال ــ يناير/كانون الثاني ١٩٢٧ م

ومَن تظلِمُه ومَن تستعبدُه».. وإذا تحاجزت الدولُ وتتاركت زمناً، فإنما يُسْمِنُ بعضُها بعضاً في مراعي السّلْمِ والعيش، وكلٌّ أمةٍ عينُها على شَحْمِ الأخرىٰ »[1].

٦ ـــ ومنها قالتهُ في **القبعة**، وكيفَ أخذ على المُقلّدين لمن قلّدوا أوربة من الكماليين وبقيّة الأعجام ـــ الايرانية والأفغان آنذاك، إذ يقول :

« نحن نبتاعُ ما شِئنا منذُ أصبح العالم سُوقاً واحدة».. فحِذائي مثلاً تجد فيه متانَة الحربية الألمانية، وثيابي تكادُ تستعمر جسْمي لأنها من انجلترا».. وما القبعةُ على رأس الشرقي إلّا حدٌّ طَمَسَ حدًّا، وفكرةٌ هزمَتْ فكرةً».. إنّها الفوضىٰ ما دامَ الحدُّ لا موضعَ له في التمييزِ ولا مقرّ له في العرف.

إنّ « الطربوش » يوناني معرّب فهو في ألفاظِ الحياة يُلْهمنا ما أودَعَه التاريخ من قوميتنا ومعاني أسلافِنا، فيه سِرُّ القوة التي تجمعُنا حول المعاني الاعتباريّة تتمثّلُ فيه تمثُّلَ الوطن في الراية»..

ومن سخافة التقليدِ والغَفْلة أن ننزع الى ما اتّخذَهُ غيرها فنشأوا على الوقايةِ من شمسِ أرضنا في حين يجبُ أن نجعَلَ بيننا وبين الشمس ونورِها وحرِّها ملاءمة؛ فنبرزَ لها ونعتادها من الصِّغَر ونتلقّاها بوجوهِنا.. الخ »[2].

٧ ـــ ومنه قوله في **التجديد والمجدّدين** :

« أنتُمْ ويحكُمْ تقولونَ : العلْمُ، والفنّ، والشهرةُ، والغريزةُ، والعاطفةُ، والمرأةُ، وحرّيةُ الفكر، واستقلال الرأي، ونبذُ التقاليد، وكسر القيود»..

---

(١) الهلال ـــ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٢٦ م

(٢) الهلال ـــ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٢٧ م

وإلى آخرها فهذا كلُّه حَسَنٌ مقبولٌ سائغ إن كانَ مقالاً أو قصةً !..

لم أرَ الى الآن من آثارِ المجدّدين شيئاً ذا قيمةٍ، لا في علمٍ ولا في أدب !.. ما كان من هُراءٍ وتقليدٍ زائف فهو من عندهم، وما كان جيداً فهو عندَهم كالنفائس في ملكِ اللّص، لها اعتباران ــ إن كان أحدهما عند مقتنيهما، فالآخر عند القاضي !..

ليسَ عندنا مجدّدٌ بمعنى التجديد على حقّه، وعلى مذهبهِ وعلى مقدارِهِ، وإنما هي فَوْضى، أولئك بعض أشخاصها، وتلكَ بعض أعمالها.. فإن تواضعَ التجديدُ وسمّى نفسَهُ تجربةً لطريقة من الاصلاح، لم يعُدِ الجدالُ بينَهُ وبيننا، وإنما يكون بينَهُ وبين سُنَنِ الحياة في المصالح العامة، هي تقرأ وتثبت، أو هي تردُّه فتنفيهِ.. الخ »[1].

ويوم ألحّتْ عليه « الهلال » بالسؤال، بادرها بالجواب :

« أقولُ ولا أبالي : إنّنا انتهينا من نهضتِنا بقومٍ من المترجمين[2] قد احترفوا الترجمةَ والنقل من لُغاتِ أوربة، فصنعتهُم الترجمة من حيثُ يدرون ولا يَدْرون، صنعةَ تقليدٍ محض، ومتابَعةٍ مُسْتَعْبدة، وأصبح العقلُ فيهم ــ بحكمِ العادة والطبيعة ــ إذا فكّر انجذبَ الى ذلك الأصل، لا يخرُج عليه، ولا يتحوّلُ عنه، فهم بذلك خَطرٌ أي خطرٍ على الشعب وقوميّته، وذاتيّته وخصائصه،.. ويوشِك إذا هو أطاعَهم الى ما يدعونَ إليه ــ أن.. أن يُترجموه »[3].

---

(١) الهلال ــ آذار/مارس ١٩٢٩م

(٢) مثل طه حسين ونقله عن الفرنسية، وعباس العقاد وأخذهِ من الانجليزية، وسلامة موسى وابتساره بمقدارِ فهمه ــ وغيرهم ممن يتابعهم في الترجمة بهذا الشأن أو ذاك!

(٣) الهلال ــ مايو/أيار ١٩٢٤ م، وقد كان مترجموه طرائق في التفكير يتبدد فيها ولا يجتمع!

ومنه رأيه في **حال الأديب وعيشه**، إذ يقول:

« إن الأديبَ العربي يجبُ أن يَجْمعَ البلاغةَ العالية في ثلاثٍ من بيانِهِ وفكره وقَلْبه ؛ فالبيانُ ، اللُّغة وعلومُها، وآدابُها وتاريخُ آدابها، والفكرة العلوم والفلسفة الأدبية والخيال المُلْهم، وللقَلْبِ الحِسُّ الدقيق الذي يكون كالصّلة بين الأشياءِ ومبدعها، فهي تمتَدُّ بطرفَيها من قلب الإنسانِ العظيم الى أعلىٰ وإلى الطبيعة »[1].

ويوجّه ذلك الى الشباب بقوله :

« الأديب في رأيي يجبُ أن يكونَ شاعِراً كاتباً، مُحيطاً إحاطةً دقيقة فلسفيّة بالعربية وآدابها، ولا بُدّ لَهُ من فكرٍ مُلْهم مُستقلّ لا يُسْتَعبَدُ للترجمةِ، ولا للنقل ولا للتلصُّص،.. ولا بُدّ له من قلبٍ كبيرٍ حسّاس ؛ يفرح بإيمان، ويحزن بإيمان، فالأديب كما ترىٰ يُصنع بأقدارِ الله ؛ لأنه في نفسِه قَدرٌ على قومهِ، فما النصائح التي تجعَلُ بها جهازك العصبيّ مثلاً جهازاً مُلْهماً قريباً من الوحي ! »[1]..

وكذلك رأيه في **القصّة**، وقوله :

« إن مَن يحترفون كتابةَ القصص هم في الأدبِ ما هم، كانَ من أثرِ قصصهم ما يتخبّطُ فيه العالم اليومَ من فوضىٰ الغرائز.

هذه الغرائز، والفوضىٰ الممقوتة التي لو حقّقْتَها في النفوس لما رأيتَها إلاّ عاميّةً منحطّة، تَتَسكّع فيها النفسُ مشردةً في طرق رذائلها،.. هذا هو فَنُّ تلفيق القصص »[2].

---

(١) المجلة الجديدة ـــ مايو/أيار ١٩٣١ م.
(٢) الرسالة ـــ ٤٣

ومَن ينظر في رسائله الخاصّة الى محبّ الدين الخطيب، ومحمود أبي ريّة، وغيرهما، يقفُ على آراء مماثلة لما تقدّم، وربما زادَ عليها من صراحتهِ بآراء أخرى في موضوعاتٍ وجوانب من الحياةِ الثقافية والأدب والاجتماع تؤلّفُ بينها مجموعةً من المقالات النقدية التي لا تخلو من تقويمٍ وتوجيه وإعداد.

* * *

٤ — **المقالة البيانيّة** : هي مقالة أدبيّةٌ متميّزة ؛ تتّخذ الفكرةَ أساساً، وتديرُ الأسلوبَ صياغة بيانية مثيلة من حول الفكرة، وتجعَلُ الفنّ والجمال والإشراقَ بالعبارة وانتقاءَ الكلمات وسيلةً ، تشرِقُ فيها المقالةُ، فتشفُّ عن الأصالة — وإن لم تخلُ من الصنْعةِ أحياناً، ولا سيما حين تظهَرُ مقدِرةُ الكاتب وروعةُ أسلوبهِ، وكيف تطبع نثره وتعرّف به.

حاول الرافعي المقالة البيانية في « ملكةِ الإنشاء، والحُسْن المصنوع »، وما استعاضَ عنه بكتابهِ « حديث القمر » تلك المقالة التي صَرَفَ فيها وجه الحديث الى القمر، ودار مع الحضارة والحياة والقومية في جوانبها[1].

ثم عادَ إليها محاولاً كتابةَ السيرة النبوية الشريفة في « الكتاب النبوي »[2] بأسلوبٍ جديد يفردُه لهذا الموضوع الجليل.

على أن المقالة البيانيّة قد حاولها وعالجَها رعيلٌ من كتّاب العصر

---

(١) طبع عام ١٣٣٠ هـ — ١٩١١ م وفي الباب الثاني دراسة فيه.

(٢) لقد جهّزت هذا الكتاب الخطير وأودعته الأسرة الرافعية هدية.

فيهم إبراهيم اليازجي ومحمد المويلحي ومصطفى لطفي المنفلوطي وعبد القادر المغربي ومحمد كرد علي وعبد العزيز البشري، وشكيب ارسلان، وأحمد حسن الزيات، وعادل الغضبان، يقول الرافعي :

« لا وجود للمقالةِ البيانيّةِ إلّا في المعاني التي أشتمَلَتْ عليها، يُقيمها الكاتبُ على حدودٍ، ويديرها على طريقة، مُصيباً بألفاظِهِ مواقع الشعورِ، مثيراً بها مكامِنَ الخيال، آخِذاً بوزن، تاركاً بوزن ؛ لتأخذَ النفس كما يشاءُ وتترك.

ونقَل حقائق الدنيا نقلاً صحيحاً الى الكتابةِ أو الشعر، هو انتزاعُها من الحياة في أسلوبٍ، وإظهارُها للحياةِ في أسلوب آخر يكون أوفى وأرقّ وأجمل.

فالكاتبُ الحقُّ أداةٌ في يدِ القوة المصوّرة لهذا الوجود، تصوّر به شيئاً من أعمالها فنًّا من التصوير،.. وإذا اختير الكاتبُ لرسالةٍ ما شَعَر بقوّةٍ تفرِضُ نفسَها عليه، منها سِنادُ رأيه، ومنها إقامةُ برهانِهِ، ومنها جمالُ ما يأتي به فيكون إنساناً لأعمالِهِ وأعمالِها جميعاً.

هذه القوةُ هي التي تجعَلُ اللَّفْظَةَ المفردة في ذهنِهِ معنًى تامًّا، وتحوّلُ الجملةَ الصغيرة إلى قصّة،.. وهي هي التي تميّز طريقَتَهُ وأسلوبَهُ، وكما خَلقَ البيانَ من الإشعاع تضع الإشعاعَ في بيانِهِ. ولا بدّ من البيان في الطبائع المُلْهمة ليتّسع به التصرُّف،.. ومن ثمَّ فكثرة الصور البيانية الجميلةِ للحقيقةِ هي كلُّ ما يمكنُ أو يَتَسنَّى من طريقةِ تعريفها للإنسانيّة».

رُبّما عابُوا السموَّ الأدبي بأنّه قليلٌ، ولكن الخير كذلك، وبأنّه مخالفٌ

ولكن الحق كذلك، وبأنه مُحَيِّر، ولكن الحُسْن كذلك، وبأنّه كثيرُ التكاليف، ولكنَّ الحريّة كذلك »[1].

ويكادُ المرءُ يُحِسُّ بوَزنٍ خاص في المقالةِ البيانيّة، ولا سيّما الرافعية منها، لم يتهيّأ له خليلٌ آخر كالفراهيدي يكتشِفُ له عروضَهُ وأوزانه،.. وقد حدّثني الزياتُ رحمه الله عن مثلِ ذلك يعتريه ــ وهو يعِدُّ نفسَهُ لكتابة المقالة البيانيّة !.

كما حدّثني عادل الغضبان الطيِّب الذكر بأنه « يحتَفِلُ للمقالةِ الأدبية ــ البيانيّة، ويتهيّأ لها، ويَسْتدعي أسبابَها، ويغالِبُ مؤثراتها بأكثر مما ينفعلُ به في محاولةِ نظم قصيدة شعرية ».

* * *

ثانياً : المقالة الاجتماعية

لم تكن الكتابةُ في الموضوعاتِ الاجتماعيةِ آداباً وقصَصًا بذاتِ بالٍ في فنون الآداب العربية، إلّا ما يجيءُ منها في أخبارِ الصعلكة والفتوة وغيرها من أحوالِ الحياة والفرُوسيّةِ المعروفة، وهي بمكانها تؤلّفُ جزءاً من التاريخ. وقد يَحْسَبُ بعضُهم أنّ ذلك نَقْصٌ في فنون الأدب العربي، وما دَرَوْا أنّ الأمّة العربية كانَتْ غير الأمم الأُخرى تجربةً وواقعاً حقًّا، وما بها حاجة الى ظنونِ القَصصَ ولا فَلْسفةِ (التخاريف) !.

على أنّ القرآن الكريم والفقه الاسلامي الجليل كان قد أَعَدَّ الاجتماعَ

---

(١) وحي القلم ١ ــ ٦

الإنساني من النظام والشريعة، ما يكفَلُ حَصْرَ نواحيه العلميّة في أضيقِ نطاقٍ من إيجابيّةِ الزكوات والكفّارات، ولم يَدَع الاجتماعَ ضُلّةً يحتاجُ الى مَن يتصدَّقُ عليه بعطايا الأدبِ والقصص التي تدورُ به دورانها في الظنون وافتعالِ المواقف والمشابهات والأمثال. فقد أضحىٰ ذلك حقيقةً واقعية ؛ تلزمُ الراعي والرعيّة، بحيثُ لم يعُدْ للأديبِ ذلك المجالُ الوجداني الذي يَسْتطيع فيه تصوير السُّوءِ وفساد الاجتماع في التفاوت ما بين الفقر والغنىٰ أو الرِّفْعَةِ والانحطاط.. وإنّما كان الفقيهُ يتناولُ ذلك بقانونٍ نافذٍ على الجميع،.. وإنْ بقيَتْ معانيها تلُوحُ هنا وهناك في الأمداحِ والأهاجِي بخاصّة، وما يَلوحُ من نَفَج الحديثِ.

ثم لما كان من انْفِلاتِ النظام وتصدُّعِ الكيانِ الاجتماعي للمسلمين قاطبةً ــ وقد أصبح العربُ كالأمم الأخرىٰ في هاتيك الأسْواء، نَسُوا الله فَأنْساهُمْ أنفُسَهم، رأوا في آدابِ الأمم الأخرىٰ شيئاً مما يتمثّلُ أمامَ أعيُنهم من اضْطراب وتفاوتٍ بين الناس،..

وكان للانفعال العاطفي في مثلِ هذه المناظرِ أثَرُه الأول في المضمار،.. كما كانَ للترجمةِ آثارٌ من أدبِ الغرب، ولا سيّما لـ « فيكتور هيجو » في البائسين، وتولستوي في الكادحين، وشكسبير في العامّة، وجوته في الذاتِ، وغيرهم في الأداءِ النفسي، وفيما حاولُوه،.. فقد انبرىٰ مصطفى لطفي المنفلوطي يَنْسِجُ على ذلك المنوال « نظراتٍ » له في الأشياء، ويصوغ « عَبَراتِ » المُعْدمين والفقراء،.. وكان غير المنفلوطي،.. ممّا كانَ أثره في أدبِ الرافعي بادياً من هذه الناحية أيضاً، كما كان للعصرِ الذي غشي الناسَ بالقَصص والروايات المَنْسُوخات في الصحفِ، والمنشورات أثره الآخر.

وكان لجمعية (الإحسان) مِنبرُها الذي كان الرافعي يقِفُ عليه خَطيباً ومحدّثاً في معظم الأسواقِ التي تَعْتَمدُها الجمعيّةُ للأغراضِ الاجتماعيّة التي تتوخّاها، ومنها مساعدةُ الفقراء والمُعْوزين من الأيامىٰ واليتامىٰ والمساكين !..

ثم لما كانَ من سِنيّ الحرب السُّودِ التي مرّتْ بها الديار الاسلامية في ضَراوتها ومَسْغبَتها ومتربتها فقد راحَ يكتب المقالاتِ **الاجتماعية** في الفقرِ والفقراء أولاً، وقد أدارَ الموضوع من حول المبادىء والنُّظُم التي مرّتْ بها البشرية في معالجةِ هذه الظاهرة حتّى عصرِنا هذا عصرِ الاشتراكية العلمية — على حدّ تعبيره[1] فَوَجَدَ أنّها جميعاً لم تَسْتَطع تحويلَ هذه الظاهرة أو إنهائها، وإنما استطاعَ النظامُ الإسلامي أن يخفّفَ من وَطْأتِها، ويحصرها في أضيقِ نِطاق، حين آثرَ أن لا يكونَ المالُ دُولَة بينَ الأغنياء، فحدَّ بذلك الطغيانَ، وجَعَلَ الزكواتِ والكفارات ومصالح الأمّة المرسلةِ أساسَ الحياةِ الكريمة ومادّة الإصلاحِ في كلّ اضطراب،..

ثم قال: « إنَّ أفقرَ الفُقراءِ ليسَ هو الذي لا يجدُ غذاءَ بطِنِهِ، ولكنّهُ الذي لا يَستطيعُ أن يجدَ غذاء شعوره. فلا تَحْسَبُوا أنّ مع جُنون الضمير ومرضِهِ سعادةً وراحة؛ لأنّ لذةَ المالِ لا تتجاوزُ الحواس، فهو يَشْتري لها كلّ شيءٍ مما تَشْتهي، ولكنّهُ لا يَسْتطيع أن يُنيلَ القلبَ شيئاً إلّا إذا اشْترىٰ له الخيرَ والفضيلة ».

إنّه يريدُ إذكاءَ الشُّعورِ ويقظةَ الضمير وعقلَ الفَقْرِ، كي لا تكونَ

---

(١) المقتطف — نوفمبر وديسمبر ١٩١٢ م — وهي التي غدت من ثمّ مادة كتاب المساكين — ٧٦

إرادةُ التغيير بَلْهاءَ عَشْواء تَتعبَّدُها شَهوةُ الانتقام ــ كما يحدُثُ في البلدان التي مرِضَتْ فيها النفوس.

« أنظُروا في باطنِ الإنسانِ بالفَضيلةِ التي هي من نُورِ الله، وبالحقيقةِ التي هي من نُورِ الطبيعة، فإنّكم لا تَرَوْنَ حقيقةَ الغنى تَبْتَعِدُ عن حقيقةِ الفقرِ إلّا بمقدار مَلْءِ هذِهِ المعدة ! »[1].

ومن هنا نظَرَ الى الإحسانِ الاجتماعي حين قال :

« ليسَ يذهَبُ بإحسانِنَا ضَعْفُه أو قِلَّتُهُ.. فالقَليلُ لو اجْتمعَ صار كثيراً، ولا يُخفي ثَمَرتَهُ أنّهُ هو نفسُهُ غيرُ ظاهرٍ ؛ فإنَّ كلّ شيء يُؤتي نتائجَهُ الطبيعيّةَ ظَهَر أو خفِي. وما الإحْسانُ إلّا ضَرْبٌ من ضُروبِ الإصلاح الاجتماعي،.. ولكنَّ الذي جعَلَ الصحيح فاسداً والموجُودَ ضائِعاً، والمُثْمِر مُنْقَطِعاً، وجَعَلَ حَلَّ أمرٍ في أيدينا يكادُ يكون عَبَثاً من العَبَثِ، إنّما هو شيءٌ واحدٌ : هو جَهْلُنا كيفَ يكونُ الإحسان ! »[2]

ثم هو يَضَعُ يدَهُ على مَكْمَنِ الداء الذي هو سِرُّ الفَسَاد بمثل قوله :

« هذا الشرقُ الذي هو مَهْدُ التاريخ، هو كذلك مهدُ الأديان، ومَبْعثُ الفضائل، ولكنّ أهلَهُ قد أضاعُوا أنفُسَهم وأضاعُوهُ،.. فإذا رأوا الفضيلةَ قالوا : غربية، وإذا رأُوا الرذيلةَ قالوا : شرقيّة، وأهالُوا بكلّ ذَنْبٍ على الشرق، كأنّ الأرض تنبت الرّجالَ، وتُهيِّءُ لَهُم العَمَلَ، وتُوحي إليهم بالمخْترعاتِ،.. وكأنّنا نريدُ أن تكونَ هذه الأرضُ مِثْلَنا في التقليد !..

---

(١) العبارة تشبه إشارة بدويّة تقول : ملءُ هذه وسترُ هذي وما بينهما فتر.

(٢) المقتطف ــ سبتمبر/أيلول ١٩١٤ م.

إنَّ أكبرَ رذائلنا أنّنا لا نتّحدُ ؛ لأنّنا نجهَلُ التَّربيةَ الاجتماعيةَ، وقد تخلَّقْنا بالأخلاقِ الفرديّةِ، فصارَ الألفُ والأكثر من الألفِ لا يُحسِنُون عَمَلَ اثنينِ مُتّحدين »[1].

وكانَتْ له من بَعْدُ مقالاته الاجتماعية في أولادِ الشوارع، والجمالِ البائس، والرّبيطة والتبرّج والتخنّث والطائشة وغيرها — وقد تَنَقّل فيها بين الأدَبِ والقصّة والفقه والفكر في كلّ مادةٍ جديرة بالتأمُّلِ والإعجاب.

ومنها قولُه في **أزمةِ الزواج** :

« كلُّ ما يَعْتَذِرُ به الشبّانُ في إحجامهم عن الزواج، فإنّما هو أعْذارٌ مُلَفّقَةٌ من خداع أنفُسِهم ؛ فلا جَهْلُ الفتياتِ، ولا فداحةُ المهورِ، ولا طبيعةُ العصر، ولا مَنْعُ الاختلاط، ولا ذلك كلّه، ولا بعضُ ذلك، ولا أضعافُ ذلك ممّا يَصْلُحُ عُذراً إلّا عند النَّفْسِ الواهيةِ المُنْحطّةِ ؛ التي تتَّخِذُ من الأوهامِ حقائق، وتُحاوِلُ أن تطْفِئَ النارَ بالقشّ »[2].

ومنها مقالتُه البليغة في **التّدْخين** وقولُه فيها:

« أيّها الشبابُ : إنّما الحياةُ هي القُوّةُ على الحياةِ، ولَيْسَ من شيءٍ يُعينكم على أهاويلِ هذا الزمن العَصَبيّ إلّا قوّةُ العَصَب فاحْفَظوها سَليمةً باقيةً على قانونِها الطبيعي، وجَنّبوها المُسْكراتِ والمُخَدّراتِ والمُدَخّناتِ، واعتَبروا هذه الرذائلَ في صورها الحيّة ؛ فانّكُمْ لن تجدوا في أهلِها إلّا العبوديةَ للعادةِ الضارّة المُسْتحكمةِ،.. وأنتم تُريدونَ القُوّةَ الحيّة الغالبة

---

(١) المقتطف — سبتمبر/أيلول ١٩١٤ م

(٢) الوادي — ٢٨ مارس/آذار ١٩٣٢ م

للخُمول البليد، وأنتمُ تريدون النّشاطَ المتوثّبَ، وما هذه الرذائلُ إلّا خروجٌ من الإنسانِ على قانون الطبيعة، والطبيعةُ تعاقبُ على جرائمها، كما تعاقبُ الحكومةُ على جرائمِ الإنسانيّة.

وكما تُلقي الحكومةُ بالمجرمينَ في سجْنِ الأشغالِ الشاقّةِ بحَبْسِهم عن الحُرّية والاسْتمتاع بِالدُّنيا، تُلقي الطبيعةُ السّكّيرينَ والمُدْمِنينَ والمُدَخّنين في سجْنِ الأمراضِ الشاذّة؛ بِحَبْسِهم عن العافيةِ والتمتّعِ بالحياةِ[1] ﴿ **إنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النّاسَ شَيْئاً ولكِنَّ الناس أنفُسَهم يَظلمون** ﴾[2] الآية ».

ومنها مقالتُه في **النّفاق** وقولُه فيها:

« يخلُقَ اللهُ كلَّ شيء، ليكونَ شَيْئاً على الأَصْلِ البَيّنِ الذي خُلِقَ عليهِ، وللأمرِ المُيَسّرِ الذي خُلِقَ لَهُ، وهو صريحٌ واضحٌ من جِهَتَيْهِ؛ فالأشياءُ في الطبيعةِ ما شاءَ اللهُ تَضُرُّ لأنّها ضارّةٌ، أو تنفَعُ لأنّها نافِعةٌ.. إلا المنافق!. فانَّهُ مخلوقٌ في الإنسانيّةِ للنَّفْع فضرّ، وفي الحيوانيّة خُلِقَ للضُرّ فنفَعَ، وفي الرَّذيلةِ خُلِقَ تَلْويناً للرّذيلة.. فهو مختلفٌ على السِرّ والعَلانية، وعلى المذهبِ والغايةِ، وعلى المدْخَلِ والمخرج، وعلى القَوْل والعَمَلِ.. ومختلفٌ حتى في كونِهِ مُخْتلفاً!.. ولو مدَدْتَ عَيْنَيكَ في عَيْنَيهِ لَوَجَدْتَهُ يَتخاوَصُ باحداهما — كأنما ينظرُ منك في عين الشمس؛ إذ تأبىٰ إحداهما إلّا أن تنافقَ ليظهَرَ النفاقُ عليها.. وهو من الّذين يَمْكرُونَ السَّيّئاتِ لينتَهوا منها الى الحَسَناتِ، ويُقاربون الذنب لِيَخلُصُوا منه الى الحسد، ويَسْفِلون مع الناس ليرتفعوا، ويُطاطِئون رِقابَهم لتكونَ قَنْطرة تمرُّ عليها أغراضُهُمْ.. ومهما انْتَحلوا من المعايير وقولهم إنَّ

(١) مقدمة كتاب (الدخينة) للآنسة الزهرة.

(٢) الآية — ٤٤ سورة يونس.

ذلكَ سياسة ومُخالفَةٌ وظَرْفٌ وذَوْقٌ، فهم لا يأتونَ كلَّ ذلك إلّا لأنّ ذلك ــ عِلِمَ اللهُ ــ هو النّفاق »[1].

ومنها مقالتُه في « **أَرْمَلةِ الحكومة** » الكناية الظريفة التي يقول فيها:

« ذلك هو الشابُ الزائفُ، يُحْسَبُ في الرّجال كذِباً وزوراً ؛ إذ لا تكتمِلُ الرجولةُ بتكوينها حتى تكمُلَ بمعاني تكْوينها،.. وأخصُّ هذه المعاني إنشاءُ الأسْرة، والقيامُ عليها ؛ أي مخاطرة الرجل في زَمنِهِ الاجتماعي، ووجودِهِ القومي، فلا يَعيشُ غريباً عنهُ وهو معدودٌ فيهِ، ولا يكونُ مظهراً لقوّةِ الجنس القوي هاربةٌ هروبَ الجُبنِ من حملِ ضَعْفِ الجنس الآخر المحتمي بها. ولا لمروءةِ العشير مُتَبرّئةً تبرُّؤَ النّذالةِ من مؤازرةِ العشيرِ الآخر المحتاج اليها، ولا يَرْضىٰ لنفسِهِ أن يكونَ هو والذُلُّ يعملانِ في نساءِ أُمّتِهِ عملاً واحداً، وأنّ يصبحَ هو والكسادُ لا يأتي منهما إلّا أثرٌ متشابهٌ،.. فتجعَلُ البيتَ الذي كان يقتضيهِ الوطنُ أن يكونَ فيه أبٌ وأم وأطفال ــ بيتاً خاوياً كأنّما ثَكِلَ الأمّ والأطفالُ، وبقيَتْ فيهِ البقيّةُ من العَزَبِ الميّتِ أكثر تاريخِهِ !..»[2]

* * *

ثالثاً : المقالة العلميّة

هي الحديثُ في العُلوم والمخترعاتِ والاكتشافات، والتطبيق الذي يُصاحِبُ التوفيقَ العلمي للحضارة في التصنيعِ والاتقان، وانتظام منهاجهِ في تفسيرِ الحياة والطبيعة،.. وقد كانَ « للمقتطف » الصَّدارةُ في كتابةِ

---

(١) الهلال ــ مارس/آذار ١٩٢١ م

(٢) وحي القلم ــ ١ ــ ٢١٤

المقالة العلميّة، وقد أثّر في جيلٍ من الكتّاب وطلائعِ النهضة ممّن قدّموا العربيةَ أشواطاً في المضمار، ووصلوا بها مراحلَ من الطواعية والاصْطلاح ـــ كانَ يمكن لو امتدّت كما ينبغي، وبقي الضمير القومي حيًّا يقظاً كأولِ عَهْدِهِ ـــ أن تَغْنىٰ الجامعاتُ بها عن الدراسةِ العلميّة بلغاتِ المستعمرين وأتباعِهم !.

لقد تأثّر الرافعيّ بهذه الناحية أيّما تأثّر، ونقل الكثير من التفسيرات العلميّة والنظريات الى أدبه وفنّه، وفاعلَهَا مع وجدانهِ البيانيّ وذَوْقِهِ الأديب، فجلّىٰ في كلٍّ وأرسَلَ الآيات،.. ولعلَّ من أخطرِ مقالاته العلميّة **كلامُه في العرب**؛ الذي صدَّرَ به كتابه « تاريخ آداب العرب » وقولُهُ فيه :

« العَرَبُ جيلٌ من الناسِ ؛ تَدَلّتْ عليه الشمسُ منذُ القِدم في هذه الجزيرةِ التي كأنّها قِطْعَةٌ انخزلَتْ مع الانسانِ الأول من السماء، فلا يَزالُ أهلُها أبعدَ الناس مَنْزَعاً في الحريّةِ الطبيعيّةِ، وأشدّهُم مُنافَسَة في مُغالبةِ الهمم، كأنّما ذلك فيهم ميراثُ الطبيعةِ الأولى، فهم منه يَنْبتون وفيه يموتون ».

ويزيدُ عِلْماً وإعجاباً بهم وإكباراً لمآثرهم في مثلِ قوله :

« سكانُ الفيافي وتربيةُ العَراءِ، يَنْبسِطُون مع الشَّمْس، ويَفيؤُونَ مع الظلّ، ويطيرونَ في مَهَبّ الهواءِ، بل أولادُ السَّماء ؛ ما شِئْتَ من أنوف حَمِيَّة، وقُلوب أبيّة، وطباعٍ سيّالة، وأذهانٍ حِداد، ونُفوس مُنكرة،.. وقد وقفَ البحثُ العِلميُّ أمامَ بقاياهم موقفَ العَجَبِ الذي يَنْبَهِرُ بهِ العلماء،..

وقد أصْبحَتْ بقاياهم الضاربةُ في بَوادي العَربيّة، ومصرَ والشام لهذا

العَهْدِ موضعَ العَجَب من عُلماءِ الطبائع[1] حتى أجمَعُوا على أنّهُ لا نِدَّ لهذا الجنْس البَشَري في جميع السلالات البشرية ؛ من حيثُ الصفاتُ التي يَتَباين فيها أجناسُ البَشَرِ خَلْقاً وخُلُقاً.. حتى صرَّحَ بعضُهم بأنَّ هذِهِ السُّلالةَ تَسْمو على سائرِ الأجيال »[2].

ويفسّرُ ذلك تفسيراً علميًّا بقوله :

« .. بالنظَرِ الى هَيْأَةِ القُحْفِ، وسَعَةِ الدّماغِ، وكثرةِ تلافيفِهِ، وبناءِ الأعصاب وشَكْلِ الألياف العَضَليّةِ، والنسيج العظمي، وقوام القلب، ونظام نبضاتِهِ. فضلاً عمّا هم عليه من ملاحةِ السِّحنةِ، وحُسْنِ التقاطيع، ووضوحِ الملامح.. وفضلاً عمّا في طباعهم من الكرم والأَنَفَةِ، والأريحيّة، وعزّة النفس، والشجاعة »[3].

* * *

ومنها تحليلُه الفلسفيُّ **لدرسِ الحياة**؛ الذي يَبْدُو فيه وكأنّهُ أحد أساطين التربية العلمية، فهماً ومعرفةً لحقائقِ ووثائق النفوسِ والحَيَوات ؛ إذ يقول :

« إنَّ أحسَنَ العِلْمِ ما علّمَكَ سُنَنَ الحياةِ وأغراضَها.. وأقوى القُوة ما غَلبتَ بهِ على نفسِكَ، حتّى تَنْطبعَ على هذهِ السُّنن.. وأذكى الذّكاءِ ما أَنفَقْتَهُ في وجوهِ العَمَل الذي تَقْضي بهِ هذه الطبيعةُ.. وأهنأُ اللّذاتِ راحةٌ من تَعَبِ العملِ الذي تِعْبتَ فيه لتَسْتأْنِفَ عملاً آخر.. والحكمة

(١) يريد بهم علماء الاجتماع والأجناس الذين يعنون بالدراسات النفسيّة للأمم أيضاً، مثل صموئيل لابنج، وأرنست رينان، وغيرهم... أنظر المقتطف ــ فبراير ١٩٠٧ م .

(٢) لعلّه « رينان » فقد كان له رأي بالغ الدهشة في اللغة العربية

(٣) تاريخ آداب العرب ١ ــ ٧٢ وأنظر المقتطف فبراير/شباط ١٩١٢ م وإشارته.

فيما بصرتها من أسرارِ الحياةِ والأحياءِ، ولم يَبْرحِ الإنسانُ تلميذاً ما دامَ يجدُ في كلّ شيءٍ مدرسة »[1].

* * *

ويقولُ في **النهضة**: « أيُّ أمةٍ تَنقطعُ من تاريخها وآداب أسلافها ولُغتِهم وعُلُومهم، ثم يبقىٰ لها أثرٌ ظاهِرٌ في الأممِ المُسْتَقِلّة ؟! وبماذا يكون تعَرُّفُها إلى الأمم الأخرى ؟!

وهذه الأمم لا تعرِفُ الشَّعْبَ الحيَّ العزيزَ إلّا بصورتِهِ العقليّةِ المُتجليّة في لُغتِهِ وآثارِها،..

النَّشءُ يريدُ النهضةَ بلُغتِهِ العربيّةِ، كما يُريدُ النهضَةَ بسياستِهِ، ولا يَتأتّى ذلك إلا إذا بَعَثها وأحياها وبثَّ فيها من شبابهِ، ونَفَخَ فيها من رُوحِهِ،..

والمسؤولونَ عنها بين مَن هُمْ أهلُها وحَفَظَتُها والقادرونَ على تصريفها، والمُطّلعون على محاسِنها ــ فإنْ هم قصّروا في ذلك أو أهملوا فقد غَشّوهُ وخَدَعُوهُ وخانُوا عهدَهُ وذمّتَهُ، وعملوا على ضياعِهِ وسقوطِ مَنْزلتِهِ بين الشعوب الأخرى، من حيثُ يريدون أو لا يُريدون »[2].

ويقول في **سِرّ الجمال**:

« لا أرى في سِرّ الجمال إلّا أنَّهُ حقيقيّ من تلكَ المادة السَّماويّة التي نُسَمّيها الجاذبية، فكأنَّ الله حين يَخْلِقُ الجميل يُرْسِلُ في دَمِهِ

---

(١) فتاة الشرق ــ يناير/كانون الثاني ١٩١٩ م
(٢) المضمار ــ ٢٤ فبراير/شباط ١٩٢٢ م

مع الذَّرّةِ الإنسانيّةِ ذرّةٌ من مادةِ الكواكب هي سِرُّ عِشقِهِ وجاذبيّتِهِ، وهي بعينها مَعْنى تلكَ القُوّةِ الغَريبةِ التي لا يَزالُ الجميلُ يخضَعُ بها كما يخضَعُ الفلكُ المُدار، ويَتَسَلّطُ كما تتسلّط الأقدارُ، ويبثُّ في الدمِ الإنساني من حَرارةِ الوجدِ مادةَ النار »[1].

وكأنّما تمكّنتْ منه نظريةُ الجاذبية ــ الطبيعية وتمكّن منها، فانْسَحَبَ بها على سائرِ الأشياء.

وكذلك قولُه في تفسيرِ ظاهرات أخرى[2].

ولكنّهُ يعودُ فيجعَلُ من المادةِ العلميّة ومعرفتها أداةَ فَلْسفةٍ يخرجُ بها الى الناسِ في أدبٍ جديد فيه الفكرُ والحياة مثل قوله[3]:

« إنَّ الحقيقةَ لا تَسْأَلُ كيفَ يحيا الحَيّ، ولكن كيفَ يموتُ الميت !.. ولا تتعرَّفُ ما قدرتُهُ على الإقامةِ، ولكنْ ما قدرتهُ على الرحيل !..

ولا تُبالي ما قوتهُ على الرُّسوخِ كالجَبَل، ولكن ما قُوَّتُهُ على الوُثُوبِ كالطائر !..

فهناك حدودُ الدنيا والآخرة موضع هاوٍ لا يَتخطَّاهُ إلا ذُو جَناحَيْن قد اشْتَدَّ كلٌّ منهما ووفّىٰ ».. هذا إلى أمثالٍ أُخَر.

---

(١) رسائل الأحزان ١١٣ ــ المضمار ٦ تشرين الأول /أكتوبر ١٩٢٢ م
(٢) المضمار ١٠ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٢٢ م
(٣) الأخبار ــ ١٥ أغسطس/آب ١٩٢٢ م، السحاب الأحمر..

رابعاً : المقالة السياسيّة

هي المحادثة التي قامَتْ مقامَ الخطابة العربية، ومكانَ البيان في الدّعوات القديمة ـــ وإن امتازَتْ بالنظرةِ التّفْسيرية للأحوالِ المَدَنيّة من الحقوقِ والواجبات، وزادَتْ بوجهاتِ النظر المختلفة،.. ولا سيّما بعد قيامِ الجمعيات والأحزاب على الطراز الفرنسي ـــ الماسوني في أوربة، وكان من حَذْوِ الشرق حَذْوَها في أحزابٍ سُمّيت على النهضةِ القوميّة والوطنية، كما هي في مصر : النهضة والوطني والأمّة والدمقراطي، والوفد، وما تفرّع منها، غير الروابط والجمعيات الأخريات..

وقد عُرف من أصحابِ المقالات السياسيّة عبدالله النديم، ومصطفى كامل، ولطفي السيد، وعلي يوسف وأمين الرافعي، وغيرهم.. بحيثُ ازدحمَتْ بهم وبمقالاتِهم أعمِدَةُ الصحافةِ وزواياها ونوافذُها في القرنِ الأخير.

وكان للرافعي رأيُهُ في أضاليلِ السياسة مبكّراً، وكانَتْ له قِلّةُ ثقةٍ بالأحزاب جملةً، منذُ أرسَلَ مثل قوله شعراً :

فيا عصبةَ الأحزابِ رُدّوا حُلومَكُمْ وجُرّوا على غيرِ الثرىٰ بذُيولِ

ولكنّه أشارَ الى دعوةِ مصطفى كامل والحزب الوطني لإقامةِ « الجامعة » « في فكرةٍ وطنيّة انشَقَّ لها مكانُها في التاريخ.. » على حَدّ تعبيره.

وكان له في الحركةِ ـــ الثورية ـــ التي اجتاحَت الدنيا العربية مع الحربِ الأولى وما بعدَها آراء سياسية خاطَرَ ببعضها[1] وسكتَ

---

(١) الأخبار ٥ يناير/ ١٩٢٢ م، رسائل الرافعي ٨٣

عن معظمِها لمكانِهِ من الوظيفة، أو حجبِ الرقيبِ لمحاولاتِهِ الصريحة فيها[1].

وقد حدّثني عبد الرحمن الرافعي — المؤرّخ رحمه الله — عن مشاركةِ الرافعي في تحرير « الأخبار » التي أعادَ بها أمينُ الرافعي حياة « الحزب الوطني » إبّانَ الحركة الشعبية المصرية، ومن نشرِهِ مقالاتِه : « صيحة الحق » التي قال فيها :

« يُريدُ الانجليزُ أن يُفْهِمونا أنَّ ما لَمْ يكن واقِعاً فهو مُسْتَحِيلٌ، ولا يمكن أن يقَعَ،.. وأنهم إذا لم يَضَعُوا أيديهم على هذِهِ الأمة رَفَعَ الله يَدَهُ عنها، لا يُبالي في أيِّ شيءٍ هلكت، وأنَّ صفحةَ (كيرزن) هي خاتمةُ الجزءِ الأخير من كتابِ السياسة المِصْريّة. ليسَ بعدَها من كلمةٍ إلا قَولُهم ثمَّ والحمد لله !.

هذا كلّه يكونُ صَحيحاً لا مِريَّة فيهِ لو أصبَحَ الفلكُ الأعلى مُسْتَعْمرةً إنجليزية، ولو خَفَقَت الرايةُ الانجليزية مع رايةِ الصبح في يومٍ واحد،.. ولكنْ هيهاتَ هيهاتَ،.. ذلك حكمُ اليوم وسَنَسْتأنِفُه الى محكمةِ الغد.

أيها الانجليز : إنّ في أيديكم القوةَ ولا إيمانَ فيها، وعندنا الايمانُ ولا قُوّةَ في أيدينا،.. فألْقُوا حِبالكم وأسلحتكم،.. فمصرُ هي بعينها الأرضُ التي كانَ فيها جنود « فرعون » وكان فيها « موسى » ولَيْسَ له من سلاح إلّا إيمانهُ »[2].

وكان لَهُ في الحركةِ المصريّة شأنٌ، كما كان لابن عمّه أمين مكانٌ

(١) الرسائل ٩٣

(٢) الأخبار — ٥ يناير ١٩٢٢ م

لا يُنسىٰ، وكان قلمُهُ يَخْتلِسُ الفُرصة ولا سيّما في تلك المقالاتِ التي يَعْقِدُها لبعضِ الصحف مظاهراً الحزبَ الوطني كمقالتِهِ في « جنود سعد » وقوله فيها :

« لقد كان العرَبُ من جاهِليّتهم الى إسْلامِهم الى عُجْمتهم يُطلِقُون لفظَةَ « جنود سعد » ـــ التي يَفْخر بها الرئيس (سعد زغلول) اليوم ـــ على الحَشَراتِ والهوام المؤذيةِ ؛ التي تجيءُ بها الصيفُ وينشر بها اللَّذعَات واللَّسعات الى ما يَجْلِبُ الأمراضَ ويدني العِلَلَ، وما عسىٰ أن يكونَ في وباءٍ مجتاحٍ يَحْلِقُ الناس حَلْقَ الشعر !.. إلّا أن يكونَ (معاليه) قد عَثَرَ على هذِهِ التسميةِ، فابْتَعَثَها ليعلمَ الناسُ أن القَدَرَ كما ينزِلُ من السماءِ على الناس، يَدِبُّ إليهم من بيتِ الأمّة بيتِ سعد (باشا)! »[1].

ومثال ذلك ما كتبَهُ عَشِيَّةَ المَناحةِ الكُبرىٰ التي أعْقَبَتْ إقدامَ كمال أتاتُرك على إلغاءِ « الخِلافة الإسلامية » وقَطْعِ كلّ صلةٍ تربطُ الترك بالدّين العربي الحنيف، إذ قالَ تحتَ عنوان : « يا غُربةَ الإسلام في مواطِنِهِ » :

« ما رُمي الإسلامُ بسَهْمٍ أوهىٰ لجلدِهِ، وأوهَنَ لِعَضُدِهِ وأدمىٰ لكبِدِهِ من هذا السهمِ الذي رَماه بِهِ الكماليّون !..

ما استطاعَ أعداءُ الإسلامِ أشَدَّ ما كانُوا بهِ ائتماراً، وأعدىٰ ما كانُوا عليهِ عُدوانا، وأصدَقَ ما كانوا رَغْبةً في الكَيْدِ له، والنكايةِ فيه،.. أن يَبْلغُوا منهُ ما بلغَهُ هؤلاء الكماليّون على مَرْأىً ومَسْمَعٍ من المسلمينَ

---

(١) الرسائل/هامش ١٩٤

جميعاً،.. فإقدامُ الكماليين على إلغاءِ الخلافة أكبرُ جريمةٍ في عَهْدِ هذه الدولةِ، وأشنعُ جريمةٍ في تاريخ الإسلام على الإسلام!.

أيُّ شرّ يحسَبُ هؤلاء الملاحِدةُ أنّهم بإلغاءِ الخلافة يدفعونَهُ ؟.. وأيّ خَيْرٍ يظنّون أنّهم للدّولةِ يجلبونَه ؟!.

لقد نقضوا موثِقاً أَخَذَتْهُ عليهم ثمانيةُ قُرونٍ وبعضُ القرن، واطّرحوا أمانةً حملُوها كلَّ ذلك العهدِ العهيد، وخَرَجُوا للمسلمين من تبعةٍ لم يُخْرِجْهُمْ منها أحَد[1] وحاولوا عَبَثاً أن يحلّوا بَيْعةً بعُنقِ كلّ مسلم في الأرضِ معقودة.

لقد جَرَّدوا أمير المؤمنين من القُوّةِ التي تكونُ بها إمارَتُه، بدَعْوى الفَصْل بين السلْطتين، وما أرادوا إلاّ الفَصْل بين عَهْدَين، عهدِ الدين الذي اسْتَدْبروهُ، وعهدِ الإلحادِ الذي اسْتقبلوه،.. ثمّ صَرَّحَ الشرُّ عن محضِهِ، وتكشَّفَت النيَّةُ عن خُبثها؛ فاذا هُمْ يُلْغون الخِلافةَ برأيهم، ويخرجونَ بالخليفة من مقرّ خلافتِهِ في جُنحِ اللَّيْل ؛ كأنّهم اسْتحيَوْا أن يُواجهوا بجريمتهم وَضحَ النهار، وَوَدّوا لو اسْتطاعوا أن يخفُوا جَريمتهم عن مُسلمي الأمصارِ.. الخ »[2].

وفي المقالة بعدُ إشارةٌ بارعة الى اللّوثةِ الفَرَنْسِيّةِ التي اسْتمدَّ منها الكماليون المرتَدُّون ــ الدونمة[3]، فكرتَهم وسلُوكَهم هذاك،.. كما

---

(١) ومن هو الذي سلَّم بها لهم؟!

(٢) الأهرام ١٣ رجب ١٣٤٣ هـ ــ ١٤ مارس ١٩٢٤ م وأنظر أيضاً مقالة أمين الرافعي ــ الأخبار ــ ابريل ١٩٢٤.

(٣) أهل الردة من يهود الأندلس المتمسلمين بلجوئهم الى الدولة العثمانية، وقد كانوا برأسهم (شبتاي زفي) وراء الحركة التورانية وداعيتها (جوك ألب)!

دلّتْ بلهجَتها على مبلغِ الانفعال والرِّعْدَةِ التي كان عليها.

حدّثني الأستاذ عبد الرحمن الرافعي ــ المؤرخ، كيفَ دخلَ عليه مَغيظاً مُحْنَقاً، يرتجفُ القَلَمُ بين أنامِلِهِ، كأنّه يَهمُّ بالثأرِ والانتقام ــ مع أن نهاية تلكَ الخلافة كانت طبيعية[1].

ولم يقِفْ أديبُنا عندَ هذا الحدّ من فَرْض الكِفاية، وإنما تابَعَ ملاحقتَهُ لهذا الانحراف الأثيم في السياساتِ « القومية » بمقالاتٍ منها : تاريخٌ يتكلّم، وكفر الذبابة[2]، وفي « كلمة وكليمة » أكثر من غمـزةٍ وتعريض[3]. ولم يتركْ مناسبةً تمرّ من غيرِ أن يُعَرّض بكمالِ أتاترك هذا، ومُراهِقي السياساتِ ممن يقلّدون المقلّدين[4].

أمّا رأيُه في التُّركِ ــ بقايا الدولةِ العثمانية ــ فقد كانَ بخلافِ رأي الناس آنذاك فقد رأىٰ بثاقبِ بَصَرِهِ نهايةَ الأمر إذ قال :

« الجميعُ واهمون، وسَترى أن تركيا لا تحكم على رجُلٍ واحدٍ من غيرِ الترك، وأنّها ضاعَتْ بحماقةِ أنور وأمثالِهِ، إلا أنْ يريدَ الله ما لا يدخُلُ تحت حكمِ العقل »[5].

وكم كانَ صادقاً في رأيه الصوابِ هذا !..

وقال رأيَه صريحاً واضحاً في الحركة المصرية بُعيْدَ نهاية الحرب الأولى :

---

(١) كان ذلك في صيف عام ١٩٦٤ م بالاسكندرية

(٢) وحي القلم ٢ ــ ٢٣٥، ٢٤٨

(٣) الرسالة ٦٤، ٧٦، ٨٤، ٩١

(٤) الرسائل ــ ١٧١

(٥) الرسائل ــ ٧٠

« أما رأيي في الحركةِ الوطنية، فإني أرىٰ أنَّ هذه الحركة مباركةٌ مفيدة ـــ ومن لا يكرم نفسه لا يكرَّم ـــ.. ولكنها لا تَنْتهي بالاستقلالِ التام !.. والغالبُ ـــ بل المؤكد أن تعطىٰ مصر الاستقلال الداخلي، فتُدير أمورَها بنفسِها، وتَتولّى انجلترا شؤونها الخارجية فقط.

وإذَا تَمَّ هذا على الوجهِ الصحيح، وخَرَجَ كلُّ المسْتشارين والمفتشين الانجليز من الحكومةِ، فهي نعمةٌ كُبرىٰ، لأنَّ التربية يومئذٍ تتّخذ شكلاً وطنياً محضاً، فلا يَمْضِي جيلٌ واحد، حتى يعقبُهُ الجيلُ المُسْتَقِلُّ بطبيعته »[1].

وكان له إسهامُهُ بأَناشيدِهِ وأشعارِهِ ومقالاتِهِ في تلك الأيام[2] وقد أَضْحَتْ مردّداتِ الأجيال من ثمَّ، وما تبرحُ الأذهان الى اليوم. منها نشيدُ « اسلمي يا مصر » ونشيد : « ربّنا إياكَ ندعو » والنشيد القومي : حماة الحمى ؛ الذي شَرَّقَ في دنيا العروبة وغرَّب، وكان عنوانَ الحركات القومية في البلاد[3].

ثم إنّهُ عادَ في عام الاستقلال بالمعاهدة ـــ ١٣٥٥ هـ ـــ ١٩٣٦ م فسابقَ في القول، وكانت له مقالتهُ الأثيرة في « اللُّغةُ والدين والعادات » وقد عدَّها من مقوّماتِ الاستقلال، ونالَ الجائزة عليها في المباراة الأدبية[4].

وكانَتْ له « أحاديثُ الباشا » فيما بعدُ، وقد زَعَمَ أنّ أخاه محموداً

---

(١) الرسائل ـــ ٧٦

(٢) هي التي أفاد منها لأحاديث الباشا

(٣) راجع « أغاريد الرافعي » ـــ الباب الأول ـــ الفصل الثالث

(٤) العريان ـــ ١٣١

الرافعي كان يحدّثُهُ بها، فجاءَ بخُلاصةٍ للأحوالِ السياسية التي سادَتْ آنذاك وما يمكِنُ أن تُثمرَ فيهِ في المستقبل، ومنها يمكن استنباطُ ميثاقٍ قوميّ للعملِ في الأمة[1].

ومنها قولُه في عَرَب الحاضرة :

« العربُ ـــ على أنّهم أهلُ هذا الدين، وعلى أنّهم كانوا مادّتَهُ وعمادَهُ، فهم مع ذلكَ كأنّهم أبعدُ الناس عن رُوحِهِ وأغراضِهِ، لما أصابَهُمْ من دَهاءِ السياسة الأوروبية، وما عَبثَ بهم من أساليبها وحِيَلها ؛ التي جَعَلَتْ بأسَهُمْ بينهم، وتركتهم يُخربُونَ بيوتَهم بأيديهم.. وجرَتْ معهم على طريقةِ فلّ الحديد بالحديدِ وإهلاكِ القديمِ بالجديد، وكان مَثلُها وإياهم كمثَلِ الشيطان إذ قالَ للانسانِ : أكفر »[2].

خامساً : المقالة الفكريّة

هي التي تَحْتوي مَضْموناً اعتقاديًّا يلتزِمُ به الكاتبُ عَقيدةً وإيماناً، ويجعَلُهُ سلوكاً لمنهاجهِ، حتى يَضْحىٰ أدبُهُ بعد ذلك مَذْهباً يُعرَفُ بهِ بين الناس. أو هو يُفَسّرُ بها جوانبَ من ذلك المذهبِ الاعتقادي الذي يَتوفَّرُ عليه، ويؤمِنُ بجدواه.. ولا سيّما بعد أخْذِ الآداب الحديثةِ لبعض المناهج الفَلْسَفية والعِلْمية، أو محاولةِ هذه الفلسفاتِ ممارسة السياسة والاجتماع والفن !..

وقد يكونُ أدبُ الرافعي كلُّه، أو معظَمُهُ مقالةً فكريةً توزَّعَتْها أساليبُ القَوْلِ على مدىٰ الأيام ؛ فهيَ مُتّصلةُ الأسباب في فكرةٍ مثاليّةٍ لها

(١) وحي القلم ٣ ـــ ٢٦٢

(٢) مقدمة ـــ أعجب العجب ـــ عبد الحق الأعظمي ـــ ٧

« رصيدٌ » أعظَمُ من الواقعِ الحقّ، ومذهبٌ قومي أثير، ومحتوىً اعتقادٍ، لنا أن نسمّيهِ « العروبة المؤمنة » بكلّ ما يَعْنيهِ هذا المصطلح من مَعاني الدعوةِ شِرْعَةً ومنهاجاً، وما يزينُ به الاعتقادُ جَمالاً وإيماناً، وما يجتمعُ بهِ السبيلُ والهَدَفُ والغايةُ بجميع مضموناتِها من ثباتِ القيم، وشَرَفِ التناوُلِ، ونُبْلِ القَصْدِ في رفعةِ الضمير وتجلّي الوجدانِ على هُدى ونور.

وقد أدركَ ذلك « الأنصارُ » الذي اتّجهوا الى قبلتِهِ، فآثروهُ بتَنْقِيةِ أفكارِهم وآدابهم من كلّ اسْتعجام!.

قال في مقالتهِ التي قدّم بها مجلةَ « البيان » :

« لما اسْتتمّتْ لنا فراسةُ الحق خيرَ فائلة، واعتدلَتْ أسبابُ النظر غيرَ مائلة، وثَقُلَتْ موازينُ الرأي غير شائلة.. رأينا بلاغَ أمرِنا قد تَهَيّأ، وعُمودَهُ قد اسْتَقَلّ، وأصبنا من العصرِ نَهْضَةً قد جَمَّ الأدبُ جِمامَها، وأرخىٰ للسَّبْقِ في يدِ العقلِ زِمامَها، ورأينا جَوًّا بعيْدَ الآفاقِ ؛ تَطيرُ فيهِ الأفكارُ بأجنحةِ الأوراق، وأرضاً خَصيبةً من الرأي جادَتْها سحائب الإلْهام فأنْبَتَتْ ثَمراتِ العقول في أغصانِ الأقلام.. عند ذلك أيْقَنّا أنه قد اسْتدارت جهةٌ من الزمان، وقُلْنا : لقد بَرِحَ الخفاءُ فهذا موضِعُ البيانُ »[1].

وكذلك جاءَ كتابُه « حديث القمر » دعوةً عربية، قِوامُها الحبُّ. وقد ضمّنها رأيَ العربيّ المسلم في أمّهاتِ المسائل الإنسانيّة التي عليها

---

(١) البيان ــ شعبان ١٣٢٩ هـ ــ آب ١٩١٢ م، العريان ٢٦٥، كتابنا ــ ٢٧٢

المُعَوّل في بناءِ الحياة الفكرية الجديدة للأمّة، وبناء الأجيال على أسسٍ سليمةٍ من التربيةِ الإنشائيةِ القومية في هذا العصر[1].

وقد تكون مقالتهُ في الفقرِ والفقراء وخطبتُه في الإحسانِ الاجتماعي، وتحليلُهُ لأفكارِ الناس، وموقفُه من العقائدِ المحدثة والأفكارِ المستجدّة[2]، ثم استمدادُهُ مع العربِ والعروبة في المقالاتِ الأخرى التي دَبّجتها يراعَتُهُ في مقدمةِ « أعجب العجب من أحوال العرب » ومقالاته في « نوادرِ القوة عند العرب »، و « الميراثِ العربي »، و « العاداتِ والتقاليد » وإشاراته الى فضلِ العرب بخاصة،.. من أظهرِ ما قالَهُ فكراً يَتَميّز بالعقيدةِ، ويَنْتصرُ للقومية، ويَعْتَدُّ بالأخذِ العلمي، ويوازنُ بين الأحداثِ والحضارات.

وربما كانَ في كتابَيْهِ « المعركةِ » و « وحي القلم » جملةٌ صالحة من المقالاتِ الفكرية التي تؤلّفُ مادةً صالحة، هي الأساسُ في النظرِ قومياً بالمذاهب الجديدة والأفكارِ الوافدة مع الغزو العسكري ــ الأوربي الذي وقعَت الأمّة تحتَ وطأتِهِ ردحاً طويلاً من الزمن.

وربما كان آيةُ ذلك كلّه في « رسالةِ الحج » ودعوتِهِ الى تجديدِ معانيهِ في المؤتمر القومي الأعظم للأمة، والفهمِ الجديد لِشَعيرة الحج الإسلامية[3].

ثم في شُروعِهِ بتأليفِ « أسرار الإعجاز » للدّعْوةِ المؤمنة بتفسيرِ

(١) الرسالة الاسلامية ــ ٥٣، وسيرد ذلك في الباب الثاني.
(٢) مرّت أمثلتها في المقالة الاجتماعية.
(٣) « رسالة الحج » هي التي ظهرت باسم « حافظ عامر » راجع العريان ــ حياة الرافعي ــ ٢٦٤

القرآنِ العظيم، أو آياتٍ منه تستهدفُ مجالاتِ الحياة جميعاً في تهذيبٍ وتربيةٍ وإعدادٍ بشمولٍ واستيعاب. فهو في هذه المقالات وسواها لا يَبْدُو أديباً فحسْبُ، وإن غَلَبَتْ عليهِ هذه الصفة ـــ وإنما هو بالمفكرِ الفيلسوف والفقيهِ والمصلح الاجتماعي ألصَقُ وأليق.

٢ ـــ الرسالة

كلمةٌ أو حديث في غرَضٍ من الأغراض الوجدانية، أو الأحكام، وقد عَرَفَ العربُ منها الأمثال، وقد كانَتْ في القديمِ تقومُ مقامَ المحاضرة في الدراسةِ والموضوعاتِ، وجملة رسائلِ البلغاء والمصنّفين في الآداب والعلوم والفنون.

وقد سَبَقَ اليها عبدالله فكري ـــ وكانَ شاعرَ الذوق، فعرَّبَ الديوان من التركية(١) وقد عُرِفَ في أدبِ الرافعي أنواعُها المعروفة :

١ ـــ الديوانية

وهي بِحُكْمِ مقامهِ في الوظيفةِ كاتباً في المحاكم الشرعية ـــ والأهلية، فقد وفق فيها بالاجتهاد والتفسير، حتّى صار ثِقةَ الوزارة في هذا الشأن، يحملُها على جَعْلِ رسائِلِهِ منشوراتٍ مُلْزِمة، وتعليماتٍ لكثيرٍ من مسائلِ القضاء في محاكمِ القطر المصري(٢) وربّما أسْهَمَ في لوائحِ الدفاع برسائلَ أخرى(٣).

* * *

---

(١) الدسوقي ـــ نشأة النثر ـــ ١٠٥

(٢) العريان ـــ ٣٥

(٣) مما يؤسف له أننا لم نستطع الوقوف على شيء منها لذهاب الأيام.

٢ ـــ الاخوانية

والرافعي كثيرُ المُراسلةِ مع إخوانِهِ وأصدقائِهِ ومحبّيهِ.. وقد اسْتطاعَ واحدٌ منهم هو محمود أبو ريّة أن يخرِجَ منها كتاباً فريداً هو « رسائل الرافعي » تضمَّنَ جملةً رائعة من آراءِ الرافعي وأفكاره[1].

وكان بعضُ أبناءِ عمومته قد أدركَ هذه الناحيةَ الخطيرة فيه، فطفِقَ يَسْتَمْليهِ كتباً ورسائلَ في معانٍ مختلفة، حتّى اجتَمَعَ له بعد ذلك جملةٌ صالحة، فأرادَ طبعها، ولكن الرافعي نهاهُ، وأعلَمَهُ أنه يَبْرأ منها إذا هو نَشَرَها[2].

وهناك غير أبي ريّة، وغير هذا القريب أصدقاءُ وأدباءُ ومحبّون كانَتْ له معهم مراسلاتٌ دائمةٌ وفريدة، قد تؤلّفُ أكثر من كتاب رسائل ـــ إن هي وَجَدَت السبيلَ الى النشر..

ومن هؤلاءِ علماء وأعلام أذكر في مقدّمتهم الأميرُ شكيب ارسلان، ومحبّ الدين الخطيب ومحمد بهجة البيطار ومحمد كرد علي ومحمد رشيد علي رضا الحسيني وأحمد حسن الزيات، وأبو ريّة الحموي وغيرهم ممن أصابَ رسالة أو اثنين أو ثلاثاً، وفيهم فيلكس فارس، وصديق شيبوب وعيسى متولي ومحمود أبو الوفا، وكمال الدين الطائي، وكثير آخرون قُرّاء ومعجبون.

---

(١) رسائل الرافعي ـــ ٣٦

(٢) أعياني البحث عن ابن العم هذاك، وقد حسبته محمد سعيد الرافعي صاحب المكتبة الأزهرية الذي أعانه الرافعي في طبع شيء من كتب التراث، ففشيت دور أبنائه وفيهم توفيق الرافعي وأحفادُهُ، وفتشت صناديق أوراقهم فلم أظفر بشيء!
ليته قدّمها للأمة، فهل يا ترى يصل إليه أو إلى أهليه صوتي؟!

وقد حدّثني فوزي النقيب أنه كانَ يبعَث برسائِلِهِ الى جدّهِ لأُمّهِ بشأنِ خالِهِ عبد الحق الأعظمي[1] وكانَتْ بينَهُ وبين أبيهِ جَفْوةٌ حاول الرافعيّ أن يُصْلح بينهما.

وكنتُ رأيتُ رسالة ظريفة بالحبرِ البنفسجي بعَثَ بها مع كتابه الجليل « تاريخ آداب العرب » الى عبد الوهاب البدري، يداعِبُه فيها بأبياتٍ من الشعر، ربما كانَتْ جواباً عن أبياتٍ مماثلة،..

ولو اجتمعَتْ هذِهِ كلُّها لكانت مثالاً فريداً في هذا الباب ؛ وهي تُصَوّرُ الروح العالية لهذا الأديب الذي كانَتْ عاهتُهُ خَيْراً وبركةً على سواه !..

وليتَ مَن يُعنىٰ بآثارِ من قَدّمتُ ــ أو سِواهم ــ يُوافيني بصُوَرِ تلك الرسائل، ليتسنّى لنا العناية بها وإخراجَها في آثاره وأدبه.

* * *

٣ ــ الوجدانية

ذاتُ الأدَبِ الإنشائي الذي تَتأَلّقُ فيه الروحُ ويَنْعَطفُ القلبُ فيها على الحُبّ حيثُ الحقيقةُ الإنسانيّة الخالدة،.. وقد وصَلَ الرافعي بها

---

(١) هو أستاذ العربية وعلومها في جامعة « علي الأغر » في الهند، ولد في الأعظمية ببغداد، ودرس في « دار العلوم » بها، ورحل الى الأزهر يستزيد، ثم توجه في سبيل الدعوة الى الهند، وكان ينشر في « المنار » بعض موضوعاته، وقد نظم مطولةً في « أعجب العجب من أحوال العرب » قدم الرافعي لها برسالة في فضل العرب، هي آية قومية. كان بين الأعظمي وأبيه جفوة حاول الرافعي أن يزيلها برسائل كتبها الى ذلك الأب الكريم!..

ما انْقَطَعَ من أخبارِ المحبّين في تُراثِهم الأدبي من الشعرِ والشّذَرات،.. وأرسَلَ إلى حبائبهِ الفُضْليات ألواناً من تلكَ الرّسائل الوجدانية، وعادَ فيها يوثق موضوعاتِهِ ويزهو بأدبهِ وفنّهِ، فيضمّنُها أفكارَهُ، ويجمَعُ إليها ما تفرّقَ له من أوابدَ وكلمات، وبعضِ المقالات في الشعرِ والحياةِ والجمال، يؤلّفُ بينها، ويُطعّمُ هذهِ الرسائل، لتَحْلُوَ مذاقاً عند القرّاء، ولتكونَ من ثُمَّ مادةَ الفكرِ والأدب، وأداةَ دعوةٍ جديدة في الحياة الانسانيّة المثيلة ـــ كما يَعْرِفُها الضميرُ القومي، ويتجلّى بها الوجدانُ العربي، متمثّلاً في ذاتِهِ، ومُؤَدّىً بأدبهِ، وشافًّا عن نفسِهِ، بتعبيرٍ فَلْسَفيّ يجعَلُ العُلومَ والفنون والمعارف جميعاً مادةَ إنشائِهِ، حتّى كان إمامَ هذا الفن لا منازع !

وإذا عرفنا أن هذهِ الرسائل كانَتْ صورةً مجتلاة لمراسلاتٍ حقيقيّة ـــ وَقَفنا على أصولها ـــ أدركنا عِظَمَ المعاناةِ النفسيّةِ في أدائها،.. وقد سَبَقَ في هذا الميدان بأشواطِها بما لم يَسْتطعْ أديبٌ مباراتَهُ فيه الى اليوم[1].

* * *

على أن قصّة « الحب الرافعيّ » المثيرةَ للعجبِ ما تَبرحَ الأذهانَ ؛ لكثرةِ ما طارَ حَوْلَها من تعلاّتٍ وآراء ـــ وقد وفيتُها حقّها من البحثِ[2] ولم أظفَرْ بمزيدٍ له في إضافتِهِ خطر !.. غير بعض

---

(١) حاول محمد صادق عنبر كتابة « رسائل المجنون وليلاه » ونثر قطرات الندى على « أوراق الورد » تعريفاً، وقد بدا عليه التقليد المخل بالاغراق في التوليد.
وكذلك كتب خليل الخشالي (رسائل قلب) بتوفيق آخر.

(٢) الإمام الرافعي ـــ ٣٠٠ وما بعدها.

المماحكاتِ التي لا تصلحُ مجالاً للتعقيب[1] لما عليهِ المدلـول بوجهاتِ النظر من حالةٍ خاصة!

قلتُ: إنَّ الرافعي كانت تَعْتريهِ حالاتٌ من الفكر، وتنثالُ عليه المعاني، وتعصِفُ به الحياة، وتأخذهُ نوازع الوجدان،.. وكان كالذي يَبْحَثُ في الجمالِ[2] عن يُنبوع للأشعّةِ الالٰهية التي تغمرُ عينيه، وتشهَدُ له بالوفاءِ،.. فكان يُعِدُّ مادةَ أدبِهِ وبيانِهِ، ثم ينتظرُ شارَةَ الإلهام لِنَشْرها وإذاعتها، بَلْ تبليغها.

وهكذا وافَتْ رسائلُهُ تحمِلُ دعوةَ القلبِ العربي المؤمن، الذي يَبْعَثُ الحياةَ في الحب الانساني، ويعودُ به الى السموّ بالعفّةِ، ويُشرِقُ على الاجتماع الحضاري بروحِ العدل،.. وتلكَ هي رسائلُه.

ذلك أن أموراً غريبةً قد حدثَتْ له قَطَعَتْهُ عن كثيرين[3] وهو في مثلِ ذلك المُحْتَدَم من المعاناةِ، فكانَتْ «رسائلُ الأحزان» نتيجةً لها!..

وبعد أن زَعَمَ أنه تلقّى هذه الرسائل من صديقٍ كانَ له قال:

«خَلَطْتهُ بنفسي زمناً طويلاً، وكنتُ أعرِفُهُ معرفةَ الرأي كأنّه شيءٌ في عقلي، ومعرفةَ القَلبِ كأنَّهُ شيءٌ في دمي،.. ثم وَقَعَ فيما شاءَ

(١) منها وداد سكاكيني وكتابها في (مي زيادة) الذي أعادَتْ فيه تخليط السابقين في الموضوع!

(٢) انظر مقالاته في «الجمال» ــ المضمار ٦ ــ اكتوبر الى ٢٢ ديسمبر ١٩٢٢ م في ستة أجزاء.. ربما كانت بمجموعها مادة كتب الرسائل الثلاثة الأساس.

(٣) رسائل الرافعي ــ ١٠٥

الله له من أمورِ دنياهُ، حتى نَسِيني وطار على وجههِ حتى غاب عن بصري[1]..

وكان هذا الصديقُ قد « اجتَمَعَ من تاريخهِ إنسانٌ بَلَغَ الزَّمَنُ تحتَ عينه نيّفاً وأربعين سنة ؛ تلكَ السنّ التي يَنْقَلِبُ فيها الآدمي من وفرةِ القُوّةِ لَيْثاً، ويَرْجِعُ من قوةِ الحكمة نبيًّا، ويَعُودُ من تمامِ العقلِ إنساناً »[2].

غير أنّ هذه الأربعين، بما تَعَاوَرَتْ عليهِ قد هَدَمَ فيه بعضُها بعضاً، فجاءَت « هي » تبنيهِ وتَشُدُّ منه، وتُرَمّمُ بعضَ نواحيهِ المُتداعية، وتُقِيمُهُ بسِحرها بناءً جديداً !..

ثم تحدّثَ عن « الذكرىٰ » ببقايا آلامٍ يَسْتَشْعِرُها وكأنها أشلاءُ من فريسةٍ تشير الى تاريخٍ من الأَلَمِ والموتِ والتمزيق ؛ تركَتْهُ يتحدَّثُ عن أنه أحبَّ فتاة كأنها قصيدةٌ غزلية في ديوان،.. وفي رسالةٍ قال :

« الحبُّ الصَّحيحُ كالطفولةِ لا تَعْرِفُ الفتى إلّا شبيهاً بوجهِ الفتاة، حالةٌ متشابهة كاخضرار الشجرِ تَبْعَث عليها الحياةُ حين لا يَجيءُ الحِسُّ فيها إلّا من جهة القلب »[3].

وكانَتْ « حيلةُ مرآتها » موضوعَ الرسالةِ الأخرى قصيدة من أروعِ شعر الغزل، وأصفاه روحاً، وأجدّهُ ديباجةً، إذ قال :

---

(١) رسائل الأحزان ــ ١١
(٢) رسائل الأحزان ــ ٢١
(٣) رسائل الأحزان ــ ٦٨

حَسْناءُ خالقُها أتمَّ جمالَها ... سألتْهُ مُعجزةَ الهوى فأنالها

وبعد أن أفاضَ في وصفِها، وبالَغَ في نَعْتِ حُسنها، عَرَضَ لها أمامَ المرآة بعد أن لم يَجِدْ لها مثالاً شبيهاً في غيرها، وقد :

نَظَرَتْ لها حُسْناً إذا ما احْتلَّ في ... دُوَلِ النُّهىٰ سلَبَ النُّهىٰ استقلالَها

فتذكَّرتْ شَمْسَ الجمالِ مُتَيَّماً ... تركَتْهُ من فَرْطِ النحولِ هلالَها

كادَتْ تقولُ رَضيتُ عنه فأمسكَتْ ... وَمَضَتْ على عَجَلٍ لِتُخفِيَ حالَها

أوّاه لَوْ مرآتها نجحَتْ، ولو ... فَمُها تَبَسَّم عند ذاك وقالَها

* * *

ثم إنّه استعرضَ الصورة الأدبية في ذلك الحب، — وقد رأىٰ فتاتَهُ « تريدُ أن تجمَعَ الى صفاءِ وجهها وإشراقِ خدّيها وخَلابةِ سِحرها، صفاءَ اللَّفْظِ وإشراقَ المعنىٰ، وحسن المعرض وجمال العبارة »، وحسِبَ أن الحبَّ عندَها « كالكلمة التي يَكْتُبها، أو المعنى الذي تَتَخيَّله »[1] فكأنّما كانَ يَطْبَعُها بطابَعِهِ من تجديد البلاغةِ والامتياز بالبيانِ، والإشراق بالدعوة،..

وتدركهُ الموازَنَةُ، فيخشى أن تُفلِتَ من معانيه، فيوازِنُ بينها وبينَ صاحبةِ « حديث القمر » فيتذكّرُ لبنانَ وأيّامَهُ فيه، ويقولُ كالذي يثيرُ عندها الغيرة[1]

يا نفحةَ الجنّاتِ من تلكَ الرُّبىٰ ... كم ذا يَطُولُ تَلَهُّفي وهيامي ؟

وفي رسالةٍ أخرىٰ يتحدّثُ عن فِتنتها التي خَلَقَت الهوىٰ في امرأة،

---

(١) كانت هي تصطاف في لبنان حين أخرج الرسائل عام ١٩٢٣ م فضم إليها القصيدة التي قالها عام ١٩١١ م!!

ولكنَّهُ يكتشفُ في الرسالةِ الثامنة أن « الرجولةَ والضمير والدم الكريم — وهي عناصرُ إنسانِ الدعوة ورجلِ الرسالة — وقد تَمَثَّلتْ فيه — إذا اجتَمَعَتْ في عاشقٍ هلكَ بثلاثٍ؛ بتَسْليطِ الحبيبةِ عليه، ثم فِتْنَتِهِ بها، ثم انقاذِها منه، وكلّ ذلك هلاك،.. ألا إن شَرَفَ الهلاك خيرٌ من نَذالة الحياة »[1].

وهنا كأنه أدرَكَ واجبَ الوفاءِ لسيّد المحبين العرب — قيس بن الملوّح العامري — ذلكَ القَلْبُ الكريم المتألم — وهو العُمريّ[2] فليتحدّث عن هذا وذاك فيه،..

وأراد أن يُسمّي الجمالَ بعلمِ تجديدِ النفس، ذلكَ أنّ في الحبيبة الفكرَ والجمال، وفيه الخيالُ والحبّ !..

وخُيِّلَ إليهِ أنها تخشى غَضَبَهُ[3] ولكنّها تراهُ يحملُ إليها ملكَ الوحي الذي لا ينزل عادة إلّا في جَوٍّ من البرد والرعد؛ فجمع من سطورِها التي تخاطبُه بها، والأخرى التي سطّرتها تستَدْعيهِ وتعتَذِرُ له، فصَنعَ مُحاورةً فيها نشوةُ المحب المفتون بحديثِ قلت وقَالت[4]، حتى لمسَتْ روحُه روحَها في الرسالةِ التالية حين وجَد اللّغات تعجز أحياناً فلا تُحسِنُ التعبير[5].

---

(١) الأحزان — ١٠٣

(٢) قال مرّة :

ما عابني إن قيلَ ذو صبوة   أو قيلَ مجنون بني عامر

و « عمر » معدول به عن عامر!!

(٣) الأحزان ١١٠

(٤) رسالتها المؤرخة في ٢٠ يناير ١٩٢٤ م

(٥) الأحزان — ١٣٠

وقال في « أوراق الورد » ولفظِها لَهُ ـــ وقد تَضامَّتْ شفتاها كأنّها تَهمُّ بقُبلةٍ حَسِبها تُناديه باسمِه الأول « مصطفى » أو تدعُوهُ بصفتِهِ « مُصيف » !..

وفي الرسالة الأخيرة قالَ :

« كلُّ ما سطّرتُ كانَ عجَاجةً ثائرةً في حرب الهوىٰ، لَيْسَ تحتَها في حومةِ القَلْبِ إلّا الألم، كضربةِ سيفٍ، أو طعنةِ رُمْحٍ، أو كيّةٍ برصاصةٍ ملتهبة »[1] وقد رأىٰ أنّ « مَسّ استقْلالِ دَوْلةٍ من الدول العظمى قد يكونُ أحياناً أيسَرَ وأهونَ من مَسٍّ استقلال نَفْسٍ من النفوسِ الكريمة، ولكنَّ ساعةً من الضعفِ الإنساني تُنْشِئُ للقلْب تاريخاً من العَذاب !.. ».

لقد كانَ الرافعي في « تدبيرِهِ والرأي فيهِ كمَنْ يُؤرّخ عَهداً من شبابهِ، بعد أن رفَّتْ سنّهُ، وذَهَبَ يقينُه من الدنيا، ولم يَبْقَ إلّا ظنُّه؛ فهو يكتبُ والكلام يَحِنُّ إليه، والقلم يَئِنُّ بين يديهِ !. »

« قال الغافلون إني أتكلّفُ لها خَيالاً ورواية، وقالَ العاشقون : إنها كلامُ قُلوبهم،.. وقالَ الذين يَفْهمون الكلامَ : إنّه هو في كلامِهِ، وكنتُ في ذلكَ شاعراً، وحبُّ الشاعر لاَ يَخْلُو من الوزنِ،.. وَوَقعَ القضاءُ على القدر ![2] ».

وهذه الرسائل ـــ وإنْ كانَ كتبَها لتقرأَها هي، كما ذَهَبَ

---

(١) الأحزان ـــ ١٥٨
(٢) السحاب الأحمر ـــ ١٢

العريان[1] ـــ إلّا أنها من بعدُ محاولةٌ بارعةٌ يُديفُ الرافعي فيها فَلْسَفَتَهُ الفكرية، ومعارفَهُ ومعانيه في مُعارضةٍ بيانيّة ؛ اجتهاداً بالتجديدِ في عَطاءِ البلاغةِ العربية التي أرادَ لها نَشْأةً جديدة في بناءِ الحياة، والسموّ بالعاطفةِ الإنسانيةِ الخالدة في الحبّ.

وقد جاءَ فيها من التحدّي الاعتقاديّ، والإشراقِ الرُّوحي، والانتصار الأدبي، بما ضمّنها من الحقائقِ العِلميّة، والنَّظَرات المُحْدَثَةِ في الفلسفةِ وعلمِ النفس وأثرِهما في الفنون ما تميّز بهِ على سائِرِ معاصريه.

ولكنَّ موقفَ بَعْضِ شانئيه من هذه الرسائل غَيْرَ الأديب هو الذي باعَدَ بَيْنَها وبين القُرّاء، وربّما أعاقَ الكثيرين عن إدراكِ أبعادِ أهدافِهِ فيها[2]..

وكان الرافعيُّ قد هَمّ مرّةً أن يكتُبَ تاريخَ هذه الرسائل[3] وحاوَلَ ذلك جاهداً في « السَّحاب الأحمر » فقدمَ له بما شفَّ فيهِ عن قِصّةِ حُبّهِ التي تَلَفَّعَتْ « برسائل الأحزانِ » وقد أرّخَ فيها لعهدٍ من شبابِهِ، فأعطى الأديبَ العربيّ رُوحاً من البيان، وأمدَّهُ بدُفُقاتٍ من المعاني، وزَوَّدَهُ بلوحاتٍ من صُوَرِ الخيال، وتجلّىٰ له بآياتٍ من الفنّ والجمال،.. ولكنَّه لم يَفِ التاريخ حقّهُ في هذا المآل !..

ولعلَّهُ تَدارك شيئاً ما،.. فقد عادَ يَسْتمطر السحابَ معاني أخرى ؛ يَسْتوفي فيها الكلامَ في الحُبّ، ويَسْتَمِدُّ الأوهامَ من أرواحٍ أخرىٰ غيرِ

---

(١) حياة الرافعي ـــ ١٠٤

(٢) راجع طه حسين في حديث الأربعاء ٣ ـــ ٥

(٣) رسائل الرافعي ـــ ١٠٥

التي أملَتْ عليه الأحزان، فكأنَّ في هذهِ الأرواحِ الحبيب الحلْوَ، والبغيضَ القبيحَ، والصديقَ المؤمنَ، والمنافق اللَّئيم، والمظلومَ والظالم لنفسِهِ.

وهو كذلك يَسْتمدُّ ممن عقلُهُ في قَلْبِهِ، ومن حُبُّهُ مَنفعتُهُ، ليشْهَدَ أنّه في بعضِ فصولِهِ كان يحامي عن الحبِّ ويدافعُ عن سموِّهِ، أو ينتفِضُ فيديرُ الكلامَ على ذلك فَيَلْتَوي،..

ثم هو كالذي لا يَراهُ يَنْقادُ له، ولا يُتابعُ إلّا على خلافِ ما يُريد، حتى يجأرَ بالشكوى قائلاً :

مَنْ للمُحِبِّ ومَن يُعينُـهُ ؟ والـحبُّ أهنـأهُ حَزينُـه !
أنا مـا عَرَفْتُ سوى قَسا وتِهِ، فقُولُوا : كيفَ لِينُـه ؟
قَلْبـي يُـحِبُّ وإنّمـا أخلاقُـهُ فيـه ودينُـهْ !

حيث اللَّحْظةُ التي يَشْعُرُ فيها الانسانُ بضَعْفِهِ أمام ثِقل الرسالةِ المُلْقاة على عاتقِه. وفي كلمةٍ سبَق بها فُصولَ الكتاب، كشَفَ حقيقة عِلميّة، حين يَضْجَر أهلُ الخيال من الخيالِ فلا يُصْلِحُهم إلّا الحبُّ، لأنَّهُ ناموسُ التَطوّرِ والتحوّل بالقُوّةِ المُتَخَيِّلةِ،.. فالمرأةُ تلِدُ الانسانَ، ولكنّ حبّها يلدُ النابغةَ، والنابغةُ لا يتمُّ تمامُهُ إلّا إذا أحبَّ وعَشِقَ[1].

عَقَدَ الفصل الأول للقمر الطالع، فَاسْتَهلّهُ بآية النّورِ الكهربائي التي يكتُبُ في ضوئها، وقد طارَتْ منه نظرةٌ رأىٰ فيها حُسْناً كأنّما تناثَرَ ضَباباً من بُخارِ الذّهَب،.. وراعَهُ أن يَنْقَلِبَ النورُ مُتَضَرِّماً، ثم يَعُودُ لُجّةً من « السحاب الأحمر » كالحبّ المُتوهّج يملأ فراغَ القلب.

---

(١) وحي القلم ٣ ــ ٢٣١

ثم إذا بهذا السحاب يمطُرُ عليهِ بالخواطِرِ والكلماتِ، فتعودُ به الذاكرةُ الى فتاةٍ « عَرَفَها في ربوةٍ من لبنان، يَنْتهي الوَصْفُ الى جمالِها ثم يقِفُ، وكانَتْ روحاً عطرةً تَنْفَحُ نفْحَ المِسْكِ إذا تَشامَّت الأَرواحُ الغَزِلةُ بالحاسّةِ الشعرية »[1].

وكأنّهُ قد تَخِذَ فتاتَهُ تلكَ مِثالاً، فما نَظَرَ الى النساءِ من حولها إلّا وَجَدَ من الفرق بينَها وبينَهُنّ ما يتضاعَفُ.. فهو يَعْقِدُ موازنَةً بينها وبين مَن أذاقَتْهُ عُمراً من الأحزان، بعدَ بضعةَ عشرَ عاماً من تاريخها ؛ فينازِعُهُ الحبُّ في قلبهِ، ويَعْرِضُه على المعْدَلَةِ من أمرِهِ: « إنَّ من النّساءِ ما يُفْهَمُ، ثم يَعْلُو في معانيهِ الجميلةِ الى أنْ يَمْتَنِعَ !. ومن النِّساء ما يُفْهم، ثم يَسْفُل في معانيهِ الخسيسةِ الى أن يَبْتَذِلَ !.. ».

إنَّ من المرأةِ ما يُحَبُّ الى أنْ يَلْتَحِقَ بالإيمانِ، ومن المرأةِ ما يُكْرَهُ الى أَنْ يلتحقَ بالكُفْر »[2] فكأنّهُ يُسائلُها : أينَ مكانكِ أنتِ ؟..

وفي الفصلِ التالي تنثالُ عليه الخواطِرُ، فيُرْسِلُها على « النَّجْمةِ الهاوية » في طائفةٍ من النساءِ، يدرِكُ بعدَها أنَّ « في المرأةِ حَقيقةً لا تَعْرِفُها إلّا بفكرِ رَجُلٍ، وإلّا.. أساءَت الى حَقيقتِها »[3].

ولكنّها حين قالَتْ له : « أخرُج من كتبي وأَوراقي، لأقولَ : إني لا أفهم معنى سطوركَ الأخيرة »[4] بعدَما بعثَتْ له بكتابِ القطيعة[5] فكأنّما نَكَأَتْ جُرْحَهُ ثانيةً، فأعادَ القول :

(١) السحاب الأحمر — ٢٤
(٢) و(٣) السحاب الأحمر — ٢٩
(٤) رسالتهاالمؤرخة في ٢٠ يناير ١٩٢٤ م
(٥) العريان — ٨٩

« يا هذه !.. لا أدري ما تَقولين !.. ولكنَّ الحقيقةَ التي أعرِفُها أنَّ نَفْسَ المرأةِ إذا اتّسخَتْ كان بكلامِها حاجةٌ الى أن يُغسَل بالماءِ والصابون، وهيهات »![1].

وكأنَّهُ يَقْتلعُ نفسَهُ من مكانِهِ فيذهَبُ يدورُ على « السَّجين » في فصلٍ من أروعِ فُصول الأدبِ الإنساني الذي يَتَسامىٰ بمعالجةِ مُشْكلةٍ اجتماعية خطيرة، وقد عرض لمأساةٍ بعَيْنِها ؛ صَوّرَ فيها السجين — وهو يُودّعُ ذويهِ من وراءِ شباك « الحافلة ».

وفي فصلٍ آخر يتحدّثُ عن طاعون الحبّ في جنسٍ من النساءِ تكون زوجاً — ولا كالزوجة نفسِها — فهي البغِيُّ الربيطة التي بأجرٍ، أو بعَقْدٍ مدني[2] في بيتِ رجل، وكأنّما هو يُجْهِزُ على وارداتِ أوربة — وقد نَقَلَتْ رذائلَ مدنيّتها بمَن أضافوا الى لوثاتِ الشعوبيّة تاريخ رذائل أخرىٰ حضاريّة !.

ثم مقالة « المنافق » وقد حسِبَهُ « سياسيَّ الحُبّ والصداقة ؛ يَضَعُ المنفعةَ بَيْنَ عينَيهِ، ثم تتوزّع على جوارحِهِ كلُّ أساليبِ الكلامِ العاطفة،.. » حتّى ليُخيَّلُ إليكَ أنّه يصِفُ عَيّنةً من ساسَةِ تلك الأيّام، وهو يَسْتعيرُ معاني الحبّ في نفسه، وكيفَ تتبدّلُ القيمُ الإنسانيةُ عندهم !.

---

(١) السحاب الأحمر — ٣٦

(٢) هو من لقاء الرجل بالمرأة على غير الهُدى أو المروءة، وقد سمّاه العرب بَغْياً أي ظُلْماً وعدواناً. عَرَفَتْهُ كثيرٌ من الأمم، وأباحَتْهُ بعضُها، وربما دَعَتْ إليه، كزواج المتعة المتسلّل الى الاسلام عن العجم، وزواج الرفقة الآتي مع الغزو الأوربي للديار بحضارة ومدنيّة!!

ويتمالكُ نفسَهُ كالذي يُدْرِكُ مدى حَيْرتِهِ وضياعِهِ ؛ فَيَسْتهدي سَحابَهُ الى ثلاثةٍ من أصفيائِهِ ! هم الشيخ أحمد الرافعي — رفيق صباه، والشيخ محمد عبده، والشيخ جُمعة الجناجي صاحبُهُ في « كتابِ المساكين »، ليُناجي أرواحَهم، ويَسْتلهمَ معاني الحبّ منهم، وخواطر للنّاس، وحِكَماً وأوابدَ في الحضارةِ والحياةِ، وآراء ونظراتٍ في الاجتماعِ والإنسان، بصُوَرٍ من البيانِ ؛ تَدِقُّ أحياناً حتّى لَتَسْتَغْلِق، أو تعودُ فتصفُو حتى تتّصلَ باللوح ..

* * *

ولعلَّ آيةَ هذه الرسائل قد تَمَثَّلَتْ في ديوانٍ سمّاهُ « أوراق الورد » حاوَلَ بِهِ سدّ المكان الخالي في الأدبِ العربي، وإعطاءَ العربيةِ كتاباً في رسائلِ الحبّ ؛ يكون كالعَمَلِ الحاسم في النزاعِ بين الجديد والقديم،.. ثم تطهيرَ فكرةِ الحبّ وتهذيب معانيه في النفوس، والسموّ بهذه الفكرةِ الى الجهةِ الشِعريّة الروحيّةِ ؛ لأن ناموسَ الحُبّ طورٌ من أطوارِ الحياة، وسَدّ ذريعةِ الأوروبيّين الذين يُعيبونَ العربيةَ بضَعْفِ التصويرِ للعواطِفِ،.. فـ « أوراقُ الورد » دفاعٌ عن اللّغةِ كما أنّهُ تجديدٌ فيها وفي الأدب[1].

صدَّرَهُ بتاريخٍ آخَر جَعَلَه تكمِلَةً لرسائلِهِ السابقة وقال ؛ إن فيها جُملةَ آرائِهِ في فلسفة الجمال والحبّ، « وما كانَ تاريخ الأدب العربي بطولِهِ قد عَرَفَ رسالةً كُتِبتْ عن هذا الفنّ — على كثرةِ كتاب العربية وكتبها،.. وما عُرِفَ كتابٌ أفردَ لرسائلِ الحبّ من قَبْلُ،. غَيْرَ مستظرفاتٍ

---

(١) رسائل الرافعي — ٢٢٦

ونُتَفٍ ورِقاع لا تُسمّى رسائل حب !. في الوقتِ الذي حَفِلَ فيه التاريخُ برسائلِ الإخوانِ والديوان،.. وهكذا انطوىٰ على مَحْجوبةٍ بَقِيَتْ في الغيبِ الى عهدهِ الذي رجا فيه أن يكونَ قد أظْهَرَهَا، وأن تقولَ العربيّةُ هاؤم اقْرأوا كِتابَيْه »[1].

وعَرَضَ لتاريخِ هوىٰ صاحبِ الرسائل الذي « كانَ مِن نَمائِهِ وجمالِهِ وطُهرِه كأنّما أزْهَرَتْ بِهِ رَوْضَةٌ، لا امرأةٌ من النساءِ، وكانَ من مَساغِهِ وحلاوتِهِ ولذّاتِهِ البريئةِ كأنما أثمَرَتْ بهِ شَجَرةٌ خضراء تَعْتَصِرُ الحلاوةَ في أثمارِها أصابعُ النور،.. فأنتَ لا تجِدُ في هذهِ الرسائل معانيَ النّساءِ مُتَمثّلةً في امرأة تَتَصبّىٰ رَجُلاً، ولكن معاني الحبِّ والجمال متألّهَةً في انسانيّةٍ تَسْتوحي من إنسانيةٍ أو تُوحي لها »[2].

والكتابُ خالِصٌ للجمال بذاتِهِ، واقعٌ من الحُبّ في خاصّ معانيهِ[3]. فَهُوَ يَسْتهلُّ الديوانَ بنظرته إليها، وقولِهِ فيها[4]:

تاللهِ لو جدَّدوا للبَذْرِ تَسْمِيةً ... لأُعْطِيَ اسْمكِ يا مَنْ تَعشَقُ المُقَلُ
كِلاكُما الحُسْنُ فتّاناً بِصُورَتِهِ ... وزِدْتِ أنك أنتِ الحُبُّ والغزَلُ

وتلُوحُ لهُ في بَعْضِ ساعاتِ قَلْبه، وكأنّ سِرًّا من السكونِ يتجلّىٰ بها، ويقولُ له من عَينيها : إلْمَسْني وٱنظُرْني فيها[5].

ويهدي إليها زُجاجَةَ عِطرٍ ويرى كأنَّ العِطرَ سَيَعْلَمُ حينَ تَسْكبُه

(١) أوراق الورد ــ ١٨
(٢) أوراق الورد ــ ٢٢
(٣) أوراق الورد ــ ٢٥
(٤) أوراق الورد ــ ٢٨
(٥) أوراق الورد ــ ٣١

على جِسْمِها الفاتن أنَّهُ رَجَعَ إلى أجملَ من أزهارِهِ، وأنَّه كالمؤْمنين ؛ تركوا الدنيا، ولكنَّهم نالوا الجنّةَ ونَعِيمَها[1].

ويوم بعثت إليه بصُورتِها مع جوابِ رسالتِهِ، قال :

« وهَلْ في الحُسْنِ أحْسَنُ من هذا الوجهِ الذي يَرِفُّ على القَلْبِ بأنْدائِهِ، ويَتَلألأُ بنَضْرتِه حتى لكأنَّه خُلقَ من نور الفجر، وكأن علامةَ الفجر فيه إنما هي هذا الروحُ الذي يُحيطُ بالقَلْب من وَجْهكِ بمعانٍ كنَسَماتِ الصُّبْح، عليلةٍ من شِدّةِ الرقّةِ، ذابلةٍ من فَرْطِ الجمال، مملُوءَةٍ من رُوحِ النَّدىٰ بما يَجْعَلُها حولَ النفسِ كأنها جوٌّ من شعورٍ حيّ فَرِح لا نسمات في الجوّ، »[2]..

وعلى أنّ رسالةَ الابْتسامةِ كانَتْ جواباً عن قولها في رسالتها :

« ليسَ ضياعُ الرَّسْمِ لديكَ إلّا سَبيلاً لِتُجَدِّدَهُ مُبَكّراً بريشتِكَ الساحرة، فاقْبَلْهُ منّي عُربونَ الاحْترامِ الأكيدِ، وشكْري لما تَمْنَحُني من آياتِ نَفْسِكَ الباهرة، أنني لكَ أبداً »[3]. ماري

إلّا أنّ مجلةَ الهلال حينَ نَشَرَت الابتسامةَ هذه، رَمَزَتْ إليها برسمِ صورةٍ تَشْبهُ « مَيّ زيادة » إلى حدّ بعيد[4].

ومن وراءِ البحرِ تَتَحدّثُ إليه بحُروفِهِ، وتَحْسَبُ أنّ سعادةَ الفِكر

---

(١) أوراق الورد ــ ٣٥

(٢) أوراق الورد ــ ٣٨

(٣) رسالتها في ١٩٢٤/٦/٢١ م

(٤) الهلال ــ يناير/كانون الثاني ١٩٣١ م

المتّصل بها عنهُ، تُخفّفُ عنها بَعْضَ ما تجدُ، فتقطَعُ المسافَةَ المُترامية بقُوّةِ الأحلام، وتَتنهّدُ، وتقول :

« الحياةُ مادةٌ يا صَديقي ؛ فاذا لَمْ أَقُلْ كلمةً وأسمَعْ ردَّها، أو أَخُطَّ سطراً وأقرأ مثلَهُ، فإنَّ الفكرَ الذي يُسْعِدُني في كلّ شيء هو نفسُهُ الذي يُعَذّبني بكَ حتى لا أراك »[1]. فيُجيبها بقوله :

« أما واللهِ إنَّ في دون هذا لَبَلاغةً، فكلامكِ بيانٌ مُشْرِقٌ كإشراقِ الضُّحى، بَلْ لا أراكِ تجمعين ضميري وضميرك معاً في كلمةٍ إلّا أَحسَسْتُ أنه لقاءٌ بيننا في لَفْظ.

الحياةُ مادةٌ، فأينَ أنتِ يا مادّةَ الروحِ المُنْسَكبة في روحي ؟! »[2]

ويعودُ الى نفسِهِ يعتَدُّ :

« إنّي لمن اولئكَ الذين يَعْرفون أنَّ لَهُمْ عُروقاً سَماويّةً في أرواحِهم ؛ تَتَضَرَّمُ بالشُّعاعِ القُدْسيّ الذي كانَ يوماً في بعضِ أجدادِهم ؛ إمّا نُبوّةَ نَبي، وإمّا خِلافةَ خليفة وإما ملكَ ملك»[3]..

ليتَ شعري ؛ أتقومُ العاصِفَةُ الهوجاء من خَطَراتِ مِرْوَحةِ الحبيبة ؟! ويقَعُ الزلزال المُدمّرُ من رَجْرَجةِ مِنْديلها في يدها ؟!.. لا أدري، ولكن ربما ربما ! »[4].

---

(١) أوراق الورد ــ ٤٧ عن رسالتها في ١٣/٥/١٩٢٥ م
(٢) أوراق الورد ــ ٥١
(٣) أوراق الورد ــ ٥٢
(٤) أوراق الورد ــ ٥٣

ولا يكادُ يُصَوّرُ معنًى من المعاني في حالتَي الصَدّ والهجرانِ حتّى يردِفُه بمعانٍ من الرضا والاستحسان، وكأنَّهُ يوازِنُ بين اثْنَيْهما ؛ « تلكَ التي يَسْتمدُّ من لينها وسماحتها وذكرياتها السعيدة معاني الحُبّ التي تَمْلأُ النفسَ بأفراحِ الحياة.. وهذه يَسْتوحيها معاني الكبرياء والصدّ والقطيعةِ وذكرياتِ الحُبّ الذي أشرَقَ في خواطرهِ بالشعرِ، وأفعمَ قلبَهُ بالألم »[1].

يرىٰ القمر « طابَع اللهِ على أسرارِ اللّيل في صورةٍ وجهٍ فاتن، كما أنَّ وجهَ كلّ مَعْشُوقٍ هو طابعَ الله على أسرارِ القَلْب الذي يحبُّهُ »[2]، فتهيجهُ الأشواقُ فيداريها ويتأمّل القمر[3] :

يا ليلُ هيّجْتَ أشواقاً أُداريها فسَلْ بها البدْرَ ؛ إنّ البدْرَ يَدْريها
وكم رسائلَ تُلْقيها السماءُ بهِ للعاشقيـنَ فيأتيهـم ويُلْقيهــا
أما أنا فأتاني البَدْرُ مُزْدَهياً وقالَ : جئتُ بمعنًى من معانيها
فقُلْتُ من خَدّها أمْ من لواحِظها أمْ من تدلُّلِها أم من تأبّيها
فقالَ—وهو حزينٌ—ما استَطعْتُ سِوىٰ أنّي اخْتَطَفْتُ ابْتساماً لاحَ من فيها

ولا يكادُ يَتَحَدَّثُ عن نَظَراتها حتّى يقول :

« لو سألْتَني مَن هو العاشق ؟ لأجبتكَ : مَن أَحَسَّ أنّه قُذِفَ بِهِ في الابتسامات والنَّظَرات بمرّةٍ واحدةٍ الى مَهْبطَ السَّماوات، فيَشْعر أنّ نَعِيمَهُ أهنأُ من نَعيمِ الأرضِ، وأن عَذَابَهُ أشد من عذابها.. وكأنّه

---

(١) العريان ـــ ١١٥
(٢) أوراق الورد ـــ ٥٧
(٣) أوراق الورد ـــ ٦٢

إذْ يتنعَّمُ لم يُصِبْ أسبابَ النعيم، بَلْ أسبابَ الخلود في الجنّة،.. وإذ يتألَّمُ يَجدُ مادّةً ناريّةً خالدة على قلبه »[1].

« أمّا أَلَمُ الحُبّ فذاك حين يأتي على اللَّحْمِ والدَّمِ مَعْنًى لو تَجسَّمَ لكانَ هو الذي يَصْهَرُ الحديدَ في مَوْجٍ من لَهَبِ النار، ويُحطّم الصَّخْر في زَلْزلةٍ من ضَرَباتِ المعاول !.

وهو الألم المُدمّر لا يُكابدُهُ إلّا إنسانٌ يرادُ خَلْقُهُ ثانيةً، فيهدَمُ ويبنى،.. وأعظمُهُ لأعاظِم الحكماءِ والشعراء »[2].

ويظهر أن « ميًا » كانت تُشبّهُهُ بنابغةٍ فَرنسي وُلِدَ في الحياة مِراراً[3] فيطرَبُ لذلكَ ويرى « أنّ الشاعر العظيم لا تلدُ منه أُمُّه إلّا الجزءَ الأرضيّ ،.. أما الأَجزاءُ الروحيّة السماويّة التي هي زيادةٌ فيهِ على النّاس،.. فهذِه تِلدُها الحبيباتُ ومصائبُ الدنيا »[4].

وحين تجذِبُه فتنتها إليها يقول :

« ومَعَ جاذبيّةِ الألوانِ والعُطور في ثيابكِ وحِلاكِ[5]، جاذبيّةٌ أعطَرُ وأزهىٰ في مَلْبسِ معانيكِ من العَواطِفِ، وفي مَلْبَسِ رُوحكِ من الدَّلال،

---

(١) أوراق الورد — ٧١

(٢) جواباً على رسالة ماري يَنّي المؤرخة في ١٩٢٥/٢/٢٥ م، وقد حدثته فيها عن فتاتهِ التي جرحته ليُخرجَ للانسانيّة هذه العصارة الطيبة في « رسائل الأحزان » — أوراق الورد — ٨٠

(٣) من رسالة « مي » في ٢١ آذار ١٩٢٣.

(٤) أوراق الورد — ٨٦

(٥) عرف عن « مي » أنها تبدّل ثيابها يوم الثلاثاء في ندوتها أكثر من مرّة، وتزيد في أناقتها وعطرها.

ولا يَعْدِلُك في هذهِ الفتنةِ الكاسية إلا السماءُ في فِتْنتها للرّجالِ الالٰهيّين حينَ تَلْبسُ حرائقَها من شَفَقِ الصُّبْحِ »[1].

وفي نارِ الكلمة يَتَساءَلُ في حَيْرةٍ واضْطرابِ العاشق الفيلسوف :

« أيكونُ الحُبُّ تَنْقيحاً في معاني الكونِ بالنَّفْسِ وخيالاتِها ؟ أم في معاني النفس بالكونِ وحقائِقِهِ ؟ أم كِلَيْهما ؟!.. »[2].

وهي حينَ تَضيق من بعض ظَنّه[3] يقولُ لها :

« حقيقتكِ لا تَزالُ وراءَ آلافٍ من ظُنوني ؛ كأنَّ لها مَعْنى اختباءِ الوَحْش في الَفافِ الغابةِ وأشجارِها.. »

ويَسْتَعيرُ بعضَ كلامِها ليقول : « .. فاذا رضيتِ فانك جَذّابةٌ بل مُتَوَحِّشة في الجاذبية »[4] فيقابل بينها وبينَ الثقيلة (مي) فيَحْسَبهما واحدة ؛ « وإنّ هجرتِ فانك في الهَجْرِ بلا رحمةٍ ولا شفقة مُتوَحّشة متوحشة »[5].

ولكنّها تسارع فتكتُب له :

« أنا مُقَصّرة، أنا مُذْنبة، فسامحِ التقصير، واعْفُ عن الذّنْب، وانظُر الى العاطفةِ التي تأبىٰ إلا أن تبقيكَ على عرشكَ الذي مَلَكْتَهُ باسْتحقاق.. »[6] فيعقّبُ على قولها هذا بقوله :

---

(١) أوراق الورد ــ ١٠٩

(٢) أوراق الورد ــ ١٢٧

(٣) رسالتها في ١٩٢٥/١١/١٨ م

(٤) أوراق الورد ــ ١٣٥ ورسالتها في ١٩٢٥/٢/٢١ م

(٥) أوراق الورد ــ ١٣٥

(٦) رسالتها في ١٩٢٥/٦/١٥ م

« أمّا قبلُ.. فقد اجْتَمَعتُ عندَكِ بالحُبِّ، وكُشِفَ لي عن مخلوقاتِ الكونِ الشعريِّ، الذي تملأهُ ذاتي فلا يَنْقُصُ أبداً..

ورأيتكِ يا فجري، وربيعي، وشَبابي، وحُبّي، فلَنْ أنساكِ أبداً »[1].

وهكذا يَمْضي يَصُوغ هذهِ الآياتِ الفَريدة من معاني الحبّ وخواطرِ الجمال، في رسائلَ يمزُجُ قَلَمَها بقلمِهِ[2] ويُحَوّلُ لُغَتَها الى لغتهِ حتّى يُشْرِفَ على الغاية.

ولا تكادُ « مي » تهدِي إليه كتابَها « ظُلُماتٌ وأشعة » حتّى يَلْقَفَ فيها رسالتَها التي تَنْتهي بقولِها :

« في أعماقِ نفسي يَتَصاعَدُ لكَ الشكرُ بُخُوراً ؛ لأنكَ أُوحَيْتَ إليَّ ما عَجزَ دونَهُ الآخرون !. أتَعْلَمُ ذلكَ ــ أنْتَ الذي لا تَعلم ؟!

أتَعلَمَ ذلكَ ــ أَنتَ الذي لا أريدُ أن تَعْلَم ؟... »[3]

وفي هذه الرسائل يكابِرُ الرافعي مكابَرةً عجيبةً ؛ فهو تارةً يَجْعَلُ من خَصائِصِ حبائبهِ حالةَ حُبّ واحدة، وأخرىٰ يَنْفَردُ بهذهِ أو تلكَ أو هاتيك في رسائِلَ غادياتٍ رائحات ؛ يَضُمُّ إليها فِكراً وخواطرَ مما يتناثَرُ بين معانيهِ، وليغيظَ هذِهِ بما يَنْشُرُ من رسائل الأُخرى.

ومن بينِ هذه الرسائل « رسالةُ العتاب » التي بَعَثَ بها إليها، بعد أنْ تَفَتَّرتْ عليهِ في الردّ.. ولكن على صفحاتِ جريدة « السياسة »[4]

---

(١) أوراق الورد ــ ١٤٢

(٢) رسالتها في ١٩٢٥/٦/١٥ م

(٣) ظلمات وأشعة ــ ٧٢، أوراق الورد ــ ١٤٧.

(٤) السياسة ٣٠ مايو/أيار ١٩٢٣ م

وقد رأىٰ فيها طه حسين أُسْلوباً لا يليقُ بالعصرِ الذي تَغَيَّر فيه الذوق ــ إذ هو الذي يُشْرِفُ على صفحةِ الأدبِ في الجريدة !..

وكان الرافعي قد آثرَ أن يكونَ عتابُهُ مُوجعاً وذا وَطْأَةٍ على الحبيبةِ، فالْتَمَسَ فنًّا من زُخْرُفِ القَوْلِ والجملةِ العربيّة التي بَلَغَتْ بها الصناعةُ حَدًّا، يشبهُ أن يكونَ بعض فُنونِ الزخرف والتَّنسِيق الذي لا تريده وحَسِبَ أنه « حينَ يكونُ في مثلِ هذِهِ الرسالةِ لا يكونُ أبدعَ منه شيءٌ من الأساليب المرسلةِ الأخرىٰ.. » فقال :

« انتظرْتُ رَدَّ كتابي، أو وَرَقَةً من شَجَرةِ عِتابي، فما زالَتْ تَنقطِعُ الساعة من الساعة ويلتقي اليومُ باليوم، ويذهَبُ اللّوم الى العتاب، ويَجيءُ العتابُ الى اللّوم، وكتابكِ على ذلك كأنّه مُغْمًى عليه ــ لا هُوَ في يَقْظةٍ ولا هو في نوم !.. فسبحانَ من عَلَّم آدمَ الأسماءَ كلَّها لِيَنطُقَ بها، وعلّمك أنتِ من دونِ أبنائِهِ وبناتِهِ السكوتَ،..[1]

ما بالُ كتابنا يَمضي إليكِ سُؤالاً من القَلْبِ فَيَبْقَىٰ عندكِ بلا جَواب،.. ونَبْنيهِ نحنُ على حركةِ قُلوبنا، فتجعَلينَهُ أنتِ مَبْنيًّا على السُّكونِ، ثم لا مَحَلَّ له من الإعراب !.. وما بالُنا نقطعَ في انتظارِ الردّ مسافةً من هجرِكِ لو طارَ فيها البريدُ لانتهَى بكتُب الحسناتِ والسيِّئاتِ الى السماء،.. الخ »[1].

وقد ضَمَّنها ــ على قاعدةِ المتأخرين ــ من مُصْطلحاتِ العُلوم والفُنون مُوَرِّياً على المجازِ، وحَشَدَ فيها السَّجْعَ وفُنون البديع الأخرى

---

(١) السياسة السابقة ــ أوراق الورد ــ ٢٠٧

بما يَثْقُلُ فيهِ وطؤُها حقًّا ؛ لتكونَ في بابِ العتاب رَجْعاً آخر،.. ولكنّها تُسارعُ فتدَاركُ الأمر بقولها :

« أأنساك ؟! قد أتسامَحُ للذاكرةِ أن تَسْتَبِدَّ بي ما شاءَتْ، ولكنّي لا أجيزُ لها أن تَتعدّىٰ هذا الحَدّ المقدَّسَ في جَعْلِ نَفسِها حاجزاً بيني وبينَ ذكرِيَ صديقاً أفاخرُ به سِرًّا وجهراً، وأغارُ من نَفْسِي على نفسِي في نصيبٍ قد يَسْطو على العبثِ بِهِ فكري،.. هذِهِ مكانَتُكَ من نَفْسي ــ وهي مع سَعَتِها قليلةٌ في نَظري الى جانبِ ما تَسْتَحِق »[1].

ولكنّه كالذي تعودُ به الأحزانَ الى الظنونِ، في حالةٍ يريدُ بها أن يَسْلُوَ فلا يَستطيع غير أن يُهرعَ الى شجراتٍ له عِنْدَ النهر يقيم عندَها « صلوات في المحرابِ الأخضر » ويدعو بمثل قوله :

« يا مَنْ خَلَقْتَني إنساناً، ولكنْ قُضِيَ عليَّ أن أقطَعَ الحياةَ كلَّها أتَعَلَّمُ كيفَ أكونُ إنساناً »[2].

ولا يَكادُ يحاوِلُ النسيان، ويُسْدِلُ ستارَ السُّلْوانِ على الذكريات، حتى يَقْتَحم عليهِ طيفُ الحبيبة زائراً ؛ يهتِكُ سُجُفَ البُعْدِ الذي شَقّ بينهما :

حَيّا وسلّمَ ثم غادَرَ تاركـاً ... يَدَهُ على الكَبِدِ التي أدْماها
ودَنَا ليعترفَ الهوىٰ فتهالكَتْ ... أسرارُهُ، فَـرمَتْ بِـهِ، فَرَماهـا

---

(١) رسالتها في ١٠ حزيران ١٩٢٣ م

(٢) أوراق الورد ــ ١٨٦

وهنا يَجْثِم على ظلمةِ الصَّدّ بألوانٍ من النهارِ تَمُوتُ قبلَ أن يُولَدُ النهار[1]..

ولا يكادُ يكتُبُ « في معاني التنهّدات » ويَستجيبُ الى نِدائها لتنتظمها شِعْراً بالفرنسية، حتى تعودَ إليهِ تلك المعاني بحرُوفِهِ ـــ ولكن بخطّ يدها !!.. فيتأوَّهُ ويَتَلَوَّى، ونجدُهُ مُحبًّا يشْعرُ أحياناً من شدّةِ القَلَق والاضْطراب أن فكرَهُ يَعْدُو بينَ الأشياءِ والحوادِثِ وراء الاطمئنانِ الذي فَرَّ من قَلْبهِ[2]..

ثم هو يَعْمَدُ إلى سُطورٍ من رسائِلها، ونُثارٍ من أحاديثهما[3] يَجْعَلُ منهما فَصْلين مُمْتعَيْنِ حقًّا وغايةً في الأخذِ والتوزيع الفنّي (قالَتْ وقلت) و (قُلْتُ وقالت)[4].

ويلاحَظُ عليهِ في هذين الفَصْلين إبقاءَ كلامِها على حُروفِهِ، من غيرِ تعديلٍ ولا تبديل، بخلافِ الرسائل المتقدّمة، التي كان يعِيدُ صياغَةَ الأسْلوب فيها.

وهكذا اسْتطاعَ سَدّ المكان الخالي في العربيّة بعَمَلٍ حاسمٍ، فَصَلَ فيهِ النزاعَ، وجَعَلَ مُناوئيه يُحْجمونَ عن التَّعرُّض له، ويَفْسَحونَ في المجالِ لِسواهم من النقّادِ لتقديره وتقويم أثرِهِ[5] باعتبارِهِ قَطَعَ شَوْطاً

---

(١) أوراق الورد ـــ ٢٠٤
(٢) أوراق الورد ـــ ٢٥٠
(٣) كانت وسيلتهما في المخاطبة الكتابة ـــ لأنه أصمّ!!
(٤) أوراق الورد ـــ ١٦٣، ٢٣٩
(٥) أنظر محمد لطفي جمعة ـــ المساء ٢٩ نيسان/ابريل ١٩٣٢ م

بَعيداً في التجديدِ أثبَتَ فيهِ رأيَهُ السابق ووجهةَ نظرِهِ في الأسلوبِ الواحدِ الصحيح، وأنّه أقربُ إلى رُوحِ العصرِ في إنشاءِ الأُمّةِ إنشاءً سامياً.

إنَّ ما يَجْرِي حولَ هذه الرسائل وبواعِثِها من مُداوراتِ الكلامِ والمُناقشةِ هي قصّةُ حب الرافعي نفسِها، التي ثارَ الجدَلُ في شأنها مُتطايراً في ميادين الصحافة وأروقة المجلات،.. أدلى فيهِ الكثيرون بوجهاتِ نَظَرهم ؛ كأنَّ المسألةَ ذاتُ آراءٍ ونَظَر وقياس، تختلِفُ فيها الأذواقُ والمواجد !!.

على أني سَبَقَ أن وثّقتُها بوسائِلهما من المُراسلاتِ التي كانَتْ تُتطارح في الموضوع، ومن بينِ أوراقٍ وتعليقاتٍ له تخلّفَتْ على مكتبهِ من بقايا ما يحتَفِظ به أبناؤه، وما رُدّ بهِ على ناقديه، بحيثُ لم يَبْقَ هنالك مجالُ مماحكةٍ أو دَوَرَان واستعادة[1].

أعودُ فأقول : إنّ « وداد سكاكيني » أخرجَتْ بعد كتابي هذاك دراسةً وترجمة في « ماري زيادة » « ميّ »[2] ردَّدَتْ فيه أقوالَ بعضٍ من سَبَقُوها الى الحكايةِ، ولم تأتِ فيه بجديدٍ غير اللهجةِ القَلِقَةِ، والأسلوبِ غَيْرِ المتّزن في الحكم،.. وما برحَتْ قالة الوَهْم التي سَجَعَ بها الزيّات :

« ميُّ التي أَلْهمَتْ صبري وأَوْهَمَت الرافعي وأَلْهَبَتْ جبران ثم أخرَجَتْ من سوادِ المداد صُوَراً متنوّعةَ الأفنانِ أضافَتْ الى ذخائِرِ الفكرِ الانساني ثَرْوة »[3] تَتَشَبّثُ بها.

(١) الامام الرافعي — ٣٠٠

(٢) دار المعارف — ١٩٧١ م

(٣) الرسالة — ٤٤٠ — ١٩٤٤ م .

وقد أخرَجَ فاروقُ مسعد « باقاتٍ من حدائق مي » كتاباً أدبياً فريداً، تحاشىٰ فيه الخوضَ في الموضوعِ كالآخرين، وجاءَ بحيثيّات أخرى تُثبت ولا تنفي(١).

على أنّ الحبّ عند الرافعي هو دعوةُ السموّ بالحياة، والارتفاع بقيم الوجود الإنساني، بالحفاظِ على كرامتِهِ، وصيانةِ خُلُقِهِ بمتانةِ الثباتِ على الاعتقاد.

٣ ــ البحث

كان الأدبُ عند العرب الأخذَ من كلّ علمٍ بطرف، وغاية الأخذِ عندهم هي معرفةُ كلّ ما هو موجود.

وكان الفقه يَكادُ يَسْتَوْعِبُ أبوابَ المعرفةِ كُلّها ليصدُرَ بقواعِدِهِ وأحكامه،..

وكانَ التاريخُ ذلك العِلْمَ الذي يَسْتَطيلُ فيلقَفُ الفنونَ والآدابَ والعُلُوم جميعاً يُؤرّخ لها ولأصحابها.

وكذلك كان الرافعي في أخذِهِ العلمي، وتوفّرِهِ على أدواتِهِ، وإمساكِهِ بآلتِهِ دَرْساً وخبراً، وحفظِهِ لها فهماً واستيعاباً،.. والإلمام بمعظم ما وصلت إليه يده قراءة وسماعاً من الفقه والأدبِ والتاريخ، حتى كانَ أعلَمَ أهلِ العربية بفنونها وآدابها(٢). يشهَدُ بذلك خُصُومُهُ العديدون، والمُصَنِّفون الآخرون،..

---

(١) منشورات زهير بعلبكي ــ أنظر ص ٣٩٦ بيروت سنة ١٣٩٤ هـ ــ ١٩٧٣ م

(٢) أنظر الحديث الحلبية ١٠/١٩٣٧ م

وقد دلّت بعضُ آثارِهِ في التأليفِ والتَّصْنيف على هذا فيما دَبَّجَتْهُ يراعةُ من دراساتٍ وأوضاحٍ ومُساجلاتٍ مرَّ التعريفُ ببعضها(1).

على أنّ الدراساتِ الأدبية في عهدِ الرافعي لم تكُنْ قد اسْتَقَرّتْ على مَرْساةٍ واضحةٍ من البَحْثِ العلمي والتوثيق والمَنْهجةِ المُتكاملةِ،.. وإنّما الجديدُ فيها ما كانَ من محاولاتِ بَعْضِ المُسْتَعْرِبين في هذا المضمار، وتَلَقّفِ تلامذتهم لها بشكلٍ من الأشكال(2).

ومن ذلك أنهم كانوا ــ وما يزالُونَ يَدُورون في تلكَ المحاولات من حول عَصْرينِ سَمَّوهما في العصورِ الأدبية بالجاهلي والعباسي(3) لما فيهما من مجالِ الخَوْض في النواحي الجانبيّة والانحرافِ بالموضوعات ناحية، وما فيهما من خروجٍ على القِيمِ العربية وثباتِ الأخلاق وقانونِ المروءات !.

والبحثُ بعدُ أنواعٌ منها :

١ ــ الدراسة الأدبية

ولَعَلَّ أولىٰ هذه المحاولات عند الرافعي ذلكَ الفصل الذي عقَدَهُ للحديثِ في « الشعر العربي » وقد اسْتَهَلَّهُ بقولِهِ الأديب الناشئُ هذاك: « ضَرَبَت العَرَبُ في الشعرِ كلٌّ بسهمِهِ ؛ يُخْطئُ ويُصيبُ، حتّى مَلأُوا بقاعَ الأذهانِ حكمةً، وغَرَسُوا في الخيالِ فسِيلَةَ الأفكَار؛ فاذا هي شَجَرةٌ

---

(١) راجع النقد في المقالة التقويمية ص ١٤٩

(٢) طه حسين أظهر مثال على ذلك الاتّباع، لم يكد ينتهي من نالّلينو حتى تعلّق بمارجليوت!

(٣) راجع اثبات الدراسات العليا خاصة!! وذلك خوض المستعربين اليهود خاصة!!

طيّبةٌ أصلُها ثابِت في الجنانِ، وفَرْعُها في اللّسان ؛ تُؤتي أُكْلَها كلَّ حين بإذنِ ربّها »[1]..

وبعد أنْ يَلْقَفَ قالةً في الشعرِ يرفَعُ ويضع، فيديرُها أمثالاً تاريخيّة أدبيّة.. يقول :

« تلكَ كانَتْ حالةُ الشعرِ والشاعر، أيّام كان الأول كالنجمِ الزاهرِ تارة، وآونةً كالسَّيْفِ الباتر، ومَرّةً كالعُقابِ الكاسر، وطوراً كاللَّيْث الخادرِ.. وأيامَ كان الثاني في رصانةِ النَظْمِ عالي الذكرِ جليلِ القَدْرِ، يثورُ بِمِقْوَلِهِ كالأَسَدِ بمخلبِهِ، تخافُهُ القبائلُ وتخافُهُ العشائر،..

ثم يلتفتُ ليقول : « .. فَخَلَفَ من بعدِهم خَلْفٌ أضاعُوا القَصْدَ، وأضلّوا الموردَ فظلعوا كالضَّبُعِ على بُعْدِ المزار،.. حتّى بَلَغوا من البحر نَجْعَةً، فَلَزِمُوها يُرَدِّدُونها في أفواهِهم ترديدَ الصبيّ لُعابَهُ، حتى انقلَبَتْ فَقاقع[2] يغُرُّهُمْ فيها قولُ الناس انها الماءُ الزلال أو السحرُ الحلال،.. لا ألسِنةَ لَهُمْ الا صُحُفُ أسلافِهم يَقْطَعون من مُشَجَّرها أشجاراً، ويَجْنون من حدائقها ثماراً،..

أولئك الذين جَعَلُوا الشعر تجارةً — وليتَها لم تكن بائرة، وَتَخِذُوا النَّظْم صفقةً ولكنها خاسرة،... حتى انكدرت نجومُ الشعر وكُسِفَتْ شموسُ أهلِهِ »[3].

وقد أفاضَ في هذهِ المحاولةِ الدراسيّة اسْتِشْهاداً واسْتِطراداً يدُلُّ بهما

---

(١) و(٣) المنار ١٥ — ٣ ربيع الآخر ١٣١٨ هـ — ٢٨ يوليو/تموز ١٩٠٠ م
(٢) راجع ما سبق من أخذ سلامة موسى للعبارة ورميهِ أدب الرافعي بها.
— الهلال — ابريل ١٩٢٥ م — وانظر كتابنا في الرافعي الناقد الأديب).

على حُسْنِ الانتقاد، والتأمّلِ، والذَّوْقِ، والدعوةِ الى النَّهْضةِ بروحٍ عاليةٍ ومَعْنَويّةٍ مُتميّزةٍ.. فلم يترك من فنونِ الشعر قولاً في سائرِ العصور، حتّى الأزجال أورَدَ أمثالاً لها، وما لَمْ يعْرِضْ له من تَخِذَهُمْ عَضُداً لِدَعْوتهِ من مُصَنّفي القولِ في تلكَ الفنون، ثَباتاً أمام شيوخِ الأدَبِ في زمانِه[1]. حتى قال :

« ألَمْ تَرَ كَيْفَ زَعَم الغربيّون ومن يَتَعَصّبُ لهم من أبناءِ الشرق، أنّ العربَ لم تذُقْ ألسنَتُهم من البَلاغةِ إلا كما تذوْقُ الأعيُنُ من النومِ غِراراً ومَضْمَضَةً، وإنّ لهم لعُذراً في ذلك ما دامَ شعراؤنا بمَعْزِل عمّا يقولهُ الشاعرون »[2].

وكانَتْ محاولتُهُ الثانية يومَ تصدّىٰ لشُعراءِ العَصْر يُرَتِّبُهم في طبقاتٍ، ويأخُذُ عليهم المآخذَ النقديّة والبَلاغية، ويشيدُ بالمآثِر، ويقدّمُ ويؤخرُ ما شاءَ له ذوقُهُ الأدبي، ورأيُهُ المخاطِر واتجاهُهُ في الإثارةِ[3].

وكانَتْ دراسة أطارَتْ لها أصداءَ من النَّقْدِ والمُوازنةِ والأخْذِ والردّ في سائرِ صحُفِ ذلك العهد.. وقد أفادَ منها في لَفْتِ الأنظارِ إليه، على الرُّغْمِ من عَدَمِ تصريحهِ باسِمِهِ.

ولكنّ الدراسةَ التي أفادَ فيها من مَواقِفِهِ السابقةِ هي التي أفردَها لشعرِ البارودي[4] أوّلُ دراسةٍ أدبية ظَهَرَتْ بَعد مَوْتِهِ، وقد أضْحَتْ

(١) المنار السابق.
(٢) وقف له الشيخ رشيد رضا يأخذ عليه غلو الشباب في النقد ــ المنار السابق.
(٣) الثريا ــ يناير/كانون الثاني ١٩٠٥ م
(٤) المقتطف ــ مارس/آذار ١٩٠٥ م

مادّةَ الأساسِ لِمَن جاءَ يدرسُ باعثَ الشعر العربي الحديث[1]، وفيها يقولُ فَيَشِفُّ عن ذَوْقٍ واعتدال وإدراك مبكّر :

« لم يكُنْ شاعرنا كاملَ التصرُّف في فنونِ المعاني — وإن كانَ أشعَرَ من جميعِ مُعاصِريهِ بلا مِراءٍ — غيرَ أنَّهُ أتمّ ذلكَ بما اتّفقَ لَهُ من جمالِ الصَّنْعةِ وبديعِ الرواءِ.

أمّا نَمَطُ البارودي في النظمِ فهو غايةُ ما دارَتْ به الألْسِنةُ ؛ عُذوبةٌ تكادُ تَرشفُ، وجَزالةٌ تَلْعَبُ بالنفس، وسلامةٌ يَسْتريحُ في ظلّها القَلْبُ، وتَسْتَنْشقُ نسيمَها الكبدُ ؛ فهو الغَديرُ أعذبُ ما يَكونُ، والمرآةُ أصفَى ما تكونُ،.. ولشدّةِ رَغبَتِهِ في ذلك النّمط وانصرافِهِ إليه بجُمْلَتِهِ، جعلَهُ المرجعَ باختيارهِ من شعرِ الشعراء »[2].

ثم توالَتْ دراساتُه الأدبيّة الأخرى، يُوفّق فيها، ويشار إليه في أخذهِ، وانتقائِهِ لشواهِدِهِ، ويُعجبُ لالتفاتاتِهِ،.. وربما ثارَتْ من حولها الآراءُ ووُجهات النظر!..

عَرَضَ لشعرِ اسماعيل صبري (باشا) بعدما علم « أنّهُ كانَ دائم الحُبّ ؛ يمزجُ ماضِيه بحاضِرهِ فيخرج منهما حُبًّا جديداً، وكان الرجلُ كأنّه مجروحُ القَلْب، فلا يَزال يئِنُّ حتّى في بعضِ أنفاسِهِ !، إذْ يرسِلُ النَّفسَ الطويلَ بين هُنَيْهةٍ وأخرىٰ كأنّهُ يريد أن يطمئِنَّ أنّ نَفسَهُ فيهِ »[3].

---

(١) راجع محمد صبري — أدب وتاريخ — البارودي، وعبد الحميد الحديدي — البارودي باعث الشعر الحديث.

(٢) المقتطف السابق — ويريد بها المختارات التي وفق البارودي لجمعها.

(٣) المقتطف مايو ١٩٢٣ م — وحي القلم ٣ — ٢٥٩ وما بعدها.

وتلك هَمْهَمة لا تكونُ في شعرٍ بغير معنى!. فكأنَّ الرافعي كانَ يَسْتَبق في الوجهةِ الفنّيّةِ لدراسةِ الأدب[1] وقال :

« شاعرنا هذا ــ صبري ــ أخرجَهُ اثنان : الظرفُ والجمالُ، وهذا سِرٌّ إبائِهِ أن يُدعىٰ من الشعراء ؛ لأنّه أرفعُ من أن يدخُلَ بينهم في هذه المِحْنةِ والبلوىٰ التي ابْتَلَوْا بها[2].

ولإفراطِهِ فيهما، وقيام شعرِهِ على هذينِ الركنين جاءَ مُقِلاً من أصحابِ القصارِ، وزادَ إقلالُهُ في قيمةِ شعره، فخرجَتْ مقاطيعُهُ مخرج الشيء الطريف،.. غير أنَّ صبري كان لَهُ مع جودةِ المقاطع جودةُ القَصيد إذا قَصَدَ »[3].

وقالَ في دراسته للشيخ محمد الخضري صاحب تاريخ الأمم الاسلامية، وتاريخ التشريع :

« إنّ الذي يُريد أن يقولَ قولاً صحيحاً في هذا الفقيه العالم المؤرّخ الأديب المُربّي، يجبُ أن يرجعَ الى منبعِهِ، ليعرفَ مبلغ انبعاثه وقوة حُريّته، ومَدّ عُبابه »[4].

ثم عَلّق على قولةٍ للشيخ الخضري كانَ قد صدّر بها كتابَهُ (تاريخ الأمم الاسلامية) :

---

(١) المقتطف مايو ١٩٢٣ م ــ وحي القلم ٣ ــ ٢٥٩ وما بعدها.

(٢) حاول ذلك فيما بعد محمد خلف الله بمَرْقَعَةٍ من أفكارِ أدباء الغرب ونُقّاده جمعَ بينها في محصلة

(٣) المقتطف مايو ١٩٢٣ م ــ وحي القلم ٣ ــ ٢٥٩ وما بعدها.

(٤) المقتطف ــ مايو ١٩٢٧ ــ وحي القلم ٣ ــ ٣٤٣

« أرجو أن أكونَ قد وفقتُ لتَذْليلِ صُعوبةٍ كبرىٰ ــ وهي صعوبةُ استعادةِ التاريخِ العربيّ من كتبُهِ » فقال الرافعي :

على أنّ الشيخَ أحسَنَ في كتابهِ، وجاءَ بمادّةٍ غزيرة من فكرِهِ ورأيِهِ، وبَسَطَ واختصر، فانّ حكمَتُهُ هذه إما أن تكونَ أكبرَ من التاريخِ، أو أكبر من كتابِهِ،..

وقال ــ بعدما مرَّ على مصنفاتِ الشيخ ــ :

« أظنُّ كلَّ ذلك لا يذكَرُ في جَنْبِ الكتابُ الذي كان يعمَلُ فيه أخيراً « الأدب المصري »[1] أخبرني أنه في جزءَيْنِ، ودعاني الى دارِهِ لأطّلعَ عليهِ، فوعدتُهُ ولم يُقَدّرْ لي »[2].

وقالَ في دراستِهِ للجانِبِ اللُّغَوي عند يعقوب صرّوف، بعدما أشارَ الى مقالٍ له نشره في « المقتطف » مرّتين ؛ مُوجزاً وموسعاً[3] في التعريبِ وطريقتِهِ في الترجمة :

« أعجبني حُسْنُ التَّقْسِيم الذي ابتَدَعَهُ الدكتور صرّوف لقواعدِهِ التي بَسَطها في مقالِهِ، حتى إنّي لأراهُ باباً جديداً في التقسيمِ المعروفِ عند العلماء لابتذالِ الألفاظ وغرابتها ؛ إذ لم يبقَ عندنا غريبٌ ومبتذل، ولا بَيْنَنا عَرَبٌ ومُحدثون،.. غير أنّ الأستاذَ يَتَرَخّصُ في الألفاظِ العاميّة وهو يجدُ فصيحها،.. لأنَّه أغفَلَ أَصْلاً اجتماعياً عظيماً ؛ فانَّ عاميَّتنا غيرُ منقطعةٍ من العربية الفصحىٰ، ولا يزالُ فينا ميراثُها من القرآنِ والحديثِ

(١) ليت من يُعنى بآثار الشيخ أخرجه للناس!!
(٢) المقتطف السابق ــ وحي القلم ٣ ــ ٣٤٥
(٣) المقتطف يولية ١٩٠٦ م، مايو ــ ١٩٢٧ م

وكلامِ العُلَماء في أمورِ الدين، وهذه هي وسائلُ مَزْجهم بالفصيح، وردّهم إليه.. ولا تَزالُ هذه الوسائلُ تفعَلُ ما تفعلُه النواميسُ المحتومة، ولولاها لما بقي للفصحىٰ بقيّةٌ بعدُ »[1].

ثم كان كذلك في دراسته لحافظ ابراهيم التي اسْتَهَلَّها بقوله: « فَرِغْتُ الآنَ من قراءةِ شعر حافظ، بعد أنْ لم يعُدْ بينَنا إلا شعرُهُ ونثره،.. فباللهِ أحلِفُ ما نَظَرْتُ في صفحة مما بين يَدَيّ إلّا وأحسَسْتُ أنّ ذلك الشاعر العظيم يقولُ في بيانِهِ الرائع وصناعتِهِ البديعة: أنا هنا »[2]، فهو في هذه الكلماتِ التي يَسْتهلُّ بها كأنما يضَعَ للدراسَةِ الأدبية قواعِدَها، ويَرْسِم مُنهاجاً، ويصِلُ ما انقطع من أثرِ الفنّ والابداع.

ودَرَسَ أحمد شوقي على هذِهِ السبيل، فذهبَ به الى القول: « عِنْدي أنّهُ لا أملَ أن يَنْشأ لمصرَ شاعرٌ عظيمٌ في طبقةِ الفُحول من شعراءِ العالم، إلّا إذا أعيدَ تاريخُ أحمد شوقي مُهَذّباً مُنَقّحاً في رجُلٍ وَهَبَهُ الله مواهبَهُ »[3].

« وأنا حين أكتبُ عن شاعرٍ لا يكونُ أكبرُ همّي إلّا البحثُ في طريقتِهِ — وإبداعِهِ لمعانيه، وهل هو شَعَرَ بالمعنىٰ شُعوراً خالَطَ نفسَهُ وجاء منها، أم نَقَلَهُ نقلاً فجاءَ من الكتب ؟!

وإذا عرضْنا لشوقي بتلكَ الطريقةِ، رأيناهُ نابغةً من أوّلِ أمرِهِ، ففيهِ

---

(١) المقتطف يناير ١٩٢٨ م — وحي القلم ٣ — ٣٩٣
(٢) المقتطف — اكتوبر ١٩٣٢ م — وحي القلم ٣ — ٢٧١
(٣) المقتطف — نوفمبر ١٩٣٢ م — وحي القلم ٣ — ٣٩٥

تلك الموهبةُ التي أسمّيها « حاسّة الجَوّ » إذ يتلمّعُ فيها النُّبغاءُ معاني ما وراءَ المنظور، ويَسْتنزلون بها من كلّ معنى غيرَهُ »[1].

ومن هذه الناحية فانّ دراسته « للشعر العربي في خمسين سنة » التي انتقل فيها من صفّ التاريخ للمرحلةِ الأولىٰ من العصرِ الى دراسةِ موضوعية لفنونِ الشعر وتطوُّرِها في تلك الحقبةِ، بعدَما وقَفَ بها على العلّةِ في الضّعفِ الذي سبقها،.. فقال :

« لا تكادُ تَجدُ شِعراً عَرَبيًّا بعد القرن التاسعِ الى أوّلِ النهضة إلاّ رأيْتَهُ صُوَراً ممسوخةً مما قَبْلَهُ، وكلّ شعراءِ هذه القرون لَيْسُوا ممّن وراءهم إلا كالظلّ من الانسان : لا وجودَ لَهُ من نفسِهِ، وهو مَمْسُوخٌ أبداً، إلاّ في النُّدْرةِ حينَ يَسْطَعُ من مرآةٍ صافية »[2].

وفي التفاتة مُخاطرة يقول :
« إنَّ عُلوم البَلاغةِ التي أَحْدَثَتْ فنًّا ظَريفاً في الأدبِ العربي، وأنشأَت الذَّوْقَ الأدبيّ نشأَتَهُ الرابعة في تاريخِ هذه اللغة ـــ بعدَ الذَّوْقِ الجاهلي والمحدث والمُولّد ـــ هي بعينها التي أَضْعَفَت الأدَبَ، وأَفْسَدَت الذوق، وأصارَتْهُ الى ما رأينا في شعرِ المتأخّرين !.. ».

وبصراحةِ الواثق من نفسِه يقول : « إنَّ الشعرَ العربي لم يُوَفَّ قِسْطَه، ولم يبلَغْ مبلغَهُ في مجاراةِ هذه النهضةِ قُوَّةً وابتكاراً وسلامةَ اختراع وحسن تنوّع، لسببين :

---

(١) المقتطف ـــ نوفمبر ١٩٣٢ م ـــ وحي القلم ٣ ـــ ٣٠٢
(٢) المقتطف ـــ يناير ١٩٢٦ م

الأول : أنّه لا يَزالُ كما كان منذ فَسدت العربية، شِعرَ فئةٍ لا شِعْر أمة،..

والثاني : سقوطُ فنّ النقدِ في هذِهِ النهضة،.. »[1]

ولكنّه يتداركُ بقوله :

« وعلى ما نَزَلَ بالشعرِ من هذَيْنِ السببين، فقد استقلَّتْ طريقتُهُ، وظَهَرَ فيه أثرُ التحوّل العلمي والانقلاب الفكري، وعَدَلَ به أهلهُ الى صُوَرِ الحياة، وأضافُوا به مادّةً حسَنَةً الى مجموعةِ الأفكار العربية، واتَّسَعَتْ دائرةُ الخيالِ فيه بما نقَلوا إليه من المعاني المُترجمة عن لغاتٍ مختلفة، وهو من هذه الناحية أوسَعُ من شعرِ كلّ عصرٍ في تاريخِ هذه اللغة،.. » الخ[2].

ولا ريبَ أن النَّفْسَ بها حاجةٌ أبداً مع دينها الرّوحي الى دينٍ يقومُ على الشعورِ والرغبة والتأثير فيفسّرُ لها حقائق الحياة، ويكون وسيلةً من وسائلِ تغييرها،.. ذلك الذي لا يجمُل الجمالُ إلا بهِ، ولا تسْكُنُ النفسُ إلّا إليه،.. وذلك هو الشعرُ ![3].

٢ ــ بعث التراث

كانَتْ أيامُ التحصيل عند الرافعي سِياحةً فكريّةً بين الكُتُبِ المطبوعةِ في الآفاقِ، وبينَ مخطوطاتٍ لم تَرَ نور الطباعة، يَجدُها في مكتبةِ أبيهِ، ومكتبةِ المعهد الأحمدي ومكتبةِ الشيخ القَصَبي في طنطا، وفي

(١) المقتطف ــ يناير ١٩٢٦، وحي القلم ٣ ــ ٣٧١

(٢) المقتطف ــ يناير ١٩٢٦،

(٣) المقتطف ــ يناير ١٩٢٦،

دارِ الكتب بالقاهرة.. وعند العُلمَاء والفُضلاء من صحابِ أبيه وأصدقائِهِ،.. وقد تَوَفَّر عليها قِراءَةً وتَصَفُّحاً وأخذاً وحِفْظاً يَتوسَّعُ فيهِ، واختصاراً يُعنىٰ بهِ ؛ ليفيدَ منها في قابلِ أيامِهِ[1].

ويومَ تصدّى للتأليفِ في « تاريخ آداب العرب » كانَتْ له حصيلةٌ علميّة وافرة، في هذا الشأن، أشارَ إليها من نَوَّهوا بفضلِهِ في السَّبْقِ[2].

وتشيرُ حياةُ الرافعي ورسائلُهُ وأخبارُهُ الى مَبْلَغِ عنايتِه بالميراثِ العربي[3] ؛ يَتمثَّلُ ذلك في مُعْظَمِ ما توخّاه تاريخاً أو نَقْداً أو إنشاءً في الآدابِ العربية، وفي مباحث القرآن العظيم، وفي البلاغةِ النبوية، وفي سائرِ مجالاتِ الأدبِ والتعبيرِ والمُفاصَحَةِ التي أبدَعَ فيها بما لم يكن له في العربية ضَريب[4].

ذلك أنّه لم يكن يُرضيهِ ما تَحْتَ يدهِ من مَصادر البحث ومراجعِهِ، وإنّما قد يبلُغُ الجهدُ به أحياناً أن يَلْتمِسَ مختلفَ النسخ المطبوعةِ فيها والمخطوطة، ويطلُبُ الى أصدقائِهِ في دورِ الكتب وأصفيائِهِ وطَلَبتِهِ أن يُوافوه بما يقفون عليه في هذا السبيلِ، أو بكلماتٍ فيها[5].

---

(١) الهلال ــ يناير ١٩٢٧ م
ولعلّ من أعجب ما وقعت عليه من دفاتره التي كان يختصر ويلخص فيها المخطوطات والمطبوعات النادرة كتاب « الفهرست » لابن النديم وقد اختلف عليه الحبر الأخضر والأحمر والأسود.. غير البنفسجي الذي كان يفضله في الكتابة.

(٢) راجع تقاريظ القوم في صحف ذلك العهد.

(٣) الزهراء ــ الربيعان ١٣٤٥ هـ

(٤) منها خماسيته الانشائية : حديث القمر، المساكين، رسائل الأحزان، السحاب الأحمر، أوراق الورد.

(٥) أنظر رسائل الرافعي، ورسائل تلامذته إليه.

ولعلَّ آيةَ ذلك حين وكلَ إليه السيد محمد زاهد البدري الناشر الشهير بحسام الدين القُدْسي قراءَةَ أدبِ الكاتب للجواليقي، الذي يطبَعُهُ، وكتابةَ مقدمةٍ له، وقد أخَذَ منهُ تصحيحَ الكتاب ومراجعته سَبْعةَ أيام[1].

وقد لقفَتِ « المقتطف » المقدّمةَ تَنشُرُها، وتعدُّها رَأياً جَديداً في كتُبِ الأدب القديمة[2] إذ قالَ فيها مردّداً لكلام الأقدمين ومعقباً عليه :

« أدَبُ الكاتب لابن قتيبة يُعَدُّ من الدواوينِ الأُربعة التي قالَ ابنُ خلدونَ فيها من كلامِهِ على حَدّ الأدب :

« سمِعْنا من شيوخِنا في مجالس التّعليم أن أصولَ هذا الفَنّ وأركانَهُ أربعةُ دواوينَ ؛ هي أدبُ الكاتبِ لابن قتيبة، والكامِلُ للمبرّد، والبيانُ والتبيين للجاحظ، والنوادرُ لأبي علي القالي،.. وما سوىٰ هذه الأربعة فتَبعٌ لها وفروع منها ».

قال الرافعي ـــ وهو من أبدعِ ما عبّر بهِ تقريراً لحقيقةِ النقدِ آنذاك :

« إنّ ظهورَ هذا الشرح كالتوبيخِ لأكثرِ كُتّاب هذا الزمن ؛ أنْ اقْرأوا، وادْرسُوا، وخُصّوا لُغَتكم بشَطْرٍ من عنايتكم، وتربَّوْا لها بتَرْبيتها في مدارِسكم ومعاهِدِكم،.. واصبروا عليها ومُعاناتها صبرَ المحبّ على حَبيبه، فانْ ضَعُفتُمْ فصبرُ البارّ على من يَلزمُهُ حقُّهُ، فإنْ ضعُفْتمْ عن هذا، فصَبْرُ المتكلّفِ المتجمّلِ على الأقل !.. »[3]

---

(١) المقتطف ـــ يونية ١٩٣١ م
(٢) مقدمة ابن خلدون ـــ ٤٧٢
(٣) مقدمة شرح أدب الكاتب ـــ ٧

والثانيةُ، ما حَدّثَنا « العريان » عنها حين عادَ القُدْسي يكلُ إليهِ تصحيح كتاب « ديوان المعاني » لأبي هلال العسكري، وهو من أَخْطرِ كتُبِ المختارات، وكان الرافعي يشيرُ إليه بحسرةٍ وألم، لفُقدانِهِ هو وكتابُ (المنظوم والمنثور) لابنِ طَيْفُور. إذ لم يكن منه في دارِ الكتب غيرُ جزءين من ثلاثَةَ عشر مجلّداً مفقودة[1].

وقد شهِدَ العريان الرافعيَّ — وهو يُصحِّحُ الكتابَ، فدُهِشَ لقُوّةِ حافظتِهِ، وسُرْعةِ اهتدائِهِ الى مراجع البحث، ومهارةِ الاسْتدلال على مواضعِ النقص،.. حتّى لكَأنَّهُ بازاء مكتبةٍ حيّة دقيقةِ التركيبِ مُنَظّمة التبويب[2].

وكان الشيخ مُحمد عبدُه قد اشتَغَلَ بتصحيحِهِ مع محمد الأمين الشنقيطي، المغربي الراوية الحجة، فلم يَتَهَيّأْ لهما إتمامُهُ ولا إخراجُه،..

ثم شرعَتْ لجنةُ التأليف والترجمة والنشر في التصحيحِ لطَبْعِهِ فعَجزَتْ عنه وتركته[3].

وكان الرافعي قد حَفّزَ القُدسيَّ على نَسْخِهِ ونَشْرِهِ بالاتفاق،.. وكان في الجمعيةِ الخيريّةِ نُسْخَةُ الشيخ محمد عبده، وقد شمّر القُدْسِيّ عن ساعدِ الجد، فاستَنْسَخَ لهُ نسخةً بخطّ واضحٍ غير أنها كانَتْ كثيرةَ التصحيف، والكتاب بَعْدُ كالتوراةِ المُبدَّلةِ لا يمكن تصحيحُهُ بيسرٍ معتاد،..

---

(١) رسائل الرافعي — ٢٣٧

(٢) العريان — ١٧١

(٣) الرسائل — ٣٠٥

راح الرافعي يقابلُها على نسخةِ دار الكتب ومُصَحّحةِ الإمام عبدُه، ونسخةٍ أوربيّة حَصَلَ عليها الناشِرُ بمساعدةِ الدكتور « كرنكو » في ليدن بهولاندة،.. حتّى أتمَّ ثُلُثَ الكتاب، وقد تعِبَ فيه كثيراً[1].

وهنا حَدَثَ أنَّ خِلافاً ذَرَّ قرنُهُ بينهما نتيجةَ ذلك، زادَهُ العريان عفا الله عنه بِحِرْصٍ غيرِ واردٍ، انقَطَعَ بعدَهُ الرافعي عن إتمامِ العمل،.. واستمرَّ الناشرُ بالطبعِ، فكانَتْ ملاحظاتُ الرافعي وتعقيباتُه ذَيْلاً للكتابِ نفسه[2].

والثالثةُ معاونته للشيخ محمد سعيد الرافعي صاحبِ المكتبة الأزهرية في إخراجِ جُمْلَةٍ صالحةٍ من كتُب التراث[3] إذ يذهَبُ صديقنا أنور الجندي الى أنَّ معظم تلك الكتُب كان من تصحيحِهِ وتحتَ إشرافِهِ، وكادَ العُريان أن يؤيّدَ ذلك، ويَعُدّهُ في سبيلٍ من التعاون القائم في الأسرةِ الرافعية، وكان في مطْلَعِ حياتِه[4].

وبين يديّ « ديوانُ الحماسة » مختارات أبي تمام من أشعارِ العرب ــ أَحَدُ هاتيك المنجزات في بعثِ التراث، طبعة الرافعي عام ١٣٣١ هـ

---

(١) الرسائل ــ ٣٠٦

(٢) حدثني بذلك القدسي نفسه، واتّبع ذلك في ٧ ذي الحجة ١٣٩٦ هـ برسالة فصّل فيها حكاية الخلاف الذي سببه تدخل العريان بينهما،
ذلك أن الاتفاق كان على أن يأخذ الرافعي كُتُباً من مكتبةِ القدسي مقابل التحقيق،.. لكن العريان أرادَ ثمناً من النقدِ الذي لم يكن لدى الناشر ما يَسُدُّ قيمة الطبع!! وبذلك ضاعت الفرصة الثمينة علينا!

(٣) أنظر قائمة مطبوعات الأزهرية على غلاف كتاب المساكين ــ ٢ ١.

(٤) حدثني بذلك قبل فراقه الدنيا بأسبوع ٢٧ مايو/أيار ١٩٦٤ م

ــ ١٩١٣ م وقد اختَصَرَ فيهِ شرحَ التبريزي وأضافَ إليه ما يحلُّ غريبَ مفرداتِهِ. وهي طبعةٌ تُعَدُّ في النوادر اليوم.

أمّا التعريفُ بالشعراءِ والترجمةِ لهم، وذكر أسبابِ قولهم الشعر، وزيادةِ التهذيب والتنقيح التي جاءَتْ بها الطبعةُ، فلها شَبَهٌ كبير وربّما بالحرف الواحد تقريباً يجيء مع هوامِش ديوانِ الرافعي في الموضوعاتِ والشخصيّات نفسها، يؤيّدُ ما ذَهَبَ إليه الجندي في هذا الشأن[١].

وإذا كانَتْ هذه الأعمالُ غيرَ متكاملة التحقيق العلمي المناظر والمقارن، وما عليهِ الدراسات التحقيقيّة القائمةُ اليوم، فانَّ عنايتَهُ بأبي الطيّب أحمد ابن الحسين « المتنبي » قد بَلَغَتْ هذا وفاقَتْ، وإن لم يَظْهَرُ اسمُهُ عليها في شكلٍ من الأشكال !..

إنّه أعانَ صِهْرَهُ عبد الرحمن البرقوقي على شرحِ ديوانِهِ، بل كَتَبَ هو مقدّمَتَهُ[٢]، ومعظَم ما جاءَ في الشرحِ من شَواهد وشوارد،..

ووجَّهَ صفيَّهُ محمود محمد شاكر ليضَع درَاسته في « المتنبي » التي وافَتْ في جزءٍ خاص من المقتطف[٣] من بعدِ تلك الموازنة بينَهُ وبين البحتري وأبي تمام[٤].

وممّا قاله في أبي الطيب وشعره :

« ان المتنبي ربُّ المعاني الدقّاق، فللذهنِ عندَهُ في شعره جَوَلان، وما دامَ هنالك ذهنٌ يلقَفُ، وذوقٌ يَسْتدقّ، ومَلَكةٌ بيانيّة، وبَصَرٌ بمذاهبِ

(١) لا تعنينا المقارنة هنا بقدر ما نريد به تثبيت حقيقة تاريخية قد تكفي الاشارة إليها أحياناً.
(٢) إلعريان ــ ٢٦٦
(٣) أنظر الطبعة الثانية ١ ــ ٢٤٢
(٤) المجلة الشهرية ــ مايو ١٩٢٥ م

الشعر، أمكنَ إدراك ما يترامىٰ إليه مثلُ أبي الطيب، ولو بشيء من الجُهدِ المُلِذّ والتّعَب المُريح !.

تتبّعْتُ جميعَ من تعرّض للمتنبي بالشرحِ أو النقد، فوجَدتُ لهم جميعاً بجانبِ حَسَناتهم سيّئات، والى سَدادِهم زلّاتٍ وهفوات،.. وهذا حقًّا من غريبِ طبائعِ البشر،.. فسبحانَ من تفرّدَ بالكمال ».

وفي الموازنة يقول : « المتنبي أكثرُ الثّلاثة مُبالغةً يخرجُ فيها أقبح المحالِ، وتَعْقيدُهُ أسوأ من تعقيدِ أبي تمام، بَلْ من تعقيدِ كلّ شعراءِ التاريخ العربي،.. وذلكَ من تداهِيهِ لا من غَفْلَتِهِ،..

ثمّ هو أقلُّ الثّلاثةِ إحساناً في صناعَةِ البديع، إلّا في القليلِ الذي يبلُغُ فيه مبلغَ أبي تَمّام، والنتيجة من ذلك أنَّ أبا تمام أفضَلُ الثلاثةِ في مجموعِهِ، وهو كالعَقْلِ المبتكر،.. والبُحتري أشعرَهُم في الجُمْلةِ، وهو كالطّبْعِ السّمْح المتدفق،.. والمُتَنبي أحكمهُم في خصائِصِهِ، وهو كالفكْرِ المولّد،.. وأكثرُ المتقدمين على تفضيلِ أبي تمام، ونحنُ من هذا الرأي »[1].

* * *

٣ ــ تاريخ الأدب

التاريخُ ذلك العِلْم الجليل الذي لَهُ عند العرب مكانُ الصّدارةِ بين العُلوم والمعارفِ، وقد كانوا ذوي بَصَرٍ فيه، وعُرِفَ لهم فيه القَصَصُ

---

(١) المجلة الشهرية ــ مايو/أيار ١٩٢٥ م

وربما كانت المقالة الرافعية هذه السببَ في تأليفِ زكي مبارك لكتابهِ (الموازنة بين الشعراء) راجع مقدمة المبارك لكتابهِ (مدامع العشاق) الطبعة الثانية، وإشادته بالرافعي.

الحَسَن، والأيامُ والوقائعُ وما وراءَها من الروايةِ وعُلومها، والجرحِ والتعديلِ لحفْظِ القوام العام له.

وقد عُني الرافعيُّ بالتاريخِ، وتوفَّرَ على دراستِهِ بنفسِهِ بعد انقطاعِهِ عن المدرسة ولُزومِهِ لحَلَقةِ أبيه،.. وقدّمَ في جوانبَ منهُ عَطاءً حَسَناً لا يُنتسىٰ.

وكان من أمره أنَّهُ في صباه عَرَضَ لموضوعِ الرّواية، وما كانَ قد انتهىٰ إليهِ أبو الطيب اللغوي في القَرْنِ الرابع بقوله : « وَقَدْ غَلَبَ الجَهْلُ وفَشا، حتى لا يَدْري المتصدّرُ للعِلْمِ ممّن روىٰ، وقد وَصَلْنا الى كَدَرِ الأكدار، وانتَهَيْنا الى عكرِ العكر » فقال الرافعي : « ونحن كما تَرىٰ لا فَرْقَ بين دهرِنا ودهرِهِ »[1].

إذ آثر أن يؤرّخ الموضوع بنوعِ دراسةٍ وشواهدَ يَسْتعرض بها الروايةَ والرواة، فنال حظًّا من التوفيق وقَفَ به على سُلَّمِ هذا الفخر !..

ويومَ قامت الجامعةُ الأهلية في القاهرةِ في فكرة قوميّة انْشَقَّ لها مكانُهَا في الحوادث، وكان له موقفٌ من دروسِ الأدب فيها،.. انقطَعَ للتأليفِ في « تاريخِ آدابِ العرب » مُسابقاً الجامعةَ بمن فيها من محاضرين وأساتذةٍ عرب ومستعربين،.. فكان له :

أ ــ تاريخُهُ للغة العربية

إذ كانَ الباب الأول من كتابهِ، وقد قدّمَ له بتمهيدٍ جالَ فيه بين المصنّفاتِ وكُتُب التراجم، وكُلّ ما يتّصلُ بهذا الموضوع من قريب

---

(١) المقتطف ــ مايو/أيار ١٩٠٥ م

أو بعيد،.. وقد رأىٰ التأليفَ في هذا العلم يضِلُّ في التمييز بين الفَنّ عن الاجتماعِ، والأدب عن الدين،.. وأدركَ انتباهةَ المُسْتَعربين لهذا الوضعِ في العربية،..[1]

ولكنَّه رأىٰ من الاختلاطِ فيها من « صنيعِ المُسْتشرقين والمُسْتغربين، وما فيها من اجتلاب يُغْرِقُ في الحَشْو، ويتّسِعُ من ضيق »[2].

ومن هنا خرجَ على ما تواضَعَ عليهِ هؤلاء من مناهج تَبيعَةٍ لبعض الحوادث الانقلابيّة في السياسة. فافْتَرَعَ له طريقاً ذَهَبَ فيهِ مذهبَ الضمّ لا التفريق، وجعَلَ الكتابَ دائراً على الأبحاثِ التي هي معاني الحوادثِ لا على العُصُور، وبذلك يأخذُ البحثَ من مبتدئِهِ الى منتهاه، متقلّباً بهِ على كلّ صوره[3].

عقد الفصلَ الأول لكلمةِ الأدب « فتقلّبَ مع أدوارها اللُّغَوية، وأحوالها، وأبانَ عن معناها النفسي في الجاهليةِ وصدرِ الاسلام من وزنِ الأخلاقِ وتقويمِ الطّباع، وكيفَ بُنيتْ حدودُ الأدب في القرنِ الثاني، وبقيَتْ كلمة « الأدباء » خاصّة بالمعلمين،.. فلمّا فشَتْ أسباب التكسُّب بينهم وبين الشعراء، أدركَتْهم حِرفةُ الأدب التي تعاوَرَها الأدباء ميراثاً أدبياً الى اليومِ[4] وإن غَلَبَتْ على المنادمةِ في الحضرِ، والرقّة عند البدو،.

ثم تحدّثَ عن أصلِ اللغات وفَرّقَ بين التوقيفِ والمحاكاة، ودارَ

---

(١) تحت راية القرآن — ٦٨، ٧٢

(٢) و(٣) تاريخ آداب العرب ١/١٢

(٤) تاريخ آداب العرب ١ — ٢٢ وانظر ما سبق من مساجلة الكرملي فيها — المقتطف عام ١٩٢٣ م وكيف أشاد طه حسين به — من بعيد/٢٦٢

مع السلسلةِ التاريخية لتطوُّرِ الألسنة، وأشارَ إلى عِمادِ اللّغات العربيّة (الساميّة)، وتهذيبِ العربيةِ العرباءِ منذُ عهدِ اسماعيل عليه السلام، وانتشارِ القبائل حتى سيادةِ قريش وقيامِ أسواقِ العرب[1].

وفي فَصْلٍ كبير من هذه الفُصُول، تحدَّثَ عن نُموّ العربية وطُرق الوضعِ فيها[2] من الارتجالِ والاشتقاقِ والمجازِ، ثم أنواع النموّ من الابدالِ والقَلْبِ والنحتِ والترادف، والاسترسال والمشجّر والمُسَلسَل والأضدادِ،.. ثم الدخيلِ والمولّد، والألفاظِ الاسلامية ـــ مصطلحات الفقه والأصولِ والحديثِ والرواية وما إليها، ثم الغريب.. الخ[3].

وَقَد ضَرَبَ الأمثلةَ، وأوجَزَ الكلام على الأئمةِ في ذلك كلّهِ.

وبعد أن كتَبَ في تمَدُّنِ العَرَب اللُّغوي، وعَرَضَ لوجوهِ ذلك التمدُّنِ.. انتهى الى فَصْلٍ قيّمٍ بحَثَ فيه أسرارَ النظام اللّغوي[4] وقد جَعَلَهُ في الألفاظِ بالمعاني، والمعاني بالألفاظ، ثم النّظام المُطلق، وما فيهِ من قَرينةٍ وحِسٍّ نفسي !..

وعَرَضَ كذلك للعاميّةِ، واللَّحْنِ وانتشارِهِ، وفسادِ اللّغة في البادية، وطَبائع الأَعْرابِ، وأسبابِ اختلافِ اللَّهجَاتِ العاميّة،.. وقَدْ حَفَّ هذا التاريخَ وزيّنهُ بشواهِدَ عِلْميّةٍ من آثارٍ ونَظَراتٍ لعُلَمَاءِ العربية وأعلامِ اللّغات الألمان خاصة،.. وما سلكوهُ في الاسْتقراءِ والتقصّي، وتطبيق

---

(١) تاريخ آداب العرب ٨٧/١

(٢) تاريخ آداب العرب ١٦٩/١

(٣) تاريخ آداب العرب ـــ ١٨٤/١

(٤) تاريخ آداب العرب ـــ ٢٢٦/١

مذهبِ النشوءِ والارتقاء، والانتخاب الطبيعي على تلكَ الدراساتِ واتّساقِها معه[1].

كما نَظَرَ في حكايةِ الرُّسوس والساميّة التي بَرَزَتْ في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي إذ أطلقها « أوغست لودفيك شلوتسر » النمساوي عام ١٧٨١ م[2] وتعلَّقَ بها آخرون مثل أرنست رينان، ولكنّه ذهَبَ مع « صموئيل لانج » في كتابهِ « أصل الأمم » الذي أعربَ فيه عن اعتقادٍ بتقدّم العرب الحضاري المُوغِل في القدم، الذي ربّما كانَ زمَنَ تحوّلِ العصر الحجري[3].

وعلى أنَّ هذا التاريخ كان بكْراً في موضوعِهِ ومنهاجهِ وأيامِه، فقد أثارَ دَهْشَةَ معاصريهِ من العُلَماء، ولا سيّما رُعاة « المقتطف » وقد نبّهَ على ضرورةِ الإشارة الى مصادِر المعلوماتِ العلميّةِ في دراسة التاريخ العربيِّ خاصة[4] إذ زادَ الرافعي الموضوعَ نظرةً الى الإنسانِ العربي في بنائِهِ التكويني وامتيازِهِ بِقوامِ القلب وملاحةِ السحنة وهيأةِ القحف.. الخ[5].

* * *

(١) تاريخ آداب العرب ــ ٦٦/١

(٢) أحمد سوسة ــ العرب واليهود ــ ١٢٨

(٣) تاريخ آداب العرب ١ ــ ٣٦ عن مجلة الكوثر ١٩٠٥/٥م

(٤) المقتطف ــ فبراير ١ شباط، ١٩١٢ م

(٥) مرّ ذلك في المقالة العلمية ــ ٢٠٢

ب ــ تاريخ القرآن

كانَ القرآنُ باعتباره الأَدَبي السُّمُوّ بضميرِ الأمة،.. ومن هنا كانَ لا بُدّ للأديبِ العربي أن يَتَخَرَّجَ فيهِ، لِيَضحي في مواهبِ قلمِهِ لقباً من ألقاب التاريخ[1]. ومن هنا كانَ القرآنُ باباً في « تاريخِ آداب العرب » فقد بحثَ الرافعي في ذلك آتياً على جميعِ ما عُرِفَ في هذا الشأن مما تفرَّقَ في كُتُبٍ ورسائلَ، ودراساتٍ سابقة لا يُحصِيها العَدُّ. فأوجَزَ منها بقَصدٍ بالغٍ مسائلَ جمعِهِ وتدوينِهِ، وحكمةِ نُزُولِهِ مُفرَّقاً، وترتيبَهُ، ورسمَ المصاحفِ، وروايةَ القرآن،.. إلى آخرِ هذه المباحث.

ولعلَّ من أروعِ فُصول الكتاب دراسَتَهُ لتأثيرِ القرآن في اللُّغة وآدابها، ومُسْتَنبطات عُلوم الفقهِ والتفسير، وذلك بمعايَنَةٍ علمية يَسْتدِلُّ بها على حالِ العَرَبِ بالقرآن، واجتِماعهم على لُغتِهِ، ثم خُلُودِ لُغتهم بهِ، واتصالِهم بمادَةِ العالم.

ينطلقُ بعد ذلك يقرّرُ حقيقةً يهتدي إليها في أخصِّ خصائِص الروحِ العربية حين قرّرَ الجنسيّةَ العربيةَ في القرآن، فقال :

« إنما القرآنُ جنسيّة لُغويّة تجمَعُ أطرافَ النسبةِ الى العربيةِ، فلا يَزالُ أهلُهُ مُستَعْربين بهِ، مُتَميّزينَ بهذِهِ الجنْسِيّةِ حقيقة أو حكْماً »[2].

ثم يمتدُّ بذلك حتّى يجعَلَ منه « ميثاقاً قوميًّا لإعادَةِ بناءِ الأمة مهما امتدّت بها الأيامُ، أو تعاورَتْها أيدي الحوادث »..

---

(١) المقتطف ــ يناير ١٩٣٣ م

(٢) إعجاز القرآن ــ ٤٧

ويفردُ فَصْلاً للقُرآن والعلوم، يستوعِبُ فيه هذا الموضوعَ بموجزٍ وافٍ ؛ إذ يأخُذُ في التاريخِ العلميّ ابتداءً، فيعرِضُ للأديانِ وتَطَوُّرها في عَقْلِ البشرية،.. لينتقلَ بعد ذلك الى عُلومِ التفسير والفقهِ والبَلاغةِ والروايةِ والتّاريخ وما لَحِقَ العامَّة وأهلَ النظرِ من دعاوىٰ المُسْتَحدثاتِ العِلميّة، حتى يقفَ على مُفْتَرقٍ يُدِلُّ فيه على تحوّل العلمِ وتطوُّرِ العقل البشري في فهم القرآن.

كلُّ أولئك وكثيرٌ سواه يجعلَهُ مقدّمةً لدراسةِ القرآن وآياتِهِ البيّنات ؛ إذ القرآن :

« معجزٌ في تاريخِهِ دونَ سائرِ الكتب، ومعجزٌ في أثرِهِ الإنساني، ومُعجزٌ كذلك في حقائِقِهِ، وهذهِ وجوهٌ عامَّة لا تخالِفُ الفطرةَ الإنسانية في شيءٍ، فهي باقيةٌ ما بَقِيَتْ »..

قال : « وإنّما مَذْهَبُنا بيانُ إعجازِه في نفسِه من حيثُ هو كلامٌ عربيٌّ في هذِهِ الجهةِ من تاريخِ الأدب دونَ جهةِ التأويل والتفسير »[1].

وبذلك دَلَّ على تحديدٍ علميّ لموضوعِ بحثِهِ ودراستِهِ، فاتَ بعضَ من تعرّضوا له بنقدٍ أو مفارقة[2].

* * *

(١) اعجاز القرآن ــ ٣٦٤

(٢) راجع العقاد ــ البلاغ ١٩٢٦/١٢/٣ م

ج ــ تاريخ البلاغة النبوية

كان الأدبُ النبويُّ مادةً مِعطاء في الأدبِ العربي، فقد أوتي ﷺ المثانيَ والقرآنَ العظيم، وجَمَعَ إليه جَوامعَ الكلمِ حتّى نُصرَ بالرُّعبِ.. وغَدا مِثالَ الاقْتداءِ للصّحابةِ رضوانِ الله عليهم أجمعين، وللتّابعين والكتّابِ والمتأدّبين ؛ لَهُمْ فيهِ أسوة حَسَنة ؛ إذ هو الثمرةُ للغَرْسِ الإلّهي للأدب العربيّ بالكتابِ المبين، والوحي الأمين.

وكان على الرافعي أن يؤرّخَ للبلاغةِ النبوية في هذه الناحية أيضاً من آداب العرب، بعدَما وفىٰ القرآنَ الحكيم حقّهُ الأدبيّ وتاريخَهُ.. فقد نَظَرَ في بلاغتِهِ ﷺ فرآها توفيقيّةً من الله تعالى، من غيرِ تدريبٍ ولا رِواية، فأيّد آراءَ الأقدمين من هذِهِ الناحية، وجَلاها بأدبٍ جمّ[1].

ثمّ تحدّثَ عن نشأةِ الرّسولِ عليه السلام من ناحيةِ اللّغةِ وإقرارِ العَرَب بها عُرفاً وأدباً، حتى أبانَ عن إحكامِ منطِقِهِ ﷺ، وتعبيرِ اللّغةِ والصَّوْتِ، واجتماع كلامِهِ وقلّتِهِ، وبلاغَةِ الطبعِ التي أُثِرَتْ عنهُ، وهو يُؤتَىٰ جَوامع الكلم ويُنْصَرُ بالرُّعْبِ..

ولمّا كان الشعر ديوانَ العرب، ومعدِنَ عُلومهم، وعنوانَ الذّكاء والفطرةِ عندهم، فقد راح الرافعي مع القرآن الكريم في نَفْي الشعرِ عنه، وما يَنْبغي له تاريخاً وأدباً[2].

وبعد ذلكَ تكلَّمَ على تأثيرِ الحديث الشريف في اللّغةِ بما أخَذَتهُ

(١) البلاغة النبوية ــ ٣٧١

(٢) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ــ ٤٠٥

من التراكيبِ والمصطلحات والأوضاعِ المفردَةِ التي ازدَهَرَت بها علومُ العربية من بعدُ[1].

ونظر في رسائلهِ الى الملوكِ والجهات، وأدركَ ما فيها من بلاغةٍ وقَصْدٍ أدب، حتى أدرك الفطرةَ اللّغويّةَ التي كان عليها، ﷺ — وهي تَتَميّزُ بالإلهام، والتوفيق، وتَنتصرُ بالوحي الكريم[2].

أمّا نَسَقُ البلاغة فقد عَدَّها في وجوه البيانِ ومُناقلَةِ الحديث بلا صَنْعةٍ، وكون ذلك النّسَق من سجاياهُ عليه السلام.. وأشارَ كذلك إلى أثرِ النفسِ الإنسانيّة وطابع الوَضْع الإلّهي للنّفْس النبويّة، ونَفْسِ النبيّ العربي الأمين[3].

وكذلكَ استوفى القَصْدَ في إقامةِ دعاماتِ البلاغةِ النبويّة، على أسسها من البيانِ والحكمةِ والأدب،.. لا جَرَمَ فهي « البلاغةُ التي سَجَدَتِ الآثارُ لآيتها، وحُسرتِ العقولُ دون غايتها ؛ تعرفُ الحقيقَة فيها كأنّها فكرٌ صريح من أفكارِ الخليقةِ، وتجيءُ بالمجاز الغريب، فترىٰ من غرابتِهِ أنه مجازٌ في حقيقته »[4].

هذا من ناحية التأريخ لها، أمّا هي من حيثُ الموضوع، فقد أفرَدَ لها فَصْلاً آخر دعاهُ « السموّ الروحي الأعظم والجمال الفنيّ في البَلاغةِ النبوية »[5].

---

(١) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية — ٤٠٩
(٢) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية — ٤٣٢
(٣) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية — ٤٤٠
(٤) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية — ٣٦٤
(٥) أنشأه استجابة لرجاءِ كمال الدين الطائي — أمين جمعية الهداية الاسلامية ببغداد ونشر في كتابها السنوي (الذكرى) ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٤ م

قرأ الحديثَ الشريف قراءَةَ تأمُّلٍ واستغراقٍ وزيادةٍ، فكانَ كلامُه ﷺ « يجري مجرى عمله ؛ كلُّهُ دينٌ وتقوىٰ وتَعْليم».. وأسلوبُهُ له روحُ الشريعةِ ونظامُها وعزيمَتُها، فليسَ له إلّا قوّةُ أمرٍ نافذٍ لا يتخلّفُ، ولَهُ مع ذلك نَسَقٌ هادئُ هدوءَ اليقينِ، مُبينٌ بيانَ الحكمةِ، خالِصٌ خُلُوصَ السرّ، واقعٌ من النَّفْسِ المؤمنةِ موقعَ النعمةِ من شاكرِها »[1].. حتّى قال :

« بِحَسْبِ الدنيا من جمالِ فنّ حديثِهِ ﷺ ما يُضيفُ الى الحياة عظمةَ الأشياء العظيمةِ، ويدفَعُ الإنسانيّةَ في طريقها الواحدِ الذي هو بينَ الأبِ والأمّ، طريق الأخِ الى أخيه يكون في الدنيا بين الرُّجُلين كما هو في الدم بين القَلْبَيْنِ رحمةً ومودّةً..

وبِحَسْبِنا من جمالِ هذا الفن ما يَهْدي الإنسانَ الى حقيقةِ نفسِهِ، فيقرُّهُ في الحقيقيّ من وجودِهِ الإنسانيّ، ويجعَلُ الفضائل العُليَا كلَّها تَرْبيةً للقَلْبِ يكبر بها، ثم لا يزالُ يكبرُ حتى يتَّسعَ لحقيقةِ هذه الكلمةِ الكبرىٰ : الله أكبر »[2].

ومن هنا انفتحَ لَهُ البابُ، ليقدّمَ الى العربيةِ مقالَتَهُ البيانيّة التي مرَّ التعريفُ بها، وقد أعدّ منها « الكتاب النبوي »[3] وهمَّ بإخراجِ « أسرار الإعجاز »[4].

* * *

---

(١) وحي القلم ٣ ــ ٩

(٢) وحي القلم ٣ ــ ٣٠

(٣) تجمّع لديّ جُلّه، وكان هديتي الى الأسرةِ الرافعية الكريمة اعترافاً بفضلها وبرًّا بأدبه العظيم.

(٤) لم أقف على أصوله ــ واضيعتاه!!

د ـ تاريخ الرواية والرواة

لا يخفى أن اللّغةَ والشعر والأخبار والأحاديثَ لم تَقعْ إلينا إلاّ عن طريقِ الرواية، ولم يَغْشَ إليها الرواةُ إلاّ من طريقِ النقلِ والمشافهة، وفي جميعِ أنواعِها لها أقسام، ولها شُروط وطرق...

وقد بادَرَ الرافعي ـ وهو بعدُ شابٌّ لم يتخطَّ العقدَ الثالثَ من سنّي عمره ـ الموضوعَ يكتبُ فيه مُعرِّفاً ومؤرِّخاً ؛ يأخذُ من طرائِقِهِ ونوادِرِهِ غيرَ قليلٍ، ويَنْفَسِحُ له في « المقتطف » مكانٌ جليلٌ يحلُو فيه الحديث[1].

ثمّ لما كانَ من أمرِ الجامعةِ الأهلية، ودعوته لتدريسِ آدابِ العَرَب فيها، إذ كان السَّبَبَ في وضْعِ ما وُضِعَ من الكتُب في علوم الآداب وتاريخها[2] ـ عادَ يُسابق الجامعةَ وأساتذَتهَا، ومَنْ حولَهُمْ من المُسْتَعربين ومُصَنِّفِي الكُتُب عنهم[3]، فوضَعَ كتابَهُ الذي كان أحدُ أبوابهِ « الرواية والرواة » أيضاً.

إذ عادَ ـ ربّما ـ الى فصلهِ في « المقتطف » هذاك، يقلّبُهُ ويَتَوسَّعُ فيه من ناحيةٍ، ويختصِرُه في أخرى، ويزيدُ في شواهِدِهِ، ويَسْتَنْبطُ، حتى استوىٰ لديهِ على الشكلِ المتماسك الذي انتهى إليه،..

---

(١) المقتطف مايو/أيار ١٩٠٥ م، وربما كان المادة الأساس التي بنى عليها « مرجليوث » اليهودي النمساوي مقالته في الشعر الجاهلي، التي اتهم طه حسين بالإغارة عليها ـ راجع محمود محمد شاكر ـ المتنبي ١ ـ ٧٢

(٢) المعركة ـ ٦٨

(٣) أمثال جورج زيدان الذي امتدت يده الى كتاب « بركلمان » في الأدب العربي، يترجمه للهلال منجماً عام ١٨٩٣ م،.. ويدفع به للمطبعة عام ١٩١١ م

فقد تكلّم على الأصْلِ التاريخي للرواية العربية، وعلى الرواية في الإسلام، وما تَبعها من تدوين الحديث النبوي الشريف، وإسناده، ثم اتصال هذه الرواية بالأدب[1] حتى انتهى الى علم الرواية نفسه، فعرض لأقسامها ووظائِفِ الحُفّاظ والنَّقَلة..

ثم عَقَدَ فصلاً لروايةِ اللُّغة، وأرّخ للفظتَي اللّغة واللّغويّ، بما عُرف عنه من تقصٍّ في مثل هذه الموضوعات[2].

وتَكَلَّم في الأَخْذِ عن العَرَب، والرحلةِ الى البادية، ثم ما دَخَلَ على الرّوايةِ من الوَضْعِ والصنعةِ، وأثر استكثارِ الشواهد، والانفراد بالشعرِ في رواياتِ الكوفيين، وأفتِيَاتِهم على البصريين، وابتعادِهم عن الكتاب الكريم والحديث الشريف،.. الخ.

وتكلّم بعد ذلك على الرّواةِ الوضّاعين للشعر، واختلاف الروايات، والتزيُّد والتنقُّص في الأخبار،.. وكذلك القصّاصين وما كان لهم من أثر في هذا الشأن[3].

وبعد أن عَقَدَ فصلاً للرواةِ والأخباريين،.. عَرَضَ للشعر — من حيثُ هو عمود الرواية العربية، ومدارُها الأول،.. وتحدَّثَ في العربية — عِلْم النحو واللغة، ومذاهبِ الطائفتين في الكوفةِ والبصرة،.. وهي الموضوعات التي أضحَتْ من ثمّ عناوين لدراساتٍ تُعنىٰ بالعربية وآدابها في مختلفِ الجامعات.

(١) تاريخ آداب العرب — ٢٩٩/١

(٢) راجع ما سبق في مادة «أدب»

(٣) تاريخ آداب العرب ١ — ٣٧٤، وما بعدها، وهو الموضع الذي تاه فيه طه حسين فلم يقوَ على الخروج منه!

وكان الرافعي يأمَلُ أن يعودَ الى كتابهِ « تاريخ الآداب » هذا بزيادة بَسْط وعرضِ شواهدَ، أو التعقيب والشرح بهوامش، وهمَّ بذلك غير مرّة[1] ولكنني لم أقف على نسخته الخاصة في هذا الشأن، لنرى مبلغ ما وصل إليه، أو ما أراد.. بعد مأساة مكتبته[2].. التي ضاعَتْ في دارِ الكتب بعد نَقْلها إليها !..

* * *

هـ ــ تاريخ الشعر العربي

حين همَّ الرافعي لوضعِ مصنَّفِهِ في « تاريخ آداب العرب »، وانقَطَعَ له، ووَفَّر له مادَّتَهُ العلميّة الضخمة، واختطَّ لنفسِهِ ذلك المنهاج الواضح الذي يجمَعُ ولا يفرّق، مُبْتَعِداً جُهدَهُ عن محاولاتِ المُسْتَغْربين[3] ومَنْ تابَعَهم أو شايعَهم من المستغربين في تَلْفيق « الأدبيات »[4]، وقد أرادَ أن يكون تأليفُه ذِكْراً في تاريخِ الدراسات الأدبية والعلميّة والموضوعاتِ الفكرية، بمنهاج آثره أقربَ ما يكون الى البحثِ العلمي، ولكن من غير جَفاف المادَّةِ، ولا ضياعِ الفكر، ولا انعدامِ الفن، ممّا كانَتْ تؤثرُه الدراسات التَّبيعة[5].

---

(١) رسائل الرافعي ٢٥٥، ٢٦٠، ٣٧٣... الخ.
(٢) لم يُفردْ لها مكان هناك ــ كما اتَّفقتْ معهم الأسرة!!
(٣) أمثال نالينو وبروكلمان وغيرها ــ راجع عبد الرحمن بدوي في كتابه الأخير في جهود
(٤) ما شاع تسميته آنذاك.
(٥) وكذلك راجع الخالدي في تاريخ الأدب، والسباعي بيومي تاريخ الأدب العربي،.. الخ.

وكان قد ظَهَرَ لَهُ أن الكتابَ قد يَسْتغرق مؤلفاً في اثني عَشَرَ باباً، سمّاها في الجزءِ الأول[1].

وما كادَ يُصدِرُ الجزءين الأول والثاني، وفيهما ثلاثة أبواب فقط، حتى بَدا لَهُ عِظَمُ المشروع وتكاليفُه الباهِظة،.. وعلى هذا كانَتِ الأبوابُ التسعة الباقية سوفَ تستوعب أجزاء أخرىٰ لا تقِلُّ عن ثلاثة[2] فيما لو استقرَّ على منهجهِ في التأليف ومذهبهِ هذاك !.

ولكن ما حَدَثَ له من موقِف زبانيةِ الجامعةِ خاصة — وربّما كان يطمَعُ أن يُسْنَدَ إليه تدريسُ المادة[2]، ثم اتجاهه هو من الناحيةِ الأخرى الى تَرْبيةِ نَشْءِ الأُمّةِ تربيةً اعتقادية بعد تبدُّلِ الأنواء وتحوُّل الأيام، حتى يكون جيلَ الاسْتقلال والجيل القارئ[3].

يُضاف الى ذلك تزايدُ خُصومِهِ، وتكاثر شانئيهِ ممّن يَدُورون في أفلاكِ الحكم سياسةً أو تبيعاً،.. واضطرارُهُ هو الى الدفاعِ عن نفسِهِ في مصادماتٍ ومُصاولات لها مكانُها من التاريخِ[4].. كلُّ أولئك قد صَرَفَهُ عن الاستمرارِ في إتمام ذلك العَمل الجليلِ في تاريخ آداب العرب !.

ذلك كانَ على الرّغم من إلحاحِ محبّيهِ من رفاقِهِ وتلامذته

(١) الجريدة — ١٢ نيسان/ابريل ١٩١٢ م، تاريخ آداب العرب ١—١٨
(٢) المعركة — ٤٧، ٦٨، والعريان — ١٢٣
(٣) رسائل الرافعي — ٧٤، وانظر في « حديث القمر »!
(٤) العريان — ١٢١، أنور الجندي — المعارك الأدبية والدكتور محمد أبو الأنوار رسالته في المعارك الأدبية

الكثر[1] فكلّما همَّ أن يَسْتَأنفَ العمل لم يَجِدِ الوقتَ الذي يُسْعِفهُ فيَسْتطيعُ العودةَ الى ذلكَ الفنّ من البحوثِ العلميّة الموفّقة، يُتمّها ويختتمُ أبوابَ التاريخ،.. وكم أشارَ في رسائلِهِ الخاصة الى موضعٍ هذا وذاك من عنايتِهِ، والقدرِ الذي انتهى إليه منهُ في استكمالِ البحث[2].

ويومَ لحق رحمه الله بالرفيق الأعلى على الصّورةِ الفُجائيّةِ، عادَتْ ألسنةُ المحبين وأقلامُ النقّاد على أهليهِ وذَويه وتلاميذِهِ ـــ وفيهم صاحبُ الحظوة الأخير محمد سعيد العريان ـــ تَسْتَنْجزهُم وَعْداً في إخراجِ بقايا التاريخ،.. يَحْسَبُونها تامّة التأليفِ والتصنيف[3]، وقد عانىٰ العريانُ الأمرّين في الوقوفِ على أصولها وفصولها، حتّى تيسّر لَهُ جمعُ ما أمكن جمعهُ، وأخرَجَهُ في الشكلِ الذي وافى به لجُزءٍ ثالثٍ فقط!

كانَ أولهُ الباب الرابع وفيه تاريخ الشعر العربي حيثُ عقَدَ الرافعي فَصْلاً خطيراً لِنَشأةِ الشعرِ عند العرب ـــ وقد أتىٰ فيهِ على ما للعُلماء من تحقيقاتٍ في أوليّة الشعر، ورجّح هذهِ الأولية بالسنين المئاتِ السابقةِ للبَعْثةِ المحمديّة ـــ وزادَ على الفصلِ ودرسهِ الباعث الفنّي والأثر النفسيّ في اختراعِ الشعر عندهم، وفرّقَ بين الرَّجَز والقصيد، وتكلّم في الأبياتِ المرسلة،..

ثم استرْسَلَ في الحديثِ عن أوّل من قَصَدَ القصائد، وعدّه غير امرئ القيس، وغير المهلهل،.. ليتحدّثَ من بعدُ عن الشعر في قبائلِ

---

(١) أحاديث العريان وأبي ريّة وحسنين مخلوف وماري يني

(٢) الرسائل ـــ ١٨٢، ١٨٧، ١٩٤، ١٩٦.. الخ.

(٣) العريان ـــ تمهيد آداب العرب ٣ ـــ ٧

العرب، ومكانةِ الشعراء عندهم،.. لينتهي الى بيوتاتِ الشعر والشعراءِ المعروفين فيها.

وجَعَلَ الفصل الثاني لِسِيما الشعراء؛ فَعَرَضَ لألقابهم وحالاتِ الإنشاد،.. كما مرَّ على مُقلّيهم ومُكْثريهم — حيثُ ألَمَّ بحالاتِهم النفسيّة في الارتجالِ والبديهةِ، والرَّويّة، وما عرف عنهم من أخلاقٍ، ثم نَظَرَ في النبوغِ بالشعرِ وألقابهِ في الشعراء، وفرَّقَ بين الاختراع والاتّباع، وبيَّن أنواعَهُ، واستطردَ في ذلك حتى عَرَضَ لشياطينِ الشعراء؛ ثم تحدّثَ في طبقاتِهم عند الرواةِ والمصنّفين للتراجم، كما أفرَدَ موضوعاً للشاعراتِ عندهم[1].

وعادَ في فَصْلٍ آخر يؤرّخُ لفنونِ الشعر، وكيفَ تنوّعت على مدى الأيام، فلم يَسْتنكر فنّ الهجاء عَلَيْهم، وإنما عدَّهُ من قبيل التهذيب النفسي والاجتماعي لِقيمهم وأخلاقِهم، فعرف الأَثرة في القبائِلِ وعند الشعراء وأشار الى أشهرِ الهجائين[2].

وكذلك رأى المديحَ سُموًّا في الاعْتبارِ النفسي عندَهم،.. ولم يَنْسَ الأخلاقَ الطارئةَ على المادحين من أثرِ الكِدْيةِ الساسانيّة[3].

وهكذا يمضي يعرّفُ ويصنّفُ باقي الفنون الشعرية في الفخر والحماسةِ والرثاء، ثم الغَزَل والنسيب والوصفِ، بما يَنْفردُ فيه من التخريجِ والنّقْلِ في مثلِ هذه المحاولةِ البَرّة[4].

---

(١) تاريخ آداب العرب ٣ — ٥٥
(٢) تاريخ آداب العرب ٣ — ٨٦
(٣) تاريخ آداب العرب ٣ — ٩٦
(٤) تاريخ آداب العرب ٣ — ١٣٦

ثم انصرفَ الى الشعرِ الأخلاقي، ومالَ ناحيةَ العقائد الاجتماعيةِ عندهم، — وقد وَجَدَهَا من أرقىٰ ما وصلَتْ إليه الفَلْسفات الانسانيّة الحديثة، « فلا تكادُ تجدُ مبدأً من المبادئ الاجتماعية التي قرّرتْها الفَلْسفة إلّا ولَهُ ذكرٌ في شعرِ هؤلاء الأعراب »، واستَشْهدَ بقولِ زُهير بن أبي سُلمى :

على مكثريهم رِزْقُ من يَعْتَرِيهُمُ وعنْدَ المُقلّين السماحة والبَذْلُ

فقال :

« مهما أَدَرْتَ مذاهبَ الاشتراكية، ومهما قَلَّبْتَ آراءَ علمائِها، لا تَجدُ صوابَهُ يخرُجُ عن هذا البيت »[1].

وبعد أن تكلّم في الحكمة والنُّضج العقليّ في تجارب الحياة، وقال في الشعر الإلّهي، وذكر الملاحم، وعرّج على الشعر العرفاني — الصوفيّ،.. انثنىٰ فتحدَّثَ عن هِزّة النفس في شعرِ القصص والهَزْلِ، ونظر كذلك في منظوماتِ المتأخرين في المتون[2].

وانتَقَلَ بعدَ ذلكَ الى تاريخِ الفُنون المحدثةِ في المُوَشّح، فأَوجَزَ القَول في سببِ اختراعه، وأشار الى المَلْحونِ فيه، وبَيّن أنواعَهُ، وعَرّف بأشهرِ الوشّاحين، وعرّف كتب التوشيح بما لا يزالُ الحديث عن الفن مُسْتطاباً، وإن لم يزدْ على ما جاءَ به شيئاً ذا بال[3].

---

(١) تاريخ آداب العرب ٣ — ١٣٦
(٢) تاريخ آداب العرب ٣ — ١٥٥
(٣) تاريخ آداب العرب ٣ — ١٦٠ — ١٧٠

ولم ينسَ الصناعاتِ الشعرية التي أولعَ بها المتأخرون، كالدوبيت والمواليا، والزجل،.. الخ.

أمّا البابُ الخامس فلا أَثَرَ لَهُ في هذا الجزءِ الثالث !.

وأمّا البابُ السادس فقد كانَ خاصًّا بالشعرِ الجاهلي ـــ وقد فَصّلَ فيهِ القول في حقيقةِ المُعلّقات، وتحدَّثَ في أميرِ الشعر امرئ القيس، وقالَ في شاعريتهِ، وأشارَ الى شُهْرتِهِ، ثم عقد الموازنة بين مُعَلَّقتِهِ البكر، وقصيدةِ علقمة، وأبانَ عن أثر التخليد فيها.

ونظَرَ في شعرِ طَرَفة، وأبانَ عن مذهبِهِ الشعري،.. وكذلكَ وقَفَ مع حكيمِ الشعراء، زهير بن أبي سلمى،.. حتى خلُص الى خشونةِ الشعر الجاهلي[١].

أمّا البابُ السابع فهو للعربيةِ وآدابِها في الأندلس، وقد تحدَّثَ فيهِ عن عروبةِ الأندلس، وحضارةِ العرب فيها، ومبلغِ عنايتهم بالعلم، وولعهم بالأدب في القرون الثالث والرابع الى ما بعد السادس، فأشار الى أدباء ملوك الأندلس، وأفرد عصر الوزراء، ووقف عند نكبة ابن رشد الفقيه الممتحن[٢] ثم طاف بأدباء الجزيرة وعلمائها، ونظر في علومهم الفلسفية ومقاومتها للحدثان، وما كان من انتشارها، وآخرتها، حتى مصرع العربية في الأندلس، وتنصُّرها وترجمتها في أوربة[٣]. وما كان من أثر ديوان التفتيش في ذلك التاريخ الأليم،.. والباب يكاد يؤلّف منهاجاً ضافياً مُسْتَقلاً بتمامِهِ.

---

(١) تاريخ آداب العرب ٣ ـــ ٢٢٥
(٢) تاريخ آداب العرب ٣ ـــ ٣٠٥
(٣) تاريخ آداب العرب ٣ ـــ ٣٤٥

والكتابُ بعدُ يخلُو من البابَيْن الثامن والتاسع،.. وجعل البابَ الحادي عشر للصناعاتِ اللَّفْظية كالقوافي المشتركة والتشطير والتخميس.. الخ[1].

وكنتُ قد كلّفتُ جملةً من طلبةِ الدراسات العليا للجَدّ في دراسةِ موضوعاتِ المنهاج، وتوثيقها بشواهِدها، لتنتظم من ثَمَّ وفاءً للعربيةِ وأديبها الرافعي.

* * *

و ــ تاريخ التأليف عند العرب

وقد كان موضوعُ الباب العاشر من الجُزْءِ الثالث هذا،.. وما نُشِرَ منهُ لم يكُنْ موزّعاً في فصولٍ، وقد عَرَضَ فيهِ للتأليفِ عنْدَهم، وتكلَّم في كُتُبِ الطبقاتِ، وأدبِ التراجم، ثم عَرَّفَ بالمختاراتِ والحماساتِ، وأبانَ عن أثرِها في الحفظ والتدوين[2].

ولا يكادُ المرءُ ينظرُ في المطبوعِ من هذهِ التواريخِ حتّى يبْلُغَ به الحزنُ مدى غير قَريب، على ضياعِ الأيّام بين يَدَي الرافعي، ونوازعِ همّته،. ويأسى أنْ لم يَعُدْ الى المؤلَّفِ في نوعٍ من إعادةِ النظر والتنقيح، وكتابةٍ لبعضِ جوانبهِ وإتمام ما قد مضى فيه.

والجديرُ بالملاحظة أنه كان قد ذكر للشيخ أبي ريّة في مطلع عام ١٣٥٠ هـ ــ ١٩٣١ م أنه يَبْدأ في أول الصيف بإعادة طبعِ التاريخ،

---

(١) تاريخ آداب العرب ٣ ــ ٣٧٠

(٢) تاريخ آداب العرب ٣ ــ ٣٥٨ وما بعدها

وقد « اسْتَجْمَعْتُ له مادةً طيّبة لزيادتها فيه، ولكنّها ستكونُ كلّها حواشي على الأصلِ، لا يَزيدُ فيهِ شيئاً، وإنّما يعلّق عليه ؛ لأنه رأى هذا الأصلَ ــ في الجزء الأول ــ متيناً متماسِكاً كاملاً في نفسِهِ، وفي كلّ هذه المدّة التي مضَتْ على الكتاب لم يزدْ واحد حرفاً واحداً على هذه المادةِ، إلّا فيما يتعلّقُ بفصلِ تاريخ اللغة إذ كُشفَتْ أشياءُ جديدة »[1].

ولا نَدْري بعدُ أينَ ذهبت نسختُه الخاصّة التي يمكن أن تكونَ عليها التعليقاتُ والحواشي. وعسى الله أن يفتحَ علينا بلقاءٍ نقفُ فيه عليها خدمةً للأدبِ والفن.

* * *

ز ــ تاريخ رسائل الحبّ عند العرب

وهو الذي جَعَلَهُ مقدّمةً لديوانِ رسائل « أوراق الورد » الذي مرَّ التعريف بهِ في الرسالةِ الوجدانية.

وهذا التاريخ الفريدُ حَرِيٌّ بالدراسة والتأمُّلِ، فقد أثارَ محاولاتٍ في رَدّ ما ذَهَبَ إليه الرافعي من رأي الى المبالغة[2] حين قال :

« أما بعدُ.. فإننا لا نَعْرِفُ في تاريخِ الأدب العربي كلّه رسالةً كُتِبَتْ من هذا الطراز ــ على كثرةِ كتّاب العربية وكتبها، وعلى ما أبدعوا في فنون الترسّل،..

(١) رسائل الرافعي ١٩٦، وانظر ١٩٤ وعزمه على توسيع الكتاب وزيادة مواد كثيرة إليه..

(٢) زكي مبارك ــ البلاغ ــ سبتمبر/أيلول ١٩٣١ م، النثر الفنّي ٢ ــ ١٦٢.

وعلى أنّ هذهِ العربيّةَ من أوسعِ لُغاتِ الدنيا فيما خصّت به المرأةُ، وما أوقفَتْهُ على صفاتِها، وما أفاضتهُ على العاطفةِ إليها، وما حفلت به من ألفاظ معانيها، حتى لو أمكن أن ترسلَ لُغاتُ الأمم ألفاظَها تَسْتبق في المعاني الانسانيّةِ، لَما كانَ السَّبْقُ إلّا للألفاظِ العربيّة، ولا أوفى على الغايةِ إلّا المُعْجمُ العربيّ وحده».. وقال:

جاءَ في آدابنا العربية من المؤلفات المعجميّة التي أفردت للحبّ ومعانيه وأهلِهِ وأخبارِهم، ونوادِرهم وأشعارِهم كتباً مجرّدةً منها كتاب «الزّهرة» الذي ألّفه فقيهُ أهلِ العراق الإمام محمد بن داود الظاهري(١) ــ وهو القائل: ما انفككْتُ من هوًى مُنذُ دخَلْتُ الكتّابَ!..

ثم «الظرف والظرفاء» للوشّاء(٢) و«مصارع العُشّاق» الذي وصَفَهُ أبو بكر البغدادي السراج(٣) وجعَلَه اثنين وعِشرين جزءًا ــ وهو أصلٌ لكلِّ ما وُضِعَ بعدَهُ من الكتبِ كـ «مصارع العشاق» و«ديوان الصبابة» و«تزيين الأسواق» و«منازِل الأحباب» وغيرها.

ومع كلّ ما رأيتُ فقد انفرد الشعرُ وحدَهُ بالنسيب والغَزَل، وأوصافِ الجمال،.. وليسَ لنا كتابٌ واحد في رسائلِ الحبّ، ولا نَعرِفُ أحداً من البُلغاء كتبَ فيها(٤).

(١) الإمام محمد بن الإمام داود الظاهري، صاحب المذهب الظاهري الذي تشيّع آخر الأمر ــ من أذكياء العلم ولد ببغداد عام ٢٥٥ هـ وتوفي بها مقتولاً عام ٢٩٧ هـ. كان يلقب عصفور الشوك لنحافته، له كتاب الزهرة طبع بجزئين، وكتاب الانتصار وغيره.

(٢) أبو الطيب محمد بن أحمد عالم بالأدب محترف للتعليم له كتاب (الموشى) طبع وقد سمي به ت ٣٢٥ هـ.

(٣) أبو محمد جعفر بن أحمد السراج أديب عالم بالقراءات له مصارع العشاق، طبع ــ ت عام ٥٠٩ هـ.

(٤) أوراق الورد ــ ٧

ولعلَّ هذا راجعٌ إلى أنَّ تلكَ الطريقةَ استقلَّ بها الشعرُ في الصَّدْرِ الأول، فقلَّدَ الباقون، وأخذوا في مَدْرَجتهم من بعدُ.

وقد نصّوا على أنّ للشعرِ مواضعَ لا ينجَحُ فيها غيرُهُ من الخُطَبِ والرسائل، بل هو يفضُلُهما[1].

ثم هُمْ يخصّونَ الشعرَ بالغَزَل والنسيبِ والتشبيب ؛ لأنَّ الشّعْرَ أيسَرُ عَمَلاً، وأخَفُّ مؤونةً في هذا البابِ ؛ إذ يُعين بقوافيهِ على الإبداعِ في المعاني، فإنَّ القافيةَ كثيراً ما تَخْتَرِعُ المعنىٰ وتُلْهِمُه الشاعر،.. ثم الشعرُ يصحبُهُ الوزنُ واللَّحْن، فيعينُ بنَسَقِهِ أيضاً كما يُعين بقوافيهِ، ثمّ تجيءُ ألفاظهُ مقدودةً مفصّلة فتكون حيلة ثالثة، ثم هو يكتفىٰ منهُ بالبيتين، والأبياتِ اليسيرةِ فيجيءُ في كلٍّ ذلك على أتمِّهِ وأحسَنِهِ، ويقومُ بهِ،.. بخلافِ الكتابة ؛ فلا يُجدي فيها السطرانُ والأسطر القليلة في رسالةٍ تصِفُ الحبّ، وما سَتَرَ هناك يفضَحُ هنا، وما أعانَ في الشعرِ يخذل في النثر، والشعر إجمال والكتابة تفصيل »[2]. قال : « ولم نقِفْ على كتابٍ أُفْرِدَ لرسائلِ الحب، ولو أنهم كتبوا فيها لجمعت كغيرها وأفردت بالتدوين »[3].

* * *

---

(١) أوراق الورد ـــ ٧
(٢) أوراق الورد ـــ ٨
(٣) أوراق الورد ـــ ١٤

٤ ـــ القصّة

عَرَفَ العربُ الأسطورةَ رَدْحاً من الزمن حتّى عُدَّ لهم عصرٌ تَخْريفيّ، تَمَلَّوا منهُ الكثيرَ من التخدير، وإن رافقَهُم في ذلكَ إحساسُ التحذير الذي لا يَنْقطعُ عن خصائصهم.

ومن هذا التحذير والصَّحْوةِ الذهنيّةِ ولدَتِ الرّوايةُ عندهم؛ تُعنىٰ بالخبر والأثرِ تنقُلهما بأمانةٍ وصدق، وتفتَنُّ لذلك فنوناً من القولِ والإيراد، فكان إلفُها بالسَّجْعِ، ورِدْفُها بالضَّفَنِ، ووقعُها بالرَّجز، وقيامُها بالشعرِ، وانتظامُها بالبيان،.. حتّى حالَتْ إلى حالٍ أدبيّة تنهضُ بالفكرِ وتنعطِفُ بالحياة.

وما لبثَتِ الروايةُ أن أخَذَت على عاتِقها أمانَةَ التاريخ القومي للأمّة؛ فزَايَلَتِ التخاريفَ، وباعَدَتِ الأساطير، وأَمَدَّتِ الأخبار بالإسنادِ، وأرسَتِ الذكرَ بمعالمِ المعرفة، وأعدَّتِ الناسَ لموعدٍ مع القدر.

ولمّا كانَ الانبعاث المحمدي بتجديدِ حياةِ العرب والدينِ والإسلام، صارَتِ الرواية عِلْماً وعملاً، يحوطُه القوم بحصانَةٍ من التراجمِ والسير، وأصولٍ من الفقهِ والجرح والتعديل، وقوامٍ من رصيد الأخلاق، وجعلوا ميدانها الأول في الحديث النبوي الشريف، ثم اتَّسعَ فشمَلَ اللّغةَ والشعرَ والبيان، فكانَتْ دليلَ المُفاصحةِ الأول في ذلك كلِّه، وعُنوانَ المثاقفة والمرافقةِ في العلم والحياة.

ولكن القصّة لم تنتهِ، وإنما حافظَتْ على محتوىٰ الرواية بالنقلِ والمشافهة، وكذلك كانَ الاجتهاد من ثمَّ منالة عطاءٍ فكريّ عظيم.

وكان التحريرُ العربي والفتح الاسلامي قد أنهيا كثيراً من شواذّ الحياة الجاهلية بما فيها من مظاهرِ الوثنية، وبقايا التخاريف،.. ولكن المُسْتعربين

والمُتمسلمين من كهنةِ المعابد وسَدنةِ النيران وأحبار يهود، وغيرهم من النَّبَطِ والزواقيل، تحوَّلُوا الى قُصَّاص يَرْوُونَ ما كان لهم في أيامِهم من صُحُفٍ وأخبار، يُلْفِتونَ بها الأنظار إليهم ؛ فيجتمع الناس،.. لا تُوقِفُهم سُخْريةُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه من كعبِ الأحبار[1] ولا طرد علي بن أبي طالب رضي الله عنه للموابذةَ من جامعِ الكوفة وقولتِهِ الرائعة : أَقَصَصٌ والقرآنُ ما يزالُ غَضًّا طريًّا ؟!

وكان الفتح الاسلامي ميدانَ جِهادٍ واجتهادٍ، لا يتّسعُ لغيرِ الروايةِ والتاريخ، فلم يَفْسح قادة الفتحِ أو المجاهدون في المجالِ للتخاريف أو التهاويل وما يلي الأسطورة والقصة أن يُعرف، أو يكونَ له نوع شأن !.

ولكن دورةَ الأيام العربية بعد توقُّفِ الفتح إثرَ الانقلابِ العباسي وتنفّس الشعوبية، فقد وُجِدَ نوعٌ من التراخي في الحياةِ القوميّة، ما لبثَ أن تحوّلتْ به الحضارةُ الوليدة إلى مَلْقًى للأفكارِ والأخبار، الى جانبِ منقولات الترجمة عن الأمم. إذ تحوَّلَ الموابذةُ أولئك وأهلُ الأخبار الى قُصّاص، وأُعِدّتْ لهم الدكاك في المنعطفاتِ ؛ يُحدّثون الناسَ عن الأمم الغابرة، والملوك والعشّاق في قصصٍ يلَفّقونها ويزيدونَ فيها، حتى كادَتْ تأتي على أخبارِ الدولة العربية وتقهرُ تاريخها !..

وكاد العالمُ الحديث لا يعرِفُ العرب إلّا عن طريقِ ما تألّفَ من ذلك في ألفِ ليلة وليلة، وسواها وما فيهما من سفاهات.

---

(١) كان اسلام هذا متأخراً، ويزعم أنه يحفظ التوراة، ويكثِرُ من الادّعاء فيها بمثل قولهِ : مكتوبٌ عندنا في التوراة. كلّما عرض موضوعٌ أو شوهد شيء،.. وبينما هو يرافق الصحابة وفيهم الفاروق العظيم رأوا حماراً نافقاً قرب حائط (بستان) فالتفت ابنُ الخطاب الى كعب وقال : أهذا مكتوبٌ عندكم في التوراة؟!

ولولا أدبُ التراجم والسير والمناقب لقُضي علينا أن لا نَرىٰ القصة الحديثة، ولا ننعم بالروايةِ الصالحة، ولا نلقى الأحداثَ بقلبٍ سليم.

* * *

أمّا الفن القَصصي المستحدث في العربية وآدابها، فقد كان بعد أن تمكّن الغربُ من الشرق العربي الاسلامي، في غزوِهِ القنصلي والتجاري، فالعسكري والاحتلال،.. ثم في هذا الاستيطان الفكري والفنّي الذي يتشبّثُ بكثيرٍ من ذوي الأَدَب والإنشاء والخيال المُلْثاث بالقراءاتِ المترجمات،. حتّى زَعَم أحدهم « أنَّ قراءةَ القصص والرواياتِ من أنجح الذرائع في نشرِ الأفكار الصحيحةِ، ومن أكبرِ أسبابِ التهذيب، ولها الشأن العظيم في البلاد المتمدّنة »[1].

وكذلكَ نَفَرَ الموارِنةُ وغيرهم من الطوائفِ من ديار الشام والعراق الى أوربة يُعِدّون أنفُسَهم للمهمّةِ، ويتخلّصونَ من دَفْعِ الجزية للدولةِ الإسلامية (العثمانية) !.

وكما أولع القصّاص القدامىٰ بأخبارِ الأمم السالفة، نَفَرَ التراجمة المحدثون الى قصص تليماك الأسطورية ــ اليونانية[2] ورواياتِ تاريخ أوربة وملوكها، وأخبارِ حركاتها السياسية والاجتماعية، وما تَعلّقَ به فرح أنطون في المقدمةِ منهم[3]، والمذاهب الفكرية وما نَقَلَهُ عادل

---

(١) المنار ٦ ــ ذو الحجة ١٣١٥ هـ ــ مايو ١٨٩٩ م

(٢) المسرحية ــ للدسوقي

(٣) نقل قصص الكسندر دوماس في هذا الشأن.

جبرة[1]، وكذلك التاريخ العربي على هامشِ قصص الحبّ النصرانية وما أعاد كتابته جورج زيدان[2] وعلى هامشِ السيرة التي أعدّها طه حسين[3].

غير هذا القصص الذي أُعطي صفة الواقعيّةِ فكان فيه وحده ثمرةُ ذلك الاستيطان الثقافي[4].

وكان مفيد الشوباشي قد اخترقَ مُدّعياً أنَّ أُمهاتِ القصص المأساويّةِ مأخوذٌ عن أصولٍ وموافقاتٍ ووقائع لها مكانها في التاريخ العربي[5] بينما عدَّ الأنصارُ قصَصَ الزهاد والمتصوفة في ديارِ الشام خاصّة من تأثيرِ ذلك المدّ الصليبي في القرونِ الماضية[6].

وربما فات المؤرّخين لهذا الفن أن القصص الحديث يعتمد فُنوناً في الكتابة وأساليب من التلفيق، وما يسمّى بالعقدة من مواد توغِلُ في خصائص الأمم التي وقعت تحت تأثيرِ تواريخ لها في الخرافة والأساطير ورموزها مُتّسع.

كما أنَّ هذا القصص لما تَنقطع جذوره من الوثنية أو الحال اليهودية التي تجتمع في التوراة وملفقات الأحبار من أساطير الأمم القديمة، بما فيها من خيال مريض وغير متّزن، ألف أحوال الغرب في الحروب الطاحنة الممتدّة بينهم بالعداوة والبغضاء، وما فيها من خوارق المصادفات.

---

(١) ترجم أفكار ماكس نوردو الصهيوني فابتلى الكتّاب العرب بها.
(٢) ما سمّي روايات تاريخ الاسلام ــ وقد نشرت غير مرة.
(٣) أعاد كتابتها بالعربية بعدما وقَفَ عليها (على هامش الكتب القديمة) لسَنْت بيف.
(٤) عمر الدسوقي ــ المسرحية ــ ٨٠
(٥) المكتبة الثقافية ــ ٢٠
(٦) الأنصار ٣٧ ــ صفر ١٣٦٣ هـ

وقصص أوربة لا تكفيهِ تخاريف اليونان أو ميثولوجيا الأمم، وإنما يمتدُّ في مباذل الحضارة والشهوات، وإنْ التفت أحياناً يحاولُ مسحةً من مفهومات الفلسفة ومذاهب الفكر ومسارب الاجتماع،..

وليس القصص كذلك عند العرب، وإنما هو فصلٌ من فصولِ التاريخ المتصلة، شهِدَ له القرآن العظيم في قوله تعالى ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيكَ أحْسَنَ القَصَصِ بِما أوحَيْنَا إلَيكَ هَذا القرآنَ، وإنْ كنتَ من قَبْلِهِ لمن الغافلين** ﴾ سورة يوسف/٢.

على أنَّ ما عاناهُ الوضَّاع وأصحابُ الأهواء من أهل الملل والنحل من قصص كان مستهجناً عند العرب، وربما كان في موقفهم الأول من القرآن العظيم والدعوةِ المحمّدية وضرب الأمثال بقصص الماضين، ما يفسّرُ لنا ذلك. ﴿ **وقالوا أَساطِيرُ الأَولين اكْتَتَبها فهي تُملىٰ عليه بكرةً وأصيلاً** ﴾ سورة الفرقان/٥، ما يدلُّ دلالةً واضحة على مبلغ الصدق في القصص العربي الذي هو وقائع وتواريخ،.. وذلك ما يميّزُهُ عن خاصّية التَّرفِ الخرافي في أساطيرِ الأمم البائدة كالعجم، وعن مقدرةِ الصّنْعة الفنيّة في عرض تكاذيب الحضارةِ على أنها من الحياة[1].

ومن هنا كان رأي الرافعي الأول في القصة، مُنكِراً على كاتبيها ضياع فاعليتهم في محاولات إنشائهم لها:

«ألا ترىٰ أنَّ تلكَ الروايات تُوضَعُ قَصَصاً، ثمَّ تُقْرأ فتبقى قصَصاً،.. وإنْ هي صنعَتْ شيئاً في قُرّائِها لم تزِد على ما تَفْعَلُ المخدرات؛

(١) الأنصار ٣٧ ــ صفر ١٣٦٣ هـ.

تكون ساعةً مسكنات عصبيّة الى حين، ثمَّ تنقلبُ هي بنفسها بعد قليل مُهَيّجاتٍ عصبيّة »[1].

وكذلك ساءَ ظنّهُ بها وسيلةً، ولا سيّما بعدما استبانَ له من غاياتِها وأهدافِ تراجمتها ومُنشئيها من أثرٍ سَيّئٍ في أخلاقِ الأمة[2].

ومع ذلك كانَتِ الحياةُ الأدبية تَسْتديرُ بجيلِ الرافعي وتَقرّبُهُ من القصّة بين آونةٍ وأخرىٰ، حتّى كان في آخِرِ أيامه يَجْمَعُ بينها وبين المقالةِ والتفسير والمثَل في التحليل في بيانٍ فَلْسَفي عُرِف به.

وكان في مطلعِ حياته قد حاوَلَ كتابةَ القصّة مُسْتطيلاً للفوز بمسابقة، ولكنَّه أخفق فلم ينل ما تصبُو إليهِ نفسُه[3]، وعادَ في آخر أيامِه يضيفُ إليها سَطْراً فيهِ خاتمتها[4].

وصاغَ القصة شِعْراً في ديوانِهِ، وكان له منها « تاج محل » و « طلاق جوزفين » وغيرها[5] وفي ديوان (النظرات) له فيها « شباب العصر »[6] كما كان لَهُ من بعد « جوهرةُ الهوى » صاغَ فيها حكمةً هنديّة معروفة تقول : « كلُّ الانسانيّة في نِصْفِ الإنسان » وقصّةُ « دموع الصبا » و « على الكوكب الهاوي » وغيرها[7] ممّا عرضنا له في رسالة الشعر[8].

---

(١) الرسالة ٤٣، وأنظر أيضاً أسعد حنا ــ الأسبوع ٣٨ ــ ١٩٣٤/٨/١٥ م
(٢) العريان ــ الأنصار ــ ٣٠ جمادىٰ الآخرة ١٣٦٢ هـ.
(٣) وحي القلم ٣ ــ ٨٥؛ الرسالة ٧٨
(٤) العريان ــ حياة الرافعي ٢٠٤
(٥) ديوان الرافعي ج ١، ج ٢
(٦) النظرات ١ــ٤٢
(٧) انتظر ديوان النظرات التامّ.
(٨) رسالتنا في الاختصاص (الشعر عند الرافعي). لما تطبع!!

وقد حاوَلَ مرّةً أن يضعَ في « موعظة الشباب » روايةً تمثيليّة يصوغُها بأسلوبٍ شعري، ويجري الحوار فيها شعراً ونثراً، ولكنّها لم ترَ النور[1].

ثمّ قلّد المنفلوطي في صياغةِ ترجمة قصّة « سَحْقُ اللؤلؤة »[2] : حيث الكونت البخيل « فكتور » والحسناء « لويز » وقد جعلَ الشيخ علي الجناجي يتحدَّثُ بها، ويَتَنقلُ بهِ في أجوائِها بعباراتٍ من الحكمةِ والفلسفة والعظةِ البالغة ؛ يبحث عن الحبّ، وينظُر في الحفلات التي كانت تغشاها حياة « الكونت » الهرم الغنيّ و « لويز » الشابة المسكينة. ويدخُلُ في المرقص فينصت للموسيقى، ويهيم في الليلِ، ويعودُ على المائدة في المقصفِ، حتّى ينتهي بقولٍ مأثورٍ يجعلُه على لسانيهما :

« الفقرُ خُلُوٌّ من المال، ولكن أقبح الفقر الخلُوُّ من العافية »... فكتور.

« والغنى أن تملك من الدنيا، ولكن أحسن الغنى أن تهنأ في الدنيا ».. لويز.

* * *

ولكنه كتب في الفقر والفقراء، وفي الإحسانِ الاجتماعي، وفي أولادِ الشوارع، وغيرها من الموضوعات الإنسانيّة، ما لَوْ تهيّأ لها قلم الصَّنْعة الأوربية في القصص لكتب فيها أرقى مأساة.. ولكن جمالها بقي والحمد لله نضِراً في قُربها من المقالةِ التي تقدّم التعريف بها.

---

(١) كان الاعلان عنها في غلاف الجزء الثالث من ديوانه، وفي رسالة لسلامة حجازي أنه أراد الاطّلاع عليها.. وربما ضاعت كذلك بينهما مثلما ضاع لها من أخوات!!

(٢) كتاب المساكين ــ ٧٢

ومن بين النوازع الوجدانية التي كانت تَعْتريهِ في الكتابة عاد فسابقَ « المقتطف » في قصّةٍ « عاصفة القدر » التي عاقَ بها اللجنةَ عن سبقها، فامتدّت إليها يدُ يعقوب صرّوف تَخْتصِرها وتقتطع أجملَ ما فيها، فتضيع عليه أفكاراً فلسفية وأخرى عرف بها في مجالِ القناعة والدين[1].

وفيها قصّة فلاحٍ جاهل أحرقَ أهلَ بيتهِ من زوجهِ وأمها ؛ تَخْليصاً للنساءِ من عارٍ يحاولُه ابنُ العمدة المتعلم العائدِ من أوربة[2].

ويُقِرُّ النقّاد لهذِهِ القصة بالتوفيق والسّداد ــ وإن لم يَبْقَ منها غير الذي نَشَرَتْهُ المقتطف[3].

ولكنّ الرافعي أغري بعد ذلك بسنوات، ولا سيّما بعد اتصالِهِ بمجلة « الرسالة »،. فعادَ يكتبُ القصص، بفنّه هو الذي يجعَلُ منها ميداناً لآرائِهِ وأفكارِهِ وطبيعتِهِ التعليميّة، وسجيّته العربية البادية أحياناً والتي تلتفُّ مع الحياةِ بإيجابيّة خاصة في مذهبٍ اتّفق له بلا قَصْدٍ ولا معاناة[4].

وهكذا تميّز الرافعي شيئاً في هذا الفن، وعُرِفَ له من ثمَّ القصصُ بنوعَيْهِ : التاريخي والاجتماعي الحديث وفيهما يَبرزُ مذهبُه الإنسانيّ في دينِه ومروءتِهِ.

---

(١) رسائل الرافعي ١٣٢
(٢) المقتطف ديسمبر ١٩٢٥ م
(٣) وحي القلم ٣ ــ ٩٣
(٤) العريان ــ ٢٠٦

فمن النوع الأول له « اليمامتان » قصة الفتح العربي لمصرَ، وسجايا العرب الفاتحين، وتعريب مصر الفرعونية وافتنان القبط بمزايا الاسلام.

وقصّة « سموّ الحب » التي حكاها على لسانِ عطاء بن رباح، والزاهد عبد الرحمن (القس) وما وَقَعَ له في حبّ سلامة المُغنيّة التي رأى فيها برهان ربّه[1].

و « بنته الصغيرة » قصةُ زواجِ بنت سعيد بن المسيب بتلميذِه الفقير إيثاراً لَهُ على ابنِ الخليفة، ولكي لا يخزيها الله في قصرٍ بالدنيا،..

و « رؤيا في السّماء » التي فتنت « فيلكس فارس » فترجَمها الى الفرنسيّة وأعدّ لها دراسة[2].

وغيرُ هذهِ وتلكَ من القصصِ التي كان يقِفُ على أصلٍ لبعضها في روايةٍ من التاريخ يَبْني عليه ما شاءَ من فنّ الكتابة في هذا المضمار.

ومن النوع الثاني : قصّة « الأجنبيّة » التي حَكاها على لسانِ ولده « محمد »، و « المشكلة » التي عاناها أحد تلاميذِهِ، و « الجمال البائس » و « الطائشة » و « القلب المسكين » وما إليها..

ولما كان العريان رحمه الله قد عَرَّفَ بهذه القصص وأرّخ لها، ثم أخرجها على حِدَةٍ، فتكفي الإشارة إليها هنا، وعلى مَنْ يريد دراسةَ قصص الرافعي أن يهتدي لذلك. وإن كانت عندي شواهد وأمثلة لمَقالاتِهِ أكثر ممّا هي قصص تنفرد بفنّها.

---

(١) أحسب فيها قصة ابتعاده عن نَدي « مي » بعدما تآمر ادريس راغب باشا ورهطه لايقاعِهِ في المأساة!..

(٢) أنظر — رسالة المنبر الى الشرق العربي — فيلكس فارس

٥ ــ الخطابة

ذلك الفنُّ العربيُّ الأثير الذي كانَ عُنوانَ الجسارةِ الأدبيّةِ عندهم، ودليلَ ثَباتِ الجَنان في نُفوسِهم، ومجالَ تَرَفُّعِ الفُصحاء، وتعاظُمِ البُلَغاء في تاريخِ الأمّة، ومَنالَةَ تربيةِ أبنائها على مهارةِ الحياة وبسالةِ العيش والمروءات.

وكان الرافعيّ في مَطْلَع حياته نزّاعاً الى الخطابة، في شَوْقٍ ذي ولهٍ الى منابرِها، وأسواقها،
وكانت أيّام الأمّةِ تُغْري أمثالَهُ بغِشيان منتدياتها ورحابها.

ويومَ أنشأ الشيخ رشيد رضا الحسيني جمعيةَ الدعوة الاسلامية، خَفِقَ قلبُ الرافعي لها، وأثارَتْ وجدانَهُ، فاستطارَ بها سجّاعاً خطيباً[1] وقد تَخِذَ هو وصحبُهُ مسجد البهيّ في طنطا مقرًّا، وأعلَن في الناس « جمعيةَ السنّة الاسلاميّة » لتكونَ شعاعاً من شمس الاسلامِ على حدّ تعبيره[1] إذ قال :

« نظرتُ نظرة في الوجوهِ، فاذا هي تضحكُ وتعبِسُ وتُنكِرُ وتَعرِفُ، وإذا منها الكاشِرُ نابَيْهِ والمُرائي بعَيْنَيْهِ، والمُصِيخُ بأُذنَيْهِ،..

بَيْنا هذا يفقدُ الخطوبَ لتعُمَّ الكروب، إذ غيرُه يرتق الحوادثَ لتزولَ الكروب...

تحَالُفٌ وتخالُف، وتآلُفٌ وتجانُف، وصحبةٌ وبغضاء، كأنّهم لأنفسِهُم أعداء. فتركتُ العينَ وما تراهُ، وسمعتُ القرآنَ يقولُ :

---

(١) رسالته الى الشيخ رشيد في ١٠ ذي الحجة ١٣١٧ هـ

﴿يا أيُّها الّذينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ من ضَلَّ إذا اهْتَدَيْتُمْ﴾[1]. فاطمأنَّ الخاطرُ، وقرَّ الناظر، وسمعْتُ النداء ؛ كيفَ يكونُ الاهتداء؟ والنبيُّ ﷺ يقول : (الدين النَّصيحةُ).. فما زالَ الهاجسُ يتردَّدُ في الفكرِ، والانفعالُ يَتَلَجْلَج في الصَّدْرِ حتّى غَلَبَتْ سطوتُهُ، وقَوِيَتْ شوكتُه، فاستَنْجدْتُ بالعِلْمِ، وسألْتُه بيانَ الحكم،.. » الخ[2].

ويمضي بعد ذلك يتحدَّثُ عن اجتماعِهِم وخطابتهم في الناس وكيفَ « انحنَتِ الرؤوس، وائتلفَتِ النفوسُ، ودَمِعَتِ العيونُ، وخشعتِ الأصواتُ، وعَنَتِ الوجوهُ للحيّ القيّوم ».

لكنّ الرافعي وصاحبيهِ محمود الشبيني وعبد الفتّاح المرقي لقَوْا من عَداءِ طلبةِ الجامع الأحمدي لهم ما أوهن عَزْمَهم، وحَلَّ الجمعية الصغيرة[3].

على أن الشاميين في مصر كان لهم نَشاطُهم الاجتماعي، وكانَتْ لهم جَمعيّاتُهم، ومنها جمعيةُ « الاحسان » التي عُرِفَتْ بأسواقِها السنويّةِ ومنابِرها الخطابيّة التي تجمَعُ صُفوفَ الأدباء والمفكّرين والشعراء، وكانَ الرافعي الخطيبُ الدائم فيها. وعلى منبرِها كان يُلقي شعرَهُ وأحاديثَهُ التي اجتَمَعَ بعضُها في مؤلفاتِهِ، وخُطَبِهِ التي ذَهَبَ بعضُها الآخر بعد إلقائهِ ارتجالاً، وضاعَ غيرُه في ملفّاتها وأوراقها.

وهناك كانَ يَلْقى الأدباءَ والمفكّرين، وتقومُ بهم حياة أدبيّة من

---

(١) الآية ـــ ١٠٥ ـــ المائدة

(٢) المنار ـــ المحرم ١٣١٨ هـ ـــ ٢٠ مايو/أيار ١٩٠٠ م

(٣) العريان ـــ ٣٦٨

المحاورةِ والمناقشةِ والنقد، تحدَّثَ عنها غير واحد من أولئك[1].

وفي « جمعيّةِ الشبان المسلمين » كانَتْ له الحظوة ولا سيّما بعد فَوْزِ نشيدِهِ (الشباب المحمّدي) الذي صار نشيدَ الأمّة في الآفاق، ما فَتِئَتْ تنشِدُهُ فرقُ الإنشاد في المناسباتِ القومية.

حدّثني السيد محب الدين الخطيب رحمه الله : أنّ الرافعي في هَيْأَتِهِ وصُورتِهِ، كان يَسْتولي على سامِعيهِ — وإن خانَهُ صوتُه في كثيرٍ من الأحيان !.

وكانَتْ جمعية « الثقافة العربية » قد دَعَتْهُ للخطابة في اجتماعِها الأول، وإذ لَمْ يجدِ استجابةً لدعوتِها من شيوخ المعهدِ الأحمدي وطلبتِهِ، عادَتْ به ذاكرتُه الى أيامِهِ الأولىٰ حيثُ يقفُ أمثالُ هؤلاء من كلّ دَعْوةٍ لا تنبعِثُ من صفوفهم،.. فمالَ في خُطْبَتِهِ هذه الناحِية، ونعىٰ عليهم أن يتجاهَلوا واجبَهُم في مثل هذه الدعوةِ، وكان فيما قاله :

« إنَّ أديباً كبيراً[2] قالَها مرّةً منذ ثلاثين سنة : « لو قَعَدَ حماري في الأزهرِ خَمْسَ عشرةَ سنة لخرج عالماً » وما نُحِبُّ أن يقولَ بها اليوم أحَدٌ، ليُلْحِدَ في كفايةِ طائفةٍ من أهلِ العلم والدين هم أكرمُ علينا،.. قالَها الرافعيُّ بحماسةٍ وانفِعالٍ، وفي لَهْجةٍ خَطابيةٍ ثائرة، فكانَ لها صَدًى أودىٰ بالجمعيةِ نَفْسِها[3].

وجاء في المقالاتِ التي كانَتْ تَنْشرها « السياسةُ » عن رجالِ التاريخ

---

(١) السياسة — ٢٦ نوفمبر ١٩٢٧ م

(٢) هو الأديب الجليل عبدالله فكري

(٣) العريان — ٣٦٩، وقد حدثني بذلك حسنين حسن مخلوف، أحد أعضاء الجمعية.

المصري : أنَّ الرافعي خطبَ في حفلةٍ بعد الأمير أحمد شوقي، وحافظ ابراهيم وخليل مطران، فكانَ يجمَعُ الأدبَ والعِلمَ مع الظرفِ الذي يملكُ بهِ قلوبَ سامعيه[1] بما يملكُ من وسائلِ الإقناعِ والأمثلةِ وجوامعِ الكلم،..

وكان كذلكَ في سائرِ الأسواقِ الأدبيّةِ والخيريّة التي تُقَامُ ويُدْعَى إليها. ولعلَّ آخِرهَا « الرابطةُ العربية » التي دَعَتْ ـــ فيما دَعَتْ إليه ـــ الى قيامِ « الدولةِ العربية المتحدة »[2] وقد كانت له نُبوءَة فيها[3] وكان أحدُ أبناءِ عمومته من أعضائِها العاملين[4].

وللرافعي في الخطابة أثرٌ في شخصيّتهِ ومثارِ ذاتِهِ وتضوُّعِ وجدانِهِ، وجِلْوَةِ فكرِهِ وإشراقِ ضميره ؛ يُسَيْطِرُ بها على ما كانَ يخلفهُ صوتُهُ الدقيق الذي يُشْبهُ صُراخ الأطفال[5].

وكان له من بعضِ تلامذتهِ، وأبنائهِ مَنْ يتكلّفُ إلقاءَ خُطَبهِ المكتوبَةِ وبعضَ شعرِهِ في أيامِهِ الأخيرة في جمعيةِ « الشبان المسلمين » وغيرها[6].

---

(١) السياسة ـــ ٢٦ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٢٧ م

(٢) فيها كتاب للمجاهد العربي ـــ أمين سعيد،

(٣) راجع ما سبق ـــ الهلال/يناير ـــ كانون الثاني ١٩٢٠ م.

(٤) هو عبد الغني الرافعي؛ الذي كان في رعيل الثورة العربية الأولى، حتّى أضحى أنشط الأعضاء في الرابطة العربية بل أمينها، حدّثني بذلك زيد محمد رشيد الرافعي، وانظر أدهم الجندي ـــ أعلام الأدب والفن.

(٥) ذكر العريان، وعرَّفَهُ محمد بهجة الأثري من بعدُ.

(٦) منهم عبد المنعم خلاّف، وفكري أباظة، وابنهُ محمد منير الرافعي ـــ انظر الفتح ـــ ١٥/٢٠٣ محرم ١٣٤٩ هـ ـــ ١٩٣٠/٦/١٢ م

٦ — التفسير

جماعُ علمِ العَرب في القرآنِ الكريم، له المقامُ الأَسْمى عند عُلمائهم، ولهم فيه شروطٌ لا يتوفّرُ عليها غيرُ أفذاذِ المجتهدين من أعلامِهم، ولَهُمْ فيهِ مذاهبُ مُسْتَوْفاة.

وقد كان الرافعي مع القرآنِ من أول يوم(١) يقرأُهُ على أبيهِ الشيخ، ويَسْتمعُ الى تفسيرِهِ، ثم ينظُرُ في آيهِ الحكيم وكيفَ استنبط منها الفقهاءُ الفتاوىٰ والأحكام، وأذاعَ المفسّرون البيانَ والاعلام، وقامَتِ المذاهبُ والآراء، وتنامتِ الأفكارُ والاجتهادات،.. وعرفَ كيف دارَتْ علومُ العربية كلّها في نحوِها وصرفِها وبلاغاتِها ومعانيها وكلِماتها من حولِ فَهْمِ القرآنِ العظيم، فكانَ الإمامَ الخالدَ لأُمّتِهِ أبداً، كيفَ اتّجَهَتْ بها الأيام!.

ويوم أرّخ الرافعي للقرآنِ باعتبارِهِ الأدبي، وعُني بعلومِهِ في آي الذكر ونُزولها، والقراءاتِ على ما مرّ بنا، وفي الموضوعاتِ التي أدارها من حول إعجازِهِ تعالى للبَشَر جميعاً أن يأتوا بمثلِهِ، فكانَ عندَهُ مُعْجِزاً في حُروفِهِ وكلماتِهِ، وعباراتِهِ وأحكامِهِ التي يجمعُها قولُه تعالى فيها بكلمةِ « آيةٍ » ولله المثل الأعلى — ولكنّهُ جارىٰ الأقدمين في المُصْطلح(٢).

* * *

(١) الرسالة — ٨٣ قرآن الفجر — وحي القلم ٣ — ٢٨

(٢) منهم عبد القادر الجرجاني.

وحَدَثَ أن شجَرَ بينَهُ وبين الأدباءِ المتأثّرين بالحيواتِ الجديدة التي طَرَأَتْ على الديارِ الإسلاميّة بعدَ ضياعِ وَحْدتها، ومَصْرعِ خِلافتِها، وتوزُّعِ أقطارِها أَشْلاءً بيد الانتدابِ والحمايةِ، ومناطق النفوذِ، وشيوعِ الأفكارِ المختلطةِ المجلُوبة، والمذاهبِ الاجتماعيّة والسياسية التي عادَتْ توزّعُ الناس في أحزابٍ وجَماعات وطوائفَ، فاهتبلها الرافعي فرصةً يَعُودُ فيها الى ذلك التأريخِ لأدبِ القرآن ؛ يَنْشُرهُ، ويُضيفُ إليهِ شروحاً وهوامشَ تُعينُ على القَصْدِ.

ثم بدا له أن يتحرّىٰ أسرارَ القرآن في الإعجازِ، فخَطَّ لذلك منهاجاً جديداً، ولكنَّهُ وَجَدَ أن ذلك يستتبع أن يكونَ له مصنَّف في التفسير على حِدَةٍ[1] وبقيَ الى آخِرِ أيامِهِ يتهيّأُ لَهُ، ويحتفي لإخراجهِ، ثمَّ تَشْغلَهُ الشواغل ويعوّقُهُ المرض عنه !.

وكان العريانُ قد تحدَّثَ عنه بعدما شهِدَ فُصُولاً تامّةَ التأليف، وأخرىٰ مُجْمَلَة الفكرةِ مُشاراً الى مصادِرِها، فهو :

أ ـــ يتحدَّثُ في صدر الكتاب عن البلاغةِ العربية ؛ فَيَردُّها الى أُصولٍ غيرِ التي اصْطَلَحَ عليها علماؤُها منذُ كانت، ويَضَعُ لها قواعِدَ جديدةً، وأصولاً أخرىٰ..

ب ـــ يتحدَّثُ في الفصل الثاني في بلاغَةِ القرآن وأسرارِ إعجازِهِ مُسْتَرْشِداً بما قدَّمَ من أصول.

ج ـــ يتناولُ في الفصل الأخيرِ من الكتاب آياتٍ من القرآنِ على

---

(١) البلاغ الأسبوعي ـــ ١٩٢٦/١٢/١٠ م

أُسْلوبٍ من التفسيرِ ؛ يبيِّن سِرَّ إعجازِها في اللَّفْظ والمعنى والفكرة العامة، وهو صُلْبُ الكتاب ومادَّتُهُ.

ويضيفُ العريان : أنه أتمَّ بِضعاً وثمانين آيةً على هذا النَّسَق الى آخر يوم كانَ معه[1] وكان الرافعي قد نَشَرَ منها تفسيرَهُ لقولِهِ تعالى : ﴿ وآتُوا النّساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾[2] بعدما قامَتْ زوبعةٌ في الصحفِ تتحدّث عن الزواج ؛ ترتئي الآراء الآنيّة، وتجازف ببعض وجهات نظر غير مسؤولة[3].

كما نشر منها تفسيرَهُ لقوله تعالى : .﴿ وراوَدَتْهُ التي هي في بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وغَلَّقَتِ الأبوابَ وقالَتْ هَيْتَ لك ﴾[4] كما ضمّنَ بعض مقالاته وقصصه ألواناً منِ ذلك التفسير، كما جاءَ بعضُه في ثنايا رسائِلِهِ[5].

ومن الطريف أنه يشيرُ الى الشيخ أبي ريّة في إحدى الرسائل أَنْ يَنْسَخَها له، ويعيدَها إليه ؛ لِيَضُمَّها إلى مذكراتِهِ وجُذاذاتِهِ في الموضوع[6].

وكان العريانُ قد حَدّثني بخبرِ الكتاب[7] وكذلكَ حدّثني محبٌّ

(١) قبل وفاته بنحو عام ــ راجع العريان ــ ٢٨٩
(٢) الآية ٤ سورة النساء
(٣) الرسائل ٢٠٠، وقد راجعت (كوكب الشرق) فلم أقفْ عليها!!
(٤) الآية ٢٣ سورة يوسف
(٥) الرسائل ــ ١٧٤، ٢١٤، ٢٣١، ٢٥٦... الخ.
(٦) الرسائل ــ ٢٧٨
(٧) وأحسب أنه قال لي يوماً أنه ضمَّنهُ بعض مقالاته، ولكن مسوداته بقيت في مكتبته!

الدين الخطيب ومحمود محمد شاكر ومحمد الرافعي، وكلٌّ كان يهيبُ بأدباءِ العربيّة أن يُعينوا على إخراجِهِ، ولكن : أينَ هو الكتاب الآن ؟!.. لا أدري !.

* * *

مثال التفسير .

منه قولُهُ في تفسير الآية ٦٦ من سورةِ الأنبياء ﴿ **قال أَفَتَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعكم شيئاً ولا يَضرُّكم** ﴾ : ظَهَرَ لي أنَّ « شيئاً » في الآيةِ بدل « رِزْقاً »،.. وهذا الإعراب نبّه إليه المفسّرون وجعلُوهُ ضعيفاً، مع أنّ فيهِ كلَّ القوّة؛ لأنَّ المراد من الآية أن هؤلاء يعبدون من دُونِ الله ما لا يملِكُ لَهُمْ رزْقاً في السماواتِ والأرض..

وهنا يعرضُ هؤلاء أنفُسهُم بأنَّهم يعتقدون أن معبوداتِهم تملك ذلك، وإلّا.. فلِمَ عَبَدوها ؟! فجاءَت لفظةِ (شيئاً) لبيانِ أنّ ذلك كلَّهُ وهمٌ وتخييلٌ وضَلال، إذ لا مَعْنى للرزقِ إلّا إذا كانَ شيئاً لا وَهْماً فقط.

الى أن يقولَ : « فشيئاً » هذِهِ مُعْجزةُ الآية كلِّها، ويَسْتحيلُ أنْ يتنبَّه إليها عَقلٌ بشري ويجيءَ بها في هذا الموضع، وتكون النتيجةُ التي ترمي إليها الآيةُ بهذا التعبير : أنّ المعبودَ الحقَّ هو القوةُ الأزلية المالكة للإيحاءِ المطلق، أي الواحدِ الأحد، وهو الله لا غيرُهُ، وما عدا ذلك فهو من اختراعِ أوهام الناس.

* * *

ومنهُ تفسيرُهُ لقوله تعالى : ﴿ **ولَقَدْ راودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ، فَاسْتَعْصَمَ،**

وَلَئِنْ لم يَفْعَلْ ما آمُرُهُ، لِيُسْجَنَنَّ، وليكونَ من الصاغرين ﴾ (يوسف / ٣٢).

الآية هذه في هذا الموضع من السياق لوحة تعبيريّة كاملة ؛ تصور الفضيلة والرذيلة بكلّ درجاتهما وأشكالهما وألوانهما..(١).

ومجملُ ما يُؤْخَذُ بالإيجازِ أنّها تريد يُوسف ـــ عليه السلام ـــ لما تعرضُ له هذا الجمالَ الفاتنَ جمالَ امرأةِ العزيز، وهاجَمه بكلّ أسلحةِ الأنوثة المشحونَةِ التي تُشْبهُ في حاجتينِ ما يشبهُهُ آخرُ اختراعٍ حربيّ لما تعرضُ هذا الجمال بهذهِ القوّة، وبتلكَ الرغبةِ المشبوبَةِ المُلْتهبةِ في نفسِ تلك المرأةِ الفاسقةِ المُتَرامية على حبيبها ـــ وقد وضَع نفسَهُ موضع الأَعْصمِ، أي الوَعْلِ الذي يَعْتصم بقمّةِ الجَبَل، فلا يمكِنُ إنزالُه منه بأي حيلةٍ من حيَلِ الصَّيْدِ،.. ومَزيدُ السين والتاء على الفعلِ مما يدُلُّ على العَمَلِ النَّفْسَيّ الطبيعي ؛ فهي هنا تصوّرُ يوسف ـــ عليه السلام ـــ وقَدْ جاهَدَ نفسَهُ طويلاً حتّى اسْتطاعَ أن يحوّلها الى هذِهِ العصمةِ، وأنْ يضَعَها هذا الموضعَ الممتنع.

ثم إنّه الذي يكونُ في قمّةِ الجبَلِ، لا بُدَّ من صُعودِهِ على قدميهِ ومُعاناةِ كلّ مشاقِّ الصعود وشعوره الشعور الطبيعي الواقع الذي تَدلُّ عليه نَبَضَاتُ قَلْبِهِ القويّة المُتَداعية، شعورُهُ من ذلك أنّه يقاومُ جاذبيةَ الأرضِ نَفْسِها.

---

(١) راجع سيد قطب في (التصوير الفني في القرآن) و « في ظلال القرآن » وتأمَّل الأخذ دون إشارة!! وعفا الله عن الزيات والعباس خضر اللذين أحجما عن المُضِيّ في الموضوع ـــ الرسالة ٧٣٧.

إنَّ يُوسُفَ عليه السلام في مقاومتِهِ المرأةِ الفاتنة، واتّجاهَهُ في عَكْسِها، فلا أقوىٰ ولا أدهَشَ من تَصويرِ الآية بجاذبيّةِ المرأةِ في هذا الشكل..

ثم يقابلُ هذه الفضيلةَ مع إمكانِ الرذيلة بالرّذيلة المُتَدَنّية في السفحِ والحضيضِ التي كانَتْ عَليها امرأةُ العزيز الراغبةُ المتهالكة عليهِ المخالفةُ للطبيعةِ المركّبةِ في نَظَرِ الأنثى من الامتناعِ والتأبّي[1].. الخ[2].

٧ ـ الآبدة

هي الحكمةُ المرسَلةُ في المَثَلِ، بجوامعِ الكلم التي يكونُ منها خلاصةُ التجربةِ في الحياةِ.. وقد تزدحم فيها الخواطر والفنون، وتكونُ شعاراً فيه البيان والحَسْمُ.. وكانَ الذي تَنَبّأَ للرافعي أوّلَ أيامهِ أن يبلُغَ هذا المبلغ من الحكمةِ هو الزعيم مصطفى كامل حين كتبَ في التعريفِ بديوانِهِ ونقده يقول :

« .. وسيأتي يومٌ إذا ذكر فيه الرافعي قالَ الناس : هو الحكمة العاليةُ مصوغةٌ في أجملِ قالَبٍ من البيان »[3].

وللآبدةِ مكانٌ بيّن في تاريخ آداب العرب ؛ تمَثَّلَتْ في فنونٍ جاءَتْ تعرّفُ بها وتَنْتَسِبُ إليها، وتجتمع من حولها بجهازِها من الأدب والبيانِ ومآثرِ المُحسّنات التي ترافقها.

---

(١) انظر الضياء ـ ٤ رمضان ١٣٤٩ هـ ـ ١٩٣١/١/٢٤ م

(٢) ومن غريب ما كان أنه نَحَلها والآيةَ الأخرى (يوسف حنا) ثم عادَ فضمّنها قِصّته في (سمّو الحب) الرسالة ٧٧ ـ وحي القلم ١ ـ ١٠٣

(٣) حياة الرافعي ـ ٢٣

ولعنايةِ الرافعي بصياغَةِ العبارةِ للجُملة العربية الجديدة تَفَجَّرَتْ على لسانِهِ « أوابدُ » منها تَنَاثَرَتْ في ثنايا كَلِمِهِ، وتوزَّعَتْ فنون كتابتِهِ، وتقلَّبَتْ بين كتُبهِ ورسائله.

حفل بها « حديث القمر » فأشرق بالعربية على معانيها.. وجَعَلَ « كتاب المساكين » منها عناوين وشعاراتٍ له، وجاءَتْ « رسائل الأحزان » ترفلُ فيها، وفَتَح « السحاب الأحمر » فَصْلاً عامراً لها، وتناثَرَتْ بَيْنَ « أوراق الورد » كأنّها أوراد أخرىٰ.. وكان منها ما كادَتْ تَنْفرد به أخيراً في « كلمةٍ وكُلَيْمة » فتؤلِّفَ جُزْءًا فريداً من أدبه !. منها :

* لا ثقةَ لي بمتخلّقٍ لا دينَ له ؛ فإنَّ الخُلُقَ يصلهُ بحظِّ نفسِهِ أكثر من يصلُه بواجبات الناس.. ولا بفَيْلَسوفٍ مُلْحِدٍ ؛ لأن الفَلْسَفَةَ تمزجُهُ بالمادّة أكثر مما تمزجُهُ بالإنسانية.. ولا بمُصْلحٍ يَنْسلخُ من الدّين ؛ لأنَّ إصلاحَهُ صوَرٌ من غرُورِهِ، ولا بعالمٍ جاحِدٍ ؛ لأنّ عِلْمَهُ كهندسَةِ الشوكة، كلّها من أجلِ آخرها[1].

* لم تَعُدِ التربيةُ في كلّ أمّةٍ تَرْبيةً للنّاسِ، ولكنْ للمطامعِ، فما يكبرُ جيلٌ إلا كَبُرَتْ معه الحربُ.

* إذا رأيتَ كبراءَ قومٍ هَمُّهم عَيْشهُم فاعلَمْ أنها أمةٌ مأكولة، فلو شَهدَتِ السيفَ الماضي لقاتل بروح ملعقة، ولو رَجَعتْ بالأسطولِ الجبّار، لصَلْصَل كآنيةِ المطبخ[2].

---

(١) كتاب المساكين ــ ٢٧٩

(٢) الرسالة ــ ٦٤

* ينفر الإنسانُ من الكلمةِ التي تحكمُه، ولكنّه في الحبّ لا يبحث إلّا عن الكلمةِ التي تحكمُهُ[1].

* من مضحكاتِ السياسة إنشاؤها أحزاباً، يَقومُ بعضُها كما تُغْرَسُ الخَشَبَة لتكون شجرة مثمرة.

* الفرق بين كاتبٍ مُتَعَفّف وكاتبٍ مُتَعهّر ؛ أنّ الأول مثقلٌ بواجبهِ، والثاني مثقلٌ به الواجبُ.

* التمدّن والفقر كصاحبَيْن معاً ؛ ذي رجلينِ وأعرج، يَمْشِيان في طريق، فكلّما انفسَحتْ خطواتُ الأول، زادَتْ عَثَرات الآخر[2].

* شَرُّ المُصْلحين رَجلٌ مُسَلَّطٌ على أمّةٍ ؛ يحكمُها بعَقْلٍ كبيرٍ فيه موضعُ فكرةٍ مجنونة[3].

* إذا رأيتَ قوماً عَمّهم الكذِبُ في بابِ ما يفْتخر بهِ، فاجعَلْ هذا وحدَهُ في تاريخهم باب ما سَقَطوا بهِ[4].

* * *

والحكمة بعد ضالّة المؤمن كما جاء في الأثر، تدلُّ بوضوح على نُضْج تجربة المرء في الحياة،.. وقد كان القرآن الحكيم أبلغ في إرسالها ﴿ **ومن يُؤْتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً** ﴾[5] الآية. وقد سارت بأمثالها الركبان، وتقلّبتِ الأزمان.

---

(١) الرسالة ــ ٦٤

(٢) الرسالة ــ ٧٦

(٣) الرسالة ــ ٥٤

(٤) الرسالة ــ ٩٤

(٥) البقرة ــ ٢٦٩

وكان الرافعي شديدَ الكلَفِ والاحتفاءِ بالحكمةِ والآبدةِ، ومن أجلِ أن يُفْردَ لها مكاناً في أدبهِ، راحَ يفتّش عن « فُصَحِ الكلام » في كلامِ العرب وأوابدهم، ليجعَلَ منه كتاباً في اللُّغة يجمَعُ إليه فُصَحَ الكلام مما وَرَدَ في الكُتُبِ المختلفة، يجمَعُ بينها بطريقتِهِ في الضَمِّ والتاريخ، ثم يلحق به أوابِدَهُ، أو يظْهرِها فيه.

وكان الكتاب أوراقاً غيرَ مرتَّبة ولا كاملة تحتاجُ الى مطالعةٍ، ثمّ الى ترتيب وتبويب، ولم يكن قد أطْلَعَ عليه أحداً إلّا أن يتم[1].

وعسىٰ أن لا يكون قد لحقَ بما فُقِدَ أو ضاعَ من آثارِهِ !.

* * *

(١) رسائل الرافعي — ١٦٤

الباب الثاني

الرافعيّ الكاتب

بين

المحافظة والتجديد

الفصل الأول

الكتابة عند الرافعيّ

لقد عُرِفَ الرافعيّ كاتباً أديباً مشارِكاً، لَهُ في الكتابةِ العربيّة صفحاتٌ يُشارُ إليها بالانفراد، وتوصَفُ بالامتياز من ناحيةِ الأُسْلوب، وتُنْعَتُ بما حفِلَتْ بهِ من المعاني والجدِّ في شَعْبها وتوليدِها.. حيثُ تكونُ شخصيّتُهُ واضحةً في مُعْظَم الفصولِ التي أَنشأها، والأبوابِ التي كتَبَ فيها، والموضوعاتِ التي تَحَرّىٰ فيها التجديد، والتفسيراتِ التي حاولَ بها فِقْهَ الحياة بدراسةٍ وتأمُّل ـــ على وِفْقِ ذلك التحليلِ الذي عاناه، والالتزام الذي كلِفَ بِهِ، مُذْ يومٍ حمّلَ أدبَهُ تبعَةَ الاجتهادِ في الفكر، والوفاءِ بالعطاءِ، وجَعَلَ له ذلك الطبعَ العربيَّ والسَّمْت الذي عُرِفَ به كما عُرِفَ له.

ولو تحرّينا الحقيقةَ الوثيقة التي مكَّنَتْ له من تلك المنزلةِ في الأدبِ والكتابةِ العربيّة، لَوَقَفْنا على معالِم في تَلَقّيهِ وتَرْبيتهِ وثقافتِهِ، ولأدركنا جوانبَ في شخصيتِهِ ـــ وإن امتدّتْ في الموضوعاتِ، وصارَتْ الى ما صارَتْ إليه، فإنّما دَلّتْ على مَبْلغِ الحِرْصِ عندَهُ في آفاقِ حياتِهِ كلّها !.

عُرِفَ عن الأسرةِ العُمريّة الجديدة ـــ الرافعية ـــ كَلَفها الشديد بالفِقْهِ وعُلُومِهِ الإسلاميّة، وكانَ منهم فقهاءُ الأَحنافِ والقُضاةِ في شتّى

أقطارِ الدولة الاسلامية، منذ عهدِ جَدّهم شيخ المشايخ أبي عقيل المنبجي، ولا سيّما في العهدِ الأخيرِ للدولة العثمانية[١].

لا يكادُ يشبُّ الطفلُ فيهم عن الطوقِ حتّى يتعهّدُوهُ بالتأديبِ وألوانِ التهذيبِ التي تَطْبَعُهُ على الطّاعةِ وتقديسِ الدّين، ويُغْرقوهُ في الثقافةِ التقليديّةِ للأسرةِ بجوانبها التطبيقيّة والعلميّة[٢].

وما أتمَّ أديبُنا العاشرةَ من عمرِه حتى جَمَعَ القرآنَ كلَّه حِفْظاً وتجويداً بأحكامِ القراءة[٣] إذ حالَ المرض بينَهُ وبين أن يَلْتحقَ بالمدارسِ النظامية، ولكنّهُ اختلَفَ على الكتّاب، ونالَ حُظوةً كبرىٰ عند أبيهِ الشيخ عبد الرزّاق الرافعي ـــ كبير القضاة في الغربية ـــ فكانَ الأثير بينَ إخوتِهِ، الذي يَتَلقّى عنهُ دروسَ الفِقْه واللُّغة والتاريخِ ؛ تلكَ الموضوعاتِ التي ما برحَتْ مادةَ الثقافةِ القوميّةِ وأصولها، على ذلك المثالِ الذي عُرِفَ للأُمّةِ في فُضْلياتِ أيامها.

ولمّا حانَتِ التفاتةٌ من أبيهِ الشيخ، التَحَقَ هو بمدرسةِ « دمنهور » الابتدائية، في الوقتِ الذي لم يَنْقَطعْ فيهِ عن مُلازمَتِهِ، والأَخْذِ عنه، وتحضيرِ دُروسٍ في علومُ الحديثِ والأُصولِ عليه[٤].

وكان ميلُهُ بذلك الى الفُصْحىٰ في المخاطبةِ قد نمّاهُ، وتَعَهّدَ ذلك الأخذَ الخاص الذي غَرَسَ فيهِ حُبَّ العربيّةِ وأهلِهَا وبيانِها.

---

(١) راجع ما سبق، وانظر في « السالنامة العثمانية » لتجد أسماءَهم في قضاء متسلميّة البصرة واليمن وطرابلس الغرب».. أو الاستنطاق في الديار الشامية».. وقد عدّ « كرومر » المندوب السامي البريطاني في مصر أربعين قاضياً منهم في القطر المصري ـــ بتقريره لعام ١٩٠٥ م.

(٢) أحمد محمد عيش ـــ المقتطف ٩١ ـــ ٥٢٩

(٣) الرسالة ـــ ١٨٧ قرآن الفجر ـــ ١٠ ذي القعدة ١٣٥٥ هـ ـــ ١٩٣٧/٢/١ م

(٤) الهلال ـــ يناير ١٩٢٧ م

المبحث الأول
الأديب الذّواقة

عُرِفَ الرافعيُّ بين مُعاصريهِ بالأَديبِ الذوّاقة[1] الذي يَتَحرّى البيانَ في المعاني، والحَلاوَةَ في الكلماتِ وله قُدْرَةٌ عجيبةٌ في تأمُّلِ الحروفِ واسْتخراجِ التّفْسِيرات من ذلك كلِّهِ[2]. وهو نَفْسُهُ كانَ يرى للذَّوْقِ أصالةً تُتَعَهّدُ بالغرْسِ والنّماءِ، والتربيةِ والتهذيب[3].

لُوحظَ عليهِ في مدرسةِ المنصورة الابتدائية ــ وهو يُفْصِحُ في حديثِهِ ويمتازُ بمقالتِهِ[4] ويَنْعَى على رفاقِ الدّرْسِ ارتضاخَ أَلْسِنَتهم للعاميّةِ[5] التي تذوبُ فيها الحروفُ والكلماتُ بين لَفْظِ السادةِ الأعاجمِ وعبيدِهم في الدّيار المِصْريّة آنذاك.

وهذه الحالُ قد أودَعَتْهُ من يومئذٍ طُموحاً خاصًّا : أَنْ يَغْلِبَ أبداً في امتياز، وأن يَسْلُكَ في مِضْمارِ الأَخذِ العلميّ، واستيعابِ الدروس،

---

(١) وحي القلم ٣ ــ ٢٨٤

(٢) العريان ــ ١٨٥ وانظر تفسيره تعالى ﴿ وراوَدتْه التي هو في بيتها ﴾ ــ الرسالة ــ ٧٧ سموّ الحبّ، وحي القلم ٣ ــ ١٠٣

(٣) السياسة ــ فبراير ١٩٢٤ م ــ وحي القلم ٣ ــ ٣٨٨

(٤) و(٥) ــ أحمد عيش ــ السابق

والإلمام بجوانبِ المَعْرفة، وتَذَوُّق ذلك كلّهِ مع الأدبِ والفن والجلال والجمال. فما عادَ ينْقطعُ عن الدراسة النظاميّة حتّى تَهَيّأ لَهُ في مكتبةِ أبيهِ العامرةِ بالمُصَنّفات[1] والجامعةِ أشتاتاً من نوادِرِ كُتُبِ الفقه والعربيّة — ما يَمْلأ عليهِ أُفُقَهُ الدراسيَّ الطموح، وذَوْقَهُ الأدبيّ، ويفيضُ عليه بأنواعٍ أخرىٰ من الدروسِ التي اعْتَدَّ بها أبداً، ولَهِجَ بالشكرِ والثناءِ المُسْتَطاب لِفَضْلِ ذلك الوالد العظيم في هذا الشأنِ من تَعْليمِهِ وإعدادِهِ لحَمْلِ تَبِعَةِ الفكرِ العربي المؤمِن فيما بعدُ[2].

وإذا ما عَلِمْنَا أنه لازَمَ أباه الشيخ في بيتِهِ حتّى اختارَهُ الرفيقُ الأعلى الى جوارِهِ، أدركنا ذلكَ المدىٰ الذي تهيّأ له فيهِ مثالُ الرعاية التربويّة والثقافية، وتَعَهُّد الغَرْسِ فيهِ، والإثمار في كلٍّ — وقد قال له ذاتَ يوم : « إنك يا وَلَدي تجاهِدُ في سبيلِ الله »[3].

تلكَ العبارة التي كان لها وَقْعُ الوحي والإلهام — غير التوجيه والسداد — لمن هَيَّأَتْهُ العِنايةُ الالٰهيّة لأمرٍ من الأمورِ، ومَسّتْ من فؤادِهِ مكاناً خَلِيًّا بالبثِّ والنجوىٰ، حتّى غَدَتْ له من ثَمَّ آيَةَ الإلهام التي تَطْلُعُ عليه بما يَفْتَحُ اللهُ لَهُ من آفاقِ العِلْمِ ورِحَابِ الفِقْهِ، وميادين الدَّعْوةِ والمُنافَحَةِ دونَ ذلك السبيل، وفي ذلك الأسلوب البياني الذي تحرَّاهُ مُنْذُ ذَهَبَ الى ذلك الوالدِ في سَحَرِ يومٍ من شهرِ رمضان — وقد

---

(١) العريان — ١٨

(٢) رثى الرافعي أباه الشيخ بقصيدةٍ عامرة — المقتطف ١٩١٩/٩ م وتحدّثَ عنه في الهلال ١٩٢٧/١ م وأشار الى فضله في ذكرياته عن الصحافة — كلّ شيء — ٣ يناير ١٩٣٤ — وخلّد أثره في نفسه — الرسالة ١٨٣، ١٨٧، ١٨٩،.. الخ. وقد فاتَ الفاضل ضيف الله محمد الأخضر كلّ هذا — راجع نثر الرافعي — ٩٤.

(٣) أحمد عيش — السابق

انْبَعَثَ في جَوّ المَسْجدِ صوتٌ غَرِدٌ رَخيمٌ يَشُقُّ سَدَفَةَ اللَّيلِ مثلَ رنينِ الجرس تحتَ الأفق العالي، وهو يُرَتّلُ الآياتِ الأخيرة من سورةِ النحل:

﴿ أُدْعُ إلىٰ سَبيلِ رَبّك بالحِكْمةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ، وجادِلْهم بالتي هي أحسَنُ، إنَّ ربّك هو أعْلَمُ بِمَنْ ضلَّ عَنْ سَبيلِهِ، وهو أَعْلَمُ بالمُهْتَدين * وإنْ عاقَبْتُمْ فعاقِبُوا بمثلِ ما عُوقِبْتُمْ به، ولَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهوَ خَيْرٌ للصّابرين * واصْبِرْ وما صَبْرُكَ إلّا باللهِ، ولا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ، ولا تَكُ في ضَيْقٍ ممّا يمكرُون * إنَّ اللهَ مع الذينَ اتّقَوْا والّذينَ هُمْ مُحْسِنون ﴾.

قال : أمّا الطفْلُ الذي كانَ فِيَّ يومئذٍ، فكأَنما دُعِيَ بكلِّ ذلكَ ليحملَ هذه الرسالة، ويؤدّيها الى الرَّجُل الذي يجَيءُ فيهِ من بعدُ[1].

ومن هنا ندرك أن تلك المُلازَمَةَ للوالدِ الرّاعي كانَتْ ذاتَ أثرٍ بَعيد في الاثنينِ معاً.. ففي الوقت الذي يَنْدفعُ فيه أديبُنا الى المخاطَرةِ بالرأي، ومحاولةِ الحياةِ في غيرِ سبيلها القويم[2] نجدُ ذلك الأب يكبَحُ جماح الفُتُوّة وطماحِ الشباب في ابنهِ يَخْشىٰ عليهِ الذّوَبان في خِضمّ الأَحْداثِ المُتغيّرة بسُرعةِ الانتقالِ بالحياةِ السياسيّة والاجتماعية والفكريّة آنذاك.

وبِرُّ الرافعيّ بأبيهِ من بعدُ، مثالٌ فريدٌ في حُسْنِ التربيةِ والإعدادِ معاً ؛ فقد انْطَبَعَ على غِرارِهِ، وكان سِرَّ أبيهِ في مواصلةِ الدَّرْسِ وسعَةِ

---

(١) الرسالة ــ ١٨٧ السابق (الآيات ١٢٥ ــ ١٢٨) :
(٢) لاحظ ما سبق من نحو نهيه عن الالتحاق بالصحافة أو الاضطراب في السياسة.

الاطّلاع والظهورِ على مُعاصريه[1] وكلّ ما يجلبُ الخير والغِبْطةَ لأبيهِ ــ وهو يرقى سلّم المعرفةِ صُعُداً الى الصدارَةِ في ديوانِ الأُدبِ، والرئاسةِ في الكتابة، والامتيازِ في سَدادِ الرأي، والمُوافاة في الحكم.

إذَنْ كانَتْ لأبيهِ يَدٌ عَلَيْهِ راعيةٌ وموجّهة ــ بعدما اصْطفاهُ من بَيْن إخوتِهِ، وآثَرَهُ بفقهِهِ وعِلمِهِ وأدبهِ، فكانَ كما أرادَ شَخْصِيّةً وانفراداً[2].

وقد يُضافُ الى ذلك عَطْفُ أمّهِ عليهِ، وإيثارُها لَهُ[3]، بعدما غَلَبَتْ على أيامِهِ الشّقْوَةُ من قِلّةِ العافيةِ، ولم يُكْتَبْ له التوفيقُ في الحياة المُتَحركةِ في التجارةِ أو الزراعةِ ــ كما كُتِبَ لاخوتِهِ الآخرين، ممّن نالُوا المقامَ كمحمّد الكامل، والمكانةِ الاقتصادية كسعيد، والحُظْوةِ السياسية كمحمود، والاتّجار كالنبويّ.

الحال النفسيّة

ومن هنا ندركُ أيضاً الحالَ النفسيّةَ التي كانَ عليها في دراستِهِ، ومحاولاتِهِ الأستِباقَ مع الأيّام، بما تَفَجّر فيهِ من طاقاتِ الألْمعيّة والذكاء[4].

عُرِفَ عنهُ في الابتدائيةِ أنه كانَ يُثير إعجابَ أُستاذِهِ (مهدي خليل)،

---

(١) العريان ــ ١٨، وكان خلافٌ قد نَشَبَ بين الشيخ عبد الرزاق الرافعيّ وبعض علماءِ عصره، حفّزه ــ وهو شيخ كبير ــ الى طلبِ الشهادة العالمية ليستكمل براهينه في جدال العلماء.. وكذلك تقدّم أديبُنا بكتابهِ (تاريخ آداب العرب) ليظفرَ بالمكانة العلميّة أمام الجامعة بخاصة!

(٢) كتابنا ــ الرافعي الإمام ــ ٢٣٨

(٣) العريان ــ ١٥

(٤) كانت الزهور/أبريل ١٩١٣م قد نشرت أبياتاً، وسبَقَتْ في من يَعْرِفها لمن، فظفِرَ الرافعي بالجائزة خمسة جنيهات ذهباً!

فَيَسْتطيلُ لوضْعِ شواهِدَ للعربية من نَظْمِهِ[1] غيرِ التي يتَناقَلُها علماءُ النحو والصرف واللّغةِ من كلام العرب منذُ نَشأَتْ تلكَ العُلوم!

وإذا عَرَفْنا شأنَ مكتبةِ أبيهِ، ومكتبَةِ الشيخ القصبي، ومكتبةِ الجامعِ الأحمدي في طنطا[2] ــ حيثُ اسْتقرَّ بهِ المقام بَعْدَ التطوافِ مع أبيه، وتَطْوافِهِ هو في وظيفتِهِ ــ ودار الكتبِ المصريّةِ، تلكَ التي كانَ يَغْتَرِفُ من مناهِلِها، وَيَلْقَفُ ما حَوَتْهُ نوادِرُها وفرائدُها، ويوجزُ ويَنْسَخُ ويَخْتَصر،... أدركنا سِرًّا آخرَ من انْطِوائِهِ على نفسِهِ في تلكَ الأيام في اعتكافٍ خاصّ ؛ يَقْرأُ ويطالعُ، ويعيشُ مع عُلماء الأمةِ في تاريخها الكبير[3] ويتَذَوّقُ معانيهم، وينطقُ بكلماتِهم، ويحرّكُ حرُوفَهم، فكأنّهُ يشركهُم حَيواتِهم وعُصُورَهم هاتيك.

أجل.. لَقَدْ كان يعوّض بذلكَ عن الوَحْشَةِ التي تَعْتَريهِ من غُربتِهِ[3] ومرضِهِ الذي راحَ يَحْجبُهُ عنه الناس في أَنْديتهم ومُجْتمعاتهم، فَيَنْطوي على عِشْقٍ لبَعْضِ الصُّوَرَ الحَسَنةِ[4] تُخَفّفُ عنهُ بعض الشيء.

وكذلك ندركُ السِّرَّ الآخرَ في انفرادِهِ بينَ الحُقول والبساتين في نُزُهاتِهِ وخَلَواتِهِ البعيدة في تلك الأيام[5] ورِحلاتِهِ التي تَهيّأ لَهُ[6].

(١) محمد صبري ــ شعراء العصر ــ ٢١٣
(٢) العريان ــ ٥٢
(٣) العريان ــ ١٩
(٤) الرسائل ــ ١١٢
(٥) أحمد عيش ــ السابق
(٦) لكنه ما لبثَ أن حَرَمَ نفسَهُ تلك المتعة التي كان يختلفُ فيها على ديار أهليهِ في الشام ومغاني لبنان منها خاصة، بعد قيامِ الحرب وقد تحرّك الأولادُ بين يديهِ فكانَ له فيهم نوعُ حياةٍ تلحق بالاسرافِ، في الوقتِ الذي كان فيه يقتّرُ على نفسهِ.. وبينَ=

ولو انقلبنا معهُ — وهو يَخْتلِفُ على مِصْرَ، ويقصُدُ دار كُتُبها العامرة[1] ويَلْقىٰ العُلَماء والأدباء، ويتناوَلُ منهم بَعْضَ المراجع والمخطوطاتِ النادرة، والكتُبَ والرسائلَ الوافرة،.. وتأمّلْنا في بقايا دفاتِرِهِ وأوراقِهِ التي كان يَنْسَخُ فيها ويخْتصر[2] ويأخُذُ من تلك الكتُب. عَرَفْنا كيفَ تَهيّأَ له ذلك المدىٰ الذي أدركهُ في سبيلِ ثقافتِهِ وفنّهِ، وعَرَفْنَا أيضاً كيف تَنَزَّلَتِ العربية ببيانها وبلاغاتِها، ومُفْرداتها ومعانيها منهُ منزلَةَ الفطرةِ الغالبةِ، حتّى حَسِبَهُ « العريان » في أوّلِ ما بَدا له — وكأنَّهُ رجلٌ من التاريخِ قد فَرَّ من ماضيهِ البعيد، وطوىٰ الزَّمانَ القَهْقَرىٰ ليَعيشَ في هذا العصر، ويصِلَ حياةً جديدةً بحياةٍ كان يحياها منذُ ألفِ سنةٍ أو يَزيد في عصر بعيد[3].

ولا أحسبُ أنَّ العريان قد فاتَهُ أنَّ الرافعي من الكتّابِ الذين تُتَّخذُ حياتُهم مِيزاناً لأعمالِهم وآثارهم ؛ ذلكَ أنَّ امْتيازَ الرافعي بقلبِهِ هو سِرُّ البيانِ فيما تدَاوَلَهُ من معاني الشِّعْرِ والأدب،. وهو سِرّ حفاوتِهِ بالخواطِرِ ومذاهبِ الآراء، وسِرُّ إحسانِهِ في مُهِمَّتها وتدبيرها،.. وهو سِرُّ عُلوِّهِ.

والقَلْبُ بعدُ هو مُرّبي الذوق، ومَناطُ العاطفةِ، ومثارُ الوجدان،.. فكيفَ بِهِ وهو يَتَلَقّى القرآنَ « غَضًّا طريًّا كأوّلِ ما نَزَلَ به

= يديّ دراسةٌ له في (الكنية عند العرب) لم تُنشَر؛ وفيها يتحدّث عن ولدِهِ (سامي) وكأنّه يستغرقُ ذاته في الاستبطانِ، ويُثير الوجدان الأدبي أمام العاطفة الأبوية — انظر الانبعاث القومي للضمير العربي — النصوص.

(١) كان فيها يومذاك اثنان من أبناء عمومته : محمد محمود الرافعي ومحمد توفيق الرافعي.

(٢) من بين بقايا أوراق العريان دفتر للرافعي لخص فيه كتاب ابن النديم (الفهرست).. وقد اختلفت عليه ألوان الحبر، بما يدل على الحرص البالغ في استيعاب مضمون الكتاب.

(٣) العريان — ١٩

الوحي » ؟[1]. ويُمْعِنُ في دَرْسِ العربيةِ « فيُقيمُ الكتب نفسَها مقامَ العَربِ والرُّواةِ الذين كانوا أَصْلَ دولةِ البلاغة »[2]. وعُلماءُ العربيةِ بعدُ « رُواتُهُ، وأدباؤُها سُمّارُه ؛ يأخُذُ عنهم العِلْمَ كما كانَ يأخُذُهُ المتقدّمون من عُلماءِ هذه الأُمّةِ فماً لفم، فنَشَأ بذلكَ نشأةَ السَّلَفِ ؛ يرى رأْيَهُمْ، ويفكّرُ معهم، ويَتَحدّثُ بلُغَتِهم، وتَتَراءىٰ له أحلامُهُمْ ومُناهم »[3].

وقد ظَلَّ على هذا الدَّأْبِ في القراءَةِ والاطّلاعِ الى آخرِ يومٍ من عمرِهِ ؛ يَقْرأ كلَّ يوم ثماني ساعات مُتواصلة لا يَمَلُّ، ولا يَنْشُدُ الراحةَ لجسدِهِ وأعصابِهِ ـــ كأنّه من التعليمِ في أوله[4]، يتّسعُ بالمَحْفوظِ، ويَتَثَبَّتُ من النَّقْلِ، ليَبْلُغَ الغايةَ في الأَخْذِ والاسْتيعاب[5].

وبذلك كانَ يتحوَّلُ بالعربيةِ من عَصْرٍ الى عَصْرٍ ؛ يُثْبِتُ للنّاسِ وجودَها المُعْجِزَ، واختلافَها على الأيام. وينهضُ بها في عَصْرٍ كادَتْ تُصْرَعُ فيهِ، وهي تَصَدّى لحربِ اللُّغاتِ الغازيةِ، والعاميّاتِ وما تَرطنُ فيهِ.

وعلى الرُّغْمِ من مرضِهِ هذاكَ الذي كانَ عليهِ خَيْراً وبركةً من هذِهِ الناحية، كان من الناحيةِ الذَّوْقيّةِ الأَدبية التي نحنُ بصَدَدِها من أقربِ المُحافظين الى عُنْصرِ التجديد المُثْمرِ، في الأَخذِ والاسْتيعاب، وله في هذا الصَّددِ أولياتٌ طيّبات منها قولُه الجريء :

« إنَّ القول بأنّ هذِهِ فصيحة، وهذِهِ مولّدةٌ قد مضىٰ زمنُهُ ؛ فإنّما

(١) وحي القلم ٣ ـــ ٣٠
(٢) الهلال ـــ فبراير ١٩٢٠ م
(٣) العريان ـــ ١٩
(٤) العريان ـــ ٢٠
(٥) أنظر تاريخ آداب العرب وما توسّع العرب فيه من المحفوظ ـــ ٢٧٤

الباعِثُ عليهِ قُرْبُ عَهْدِ الرواةِ من فُصحاءِ العَرَب في الصَّدْرِ الأول، ثم تَقْليدُ عُلَماءِ اللّغةِ من المتأخرين لأولئكَ الرّواة تحقيقاً بشُروطِ هذا العلمِ الذي يحملُونهُ، وبآدابهِ التاريخيّة »..

وبلَهْجَةٍ واثِقةٍ وذَوْقٍ مُصَفًّى يتابعُ قولَه : « إذا كنّا في كلّ كلمةٍ نَقولُ : نَصُّ الجَوْهري، وابنُ مكرم والمجدُ، وفلانٌ وفلان،.. ونَغْفلُ عمّا وراءَ ذلك مما تَنُصُّ عليهِ طبيعةُ اللُّغةِ من أوزانِها وقواعِدِها، وطُرُقِ الوضعِ والاسْتعمال فيها ؛ فما نحنُ بأهلِ هذِهِ اللّغةِ، ولا بالقائمينَ عليها، ولا هي لُغَةُ عصرِنا،.. الخ[1]».

إنَّ هذِهِ رُؤْيَةٌ صحيحةٌ فيها ذوقُ أديبٍ، ومحاجّةُ ناقدٍ، وبَصيرةُ كاتبٍ أدركَ رُوحَ العصرِ من غيرِ أن يَعْتَسِفَ اللُّغةَ، ولا يَجُورُ على عُلَمائها،.. وكذلكَ هو التجديد.

على أنَّ بحثَهُ البكر في (الشعر العربي)[2] ودراستَهُ للروايةِ وشُروطها على الرواة[3] وتصدّيهِ للتأليفِ في آدابِ العرب — وهو دون الثلاثين من عمرِهِ،. تكفينا مَؤُونَةَ البحثِ في مصادرِ دراستِهِ، وروافِدِ ثقافته وما توفَّرَ عليهِ من مادّةِ العلمِ، وأصولِ البحث، ومراجعِ النَّقْدِ، والسلوكِ النفسي في ذلكَ كلّهِ،.. غير الذكاءِ والتوفُّرِ على أسبابِ القَوْلِ والتصنيف عِنْدَهُ.

وكان لعوامِلِ الوراثةِ أثرُها في أخذِهِ وذَوْقِهِ معاً،.. فكما عُرِفَ عن أميرِ المؤمنينَ عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) موقِفُهُ في الإسلام،

(١) الزهور ١٠ — فبراير ١٩١٣م
(٢) المنار — ربيع الثاني ١٣١٨هـ
(٣) المقتطف — مايو/أيار ١٩٠٥م

وخصيصةُ الاجتهادِ التي زَعَموا أنّهُ خَرج فيها على النصّ[1].. الى يومِ قال حكمته الآبدة: « متى اسْتعبدتُم الناسَ — وقد وَلَدَتْهُم أمّهاتُهم أحراراً ».. وقولته الآخرة: أَلَمْ أَقُلْ لكُمْ: لا تُدْخِلوا علينا من عُلوجِ هذهِ الأمم ؟!.. الى موافقاتٍ أخرياتٍ كانَ منها صرامتُهُ المعروفة وقوّةُ بأسِهِ مع إحسانه وعدله.. كذلك انحدرَتْ هذه الخصائص العمريّة في كثيرٍ من رجالِ الأسرةِ الرافعية، وكانَتْ مما تميّزُهم بين بقايا الأقوامِ العربية.

ومن هذهِ الموافقات ما كان لأديبنا من نَظْرة في فقهِ الإمام محمد بن إدريس الشافعي، وأخذِهِ بجوانبَ من اجتهادِهِ، وميلِهِ الى عُروبته[2]، على الرُّغْمِ من أن معظم أهليهِ من فقَهاء الحنفية الذين يُسْنَدُ إليهم القضاءُ فيهِ أيامَ العثمانيين[3]، ولكنّه كان يَعْتدُّ بالشافعي ويرى رأيَهُ في كثيرٍ من مسائلِ العلْم[4].

وربما كانَ فصلُهُ في (الربيطة)[5] نُفاراً من بعضِ رأيٍ لأبي حنيفة! — وقد أجهز فيهِ على وارداتِ أوربةَ من العائدين بعاداتها وتقاليدها.

---

(١) يوم حَرَم بعض المؤلّفة قلوبُهم من أموال الزكاة! لتغيّر الأوضاع والحاجات

(٢) انظر اليه في: (١) التبرج — الحال — ١٩١٩/٢/٢٠ م، والزهراء — الإمام — ربيع الأول — ١٣٤٦ هـ — والرسالة — ١٩٣٧/٣/١٥/١٩٣ م، وحي القلم ٣ — ٣٠٦، ولاحظ إشاراته إلى الشافعي.

(٣) العريان — ١٤، وراجع ما تقدم في هامش أول الفصل.

(٤) لاحظ قوله في إمام العبد — وهو يسلكه في طبقات الشعراء — الثريا — يناير ١٩٠٥ م: لا أظنّ أن في بني جلدته شاعراً غيره، وحسبُهُ ذلك على طول السودان وعرضه!.. وتأمل كذلك إشارَتَهُ الى أثرِ رضعةِ الجارية لإمام الحرمين؛ الذي كان إذا غَضِبَ قال: هذا من بقيةِ تلك الرضعة!! ديوان الرافعي ٢ — هامش ٤٩

(٥) السحاب الأحمر — ٥٨

وكان الى جانب هذا القصدِ في الحكمِ العربي، يَحْتفي بجنسِهِ، ويتيه بكرمٍ على سِواه[1] ـــ على ما كانَ عليه من سموّ المكانةِ وثباتِ الأخلاق[2]. ولكنَّهُ الذوقُ الأدبي حينَ يبلُغُ القصور الذاتي من المعاناةِ القومية في الاعتقاد.

ولو عُدْنا الى رسائِلِهِ الخاصّة، ومنها تلكَ التي وَجَّهها الى صفيِّهِ محبّ الدين الخطيب، والأُخرى التي لقفَها عنه محبُّهُ محمود أبو ريّة ـــ وهو يَدِلُّ بها على سبيلِ امتلاكِ ناصيةِ الأدب، وما يَنْبَغي لها من مواهِبِ وراثيّة تؤدّي إلى هذِهِ الغايةِ، وما لا يُعرفُ إلّا بعد الاشْتغال بالتَّحْصيلِ زَمَناً يظهر أثرها[3] وكيفَ يؤكّدُ فيها على الاسْتِعدادِ والمَوْهبة، كما يُوحي بالمثابرةِ أيضاً.. أيْقنّا أنَّ تلك السبيلَ التي سلكَها خلالَ الأَخْذِ، وعَبَّدَها لِنَفْسِهِ حتى أثمر فيها، عادَ يَجْعَلُها سلوكاً حَميداً لأصفيائِهِ وتلامذتِهِ الأدنَيْن.

مثال ذلك قوله : « اجْتهِدْ أن تكونَ مفكّراً ناقداً، وعليكَ بقراءَةِ كتُبِ المعاني قَبْلَ كتُبِ الألفاظ وادرُسْ ما تَصِل إليه يدكَ من كتُبِ الاجْتماع والفَلْسفةِ الأدبيّةِ في لُغَةٍ أوربيّة [4] أو فيما عُرِّبَ

---

(١) راجع الهامش رقم ٤ من الصفحة السابقة.

(٢) تأمل اعتراضهُ على أبي ريّة في ذمّ المنفلوطي ـــ رسائل الرافعي ـــ ١٠٨

(٣) رسائل الرافعي ـــ ٢٦

(٤) راجع العريان ـــ ١٩، وقوله : لم تُجْدِ معرفة الرافعي الفرنسيّة إلّا قليلاً، وانظر الرافعي هنا، وكذلك ردّه على سلامة موسى ـــ البلاغ ٥ مارس ١٩٢٥ م وقوله : « كذب سلامة في زعمه أني لا أعرفُ لغةً أجنبية؛ فأنا أعرف الفرنسية وأستطيع الترجمة منها ». وقد وردت إشارتُهُ الى المعلمة الفرنسية وقراءته فيها ـــ الهلال ١٩٢٧/١ م. =

منها[1] واصرفْ همّتكَ من كُتُبِ الأدبِ العربي بادِئَ ذي بَدْءٍ الى « كليلةَ ودِمْنَة » و « الأغاني » ورسائلِ الجاحظ وكتاب « الحيوان » و « البيان والتبيين »، وتفقَّهْ في البلاغةِ بكتابِ « المثل السائر » ــ لابن الأثير، وهذا الكتاب وحده يكفَلُ لك ملكةً حَسَنة في النقدِ الأدبي، وقد كنتُ شديدَ الوُلُوع بهِ »[2].

ويُوصيهِ أيضاً بقولِهِ : ثم عليكَ بحَفظِ الكثيرِ من ألفاظِ « نَجْعةِ الرائد » لليازجي، والألفاظِ الكتابيّة للهمداني، وبالمطالَعةِ في كتابِ « يتيمةِ الدهر » للثعالبي، و « العِقْد الفريد » لابنِ عبد ربه، وكتاب « زهر الآداب » للحصري،..

وأُشيرُ عليكَ بمجلّتين تُعنىٰ بقراءتهما كلَّ العناية : « المقتطَف » و « البيان » وحسبُك (الصاعِقَةَ) من الصُحفِ الأُسبوعية والجريدة من اليوميّةَ. ورأسُ هذا الأمر، بَلْ سِرُّ النجاح فيه أنْ تكونَ صَبُوراً، وأن تعرِفَ أنَّ ما يَسْتَطيعُهُ الرجل لا يَسْتَطيعُهُ الطفلُ إلّا متى صارَ رجُلاً،.. الخ[3]

= حدّثتني ابنته زينب كيف كان يتّخذ له عصر كُل يوم مجلساً في زاوية مكتبته؛ يراجع المَعْلَمَة مستعيناً بمعاجم فرنسية وعربية.
وكان يراجع ما يكتب عنه بالفرنسية، ويصحح بعضه بنفسه ــ انظر عبد الحميد سالم ــ الأخبار ــ ١٩٢٨/٢/٢٨ م. وقد وجدت قطعةً من صحيفةٍ فرنسية بين أوراقه ــ وقد جرى فيها قلمهُ، والطريف أن خَطَّهُ بالفرنسية بادي الوضوح والجمال، بخلافِ خطه بالعربية!!

(١) الدسوقي ــ مناهج البحث.

(٢) رسائل الرافعي ــ ٢٦

(٣) رسائل الرافعي ــ ٢٦

إنْ دلَّ الرافعي على شيء في هذهِ الوصيّةِ، بَل هذا المنهاج، فانّما يَدُلُّ على مبلغِ الحرصِ في أسبابِ توفُّر شخصيّةِ الأَديبِ العربيّ بخصائِصِهِ القوميّة، ورُوحهِ العَصْريّة، وتوفُّرِهِ على أسبابِ العلم والعرفان — وهي لو اجْتَمَعَتْ فلا أَحْسَنَ منها في تربيةِ الذَّوْقِ الأديب وتهذيبه.

وهي كما ترىٰ تؤلِّف منهاجاً واضح السّماتِ بيِّنَ المعالمِ في الطريقةِ الوثقىٰ لامتلاكِ ناصيةِ الأدب والعلم بهِ، والتمكُّن من فنونِه في الكتابةِ والنقد.

* * *

وفي رأي الرافعي في كتُبِ الأَدبِ القديمة ما يُصَرِّحُ فيه بمخاطرةٍ لَيْسَتْ منها شجاعَةُ معاصريه :

« إنَّ أدبَ الكاتبِ لابن قتيبة وشرحَهُ للجواليقي وما صُنِّفَ من بابهما على طريقةِ الجَمْعِ من اللُّغَةِ والخبرِ، وشعرِ الشواهِدِ، والاسْتقصاء في ذلك والتَبَسُّط في الوجوهِ والعِلَلِ النحويّة والصرفية، والإمعانِ في التحقيقِ،.. كلُّ ذلك عَمَلٌ يَنْبَغي أن يُعْرَف على حقِّه في زمنِنا هذا، فهو لَيْس أدباً كما يُفهم من المعنى الفلسفي لهذِهِ الكلمة — بل هو أبعدُ الأشياءِ عن هذه الكلمة.

وما أخطأ المتقدِّمونَ في تَسْميتهم هذه الكتبَ أدباً ؛ فذلكَ هو رسمُ الأَدَبِ في عصرِهم، غير أنّ هذا الرسمَ قد انتقل في عصرِنا نحن[1] فإنّا نحنُ المُخْطِئون اليومَ في هذه التسمية ! ».

---

(١) انظر طه حسين في أخذه للعبارة وتدليله على تغيُّر العصر والذوق، وما خَجِلَ فيه بأدبِهِ النقدي — حديث الأربعاء ٣ — ٨٠ وراجع كتابنا (الرافعي الناقد الأديب).

ويكشِفُ السِرَّ عن تلك التَّصانيف وتَلْفيقاتِها بقوله :

« الحقيقةُ أن تلكَ المؤلّفاتِ وُضِعَتْ لتكون أدباً، لا من معنى أدبِ الفكر وفنّهِ وجمالهِ وفلسفتِه، بل من معنى أَدَبِ النفس وتَثْقيفها وتربيتِها وإقامتها،.. حتى ما يَقْرؤُها أعجميٌّ إلّا خرج مِنها عربياً،.. أو في هوىٰ العربيةِ والمَيْلِ إليها. ومن ثَمَّ جاءَتْ هذه الكتُب كلُّها على نَسَقٍ واحدٍ لا يَخْتَلِفُ في الجملةِ ؛ فهي أخبارٌ وأشعارٌ ولُغة وعربيّة وجمعٌ وتحقيق وتمحيص »[1].

وهكذا يضَعُ يدَهُ على مَبْدأ التجديد الحقّ في الأدبِ الفكري، فيتحوّلُ به الذوقُ الى فِقْهِ الحياة والاجتماع، بعد أنْ لم يَعُدْ للاسْتِعراب ذلكَ الهمُّ القديم !.

وهو يُحَدّثنا بمثلِ قوله : « في أيام التحصيلِ كنتُ أقرأ كلَّ ما أصابَتْه يَدي، وكنتُ أُكثِرُ من الملاحظة وأدقّقُ فيها، فلا أُعرِفُ كتاباً أنا منه أكثرَ ممّا أنا في غيره.

قرأتُ للأفغاني والشيخ محمد عبده وكتاب « سرّ النجاح » الذي ترجَمَهُ يعقوبُ صرّوف، ثم كتب « جوستاف لوبون » ثم الكتُب كلّها، فلم تُغْنِ أوربةُ عن روحِ الشرق، ولا يُغْني الشرق عن فكر أوربة[2].

إنّه يحضُرُ حُضورَ الواثق، ويُرَبّي ذوقَهُ تربية المثقَّف، ويُعيدُ الى الأذهانِ مذهبَ العرب الأوائل في أَخذِ الأديب من كلّ علمٍ بطرف.

---

(١) مقدمة كتاب (شرح أدب الكاتب) للجواليقي ـــ ط. القدسي

(٢) الهلال ـــ يناير/كانون الثاني ١٩٢٧ م

وغرضُهُ من القراءة « اكتسابُ قريحةٍ مستقلّةٍ، وفكرٍ واسع، أو مَلَكةٍ تَقْوى على الابتكار[1] وفي إشارتِهِ الى كتاب (الفَلْسَفة النظريّة) وقوله : إنّ الكتابَ في أصْلِهِ اثنا عشر جُزْءًا ؛ وهو من تأليفِ قومٍ من أعلمِ الناس بعلُوم الاجتماعِ والمَنْطق والفَلْسفة وعلمِ النفس والتربيةِ والأخلاق » مما يدلُّ على توخّيه العلمي، وحرصِهِ على الاطّلاعِ الواسع، وكذلك في تسميتِهِ لبعضِ الكتُبِ المترجمة[2].

ومن يتصفّح كتابَيْه : (المعركة تحت رأية القرآن) و « على السفّود » يَرُعْهُ ذلكَ البَصَرُ بآدابِ اللُّغات الأوربية ؛ كأنّما لم يكُنْ يفوتُه منها شيء أُحْضِرَ أو تُرجم[3]. فهو يعرِفُ أن عصرَ البلاغةِ الفرنسية هو في القرنِ السابع عشر — كما يقرّر ذلك أناتول فرانس — الأديبُ ذو النزعة الاشتراكية — وإن مَثَلَ تلك البلاغةِ إنما هو « بُوسيه »[4]. وفرانس ذلك اتّفق الذين ترجموه على أنه كان أُصُولياً (classic) يحذو حَذْوَ « راسين » الشاعر — وقد قالَ فيه (موريس باريس) : إنه حفظ اللُّغة[5].

ويحتفلُ بنقدِ « جول لمتر » وشعورِهِ النبيل القائم على الفَهْم والحق — وعلى القَلْبِ والعقلِ معاً[6] ويعرف « هايني » الشاعر، ويصوغُ

---

(١) رسائل الرافعي — ٣٤
(٢) رسائل الرافعي — ٣٤
(٣) الدسوقي — السابق
(٤) المعركة — هامش — ٣٦
(٥) شكيب ارسلان — المعركة ٣٦ — ٣٧؛ راجع ص.ش. — البصير ١٩٢٥/٥/٢٢ م وتشبيه الرافعي بموريس هذا.
(٦) على السفّود — ١١

(لِشلر) الألماني شِعْراً[1] ويَسْتَنْجِزُ ترجمةً (لشيلي)[2] ويكشِفُ سرقات الأدباء عن (برنارد شو) و « هيرتشو » مدرّس التاريخ بكليةِ الملك بلندن[3].

إنّه لم يكُنْ يَقْتصرِ في ثقافتِهِ الأدبيةِ، ولا تربيةِ ذَوْقِهِ على الأخذِ من مصادِرَ عربيةٍ قديمة حَسْبُ ــ كما تطوَّحَ بعضُ الذين كتبوا فيه[4] ولكنّ درسَهُ لآدابِ الأمم وقراءاتِهِ لآثارِ المفكّرين، واطّلاعاتِهِ على نقدِ الغربيين لم يَسْتَغْرِقْهُ كالآخرين، ولا هو طغىٰ عليهِ فمسَّ شخصيَّتَهُ العربيّة، أو عَوَّقَ نَزْعته القوميّة ؛ فالأخذُ والتمثيلُ غيرُ الإبداع والإشراقِ الذي يُبرز فيه ملامح عروبتِهِ، ويصوّرُ ذوقَهُ العصري ــ ولو انفرَدَ وحدَهُ بهذِهِ الخصّيصةِ بين معاصريه !.

* * *

معه في مناقلة

وإن نحنُ وقفنا ساعةً معَهُ ــ يردُّ على بعض مَن يَتَعَرَّضُ له بالغَمْزِ والتهوين، والإيذاءِ(!!) بدوافعَ تَسْتَعْجِمُ في أنفسِهم وتُباهي بها في الأخذِ عنها والصُّدورِ عن مذاهبها.. وَجَدْنَا وثائق أخرىٰ في حياتِهِ الثقافيّة ؛ تكشِفُ عن توفّره على أسبابِ العلمِ والإحاطةِ بالأشياءِ، كما تبرزُهُ

(١) حاضر العالم الاسلامي ــ ١١

(٢) من رسالة فكرية زكي في ١٩٣٥/٩/١٠ م

(٣) على السفّود ــ ٢٦، ٦٧

(٤) مثل سلامة موسى ــ الهلال ١٩٢٤/١ م، ومحمد خليفة التونسي ــ النقد عند العقاد ــ ١٩٧، ومحمد عبد القادر العمادي ــ الرافعي وطه حسين ــ ٢٧

في ذوقِهِ وأناقتِهِ، وسُموّه في هَدَفِهِ لرِفْعةِ شأنِ الأدب العربي، ومهمَّتِهِ الفكريّة في العصر الحديث.

ومن ذلك قولتهُ الأولىٰ في طه حسين الذي سلك سبيل المجازَفةِ الصحافيّة آنذاك، وحاولَ المخاطرةَ بذكائِهِ وبوارقِ ألمعيّته ومكانِ العاهةِ منه، فقد نَعىٰ الرافعي عليه احترافَهُ للأدب، وغرورَهُ في الاحترافِ، وحملَ نفسهِ عليه؛ إذ حملَها على التهلكةِ — ولا تكونُ هي في أحدٍ إلّا بخذلانٍ من الله[1].

وكذلك في تحقيقهِ لنصوصٍ عربيّةٍ ومُترجمة لقَفَها طه حسين لبعضِ دراساتِهِ[2] وإعادتِهِ لها في صِيَغِها الأصلية، ثم هدم ما بناهُ طه على التّلاعُب بها.

فهمَ طه « ابن سلام يحدّثنا بأنَّ أهلَ العلمِ قادرون على أن يُميّزوا الشعر الذي يَنْحلُه الرواة — يُريدُ الوضعَ لا الانتحال — في سهولةٍ؛ ولكنّهم يجدونَ مَشَقّةً وعُسْراً في تمييزِ الشعر الذي يَنْتَحِلُهُ العربُ أنفُسهم ».

إذْ ردّها الرافعي الى أصلها العربي الذي كتبَه ابن سَلام: « ثم كانَ الرواة بعدُ، فزادوا في الأشعار، ولَيْسَ يَشْكُلُ على أهلِ العلم زيادةُ ذلك، ولا ما وضَعَ المولّدون، وإنما عَضُلَ بهم أن يقولَ الرجل من أهلِ البادية من ولدِ الشعراء، أو الرجل الذي لَيْسَ من ولدِهم، فيشكُلُ

---

(١) الزهور ١٠ — فبراير ١٩١٣ راجع الرافعي الناقد للتوسعة.

(٢) في الشعر الجاهلي — ٦٧

ذلك بعضَ الإشكال »[1].. ويتقصّى عليهِ كذلك ما ترجَمَهُ عن الجاحظِ وصاحبِ الأغاني[2].

كما فسَّرَ لَهُ مذهب « ديكارت » في الشكّ والتجرّد الذي أَخَذَ بهِ، وأشار إلى الفرقِ بين البَحْثِ عن حقيقةٍ فَلْسفيّة عَقليّة مَحْضَة، والبحث عن حقيقةٍ أدبية تاريخيّة قائمة على النصّ والرواية[3].

وكذلكَ في ردّهِ على سلامة موسى ــ وقد نعَىٰ عليه زُوراً وبهتاناً جَهْلَهُ الاشتراكية[4] ــ فقال :

« ينعىٰ علينا أَنّنا نتجاهل الاشتراكية، كأننا لم نُلِمَّ بها،.. على أنّنا نَراها المائدةَ بعَيْنِها التي يراها مُدَّتْ للناسِ جميعاً، غير أننا نزيدُ عليهِ أنّها ممدودةٌ للناس جميعاً ليتَدافَعَ عنها الناس فلا يصِلُ إليها أحد »[5] ونفضِّلُ على كلّ هذه المائدة الخيالية ــ ما حفِلَتْ به من لذائذِها وألوانها ــ تلكَ اللُّقيمات التي يَفرضُها نظامُ الزكاة في الاسلام فرضاً لا يَتمُّ الاسلامُ لأحدٍ إلّا بهِ »[6]. وهو كما ترىٰ تقريرُ حالٍ وحكمٌ مُسْتوفى الحيثيّات ؛ دلٌّ على إلمامٍ بمذهبِ الاشتراكية وموازنةٍ له مع الإسلام ديناً ونظاماً للناسِ أجمعين ؛ يصيبون فيه ما لا تَسْتطيعُ الاشتراكية ولا سواها من المذاهبِ والنظم أن تعدّهُ لهم جميعاً.

وكذلك يظهرُ أثرُ الاعتقاد في ذَوْقِهِ، فما اطلاعُهُ على المذاهبِ

---

(١) المعركة ــ ١٧٩، ١٨٨
(٢) المعركة ــ ١٤١، ١٩١
(٣) المعركة ــ هامش ١٤١
(٤) سيرد ذلك مفصلاً في الفصل التالي
(٥) الهلال ــ السابق ــ يناير ١٩٢٤ م
(٦) الهلال ــ السابق ــ فبراير ١٩٢٤ م

والآراء، ولا إلمامُه بالأفكار، بالذي يحوّله عن ذلك الاعتقاد والذوقِ الذي هو مَظهرٌ من مظاهرِ شخصيّته العربية وقلبهِ الكبير.

* * *

ومن ذلك أيضاً ردُّهُ لأخطاءِ محمد عبدالله عنان في ترجمتِهِ لابن خلدون المؤرّخ الجليل، وكيفَ نَقَلَ أسماءَ الاعلام والأمكنةِ العربيّة من حُروفها اللاتينية في اللّغات الأوربيّةِ ــ واعتمادِه رسالةَ طه حسين في الموضوع، ولم يَتَنَبّهْ الى الواجبِ في رَدِّها الى عُروبتها، وإخفاقِهِ في إصابةِ الأهدافِ التي توخّاها من تلك الترجمة،.. إذ كانَ الردُّ بمثابةِ معجمٍ للأسماءِ العربية التي حَجِلَ فيها « عنان » وهو ينقُلُ عن لغاتِ الغرب بغيرِ روح قومية[1].

ولعلَّ من أبلغِ ردُودِهِ تلك ما كَتَبَهُ الى الأستاذ إسماعيل مظهر ــ وقد تعرَّضَ لكتابهِ في (إعجاز القرآن) بالتعريف والنقد[2]. فقد جاءَ فيه قولُه : « حَسْبي أن تؤمِنَ بما تَقولُ، غير أنّي لا أشربُ من النهرِ الذي تغترف »[3].

أمّا مناقَلَتهُ للأفكارِ فيما نَقَلَهُ عباس محمود العقاد عن « شوبنهور » ورأيِهِ في فَلْسفةِ الجمال فهي بعدُ معروفة[4] حاوَلَ سيد قطب الحَذْلَقَةَ فيها غَيْرَ مرّة فما أصابَ[5].

---

(١) البلاغ ــ يونية ١٩٣٤ م

(٢) العصور ــ مايو/أيار ١٩٢٨ م

(٣) المقتطف ــ يونيه/١٩٣٧ م

(٤) على السفّود ــ ٧٠ الهامش عن البلاغ.

(٥) الرسالة ١٩٣٨/٦/٢٧ م، الثقافة ٧٩، ٨١ ــ ١٩٤٠ م

وكان من أمر العقاد بعد ردّتِهِ عن التنويه بخطر « رسائل الأحزان » في فلسفة الجمال والحب للرافعي[1] حسِبَ أن يجولَ في الفكرِ ــ العالمي ــ جولةً مترجمة[2] ينقُلُ فيها أفكار « ماكس نوردو » [3] وشوبنهور وغيرهما[4].

يخلِطُ في النقلِ ؛ فيدورُ بين الفكرةِ والإرادةِ، ويزعمُ أنّه يُصَحِّحُ لشوبنهور الذي لم يصِلْ الى محصلتِهِ ! (الجمال هو الحريّة).

إنّ الرافعي يعودُ فيصوغُ كلام « شوبنهور » بقوله : « إنَّ الأشياءَ تُحْزِننا، لأننا لا نراها جميلة، كلّما ابتعدَتْ عن الفكرة واقتربَتْ من الإرادة، وأنها تُفرِحُنا كلّما ابتعدَتْ عن الإرادةِ واقتربَتْ من الفكرة » وليس بعجيبٍ أن يراها العقادُ خطأً ؛ لأنَّهُ لم يَفْهم ما بُنيت عليه »[5].

هذا إلى أمثالٍ يزخَرُ بها كتابهُ الطريف (على السفّود).

هكذا إذن كانَ الرافعي يُرَبّي ذوقَهُ الأدبي على الفَهْمِ واستيعابِ المعاني،.. وهل الذوق غيرُ العلم والفهم ؟!

الرافعي ــ من هذه الناحية ــ لم يكُنْ يعتمدُ على ما يطّلعُ عليهِ بالفرنسيّة المحدودةِ لديه، أو بالمترجماتِ حَسْبُ، وإنما كان يَسْتَعين

---

(١) مما قاله يومئذ « أنها أرقّ من النسيم وأعذب من الماء »!!

(٢) راجع طه حسين ــ الأربعاء ــ ١٣٩ وكيف تمحّل لها!

(٣) نوردو ــ هذا هو الأب الروحي للصهيونية ــ القومية اليهودية ــ وله آراء في الحياة والاجتماع مالَ إليها العقاد أخذاً وترجمة منذ شرعَ قلَمه للكتابة.

(٤) المراجعات ــ للعقاد ــ ٧٦

(٥) على السفّود ــ ٩٠

على ذلك بأصدقائِهِ ومحبِّيهِ، وفي رسائِلِهِ الكثيرة إليهم، ورسائِلهم إليه ما يُؤَيِّدُ ذلك[1].

ومن هنا جاءَتْ ملاحظةُ عمر الدسوقي الأخيرة « أَن الرافعي قد قَرَأَ كلَّ ما تُرجم في عصرِهِ من آثارِ الأمم وأَلمَّ به، وقارَنَه بالمأثورِ من تراث العرب الفكري والنقدي، وكان أكثر اطلاعاً من معاصريه في هذا الشأنِ من شؤون الأدب »[2].

والدسوقي في مذهبِهِ هذا يَرُدُّ ردًّا حاسماً على مُدّعياتِ مناوئيه الذين وقَعوا في دَوّامةِ الرأي الضليل الذي فاهَ بهِ سلامة موسى يَنْعى على الرافعي التزامَهُ القوميّةَ العربية، ومذهبه في الأدب، وشايعه طه حسين، ثم تابعهما العقاد بعد ذلك، وقد كرَّر هؤلاء قولَهم، فكيفَ يتأتّى له أن يَرُدَّ ويناقِشَ في موضوعاتٍ يترجم فيها هؤلاءِ وسواهم[3] ؟!.

ولقد تهيّأ لي أن ألمسَ مِصْداقَ رأيِ الدسوقي عن كثَبٍ، وأن أذهَبَ الى أهليهِ في طنطا ضَيْفاً بَلْ خليطاً بهم ؛ أَقِفُ على بقايا أوراقٍ للرافعي تخلّفَتْ على مكتبهِ في عيادةِ ولده الطبيب محمد الرافعي، بعد مأساةِ مكتبته[4] لَمَسْتُ فيها آثارَ ذلك المذهب — وهي تُصَوِّرُ بوضوحٍ صَيْرورَةَ الرافعي الأديب الذوّاقة وامتيازَهُ البياني وإثمارَهُ الفكري.

عرفت حقيقةً من وسائِلِ أخذِهِ ودراستِهِ قلّما تَهيّأ لها سواهُ أو اسْتعدّ لمثلها أديبٌ معاصر، ولا أكونُ مجازِفاً بعدُ إن زعمتُ أني

---

(١) مرّت الاشارة الى بعضها آنفاً
(٢) مناهج البحث — الأمالي
(٣) سيرد ذلك مفصلاً في الرافعي الناقد الأديب
(٤) مرّ نبأها في الباب الأول

اكتشفُ في تلك الأوراقِ البقايا أنه كانَ يقرأ كلَّ شيء، من كتُبٍ ومخطوطاتٍ وصحفٍ ونَشَراتٍ كالتي تقدّمَتْ وصاياه بها، ولكنَّهُ من ناحيتِهِ هو كان يعمدُ الى شيءٍ آخر غير القراءة والاطّلاع والحرص عليهما.

إنه يُوجز بعضَ الكتب، ويختصرُ الفصُولَ، ويَقْتطع أعمدةً من الصحفِ ويَقُصُّ سُطوراً من المجلاّتِ، فيؤلّفُ من هذِهِ وهذِهِ مجموعاتٍ يوزّعها في موضوعاتٍ ثم يعودُ إليها بعد حين، ويجعَلُ منها إضماماتٍ تُهَيَّأُ له كلّما أرادَ البحث أو الكتابة.

يُضافُ إلى ذلك كلّه أن معاصريه من الشعراء والكتّاب كثيراً ما كانُوا يعرضُونَ عليه آخر ما تَهيَّأً لَهُمْ من المنظومات والمقروءات، ينظرُ فيها ويرى الرأيَ مُذْ أطارَ مقالَتَهُ في « الثريا » وجَعَلَ شعراءَ العَصْرِ طبقات[1]، حتى كانَتْ أحاديثُهُ في صبري وشوقي وحافظ ونقد الشعر[2].

وقد حدّثني عادل الغضبان أنَّهُ على ما كانَ عليهِ من الصَّمَم المُطْبق، يُحِسّ أحياناً وَقْعَ الكلماتِ من حركةِ الشفاه.. وطَلَبَ إليه ذاتَ يومٍ أن يُعيدَ أبياتاً نظمها في رثاءِ يعقوب صروف، وقالَ : إنّها تفضُلُ قصيدةَ مطران ـــ لِما رأىٰ فيها من حُسْنِ البيان ورَوْنق الأسلوب ـــ والمطرانُ يجلس بجواره[3].

بهذا يبين لنا أنّه لم يكنْ شاذَّ الذوق، ولا متّجهاً بهِ غيرَ وجهةٍ

---

(١) الثريا ـــ يناير ١٩٠٥ م
(٢) أنظرها في الجزء الثالث ـــ وحي القلم
(٣) كان ذلك في ١ نوفمبر ١٩٦٦ م

الحياة والعصر،.. وإلّا فكيفَ ألفَهُ في ذوقِهِ كلُّ أولئك الأدباء والشعراء الذين كانُوا يحرِصونَ على مَعْرفةِ رأيِهِ فيهم، وفي آثارِهم الشعرية والنثرية[1].

وهو كذلك من الصَّراحَةِ في الرأي بحيثُ يكون لذوقِهِ الأدبي وَزْنٌ خاص ينظرُ إليه بإكبارِ أولئكَ واعجابِ هؤلاء، كلّما أدركَ الإنصاف منهم جيلٌ، أو أفاضَ بالتقدير رعيل.

ألا تَراه ــ وقد بَلَغَ التأثّر بمذاهبِ الآداب الأوربية لدى المُهاجرينَ من شعراءِ العربيةِ في الآفاق، وفي الديارِ الأمريكية خاصّة ؛ أن طَغَتْ على آثارِهم الأدبية سِماتٌ من ذلك التأثُّر معروفة بين أدباءِ العربية المحدثين ــ كيفَ يَتَلَقّى ذلك بالقَبول الحَسَن، ويعدُّهُ من الأشياءِ الجديدة التي ابتدَعَتها النهضة ؟ :

« الذي أراه جَديداً في الشعرِ العربي صياغةُ بعضِ الشعر على أَصْلِ التفكير في الانجليزيةِ أو الفرنسيّة، أو غيرهما من لُغاتِ الأمم ؛ فيخرُجُ الشعر عَرَبياً وأسلوبُه في تأديةِ المعنىٰ أجنبي، وأكثرُ ما يأتي هذا النوعُ من أمريكا، وأنا أُعجَبُ بكثيرٍ منه لما فيهِ من الغَرابة والحُسْن »[2].

وأحسبُ أنه هو نفسُه قد حاوَلَ هذه الغرابةَ وذلك الحسن بذوقٍ خاص، لا في شعره وحَسْبُ، وإنّما في نثرِهِ أيضاً في مثل قوله :

« لمّا رأيتُ أجمَلَ مَنْ رأيْتُ من النساءِ، وجَعَلْتُ أتأمّلُها، وأَحْتَسي

(١) وحي القلم ٣ ــ ٢٩٣

(٢) المقتطف ــ يناير ١٩٢٦ م ــ وحي القلم ٣ ــ ٣٢٨، راجع الفصل الثالث من الباب الأول من هذا الكتاب

من جمالِها الضياء المُسْكِر الذي تُعربدُ له الروحُ عَرْبَدَةً كلُّها وقارٌ ظاهر، رأيتُني يَوْمئذٍ في حالةٍ كغِشْيةِ الوحي، فوقَها الآدميّةُ ساكنةٌ، وتحتها تيّارُ الملائكة يَعُبُّ ويَجْري »[1] وكذلك في بعضِ فنون قوله الأخرىٰ.

إنّه ــ على ما كانَ عليهِ من المحافَظَةِ على الديباجةِ العربيّة، أبىٰ إلّا أنْ يجعَلَ في أسلوبهِ تلك الغرابة الحلوة التي تَشْغَلُ النفسَ بتركيبِ ألفاظها، وحُسْن تأديتها للمعاني الجديدةِ ظاهرةً، وفي مجازهِ واستعاراتِهِ المتلاحقةِ في العبارةِ الواحدةِ حُسْنٌ ما لَهُ مثيلٌ في نثرِ العربية آنفاً !.

أليسَ ذلك دليلَ الأخذِ بالذّوْقِ الجديد، وتقويم الذوقِ المحافظ، وإقامة الذوقِ الذي ينفرد بهِ بين سائرِ معاصريه ؟! فلا يَطْغَىٰ أحدُ الأذواقِ عندَهُ على الآخر، وإنما يكمّلُ بعضُها بعضاً !.

وقد يردُ هنا اعتراضٌ يسأل : كيفَ نُوَفِّقُ إذَنْ بين قولِهِ يَنْعى على بعضِ الكاتبين من الشعراء شِعْرهم المنثور، ويقولُ : إنه تَسْميةٌ تَدُلُّ على جَهْلِ واضِعيها ومن يرضاها لنفسِهِ[2] فيُلْحقُ تجاربَهم تلك بما كان في العُصورِ المتأخرة من خُمودِ الفكر وضعفِ الروح وذهابِ الرونق،.. وبين تجربته هو في القصيدةِ النثرية ؟!..[3] وقد كتَب « نشيد اليمامة » يوماً، وفيه يقول :

على فسْطاطِ الأميرِ يمامةٌ جائمةٌ تحضِنُ بَيْضَها.

---

(١) العروسة ــ ٦ يونية ١٩٣٤ م

(٢) وحي القلم ٣ ــ ٣٢٦

(٣) كتابنا : الامام الرافعي ــ ١٩٣ ــ ١٩٥

تقولُ اليمامة : إنَّ الوجودَ يجبُ أن يُرىٰ بلَوْنَين في عينِ الأنثىٰ،
مرّةً حبيباً كبيراً في رَجُلِها، ومرّةً حبيباً صغيراً في أولادِها.
كلُّ شيءٍ خاضِعٌ لقانونِهِ، والأُنثى لا تُريدُ أن تخضَعَ إلّا لقانونها.
.. أيتُها الحمامةُ ؛ لم تعرفي الأميرَ — وقد تركَ فُسطاطه !

هكذا الحظُّ — عَدْلٌ مضاعَفٌ في ناحيةٍ، وظلمٌ مضاعَفٌ في ناحيةٍ أخرى.

أحمدي الله، أيتُها الحمامةُ أن لَيْسَ عندكم لغاتٌ وأديان،
عندكم فقط : الحبُّ والطبيعةُ والحياة.

* * *

على فُسطاطِ الأمير يَمامةٌ جاثمةٌ تحتضن بيضها
يمامةٌ سعيدةٌ ستكونَ في التاريخ كهُدْهُدِ سليمان ؛
نُسِبَ الهدهدُ إلى سليمان، وستُنْسَبُ اليمامةُ الى عمرو.
واهاً لك يا عمرو : ما ضَرَّ لو عرفْتَ اليمامةَ الأخرىٰ ؟![1]

وقد جَعَلَ هذا النشيدَ على لسانِ مارية (المصرية) التي أحبّت الفاتح العربي العظيم عمرو بن العاص رضي الله عنه.

وقبلَ أن أُجيبَ عن السؤال، لا بُدَّ أن أعرِضَ لرأيين مُتَضادّين لهذه القصيدة :

(١) الرسالة — ٩٣، وحي القلم ١ — ٢٨

أما أحدُهما فهو « للأنصار »[1] الذين عَدّوا أنفُسهم امتداداً حيويًّا للفكر العربي المؤمن الذي ارتاضه الرافعي أمامَهم، في العصرِ الذي استَغْرَبَتْ فيه دعواتُ القُطْريّة والقوميّةِ. قال الحكيم :

« إنَّ الرافعي خَرَجَ الى الميدانِ، وقبلَتُه قِبلَتُنا، فهو مِنّا ونحنُ منه ».. ولكنَّه رأى أنَّ الجهةَ الأوربيةَ قد أثَّرتْ فيه في قصّته (اليمامتان) والقصيدةِ المنثورة ذاتِ الصدى المنعكس المسموعِ لما قرأهُ من مُتَرجماتٍ لبعض الشعر الأوربي، فاحتذىٰ الترجمةَ شَكْلاً وطريقاً وعقليّة،.. على أنّها من الشعرِ الذي يَنْطق بهِ بعضُ أفراد القصّة.. » الخ[2].

وأمّا الآخر فهو للمتأثّرين بآدابِ الأمم أنفُسِهم ـــ الذين عَدّوا تجديدَ

---

(١) الأنصار :

فتيةٌ آمنوا بربّهم فزادهم الله هدىٰ، تألّفَ منهم جماعةٌ عربية مؤمنة بأمانة أحمد (صبري) موسى سالم، ورعاية محب الدين الخطيب ومصطفى صادق الرافعي ـــ وقد دَعَتْ ـــ فيما دَعَتْ إليه ـــ الى تخليص الفكر العربي من لُوثةِ الاسْتعجام وخَلْطِ التغريب، والعودةِ الى نَقاء الفِطْرة.

عَبَر بهم الأمينُ قناةَ السويس الى سِينا مُهاجراً، ونادىٰ العَربَ الى مِثلها وإعمارِ الصحراء بُعَيْدَ انخفاقِ ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق، وقبل أن تُولَدَ ليهود دولة.

غير أنَّ بعض رجال الثورة المصرية قد ضاق بوجودهم هناك، ولا سيّما بعد اتفاق « همرشولد » غير المعروف، فعادوا الى السويس يَسْتَصْلِحُونَ لهم أرضاً للزراعة في الشلّوفة.

وهذه الجماعة بتفكيرها العربي القويم واعتقادها الاسلامي النظيم، ما تزالُ ممتدّةَ التأثير في الشباب العربي الناهض، وربما كانَتْ وراءَ خِيرة المنظمات القوميّة في الديار العربية؛ الشام والعراق وأفريقيا.

وفي « الأنصار » دراسةٌ جامعيّة وأخرىٰ تاريخية ومحاولاتُ تشبيه صحافية بالمثالية الفكرية UTOPIA راجع الهلال ـــ ١٩٧٢/٩م وآفاق عربية ـــ ١٠ ـــ ١٩٧٦م.

(٢) الأنصار ـــ ٣٧ ـــ صفر ١٣٦٣ هـ

الرافعي في كتاباتِهِ النثريّة التي وافَتْ بالروح العاطفي Romance حتى حسبوه شاعِراً بها[1]، وقد أجمَلَ الدكتور كمال نشأة رأيَهم بقوله: « لعلَّ قصيدتَهُ النثرية (نشيد اليمامة) التي قالَها على لسانِ مارية، ذاتُ مستوىً لم يَصِل إليه شعرُهُ المنظوم ؛ فقد حكىٰ حُبَّ ماريّةَ لعمرو ابن العاص مبتدِئاً ببيتٍ يتكرّرُ في كلّ مقطوعةٍ كمقدمةٍ موسيقيّة، لا شكَّ أنها من وحي حَصيلةِ قراءاتِهِ لشعرِ المجدّدين، وعلى لسان « مارية » يكشف قَلْبَ الأنثى وأشواقَها الطبيعية في بَساطـةٍ وتلقائيّة.. »[2].

والرأيان على افتراقِهما يلتقيان في مهمّة التجديد واصطناعِهِ الموفّق فيه.

ولكن الذي نحنُ عليه بعد هذا من ناحيةِ الذوق الأدبي الذي تقدَّمَتْ صفتُه، وما عُرف به الرافعي نفسُه بين معاصريه ؛ أن ذلك امتدادٌ في الذوقِ يلقَفُ كلَّ حَسَنٍ فريد، إن جاوزَ مقدارَهُ على المحافظةِ، فإنما أثارَ في التجديد دهْشَتَهُ وغبطته معاً.

ومن هنا ندرك أيضاً أن حِرْصَ الرافعيّ في الحفاظِ على صورةِ العربية وبيانها وأساليبِ كتّابها وأدبائها الأقدمين، والتزامَهُ بالجملةِ القرآنية « والآية الماثلة بما فيها من صِفةِ البلاغةِ وسحر الجمال وأسرِ الروعة »، هي نفسُها التي تجعلُهُ يتفقّدُ تلكَ الصّفَةَ وذلك الحسن وهاتيكَ الروعة في آداب الأمم الأخرى !. وما كلُّ آدابِ الأمم كذلك، ألا تراه يقولُ :

« إني لأقْرأ في الصحفِ والمجلاّتِ قِطَعاً وفُصولاً مُتَرجمةً عن أسماءِ

---

(١) لطفي جمعة ـــ المساء ـــ ١٩٣١/٤/١٩ م ـــ في نقده لأوراق الورد

(٢) أعلام العرب ـــ ٨١ ـــ ١٢١ ـــ ١٢٣

من أشهرِ أعلام الأدب الأوربي، فأستنكِفُ أن تكونَ لي، وأرىٰ فيها ضَعْفاً وتَهافُتاً، وسَخافاتٍ كثيرة، وأرىٰ بعضَ ما عندنا أفضلَ وأقوىٰ منها كلّها »[1].

وهذه الحقيقة يُدركُها دارسو تلكَ الآداب والمتأثرونَ بها والمترجمونَ عنها مهما باعَدُوا فيها أو تغابَوْا عمّا فيها.

* * *

وهكذا نجد الرافعيَّ الأديب الذوّاقةَ مُتَماسِكاً ؛ يحفَظُ توازُنَه أبداً، ويكتسِبُ لذوقِهِ الفنّي ما يجدّدُهُ دائماً، كما يرعاهُ في المحافظةِ على طابعِهِ العربي وميزاتِهِ.

أجل لَقَد كان متميّزاً بالذوقِ الذي عُرِفَ عنه بَدِيًّا، وقد أقرَّ له بهِ المحافظون والمجدّدون المحدثون معاً ــ كما تقدّم.

كما كان لَهُ من طبعِهِ وسجيّتِهِ وفطْرته العربية، وعَوامل الوراثة والاكتسابِ فيه، ما جَعَلَ له ذلك الاسْتعداد العظيم في دُربةِ ذَوْقٍ، وما دَلَّهُ على المحجَّةِ، ورَبّى فيهِ الضمير ومَنَحَهُ الموازَنَةَ والمفاضَلَةَ ما أوتيه بسليقَتِهِ، ومكَّنَهُ بثقافتِهِ وفيضِ عِلْمِهِ من الامتياز والأناقةِ والسموّ بالعرفانِ، والزهوِ بالذوق.

* * *

---

(١) البلاغ ١٩٣١/٧/٢٣ م

المبحث الثاني

المُنْشِئُ المكين

قلتُ إنَّ الرافعي قد نَشَأَ ذَوَّاقَةَ أدبٍ وصنّاجةَ شعرٍ، وعِرّيفَ بيانٍ ؛ يكلَفُ بالبلاغةِ، ويَهيمُ بالمعاني[1] ويألَفُ صُوَرَ الوجدان، ويَنْبَهِمُ يَتيهُ بمغاني الجمال[2]، وتأْخُذُهُ الأشواقُ والمواجد[3] بفُنونها وسِحْرِها، كما يَجْتمعُ إليهِ الفِقْهُ والفكر والفلسفة[4]، فهو يَسْعىٰ أبداً الى مجانيها ؛ يتوسَّعُ في قراءاتِهِ، ويمتدُّ بمطالعاتِهِ، ويتمثَّلُ بفرائِدَ منها في مناظراتِهِ ومطارحاته، ويُعْنىٰ بعلومِها ومعارفها جميعاً[5].

ويومَ بدا له أن يَتَحوَّلَ بأدبِهِ الى الكتابةِ والنَّقْدِ مبكراً ؛ ليمتازَ أدباً وفنًّا، وَجَدَ أنّ الكتابةَ كانَتْ سجيَّةً في طبعِهِ — وهي كالفِطْرَةِ الغالبة التي تَسْتبدُّ بالتكوين العقلي، فكانَ يكسِبُ لها من الأَخْذِ والاجتهادِ

(١) مختارات المنفلوطي — ١٩٣
(٢) أنطون الجميل — الزهور ٦ — ٣ — ٤٢٦
(٣) نقولا الحداد — السيدات والرجال — أبريل ١٩٢٤ م
(٤) رسائل الرافعي — ٤١
(٥) الهلال — يناير — ١٩٢٧ م

ما عادَتْ تحيا بِهِ في مراحِلِ حياتِهِ كلِّها، وتتطَوَّرُ بتطوّرِهِ الفكري وتَنْقَلِبُ معه وتتحوّلُ من عهدٍ الى عهد. وقد كان عليه أولاً أن يَسْتوفي قدرَهُ من التحصيلِ والدرسِ والمتابعة[1]، وأن يَتوسَّعَ في المحفوظِ على سَنَنِ الأوَّلين، فَيَسْتوعبَ عُلومَهم، ويَلقَفَ فنونَهم، ويوفّرَ لَهُ حصيلةً من المعارِفِ، وثَرْوةً من اللُّغةِ ومُفرداتها، وأمثالاً يَسْتجلي فيها أسرارَ تراكيبها وأساليبها وما تَحْفِلُ به من صُوَرِ الجمالِ وآياتِ البيان[2] فَيَدورُ مع معانيها في تاريخِ الأدب العربي مذ كانَ فطرةً صافية في أيامِ الأمة الأولى، ويختلِفُ فيها حيثُ انبعَثَ بها فنًّا محدثاً في حياتها التي أقبَلَتْ على الناس شِرْعَةً ومنهاجاً، ويعودُ إليها حين صارَ ذلك الأدبُ الى الذوقِ المُولّد عند تحوّلها الحضاري، حتّى عادَتْ به ساريةُ الأيام والأنواءِ الى أنماطٍ مما كانَتْ عليهِ آخرةُ الفترة المظلومة.

ولا يكادُ يقفُ أخذُهُ لما بدا للكتابةِ العربيةِ أن تَنْهضَ وتَنفُضَ عنها غُبارَ القرون، في هذهِ المرحلة التي تحاوِلُ أن تَسْتأنفَ فيها الحياةَ على هدىً وبصيرة!..

لقد أصابَ الرافعي من ذلك كلّهِ ومن سواه مما تقَدّم ألواناً من المعرفةِ، وأنماطاً من الفنونِ، وألفافاً من العُلوم، وأفْوافاً من المعاني ؛ يُجْريها مع سليقتِهِ العربيّة وقريحتِهِ القُرآنية، بما امتازَ بهِ من بَعْدُ في الأسلوبِ واللّغةِ والبيانِ، وما يُقِرُّ بهِ سائر مُعاصريه.

---

(١) مرَّ بنا ذلك

(٢) وقد اجتمع له منها كتاب (فُصَحُ الكلام) تام التأليف والتبويب ـــ ليت من يعنى بنشره.

ثم أنّه فتَحَ عينيهِ يُباصِرُ جيلين من كتّابِ العربيّة :

أمّا أحدهُما فهو الذي امتدَّ فيه رفاعةُ الطهطاوي بمخاطراتِهِ اللُّغوية، ومواصفاتِهِ وتمرينه للكتّاب، وانتقالِهِ بالنثر العربي من حالٍ الى حال[1] حينَ كانَ عبدالله فكري يقومُ بتعريبِ الديوان فينهضُ باللُّغة العربية — الرسمية نهضةً جديدة[2].

وأمّا الآخر فقد كان يُظِلّهُ الإمامُ محمد عبده، ويَجْري فيه إبراهيم المويلحي وعبد الكريم سلمان والشيخ علي يوسف، ورشيد رضا، ويقومُ في الرواقِ محمد فريد وجدي وعبد العزيز شاويش وغيرهم.

ويقفُ بازائهما يُباريهما جيلان آخرانِ في الديار الشاميّة عِنْدَ حلقاتِ جمال الدين القاسمي، ومطارحاتِ عبد الرحمن الكواكبي، ونَدَواتِ طاهر الجزائري — ومَنْ فيها من تلامذتِهِ كمحب الدين الخطيب ومحمد سعيد الباني ومحمد كرد علي وعبد القادر المغربي وخليل مردم وغيرهم، وخَلَواتِ حسين الجسر في بيروت وضَحَواتِ الرافعيين في طرابلس.

ويدورُ من حولِهما رهطُ اليازجيين والبُسْتانيين والمعاليف ومن يلوذُ بهم من المُسْتعربين مثل يحيى فانديك، وبندلي جوزي وبقيّةِ الأنماط الآخرين.

وتلوحُ أعلام الآلوسيين والسويديين من العراقِ وآل الشيخ في نجد وراياتِ الإسلام في الآفاق[3]

---

(١) الدسوقي — نشأة النثر الحديث — ١٢٣

(٢) الدسوقي — نشأة النثر الحديث — ١٢٥

(٣) عنيت بهم كتب التاريخ والدراسات الأدبية التي اهتمت للنهضة، وتكرر ذلك في أكثر من مصنّف ومؤلف، منها ما ترد الاشارة إليه عند الضرورة.

وكانَ لانتقالِ بعض هؤلاء بأفكارِهم وتلامذتهم الى الديارِ المصريةِ حيثُ الدَّعَةُ والمنابر مكانةُ التأثير.

وقد نَخُصُّ منهم إبراهيم اليازجي ومفاصحتَهُ في حِفْظِ اللّسانِ بمقالاتِهِ ومجّلاتِهِ،.. ويعقوب صرّوف واندفاعَتَهُ في الترجمةِ والإفصاحِ بالعِلْم ومخترعاتِهِ واكتشافاتِهِ وعِنايتَهُ بالعربية الأثيرة، وفرح أنطون ونقلَهُ للأدبِ القصصي، وجورج زيدان وتَوْليفاتِهِ،.. وغيرهم.

وكذلك من يَلْتَفُّ بهؤلاءِ وأولئك من الكتّاب والمَترسّلين وذَوي المواهبِ الأدبيةِ التي عَمَرَتْ بهم يومئذٍ الصحافةُ وفاضَتْ بنتاجهم الجرائدُ والمجلاّت، وطافَتْ بأدبهم أسواقُ الأدبِ والمناظرات، وتوزَّعَتْ أشعارُهُمْ الطُّرَفَ والدواوين، وما أثمرتْهُ الحياةُ الأدبيّةُ إثمارها البهيج[1].

وربما كانَتْ موافقةُ وجودِ هذا الحشدِ الفريد أيامَ الرافعي الشاب المُتَطلّع الى الدراسةِ والأخذ بزمامٍ في النهضة الفكريّة أدباً وفنًّا — وهو يَغْشىٰ عليهم مجالِسَهُمْ، ويَصْبُو الى منابرهم، ويُحدّثُهم بحديثِهِ، أو يعرض عليهم بضاعَتَهُ من الشعر والنثر ؛ يُقوّمونَها لَهُ[2] ويَسْتمع لمقالاتهم بأخذٍ ومقارنَةٍ، ويُباريهم أحياناً، كما يَفْعَلُ في مجاراةِ الأقدمين ممّن يَحفَظُ لهم، ويقِفُ على نُصوصِ آدابهم ويَنْسِجُ على منوالها[3].

كانَ لهذهِ المعاصرةِ أثرُها البالغُ فيهِ ؛ أَخْذاً بالقَدْرِ الذي يَسْتطيعُ، ومماثلةً، وإثباتاً لوجودِهِ الأديب أيضاً.

---

(١) الدسوقي — في الأدب الحديث ج ١ — ٦٩

(٢) عن رسائل عبد الحميد الزهراوي وخليل مطران له — غير مؤرخة .

(٣) رسائل الرافعي — ٥٣

الموضوعات المحدثة

والرافعيّ بَعْدُ، لا يُعاصِرُ أصحابَ المواهبِ من هؤلاءِ وأولئك فحسبُ، وإنما يمتدُّ بمعاصرة أخرىٰ من حيثُ الموضوعات،.. ذلك أنْ أغلَبَ ما كَتَبَ فيه كانَ من الموضوعاتِ البكر، والمُحْدثة في الحياةِ المعاصرة فهو يتأثَّرُ الى حَدٍّ بعيدٍ بالعَصْرِ الذي يحيا، ومثاراتِهِ الفكريّة، والمذاهب المُحْدثةِ فيه بالفكرِ والفَلْسفةِ.

وكانَتْ موجةٌ من الاسْتغراب قد غَشِيَتِ الحياةَ العربيّة تَنْقُلُ إليها من ثَمَرات القرائح وما للأمم فيها من آثارٍ، وفي مقدّمتها الأوربيةُ الغازية التي كانَتْ آدابُها قد دَخَلَتِ المجالَ الفكري العربي.

على أنَّ تأثُّرَهُ هذاك كانَ انفِعالياً له طابَعُهُ، وما هو بانطباعي كما هو الحالُ عندَ سواه ؛ يأْخُذُ ما يَسْتَهْويهِ وما يعمُرُ بهِ أفكارَهُ وآراءَهُ[1] ويَدَعُ ما دونَ ذلك[2].

ونحن إذا ما نَظَرْنا في محاولاتِهِ الكتابيّةِ الأولىٰ، بَدا لنا لأوَّلِ وَهْلَةٍ مثلَ الذيٰ يجعَلُ كتابتَهُ جاريةً على الحال التي عرفَتْ لها من بينِ فُنونها الكثُر ؛ ففي **الانشاء** يحلُو له أنْ يَنْطلقَ شُجاعاً يتكلَّفُ الجُمْلَةَ الفصحىٰ ويحملُها على ما قَبْلها، ويُردِفُها بأخرىٰ تُوقع لها جَرْساً خاصاً، ونَغَماً يتردَّدُ مع توليدٍ في معانيها ؛ كما جاءَ في رسالتِهِ التي وَجَّهها الى « المنار » وفيها يقول :

---

(١) رسائل الرافعي — ٣٤
(٢) المساء — ١٩٣١/٧/٢٣ م
وراجع عباس العقاد — الرسالة ٢٦٣ في ١٩٤٠/٦/٢ م

« نظرتُ نظرةً في الوجوهِ فإذا هي تضحكُ وتَعْبِس، وتنكُر وتعرفُ،.. وإذا منها الكاشِر بنابَيْهِ والمرائي بعَيْنيهِ، والمُصيخُ بأذنيهِ،.. بينا هذا يَفْقِدُ الخطوبَ لتعُمَّ الكروب، إذا غيره يَرْتِقُ الحوادث لتعمَّ الكوارث. تحالُفٌ وتخالُف، وتآلف وتجانُف، ومحبةٌ وبغضاء كأنَّهم لأنفُسهم أعداء!. حتّى عميَتْ عليهم المذاهبُ، وانسَدَّتْ أمامَهم المهارِبُ، فتركتُ العيونَ وما تراه، والأَمْرَ وما داراه، حتى خفّتْ جنادِبُ الذُّهول، وسَمِعْتُ القرآن يقول:

﴿ يا أيُّها الذينَ آمنوا عَلَيكُمْ أنفُسَكم، لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذا اهْتَدَيْتُمْ ﴾[1].

فاطمأنَّ الخاطر، وقَرَّ الناظر.. الخ[2] ».

وفيها يلوحُ لنا إلمامُهُ بالفِقْهِ وعُلومِهِ، وتأثُّرهُ بالدعوةِ وَعْظاً وإرشاداً، بحيثُ تَراءىٰ مادّة ذلك في أدبهِ كالقَوامِ العام للكتابةِ والإنشاءِ عندَهُ، وأنّ عُلوم العربية تواتيهِ وتساعِفُهُ في أدبهِ الذي يَتوخّاه، ويَكلَفُ به، ويَصْطلحُ عليه؛.. فهو يرغَبُ في السجعِ، ويألَفُ الترادُفَ، ويحاوِلُ المُزاوجة، ويبدعُ في الاسْتعارةِ، ويَهيم بالمجازِ؛ ليبرزَ حَصيلةً له في الفنّ آنذاك، ألا تراه يقول:

« هبَّ النسيمُ، وتوارَتِ الشمس عاصِبةَ الجبين، صفراءَ من الجَزَعِ على بناتها! وكأنما أرادَتْ أن تحتجبَ عن الأرضِ حتى تَضَعَ الحربُ أوزارَها، وتفضحَ نسماتُ الصبحِ أسرارَها، فانكفأَتْ الى المغربِ، وغادَرَتْ من إشفاقِها على الأفق شَفَقاً، ونَثَرَتْ أقدامَهَا التي تحسُو بها

---

(١) الآية ٥ ـــ ١ المائدة.

(٢) المنار ـــ ٢٩ محرم ١٣١٨ هـ ـــ أيار/مايو ١٩٠٠ م والآية من سورة المائدة رقم ٤٤.

النُّورَ على السماءِ فكانَتْ حَدَقاً، وكأنَّ الغواني خِفْنَ على جمالهنَّ من اللَّيْلِ خَوْفَ الغُبار على الذيلِ، وأشفَقْن أن تزهر في ظلمتِهِ نجومُ السّماءِ، ولتَبينَ بضدّها الأشياءُ ؛ فَنَسَخْنَ آيتَهُ بآيةِ الكهرباء، وأوحَيْنَ الى الأُفُقِ بألْسِنَةِ الضياءِ — استعارة جديدة — وقُلْنَ للقمر : أينَ أنتَ من ذُكاء ؟! وللنجومِ : أينَ خِرافُ الخضراء من الظباء ؟! »[1].

ويقول في « الحسن المصنوع » :

« حَسْناءُ قد زَرَعَتْ لونَ الوَرْدةِ بخدّها، وتركَتْ في الوردةِ الطيبَ، ومثّلَتْ هَيْفَ الغُصنِ في قَدٍّ غيرِ رطيب، وانتحَلَتْ دلالَ الحِبّ ولكن من غيرِ حَبيب، فما أحسنَ الوجهَ — وهو رَوْضَةٌ مصوّرة، وزُجاجة منوّرة وشهادة على الله مزورة !.

على أنّها تَزْعمُ أنّها نجمُ السَّماءِ ودُرّةُ ذلك الماء، بل هي عنوانُ الأشواق في صحيفةِ العُشّاق، وتعزيةُ البِعاد في كتابِ السُّهاد،.. وما أراها مع ذلكَ تفكّر في الحُسْنِ والحَسَنِ، إلّا كما يفكرُ المَنْفي في الأهل والوطن. وإنما هي تمثّلُ للنّاس روايةَ الجمالِ بفُصولها، وتَقيسُ عَرْضَها بطولِها.

ورأيتُها — وقد نُفِضَ عنها ذلك الصبحُ نَفْضَ التُراب عن الذيلِ، ومَحا من ثَغْرِها الابتسام محوَ النجوم من آخرِ الليل، ولم يَبْقَ إلّا مسْحَةٌ في مقطبِ الوَجْهِ من أنفاسِ الشيطان يَسِمُها بالهموم والأحزان.

وإني لأُقسِمُ بنيسان (أفريل) وعَجَبِهِ، أنها أوّلُ مَن جاءَ للنّاس شاهداً

---

(١) ديوان الرافعي ٢ — ٦٧ في وصف البحر

على كذبِهِ، وأعجَبُ ما فيها أنّ كلّ شيءٍ يَزيدُ حُسْنُه بالماءِ، ووجْهُها لا يَنْقَصُ حُسْنُه، ولكن يَزُول »[1].

وفيها يدلُّ على إفادته من تأمُّلِ الاجتماع الجديد، وابتلائه بالتزويقِ، وعلى موقفه المتَّزنِ في فلسفة الأشياء.

ولكنَّه ما عَتمَ أن خفَّفَ من غُلوَائِهِ في الصياغةِ التعبيرية هاتيك، فقلّلَ من سَجَعاتِهَا، ونقَلَ ترادُفَ عبارتِهِ نُقْلَةً أخرىٰ في « حديث القمر » وقد حَفِلَ بالاستعارة يَلْقفها من هنا وهناك ويولّدُها في كتاباتٍ أخريات، ويُبْدعُ ويبتكر، ويَهيم بالمجاز والرمزيّةِ، حتى ليكادُ يحمّلُه الحقيقةَ كلّها، إذ يقول :

« الآن ــ وقد بدَتِ الطبيعة تتنهَّدُ، كأنّها تنَفّس بعضَ أكدارها، أوْ هي تُملي في الكتابِ الأسودِ أخبارَ نهارها، وبَدا قَلْبي يتنفّسُ مَعَهَا كأنَّهُ ليس منها قطعةٌ صغرىٰ، بل طَبيعةٌ كبرىٰ !.. وللهِ ما أكبر قَلْبَها يَسَعُ الحبَّ من قبْلةِ اللّقاءِ الى ذكراها ؟! إنَّ هذا لَهُوَ القلبُ الذي ترىٰ فيهِ الطبيعةُ دينَها المقدّس »[2].

هو كالذي تَسْتَهْويهِ المُقابلةُ ؛ يَجْتهدُ أن يَسْتقصي المعاني فيها، ويَجْتهدُ أن يُدلَّ على قابليةٍ في الفن، وأصالة اسْتعدادٍ فيهِ للإشْراقِ بعباراتها، أو تعميقِ وَقْعِها بمزاوجتها وتوليدِها، وتفتيقِ الذهنِ بالابتكاراتِ الخياليّة، حتّى عادَتْ كالطابَعِ لأُسلوبِهِ في سائرِ كتُبهِ الإنشائيَّة الأخرى.

مضىٰ في ذلكَ يتخطّى الإمكانَ، وينقُلُ النثر العربي من حالٍ الى

(١) النظرات ــ ٩٢
(٢) حديث القمر ــ ١٢

أخرى ؛ يجدّدُ فيه الحياة والشباب، ويحفظُ له البيانَ بِقيمِ البلاغة لا فُنونِها ومُصْطلحاتها فحسبُ :

« البلاغةُ التي حارَ العلماءَ في تعريفها ـــ على كَثْرةِ ما خَلّطوا ـــ لا تَعدُو كلمتين : قوّةُ التصوّر، والقُوّةُ على ضَبْطِ النسْبة بين الخيالِ والحقيقة[1].

وهما صِفَتانِ من قُوى الخَلْقِ، تُقابلان الإبداعَ والنظامَ في الطبيعةِ، وبهما صارَ أفرادُ الشعراءِ والكتّابِ يَخْلِقُون الأمم التاريخية خلقاً، ورُبَّ كلمةٍ من أحدهم تلد تاريخ جيل »[2].

إنّهُ هنا كالذي يجعَلُ للثّباتِ مكانَهُ من الانتصارِ، وكأنّهُ يلوحُ بأعلامِهِ، ويدُلُّ على شخصيته ويتقدّمُ صفوفَ المُنْشِئين بخطواتٍ ثابتةٍ على الصّراطِ في انعطافةٍ له تَمْضي بهِ من بَعْدُ الى الهدفِ الذي يرمي إليه،.. ويَتَجَلّى ذلك أكثر في الانتقالةِ الاجْتماعية الكبرىٰ التي عاناها مع « المساكين » إذ يقول :

« وضَعْتُ هذهِ الأوراق وكتبتُ فيها عن الفقرِ، وما هو من بابهِ، لا لِمَحْوِهِ ولكنّ للصبرِ عليه، ولا من أجلِ البَحْثِ فيه ولكن للعَزاءِ عنه.

ثمّ كتبتُ عن الغِنىٰ وما إليهِ، لا رَغْبةً في إفسادِهِ ولكن لإصْلاحِ ما يَفْهَمُ منهُ غيرُ أهلِهِ[3] وأدَرْتُ الكلامَ في كلّ ذلك على الوجهِ

---

(١) حسب ابراهيم المصري هذه العبارة لناقد ألماني (الفريد كير) المساء ١٩٣١/٤/١١ م. انظر الرافعي ـــ البلاغ ١٩٣١/٧/٢٣ م.

(٢) حديث القمر ـــ ٧

(٣) ما أبعد نظر الرافعي!..

الذي يَراهُ الشاعرُ في ضَحِكِ الطبيعةِ ورقّتها، دونَ الوجهِ الذي يعرفُهُ الفيلسوفُ في عُبوسِ المادّةِ وجَفائها، ونحوتُ فيهِ نَسَقَ العقلِ في بثِّ الخواطِرِ للنفسِ في مُسْتقرِّها.. وجئتُ بهِ من مَبْرَقِ الصُّبْحِ لا من غياهِبِ اللَّيْل، وأطلَقْتُه من أُفقِ الإيمان لا من قرارةِ الشكّ، وأرَدْتُ بهِ تفسير شيءٍ من حكمةِ اللهِ في شيءٍ من أغلاطِ الناس،..

فإنَّ خَرائبَ اللُؤْم، وغرائزَ السُّوءِ في هذا الانسانِ أنَّهُ ما ينفكُّ يحملُ نِعم اللهِ ورحمتَهُ، وما لا حَدَّ له من العنايةِ الإلهيّة »[1].

الرافعي هنا يتحوَّلُ بأدبِهِ نحو شخصيّةِ المفكّر الحكيم والفيلسوفِ الذي لا يُغادِرُ فقهَ الحياة، ولا يتنكّبُ عن جادة الأدبِ — وإن حَمَّلَهُ جُهْدَ الطاقة.

ولا يقفُ تقدُّم الرافعي الكاتب المنشئ عندَ هذا الحدّ، وإنّما يتخطّاهُ في نقلةٍ أخرىٰ يعودُ بها الى تنزيه الحياةِ نفسِها، وتكريم الانسانِ بفضيلةِ الحسِّ والشعورِ إذ يقول :

« لو أني سُئِلْتُ تسميةً لعِلْمِ الجمالِ لسمّيتُهُ « علم تجديد النفس » ؛ فانَّ الجميلَ الذي لا يُجدِّدُ بمعانيهِ حواسَّكَ وعواطفكَ ويُعيدها غَضّةً طريّةً كما فُطِرَتْ من قبلُ، لا يُسمّى جميلاً إلا على المجاز[2].

لا تَسَلْ عن الجمالِ من يحسِنُ الفكرَ والإبانةَ عن فكرِهِ، ولكنْ سَلْ عاشِقاً يحسُّ الشعورَ ويُحْسِنُ التعبيرَ عن شعورِهِ، فذلكَ هو الشاعِرُ من

(١) المساكين — ٢٩
(٢) المضمار — ١٩٢٢/١٠/٦ م

جِهاتِهِ الأربع ؛ جهةِ قَلْبِهِ وفكرِهِ وحبيبتِهِ، وذلك هو تاريخُ الجمالِ الذي يتكرَّرُ على الأرضِ أبداً، والى منقطع الحياةِ كالحياةِ نفسها »[1].

هكذا يتحوّلُ أدبُ الانشاءِ عندَهُ الى أداةِ دَعْوةٍ، وبيانِ عَقيدةٍ فيها السموُّ بالحياةِ، والتعبيرُ عن كرامةِ الانسان فيها.. فإذا ما اسْتوىٰ له ديوانُ رسائل توزَّعَتْ فصولاً ثلاثة في قصّةِ حبّه ؛ سمَّاها على « الأحزانِ » تارةً، واستمْطَرَ لها « السحابَ الأحمر » أخرىٰ، وعادَ في الثالثةِ يكتُبها على « أوراقِ للورد »، وقد جَعَلَهَا كتباً ورسائلَ ذَهَبَ فيها مَذْهباً عزيزاً في هذا المضمار:

« الفنُّ عندي في الحبِّ أن يَبْدأَ في المرأةِ، ولكن لا يَنْتهي فيها، فالمرأةُ طريقُهُ لا غايتُهُ، وهي وسيلةٌ لفهمِ الجمال وإدراكِهِ فيما هو أجملُ منها، أي في الوجودِ نَفْسِهِ بكلِّ ما فيهِ، كأنّه الخلودُ الروحي في الإنسانِ يحاولُ بالحبِّ أن يُحِسَّ معانيهِ السامية الخالدة — وهو بعد في هذه المادةِ الفانيةِ المتغيرة »[2].

ذلك هو رجُلُ الدَّعْوَةِ وإنْسانُ الفكرِ الذي يَجْعَلُ من نفسِهِ قُدْوَةً ومِثالاً — وهو يَتَنَقَّلُ في عمره ودعوتِهِ من مرحلةٍ إلى أخرىٰ. حتّى إذا ما تمَّ تمامُهُ، وأضْحى إمامَ أدبِ الإنشاءِ بحق، قَدَّم لِوَحْيِ قَلَمِهِ ؛ فصرَّحَ بدينِهِ وأبانَ عن دعوتِهِ، ومَثَّلَ عقيدَتَهُ ورسمَ طريق الاقتداءِ إذ قال :

« الكاتبُ الحَقُّ أداةٌ في يدِ القوّة المصوِّرةِ لهذا الوجودِ، تصوِّرُ

---

(١) رسائل الأحزان — ١١٠

(٢) وحي القلم ج ١ — ٥١

بهِ شيئاً من أعمالِها فنًّا من التصوير ؛ الحكمةُ الغامِضَةُ تريدهُ على التفسيرِ — تفسيرِ الحقيقةِ أو الخطأ الظاهِرُ يريدُهُ على التبيين — تبيينِ الصواب، والفوضىٰ المائجةُ تسألُهُ الإقرارَ — إقرارَ التناسُبِ، وما وراءَ الحياةِ يتّخذُ من فكرهِ صِلةً بالحياة، والدنيا كلُّها تَنْقُلُ فيهِ مرحلةً نَفْسيّةً لتَعْلُوَ بهِ أو تنزلَ.

ومن ذلكَ لا يُخْلَقُ المُلْهَمُ أبداً إلّا وفيهِ أعصابُهُ الكهربائية، ولَهُ في قلبهِ الرقيق مواضعُ مهيّأة للاحتراقِ تَنْفُذُ إليها الأشِعّةُ الروحانيّة، وتَتَسلّط منها المعاني »[1].

وهٰهنا — حيثُ يَسْتَبْطِنُ ذاتَهُ، ويُتَرجمُ عن أحوالِهِ النَّفسيّةِ، ويُصَوِّرُ تَحَوّلهُ الفكري، ويرىٰ في رُوحِهِ المُشْرقةِ ودَعْوتِهِ المُؤمنةِ ؛ يظهرُ وقد تَكامَلَ عندهُ أدبُ الإنشاء بصورتِهِ التي يتوخّاها أهلُ النَّقْدِ والمُعاصرة، ومعناهُ الذي يألَفُ الناس، وروعَتهُ التي تخلُبُ ألبابَ الأدباء.. بعدما توفّر له من دَواعيهِ وأسبابِهِ، وما قامَ عليهِ باستعدادِهِ، وتيسّر لَهُ من حصيلتِهِ العِلميّة التي ما تفتأ ترفدُهُ بالعطاءِ بعدَ العطاء.

ولو تأمّلنا مليًّا في الدواعي النفسيّةِ التي سارَتْ بهِ في تلكَ الرحلةِ البعيدةِ المعْطاء حتى مَيَّزتْهُ هكذا، لوَجَدْنا أثرَ الوازعِ الإسلامي يَسْعىٰ بهِ في دَعْوةٍ وإيمانٍ ؛ يَشُقُّ طريقَهُ بين مختلفِ الآراء والمذاهب، ويظهَرُ عليها بضميرٍ عربي لا يَقْصُر عن حقيقةٍ ولا يُخْطِئُ له هدفاً، وقد يصيبُ غايةَ الغايات مع الاجتماعِ المُنْقَلب في العصرِ !.

---

(١) وحي القلم ١ — ١٥

كلُّ ذلك في تطويعٍ للُّغة وتجديدٍ في أَساليبِ بيانِها، وتوليدٍ في معانيها ؛ لا يقفُ على المأثورِ والمُتَوارثِ من علوم وفنون، وإنّما يُضيفُ إليها ألواناً من الإبداعِ، وأنماطاً من الابتكاراتِ ؛ في الكلمةِ ينقُلها من معناها الى معنًى لها فريد، وفي العبارةِ من مبناها الى سُلوكٍ جديد، وفي الجملةِ من اجتماعِها على الأصالة الى الإشراق في قيمِ الفنِّ التي هي الأساسُ في عُلومِ البلاغة قَبْلَ أن تقوم لها المصطلحات

ذٰلك أنّ البلاغةَ « هي التصرّفُ في المعاني المُنْصَرِفةِ الى الأغراضِ ؛ وذلكَ بتناولِ الألفاظ ــ لأن المعاني لا تقومُ بغيرها، وبتناولِ الأسلوبِ، لأنّه طريقُ تلك المعاني التي تَنصرِفُ فيها »(١).

« والطريقةُ التي يكونُ بها البيانُ جَميلاً هي بعينها الطريقةُ التي يكونُ بها البيانُ بليغاً، فالمرجعُ في كليهما الى تأثيرِهما في النفس. وما المجازاتُ والاسْتعاراتُ والكناياتُ ونحوها من أساليبِ البلاغةِ إلّا أسلوبٌ طبيعيٌّ لا مَذْهبَ عَنْهُ للنَّفْسِ الفَنيَّةِ ؛ إذ هي بطبيعتها تُريدُ دائماً ما هو أعظَمُ وما هو أجمَلُ وما هو أدقُّ، ولكن النَّفْسَ الشاعرةَ تأبىٰ إلّا زيادةَ معانيها، فتصنَعُ ألفاظها صِناعةً تُوليها من القوةِ وما ينفُذُ الى النفس ويُضاعِفُ إحساسَها، فمن ثَمّ لا تكون الزيادةُ في صُوَرِ الكلام وتقلِيبِ ألفاظِهِ، وإدارةِ معانيهِ، إلّا تهيئةً لهذِهِ الزيادةِ في شعور النفس »(٢).

---

(١) المقتطف ــ مارس ١٩٠٥ م، وقد همَّ أن يبسط فلسفة ذلك في البلاغ ٨ ربيع الأول ١٣٥١ م، وكيف أنّ بلغاء العرب لم يعرفوا البلاغة ولا تعمدوا صناعة البيان، وإنما اصطلح عليها بعد الإسلام، وبعد عصر التدوين!

(٢) وحي القلم ٣ ــ ٢١٢

ذلك أنّ جهازَ التوليد — والزيادة قد اسْتَمرَّ فيه واسْتحكم بمعانيهِ، وأصبحَ لَهُ بمقامِ « ملك الوحي عندَ النبيّ »، « وهذِهِ القوةُ إنْ أرادَتْ معاني الجمال أخرجَتِ الشاعرَ، وإن أرادت كشْفَ السرِّ أخرجَتِ الأديب، وإن أرادَتْ حقائق الوجود أخرجَتِ الحكيم »[1].

إذ هو يَسْتبطن ذاتَهُ، ويخلُدُ إلى الاسْتلْهام، يجدُ الحقائقَ التي رمىٰ إليها مُحضَرَةً، فلا يَفْتأ يفتّشُ عن الوسيلةِ التي تُشير إليها، فيكشِفُ عنها الغطاء، ويحاولُ أن يرفع حُجُبَ الغيبِ بوساطةِ تلك القوّةِ، وما يُلْقىٰ إليه من الإلهام.

ومن هٰهنا استطاعَ أن يُدْخِلَ في النثر العربي ما لم يكنْ معروفاً من معاني الشعر وأخيلتِهِ وأدواته إلّا في الندرةِ[2] فيخرجُ للناس خماسيتَه الإنشائية الرائعة[3] وفيها فصولٌ من الغزل والوصفِ والجمال قلَّ أن يُصيبَ معانيها غير الشعر.

هكذا كانَ له في الوصْفِ والغَزَلِ والعاطفةِ والحُبِّ ما أدارَهُ من رسائلَ في هذِهِ الناحيةِ الخطيرة من حياةِ الانسان ؛ تَسامىٰ فيها وجَعَلَ الجمالَ آيةً للإشراقِ بنورِ الإلهامِ والإيمانِ !. ومكَّنَ للفَلْسفَةِ من الشعر ؛ تحلِّلُ فيه قيمَهُ وأعرافَهُ، وتتخذُ له مناهج في التصوير والتقدير، وتجعَل النقدَ والبيانَ فيهِ قَواعدَ وأصولاً لا محيصَ لَهُ عنها، إذا ما أرادَ له

---

(١) وحي القلم ٣ — ٢٧٢
(٢) أوراق الورد — ٧
(٣) حديث القمر، كتاب المساكين، رسائل الأحزان، السحاب الأحمر، أوراق الورد.

ناظمُوهُ جمالَ الفَنِّ وآيةَ الإبداع فَلتات الابتكارِ والتوليد[1].

والطريفُ أنَّهُ استطاعَ أن يُدْخِلَ الرثاء على النثرِ في فَنٍّ من الكتابةِ فيه الوجدانُ الأثير، وجلالُ الإيمانِ، وفَلْسَفَةُ الأخلاقِ في القضاءِ، وعزاءُ النفس،.. وما لم يعرِفْهُ الشعرُ نفسُهُ، ولا قربت منه الخطابةُ في أزهى عُصورِها !.

ومن ذلك رثاؤه لصفيّ مودّتهِ ورفيق صباه الشيخ أحمد الرافعي[2]، وبكاؤُهُ زينَ الشّبابِ الزعيم أمين الرافعي[3]، ووصفُهُ لدَهْشَةِ مصر في وفاةِ سعد زغلول[4]، ومناجاتهُ للتُّرابِ الميت[5]، ومرثاتُهُ لمحمد نجيب (باشا)[6] والملكِ فؤاد[7]، وقد جَعَلَ فيها للنثر مكرُمَةً قد تفضُلُ الشعرَ !.

ومن فرائِدِهِ في هذا الشأنِ أنَّه كَتَبَ يوماً في « الجمال البائس » ينتقدُ الأوضاعَ القانونية الطارِئَةَ، ويُدِلُّ على ما تحمِلُه قوانينُ العُقوباتِ في موادّها من فكرةِ الفُجور !.. بخلافِ الإسلام الذي يقومُ على منعِ الجريمةِ وإبطالِ أسبابها[8].

---

(١) أبولو ــ نقد الشعر ــ مايو/أيار ١٩٣٣ م
(٢) الأخبار ــ أغسطس ١٩٢٢ م ــ السحاب الأحمر ٩٨
(٣) ذكرى فقيد الوطن ــ ٥٣
(٤) الأهرام ــ ١٩٢٧ م ــ أكانت مصر في حلم؟!
(٥) المقتطف ــ ديسمبر ١٩٢٨ م ــ المساكين ــ ٥١
(٦) الأخبار ــ ١٩٢٩ م
(٧) الرسالة ــ ١٤٩ ــ ١١ مايو/أيار ١٩٣٦ م
(٨) وحي القلم ١ ــ ١٢٠

لغةُ الرافعي

أمّا لُغةُ الرافعي، فهي مُنتَقَاة بذَوْقٍ وفَنّ، فلا نَرىٰ فيها ذلكَ التَقعُّرَ والإغرابَ الذي قد يمارسُهُ المُتَفاصحون من المتأخّرين، وإنّما هو يؤْثِرُ السَّلامةَ باللَّفْظة والكلمةِ المفردة يَغْرِسُها في عبارتِهِ، فتَنْبُتُ فيها بمعنًى هو منها، ولكنَّه يُثْمِرُ فيها ويُعطيها حياةً جديدةً[1].

« ولو أنَّ واحداً من أهلِ البيان أرادَ أن يتتبّع ما أجَدَّ الرافعيُّ على العربيّةِ من أساليبِ القول، لأخرجَ مُعْجماً من التعبيرِ الجميل يَعْجَزُ أنْ يَجدَ مثلَهُ لكاتبٍ من كتّابِ العربية الأوّلين ؛ إذْ كانَ مذهب الرافعي أن يُعْطي العربية أكبرَ قسطٍ من المعاني، ويُضيف ثَرْوةً جديدةً الى اللُّغةِ، وقد بلَغَ ما أراد »[1].

على أنّ المُفْردات التي وقَعَتْ في استعمالِه لا نرىٰ فيها قَلَقاً، وقد لا يمكنُ استبدالَ غيرها بها من المترادفاتِ ؛ لما يتّخذُهُ لموقعها من وَزْنٍ خاص يختلُّ إن هي أُزيلَتْ ويضطربُ فيما لو أبدلَتْ، وينبو إن أُضيفَ الى عبارتِهِ لفظ !

وربّما كان إيثارُهُ الإيجازَ والاختصار قد حالَ دُونَ إمكانِ تلخيص الكثير من كلامِهِ الذي يرى فيه الرأيَ، أو يقولُ بفكرة ما، ولكن ذلكَ لم يكُنْ مُتَّسِقاً قَطّ، وإنما يتيسّرُ لنا في مرحلتِهِ الأخيرة خاصّة تلكَ التي صارَ يكتُبُ فيها للرسالةِ والصحف الأخرىٰ، فقد لاحَظْنا عليه التكرارَ في مَعانيهِ[2] بل الأخذَ من ذكرياته[3] والعودةَ الى بعض

---

(١) العريان ــ ١٩٥

(٢) من ذلك ما أداره في الأدب والأديب ــ الرسالة ــ ١٨٠٠ وما كان نشره من سرّ النبوغ في الأدب ــ المقتطف ٨٢ ــ ١٩٣٣ م

(٣) لاحظ كلماته عن حافظ ــ وحي القلم ــ الثالث وبعد شوقي.

مقالاتِهِ وأحاديثه[1] كالذي يَمْلأُ الفراغَ أن تفوتَ الفُرصة في صفحةٍ من المجلة !

أسلوبه

عُرِفَ للرافعيِ أُسلوبُه المتين بما كادَ يَنْفَرِدُ بهِ فيشْغَفُ الآخرين، وكانَتْ له عِناية خاصّة جَمَعَ محاسِنَها من أصحابِ الأساليب في العربيّةِ من لَدُن كانَ عبدُ الحميد الكاتب يَتَرسَّلُ، وأبو عثمان الجاحظ يَسْتطرد، حتى عادَ جار الله محمود الزمخشري يتوسَّلُ بفنونِ البلاغة، وبديعُ الزمان يَتَصنّع، وسواهم ممّن يتأنّقُ، ومَنْ جاءَ يقتفي الآثار من بعدِهم يترفّقُ،..

ولكنّه لم يكُنِ انطباعيًّا في أَخْذِهِ، وإنّما يَتحرّى فُصَح كلامِهم يَسْتَعذِبُها ويَسْتحليها، ويجعلها من بعضِ محفوظِهِ ومادةِ موسيقاه، ثم يحرّكُ في نَفْسِهِ جهازَ التوليد ؛ يبتكرُ في الإسنادِ، ويُبْدعُ في الصياغةِ، ويختالُ في الصَّنْعَةِ، ويُعنى كلَّ العنايةِ بالتَّهْذيبِ وتَدريبِ العِبارةِ وانتظامِ الجملةِ بالتقديمِ والتأخير وترادُفِ المفردات، « بل كان يَسْتخدمُ ألفاظَ اللُّغة في بناءِ صُوَرٍ جديدة، ولقد برعَ في هذا براعةً أثْرَتِ اللّغةَ ثَراءً عظيماً »[2].

---

(١) لاحظ « الإمام » — الزهراء — ربيع ١٣٤٣ هـ — وأبو حنيفة من غير فقه — الرسالة — ١٩٣ — ٢ محرم ١٣٥٦ هـ

(٢) عمر الدسوقي — الرافعي الكاتب — ٤٩

وكانَ الدسوقي يُحْصي عليهِ الأمثلةَ، فوقَفَ على صُوَرٍ من مجازاتِهِ واستعاراتِهِ الجديدة، فأوردَ الكثير منها في رسالته[1] ثم قال:

« الحديثُ يطولُ لو رُحْتُ أعدِّدُ ما افتنّهُ يراعُهُ وخيالُهُ من صورٍ بيانيّة في شَتّى الموضوعات »[2] وأحسَبُ أنه ذكر لي يوماً أنّه بسَبيلِ إعدادِ فَصْلٍ تام منها!

وفي المرحلةِ التي تحوَّل فيها الرافعي الى الكتابةِ الناضجة كانَ أُسلوبُه يتميّز بقوّةِ التصُّورِ، ويوردُ تشبيهاتٍ بليغةً فيها لَفَتَاتٌ بارعة، وأمثالٌ محكمةُ النسج، وقد يأخُذُهُ الفنُّ فيخترعُ في الأُسْلوبِ، ويُوَلِّد في المعاني حتّى يَسْتوفي موضوعَهُ، ويَسْتطردُ أحياناً، ولكنَّهُ يتماسَكُ في أَدبهِ، فلا يدخُلُ عليهِ فكراً لم يَنْضَجْ، ولا يَقول برأيٍ قلق، وقلّما وَرَدَتْ له كلماتٌ ومفردات غريبة نادرة إلّا إذا أرادَ معنى لا يغني فيه سِواها.

على أنَّ « اهتمامَهُ بالتحليلِ والتعليلِ، والتَّسَلْسُلِ المَنْطقي، واعطاءَ موضوعِهِ قَدْراً أكبر من التفكير والدرس وتقليبِ الرأي كانَ وافراً يضَعُ أمام ناظريهِ هادياً من الدّينِ والأخلاق يَهْديهِ أبداً في كل أبحاثه »[3]. وربما اتَّخَذَ في التجريدِ وسيلةً للارتفاعِ بأُسْلوبهِ، كما عادَ الى مقالاتٍ وخُطَبٍ لَهُ يَنْحَلُها الشيخ علي الجناجي (المجذوب) يحاوِرُهُ ويداوِرُهُ، ليرجعَ بالفكرِ الانساني في سموِّهِ الى الفطرةِ، ويمتازُ بنَظْرتهِ الاعتقاديّة المُسْلمةِ في الموضوعات التي يتحرّى، أو يُضَمِّنُ تلكَ المقالاتِ رسائلَهُ

---

(١) نحسن الظن بالدكتور عادل الدسوقي في إخراج رسالة أبيه فقد كانت أمنية عمره.

(٢) المرجع السابق — ٤٠

(٣) المرجع السابق — ٤٠

الوجدانية، كما في « كتابِ المساكين » و « رسائل الأحزان » ولا شكَّ أن الرافعي يتأثّر بأدبِ القرآن في قصّةِ الرجُلِ الصالح مع نبيّ الله موسى عليه السلام[1].

وعلى شدّةِ حفاظهِ على أسلوبِ العربية فانَّ جُمْلَتَهُ وعبارَتَهُ وتركيبَ فَقَراتِهِ في أسلوبِ كتابتِه لم يكُنْ قط على تلكَ الأنماطِ التي عُرِفَتْ لسابقيهِ من فُحولِ البيانِ في صَدْرِ أيامِ العربية « وقد اتَّفَقَ لَهُ من أساليبِ البيان ما لم يتفق مثلُه لكاتبٍ »[2]، ممّا حَدا بأنيسٍ المقدسي أن يقفَ بإزائِهِ لينعَتَهُ بأنه يَجمَعُ أطرافاً من أولئكَ بطريقةٍ رافعيّة[3].

أطالَ الجملةَ العربية، وفَصَلَ ما بينَ المُسْند والمُسْنَد إليه بفَقَراتٍ ليسَت منها الجملةُ الاعتراضيةُ المعروفة، حتى طالَتْ بشكلٍ تُلْجِئُهُ إلى الحَذْفِ أحياناً !. كما هي الحالُ في بعضِ رسائل « أوراق الورد » خاصة.

وهذا التطويرُ بل التطويع للجملةِ العربية جَعَلَ من « شبلي شميّل » يقولُ : « لا بدّ أن تكونَ هذه المقدمةُ مترجمة »[4] بعد أن وقَفَ على مقدمةِ ديوانِ « النظرات » !. لما لاحظَهُ فيها من خِطّة الحديث وصفاءِ الرونق والبيان الجديد.

---

(١) القرآن الكريم ــ سورة الكهف ــ الآية ٦٧ وما بعدها ومن الموافقات الطريفة أن محمد بديع شريف قد نقلَ عن (باول أرنست) كتابَهُ في (حوار العباقرة) عام ١٣٧٤ هـ ــ ١٩٥٥ م وفيها يدورُ الحوار بين الراعي هومير ــ الذي يمثل الفطرة، وبين أكثر من خمسين شخصية من عُظماء التاريخ.
(٢) المؤيد ــ ١٤ مايو ١٩١٤ م، البلاغ ٣٠ مارس ١٩٣٣ م والكلمة لعباس العقاد.
(٣) الفنون الأدبية وأعلامها ــ ٣١٩
(٤) رسائل الرافعي ــ ٢٦٣

ومن هنا حسِب « كمال النجي » أن « جملةَ الرافعي النثرية تشبهُ الجملةَ المترجمة أحياناً، لفرطِ تحرُّرها من الأنماطِ القديمة، وامتلائها بالإحساسِ »[1].

ومن هنا أيضاً ندركُ أن الأصالةَ عندَهُ لم تكن الإتّباعَ وحَسْبُ، وإنّما هو يرىٰ:

« أن مذاهبَ العرب واسعةٌ، ولنا ما لَهُمْ من التصرُّف في الاسْتعمال، إذا لم نخرُجْ على قاعدتِهم » ويقول: « أعتقدُ أن مذاهبَ العرب لَيْسَتْ بالضيق الذي يَتَصَوَّرُونه »[2].

وقد سبقَ الى قبولِ « الزهور » و « الورود » جَمْعاً للزهرِ والوَرْدِ، وكانَ يعترضُ عليهما جملةٌ معاصريه ممّن لم يؤثروا غير ما ورَدَ عن العربِ في هذا الشأن[3].

وهو الذي أحيا كلمة « فَحَسْبُ » ودلَّ على استعمالها[4] كما وضَعَ عبارَتَهُ « مهما يكن من شيء » التي أخذَهَا عنه لطفي السيد وأفرطَ في ترديدها طه حسين !. وزادَ في بعضِ الأفعال وعَدّاها غير مُلْتَفتٍ الى اعتراضِ المعترضين من فُقهاءِ اللّغة، واستعمل منها اكتشَفَ وأودعَ وأحسَّ وغيرها[5].

---

(١) الكواكب — ١٩٦٤/٨/١٠ م
(٢) رسائل الرافعي — ٨٣
(٣) وحي القلم ٣ — ٣٣٥
(٤) المقتطف — ٦٠ — ١٩٢٢ م
(٥) رسائل الرافعي — ٢٠٤

وزاد في بابِ الإتباع مثل قوله : شيطان ليطان، وغيرها ما يكادُ يجتمع لهُ من تلك وهذه معجمٌ جديد فيه فتاواه وجملة آرائه في هذا الأمر من اللّغةِ وحياتها.

أمّا قولته : « أما قبل » فلها استعمالٌ خاصّ وإن زَعَمَ أنّ معناها كان ما كان[1] ؛ ذلك أنّ قَولهم « أما بعد » يقتضي الحمدُ لله أولاً، ولا تَجيءُ كذلك « أما قبل » !.

يتبيّن لنا من ذلك كلّه وأمثالٍ له أخرى أنّ حلاوةَ التعبير مع قَصْدِ الآراءِ واستيعاب المعنى وحفظه من الابتذال، ووزنه، كان هو المذهب البياني الذي عرف به الرافعي، وأنه هو الذي جعل منه ذواقة[2].

* * *

والبيانُ في العربيةِ لَفظٌ ومعنى ووزنٌ بينهما، قَبْلَ أن يكونَ حقيقةً أو مجازاً، وقَبْلَ أن تجيءَ قرينَةٌ أو تتشابَهُ أوْجه تخرج بالوَضْعِ الى الاستعارةِ والكناية، أو تعودُ بهِ لبدائع !.

ومن هنا كانَتْ علومُ العربيّةِ لِضَبْط النسبةِ بين اللّفْظِ والمعنى بإثباتِ الوَزْن بينهما، ثمّ أن تجتمعَ الألفاظُ والمعاني في العبارةِ، وتَسْتطرفَ معها الأوزان ؛ لِتَجيءَ الجملةُ العربيةُ من ثَمّ ذات وقعٍ موسيقيّ تتصاقبُ فيه الحُروفُ، وتَتَساوق المعاني، وتتّحدُ الأوزانُ، وتنثالُ صُور البيان متتابعةً وتشرقُ البلاغة في رونقٍ وجمال.

---

(١) أوراق الورد ــ ١٣٦

(٢) وحي القلم ٣ ــ ٣٨٩

وإن نحنُ تحرّينا رسائلَ البُلَغاء في العربيةِ وَقَفْنا على هذهِ الحقيقةِ بَدِيًّا من غير ما حاجةٍ الى أكوامِ التعريفات التي أُولِعَ بها المتأخّرون، بعدما اسْتَعْجَمَتْ علومُ البلاغة، وعادَتْ من تَداول أمثالِها وصورها وضُروبها وألوانها تضربُ الى الذبول، وتحولُ نحو الجفافِ، وتَسْتحْجِرُ في الأفهام.

ومن هُنا ندخل الى كتابةِ الرافعي نفتّشُ ونَسْتكشِفُ قُوّتها وتأثّرها ؛ فأما مُفْرداته، فقد مرَّ الكلامُ فيها آنِفاً، فما نراهُ توعَّر فيها يوماً، إلا ما يجيءُ في النُّدْرة التي يقتضيها الوضعُ لمعنى من المعاني المفردة لذاتها، فهي ألفاظٌ مأنوسةٌ وغنيّة، وكلماتٌ منتقاة بأناةٍ، وفرائد تجتمعُ في عِقْدٍ نظيمٍ ما لو تهيّأ لها معجمها، بل كان ينفرُ من الألفاظِ الثقيلة(١).

والبيانُ بعدُ صناعةٌ دقيقة فوقَ اللَّفْظ نفسِهِ، وفوقَ المعنى، وفوقَ الوزنِ، فلا بُدّ من التنسيقِ والمماثلة بين هذِهِ الثلاثة بحيثُ تَنْسجم حتى كأنَّ الكلَّ كذلكَ من أصلِ الوضعِ فيخرُج الكلامُ من جملتِهِ كما تخرُجُ اللَّفْظة من حروفِها لا يمكن أن تأخذَ منها حرفاً !.

ومن أجلِ ذلك فإنَّ أبلغ النثر وأفصَحُه ما مالَ الى صُوَرِ الشعر في طريقةِ التأدّي الى النفسِ، والى لُغةِ الشعرِ في بنائها القائم على تأليفِ المعاني وتَرْجمتها للنفسِ في موسيقى من العروضِ والتشبيهِ والمجازِ والاستعارة والكنايةِ وما إليها حتى يبلُغَ روعَةَ الغامض(٢).

---

(١) انظر العصور — ابريل ١٩٢٩ م — رسائل الرافعي — ١٥٤ — قرع طُنبوب التحقق.
(٢) ص.ش. البصير ٢٥ مايو ١٩٢٥ م

انفراده

وقد استطاعَ في هذا أن يكونَ أمثولةً فريدةً في غِناءِ البيان العربي وحياةِ البَلاغة وإنبات الكلمات، وإحياء الصُّوَر والعبارات في تَجلٍّ وسموٍّ.. ألا تَرى أنّ عبارَتَهُ وجُملَتَهُ وأسلوبَهُ تظهرُ لقارئيه للوهلةِ الأولى سواءٌ منهم مَن يسلُكُ إليه أم مَن يَتَصدّىٰ له ماثلةً بقوّتها وجمالها ؟!

ربما حاوَلَ تقليدَهُ أديبٌ أو كاتب[1]، أو ردّ عليه في خطابٍ فجارىٰ عبارتَهُ وأسلوبَهُ، فكانَ أن اتّفق لَهُ من فَنّ القول ما يشابِهُ عبارتَهُ حتى لَتنْسَبُ الى الرافعي نفسه بشيء من البلاهة[2].

وبذلك ونحوه كان أسلوبُ الرافعي وبيانهُ آيةً أخرى لثَباتِ العربية على مرِّ العصور والدهور، وقوّتها على الحياةِ والنماءِ مع الأيام في لفتاتِها وحضاراتها وعُلومها وفنونها جميعاً.

* * *

أمّا ما اتُّهم بهِ من تعمُّل الكتابةِ والتَّصَنُّعِ والغموضِ والإبهامِ، فانّما ذلك من تحرّيهِ ما تقدَّمَ من صفةِ الشعر والبيانِ.

هكذا كان الرافعيّ الكاتبُ، وكذلكَ كانَتِ الكتابةُ العربية عندَهُ، بياناً من البيانِ، وروعةً خالدة تذهبُ في النفسِ مذاهبَ من التأمّل والإعجاب، وإن أخذَتِ القارئَ العربي الى الصبرِ والرويّة ومعاودةِ القراءَةِ مرّات ؛ فإنّها لتَلَذُّهُ أبداً ــ وهو يكتَشِفُ جوانبَ من معانيها وتوليداتها.

---

(١) من أبرع المقلّدين محمد صادق عنبر ــ انظر له « رسائل مجنون ليلى ».

(٢) مثل ما وقع لعباس العقاد في اتهامه الرافعي بنحل سعد زغلول تقريظه لإعجاز القرآن!

بقي أن ندركَ حقيقة أُخرى قد تكمُنُ في الأداءِ النفسي الذي كانَ عليه في بيانِهِ هذاك، ولا سيّما بعد أن عَرَفْنا الدوافعَ القوميّةَ والاعتقاديّةَ التي كانَتْ تُملي عليهِ تلك الألوان من أدبهِ فتطبَعُ فيها صوراً من جوانبِ شخصيّته[1].

ويبدو لنا للوهلةِ الأولى أنّهُ لم يكُنْ هنالكَ حَدٌّ يمكن أنْ نُميّزَ بين ذاتِهِ النفسيّةِ المُفْردة ودعوتهِ القوميّة، وإنّما هو في ذاتِهِ ميدانُ التجربةِ الوجدانية التي يُعانيها، فهو الفكرةُ والفن معاً. وما أدبُهُ بعد ذلك غير إثمارٍ في جوانبِ النفس العربية في تلكَ المرحلةِ من حياتِها القوميّةِ المُنْبَعثةِ بقيمها وأعرافِها، وبكلِّ ما تَشْتملُ عليهِ من خَصائص وميزات.

لقد ألقىٰ عليه أبوهُ الشيخ يوماً ــ وهو يحاورهُ ــ حكمةً تستنفرُهُ للمعركةِ الاعتقاديّة حين قال: « إنك يا ولدي تجاهِدُ في سبيل الله »[2]. فكأنّما مسَّ بها قَلْباً خليًّا بالبثِّ والنجوىٰ، فكان الجهادُ من ثمَّ سبيلَهُ القويم الذي آثَرَهُ في حياتِهِ الأدبية كلِّها.

هو إذا ما صَبا جاهَدَ نَوازِعَهُ النفسيّة، وسما في حبّهِ، وآثرَ الحرمانَ ولَذَعاتِ اليأس التي تحفَظُ الكرامةَ على ما يمكن أن يَنْزلقَ به في مهاوي لا يَرْضاها لغيرِهِ، فكيفَ تألَفُها نفسُه ؟!

وإذا ما كتبَ في تلك المعاني، اسْتَجلى أمامَه الروح العربية المؤمنة

(١) دراسات في علم النفس الأدبي ــ ٦٢ وما بعدها.
(٢) المقتطف ــ ٩١ ــ ١٩٣٧ م

ومكّنَ لها من الجهادِ في الوجدان، لعمرانِ الضمير، وبناءِ الأُمّةِ على أُسسٍ فيها متانَةُ المحبّين وبأسُ الصناديد.

وإذا بَحَثَ أو نقدَ أو دعا، فإنَّ الجهادَ في دُربتِهِ وميادينِهِ من الكرِّ والفرِّ والإجهاز والاغتنامِ، كلٌّ أولئكَ مَوْفورٌ لديه.

إنَّ أدبَهُ من هذه تصوير دقيق لنفسيّة العربي الذي يتطلّع الى الحياة بإيمان وصبر وجلد وعزيمة لا تفتر. « فالأديبُ يُشْرِفُ على هذهِ الدنيا من بصيرتِهِ، تتّجهُ نفسُه العاليةُ الى أنْ تحفظَ للدُّنيا حقائق الضمير والانسانيّةِ والإيمانِ والفضيلةِ، وتقومُ حارسةً على ما ضيّع الناسُ، فالأدبُ عنده يُشْبِهُ الدّينَ، غير أن الدِّينَ يعرضُ للحالاتِ النَّفْسيّة ليأمُرَ ويَنْهى، والأدَبُ يعرض لها ليجمَعَ ويقابلَ، والدّينُ يوجِّهُ الإنسانَ الى رَبّهِ، والأَدَبُ يوجِّهُهُ الى نَفْسِهِ »[1].

وعلى هذا جاءَ أدبُهُ مُصَوِّراً لِنَفْسِهِ، وهو في أدبِهِ كأنَّهُ هو — العربيّ المسلم. وإن كانَتِ المعاني كثيراً ما تنثال عليهِ فيَسْتطردُ بها على طريقةِ الجاحظ، ثم يعودُ فيَكبَحُ جماحَها بأناقتِهِ في التعبيرِ، لِيَدُلَّ على التزامٍ آخر في الخصيصة الاعتقاديّةِ التي يَتحرّىٰ أبداً، فللأَدَبِ معنى فلسفي عندَهُ لا نجدُ تقريرَهُ إلّا في اللّغةِ العربيةِ ؟.

« فاذا أردْتَ الأَدَبَ الذي يقرّرُ الأسلوبَ شَرْطاً فيهِ، ويأتي بقُوّةِ اللّغةِ صُورةً لِقُوّةِ الطباع، وبعَظَمَةِ الأداءِ صُورةً لعظمةِ الأَخلاقِ، وبرقّةِ

(١) الرسالة — ١١٠ — ١٣ جمادى الأخرة ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥/٨/١٣ م
لكن استاذنا الأثري يرى « هذا التفريق غير مُسلَّم، فان الدين — أعني الاسلامي شرعة ومنهاج للحياة، يوجِّه الانسان الى نفسهِ والى المجتمع كما يوجههُ الى ربّه » فالحَذْلَقَةُ الرافعية في المقابلةِ توهم بغيرِ ذلك!

البيانِ صُورةً لرقّة النفس، وبِدِقّتِهِ المُتناهية في العُمْقِ صورةً لدقَّة النظرةِ الى الحياةِ، ويُريكَ أنَّ الكلامَ أمةٌ من الأَلفاظِ عاملة في أُمّةٍ من الناس، ضابطةٌ لها المقاييسَ التاريخيّة، محكمةٌ لها الأوضاع الانسانيّة، حاملةٌ لها النورَ الإلٰهي، وَجَدَت القرُآنَ الحكيم قد وضَعَ الأَصْل الحيّ في ذلكَ كلّهِ »[1].

هو في أدائِهِ النَّفْسي كانَ يتحرّىٰ أن يكونَ كذلك من « الجملةِ القرآنية » ليُضْحِيَ من ثَمَّ لَقباً من ألقاب التاريخ.

وهو كذلك يتهيّأ لأَدبِهِ، فالدنيا كلُّها عندَهُ لا تَعدِلُ راحةَ الفكر[2]، وأن لا بُدَّ للأعمالِ العظيمةِ من جَوّ روحاني خاص[3]. وإن كان التعَبُ في الأدبِ بالقنطارِ والمكافأةُ بـ « الجرام »[4]، فكيفَ إذنْ كانَ يتأدّىٰ له ذلك الأدبُ القويم بفنونِهِ ؟ وكيف أنىٰ للرافعي أن يُحيطَ بجوانبِهِ، وأن يكتُبَ في فنونِ القولِ كلِّها ؟!

إنّ الرافعي عبقريّةٌ فذّةٌ، وللعبقريّة بَدَواتٌ، ولها فَلَتاتٌ، كما أنَّ لها أحوالاً ومغامِزَ في سلوكِ العبقري نفسِهِ، كالذي يعرَفُ عن بعضِهم من الإهمالِ وقلّةِ العِناية بالقيافةِ، وتركِ الشعر متهدّلاً، واحتمالِ أذىٰ الاتّساخ.. الخ[5]. ولكنَّهُ من هذِهِ الناحية لم يكُنْ يظهَرُ عليه نوعُ شُذوذٍ أو لَوْنُ افتراق، بل هو أنيقُ المظهرِ حُلْوُ الهندام، له عنايةٌ خاصّةٌ

(١) وحي القلم ج ٣ — ٢٢٠
(٢) رسائل الرافعي — ٥
(٣) رسائل الرافعي — ٣٠٢
(٤) رسائل الرافعي — ١٦١
(٥) الأسس النفسية للنقد — ١٠١ وما بعدها

بمَلْبَسهِ ومأكلِهِ، وهو وإن كان من أبناءِ الفُقهاء قد جارىٰ المدنيّةَ الحديثَةَ، وكان حاسِرَ الرأسِ في مطلَعِ شبابه، يُعنى بشعرِهِ ومَفْرِقهِ، وقد رافَقَتْهُ العَصا منذُ صِباه من غيرِ أن يَعْتَمد عَليها، ثم اتّخَذَ الطربوش علامةَ اكتمال الرجولة آنذاك[1]، وكم حلا لَهُ اللّباسُ العربي من العباءَةِ والكوفيّة.

ولم يكُنْ يلْفِتُ النظر إليهِ غيرُ حبّهِ للوَحْدةِ، وإيثارِهِ الابتعادَ عن الزحام — وقد حَبّب إليه الخَلاءُ، وريفُ « دمنهور » وقُرى « المنصورة » وغِيطان « طنطا » كانَتْ تأْلَفُهُ مع الصّباح الباكر عَقِبَ صلاة الفجر، يطوفُ فيها برياضةِ استجْلاءٍ، وسَرَحاتِ تأمُّلٍ واسْتلهام[2]، ويلتَمِسُ الحقائقَ العالية في السكون المطلق[3].

وما عُدَّ شذوذاً في سلوكِهِ هو تمرُّدُهُ على نظامِ العَمَل في الوظيفةِ[4] فقد ضاقَ بها مبكّراً، واستكثَرَ من طَلَبِ الإجازاتِ.

وقد استَشْرَفَ العمل في التجارةِ التي بَرَزَ بها أعمامُه وأخوتُهُ، وفي الزراعةِ التي اعتدّها « لا أحسَنَ منها لحياة الأديب »[5] ولكنّهُ لم تُتَحْ لَهُ الفرصةُ الموفورة فيهما، وكانَتِ الأيام تأتي على ما يتوفَّرُ له بين أهليهِ، أو يضيِّعُهُ عند أنسبائِهِ، أو هو يُلْقيهِ بين يَدَيْ أبنائِهِ غيرَ مبالٍ

---

(١) حياة الرافعي — ١٠

(٢) أحمد عيش — المقتطف ٩١ — ١٩٣٧ — ٥٤٠

(٣) رسائل الرافعي — ١١٣

(٤) العريان — ٢١

(٥) المجلة الجديدة — مايو ١٩٣١ م

بحال[1]، حتّى الأرض التي أُعَدَّ لتكونَ دار كُتُبهِ وسكناه بقيَت رسماً على ورقةٍ أعدّها لَهُ علي محمود طه ومهندس آخر[2].

وكان في بيتِه يتخفَّفُ بالجُلبابِ، ولا يكادُ يصحُو من قَيْلولَتهِ حتّى يندفعَ الى المكتبةِ[3] يَقْرأ ويراجعُ أو يتهيّأ للكتابةِ، وقد يَسْتقبل معارِفَهُ وأصدقاءَهُ، وفي الهزيع الثاني من اللَّيل يحيلُ بعضَ أوراقٍ ومذكراتٍ أو خواطرَ بَين يديهِ مقالاتٍ وبُحوثاً في شُؤونِ الأدَب والحياة. وقلّما كان يسهَرُ في ناحيةٍ، وقُصارىٰ ما كان يذهَبُ إليه « السيما » مع الأولادِ، لرُؤْيةِ « عالم خارجي » لا يعوقُه عنها عائق[4] ولكنّه كانَ يتمتّعُ بإجازةٍ سنويّة يقضيها في « طرابُلْسَ الشام » أيّام صباه، أو في « الاسكندرية » بعدَ قيامِ حدودِ الانفصال بينَ الديار العربية.

وعلى ما في جسمِهِ من وَهْنٍ يعتريه — كمُعظم مواليدِ الصيف — لم يكن يتناوَلُ شيئاً من المنبّهاتِ غير الشاي، يتحرّىٰ نوعَةَ الممتاز من أجودِ الأصناف[5]، وربّما تناوَلَ الفُسْفورين — فكأنّما شرب الكهرباء[6].

وكان يُؤْثرُ بَعْضَ الأطعمة التي فيها مقاديرُ من مركّباتِ الحديد

---

(١) حياة الرافعي — ١٧٧

(٢) حدثني بذلك ولده محمد الرافعي

(٣) حدثني بذلك خادمه حمزة الحسيني

(٤) حَدَثَ مرة أن سقط من قنطرةٍ في طريقهِ إلى « السيما » مع الأولاد وأُوذيَتْ رجلُه، ولكنه لم يحرِمْهم متعتهم تلك الليلة.

(٥) الأخبار — ١٩٩٦/٥/١٠ م — عن الحاجة زينب ابنته.

(٦) الاعلان مع صورته في اللطائف المصورة والمقتطف عام ١٩٢٨ م. وانظر العريان — ٢٧٧

والفُسفور التي تبثُّ النشاطَ في الجسم، وقد يستغني بالفواكِهِ المختلفة عن العشاءِ الدسم خاصّة، ليعودَ الى جِلْوةِ وحيهِ في الدرس والكتابة.

حدّثني محمود الخفيف ــ أمين الرسالة ــ أنّ الرافعي كانَ لا يَفْتأ يسألُ كلَّ مَنْ يراه عن الأوقاتِ التي يُحْسِنُ فيها الكتابةِ والنظم، وعن الأغذيةِ والمشارب التي تَشحَذُ الذهنَ، وتنبّه الحواس، وتُقوّي الإدراك، وكأنّه في قَلَقٍ منها على نفسِهِ !..

قال : .. وأعدَّ لنا الزيّات ــ صاحب الرسالة ــ مأدبة سَمَكٍ مما يُؤْثِرُ الرافعي ويُعنىٰ، فكانَ حديثُه في اللُّحوم وأنواعِها والأسماكِ وما تَحْتوي عليه من موادّ غِذائية وكيميائية لها أثرُها في الأعصابِ والحواسّ، حديثَ العليم الفَطِن.

وكان هناك بائعُ « بطارخ »[1] يأتي إليه بهِ من بر سعيد ما غَلا ثمناً وامتازَ نوعاً، فيشْتَري منه بإسرافٍ، حتّى افتقَدَهُ البائعُ بعد وفاتِهِ، وتَرَحَّم عليه بعد سَنواتٍ بقوله : إنّ الذي يعرفُ قيمةَ (البطارخ) قد اختارَهُ الله الى جوارِهِ وفارقَ الدنيا ــ وهو لا يَدْري أنه كان يحدّثُ ابنَهُ سامي !..

القلق المنتج

على أنّ الأناقةَ وراحةَ الفكر التي يبحَثُ عنها، والجوّ الروحاني الذي يتحرّاه[2]، وتَعَبَهُ في هذا الشأن أو ذاك، كثيراً ما كانَ يُعَوّقُهُ عن

(١) البطارخ : بيض السمك المجتمع في جيبٍ خاص (ترب) عند العراق والشام. وللمصريين ولَعٌ في إعدادهِ للمائدة.
(٢) رسائل الرافعي ــ ٣٠٢

الكتابةِ، ويُفَوِّتُ عليهِ الفرص في استكمالِ البحث، وشَدَّ ما شكا من ضِيقِ الوقت[1] غيرَ ضياع الأيامِ بين يديهِ في الأهلِ والولد.

من أجلِ ذلك كانَتْ تعتريهِ فَتَراتٌ من الانقطاع في لَوْنٍ من الانحباسِ ؛ يَسْتَغْلِقُ عليهِ الفكرُ فيها أحياناً، فيَلْتَمِسُ من أصدقائِهِ الدُّعاءَ، ويَسْتَمزجُهم الرأيَ، ويَسْترسِلُ يبحَثُ عمّا يُنَشِّطُهُ من رياضةٍ أو طعامٍ أو شَرابٍ طَهور يمكنُ أن يدفعَ بهمّتِهِ الى عَوْدةِ توقُّدِ ذهنِهِ فيفتَحُ اللهُ عليه !.

حَدَّثني الزيّاتُ — رحمه الله — فقالَ : إنّ الرافعي كان يَقْلَقُ على الكتابةِ، فلا يَقرُّ له قرار ؛ يفتّشُ عن الموضوعِ، ويَسْتَخْلص رأيَ القُرّاء الأدَنين، ويتحرّى النّقد.

وهو على غَزارةِ عِلْمِهِ ووَفْرَةِ أدبهِ وكونهِ في الذروةِ، سَرْعان ما يفقِدُ نشوَتَهُ منه، وكأنَّه لم يَصْنَعْ شيئاً[2] على الرغمِ من اللذَّةِ الوجدانيّةِ التي ينالُها في كلِّ ما تخطُّه يمينُه من بيانٍ ؛ فاذا ما فاتَهُ موعِدٌ ما، أرِقَ ومرِضَ، وابتُلي بالنَّزْلةِ الشعبيّةِ أو الزُّكامِ، لِشَدّةِ ما يرهِقُ نفسَهُ عندَ الكتابةِ والبحث.

حـدَّثني أبو ريّة عن الإلهام، وكيفَ كان يَعْتريه فيأخُذُهُ حتى ليضْطَرِبُ أحياناً، فيتناوَلُ القَلَم وينقطع عن محدثِهِ بالأوراقِ التي معه[3].

---

(١) المقتطف — ٧٧ مايو ١٩٣٠ م — ٢١١ حول نشأة المقامات.

(٢) رسائل الرافعي — ١٧٧

(٣) الأوراق معه ليكتُب فيها محدّثه!

وكم أحسَّ بتفتّح الذّهنِ وتَداعي الأفكارِ عليه بموضوعٍ ما، وجَرَتْ على لسانِهِ خواطرُ وهو يكتبُ في موضوعٍ آخر، أو يَبْعَثُ برسالةٍ خاصة، أو نحو ذلك من حالات[1]. وربما انثالَتْ عليهِ المعاني — وهو يُملي على ناشِئَةِ الأدباء، فتجيءُ في عباراتِهم وموضوعاتِ كتاباتهم تجلّياتٌ في التفسير وفرائدُ من الخواطر، وأمثالٌ من الفكرِ في شتّى الفنون[2] فيعودُ إليها يقتطِعُها من الصحفِ ويتّخذُ منها مادّةً يكتُب فيها من ثمَّ ا.

وهو على كلّ أحوالِهِ كانَتْ تظهر عليه الأناقَةُ في الكتابةِ من غير إسراف، والتواضُعُ بلا تفريط ؛ يصونُ نفسَهُ ولا يَبْتذِلُ أدبَهُ مهما تراءَى مُسْتَخِفًّا، حتّى لو كتبَ في موضوعات لا تمتُّ الى الأدبِ بصلة[3].

ومن أجلِ ذلكَ كان يقولُ مُدافعاً عن نفسِهِ : « ربما عابُوا السُّمُوَّ الأدبيَّ بأنَّهُ قليل، ولكن الخيرَ كذلك، وبأنَّهُ مخالفٌ، ولكن الحقّ كذلك، وبأنَّهُ مُحيّرٌ ولكن الحُسْنَ كذلك، وبأنّهُ كثيرُ التكاليف، ولكنَّ الحريّة كذلك »[4]، فهو يتحرَّى السموَّ مهما كانَ الجهدُ والتعب.

ومن هنا يظهرُ لَنا أنّ قَلَقَ الرافعي كانَ من النوع العَبْقري الذي يُنتِجُ، ويَفْتَنُّ، ويسمو ا.. وليسَ هو كذلك المرضِ شديدِ الوطأة على معانيه[5].

---

(١) الرسائل — ٢٧٨

(٢) الرسائل — ٢٢١

(٣) كمقالات المدارس في المقطم عام ١٩٢٢، ١٩٢٨ وخريجو الزراعة. واسئلة الآداب.. الخ. وقد كان لها أصداء في مصلحة الطَّلَبة.

(٤) وحي القلم ١ — ١٠

(٥) نايت — الذكاء ومقاييسه — ٢١

وبذلك كان يتأتىٰ له أن يكتُبَ في مختلَفِ فنونِ الأدب، وشَتّى موضوعاتِ الفكر، ويبرزُ فيها، بل يمتازُ على معاصِريه بدقّةِ النظرةِ والإصابة دوماً.

على أنَّ تداعي المعاني لم يكُنْ له حَدٌّ يكادُ يقفُ عندَهُ، أو يَضْمَحِلُّ ويتبدَّدُ، وربما كتبَ في موضوعٍ من الموضوعاتِ واستوفىٰ أبعادَهُ، وتمكن من جوانبهِ جميعاً، وانتهى منه بمؤلَّفٍ أو فصل، أو مقالة أو نحو ذلك، فاذا بمعاني أخرىٰ منهُ كالتي تلاحِقُهُ، وكأنّه لم يكن قد استوفىٰ استحضارها، أو أنَّ قُوّةَ التوليدِ الحسيّةِ تَسْتَمِرّ عندَهُ بمباراة[1].

وتاريخُ حياة الرافعي، ورسائلُهُ يَتّسعانِ بأمثلةٍ ووقائعَ، ربّما حاوَلَ فيها خَرْقَ الأعرافِ الأدبيّة، والانقلاب بالتفكيرِ، وأن يُحمّل الأدبَ فوقَ ما يطيقُ من الفِكْرِ والعلمِ والفلسفة ؛ يلقَفُ ذلك وأمثالَهُ من مقروءاتِهِ الكثيرة المتّسعةِ، أو يمثّله في نفسِهِ، ويعودُ فيَجْعَلُ منه مادةَ أدبٍ وفنّ، ومنه ما ضَمّنَهُ رسالةَ الجاذبيّة[2] أو ألحقَهُ بمذهبِهِ من تفسيرِ الأشياءِ بأدبهِ : شعره ونثره[3] كما في « حيلةِ مرآتها » .

والرافعي في ذلك إنّما يرمي الى مَعْنى قوميّ أثير لديه، اتّخَذَهُ أَحَدَ براهينِهِ لمجادليهِ من أنَّ العربيّة في آدابها تَستطيعُ اسْتيعابَ الفكرِ الانساني، وتسمو بالعلمِ، وتطوِّعُ الفلسفةَ، فهي لا تتخَلّفُ عن اللّغاتِ الحديثةِ، وإنما تَسْمُو عليها جميعاً في جميعِ الأحوال[4].

---

(١) الأسس النفسية للابداع الفني ـــ ١٢٠ وما بعدها.
(٢) أوراق الورد ـــ ١٠٥
(٣) رسائل الأحزان ـــ ٦٨
(٤) يتفق على ذلك بل يعتدّ به شيخنا الأثري العظيم.

ومن هنا أدركَ عمر الدسوقي ما رُزِقَ الرافعي « من سُموّ الخيالِ وتوقُّدِ القريحةِ، وإرهافِ الحسّ وكمالِ الذوق، ما مكّنَهُ في كلّ أنواع الخيال، فيطبَعُ الصُّوَرَ المختارةَ في انفرادِ ذَوْقٍ وحُسنِ اختيار، أو يخترعُ صُوَراً هي وليدةُ عَقْلِهِ وصُنعُ خيالِهِ، لِيُدِلَّ على تفوُّقِهِ ونبوغِهِ، أو يعودُ فيوازِنُ بين صُوَرِ الطبيعةِ نَفْسِها، ويَنْظِمُها في سلكٍ، ويأتي بالمُفارقاتِ التي تبهَرُ العقولَ في خَيالٍ شَرود، وأن ينمّي الثروةَ الأدبيّةَ، دونَ أن يَجْري في مضمارِ غيرِهِ من السابقين، أو يسطُوَ على معاني سواه »[1].

* * *

كيف كان يكتب؟!

لقد عَقَدَ العريانُ فصلاً طيباً حاولَ فيه أن يُصوِّر الرافعي كيفَ كان يكتُبُ، وكيفَ كان يَلْتَمِسُ الموضوعات، ويدوّنُ الفِكرَ والخواطر « إذ لم تكنِ الكتابةُ عندَهُ فكرةً ومعنى فحسْبُ، وإنما كانَتْ الى ذلك فنًّا وأسلوباً وصناعةً، والأدَبُ بعدُ فكرٌ وبيان »[2].

ثم ذكر أنّه « كان يرجعُ الى كتابٍ من كتُبِ العربيةِ لإمامٍ من أئمّةِ البيان فيعيشُ وقتاً ما في بيأةٍ عربية فصيحةِ اللّسان، فيفيدُ منها الجوَّ البياني[3]، وقال إنّه يقرأ في كتاباتِ الجاحظ وابن المقفّع، أو

(١) الرسالة ٥١٤ — ١٠ مايو ١٩٤٣ م

(٢) حياة الرافعي — العريان — ١٨٠

(٣) العريان — ١٨٢، وقد لقف سلامة موسى هذه العبارة وراح ينعى على الرافعي أنه لا يعيش في عصره — المجلة الجديدة ١١/١٩٣٥.

أغاني الأصفهاني، ونَسِيَ أن يذكُرَ القرآنَ العظيم ؛ ذلك الكتابُ الذي تنزَّلَ منهُ العربُ منزلةَ الفِطْرةِ الغالبةِ التي تَسْتَبِدُّ بالتكوينِ العَقْلي »[1].

كان الكتابُ الكريم أمامَهُ يَسْتَفْتِحه كلّما همَّ بأمرٍ من كتابةٍ ونحوها، وربما تركَ الأمر واستمرَّ في القراءة، وعاشَ في جوّه البياني الأثير[2]. وقد حاول محمود أبو ريّة أن يجعلَ فصل العريان هذاك حديثاً عن الرافعي في طريقتِهِ في الكتابةِ، عَقِبَ كتابتهِ لمقالةِ (سِرُّ النبوغ في الأدب)[3] فقال : إنه كتبَها على ما ذكَرَ العريانُ، وما فتِئَ يَسْأَلُ كُلَّ مَن يراهُ عن مدىٰ توفيقِهِ فيها ؛ لأنّه كتبَها على تلك الطريقة[4] .

وممّا لا شكَّ فيه أنَّ طريقةَ الرافعي وأسلوبَهُ قد تحوّلا بتقدُّمِ عمرِهِ وحياتِهِ الأدبية الى الشكلِ الذي حسِبَهُ العريان وخالَهُ أبو ريّة.

ولكنّ الحقيقةَ الكبرىٰ تبقىٰ ماثلةً خَلْفَ أوراقِهِ، ومهما بالغنا في تحليلِ آثارِها وتوَغَّلْنا في تعيين معالمها، فقد لا نُصيبُ منها غير آثارٍ من بقايا ذلكَ السبيل الذي عاناه في الكتابةِ والتعبير. وقد سَبَقَ ذكرُ تذوُّقِهِ الموضوعات، وقراءاتِهِ، وقصدِهِ العلمي في ذلك، وادّخارِهِ لفقراتٍ وسطور، وربما لفصولٍ وعيناتٍ يفيدُ منها حيثُ يعرض له أن يكتبَ.

وهو شديدُ الاحتفال للكتابةِ ؛ يَتَهيّأُ لها نفسيًّا، ويَعيشُ في جَوّ علميّ

(١) اعجاز القرآن ــ ٧٠

(٢) حدثني بذلك العريان نفسه قبل موته بأيام، كما يروي ذلك أبناؤه ومحبوه وخادمه الحسيني، وانظر محمد العمادي (الرافعي وطه حسين) ٣٤ وكيف نظر الى الموضوع بمفارقة!

(٣) المقتطف ــ ٥٩٣٣/٨٢ ــ ٥

(٤) الرسالة ــ ٢٧٩، وانظر الرسائل ٢٨٣، ٢٨٦ مثلاً.

يهيّؤهُ لِنَفْسِه، ويطوفُ بآفاقِ المعرفة، وينظُر في مدَّخراتِهِ يَسْتَعينها النَّسْغ، ويَسْتقطِرُ منها أفواف المعاني، ويَسْتَمزجُ من إشاراتِهِ الكُثْر، ألواناً من المقابلةِ والمُوازنة والاسْتِلْهام ؛ فللخطوطِ تحتَ السطور معاني النَّظَر والمُراجعة، ولعلاماتِ التَّعَجُّبِ الجدّةُ والخطورةُ في الحكمِ والانفرادِ بالرأي، ولعلاماتِ الاسْتفهام كيفَ ولماذا، وللنقط إضافاتٍ، وللتصويبِ مصادقةٌ على حكم، ولعلاماتِ الضَّرْبِ أخذٌ وعَطاء.

وتجِدُ في وَرَقاتٍ أخرياتٍ تَلْحَقُ بمدوناتِهِ لخواطر الموضوعِ المُقْتَرح، أو حولَ البحثِ المُتَرجم، أو أمام المقالةِ السائرة ؛ ينقُلُ فيها سُطوراً مُلَخّصَةً بإيجازٍ بالغ، أو كلماتٍ تَنْقُضُ بعضَ الأحكامِ غير المحكمة السَّداد، أو تصوّبُ الترجمةَ خاصّة، أو تردُّ على خَطَل الرأي، وخَطَأَ الاتّجاه، إلى غير ذلك، مما يَدُلُّ على حِرْصٍ شديد في فقهِ الموضوعِ أيًّا كانَ، واستيعابهِ صفةً ومادة، قبل أنْ يشرعَ قَلَمهُ، أو يجري فيه الفنَّ بعملِهِ أسلوباً في الكتابةِ وصناعةً في البيان.

وهناك مرحلةٌ أخرىٰ يجري فيها قلمُهُ بمحاولةِ اسْتخراج جُملٍ تجري فيها الحكمةُ، ويَنْطِقُ المثَلُ، أو يصدر الرأي الصواب بالنَّقْدِ والتمحيص والتثمين.

ثم يَعودُ الى هذهِ وتلكَ وهاتيك يقابلُ بينها وبَيْنَ مأثوراتٍ عربيّةٍ من آياتِ الكتاب الكريم والحديثِ الشريف والمَثَل والحكمةِ، فيقفُ بالإسْلامِ أمامَ الحضارةِ بمقابَلةٍ فكريّةٍ، ومحاوَرةٍ فلسفيّة ومقارنةٍ اعتقاديّة يخرُجُ منها بفَضْلِ العرَب وسَبْقهم في الموضوعِ، وسموٌّ الإسلام في كلٍّ.

ونراهُ بعدَ ذلك كلّه يعودُ فيَصوغُ ما تَوَصَّلَ إليهِ من أحكامٍ في

عِباراتٍ بليغةٍ كالتي عُرِفَتْ عنده في أسلوبِه، يضَعُ أمامَها نجماً(*) أو كلمة « لنا ».

وإذا ما تَهَيّأَ لَهُ أن يكتُبَ في موضوعٍ ما مقالةً أو نحوها عَمَدَ الى تلكَ الجُمل والعبارات، والكُلَيْمات يؤلّفُ بينها ويجمعُها بعضها الى بعض، لتقومَ جزءًا من فَصْلٍ أو صفحةً من بيانٍ أو باباً من الأبواب.

نظرة نفسيّة في الإبداع

على أنّ نظرةً في مُسَوّداتِ أوراقِهِ نَسْتجلي دقائقَ فيما وراءَ موضوعاتِهِ، تكشِفُ لنا ما قدّمنا في أوّلِ الفصل كيفَ كانَ يَسْتمزجُ الأفكارَ ويقلبُ الآراء، ويفيدُ من قراءاتِهِ المتعدّدة الجوانبِ في شتّى العلوم وأبوابِ المعرفة، ومنها المترجمات ؛ يوازنُ بينها وبين أحكامِ الإسلام في كلِّ حالةٍ وكلّ مرحلة ؛ فيختَصِرُ لها أوابدَها ؛ ليجعَلَ من ذلك كلِّه مادةً يصوغُ منها عباراتِهِ ويصِفُ صُوَرِ بيانِهِ، فيجعَلُ لمعانيها فكراً وحكمة.

إنّه في هذِهِ كالنَّحْلَةِ تأخُذُ من أنواعِ الأزهارِ والورودِ والأثمار رَحيقاً، فتحيلُهُ عَسَلاً يخرُجُ من بطونِها شراباً مختلفاً ألوانُه، فيه شفاءٌ للناس، وكذلك الحكمةُ والموعظةُ الحَسَنة التي يُدْعىٰ بِها الى سَبيلِ الله.

ومن أعجبِ ما يَروعُنا في تلك الأوراق والمُسَوّدات على كثرة ما فيها من الشَّطْبِ وإعادة الصياغةِ والإيضاح، أو الانبهام والغموض أحياناً[1] أنّها كانَتْ مرتَّبَةً ترتيباً أنيقاً غير موزَّع، يدلُّ على مكابَدَةٍ

(1) المقتطف ــ ٦٦ ــ ٤٤٢ ــ ١٩٢٥ م

في استجماعِ الفكر حالَ الإبداع، وتحرٍّ كبيرٍ في ضَبْطِ النسبةِ بين التداعي والانتظام[1].

وقد كتبَ هو نفسُهُ في ذلك غيرَ مرّة — ولا سيّما في نقودِهِ وردودِهِ، مؤكّداً امتيازَ هذه الطريقةِ في الفن ومعاناة الكتابة البيانيّة[2] وما عليهِ زُعماء الفكر وأمراءُ البيان في شتّى الأمم، حتى قال مرّةً :

« عرف الأدباءُ أن كاتبَ فرنسا (أناتول فرانس) كان يكتُب الجملةَ ثم ينقّحها، ثم يُهذّبُها ثم يُعيدها، ثم يرجعُ فيها، وهكذا خمسَ مرات الى ثمانٍ، ويقدّمُ ويُؤخّر من موضعٍ الى مَوْضِعٍ، ويحسبون هذا تحكيكاً وتهذيباً، وما هو منها في شيء، ولا أحسَبُ الأوربيين أنفُسَهم تنبّهوا الى سِرّ هذه الطريقةِ وإنما سِرُّها من جهاز التوليد في رأسِ ذلك الكاتب، فاذا قرأ كتابةً حَوَّلَها فكرةً، وأبدَعَ له منها — من غيرِ أنْ يعمل في ذلك أو يتكلَّفَ له، إلّا ما يتكلّفُ من يهزُّ إليهِ بجذعِ الشجرة لتساقَطَ عليه ثمراً ناضجاً حُلْواً جنياً »[2]. فكلَّما قرأ ولّد في ذهنِهِ، فيثبتُ ما يأتيهِ ؛ فلا تزالُ صُورةٌ تخرُجُ من صورةٍ حتّى يجيءَ المعنى في النهاية.

وإنه لأغرب الغرائب، ما لا يكاد العقلُ يهتدي الى طريقته وسياق الفكر فيه إذا كان لم يأتِ إلّا محوّلاً عن وجهه مرّاتٍ لا مرّة واحدة[3].

---

(١) المقتطف — ٨٢ — ٥ — ١٩٣٣ م
راجع مصطفى سويف في الأسس النفسية للابداع الفني — ١٨٢ وما بعدها وماهر حسن فهمي : المذاهب النقدية — ٦٧، تفسير عملية الابداع.

(٢) المعركة — ٣٦

(٣) المقتطف السابق — وحي القلم — ٣ — ٢٣٢

والرافعي في هذه كأنّما يتحدّثُ عن نفسِهِ لا في « أناتول فرانس » أو غيره، ألا تَراهُ في معاناةِ الاسْتِبْطانِ الذاتي التي يُحيلُ بها المرءُ حقيقتَهُ وأحلامَهُ ومواجِدَهُ الى حديث يُروىٰ عنه، ويؤخَذُ منه كلّما فاضَ فيهِ فكشَفَ عن سِرٍّ من أسرارِ شخصيّته ؟!

ولعلَّ خيرَ ما يُوضح لنا ذلك هو آخرُ ورَقةٍ كانَتْ على مكتَبهِ ليلةَ وفاته، وفيها مشروعُ ردّ على إسماعيل أدهم ـــ وكانَ سلامة موسى قد وَرَّطَهُ بمحاضرةٍ في (مصر والثقافة الأوربية)[1] ذهب فيها مذهبه في التغريب والتبعيّة الفكرية، لتعود « مصر » في تقدّمها ونهضتها ذيلاً للحضارةِ الأوربية والمدنيةِ الغربية، وقد فَقَدَتْ شخصيَّتَها العربية، وميزاتها الحضارية جميعاً.

لقد جاءَ في الورقةِ كلماتٌ من الشرقِ والغرب ومجلة سلامة ـــ (سكرتير) التبعيّة الغربية ـــ وكيفَ أنها تُسِيءُ للحضارةِ بتلفيقها أقوالَ العُلَماء، وابتسارها لمعلوماتِ المفكّرين، ثمّ تلخيص ميزاتِ الثقافة في السموّ وطلبِ العلم والأخذِ بأسبابِ القوة، وكيفَ سبق الإسلام في ذلك وأضافَ إليهِ كرامةَ الإنسان.

ثم إشارةٌ الى عرضِ المَعلُوماتِ القُرآنية للدلالةِ على بيانِ جَهْل الرَّجُلِ وابتعادِهِ عن العلم وذهابهِ في المبالغة والتهويل.

والتفاتة الى كمالِ أتاتورك ومحاولةِ طَمْس معالم الإسلام.

---

(١)) المجلة الجديدة ـــ مايو/أيار ١٩٣٧ م ـــ وكانت مناظرة بين أدهم وبشر فارس، نشر موسى نصفها التبيع!

وبعد ذلك تنثالُ الأسئلةُ على تقليدِ أوربة في ماذا ؟ في عفَّتِها التي والتي.. الخ.

إن التخطيط في الردّ جاهزٌ من حيثُ المقدّمة والموضوع والنتيجة، على الرُّغم من سقوط بعض الكلماتِ، ووجود عباراتٍ لا تُفْهم، وخطأ في رسم بعض الحروف لانثيال الأفكار بشدّة عليه وتزاحمها بحيث لا يستطيع معها لحاقاً في القلم[1].

وهو كأنّما يتّقِدُ ذهْنياً — إذ يتحفَّز للردِّ، ليطهِّر الفكر العربي مما يَلْحقُهُ من أقلام المترجمين، وأوهام المنقادين للغَرْب بكلّ طواعية.

وهي بعد تعطينا صورةً نفسيّة دقيقة واضحةً لما كان عليهِ أدبُهُ من انفعالِ الذات بالموضوعِ، وما كان عليهِ مشروعُ نَقْده وردِّهِ من توفّرٍ وشمول[2].

موضوعات الكتابة؛ ومقابلته بنبغاء الغرب

أمّا الموضوعاتُ التي كتبَ فيها، فحسبُنا منها ما مَرَّ من أمثِلتها في فَصْلِ فنون الكتابة من الباب الأول، وكان في معظمها يحافِظُ على سِماتِ البيانِ، وصفاتِ الاعتقاد، مجدّداً ومعاصراً من حيثُ الموضوعاتُ والمجالاتُ التي جالَتْ فيها فنونُ نثره.

وقد بَلَغَ النظر في ذلك عندَ بعضِ من كَتَبوا فيهِ نَقْداً وتقديراً

(١) انظر سويف — السابق — ١٢١ وما بعدها.
(٢) خَلَف الله — من الوجهة النفسية في دراسة الأدب — ٤٢

من مُعاصريه، أن عَقَدُوا موازناتٍ بينَهُ وبين أعلامٍ آخرين في الغَربِ، ورأوا من وُجوهِ المشابَهة والمقابلة بينَهُ وبينهم علاماتٍ ودلائلَ استدلّوا بها، وكأنّهم كانوا يحاوِلُون رفعةَ منزلتِهِ على معاصريهِ بتلكَ الموافقات.

كتبَ إليه شيخُ العُروبةِ ــ أحمد زكي (باشا) غَداة إخراجِه « كتابَ المساكين » يقولُ : « لقد جَعَلتَ لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير، وهوجو كما للفرنسيين هوجو، وجُوتَه كما للألمانِ جوته »[1].

و « كتابُ المساكين » بعد محاضراتٌ وخُطَبٌ ومقالات وبعضُ تعريبٍ لترجمةٍ كان الرافعي أنشأها في موضوعاتِ الاجتماع الجديد؛ الذي غَلَبَت عليهِ شِقْوَتُهُ في الفقر والغنى، ثم بَدا له أنْ ينحَلها شَيْخاً مجذوباً تساوَتْ لديهِ الحياةُ الماديّة بحُلْوِها ومُرِّها[2].

ولا شك في أنّ مَنْ أشارَ إليهم شيخُ العروبة كان لهم فَنُّهم البياني في لُغاتهم وقَوْمِهم، وكانت لهم آدابٌ في مثلِ الموضوعات الاجتماعية التي طَرَقَها الرافعي، ولهم آراؤُهم الخاصة فيها، ولكن كان يُعْوِزُهم الإيمانُ بقَضاءِ الله وقَدَره، وما اسْتوفى الرافعيُّ فيهِ تلكَ الموضوعات بعقليةِ العربيّ المُسْلم، وعقيدةِ المؤمن الذي لا يُلْحِدُ لبني الإنسانِ، وإنما يدلُّهم على المحجّةِ من أمورِ دينهم ودنياهم، ويوقِظُ ضمائرَهم لتكونَ العلاقات فيما بَيْنَهم مع الله !..

وكذلك ذَهَبَ « صدّيق شيبوب » يذكرُ ما في أسلوبِ الرافعي من

(١) كتاب المساكين ــ ٨، وقد حسبَ (جامعي) الأنصار ــ ٣١ رجب ١٣٦٢ هـ أن الرافعي أحبَّ على طريقة جوته ــ ولكن بسذاجة البدوي.. فاحترق!! وذلك ذهابٌ بعيد.
(٢) الشيخ علي الجناجي ــ مقدمة كتاب المساكين.

إنشاءِ الجُملةِ الجديدة وما فيها من مجازٍ يَنْبَهِمُ أحياناً، ما نَعَتَهُ بِرَوْعَةِ الغامض، حتى ليجعل له شبهاً آخرَ بالأديب الفرنسي « موريس باريس » الناقد الذي عُرِفَ بعنايتهِ بالصُّورِ المثلى في الاستعاراتِ والكنايات التي تخلُبُ لبَّ القارئ في مواضعَ معلومة[1].

وفاتَ شيبوباً أن رَوْعةَ الغامض لم تكُنْ هَدَفاً مقصوداً لذاتِهِ في أدبِ الرافعي، وإنّما كان يجيءُ ذلك عندَه في مَرْحلةٍ تسْبِقُ التجديدَ المطلوب[2] بإثارةِ التأمُّلِ والإفادة من الاسْتِغراق.

أمّا الدكتور منصور فهمي، فقد حسِبَ أن الرافعي متأثرٌ في بعض أدبهِ الإنشائي بالأديب الفرنسي « روستان » الذي وصَفَ غرامَ الشاعر ــ سيرانو د. بريجراك[3] وبالأديب الألماني الذي ميّز (آلام فرتر)[4].

وكتَبَ في ذلك يخاطبُ الرافعي وينقدُ لَهُ « رسائل الأحزان »، حتى ساءَلَهُ : أكانَ قد قرأ ما نَقَلَهُ المنفلوطي من أدبِ الأول، وما تُرجِمَ من أدب الثاني[5].

وربّما فاتَ المنصورَ أن رسائلَ القومِ كانَتْ فنوناً وفُصولا في

---

(١) البصير ــ ٢٢ مايو/أيار ١٩٢٥ م
(٢) المقتطف ــ ٦٦ ــ أبريل ١٩٢٥ ــ ٤٢٢
(٣) عرّبها مصطفى لطفي المنفلوطي.
(٤) أحزان فرتر ــ ترجمها أحمد رياض ونشرت منجمة في مجلة الشباب ط ــ التقدم ١٣٣٧ هـ ــ ١٩١٩ م
ب ــ آلام فرتر ــ ترجمها أسعد داغر ــ ط ١٩٢١ م
ج ــ آلام فرتر ــ ترجمة أحمد حسن الزيات ــ ط ١٩٣٢ م
وهي التي ذهبت بالشهرة، وربما كانت اشارة منصور والرافعي الى الأولى ــ الرسائل ١٠٥
(٥) الأهرام ــ ٣٠ مايو/١٩٢٤ م

قصَصهم الذي أُشرِبَ الواقعية واختلَطَ بما يحلُّ ويحرم، أمّا رسائل الرافعي، فهي فنٌّ من فنونِ الأدبِ والكتابة العربية، إن كانَتْ قد أشارَتْ الى قِصّةٍ وقَعَتْ لها، وكان فيها تاريخ، فما إيّاها قَصَدَتْ، وإنّما عَنَتْها في حالٍ من الإشراقِ النَّفْسي حيثُ يسمو الحبُّ بالإخلاص.

وكأنّما استدرك فهمي ذلك بقوله : إنك متأثّرٌ بالمعاني الجديدةِ، وتصوغُ لنا عباراتٍ تصلُ الى أعماقِ نُفُوسِ مَنْ لا يَعْرفونَ شيئاً من جمالِ القديم.

وذَهَبَ عبد الحميد سالم بَعيداً ؛ يعقِدُ الموازنَةَ بين الرافعي و (شاتوبريان) فوجَدَ من وُجوهِ الشَّبَه في البلاغةِ، واتّساع الخيالِ والشعر، وقُوّةِ التصوُّر، ما راعَهُ منهما معاً، ولا سيّما في استعمالهما لُغةَ المجازِ أكثر[1].

كما أشارَ سالم الى ما دَعاه بعقيدةِ كُلٍّ منهما في الجمالِ الفنّي الذي تُحِسُّ بهِ إنسانية كلٍّ منهما ؛ إذ أرادَ « شاتوبريان » أن يُبَرهِنَ على ما في المسيحيّةِ من شِعْرٍ وفن، وكذلك برهَنَ الرافعي على أنّ في القرآنِ بلاغةً معجزةً وأنّها فوقَ فصاحةِ الفُصَحاء، وأنّ فيها سِرَّ الإيمان بها، وأنّها دينٌ وتشريعٌ ونظامٌ وفلسفةٌ وفن، وليسَ للإنسانيةِ مَحيصٌ من اتّباع قوانينها، وإلّا تَدَحْرجَتْ الى مهاوي الهلاك[2].

ومن ذلك أيضاً ما وازَنَ فيه يوسف حنّا بين الرافعي وبين « أديسون »

---

(١) الأخبار ــ ٢٣ فبراير ١٩٢٣ م ــ وعبد الحميد سالم هذا كان يترجم أدب الرافعي الى الفرنسية وينشره في صحفهم أنظر رسائل الرافعي ــ ١٦٦

(٢) الأخبار السابق

وصديقَيْهِ « استيل » و « جونسون » وما كان لهم من دالّةٍ على البيانِ في اللغة الانجليزية.

فقد رأىٰ يوسف لهؤلاء جُهوداً في الأدبِ الإنجليزي قَصَدُوا فيها رِفْعَتَهُ في « تَنْسِيق العبارةِ واتّزانِ إيقاعِ موسيقى ألفاظِها، وشرائطِ البيان الآخر »، ووازَنَ بينهم وبين خصائصَ مُشابهةٍ في أدبِ الرافعي الذي رآهُ هَنْدسَةً للعبارةِ العربيّة، ووزناً للجُمْلةِ، ومتساوِقاً مع النَّغَم في التعبير، بحيثُ لو زادَتْ كلمةٌ في التعبير لظهرت كالنشاز في بيانه[1].

كما أعادَ (ص.ش.) إلى الأذهانِ مشابهة الرافعي في شدّةِ الوطأةِ على مجادليه، للكاتب الفرنسي الكبير (شارل موراس) مدير صحيفة (الاكسيون فرانس) من حيثُ سلامةُ اللُّغةِ وإرهافِ الإحساسِ، وأنه كالرافعي « أنزَلَ الله على أذنَيْهِ صمماً جَعَلَهُ يعيشُ في نفسِهِ حياةً كلّها رؤىً وأفكار »[2].

* * *

إنّ مما يَسْتدعي النظر والتأمُّلَ في هذِهِ الموازنات والتشبيهات، وكيفَ أنها انصبّتْ على أدبِ الابتداعيين في الغرب ؛ ذلك الأدَب الذي هامَ بهِ الأدباءُ العَرَبُ لأول اتّصالهم بالحضارةِ الأوروبية وآدابها الفرنسية والانجليزية والألمانية في النصفِ الأول من هذا القرن حيثُ الغزو — شِعراً ونثراً.

---

(١) الضياء — ٢٣ يناير ١٩٣١ م.

(٢) البصير — ٢٧ مايو ١٩٣٧ م

لقد كانَ لهاتيك الآداب إثمارٌ في النفوس خالَجَتْ عواطفَ الشعوب الأوربيّة بعد حُروبها القوميّة الطاحِنة في القرنِ الماضي، وكادَتْ تفقِدُ فيها انسانيتّها، فكانَتْ تلكَ الآداب تذكر الانسان الأوربي وتعيدُه الى إنسانيتِهِ في وجدانِهِ.

وكذلك كان العَرَبُ ما بَيْنَ الحربين، فقد خَرَجُوا بعد الأولى منهما وقد خَسِروا ديارَهم وأموالهم، وأنفُسَهم؛ تلتفُّ بهم المآسي والآلام من كلِّ جانبٍ، ويلذعُهم الحرمان، ومن هنا هاموا بتلكَ الآداب، يَحْسَبُونَ فيها لحاقاً بالمنتصِرِ وأحواله.

ومن هنا أيضاً حُسِبَ أدبُ الرافعي ابْتِداعياً في الأدبِ العربي فيهِ من العاطفةِ والوجدان الشيءُ الكثير، جَعَلَ المطّلعينَ على آدابِ الغرب يَعْقِدون الموازنةَ بينَهُ وبينَ مَنِ اطّلعُوا على آثارهم.

ولكن الأستاذَ عمر الدسوقي انقَلَب بمثلِ تلك المُوازنة الى عَقْدِ المشابهة بينَ الرافعي الكاتب العربي و « بيتهوفن » الموسيقي الألماني، لمكان عاهةِ الصمم منهما، ولما كانَ لهما من فلسفة القناعة والرضا بالقضاءِ والقَدَر التي آمَن كلٌّ منهما بها. قال:

« كلاهما كانَ طَلِيَّ الحديث، محبَّباً الى النساءِ، يُضْفي عليهِ فنُّه بهاءً، وترفعُهُ شهرتُه الى هالةٍ من العظَمَةِ تُحبّبُ إليه الجميلات؛ كلاهما يَسْتهويه كلُّ وجهٍ جميل، ويحركُه الى الحبّ. وحينما تقرأ سيرةَ « بيتهوفن » وحبَّهُ يخيَّلُ إليك أنك تقرأُ سيرةَ الرافعي وحبَّهُ، وكثرةَ تنقُّلِه من وجهٍ جميلٍ لآخر، مع فارقٍ واحد هو أنّ الرافعي المسلم كان مُتَزوّجاً وكانَ عفيفاً »[1].

(١) الرافعي الكاتب ــ مُسْتَلٌّ عن مجلة كلية دار العلوم ــ ١٣٩٠ هـ ــ ١٩٦٩ م ــ ٣٠

وقد حاوَلَ عادل الغضبان أن يعقِدَ موازنةً بين الرافعي ومكانتِهِ في العربية، وموقِفِهِ من المجامعِ اللّغوية ـــ العلمية، وبين « فرانسوا مورياك » في رسالتِهِ الى المجمع ـــ التي ترجمها لمجلة الكتاب[1] وقال :

« إن الرافعي في نظرتِهِ الى اللُّغةِ العربية يرتفعُ كثيراً على « مورياك »، ولكن فاتَهُ الحظ أو فاتَ العربية أن تظفرَ مجامعُها ببعضِ عِلْمِهِ الذي كان يُتْحِفُنا بهِ في فُنون وشجون من أحاديثه »[2].

هذا الى محاولاتٍ أخريات في هذا الشأن تجعَلُ من الرافعي ما قدمنا في شأنِ معاصرتِهِ، وقد يُضافُ إليها محاولةُ مصطفى الشكعة الموازَنَة بينَه وبين عبد الحميد الكاتب، التي دارَ من حولِها، ولكنَّهُ لم ينفَذْ فيها الى غيرِ وصيةِ الرافعي لأبي ريّة، ورسالةِ عبد الحميد الى الكتاب[3].

---

(١) الكتاب ـــ مارس ١٩٥١ م

(٢) حدثني بذلك في ١٩ تشرين الأول/اكتوبر ١٩٦٦ م

(٣) مصطفى الشكعة ـــ الرافعي كاتباً اسلامياً ـــ ٣٠

خلاصة

كذلك كان الرافعيُّ المنشئُ المكين[1] كاتبَ دعوةٍ عربيّةٍ ؛ يقومُ بها الاعتقاد وما سَبَقَ إشارتُه الى الجملةِ القرآنية[2] وعربيّتها وفصاحتِها وسُموّها، وقيامِها في تربيةِ الملكةِ البيانية، وإرهافِ الحسّ، وصَقْلِ الذوق، واتّساقِ المنطق، مقامَ نشأةٍ خالصةٍ في أفصحِ العرب، الدليلُ الأكثر وضوحاً الى هذهِ الحقيقة.

ذلك أنَّ القرآنَ العظيم هو مَثَلُ الأدبِ العربي الأمثل[3] وهو بَعْدُ كتابُ الله الذي يرُدُّ تاريخَنا إلينا حتّى كأنّنا فيهِ، وصِلَتُنا بهِ كأنه فينا، ويحفَظُ لنا منطقَ رسول الله ﷺ — وفيهِ الأسوةُ الحسنة — ومنطقَ الفُصَحاء من قومِهِ، حتّى لكأن أَلْسِنَتَهم عند التلاوةِ تدورُ في أفواهنا، وسلائِقَهُمْ هي تقيمُنا على أوزانها.

وهو أيضاً دعوةُ دينِه الإسلام، وقِوامُ نظامِهِ الحكيم، ومعينُ فقهِهِ

(١) عباس العقاد — المؤيد ١٤ مايو ١٩١٤ م، الرسالة — ٢٤٢ — ١٩٤٠ م

(٢) الزهراء — الربيعان ١٣٤٦ هـ المعركة — ٢٤

(٣) الرسالة ١١٠ — وحي القلم ٣ — ٢١٦

المُقيم، وأساسُ تشريعِه، فما على الأديبِ العربي الحقّ إلّا أن ينطبعَ على ذلكَ الغِرار من الالتزامِ بهِ عقيدةً ومنهاجاً، حتى يكونَ لأمتهِ ولُغتها في مواهبِ قلمِهِ لقباً من ألقابِ التاريخ[1].

وعلى أساسٍ من ذلك كان اجتهادُه في صَوْغِ بيانِهِ، والعنايةُ بأسلوبِهِ، والاحتفاء بموضوعِهِ وترتيبِ معانيه، فلا بدْعَ أن نرى « الأنصارَ » يعدُّونَهُ أديبَ الدعوةِ العربية[2]، وكاتبَ بيانها الذي جاسَ أدبُه خلالَ الديار كالبشير النذير، ولما تنكشِفِ الأيامُ عمّن يخلُفُه، فقد كانَ أكبرَ من جمعيةٍ في هذا الشأن[3].

إذا قرأتَ له، فإنكَ تقِفُ على المعنىٰ من معانيه يَمْلأُ نفسَك ويتَمدَّدُ فيها، ويهتزّ بها طرباً وإعجاباً ؛ ذلك أنَّهُ الأديبُ البليغُ التام صاحبُ الفكر والأسلوبِ والذهن الملهم[4].

ومن هنا ندرك لماذا اسْتكثَرَ عليه بعضُ مُعاصِرِيهِ ذلكَ الاحتفالَ بالصياغةِ البيانية والدقّةَ في الأداءِ، والتوليدَ في المعاني، والمقابلةَ في فنون البلاغة، وشدّةَ الوطأةِ على مجادليهِ ممن يتغاضَوْنَ أو يتعامَوْنَ عن هذِهِ كلّها.

الكتابةُ عندَهُ لم تكُنْ تَلْفيقاً ولا مَرْقَعَةً ــ كما هي عندَ معاصرينَ لَهُ من أولئك الذين حفِظوا أشياءً من التراثِ وفاتَتْهُم أشياء من المعاصرة.

---

(١) الرسالة ١١٠ ــ وحي القلم ٢ ــ ٣٢٠

(٢) الأنصار ــ ٢٥ صفر الخير ١٣٦٣ هـ

(٣) الأنصار ــ ١٧ جمادى الأول ١٣٦١ هـ

(٤) الأنصار ــ ٢٦ رمضان ١٣٦١ هـ

وكذلكَ لم تكن إنشاءً فحَسْبُ، أو تنسِيقاً وزينةً، أو تَرَفاً عَقْليًّا كما ذَهَبَ آخرونَ من مناوئيهِ ودارسيه[1].

إنّما الكتابةُ عنده — بما فيها من فُنونِ الإنشاءِ والصياغةِ والأُسلوب والبيان وسائر الوسائل — دعوةٌ فيها مسائلُ الفكر، وأهدافُ الإصابةِ، وقيمُ التربية القوميّة، والإثمار ؛ للسموّ بالأدَبِ الى مراقي الاعتقادِ الذي يَغْمرُ الضميرَ العربي، فيفردُ له وجودَهُ بين الآدابِ الأخرى فلا يهبطُ عن مُسْتوًى لها فيهِ رأيٌ، ولا يعزفُ عن فكرٍ، ولا يَنْحرفُ دونَ إصابةِ غرضٍ من أغراضِها المَذْهبية والاعتقادية.

وهكذا يَسْتبينُ الرافعي في الكتابةِ عَرَبياً مُحافظاً على اللُّغة وأسرارِها، وعُلومها يصونُ أساليبها من ألواثِ الترجماتِ، ويَحفَظ عليها رَوْنَق الحياة بتجليةٍ دائبة، وإثباتٍ وإثمارٍ فيها، ويقومُ على رصانتِها وصفاءِ الديباجةِ في بيانِها، وإشراقِها بأناقةٍ وغزارةٍ وخصب[2].

كما يظهرُ مجدِّداً التجديدَ الحقّ في الموضوعِ والأُسْلوب والمفرداتِ، حتى ليكادُ يكونُ معجمُ ألفاظِهِ من المجازِ والتوليد والاشتقاقِ والتضمين الذي مارَسَهُ في الكتابةِ والإنشاء كأنّه يخلَعُ على الألفاظِ جديدَ المعاني، ويزوِّقُها بجديدِ الأساليب، ويُضَمّخُها بعطرِ البيان، بل يُنبتها نباتاً حَسَناً في روض الآدابِ ورحابِ فنون القول.

---

(١) طه حسين — حديث الأربعاء ٣ — ١١، معن العجلي — دروس قومية — ١٦

(٢) الأسبوع ٣٨ — ١٩٣٤/٨/١٥ م

آثاره الانشائية

على أساسِ ما تقدَّمَ فإنّ كُتُبَ الرافعي الإنشائيّة التي اجْتَمَعَتْ في محتوياتِها وأسمائِها المعروفةِ هي أعمالٌ فنيّة؛ قامَتْ لها الفكرةُ، واستُحْضِرَتْ لها المعاني، وحُشِدَتِ الحالات، ثم كان لها من تَوَفُّرِ جهازِ التوليدِ في معانيها، والتَّفْتيق الذّهْني الذي عاناهُ في التفكير والتأمُّل والمقابلةِ، ما كانَ من صيرورتِها الإنشائيةِ التي غَنِيَتْ بالجمالِ الآسر، والبلاغاتِ الأثيرة، والتَّعْبيرات الذكيَّة، كما حفِلَتْ بلُغةِ المجاز؛ تنقُلُ الكلمةَ وتشرِقُ بالعبارةِ، وتَحْمِلُها مَحْمَلَ الأخذِ والمُماثلة والاسْتِدلالِ على معاني أخرى، قد تَنْبَهِمُ أَحياناً، ولكنّها تَرُوعُ القارئَ، وتشهَدُ للكاتب.

وقد كان لتلك الآثارِ مراتعُ في الفنّ بالاستعاراتِ والكناياتِ والتَّشْبيهات التي مرّتِ الإشارةُ إليها وتنويهُ الفُضلاءِ بجدواها، ومشاهدُ للذَّوْقِ، ومرابعُ تمتّعُ النفسَ الانسانية وتهيمُ بالعواطِف، وتَنْتَصرُ للوجدانِ؛ لما لَها من الجِدّةِ والطرافَةِ والتحليق في الأجواءِ بأَجنحَةِ الخيالِ والاختراع.

* * *

حديث القمر

كان للرافعي مع القَمر ما كان لكلِّ شاعر، ولكنَّهُ بعدَ زَوْرةٍ قامَ بها الى جبل لبنان الأشم عند ذويهِ في طرابلس الشام والمنظرِ الجميل في بحمدون، وهناك في رَبْوةٍ تُطِلُّ على وادي الهوىٰ أطلَّ عليهِ « القمر » بطرفهِ الساجي، فكانَ لقاءُ معرفةٍ، وكانَ حُبٌّ وكانَتْ رسالةُ بيانٍ للجمالِ.

وجَّه هذه الرسالةَ إليها على صفحاتِ « الزهور »[1]. ثم بَدا له وكأنَّهُ ما أَتَمَّ معانيهِ التي تَوَخّى أن يَبعَثها إليها، فعادَ يأْخُذُ تلك المقالةَ المرسلة في أنداءِ آذار على خَطَراتِ النسيمِ، يَتوسَّعُ فيها بما أوحىٰ إليهِ أميرُ اللَّيْلِ من خَطَراتِ أفكارٍ شعرية وغزلية، وما تضمّنُ من معاني الأَدَبِ وآراءِ الاجْتماع وأفكارِ الفَلْسفة، فتتابَعَتْ معَهُ فصولاً شائقةً ؛ تناوَلَ فيها مباحثَ شتّى من حولِ مدارٍ قوميّ أثير[2] بأسلوبٍ خيالي ؛ لأنَّ الخيالَ هو أساسُ الإنشاءِ وأداةُ التعبير وركنُه الركين.

ولكنّ ما حاوَلَ الرافعيّ أن يَسْتُرَهُ من تَفْصيل قصّةِ حبّهِ في هذا الكتاب، عادَ عليهِ بالاجْتهادِ في الإشارةِ التي تُغني عن العبارَة، ولكنّ تلك الإشارات — وما فيها من كناياتٍ واستعاراتٍ، وما ازْدَحَمَتْ فيها من التشبيهاتِ، عادَتْ بالإبهامِ أحياناً، وبالغُموضِ أحياناً أخرىٰ، وبالاسْتِغراقِ والدورانِ ثالثة، حتى ليدور القارئ، ويَنْبهم عليهِ السبيلُ، فلا يَدري حتّى يعودَ الى الفقراتِ مرّةً أخرى — ممّا أثارَ عليهِ ناقديه إذ قالَ أحدُهم : « إنّه أجادَ وأعْجزَ عن فَهْمِ كتابهِ والاهتداءِ إلى غَرَضِهِ، وعن محاكاتِهِ والنسج على منوالِهِ ؛ إذ كانَ قد بلَغ من الغُموضِ والخفاءِ، ومن التَّعْقيد والتكلُّفِ ما أعْيىٰ العقولَ، وأَغْنىٰ الفكر »[3].

غير أنّ الدارسَ الأمين يَجدُ في هذا الكتاب مادّةً بيانيةً جديدةً ثرّةً، ومَضْموناً اعتقادياً يتجلّىٰ له بالتأمُّل والتحليلِ، وإنْ كدَّ ذِهْنَهُ أحياناً في ذلك كما سَيبين في آتٍ.

---

(١) الزهور ٥ — ١٩١٢ م

(٢) في الفصل التالي تحليل واف للكتاب ومرماه.

(٣) طه حسين — الجريدة — ٧ يناير ١٩١٣ م

ومن خيالِ الرافعي المجنّحِ الشاعري في هذا الكتابِ الرسالةِ المقالةِ التي صَرَفَ فيها وجهَ الحديث إليها.. الى « القمر » — وزَعَمَ فيهِ التورية، قولُه :

« مَن أحبَّ ورأىٰ حبيبتَهُ من فَرْطِ إجلالِهِ إيّاها — كأنّها خيالُ مَلَكٍ يتمثَّلُ له في حُلُمٍ من أحلامِ الجنّة، ورأى في عينَيْها صفاءَ الشريعةِ السّماويّة، وبين خدّيْها تَوَقُّدَ الفكرِ الإلٰهي العظيم[1] وعلى شَفَتَيْها احمرارَ الشَّفَق الذي يُخيّل للعاشِقِ دائماً أن شَمْسَ رُوحهِ تكادُ تُمسِي وراءَها في جُمْلةِ الجمالِ — تمثال الفنّ الالٰهي الخالد، يدرسُ بالفكرِ والتأمل، لا بِالحسّ والتَّلَمُّس ؛ فأطلَعها كأنّها إرادتُهُ، واستنَدَ إليها كأنّها قوّتُهُ، وعاشَ بها كأنّها روحُهُ؛ فذلك الذي يَشْعرُ بحقيقةِ الحُبّ ويفهَمُ معناهُ السماويّ[2]، وهو الذي يقولُ لكَ صادِقاً مصدوقاً : إنَّ كلَّ لَفْظةٍ من لُغةِ الطبيعةِ في تفسيرِ معنى الحبّ كأنّها صَلْصَلَةُ الملكِ الذي يَفْجأُ الأنبياءَ بالوحي في أوّلِ العهدِ بالرسالة »[3].

إنّهُ محِبٌّ ما في ذلك أدنى شكّ، ومعاناتُه الهوى تَسْتَبطنُ ذاتَهُ فتفجّرُ على لسانِهِ ينبوعَ التشبيهاتِ الخارقة التي لا تَنْتهي — وهي تَصِفُ مبلغَ حُبّهِ من شِغافِ قَلْبهِ، بل إيمانَهُ، وما إغراقُه في الخيالِ وقوّةِ تصوُّرِهِ وشاعريته[4] التي تحشدُ كلَّ هذهِ الصُّوَر إلّا « أن الرافعيَ وُهِبَ عَصَبَ الشاعر ومِزاجَهُ ومُخيِّلتَهُ، فلما اتّخَذَ الكتابةَ قالباً

---

(١) الرافعي : توصف أفكار النبغاء بالتوقّد، لأن الفكر يستوقد المادة الفوسفورية في الدماغ.

(٢) كذلك كان يترجم المعاني العربية المؤمنة الى لغة العصر.

(٣) حديث القمر — ٢٠ — والصلصلة : صوت السلاح ونحوه وقد وردت في حديث الوحي، ومنها أخذ

(٤)، الدسوقي — الرافعي الكاتب — ٢٩

يَصُبُّ فيه أفكارَهُ كانَتْ طبيعةُ الشاعر تَغْلِبُهُ — وقد وَجَدَ في النثرِ مَيْداناً أوسَعَ من الشعر، ليَسْتكملَ فيهِ صُوَرَهُ، ويَمْتدَّ في جنباتِ خَيالِهِ؛ ذلكَ لأنَّ الشعر لا يَفْسح له في هذه الآثار »[1].

وقد أحسَّ هو نفسُهُ — أو أحسَّ جهازُ التوليد فيهِ — بأنَّ الكتابَ بهِ حاجةٌ الى زيادةٍ بَسْطٍ، وربما احتاجَ الى كِتابةٍ جديدةٍ في بعضِ جهاته »[2].

* * *

كتاب المساكين

أمّا هذا الكتابُ فأَمْرُهُ عَجَب، فقد أنشأَ حديثاً في « الفَقْرِ والفقراء » تحوَّلَ بهِ الى مُحاضرة ألقاها في جمعيةِ « الإحسان » بطنطا، وقد أَتى فيها على عِلَلِ الفقر ومحاولاتِ المذاهب الاجتماعية المحدثة الكبرى في القضاءِ عليه.

ولكن ما لبِثَتِ المحاضرةُ بعد نَشْرِها في « المقطّم » و « المقتطف »[3] أنِ اجْتمَعَ إليها فُصولٌ من آثارِها في (البخيل)[4] ووَهْم المال والتّعاسةِ، وما إليها من مُرافَقات الفقر والغنىٰ وأيام الحرب السود، والاحْتِلالِ البغيض، حتى عادَ جهازُ التوليد والاختراعِ والتفتيق

(١) الدسوقي — الرافعي الكاتب — ٢٩
(٢) رسائل الرافعي — ٨٢
(٣) المقتطف : ٩٢ — يونيو/مايو ١٩١٣ م — ٤٦٣، ٥٣٢
(٤) كتاب المساكين — ٢٣

الذهني يُلْهِمُهُ من معاني الموضوع، ويستَطْرِدُ في جوانبهِ، ويطارِدُ مضاعفاتِهِ في الفكر والإيمان، حتّى استوَتْ لديهِ مبادئُ وأفكارٌ في الموضوع، وَزَبدٌ من آراء ووجهات نظر تنقلبُ بها معانيهِ، فراحَ يَنحلُها شيخاً مجذوباً قد استوىٰ عندَهُ التبر والتربُ ؛ ليبلُغَ بها قَصْداً في الحكمةِ، وهَدَفاً في إرادةِ التغيير، وأساساً في الانقلابِ. إنّهُ يقول :

« إن الانسانَ كما يكذِبُ في الكلام يكذبُ في الفَهْم، فهو أبداً يحتاجُ ــ لشِقْوتِهِ ــ من هذِهِ الطبيعة ــ الى أشياءَ تضلُّ عواطِفَه، كما يحتاجُ إلى أشياءَ تهديها.

ومن هٰهنا اقتحمَتْ أهواؤُهُ ونَزَعاتُه على الطبيعةِ والشرائعِ والأديان، واكتَسَبَتْ في رأيهِ معاني الأشياءِ التي تَتَّصِلُ بنَفْسِهِ، فظهَرَ من الغِنىٰ ما يَشْبَهُ الفقر، ومن الفَقْر ما يشبَهُ الغنىٰ، وصارَتِ الحياةُ كلُّها جِهاداً وشقاءً ونَصَباً ؛ لأنَّ الشكلَ فيها أكثر من الواضح »[1].

« ولو أنَّ رَجُلاً من هؤلاءِ الذين بَسَطَ اللهُ لهُم فقبضوا، وجادَ عليهم فبخلُوا، وأعطاهم فأمسكوا، قد أرادَ اللهُ بهِ خيراً فوقاهُ شُحَّ نفسِهِ، ويَسَّرَ له في أخلاقِهِ، ومكَّنَ لَهُ في بابِ البذْل والجودِ، وآتاهُ من حُبِّ الخيرِ ما ابتلاهُ من حبّ المال، لرأيتَ في حياتِهِ توسِعةً على قومٍ في تعاستِهم، وإحياءً لقومٍ في آمالِهم، وعَتاداً لقومٍ في أعمالِهم، ومَنْفَعَةً لآخرين من وجوهٍ كثيرة، ورأيتَ في غِناهُ بركة العدلِ، ورحمةَ الأمن، وعِصْمةَ الخلُود ؛ فكأنّه أمةٌ في نفسِهِ، ثم لا تَجِدُ اسمَهُ إلّا في واحدةٍ من ثلاثٍ ؛ إمّا صفحةٌ تكتبها الأعمالُ للتاريخ، وإمّا صفحةٌ يفرِدُها الناس للأخلاقِ، وإمّا صفحةٌ ترفعُها الملائكةُ لله ».

---

(١) كتاب المساكين ــ ٢٥

ويقول: « هذهِ آثارُ النفس الطيبة؛ لا تَنْشأ إلّا بين نَوْعين من الحبّ؛ حبُّ الرجل الكريم للناس، وحبُّ الناس لهذا الرجل الكريم، لا هو يُمْطِلُهُم حقًّا عيهِ، ولا هم يظلمونَهُ حقًّا له، ولَعَمْري كيفَ يَسْتطيعَ المَطْلَ، أو يَسْتطيعونَ، والدّين الذي وجب على الفريقين هو الحبُّ — دينُ القَلْب ؟! ».

وبالروح المؤمنةِ وراءَ هذهِ الإنشائيّةِ المكينةِ فيهِ راحَ يضيف الى الكتابِ في طبعتِه الثانية فصولاً أخرىٰ في « المنافق »[1] و « الدين ولادة ثانية »[2] و « الجمال والحب »[3] ,كما أضافَ إليه مرثاتَهُ لأَخيهِ محمد الكامل — من وحي الروح: « التُراب المتكلم أمام التراب الصامت »[4] غير المقدمةِ والهوامش وبعض الشروح.

وعلى أن الموضوع الاجتماعيَّ الخطير في التفاوتِ الاقتصادي بينَ الناس شاغِل العصر ومفكريه من الساسةِ والفلاسفةِ والفقهاء، وعُلماءِ التربية والاجتماع، فانَّ الرافعي يكادُ يحصِرُهُ « ببيانِ شيءٍ من حكمةِ الله في شيءٍ من أغلاطِ الناس »[5] وقد أسنَدَ الكلامَ فيه الى الشيخ علي الجناجي[6] ليبلُغَ قصداً في إحياءِ الضمير الإنساني؛ فالشرائعُ

---

(١) كتبها للهلال — مارس ١٩٢١ م

(٢) كتبها المقتطف — ٧٢ — ١٩٢٩ م

(٣) نقلها عن السحاب الأحمر — ١٣٤

(٤) المقتطف — ديسمبر ١٩٢٨ م

(٥) كتاب المساكين — المقدمة

(٦) أحسبه أراد البيان في تأثير القرآن بأدبه عند إيراده قصة الرجل الصالح مع النبي موسى عليه السلام، وقد ذهب مذهبه هذا مفكرون آخرون؛ اذكر منهم أرنست باول في « حوار العباقرة » ترجمه بديع شريف — دار المعارف ١٩٥٨ م.

والقوانين إذا لم يكن من خَلْفها ذلك الضمير الحيّ، يزعُ ويَدْفَعُ تحايُلَ الناس عليها بالخِداعِ والحيلة، والغدر والغِيلة »[1].

أمّا لغةُ الكتاب فهي أنيقةٌ، وعباراتُهُ مُنْتقاة رشيقَة ؛ فهو إذا ذَمَّ وَضَعَ، وإذا مدَحَ رفعَ، وإذا وصَفَ أبدع[2].

ولكن ما حشدَهُ فيه من كثرةِ التشبيه والتمثيل والاسْتطراد في التوليدِ، وتركيبِ الخيال وتقليب الآراءِ قد جَعَلَ الإفادةَ من الكتاب لا تتأتّى إلّا لِفئةٍ من الدارسين الاجتماعيين الفُقهاء، إن لم أَقُلْ فِئَة أُولي العزم من الصابرين، وهؤلاءِ عندَهُ الواحد منهم بآلافٍ من سواهم، فكأنه برُوحهِ الإنشائيةِ العامرة يريدُ الرُّعاة والبُغاة، لا الذين يتخذونَ من القراءَةِ مزجاةً للفراغ.

رسائل الأحزان

وأمّا رسائلُ الأحزان فانَّ أمرَها غريب ؛ ذلكَ أنَّ الرافعي قد مرّتْ به فَتْرةٌ من الزمن بُعَيْدَ الحرب الأولى، والنَّهضةِ الوطنيَّةِ المصرية، والأيام الحسوم التي عايَشَهُ فيها المرَضُ بنزلاتِهِ الشعبية وثمةَ آلامٍ أخرى كانَتْ تَعْتريه فيكثِرُ الشكوى[3]، ولكنَّ الشعر وأثَره في نفسِهِ، والجمال وما يحدثُهُ من هزّةٍ عاطفيةٍ في روحِهِ، كانا لا يفتآن يعاوِدانِهِ في لَوْنٍ من المعالجةِ يَجْري بها قلمُهُ على صَفَحات مجلّةِ « فتاة الشرق » في

---

(١)، (٢) الأخبار ــ ٣٠ مايو ١٩١٧ م

(٣) رسائله الى الشيخ أبي رية ــ منشورة، والى محب الدين الخطيب آنذاك.

« دَرْسِ الحياة »[١]، أو يَمْضي في مجلةِ « المضمار » يُسَطِّرُ خواطِرَهُ في الشعرِ والجمال وفَلْسفتهما[٢]. فلمّا وقَعَ له ذلك الحادثُ الغريب من حُبّ التي « هي » عادَ الى صفحاتِهِ تلك يَسْتَعينُها أن تكونَ له بعضَ مضموناتٍ في رسائلِ الأحزان، ويَرْمي بها « المجدّدين » في محاولة تَعْجِيزيّة أن يُؤاتوا بمثلها ![٣].

يصِفُ حبيبتَهُ التي ملكَتْ عليه أيّامَهُ « كأنّهُ مسحورٌ بها، فيجيءُ بكلامٍ عُلْوي مُشْرق كتسبيحِ الملائكة، يمازجُهُ أحياناً شيءٌ يَحارُ فيهِ الفهمُ ؛ لأنَّ أحدهما إنما يرسِلُ فكرَهُ وراءَ قلمِهِ؛ أما هو فيرسِلُ نفْسَهُ وراءَ فكرِهِ، ويَسْتمدُّ قلمَهُ منها، فمنزلتُه أنِ يكتُبَ ثلاثَ كلمات، ومنزلتُها أن تَفْهمَ كلمتين، والانسانُ منها كاتبٌ مفكّر؛ أمّا هو فقد زادَ بصاحبتِهِ فكانَ كاتباً ومفكّراً ومُلْهماً »[٤].

ويقولُ في إحدى رسائِلِهِ : « أحبَبْتُ فَتاةً كأنَّها قصيدةٌ غزلية في ديوانِ شعر، لا خطبة سياسية في حَفْلةٍ[٥]. فما ثَمَّ إلا معنى دقيق لطيفٌ خلّاب ساحر، كلُّ قولي له : أريدُ أن أفهمه، وكلُّ قولِه لي : تأمّلْ تَفْهَم »[٦].

وبروحِهِ التعبيريّة المكينة، وذَوْقِهِ الأدبي الرفيع، وحاسَّتِهِ الشعرية،

---

(١) فتاة الشرق ــ يناير/كانون الثاني ١٩١٩ م
(٢) المضمار ــ ديسمبر ــ ك الأول ١٩٢٠ م ــ والأجزاء التي بعده
(٣) راجع ما سبق في ترجمة « آلام فرتر » واستهوائها له، ورسائل الرافعي.
(٤) رسائل الأحزان ــ ٣٢
(٥) تأمل المفارقة تدرك موقفه منها آنذاك.
(٦) رسائل الأحزان ــ ١٠٦

وجهازِ التوليد الذي ما يفتأ يرفده بالمعاني وبناتِها يُفَجِّرُها طاقاتٍ، ويَبْعثها صُوَراً وخيالاتٍ، ويَضُمّها إليهِ في مجازاتٍ عقليّة، واستعاراتٍ مكنيّة، ويَنْشُرُها عليهِ في تَشْبيهاتٍ لا تَنْقطع فيها الكافُ وكأنّ ؛ تَنْقُلُها من حالٍ الى حال، حتّى يضحىٰ الحُبُّ عندَهُ « طفولةً » لا تعرفُ وجهَ الفَتى إلا شبيهاً بوجهِ الفتاة، فلَيْسَ فيه تذكيرٌ وتأنيث، بَلْ حالةٌ متشابهة كاخضرارِ الشَّجَرِ تبعَثُ عليهِ الحياةَ، حين لا يَجيءُ الحُسن فيها إلّا من جهةِ القلب».

وما أرىٰ الشجرةَ حين تَخْضَرُّ إلا قد نَبَتَتْ فيها حكمة من قدرَةِ الله ذاتِ حُروفٍ كثيرة، ولا الزهرةَ حين تَتَعَطَّر إلّا قد لاحَ في جمالِ المعنىٰ بديعٌ من الحكمةِ الإلهيَّة، ولا الانسانَ حين يعشَقُ عِشْقاً صحيحاً كما تروح الشجرة وتنفطر، إلّا صارَ قلبُه كتاباً من تلكَ الحكمة النقيّة الجميلةِ المُعَطّرة »[1].

ويظهرُ أنّ ذلك الحبّ قد اسْتُكْثِرَ عليهِ ــ وهو الرّجُلُ العَفُّ، المُسْلِم المُتزوّج الغيور، فقال : « كذلكَ يكونُ الحبُّ عندَ الذين خُلِقوا للشِّعْرِ والحكمةِ، إذا هم اتّصلُوا بهِ، فانه لا يَهْبط إليهم من السماءِ إلا ليملأَ أوعيتَهُم، وفي هؤلاءِ خاصّة يكونُ الحبُّ الإنساني هو السَّرَبُ تحتَ الماء ؛ الذي يتّخذونَهُ سبيلَهم الى غور في الأمواجِ الإلٰهية العُظمى التي لا تَنْتهي أعماقُها، فيغوصُونَ ويخرجونَ، وفي أيديهم أفلاذُ الحكمة ولآلئُها، ومن شفتَي المرأةِ يُخرِجُون للناس كلامَ السموات »[2].

---

(١) رسائل الأحزان ــ ٤٧

(٢) رسائل الأحزان ــ ٤٧

وبعد أن تَتوالى رسائلُهُ تصِفُ من وجدِهِ وتصوّرُ جمالَ حبيبتِهِ « ذات اللّونِ الأبيضِ المُشْمَرّ الوضيءِ الذي يَغْتَرِفُ العينَ حُسْناً ؛ وكأنّ ائتلافَ الألوانِ الثلاثة فيها جملةٌ مركبةٌ من لُغة النور والهواءِ والحرارة، معناها الجمالُ القويّ الصحيح ؛ هيفاءَ مُلْتَفّة لم يهبِطْ جِسْمُها ولم يَرْبُ، تملأُ قلبَهُ كما تملأُ الثوبَ، وتَتمايَلُ أعطافُها ؛ فلو خُلِق غُصنُ البانِ امرأةً لمشى يتهادىٰ في مثلِ مِشْيتها، وتَنْظُر نظرةَ الغزالِ المَذْعور ؛ أُلْهِمَ أنّهُ جميلٌ ظريف، فلا يزال مُسْتَوْفزاً يَتوجّسُ في كُلّ حركةٍ صائداً يطلُبُهُ !. وتَتفجّرُ لعينيهِ في حركاتِها وكلماتِها كما يَتفَجّر أمامَ الظمآنِ يُنبوعُ الماءِ العذب »[1].

ويُحِسُّ كأنّه أبعدَ في الموضوعِ وأغرب في الحديثِ ؛ فيَلْتَفِتُ يقرّرُ حقيقةً يَسْتَسيغ فيها موقِفَهُ هذاك بقوله :

« هذا القلبُ هو سِرُّ الجمالِ الانساني ؛ لأنّ فيه بركةَ النفسِ، وزينَتها وسكنَها ؛ فالبركةُ تَنْبُتُ من الخلق الطيّب، والزينةُ تخرج من الفكرِ الجميل، والسكن يثبتُ بالإيمان واليقين، وما جمالُ النفسِ الإنسانية إلّا خُلُقٌ وفكرةٌ وفَضيلةٌ مؤمنة »[2].

وبذلك يشِفُّ عن حقيقتِهِ الاعتقاديةِ، ودعوتِهِ القومية ذاتِ الأبعادِ الأخلاقية والرسالةِ الإسلامية، والدّين القويم، والإخلاص، ولكنْ بعد أنْ يَزْحَمَ رسائلَهُ بطاقاتِهِ الإنشائيةِ وتعبيراتِهِ البَلاغية، وصُوَرِه البيانية، وأمانيهِ جميعاً، فيفوّتُ على قارئٍ اللذّةِ ومطالِع الاستمتاع، ما يَرمي إليهِ من صِفةِ التَلَهّي والاسْتئناس بالكتاب.

---

(١) رسائل الأحزان ــ ٧٤
(٢) رسائل الأحزان ــ ١٠٦

وهو يدركُ هذه الحقيقةَ، ويتحرَّاها، ويدفَعُ عن نفسِهِ أمامَ التزامِه بها سلوكاً وتربية، ألا تَراهُ يقولُ : « ما رأيتُ قَلْبي يَلْتمسُ لذةً من بعدِ إيمانِهِ إلاّ في ثلاثٍ ؛ الفكرِ الانساني الذي يهبطُ في أدمغةِ الفلاسفةِ والشعراءِ من أعلى السموات، أو ينبعُ من أغوارِ النفسِ، والفكرِ الطبيعي الذي يملأ السمواتِ والأرض نوراً وألواناً وجمالاً، والفكرِ الروحي الذي يَتلألأ لخيالي في عَيْني الجميلةِ الحبيبة »[1].

وهو يشعُرَ أنّ هذه الرسائل غيرَ مُوفيةٍ على الغايةِ ما لَمْ تَلْحَق بها رسائلُها، فتشرِقُ على الجانبِ الآخر، ويدركُ أيضاً أن « سيأتي يومٌ يكتَبُ فيهِ تاريخ هذا الحب ــ الكتاب ــ إن شاء الله »[2]، على الرغم ممّا أثارتْهُ بين النقّاد من مطارحاتٍ يأخذُ المرء العَجَبُ منها ؛ فمن مدّعٍ عَدَمَ فهمها جملةً[3]، ومن هائمٍ مُسْتطارِ القَلْبِ فيها يسألُ الله الجلالَ والجمال[4]. ولكنّها تبقىٰ مع ذلك كلّه آيَة الإنشاءِ العربي في النثرِ الحديث، دالّة بقوةِ لُغتها ومتانةِ الأُسْلوبِ، وإشراقِ العبارة على حَيَويّةِ العربية، ونَقلتها البلاغية الكبرىٰ في موضوعاتِ الجمالِ والحبّ وحُسْنِ الاعتقاد من الشعرِ الى الفنّ والكتابةِ، على الرغم من جميعِ المآخِذِ الشكليّة التي تريدُ أن تحملَها مهمّةَ التحليلِ والتركيب.

كما أنَّ ما انْطَوَتْ عليهِ من معرفةِ الكاتبِ بالعُلوم الحديثةِ في الطبيعةِ والنفس، والكهرباء، واستخدامِهِ لقوانينها في بيانِهِ، يُعَدُّ بادرةً أُخرىٰ من بوادِرِهِ العظمىٰ.

---

(١) رسائل الأحزان ــ ١١١

(٢) الرسائل ــ ١٠٧

(٣) طه حسين ــ حديث الأربعاء ٣ ــ ١٣٦

(٤) نقولا الحداد ــ السيدات والرجال ــ أبريل/نيسان ١٩٢٤ م

السحاب الأحمر

أمّا السحابُ فَلَعلَّ أمرَهُ أكثر عَجَباً ؛ إذ زَعَمَ أنّه تكملةٌ على « رسائل الأحزان » وقالَ ؛ إنها كالكتاب الواحد[1] ولكنّ الحقيقةَ غير ذلك ؛ فاختلاف النَّسِيج البياني بينَهما أكبرُ من أنْ ينطبقَ أحدُهما على الآخرِ، إلّا في اجتماعِ الموضوعِ عليهما، كما أنَّ الحالةَ النفسيّة في كليهما مختلفة — وإن استوْحى مضموناتِها من إلهامٍ واحدٍ مع تَعدّد مصادِره.

وما وَعَدَ به القارئَ من تاريخِ الرسائل وقصّتِهِ مع صاحبته، لم يَفِ بهِ على الوَجْهِ الذي أمّلَ القارئُ والباحثُ معاً، وإن تحدَّثَ في الفصلِ الأول عن « فتاةٍ عرفها قديماً في ربوةٍ من لبنان ؛ ينتهي الوصفُ الى جمالِها ثم يِقف » فيوهمُ القارئَ أنّها هي صاحبتُهُ في « حديث القمر » !

ولكن الذي يعرفُ ما للرافعي من باعٍ في الكتابةِ الفنيّة وقُوّةِ اندفاع في التعبيرِ عن وجوهِ المسائلِ وصُوَرِ الأفكار، وزِحام الآراءِ وتَلاحُقِ الخيالاتِ والأحلام، وانثيالِ ذلك كلّه مع الآلامِ والأوهامِ التي يَجِدُّ في شَعْبها ويطيلُ في مناحيها، يحِسُّ أنَّ الرافعي — وقد تَلَقّى نَقْداً مرًّا، وكلاماً مغيظاً مُحنَقاً من طه حسين لرسائلِ الأحزان، على الرُّغْم من أن تقريظاتٍ وتعاريف أخرى أشادَتْ بها، وأشارَتْ الى أثرها وخَطَرها، ولكنّها « هي » لم تكتُبْ فيها، فكتبَ « هو » في تعريفهِ كالذي يثيرُ انتباهَها « هي » لتدركَ مواهِبَ قلمِهِ البليغ الذي يتصرَّفُ بالكتابةِ بطبعٍ سَمْحٍ جَريءٍ يستمدُّه من أصولٍ غريزيَّة في نفسِهِ، فياضةٍ بالمعاني،

---

(١) السحاب الأحمر — ١

وكيف رمى الى إعْطاءِ الفِتْيان والفتياتِ مِثالاً عالياً من الحُب الروحي المَبْني على العاطفةِ الشِعْرية والعقلِ الحكيم، بإخراجِ ذلك المثالِ البديع من الأَدب العربي الحديث[1].

ولكنّها أجابَتْه على هديته برسالةٍ خاصة، تقولُ فيها :

« أيَلزَمُ أستاذُنا الكريم سماءَهُ الشعريّة السّحيقَةَ في هذه الأيام ؟! أم هو يغادِرُها حِيناً يَتَفَقَّدُ شُؤونَ الحياة الأرضيّة، ويَتَلقّى تهاني أصدقائه ؟! فليتقبّل ــ إذا كانَ على الأرض ــ طاقةً أهديها إليهِ من خالِص التهاني وحارِ التمنيات »[2].

إذَنْ هو لم يظْفَر منها بما كانَ يؤْملُ من المُعارضة برسائلَ لها، أو التعريفِ برسائِلِه، أو التصدّي لها بنَقْدٍ، أو الإشارةِ إليها في بابِ الانْفرادِ بأدبِ الرسائل، أو الثناءِ المُسْتطاب الذي يرفَعُ التقريظَ الى دَرَجَةِ الإعجاب والإكبار، فعادَ الى نَفْسِهِ يُؤامِرُها ويِسائلُها : هل أضاعَ الفرصةَ معها في الرسائلِ أيضاً ؟!

ومن هنا اضطَرَبَ عليه « السحابُ الأحمر » فراحَ يوازِنُ بينَ ما يريدُ وما لا يريدُ، أو يحاوِلُ المُفارقَةَ بينَها وبينَ سَمِيّتها « ماري يني » صاحبةِ مجلة « منيرفا » ببيروت، ذاتِ الأثرِ البيّن في « أوراقِ الورد » كما سيردُ ؛ إذ راحَ يقول :

« إنّ من النساءِ ما يُفْهم، ثم يَعلُو في معانيهِ الجميلةِ الى أنْ يمتنعَ، ومن النساء ما يفهم، ثم يسفلُ في معانيه الخَسيسة الى أن يبتذل،

---

(١) المقتطف ــ يونية ــ ١٩٢٤ م

(٢) من رسالة « مي » المؤرخة في ٤ مايو/أيار ١٩٢٤ م

* يا هذِهِ، لا أدري ما تَقولين، ولكنَّ الحقيقةَ التي أعرِفُها أن نَفْسَ المرأة إذا اتَّسَخَتْ كانَ كلامُها بهِ حاجة الى أنْ يُغسَلَ بالماءِ والصابون، وهيهات ! »[1].

ويحسب العريانُ من غيرِ شكٍّ « أنَّ هناك رسالةً إليها، رسالة يُمليها الحبُّ المغيظ المحنق ؛ يحاولُ أن يوهمها أنّها لم تَعُدْ شيئاً في نفسِهِ »[2].

وينقلُ عن « المقتطف » فَصْلاً كانَ عقده لمأساةٍ إنسانيّة مروّعة ؛ كيفَ تُقِلُّ عربةُ السجناءِ « السجين » الى قَضائِهِ، وزوجُه تُشَيّعُهُ بنظراتِها، وأُمُّهُ، وكيفَ أحاطَ بالعربةِ أخواتُهُ الأَربَعُ صُفْرَ الوجوه، ساهماتِ الخدود، ذابلاتِ الأعين ؛ كأنّما تَدلّين الى الأرضِ من مشْنَقَة ![3].

ويُضيفُ فَصْلاً آخر في « المُنافق » كان قد صَوَّرَهُ بقلَمِه لمجلةِ « الهلال »[4] فعادَ يحاوِرُهُ في الحبِّ ــ وكيفَ يراهُ بين مراياه ــ « سياسي الحبّ والصداقةِ الذي يَضَعُ المنفعةَ بين عينيه ثم تتوزَّعُ على جوارِحِه كلُّ أساليبِ الكلام والعاطفة ».

وفي الفصل السادس يتحدَّثُ عن الحبّ أوّلَ ما خلقت لهفَتُه في قَلْبِ الأُمّ على طفلها : « حبُّ الأمّ في التسميةِ كالشَّجَرةِ، تغرسُ من عودٍ ضعيف ثم لا تَزال بها الفصولُ وآثارها، ولا تزالُ تتمكّن بجذورها وتمتَدُّ

---

(١) السحاب الأحمر ــ ٢٩
(٢) حياة الرافعي ــ ١١٠
(٣) المقتطف ــ ٦٥ ــ ١٩٢٤ م ــ ٣٩٥
(٤) الهلال ــ مارس/آذار ١٩٢١ م ــ السحاب الأحمر ــ ٨٨

بفُروعها حتى تَسْتكمل شجرةً، بعد أن تَغْني عِدادَ أوراقها ليالِيَ وأياماً ».

ويوازِنُ بين هذا الحبّ وحُبّ العشاق فيقولُ : « حبُّ العاشقين كالثمرةِ ما أسرَعَ ما تَنْبتُ، وما أسرَعَ ما تَنضَج، وما أسرعَ ما تُقْطَفُ، ولكنّها تَنْسى الشّفاهَ التي تذوقها، ذلك التاريخ الطويل من عَمَلِ الأرضِ والشمسِ والماءِ في الشجرةِ القائمة ».

ويقول : « لا لَذّةَ في الشجرة، ولكنّها في ذلك هي الباقيةُ ــ وهي المنتجة، ولا بقاءَ للثمرة، ولكنّها على ذلكَ هي الحُلْوةُ، وهي اللّذيذةُ، وهي المنفردة باسمها »[1].

وهو مع ذلك كلّه كالعاشق الذي يَضلّ ضلالَهُ، فيذهَبُ يَلْتِمَسُ الطريقَ، ويسألُ هذا وذاك وذلك، فقد جَعَلَ الحبُّ منه « مسكيناً » فلماذا إذَنْ لا يُهرَعُ الى الشيخ علي ــ صاحبه في كتاب المساكين ــ يَلْتَمِسُ عندَه الرأيَ والمَعُونَةَ على « ضمير » من أحبَّ، حيث ألقىٰ في روعِهِ مثل قوله : « أفمن جِلْدةٍ على وَجْهِ امرأةٍ يَجيءُ الشعرُ والجنون معاً ؟ ويجتمعانِ في هذا الخيالِ الذي يُسَمّى الحبُّ، ويَسْتَنزلانِ معاني التّقْديسِ من أعلى السموات الى عَيْنٍ تَلْحَظُ لحظَةً وشفةٍ تَبْسم بسمة،

إنه القَلَمَ الالٰهي المبدع الحكيم هو الذي صوَّرَ ولوَّنَ وافتَنَّ ما شاء »[2].

ويهرَعُ كذلك الى صفيِّ مودَّته ورفيق صباه الشيخ « أحمد الرافعي »

(١) السحاب الأحمر ــ ١٢١

(٢) السحاب الأحمر ــ ١٢٣ .

ويعودُ الى كلمةٍ له كان قد رثىٰ فيها ذلك الصديق الحبيب[1]، فيضيفُ إليها فقرةً له في الصَّداقةِ والصديق كان كتبها للأديبةِ لبيبة هاشم[2]، وأخرىٰ يجعَلُ منها تلكَ الصفةَ الأخرى والوجهَ الأعقل للحُبّ، « فقد كان دينُهُ غضًّا كعهدِ الدّين بأيام الوحي، لا تزالُ تحفُّهُ رِقّةُ القلب المؤمن، وفوقَهُ رقّةُ جَناحِ الملكِ يخالِطُ نُورُه القلوب »[3].

آه لو عَرَفَ الحقَّ أحدٌ لما عَرَفَ كيفَ يَنْطِقُ بكلمةٍ تُسيء، ولو عَرَفَ الحبَّ أحدٌ لما عَرَفَ كيف يَسْكُتُ عن كلمةٍ تُسِرّ[4] ولا يكونُ الصديقُ صديقاً إلا إذا عَرَفَ لكَ الحقَّ وعرف لك الحب »[5].

وحين تألّقَ سحابُهُ عالياً كانَ يشعرُ وكأنّه « يرتقي في صَعْداءَ مطلبُها بعيد، فلا يخطو إلّا مدافِعاً جاذبيةَ الأرض ؛ ذلك أنّه يستَنْجدُ بالإمامِ محمد عبده ــ وقد كان له في أوّل أيامِهِ فراسةٌ في الرافعي أثبتَت الأيامُ صِدْقَها[6] « وقد كانَ للشيخِ عَقْلٌ لو وُزِن في رجحانِهِ لعُدّ بين العقولِ من مَوازين التاريخ، وقَلْبٌ إن يكُنْ في جنبَيْهِ كالقلوبِ التي وُضِعَتْ على منحدَرِ المعاني الأرضية، فانّه كان دونَ القلوبِ على مهبطِ السموات »[7].

(١) الأخبار ــ ١٥ أغسطس/آب ١٩٢١ م
(٢) فتاة الشرق ــ فبراير/شباط ١٩١٩ م
(٣) السحاب الأحمر ــ ١٥٢
(٤) في هذه العبارة أبلغُ اشارة اليها
(٥) السحاب الأحمر ــ ١٥٣
(٦) هي في دعائه : اسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفاً يمحو به الباطل، وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل
(٧) السحاب الأحمر ــ ١٦٣

وهكذا راحَ يَسْتَلْهم هؤلاء جميعاً معاني الحبّ، وأفكارهم وآراءَهم في الحب، وفي النساءِ خاصّة، ويَسْتَمزجهم خواطر للنّاس، وحِكَماً وروائع في الحياةِ والمدنيّة والحضارةِ، ويَسْتَدرجُهم آراءَ ونظرات في الاجتماعِ الإنساني بصورةٍ من البيانِ تدِقّ أحياناً فتستَغْلق، وقد تصفُو حتّى تتّصلَ بالروح وتعلق باللّوح.

وقد بلغ الرأيُ في « السحاب الأحمر » لدى النقّادِ « أن الرافعي لم يَرْحَمْ قارئاً، فزادَ معانيه غموضاً باستعمالِهِ ألفاظاً غيرَ مألوفَة، وتراكيبَ غير مأنوسةٍ، ولكنّ إذا أضيفَ إليه دقّةُ المعاني، وكون بعضها جديداً استَنْبطهُ من صُوَرٍ تخيَّلَها، أو من مباحثَ علميّة وقَفَ عليها، زادَ فهم الكتاب صُعوبة، ولكننا نرجح أن من يمعِنُ نظرَه فيه من الأُدباءِ لا يتعذّر عليه فهمه »[1].

ولكن الرافعي يَسْتَلْحق ذلك بقوله : « أرى المتأدّبين يعرفونَ لهذا الأُسلوبِ ما يعرفُه رجالُ التربية من أساليب إنشاءِ التصوُّر وإرهاقِ الذهن وتدقيقِ الخيال، وقوةِ الطبع اللّغوي وصقلِهِ وإدارةِ الحسّ عليه.

ثم هم يقولون : إن موضعه من هذا الكلام المخنثِ الذي تَرْمي به الأقلامُ المريضة في هذا العصر موضعُ الفُحولة التي لا بُدّ منها في الخليقةِ لإيجاد القوة التي لا تكون إلا بالفحولة وإشعار الهيئة التي لا تكون إلا بالقوة »[2].

وهكذا يرى الأدبَ أبداً أداة تربيةٍ، ووسيلةَ تنشِئةٍ متينةٍ، وأساسَ

(١) المقتطف ــ مارس ١٩٢٥ م
(٢) المقتطف ــ ابريل/نيسان ١٩٢٥ م

قيامٍ بنهضةٍ شاملةٍ في مرافق الحياة وجوانبها جميعاً، ومن هنا فليحسَب حسابُه، ولا يلتفت الى الاعتراضاتِ الجانبيّة التي لا هَدَفَ لها غيرَ المفارقة والإيقاع حين تزعمَ الترف العقلي، أو تأخذَ عنه كلمة وصفٍ في غيرِ هذا الأدب ترميه بها[1].

ولكن ذلك ما بَقي محجوباً الى اليومِ على سائرِ دارسيهِ وقارئي أدبه الغَزلي الذي حاول فيه أن يلج الى جوانبِ الحياة الإنسانية كلّها، وجاسَ به فِعْلاً في أمثلةٍ بشرية مما يألفُ أو يرى أو يحسّ، ويشعرُ، كما لاحَ لنا في (السحاب الأحمر).

أوراق الورد

ديوانُ رسائلِ الحبّ التي تَطارَحَها الرافعيُّ مع حبائبِهِ، وكان العمَلَ الحاسمَ في دَعْوى التجديد التي لَهِجَ بها عَصْرُهُ، وتوزَّعَتْها الأقلامُ مذاهبَ وآراء[2].

وكانت معظَمُ هذه الرسائل قد نُشِرَتْ مُنَجّمَةً في الصحفِ والمجلاّت[3]، وإن كانَ الجَدُّ في إعدادِهِ ديواناً لرسائلِ الحبّ يكونُ كتاباً في فلسفةِ الجمال، ومُنْعَطفاً للكتابةِ العربية التي تَنْطِلقُ مع العصرِ

(١) أمثال سلامة موسى وأدب الفقاقيع ــ الهلال ــ أبريل/نيسان ١٩٢٥ م
(٢) لم يتّفق المجددون على منهاج في التجديد، وقد اختلَفُوا في ماهيتهِ، حتى عادَ الصيال والعِراك فيما بينهم أشدّ ما يكون ــ المعارك الأدبية لأبي الأنوار ــ وأنور الجندي.
(٣) كالسياسة والهلال والبيان والمقتطف وغيرها.

تتقدّم صفوف اللّغات، وتعْجِزُ شانِئيها من المُسْتَشْرقين والشعوبيّين القدامىٰ والجُدُد، هو من أسنىٰ المطالب وأسمى الأهدافِ في تأليفِهِ.

قدّمَ لَهُ بمقدمة تاريخية بليغةٍ، اسْتَقْصَىٰ فيها ما عُرِفَ لأدباءِ العَربيّة من تأليفٍ أو تصنيف في غيرِ الشعر، من رسائلِ الحبّ، فما وَجَدَ غير نُتَفٍ ومُسْتَظرفات لا تبلغُ أن تسمى رسائل[1] وإن حَفِلَ تاريخُ الأدبِ برسائلِ الديوان والاخوانِ والوِجْدان[2] حتى قال :

« أنتَ ترى أن الأَدَبَ العربيَّ قد انطوىٰ على مَحْجُوبةٍ من هذا الفن بقيَتْ في الغيب الى عهدنا، ونرجو من فَضْلِ الله أن تكون كتُبنا الثلاثةُ[3] قد أظهرَتْها، واسْتَعْلَنَتْ بها، وأن تقولَ العربية — إذا تواصَفُوا كتُبَ هذا الباب في بيانِ اللّغاتِ الأخرى : ﴿ هاؤمُ اقْرأوا كتابيْه ﴾[4].

وقد حاوَلَ أن يكتُبَ شيئاً من تاريخِ حُبّه[5]، فكتَبَ في الحبّ نفسِهِ، والصفاتِ السامية فيه، ورأىٰ رأيَهُ، ثم ضَمَّ جناحَيْهِ على رسائل في حقيقةِ الجمال[6] وزجاجةِ العطر الهدية[7] حتى إذا وافَتْهُ برَسْمِها، وطارَتْ بينهما الرسائل في وسائِلها من البريدِ، والمقالةِ، والحديثِ،

(١) كالسياسة والهلال والبيان والمقتطف وغيرها.

(٢) حسب زكي مبارك — النثر الفني ٢ — ١٦٢ أن ادّعاء الرافعي مبالغ فيه، وأتى بأمثلةٍ من رسائل الاخوان يحملها على الحبّ.

(٣) هي : رسائل الأحزان والسحاب الأحمر وأوراق الورد.

(٤) أوراق الورد — ١٤. والآية ١٩ — سورة الحاقة.

(٥) أوراق الورد — ٢١

(٦) أوراق الورد — ٢٨

(٧) أوراق الورد — ٣٢

وفُضُول القولِ هنا وهناك[1]، تكامَلَ لديهِ هذا الديوانُ الفريد من أدبِ الرسائل « أوراق الورد ».

والديوانُ بعدُ من أدبِ الانشاء وفَنّ الرسائل ؛ وأسلوبُ الرافعي فيهِ يتّضحُ أكثرَ مما كانَ عليهِ في سائرِ كتُبهِ الأخرىٰ في مَوْضوعاتِها من الغزلِ والجمالِ، والفَنّ والاجتماع.

خفّفَ من غُلوَائِهِ في التشبيهاتِ وكأنَّ وكاف التشبيه، وقلَّلَ من الاسْتعاراتِ بعض الإقلالِ، وجَعَلَ للكناياتِ دلالاتٍ أكثرَ وُضوحاً، وأطربَ في النفسِ ــ وكأنّما استجابَ لدعواتِ بعضِ الرفاق والنُقّادِ في هذا الشأن. فلا عَجَبَ أن نرى محمد لطفي جمعة يقول :

« كان حُكْمُنا على أدبِ الرافعي مُعَلّقاً منذُ عَشَرات السنين ؛ فقد رأيناهُ شاعراً، وقرأناه في « كتابِ المساكين » و « السحاب الأحمر »، بل سمِعْناهُ محاضراً، فما زالَ الرجلُ في نَظَرِنا لُغزاً معضلاً ــ ولكنا نُجِلُّهُ ونحترمه، ونحبُّ إخلاصه للعربية وآدابها، ونحترم ذاته ومثابرته، وقُوّةَ إرادتِهِ التي لا تَعْرِفُ الكَلَل.

ولكنّه أتْحفَنَا في « أوراقِ الورد » بجديدٍ في الأُسْلُوبِ الفصيح الذي يسمّيهِ خُصومهُ بالقديم ــ وهو يريدُ أن تكونَ المعركةُ حاسِمةً بينَهُ وبينَهُم في هذا الميدانِ، فسُرِرْنا به، ووجدناهُ قد قَطَعَ شَوْطاً في التجديدِ من حَيْثُ لا يدري، وذلكَ بممارسةِ أنواعِ الأَدَبِ كافّةً بين دَفّتَيْ كتابهِ، حتّى الشعر المنثور »[2].

---

(١) حياة الرافعي ــ ١٠٤

(٢) المساء ــ ١٩ نيسان/أبريل ١٩٣١ م

ورأىٰ آخرون أنّهُ حبٌّ خيالي، لا يَقَعُ إلاَّ بَيْنَ الملائكة[1].

واعتَرَفَ ابراهيم المصري بـ« أنّه دونَ شكٍ أقربُ أدباءِ الثقافةِ العربية الى رُوح العصر الحديث ». وقال : « إنَّ في أُسْلُوبِه عذوبةً، ولَهُ نُصوعٌ، وفيهِ لمحاتٌ من الشعرِ الوجداني الصادق، ثم تَمثَّلَ بقولةٍ للأديبِ الألماني « الفريد كير » يقول فيها :

« الأدبُ الصحيح يتخيَّلُ الحقائقَ لا الأوهام ؛ إذ قُوّةُ الخيالِ من قُوّةِ الحقيقة، وإنَّ الخيال بلا حقيقةٍ ضربٌ من الهَذَيان »[2].

وبعد أنِ اقتطف من الديوانِ بعضَ جُمَلِهِ وأوابِدِهِ المبثوثة في رسائِلِهِ، قال :

« كانَ الرافعيُّ في كتابهِ هذا شاعِراً خيالياً فيلسوفَ النَّزْعَةِ، عُذْرِيَّ الهوى ؛ ينسجُ في الحبِّ حلّة أثيريّة، وإنَّ حُبَّهُ غريبُ الوجود، بَلْ نادر.. ».

وقد عجبَ الرافعي من جرأةِ المصري هذه وقال : « نحنُ لا نَحْتاج أَنْ يجيئَنا هذا المعنى من ألمانية، لقد كتبتُ أنا هذا المعنىٰ من عِشرين سنة في مقدّمةِ « حديث القمر » وهذا نصُّه :

« إنّ البلاغةَ التي حارَ العلماءُ في تعريفها ــ على كثرةِ ما خَلَطوا ــ لا تعدُو كلمتين ؛ قوة التصوّرِ، والقُوّةُ على ضَبْطِ النِّسْبة بينَ الخيالِ والحقيقةِ ؛ وهما صِفتان من قوىٰ الخَلْقِ، تُقابلان الإبداعَ والنظام في

---

(١) محمد علي غريب ــ المساء ٢٣ منه

(٢) المصري ــ المساء ــ ١٣ منه.

الطبيعةِ، ومنهما صارَ أفرادُ الشعراءِ والكتّاب يَخْلِقون الأُمَم التاريخية خَلْقاً، وربَّ كلمةٍ من أحدهم تَلِدُ تاريخَ جيل »[1].

وعلى أنّ الرافعي زَعَمَ أن الكتابَ تكملةٌ على « رسائل الأحزان » و « السحاب الأحمر » ــ وكانَ عَدّهما كالكتابِ الواحد، فإني أرىٰ أن الفُروقَ بين هذِهِ الثلاثة كبيرةٌ من حيثُ الأسلوب والفكرة، ولا سيّما بين « السحابِ الأحمر » و « أوراق الورد » ؛ إذ بقَدَرِ ما كان الغموضُ النَّفْسِي يَلفُّ محتوى « السحاب الأحمر » فيبعدُ بهِ القصدُ، ويَغيبُ المرمىٰ، كان « أوراقُ الورد » صورةً فنيّةً بارعة، تجتَمعُ فيهِ الفكرةُ، وينتظم الأسلوبُ، وتتّضح الغايةُ، وتقومُ الدعوةُ والاعتقاد، وتشرِقُ البلاغة الجديدةُ في بيانِها الوليد.

ألا ترىٰ الرافعي يحدّدُ الأغراضَ التي وضَعَ من أجلها الكتابَ بقوله لمحبّ الدين الخطيب :

١ ــ سَدُّ المكان الخالي في الأدبِ العربي ــ مع أنّهُ ذو شأنٍ في اللُّغات الأخرىٰ.

٢ ــ وضعُ عملٍ يحسِمُ النزاعَ في الخلافِ بين القديمِ والجديد ؛ لأنَّ المزاعم في هذا الباب طالت وعرضت بلا فائدة، فلا بُدَّ من عَمَلٍ يبين بهِ التقدُّمَ من التأخر.

قال : وهذه كتابةُ (القديم) في هذا الموضوعِ الانساني الخطير، فليتقدمِ « المجدّدون » بأَحْسَنَ من هذا، أو بمثلِهِ، وإلاَّ فليخرسوا ويتركوا ذلك الهراء الذي يتبجّحونَ بهِ ».

---

(١) البلاغ ــ ٢٣ يوليو/تموز ١٩٣١ م ــ حديث القمر ــ ٨

٣ ـــ إسقاطُ زعمِ المستشرقين وغيرِهم ممّن يَنْتقدونَ العربيةَ بأنّها قاصرةٌ في الوصف والتحليل ؛ تحليلِ العاطفة، ويُجاريهم في ذلك بعضُ السخفاءِ ممّن يُسَمّونَ أنفسهم المجدّدين[1].

٤ ـــ وضعُ قطعةٍ فنيّة بليغةٍ في البيانِ العربي تحفَظُ على نَشْءِ هذه الأيام ذَوْقَ البلاغةِ، فانّ كتابةَ الجرائدِ أفْسَدَتِ الأذواقَ، وتوشِكُ أن تُنسي البلاغةَ.

٥ ـــ تطهيرُ فكرةِ الحبّ، والسموّ بها في نُفوسِ الشباب ؛ فانَّ الحبَّ طورٌ من أطوارِ النفسِ لا بُدَّ منه، ولا بُدَّ من تهذيبِهِ والسموّ به[2].

قال : ومن هنا يُعَدُّ الكتاب وكأنَّهُ أخَصُّ كتبِ التربيةِ، فوقَ أنَّه من أخطرِ كتب الأدب، ومن أسمىٰ كُتُبِ البلاغة والإنشاء ».

وقد أصابَ الرافعي الأهدافَ جميعاً، ولا أدلَّ على ذلك من إحجامِ التقليديين من دعاةِ التجديد كطه حسين وعباس العقاد وسلامة موسى من التصدّي له بنَقْدٍ أو نحوهِ. وإنّما كان في سكوتِهم نوعُ اعترافٍ بصنيعِهِ الجميل، إضافةً الى أنَّ القُرّاء من مختلفِ الدّرَجات يقرّون لأوراق الورد بفضائلِ التربيةِ الجمالية والسموّ بفكرةِ الحب، والامتيازِ على كُتُبِ الرافعي الأخرى.

---

(١) كتب طاهر الحميري من ألمانيا يقول : إنّ من « أوراق الورد » ما يُترجم الى الانجليزية والفرنسية والألمانية، فلا يَفْقدُ شيئاً من جمالِ معناه، ولا يفقدُ إلا قليلاً من جمال لفظهِ، ولكنه يضيعُ أكثر شعرهِ وموسيقاه ».

(٢) من رسالته الى محب الدين الخطيب المؤرخة في ٤ نيسان/أبريل ١٩٣١ م.

ذلك أنّ « السحاب الأحمر » كان التكلُّفُ بادياً فيه، وقد نَسَبْنا ذلك الى الحالِ النفسية المُتَواجدة التي كان عليها الرافعي.

أمّا « أوراق الورد » فلعلَّ العُمرَ الذي امتَدَّ بهِ في الكتابةِ والفَنّ، وما سَبَقَهُ من معالجةِ « إخوته » قد جَعَلَ له الامتيازَ بالصحّةِ، ووفّر له العافية.

وقد كان يكتُبهُ وينشُرهُ مُنَجّماً مُذْ وَقَعَ له ذلك الحادث الغريب مع « فلانة »، وحيثُ كانَتْ فلانةُ الأخرى — ماري يني — ترفدُهُ بمعانيها، أو كما قال العريان :

« تلك يَسْتمدُّ من لينها وسماحتِها معانيَ الحُبِّ التي تملأُ النفس بأفراحِ الحياة، وهذه يَسْتَوْحيها معاني الكبرياءِ والصَّدّ والقطيعةِ، وذكرياتِ الحبّ الذي أشرَقَ في خواطره بالشعرِ، وأفعَمَ قلبَهُ بالألم »[1].

وكانَ الإلهامُ يجودُ لَهُ بمعانيهِ في رسائلَ تأتيهِ عِبْرَ البحار، وتُوافيهِ الأخرى بينَ السطور، كما يرفدُهُ جهازُ التوليد — الذي اسْتحكَمَ فيهِ بما شاءَ من معانيهِ، ومن صُوَرِ الفتنة والجمال[2].

كما أنّ فُسْحَةَ العمر، والتأثُّر بأساليبِ المُوحياتِ جميعاً، وظهورَ قصّةِ حُبّ الرافعي الأديب بين الناس، فلم يعُدْ هنالك داعٍ من حَفاظٍ على سِرّ — وقد خَلُصَ الكتابُ من كثيرٍ مما أُخِذَ على الرافعي في أسلوبهِ بكتُبِه التي تقدَّمَتْ من الغموضِ والانْبهام، والالتواءِ أحياناً.

---

(١) حياة الرافعي — ١١٥

(٢) كتابنا — ٢٧٩

وما حَفِلَ بهِ « أوراق الورد » من قيمِ الحُبّ، وأعرافِ وانْثيالِ الأفكارِ، وتداعي المعاني، وزِحامِ الصُّوَرِ البيانية وتَنْسِ زينةَ كتُبِ الرافعي كلّها.

يُضافُ الى ذلك أن دَعْوةَ الرافعي الى السموّ بهذِهِ العاطفةِ الكريمة، والتحوّل بالفكرِ الإسلامي الى صفةِ فِقْهِ الحياة نَ هذا الطَّوْرِ، واستِعْلانها مبدأً ووسيلةً لأَسْنىٰ المقاصدِ وأعلى لَهْوَالبَيان. « وما شيوعُ الكتابةِ في الحُبّ الفاسقِ إلّا تحو التي يشيع فيها ذلك إلى بغايا »[1]

ولو حاوَلْنا التقلُّبَ في أبوابِ الديوان ورسائِلِهِ، والسياحةَ ف أدبِهِ، واستجلاءَ صور البيان، وآياتِ البلاغة، وما بَلَغَهُ بفن الوجدانية » لانْفَتَحَتْ لنا آفاقٌ تخرِجُنا عن الدراسةِ الكليّةِ الت فيها للمحافظةِ والتجديدِ في الكتابةِ عندَهُ.

وعلى ذك فإني أضمُّ صَوْتي الى الأستاذِ عمر الدسوقي في دراسةِ هذِهِ الكتُب بالبَحْثِ والتحليل دراسةً خاصة مُسْتفيضة وذلك هو السبيلُ الجاد الواضح الذي يستكمل الموضوع ويَفي وعلماً ومعرفة.

على أن ما تقدّم من معالم التعريف في هذاالخصوص إضا طريق تلك الدراسة المستقلة المنتظرة. وفي دراستنا للضمير الع من مدارسة (حديث القمر).

(١) البلاغ ـــ ٢٣ يوليو/تموز ١٩٣١ م
(٢) الدسوقي ـــ مجلة دار العلوم ـــ ٣٤.

المبحث الثالث

المؤلِّف الثَّبْت

في الناحيةِ الأخرى التي يلجُ فيها مضمارَ الدراساتِ والبَحْثِ والتصنيف والتأليفِ، يظهَرُ الرافعي بصفتِهِ « المُؤَلِّفَ الثَّبْتَ ».

وقد يُرىٰ لاوَّل وهلةٍ كأنّه يُؤثر التَّرَسُّلَ فَيَمْرَنُ عليهِ أسلوبُهُ بديًّا، وهو أيضاً مثلُ الذي يكبَحُ جماحَ قوّة التعبير بقَصْدِ العلم، وَهَدَفِ الحكم.

ومؤلفاتُه في غيرِ أدبِ الإنشاء رافَقَتْ تحَوُّلَهُ الفكري، لتصوّرَ لنا حياتَهُ العلميّة، وتَصْدُقَ روحَهُ في الحفاظِ على القيم والتجديدِ في العرض والإيضاح.

وهو من حيثُ المَبْدأ لا يَبْدو مُلْتَزِماً مِنْهاجاً مُعَيّناً من مناهجِ البَحْثِ المَعْروفةِ عند العرب في فُنون التصنيفِ والتأليف، أو التَّلْفيق، ولكنَّهُ لا يأْخُذُ بمناهجِ الدراسةِ المجلوبة أيضاً، وإنّما يَسْتمزِجُ حسناتِ هذِهِ وهاتيك، ويضيفُ إليها من خِبْرتِهِ وقُوّةِ شخصيّته وموفورِ حَصِيلَتِهِ العلمية، ما يجعَلُها تُمَنْهِجُ لِتَفْسِها عندَهُ، فَيَنْفردُ في ذلكَ بينَ عُلماءِ عصره.

* * *

وللرافعي بحوثٌ ودراساتٌ سبَقَتْ تأليفَهُ في الآدابِ، ومناهجُ أخرى أَعْقَبَتْ تلكَ التآليف، ومن هذِه الثلاثةِ تظهَرُ شخصيةُ الرافعي المُؤَلِّفُ، وقد تمكّنَ من فنّهِ، وتوفّر على أدائِهِ، وزادَ على أَقرانِهِ بامتيازِهِ ذَكاءً وعطاء ــ وإن قَصر في إتمامِ بعض ما كان بَدَأَ بهِ من موضوعاتِ التأليف.

* * *

بوادرُ تأليفه وتصنيفه

ولعلَّ أولى محاولاتِهِ الدراسيّة ذلك الفَصْل الذي عَقَدَهُ في « الشعرِ العربي »[1] وهو بعدُ لم يَتخطَّ العشرينَ من عمرِه، إذ كتَبَ يقولُ محلّلاً ومقارناً :

« ضربَتِ العَرَبُ في الشعر، كلٌّ بسَهْمِهِ، فَمُخْطِئٌ ومُصيبٌ حتّى مَلأُوا بقاعَ الأذهانِ حكمة، وغَرَسوا في الأفكارِ فَسيلةَ الخيال ؛ فاذا هيَ شَجَرَةٌ طيبةٌ أصلُها ثابتٌ في الجنان، وفرعُها في اللّسانِ، تُؤتي أُكُلَها كلَّ حين بإذنِ ربّها.

ألم تَرَ كيفَ زعم الغربيّون ــ ومن يَتَعَصَّبُ لهم من أبناءِ الشرق ــ :

---

(١) المنار ــ ربيع الآخر ١٣١٨ هـ ــ يوليو ١٩٠٠ م. وهذا التاريخ سابق لما ذَهَب إليه سعيد العريان من تحوّل الرافعي الى الكتابة عقبَ إنشاء الجامعة عام ١٣٢٦ هـ ــ ١٩٠٨ م ــ حياة الرافعي ــ ٤٩.
ومما يؤسَفُ له أن جاراهُ الرأيَ هناك سائر الكاتبين الآخرين، ومنهم دارسو الرافعي الأديب ضيف الله الأخضر، وكمال نشأة، ونعمات فؤاد، ومصطفى الشكعة، من غير رويّة.

أنَّ العرب لم تذُقْ ألسِنَتُهم من البلاغةِ إلا كما تَذوقُ الأَعْينُ من النوم غِراراً ومضمضمة ؟!

وإنَّ لَهُمْ لَعُذْراً في ذلك ما دامَ أدباؤنا بمَعْزلٍ عمّا يقولُهُ الشاعرون ــ. وقد ركبَ هواه كلُّ من لَيْسَ يعرِفُ مبلغَ العَرَبِ من الحكمةِ، فارتفَعَ بشكسبير وروبرت ودي موسي وجيني وأضرابِهم الى الذّرْوَةِ، ونزَلَ بامرئ القيس وزهيرٍ وأبي الطيب وأمثالِهم الى الحضيض، واستَدْرَجَ بأبي العلاء ــ الذي يُلَقّبُهُ الافرنج حكيم الشرق ــ وعلاء الدين الوداعي، وأنداد هؤلاء من سابقيهم ؛ ولكنَّهُ كدَمَ من غيرِ مكْدَم، واستَسْمَن ذا ورم ».

وهو قولٌ مُرْسَلٌ على سَجيّتِهِ العربية يُظْهِرُ ما كانَتْ عليهِ الحالُ أيّام التَّبَعيّة الفكريةِ التي طَغَتْ فيها الأحكامُ جُزافاً ؛ تصوِّرُ حالَ الحطيطةِ الالْتوائيةِ عند كثيرٍ من الكاتبين.

وفيهِ ثقةُ الأديبِ العربي بنَفْسِهِ، وسَعَةُ المثقّفِ البادي، وتَطَلُّع الآخِذِ بمضمارِ العلمِ، والمُتَّفَق لَهُ من المعرفةِ ألفافٌ، والعاقِد عليها مع الاطلاعِ بأواصرِ العزم واليقين.

ويدعُوهُ الحفاظُ على الروحِ القوميّ للأدبِ العربي أن يَسْتَجيبَ لعِلْمِ الروايةِ، ويكتُبَ في الرواةِ ؛ فيضَعُ للمقتطفِ دراسةً ذات منهاجٍ في ذلك(١) يقولُ فيها :

« لا جَرمَ أنَّ الروايةَ هي العِلْمُ المستطيل، لا تَمتَدُّ لَهُ إلا الصّدُورُ

---

(١) المقتطف ــ ٣٠ ــ مايو ١٩٠٥ م ــ ٣٣٧، ٤٢٥.

الواسعةُ، وإنا لنَرىٰ من أخبارِ الرواةِ والعُلَماء في الحِفْظِ ما لا نُصَدّقُ أنَّهُ كانَ، أو يكونُ، ولكنّ ذلكَ ليسَ بعجيبٍ عمّن أنفَق أيامَهُ في تَنْمِيةِ الحافِظَةِ، وفَتْقِ الذهن، وقد كانَتِ الحاجةُ دافعةً الى ذلك، فانصَرَفَتْ كلُّ قوى النفسِ الى الاسْتِحضارِ والاستِظهار.

وكان علماءُ السُّنّةِ لا يَعُدُّونَ مُحدّثاً إلّا مَنْ يَرْوي عِشرين ألفَ حديثٍ من حفظِهِ !.

وهذا الإمام محمّدُ بن ادريس الشافعي أَخَذَ عنه بعضُ الرواةِ شِعْرَ الهُذَليين !.. وهو مع ذلكَ مُسْتَنْبطُ المذهبِ المعروفِ من الكتابِ والسنّة،

يُروىٰ عنهُ من قُوّةِ الحافظة ما لا يَتَعلَّقُ به التصوُّرُ، حتى قيلَ : إنّه تصفَّحَ كتاباً لأبي حنيفة ذاتَ ليلةٍ، فأَصبَحَ وقد أَتىٰ عليهِ حفظاً وبَلَغَهُ وعياً.

والروايةُ مرادفةُ الحِفْظِ بمعنىً أخصّ، فكُلُّ راويةٍ حافِظٌ، وليس كلُّ حافِظٍ راوية.. الخ »[1].

فالعِلْمُ المُسْتَطيلُ الذي يُستوعَبُ فيهِ الأَثَرُ، وتُسْتَوفى الأحكامُ، ومنه يجعَلُ الأديبُ الحقّ الذي يأْخُذُ من كلّ علمٍ بطرف ؛ يمدُّهُ بالمعرفةِ، ويُهيِّئُ له أسبابَ تصنيفِ المعلوماتِ والإفادةِ منها عَرْضاً وتأليفاً، هو الرِوايةُ العربية.

وهي ــ الروايةُ ــ بعدُ بما فيها من شُروطِ الروايةِ، وممارسةِ الجَرْحِ فيها والتعديل، والعناية بالأَثَر قولاً وفِعْلاً، والالتزام بالصّدْقِ وإيثارِهِ حكماً

---

(١) المقتطف ــ ٣٠ ــ مايو ١٩٠٥ م ــ ٣٣٧، ٤٢٥.

هي الموضوعيّةُ العربية التي يَنْبغي الحفاظُ على أصولِها عنْدَ التصدّي للبحثِ والدراسة.

وذلكَ بيّنٌ عندَهُ في محاولتِهِ الدراسية التي بحثَ فيها « شعر البارودي » عَقيبَ وفاته ـــ وقد وفق فيها أيما توفيق ؛ إذ اعْتَمدها محمد صبري في دراستِهِ، وأشار إليها عمر الدسوقي، ومَنْ جاءَ بعدهما الى يومِنا هذا، فقد وافىٰ قائلاً :

« إنَّ شعرَ البارودي مُونَقُ الرويّ، مُتَلائمٌ، حَسَنُ العرضِ، مطرُوح العبارة الى حيثُ تشيرُ القلوب، ولو أنّ الله أعطاهُ مع ذلك خيالَ حكيمٍ كأبي الطيب أو غيرِهِ لكانَ أشعَرَ مَنْ سَمِعَتْ له أذنٌ شِعْرَهُ !.

وأنا وإن كنتُ أُجلّ الرَّجُلَ لحُسْنِ صُحْبَتِهِ، ولُطْفِ مُحادَثَتِهِ، وبَشاشةِ مَحْضَرِهِ، وأدبِهِ، غيرَ أنَّ في كتابتي فيهِ لا أكونُ كذلكَ الأعرابي الذي بَلَغَ من حبِّهِ أنْ يرىٰ الشمسَ على حائطِ مَنْ يَهْوى أحسَنَ منها على حائطِ جيرانها.

وللسببِ الذي قَدَّمْتُ لم يكُنْ شاعِرُنا كاملَ التصرُّفِ في فُنون المعاني ـــ وإنْ كانَ أشعَرَ من جميعِ مُعاصريه بلا مِراء، غيرَ أنَّهُ أتَمَّ ذلك النقصَ بما أتْقَنَ من جمالِ الصَّنْعَةِ وبديعِ الرواء.

أما نَمَطُ البارودي في النَّظْمِ فهو غايةُ ما دارَتْ بِهِ الألْسِنةُ ؛ عُذوبةٌ تكادُ ترشَفُ وجزالَةٌ تَلْعَبُ بالنَّفْسِ، وسلامةٌ يَسْتريحُ في ظِلِّها القَلْب، وتَسْتَنْشِقُ الكبِدُ نسيمَها ؛ فهوَ الغَديرُ أعذبُ ما يسكنُ، والمِرآة أصفىٰ ما تكون »[1].

---

(١) المقتطف ـــ ٣٠ أيار/مارس ١٩٠٥ م.

وهو إذْ يقولُ ذلك يَسْتشْهِدُ بشعرِهِ، ويُناقِشُ فَهْمَ بعضِهم للأسلوب، أَخْذاً بقولِ الجرجاني في حَدّ البلاغة ؛ أنّها لَيْسَت في اللّفْظِ ولا في المعنى، ولكنّها في الأسلوب.

ويومَ استجابَتِ الدواعي لفكرةِ مصطفى كاملٍ في إنشاءِ الجامعةِ، وانشقّ لها مكانُها في الحوادثِ، وبَذَلَتْ فيها الأمةُ وشمَّرَتْ لها، وجَدّ بها الجدّ..[1] وقد رأىٰ الرافعيّ ما يلْقىٰ فيها من آدابِ العَرَبِ فُصُولاً مُلَفَّقَةً مما تَرْجَمَهُ جُرجي زيدان لمجلةِ (الهلال) عن كتابِ بروكلمان في تاريخِ الأدب العربي، وكراسة صَنَّفها على طريقةِ المستشرِقين[2]، وكتابُ « الوسيلةِ الأدبيّة » للمرصفي، والمواهِبُ الفتحية، الى مختاراتٍ في المنظوم والمنثور، مما لا يَليقُ أن يُدَرَّسَ في (جامعة)[3]، كتبَ الرافعي في ذلك بلهجةٍ قومية متميِّزة ثابتة قائلاً :

« لا سَبيلَ الى عُذْرِ القومِ في إغفالِ الأدب العربي — وهُمْ قد نَصُّوا في نظامِ الجامعة على نوعَيْنِ من الآدابِ الأَجْنبية، فأمّا أن تكونَ هذه أحسَنُ من ذلك بالتقديم، وأقربَ الى فائدةِ الأُمَّةِ منهُ، أو هم يَسْتهدونَ اليوم لحاجتهم فيُنشِئونَ لنا في أوربة أدباً، ويخرجون لعُلومِ الأعاجم عَرَبيًّا صَليباً، أو لا هذا ولا ذاك، ولكنّهم يمضُونَ على غيرِ هدىً — كما تُخيِّلُ النفسُ ما دامَتْ هذه الأُمّةُ قد بَذَلَتْ وتابَعَتْ على ما يريدون »[4].

---

(١) المعركة — ٦٨

(٢) أحسبها محاضرات الخالدي.

(٣) لم تكن جامعة بالمعنى المفهوم منها في بلاد العالم، وإنما هي قاعة محاضرات يدخلُها من يشاء — الزهراء ربيع الآخر ١٣٤٥ هـ — وكذلك دَخَلَها طه حسين ورهطُه!

(٤) المعركة — ٧١ — ٧٥

ومضى بعد ذلكَ يُوضحُ ما يُرادُ بقَولهم (آدابُ اللغة العربية) التي حَسِبها تخرُّجُ الأديب الذي علمهُ مجموعُ علومِها، وإحسان المشاركةِ فيها جميعاً، وضَرَبَ لذلك الأمثال، وتساءَلَ عن طبقاتِ الرُّواة والحُفّاظِ وأهلِ النقد والجرح والتعديل[1] حتى قال :

« لا أرى الجامعة مُفْلِحَةً في الأدبِ إذا هيَ لم تُحْيِ ذلكَ العَهْدَ، ولم تَطْوِ الأيام إليه ؛ فانّ الأمةَ لا تَحْيا إذا ماتَتْ لُغَتُها، ولَنْ تموتَ لغةُ أمةٍ حيّة !.

وما دامَتِ العربيةُ على أصلِها، فأدبُها ما أخرَجَهُ السَّلَفُ، لا يُنْقصُ منهُ، ولكن يُزادُ عليهِ بما تُمَثِّلُهُ الأيامُ، وتَبْتَدِعُهُ الأفهام، وتَسْتأنِفُ القرائح، وتَتَدَبَّرُهُ العقول، ويَمْحَضُهُ التحقيق، وتُبدِعُهُ مذاهبُ النقد »[2].

إنَّهُ لم يرِدْ أن يكونَ أدبُنا حَمِيلَةً على غيرِهِ، وهَيْهَاتَ أن يَفيدَ مَنْ لا يَعْرفونَ آدابَ لُغتِهم أن تُلْقى عليهم « المحاضرات عليها باعتبارِ علاقتها بأهلِ أوربةَ ــ وخصوصاً ايطاليا ــ على حَدّ ما جاءَ بتعبير مَنْهجِ الجامعةِ يومئذ »[3].

تاريخ آداب العرب

ويومَ هَيّأ نفسَهُ فانْقَطَعَ للتأليفِ في « تاريخ آداب العرب » بعدَما تَوَفّر على أسبابهِ واستجابَ لدَواعيهِ ؛ لِيُثْمِرَ فيهِ لَوناً جديداً من الإثمارِ ــ هو الإبْداعُ في آثارِ الماضين ؛ بالتصنيفِ والتَّبويبِ والنَّقْدِ والمُفاضلة،

---

(١) (٢) (٣) المعركة ــ ٧١ ــ ٧٥.

أَحْضَرَ مادةَ الكتاب وفَرَّعَها في موضوعاتها، وعادَ يؤلّفُ بينها في منهاجٍ خاص لم يأخُذْهُ عن الأقدمين، ولا هو تأثَّر بالمحدثينِ الذين يُلَفِّقُون في التأليفِ على طريقةِ المُسْتشرقين، ولكنّه أفادَ من مناهجِ البحثِ ومَذاهبها التاريخيّة والنفسيّةِ والتّحليليّة التي تَقِفُ أمامَ النُّصوص في تأمُّلٍ ودراسةٍ. فكانَ يُعنىٰ بالمُسَلّماتِ الجَدَليّة، أو هو يَتّخذُها ذريعةً لما يَرْنُو إليهِ من أهدافٍ، فيقول :

« وقد رأينا لتاريخِ الحضارةِ في كُلّ أُمّةٍ راقية أربعةَ أبوابٍ متفرقة على أركانه ؛ وهي الأدبُ والسياسةُ والدّينُ والعلمُ ؛ فتلجُ الأُمّةُ من بابِ الأدبِ الى نوعِ الكمالِ في عَواطفها ومن بابِ السياسةِ الى مَبْلَغِ القُوّةِ في كيانِها، ومن بابِ الدين الى دَرَجَةِ السعادةِ في أنفُسِها، ومن بابِ العِلْمِ الى ما تُعِزُّ بهِ مُجْتمعهَا من هذِهِ الثلاث.

بَيْدَ أنَّ تلكَ الأركان لا تَسْتوي في جميعها ضَعْفاً وقُوّةً، ولا في اعتمادِ أصلِ التاريخ على بَعْضِها دونَ بعض، فقد كانَتْ دِعامةَ التاريخ العربي في قيامةٍ أدبيّةٍ مَحْضَة، ثم جاءَ الدينُ فاسْتَتْبَعَ السياسةَ والعِلْمَ.

لا جَرَمَ كانَ للأدبِ عندَهم تاريخٌ خاص لا يَمْتزج بالدّين، ولا بالسياسةِ ولا بالعُلُوم إلاّ من جهاتٍ مَعْلُومةٍ تعرفُ بها وجوهُ الاتّصال بين أجزاءِ تاريخهم في جُمْلتِهِ، وإفضاءِ بعضِها الى بَعْضٍ في المخالطةِ والارْتباط »(١).

وهذه دلالةٌ أخرىٰ على وَفْرةِ ما لَدَيهِ من المَعْلومات التي يَسْتطيع بها أن يُصْدِرَ مثلَ هذه الأحكام الكُلّيّة ؛ فهي تُواتيهِ من كلّ ناحيةٍ،

---

(١) تاريخ آداب العرب ــ ج ١ ــ ٦، وانظر أيضاً التعريف بالتاريخ ــ ١٩٦.

ويَعيش في عصورِها وأدوارِها جميعاً، ويُحضِرُها عَصْرَهُ أيضاً بهذا الاسْتمزاجِ الأثير.

وإذ هو يَتَسامىٰ بعقيدتِهِ غالباً، نرىٰ ضميرَهُ العربيّ قد انْفَتَحَ للتَّفْسيرِ النفسي في قناعةِ الفقيهِ الذي جَعَلَتْهُ الدَّعْوةُ مَنْبهةً على سبيلها الماضي بها الى التَّصْديق، والإيمان حينَ يقول:

« إنّ بقاءَ القُرآن على وجهِهِ العربي مما يجعَلُ المُسْلمينَ جميعاً — على اخْتلافِ ألوانهم من الأسودِ الى الأحمر — كأنَّهم في الاعتبارِ الاجتماعي وفي اعْتبارِ أنفُسِهم — جسمٌ واحد؛ ينطِقُ في لُغَةِ التاريخ بلسانٍ واحد؛ فمن ثَمَّ يكونُ كلُّ مَذْهبٍ من مذاهبِ الجنْسِيّةِ الوطنية فيهم قد زالَ عن حَيِّزِهِ، وانْتَفىٰ من صِفتِهِ الطبيعيّة؛ لأنّ الجنسيةَ الطبيعية التي تقدّرُ فروضَ الاجتماع ونَوافلَهُ إنّما هي في الحقيقةِ لَوْنُ القلبِ لا سِحْنَةُ الوجه »[1].

وبذلكَ ينتقلُ نقلةً أخرى في ارتقائهِ الفكري؛ يجعَلُ فيها الكتابةَ والتأليفَ ميدانَ معركةٍ اعتقادية جديدةٍ ينتصِرُ فيها لأمتِهِ في دينها وقِيمها وأعرافِها جميعاً.

أي أنَّهُ لا يَعْترفُ بمذهبِ التجرُّدِ المزعوم؛ الذي لا يَقي صاحبهُ مَغبّةَ الانزلاقِ والسقوطِ، — فهو يُؤثرُ ثباتَ الاعتقاد بالإيمانِ، ويُصرِّفُ العلومَ جَميعاً لتفْسيرِ ذلك والدعوةِ إليه، لا عَزْلَ الحقيقةِ والانصرافَ عنها — على ما يَتداعى لمَن حوالَيْهِ من وَهْم التَجَرُّدِ والمَوْضُوعيّة!.

ومن هنا يقرّرُ: « متىٰ لم تَجدِ الخيالَ القويَّ في مُؤَرِّخ الأدب،

---

(١) تاريخ آداب العرب ج ٢ — اعجاز القرآن — ٧٦.

ومَتى رأيْتَ هذا المؤرّخ لا يَتوكأُ إلا على المنْطق والمقاييس والأوزانِ، فاقذِفْ بهِ وبتاريخِهِ وأدبِهِ وآرائِهِ حيثُ شِئْتَ، فانّهُ لا يَمْتنع في يدكَ ولا يَسْتعصي عليك »[1].

« والأَدَبُ من العلومِ كالأعصابِ من الجِسْمِ هي أَدَقُّ ما فيهِ، ولكنّها مع ذلك هي الحياةُ والخُلقُ والقُوّةُ والإبداع، ولا تُقاسُ بمقياسِ العظام المَشْبُوحَةِ، ولا توزَنُ بميزانِ العَضَلات المكتنزة ».

وهذه حقيقةٌ عِلمّيةٌ أخرى يُضيفُ فيها الرافعيُّ جَديداً الى حيثّياتِ الأحكامِ في التاريخِ العربي، ويَجْتَهدُ لها فَنَّا من النَّقْدِ والمقارنة.

ذلكَ أنَّ الطريقةَ العِلْميّة عندَهُ « قائمةٌ على اسْتِقْراءِ المادةِ والإحاطةِ بها من جميعِ جهاتِها ؛ فهي لا تُخْرِجُ التاريخَ نَفْسَهُ كما هو في الواقعِ، وإنما تَجِيءُ برأيٍ يكونُ فيه معيارُهُ دائماً ذكاءَ صاحبهِ وعَقْلَهُ وخيالهُ ».

قالَ : « ولهذا اشْتَرَطُوا — أي عُلَماء التاريخ والأدبِ العربي — في صاحبِ تلكَ الطريقةِ أن يكونَ ممَّن رُزِقُوا البَراعةَ في إصابةِ الحَدْسِ، وقُوَّةِ الخاطر وسموِّ الخيال »[2].

وبذلكَ نَزَلَ الرافعيّ في تأليفِهِ لـ« تاريخ آداب العرب » منزلةَ الباحثِ العليمِ من مُعاصريه ؛ فقد « عَرَّفَ نَفْسَهُ على حَقيقَتِها، وأنَّ الله ادَّخَرَهُ ليكونَ هِبةَ العَليِّ القدير لهذِهِ الأُمّة »[3] يَمْضي بهِ عِلْمُه وفَضْلُهُ على

(١) المعركة — ١٣٠
(٢) المعركة — ١٣٤
(٣) الدسوقي — الرافعي الباحث العليم.

سُنَنِ الحياة التي يريدُها تُقْبِلُ على الأُمّةِ بما تَسْتَطِيعُ أن تَنْتقل بها من حالٍ الى حال.

ذلك أنّ التأليفَ في تاريخِ الآداب يَنْبَغي أَنْ يَجيءَ من شخصيّةٍ تجتمعُ لها مواهبُ مُتعدّدةٌ واضحةٌ في كُلّ بابٍ « فيكتُبُ في التاريخِ مؤرّخاً، وفي اللُّغةِ لُغَوياً، وفي الشعرِ شاعراً، وفي النثرِ كاتباً، وفي الخطابةِ خطيباً، ثم لا يَفوتُهُ أن يكونَ جَريئاً في الحقّ، نَقّاباً عليه.

وذلكَ أيضاً أنّ تَطَوّرَ التاريخ وتَحوُّلَهُ الأدبي لا يكونُ من تطوّرِ الدُّوَلِ واختلافِها، وإنّما من تَطُوّرِ الشعوبِ والجماعات في أخلاقها وعاداتِها وتحوّلها في ممارسةِ الحياة، وهو انْقِلابٌ لا يكونُ من تأثيرِ الدُّوَلِ وحدها، ولكن من تأثيرِ العُلَماءِ والأُدباءِ، وهؤلاءِ لا يَتَعَلَّقُون بالعصورِ السياسيّةِ إلّا من أضعَفِ الجهاتِ »[1].

وعلى هذا المَذْهَبِ الفريد والمنهاج الجديد وافىٰ كتابُهُ « تاريخ آداب العرب » :

الجزء الأول : الذي أرّخَ فيهِ للعربيةِ لُغَةً، ونَشأتِها وتفرُّعها، وما يتّصلُ بذلك، وجالَ جَوْلَتَهُ النقدية في النظرياتِ المَعْروفة في هذا الشأنِ، حتى أَخَذَ بالمذهبِ الحَيَوي الذي قامَتْ عليه اللّغة وتفرَّعَتْ.

وعادَ الى موضوعِهِ في الروايةِ والرواة فَأَعدّهُ في فُصولٍ للتاريخِ أتى فيهِ على ما كان لهذا الفنِّ الرفيع من حِفْظِ تُراثِ الأُمّةِ، وما تَقَلّبَ فيهِ من الشعر والأدبِ واللّغة[2].

(١) البيان ـــ ذو الحجة ١٣٢٩ هـ.
(٢) لا شك هو غير البحث المنشور في المقتطف مايو/١٩٠٥ م

وأمّا الجزءُ الثاني ؛ فقد أرّخَ فيهِ للقُرآنِ الكريم باعتبارِهِ الأدبي ؛ فتحدَّثَ في تاريخِهِ وبلاغَتِهِ، وما دُعِيَ بالإعجازِ — من فنونِ البيانِ فيه، فجمَعَ مادّةَ التأليف في ذلكَ ورتَّبَ توزيعَها بنقدٍ وذَوْق.

كما أرّخ للبلاغَةِ النبوية، ونَسَقِ الأدبِ فيها، وأبانَ عن صُوَرِ البَلاغةِ والجمال فيها. على ما مرَّ بنا في فَصْلِ فنون الكتابة[1].

* * *

لقد شَغَلَ الرافعي بكتابهِ هذا الكتّابَ والمفكّرين والنقّاد جَميعاً، والى يومِنا هٰذا، يُقَرّظُونَهُ ويُعجَبونَ بمادتِهِ وأسلوبِهِ، والمنهاجِ الذي اتَّفَق له فيهِ، وكيفَ افتَرَعَهُ له فكان طوعَ يدَيْهِ صفةً ومادة.

ولعلَّ نظرةً في بعضِ أوراقِهِ التي كانَ يُخطط فيها لما بَقِي من جوانبِ ذلك المَشْروع العظيم، وكيفَ كان يَرْسم لنفسِهِ منهاجَ بحثِهِ ودراستِهِ، تُعْطينا الدَّليلَ على قَصْدِهِ القومي وغايتِهِ العربيةِ، في كلّ ما كتَبَ في هذا الشأن تأليفاً ثبتاً، وما توفَّرَ له من بَسْطةِ عِلْمٍ وذوقٍ فني.

هذه وَرَقَةٌ رسم فيها (أصولَ العمل) وقد رتَّبها كما يلي :

(١) فلسفةُ الموضوعِ من حيثُ هو أثرٌ إنساني.

(٢) أسبابُ تكوينِهِ الفَلْسفيةِ عند العرب.

(٣) تأثُّر تاريخِهم الاجتماعي — من انْفرادٍ ومُخالفة.

---

(١) راجع ما سبق.

(٤) نقدُه :

أ) ـــ بيانُ وجوهِ الجمال فيه.

ب) ـــ عيوبُه.

ج) ـــ مقدارُ ما فيهِ من الأَثرِ الروحي لشخصيات أصحابِهِ.

د) ـــ صورةُ العَصْرِ فيه.

(٥) ردُّ كلِّ موضوعٍ الى السَّببِ الفاعِلِ فيه والمميِّز لَهُ، كالغَزَل والمرأةِ، والوَصْفِ والطبيعة، وشرحِ حالةِ السَّبَبِ بكلِّ الوجوهِ المتَقدّمة ـــ ثم تَطبيق ما يوجدُ بعد الإِقامة على ما توفَّر من صفاتٍ.

(٦) هل كانَ ما جاءَ بهِ كثيراً على أحوالِهم وقليلاً ؟

(٧) ماهيةُ التاريخ العربي، ومنزلتُهُ، وتأثُّرُه بالأُمم السالفةِ، وتأثيرُهُ وماهيةُ النَّقْدِ، وما يَنْبغي في نَقْدِ الآدابِ العَربية على الخُصوص من الرُّوحِ التي فَرغَتْ من الطَّرَبِ بهذِهِ الآدابِ، فتَفرّسُ فيها على حقيقةٍ وتفاصيل بين زمن وزمن.

وما الابتكارُ العربي، وما جِهاتُهُ من الدّينِ وغيره.

(٨) الوصفُ الأخلاقي لأصحابِ كلّ من تلك الفُروع، بحيثُ يكون المجموعُ صورة التاريخ الأخلاقي.

(٩) درسُ الطرقِ والأساليب، وهل يمكِنُ استنباط طرُق خاصّة في الأدبِ العربي ؟ كالطريق الطبيعي ونحوها، وما يماثِلُ ذلك على تَقسيم وترتيب.

* * *

إنّ هذا التخطيط الأولي لمنهاجِ البحثِ الذي آثَرَهُ في التأليفِ

والتَّصْنيف، يَتَثَبَّتُ من الموضوعِ، ويَتَوفَّرُ على الفَنِّ، ويُثْمر في الدَّرْسِ والبيانِ ؛ قد يُوافِق أحدَثَ ما وصلَتْ إليهِ مناهجُ البَحْثِ مُجْتَمِعَةً متكاملة، كتلكَ التي يُؤْثِرُها عمر الدسوقي وبقيةُ الدَّراعِمة من تلامذتِهِ ؛ حينَ يجعلُها مُحَصّلةً لمذاهِبِ البيأةِ والتاريخِ والجِنْسِ جميعاً.

إنّ الرافعي ليَقِفُ على مِثْلِ هذه المُحصّلةِ بثباتٍ، ويَتَهَيّأُ لبحْثِهِ ودراستِهِ، على مبدإِ الضَّمّ لا التفريق، من غَيْرِ طمّ ولا رِمّ — على حَدّ تعبيره[1] ويدُلُّ دلالةً واضحةً على مبلغِ العِنايةِ والالتزامِ الذي توخّاهُ في تأليفِهِ (تاريخ آداب العرب).

* * *

كانَ الرافعي قد هَمَّ أَنْ يجعَلَ كتابَهُ هذاك اثني عشر باباً ؛ تَنْطوي على جُمْلةِ المأثورِ، ويدورُ عليها التاريخ، حتى ذَهَبَ الظنُّ بضيفِ الله محمد الأخضر بن مسعود، بأنَّهُ أرادَ ذلك تَيَمُّناً بالعَدَدِ الواردِ في القرآن ﴿ اثني عشر نقيباً ﴾[2] في صفةِ الحواريين والأصحابِ[3]

ولكن ما لبثَتِ المعوّقات المادية، والمواقفُ التي حالَتْ دونَ بعضِ طِماحِهِ، أن قاعَسَتْهُ عن إتمامِ ما كان قد بَدأ بهِ في الجزْئَيْنِ اللذَين اسْتغرقا ثلاثة أبواب حَسْبُ، من ذلك المشروع الجليل. وما زالَ بينَ مَدّ الهمّةِ وجَزْرِ الإِرْجاءِ حتّى لقِيَ وجهَ ربّهِ بعد ربعِ قَرْنٍ من إخراجِ جُزْئِهِ الثاني، وقد خلّفَ وراءَهُ فُصولاً وتفاريقَ من أوراقٍ وإشاراتٍ

---

(١) المعركة — ٧٨

(٢) سورة المائدة الآية ١٢.

(٣) ضيف الله — نثر الرافعي — ٥٣

لِتسعةِ أبوابٍ من الكتابِ الخطير، لم يُصِبْ محمد سعيد العريان منها غير ما أخرَجَهُ في الجزءِ الثالث من أبوابِ الشعرِ والخطابةِ والتأليف، وخرجَ الجزءُ هكذا بَقايا كتابٍ فُقِدَتْ منه فصولٌ وأبواب!.

وكان رحمه الله قد هَمّ غير مرّة أن يعودَ الى الكتاب (ج ١) في طبعةٍ تاليةٍ يَبْسُطُ فيها الكلامَ في بعضِ جهاتِهِ، ويَسْتكملُ أداتَهُ بإيرادِ شواهدَ، ويُتمُّ أجزاءَهُ الباقياتِ أمامَ إلحاحِ المحبّين[1]، وشداة البحث في الآدابِ، ولكنّ الحوائلَ والمعوقاتِ كانَتْ تَصْرِفُهُ عن ذلك العَمَلِ الأثيرِ الى سِواه من أدبِ الإنشاءِ، والمعارك والخُصومات المُفْتَعلة، وأسبابُ الحياة التي عاشها.

ولم أقِفْ على نُسْخَتِهِ الخاصّة ــ التي يمكن أن يكونَ فيها نوعُ تصحيحٍ أو إضافة أو إشارة، وربما ذَهَبَتْ مع مأساةِ مكتبته! فواضَيْعتاه!.

* * *

على الرغم من المآخِذِ التي لُوحِظَتْ على الكتابِ في إيجازِهِ البالغ، وإبعادِهِ الشواهِدَ عن بعضِ الأحكام، وحِرْصِهِ على العبارةِ البيانية في أسلُوبهِ العلمي، وعدمِ إرجاعِهِ القارئَ إلى مباحث في العلومِ الحديثة، فقد كتب في تقويمِهِ نقداً وتقريظاً الكثيرون،

منهم «ميزانُ الأدب» الذي كَتَبَ في جريدةِ (العلم).. وكأنّما لَقِفَ الحقيقةَ كلّها في قولِهِ: «إنّ هذا الكتاب أَمَسُّ الأشياءِ بالأَصْلِ

(١) رسائل الرافعي ــ ١٩٣، وكذلك رسالة ماري يني المؤرخة في ٣ آب/أغسطس ١٩٢٤ م.

الحقيق في تربيةِ الأُمّة تربيةً تجري مجرى فطرةِ الله التي فَطَرَ الناسَ عليها، فلا تَتَبَدَّلُ ولا تَتحول ؛ إذ لا تَبْديل لِخَلْقِ الله، ذلك هو الأَصْلُ القيّم، ولكن أكثرَ الناس لا يعلمون.

قال : « الكتابةُ في تاريخِ اللُّغة وآدابها، واللُّغةُ نَبْضُ الأُمّة — وهي في تركيبها الاجتماعي كالقَلْبِ من التركيبِ الخَلْقي ؛ كِلاهُما أَلْطَفُ شيءٍ وأدقُّهُ، وكلاهما لا تكونُ الحياةُ بدونِهِ.

وبظُهورِ هذا الكتابِ في مِصْرَ، فانَّ الأُمّةَ التي تَعْتَدُّ نَوابغها، أو تدركُ قيمةَ خِدْمَتِهم إيّاها، هي الأُمّةُ التي تحفَظُ التاريخَ للعالم، فانَّ النوابغَ لَيْسُوا في الحقيقةِ إلا أبلغ وأسمى الفُصول في الكتابِ الخالد الذي هو التاريخ »[1].

وكتَبَ شيْخ العروبة أحمد زكي (باشا) في « الجريدة » يقولُ[2] :

« إذا كانَتْ هِمّةُ الكاتب كبيرةً ماضيةً، وعزيمتُهُ مرهفةً، وكان كما انْبَعَثَ من قُوةٍ نَشيطةٍ، ونَشاطٍ قوي، بحيثُ ترى قَلَمَهُ كأنّه فَرْعُ نَفْسِهِ ؛ تَنْبُتُ فيه أزهارُها، وتَنْضَجُ عليه أثمارُها، فذلكَ هو الذي يطاوِلُ ما طالَ من ذلكَ المَطال، ويرتادُ من الأيامِ لما أرادَ من الأقلام، فلا يَقِفُ إلاَّ عندَ حَدٍّ من التاريخ يكونُ حَيِّزاً لعَمِلِهِ، ومكاناً لتحقيقِ أملِهِ، فلا أَكتُمُ قومي أني أحمَدُ الله على أنَّ هذا الكتابَ خَرَجَ للناس من مصرَ،

(١) العلم — ١٥ ربيع الأول ١٣٣٠ هـ — ٥ نيسان/أبريل ١٩١٢ م

(٢) الجريدة — ٣ ربيع الأول ١٣٣٠ هـ — ٢١ شباط/فبراير ١٩١٢ م
وليست (المؤيد) كما ذهب سعيد العريان — حياة الرافعي — ٢٦١

ولم يجئ لمصر من غيرها ؛ فإِنَّهُ دليلٌ من الأدلّةِ القليلةِ التي تُقيم بها البرهانَ الصحيح على نظرية النَّهْضَةِ عندنا ».

وقال أحمد لطفي السيد — بعد مُقَدّمة في (الأدبِ وعِلْمِ الأخلاق) :

« إنّ موضوعاتِ الأَدَبِ هي المنظومُ والمنثورُ، ولا شكَّ في أنَّ قِوامَ هذِهِ الموضوعات هو اللُّغة ؛ من حَيْثُ فصاحةُ الكلمةِ، وبلاغَةُ المعنى، وصحّةُ التركيبِ، ومتانَةُ الارْتباطِ، وجمالُ الأُسْلوبِ ؛ فالبَحْثُ في الأَدَبِ وفي تاريخِ الآداب يَدْعُو حَتْماً الى البحثِ في اللُّغة ؛ التي هي مادةُ نَسْجِهِ، وقَدْ أَحْسَنَ الرافعيُّ إذ قَدَّمَ بين يَدَيْ بحثِهِ في تاريخِ آدابِ العَرب بَحْثاً مُسْتفيضاً في تاريخِ اللّغةِ العربيّة ونَشْأَتِها، أو تفرُّعها وما يتّصلُ بذلك. مما يَدُلُّ على أنَّ المُؤَلّفَ قد ملكَ موضوعَهُ مِلْكاً تاماً، وتصرَّفَ فيهِ تَصَرُّفاً حَسَناً، ولَيْسَ من السَّهْلِ أن تجتَمعَ له الأَغْراضُ إلّا بَعْدَ درسٍ طويلٍ، وتعبٍ عَرَضَ لَهُ في مقدّمةِ كتابهِ.

وأمّا أسلوبُهُ فانّهُ سليمٌ من الشّوائبِ الأَعْجَمية التي تَقَع لنا في كتاباتِنَا، وتاريخُ الأَدبِ مُشَخّصٌ من أقوى مشخّصاتِ الأمة ؛ يربطُ ماضي أجيالِها بحاضِرها، ويُحدّدُ ماهيّتها، ويميّزُها عمّا عَداها، فتَسْتَمرُّ شخصيتها وتَتّسعُ بذلكَ دائرةُ المشابهاتِ بين أفرادِها.. » الخ[1]

وقال محمد فريد وجدي في تقريظِ الجزء الثاني « إعجاز القرآن والبلاغة النبوية » :

« إنَّ نابغتَنا صادقَ الرافعيَّ قد جاز مدىٰ اللّغةِ في الحكمةِ الإسلامية،

---

(١) الجريدة — ١٥ ربيع الأول ١٣٣٠ هـ — ٢ مارس/آذار، ١٩١٢ م

والفَلْسَفَةِ الخلُقيّة، أَدّاهُ إليها ما هو بسَبيلِهِ من إعجاز القرآن، ولو كانَ اقْتَصَرَ على بيانِ إعجازِهِ اللُّغوي لكفىٰ مؤونَةَ هذِهِ المباحث، ولكن همّتَهُ العالية، وبيانَهُ الفيّاض، وقَلَمَهُ المِطْواع، كَلَّفَتْهُ النزولَ إلى هذا الميدانِ فأجادَ، بَلْ أبدَعَ إبداعاً لم يَدَعْ لمُسْتَزيدٍ.

فقد سلكَ في ذلكَ مَسْلَكَ الباحثِ المُدَقّق والمفكّر المحقّق، مُسْتَخدماً له بياناً فاتِناً، وأُسْلُوباً حكيماً، ونَظَراً ثاقِباً ؛ فجاءَ مجموعُ ذلك صَرْحاً أدبياً فَخْماً، جمَعَ بين تاريخِ الأدبِ واللُّغةِ الفُصحى والحكمةِ الصحيحةِ، فلا غَرْوَ إن أحلَلْنا هذا الجزءَ محلاًّ أرفَعَ من المحلّ الذي يجدُرُ بتاريخِ الأدبِ في العادة »[1].

وكتبَه محمد صادق عنبر، ومحب الدين الخطيب والأمير شكيب أرسلان وقال آخرون[2] وما فتئَ الدارسونَ يُشيرون إليه، بما فيهم أولئكَ الذين ادَّعَوْا المُدَّعيات، كطه حسين الذي أشهدَ اللهَ والناسَ أنه لا يفهمه[3]، فقد عاد فأشاد بفطنةِ الرافعي فيه، وما تنَبّه لَهُ من تأثيرِ القصص في نحل الشعر[4] وكذلك إشارته الأخرى الى فهمِ الرافعي في مراجعةِ المصادر، وكيفَ يفنِّد بعضَ ما جاءَ فيها، ويُثبتُ بعضَها الآخر بعلمٍ ودراية[5].

---

(١) الشعب — ١٧ نيسان/ابريل ١٩١٤ م — وإن لم تُرقْ هذه العبارة بعض المحافظين أنظر مجلة المجمع العلمي العربي ج ٤ — ٥٢.

(٢) العلم — ٣ مايو ١٩١٢ م، المؤيد — ١٦ فبراير، ٣ مارس ١٩١٢ م، والمقتطف والهلال والبيان وغيرها، وقد اجتمعت لنا، وهي بسبيلها الى « ذكرى الرافعي » باذن الله.

(٣) الجريدة — ١٠ مارس ١٩١٢.

(٤) في الأدب الجاهلي — ١٨٧،

(٥) من بعيد — ٢٦٢

ولكن عمر الدسوقي هو الذي حلّل تاريخَ الرافعي هذاك، وقوّمَ معلوماتِهِ، وقدّر منهاجَهُ في دراستين أثيرتين[1] غير ما جاءَ تفاريقَ في كتابهِ « الأدب الحديث »، وقد أشرنا إليها في مواضِعَ من هذه الدراسة.

ومصداقُ ما ذَهَبَ إليه الدسوقي في قوله : « إنَّ الرافعي في أبحاثِهِ قد أثْرى لُغتنا الأدبيةَ والدينيّة والاجتماعية، وما يزالُ حتى يومِنا هذا يَنْبلجُ نوراً في ميادينها المختلفة ».

أسرار الإعجاز : كتاب البلاغة

وقد يبقى هنالك كتابُه الفريد في التأليفِ ؛ وهو بحثٌ مُسْتفيض، ودراسة في أسرار الإعجاز البياني للقرآنِ العظيم ؛ أشارَ إليه غيرَ مرّة، وكان شديدَ الاهتمام لَهُ والاحتفال بهِ، والحرص عليه، وقد كتبَ منهُ فصولاً[2] وأملىٰ بعضَ معانيه على بعضِ تلامذةٍ لَهُ ومريدين[3] وضمّن بعض مقالاته الأخيرة على صفحات « الرسالة » شيئاً من تفسيره[4]. ولكن الكتاب نفسه بقي محجوباً حتّى يومِنا هذا !.

وقد حاولتُ جهدي أن أقفَ على أثرٍ لَهُ في بقايا مكتبتِهِ وأوراقِهِ في بيوتِ أبنائِهِ وأبناءِ عمومته، وسألتُ تلامِذَتَهُ الأدنين، وفتَّشْتَ مكتباتهم وأوراقَهم، فلَمْ أفزْ بشيء !.

وكنتُ قد علمتُ من العريانِ قُبَيْلَ وفاته بأيام أنه كَتبَ على الآلةِ

---

(١) مجلة دار العلوم ــ ١٩٧٢ م، الرسالة الاسلامية ــ ٤٨.
(٢) حياة الرافعي ــ ٢٨٩
(٣) أنظر مقالة في (البيان العربي) منسوبة الى يوسف حنا في جريدة الضياء ١٣ يناير ١٩٣١ م
(٤) الرسالة ــ ٧٧ مثلاً.

الكاتبة وأودعَ اثنين من أصفيائِهِ العُلماء لمراجعته[1] وكذلك قالَ نجلُه الدكتور محمود سامي الرافعي.

وقد راجعتُ الأستاذ محمود محمد شاكر — وهو أحد الاثنين — ولكنَّه ذكر أنّه كان قد اطّلع عليهِ في حياةِ الرافعي في إضبارةٍ خاصة، وهو كما جاءَتْ صفتُهُ في كتاب العريان[2].

أرجو أن لا يكونَ الضياع قد احتواهُ مع مأساةِ المكتبة، وأن يكون في إخراجِهِ دالةُ وفاءٍ على الأمة في يدِ أبنائها.

هكذا يمثلُ الرافعي المؤلّفُ الثبت في كتابهِ الجليل، ودراساتِه الأخر، فهو لا يعودُ القهقرى ينسجُ على مِنْوالِ الأقدمين في التصنيفِ والتأليف، وتَلْفيق الرواياتِ، وحَشْدِ المعلوماتِ، أو اختصارِها وابتسارِها — كما آلَتْ إليه حركةُ التأليف عنْدَهم في عصورها المتأخرة، ولا يَنْقطعُ من تاريخِهِ أو يَنْفَصِلُ عن عقيدتِهِ ليجْتَرِح « تلفيقاً » يزعمُ فيه الجِدّة والابتكار ؛ بافْتعالِ مذاهبَ، ولَبْس آراء، وتَصْفيف وجهاتِ نَظَر، وإلصاق إعلاناتٍ تُقْتَطَعُ من الصحفِ، وتُسْتَلُّ من الدراساتِ لتَزْعَمَ التجديد، وتَلْقَف من الترجمة لتقولَ بالابتكارِ — كما هي حالُ بعضِ معاصريهِ في قِطار (المُخْفِقين) ذوي الحُظْوة !.

إنما هو يجِدُّ في كلّ ذلك ؛ يأخُذُ منه أخْذَ العليم الفاحص، ويعرِضُهُ على النَّقْدِ المقوّم، ثم يُجْريهِ مع البَحْث والروايةِ والسَّنَدِ، كأنَّه لِفَرْطِ أخْذِهِ شيءٌ جديد.

---

(١) أحسب أحدهم محمد عبد الهادي — ولم أهتد إليه.

(٢) حياة الرافعي — ٢٨٩.

وبذلك يمثّلُ الحفَاظُ على القِيمِ القوميّة للأُمّةِ، في طريقةٍ من الأخذِ بمقوّماتِ تراثها، ويحفَظُ لها صفاتِها من العِلْمِ، ويُحافِظُ على تاريخها وحَضارتها في الإبْداع بآثارِ ذلك التاريخ، ويَبْعَثُ صفاتِ الأُمّة القومية ؛ بإقامةِ الدّليلِ على مَبْلَغِ ما لَها من العِلْمِ، والتدليلِ على كُلّ أولئك بما تَركَ أبناؤُها لها من تُراثٍ في هذا السَّبيل أو ذاك.

ويجدّدُ لأبناءِ الأُمّة ظروفَ الحياة بهاتيكَ القيمِ والأَعرافِ ــ مهما توالىٰ الزَّمَنُ، أو تحوّلَتِ الأيامُ والأحداث.

وبذلك امتازَ على مُعاصريهِ، فكان المؤلّفَ الثّبْتَ، والمؤرّخَ الصادقَ، والأديبَ البالغَ الأداءِ في جميعِ الموضوعاتِ التي تصدّى فيها للتأليف والبَحْثِ.

* * *

المبحث الرابع

الأديب الإمام

إن الرافعي الذي تعدّدَتْ جوانِبُ شَخْصيتِهِ، كانَ خَليقاً بالدَّعْوةِ التي جَعَلَ نَفْسَهُ ميدانَ تجربتها وقَصْدِها ؛ ليُضحي الكاتبَ الأديبَ الإمامَ، والقُدْوةَ الفاضلَ الذي يعرفُه اليومَ جيلٌ آخرُ من كتّابِ العربيةِ وأدبائِها فاتَهُمُ الحظُّ في مُعاصَرتِهِ، والالتفافِ من حولِهِ، والإفادةِ من غزيرِ علْمِهِ في حَلَقاتٍ دراسيّة، واجتهاد للدَّعْوةِ والتقويم.

وهو نفسُهُ لم يكُنْ يدّعي لنفسِهِ تلكَ المَنْزِلةَ من الاجتهادِ — وإنْ عاشَ عُمُرَهُ يَفْتقِدُها في سِواه[1] — ولكنَّ سيرَهُ الفكري، وإثمارَهُ الأدبي، وفقهَهُ للحياةِ من حولِهِ، كان يرتادُ بهِ المسالكَ إليها بجدارةٍ وقُوّة بأس.

لقد كان مثالَ الإمام الذي لا يُرْضيهِ الاقتداءُ بهِ، أو تقليدُهُ في

---

(١) أنظر مقالته في الزهراء — الربيعان — ١٣٤٥ هـ والأخرى في الرسالة — ١٩٣ —، محرم ١٣٥٦ هـ

اجتهادِهِ، وإنما دأبُه أنْ يجتهِدَ معاصروهُ من حولِهِ، فلا يكونُونَ أقلَّ منه رُتْبةً، ولا أبعَدَ عنهُ منزلة[1].

ومن هنا يظهَرُ لنا مَبْلَغُ تأثُّره بسيرةِ الإمام محمد بنِ ادريس الشافعي، وسلوكِهِ في اجتهادِهِ، ومذهبِهِ في اللّسانِ، والفُتيا، وفقهِ الحياة شِرْعةً ومنهاجاً[2] ــ وإنْ كانَ الرافعي نشأ حَنَفيَّ المذهبِ كأسْلافِهِ من أهلِ بيتِهِ فُقهاء المذهب.

ألا تراهُ شاباً يافعاً يُقَرْزِمُ في الشعر، كيفَ يريد أن يقفَ الشعرُ في مُفْتَرَقِ طرق الحياة ؟[3]، وكيف جَعَلَ الشعراءَ المعاصرين درجاتٍ آنذاك[4] وكيف أراد « أن الأدبيات لا ينبغي أن يُنزَلَ بها الى الأُمّة في مساقِطِها، ولكن يُرتفعُ بالأُمّةِ إليها دَرَجةً فدرجة، كما يُرتَفَعُ بالطفلِ الى الكلام من حُروفِ الهجاء ؛ لأنَّ الأَدَبَ في جملةِ معناه لم يزِدْ على أنّهُ رِقّةٌ في الشعورِ يُقَدَّرُ بها التاريخ، وتُحفَظُ بها الجنسيّة، وما مظاهِرُهُ المختلفة من فنونِ اللُّغةِ وفُروعِ العلم إلا أسبابٌ لذلك الشعور الرقيق »[5].

هو من أوَّل يوم لم يكُنْ ينظُر إلى فِئةٍ يُسَمّونَها « الأدباء » لها ميزاتُها، بقَدْرِ نظرته القومية الى الأمة، وجِنْسِيتها العربية وتاريخها

---

(١) كذلك تحدث « الأنصار » عنه في تلامذته.

(٢) أنظر الرسالة للإمام الشافعي ٤٢ ــ ٤٩، ووصيته للربيع بن سلمان وصحبه (اجتهدوا ولا تقلّدوا) وهامش الشيخ أحمد شاكر خاصّة، وراجع العريان ــ ١٤.

(٣) المنار ــ ربيع الآخر ١٣١٨ هـ.

(٤) الثريا ــ يناير ١٩٠٥ م

(٥) الجريدة ــ نوفمبر ١٩٠٧ م

وخصائِصها. ويُحَدّدُ مذهبَهُ هذاك في وظيفةِ الأديب القوميّة والاجتماعيةِ بمثلِ قوله :

« لا يمكن أن يُقالَ إن الأُمّة تَترقّىٰ بآدابِ لُغتها إلّا بهذا الاعتبارِ ؛ لأنّ رِقّةَ الشعورِ سبَبُ التأثّر، وهو طريقُ الفِكْرِ الاصْلاحي في مادةِ المؤثّر، ومن وراءِ هذا الفكرِ يكونُ التّدْبير الذي هو أولُ أسبابِ الإصْلاح. فالشأنُ إذَنْ، أن يكونَ مُثْمِراً في النفسِ، لا أن يكونَ الأديبُ كأثرِ من نَرىٰ ــ نسْخَةً من رذائِلِ الكتُبِ التي قرَأَها وتأدَّبَ بها »[1].

ويومَ طُلبَ إليهِ أن يُقَرِّظ « حديثَ عيسى بن هشام » للمويلحي، فيكشفَ سِرَّ الفصاحَةِ في الإنشاءِ، كتَبَ يقول :

« يسألُني القومُ : كيفَ يُفْصِحونَ إذا كَتَبوا ؟، وإذا أفْصَحوا فكيف يَتَفنَّنون في تصويرِه؟ وإذا اتّسَقَ لَهُم ذلكَ فكيفَ يَحْتالُون للابْتكارِ وصِحّةِ التخَيُّلِ ؟؛ وإذا أصابُوا أوْجُهَ الحِيلَةِ فكيفَ يَسْتوي لهم أسلوبُ الكتابةِ ؟ وكيفَ يزنُونَ بألْسِنَتهم مقاديرَ الحروف من الألفاظِ، ومَقادير الأَخْلاقِ حينَ يتّفقُ لكُلٍّ خُلُقٍ أسبابُه ؛ فإنَّ الكتابةَ لَيْسَتْ إلا ضَرْباً من الخَلْق والايجادِ. ومتى لم تكُنْ روحُ الكتابةِ قادرةً على خَلْقِ المعاني، فَأَحْرِ بهِ أَنْ يَلْتَمِسَ غيرَ الكتابةِ ؛ فإنّها لا تُواتيهِ، إلّا أن يلتمس أسباب تلك القوة »[2].

---

(١) الجريدة ــ نوفمبر ١٩٠٧ م، وراجع حامد عبد القادر ــ دراسات في علم النفس الأدبي ــ ٤٦ في أثر التداعي بالمعاني عند الكتابة.

(٢). جريدة (العلم) ــ ١٩١٢ م

إنّهُ على الرُّغم من فُقْدانِهِ لمكانِهِ في الجامعةِ آنذاك[1] وعلى الرُّغْمِ من كَوْنِهِ صاحبَ الرأي والفكرةِ في تَدْريسِ آدابِ العرب فيها[2] لم يُعدم الوسيلةَ في الدَّعْوةِ، ولا أضاعَ فُرْصَةً للـرأيِ والاجْتهاد لم يكُنْ له فيها سَهْم الإصابةِ وعنوانُ التوفيق.

لقد أرادَ تربيةَ أدبِ الإنشاء والمُفاصَحةِ في الكتابةِ، وحاوَلَ إعدادَ الأمثلةِ مرّات[3]، حتّى كان آخرُها تلكَ المقالةَ التي صَرَفَ فيها وَجْهَ الحديثِ الى « القمر » ــ وقد جَعَلَ الناشئةَ لا يحتذُونَهُ فَيَنْطَبِعُونَ على غِرارِهِ فحَسْبُ، وإنّما يمكّنُهم من الاتّساقِ في الخيالِ، ويحركُ أجهزَةَ التوليدِ التي تُبْدعُ في المعاني عندَ ذَوي المواهبِ منهم، وتبتكرُ في الأساليبِ، وتَقْوىٰ على البَيانِ، وتَعْتَدُّ بالفكرِ وحُسْنِ الاعتقاد[4].

ذلك أنَّ الأديبَ المفكر، والكاتبَ الفقيهَ، والشاعرَ الثائر هُمُ الرعيلُ المتقدمُ في الفداءِ أمامَ زَحْفِ الأمةِ لاسْتعادَةِ حياتِها الكريمة التي سَلَبَتْها الأيامُ، وقَهرتْها الدهور.

ومن هنا كانَتْ مراحلُ حياتِهِ المجاهدةِ في الأَدَبِ ؛ يجعَلُ من نفسِهِ مجالَ التطبيق في الاجتهاد ويخلُص قُدْوَةً، ويمتازُ مِثالاً، ويَبْدُرُ إماماً في كلِّ هاتيك الجوانبِ والمجالات.

---

(١) كانت علتُهم في ثِقل سَمْعِهِ!

(٢) المعركة ــ ٦٩

(٣) أنظر ما كتبه في الديوان ج ٢ ــ ٦٧٠، وديوان النظرات ج ٩٢ ثم « حديث القمر ».

(٤) راجع كتابنا (الانبعاث القومي للضمير العربي) ففيه تفصيل كبير.

كان يَتحرَّىٰ القيمَ القوميّةَ ؛ يُثْبِتُها في صُوَرِ الحياةِ من الاجْتماعِ الإنسانيّ، يصِفُ فيها المفكرَ الفَيْلَسوفَ في أحلامِهِ وآرائِهِ وَوِجْهاتِ نظرِهِ ــ وقَدْ استبدّتْ بهِ أوضاعٌ لا بُدَّ لَهُ فيها من قُوّةِ ثباتٍ مع إرادَةِ التغيير، وكذلكَ كانَ في « حديث القمر ».

ويتصوَّرُ الإنسانَ العربيَّ في رجولَتِهِ وضميرِهِ ودمِهِ الكريم كيفَ يُحِبُّ ويَعْشَقُ، ويتدلَّهُ ؛ فيُدِلُّ على سموّ الحياةِ بالإيمانِ، وكمالِ هذا الدينِ بالإسلام، ومبلغِ ذلك بإشراقِ البيان[1] كما يَمثُلُ لنا في رسائِلِهِ التي الى الحزن انْتَهَتْ، حتّى استمطرَتِ السحاب الأحمر، وطفقَتْ تخصِفُ عليها من « أوراقِ الورد ».

وهو كأيّ صاحبِ دَعْوةٍ لا بُدَّ لَهُ من المجابهةِ في جميعِ الحالاتِ ــ وعلى جميع المستوياتِ ــ كما يُعَبّرون اليوم !.

ذلك أنّ محاولَتَهُ بَعْثَ العربيّ بخصائِصِهِ القوميّة، وشمائِلِهِ الانسانيّة، وسجاياه، وإعدادَهُ للحياةِ في سُموٍّ بالحبِّ، وامتثالٍ في الصّدْقِ، وأَخْذٍ لحقائقِ العِلْمِ، وإلمامٍ بجوانبِ المعرفةِ، وحِرْصٍ على الفكرِ والتأمُّلِ، وانطلاقٍ بالابتكارِ والإبْداع، وتوفُّرٍ على أسبابِ الفَوْزِ الذي يَحْفَظُ للإنسانِ كرامَتَهُ الإلٰهية أبداً، كانَتِ اللاَّزمةَ الفِكريَّةَ الوثقىٰ لموضوعاتِ أدبِهِ وفنّه.

وكذلك قيامُ هذه الدعوةِ فيهِ قد وسعَ المجابهة أمامَهُ من مُخْتَلَفِ الجهات، وانفتحتْ عليهِ منها ثُغرات ومحاولات ؛ ولكنَّهُ ــ لما في دعوتِهِ من الأصالةِ والعُمْق، وما لأهدافِهِ من الرِّفْعَةِ والامتيازِ ــ ثَبَتَ

---

(١) البلاغ ــ ٨ ربيع الأول ١٣٥٠ هـ ــ ٢٣ يوليو/تموز ١٩٣١ م

لها جميعاً، وكثيراً ما كانَ يُباغِتُها بآرائِهِ وأفكارِهِ الجديدة، حتّى يُذْهِلَها، ويَشْغَلها بِنَفْسها، ويَجْعلَها تدورُ في سواني أبعادِها، وآمادِ نظرِها القاصر.

ومن هنا كانَتْ مواقفُهُ من الحياةِ الفكرية — وهي تَضْطَرِبُ من حَوْلِ المعاهِدِ في أعمدة الجرائدِ وصفحاتِ المجلاّت، وفُصولِ المترجمات ؛ تَذْهَبُ فيها مذاهبَها من الرأيِ الضّليل أو الاختلاطِ، أو تعودُ بألوانٍ من الآدابِ حُرِمَتِ المسؤوليةَ القوميّة في أدائها، أو تتوهّم ما شاءَ لهذا الوَهْمُ والابتعاد.

إنه يقِفُ لهذِهِ وتلك وهاتيك، ويَثْبُتُ لهذا وذاكَ وذلك من التراجمةِ الكتّاب، مواقفَ الناصحِ الأمينِ تارةً ؛ يحاوِلُ كَبْحَ جماحِ المُجازفين بالأحكامِ ؛ مِمّن تختلطُ عليهم الآراءُ والأفكار مثل طه حسين في حياتِهِ الأدبية الأولى[1] فيدعُوهُ ورفاقَهُ بتُؤَدَةِ الواعظ : كَيْفَ ينبغي للأديبِ أن يكونَ في هذا العصر[2]، ثم يُلْقي عليهِ « درساً في المكابرة »[3]، ويحذِّرُه أخيراً من « حِرْفَة الأدب »[4].

ويأخُذُ بيدِ الآخر — الى الصحافَةِ الأدبيّة، ويُغْريه بالترجمة الأمينةِ عن كتّابِ الغرب[5]، ويَرْعى مجلةَ (البيان) بعنايتِهِ وقَلَمه، حتى تشْتهر فيها مقالاتُهُ القومية، ومنها افتتاحيةُ الجزء الأول من سَنَتِها الأولى

---

(١) انظر الزهراء — ربيع الآخر ١٣٤٥ هـ — وراجع محمد سيد كيلاني — طه حسين الشاعر الكاتب.

(٢) الجريدة — مارس ١٩٠٧ م.

(٣) الجريدة — ١٩١٠ م

(٤) الزهور — يونيو ١٩١٣ م

(٥) راجع الأقلام — بغداد — تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦٧ م

التي تُعَدُّ اليومَ وثيقةً عربية باسلةً، يُشير إليها الدارسون بفَخْر وخُيَلاء[1].

بل يخاطِبُ قسّيساً من الفرير كانَ قد عَرَضَ « لكتابِ المساكين » بالتعريفِ والنَّقْدِ[2] ؛ فيضَعُ تَحْتَ علمِهِ مذهبَ القَوْمِ في الخطِّ والإملاءِ وكيفيّةِ كتابهِ الهمزة[3].

مضمار القوة

بعد نكبةِ الأمة في الحربِ الأولى، وضياعِ سُلْطانِها القومي، وتوزُّعِ ديارها أسلاباً بين أيدي المُسْتَعمرين والمغامرين، أدركَ ما كانَ يُعْوِزُ الأمة في ذلكَ الصراع المرير، وهو القُوةُ، بل خَوارِقُ هذهِ القوة ؛ التي تَخْرِقُ هذا المآلَ بالفِداء ؛ لتُعيدَ للأُمّةِ كرامَتها ـــ ولو بأفرادٍ مَعْدودينَ من أبنائِها يَتولّونَ الأَمْرَ بالمخاطرةِ الباسلة، والاستعدادِ للشَّهادة، فكتَبَ في « نوادِرِ القُوّةِ عند العرب »[4] صفحاتٍ جَلّى فيها شواهِدَ في تاريخهم، لها مكانُها في سِجلّ الأحداثِ، ولَها مِيزَتُها في إرادةِ التغيير، وكيفَ كانَ لَهُمْ من الإقبالِ على الحياةِ بالاسْتِشْهادِ تلكَ المواقف والبطولات في معارِكهم التاريخيّة، وفُتُوحِهم التي جَعَلَتْ وَجْهَ الأرضِ عَرَبياً، فكانَ من بَعْدِ الذلّة أبيًّا[5].

---

(١) يحيى حقي ـــ المجلة ـــ ٧٣، ومحمود فياض ـــ الصحافة الأدبية ـــ رسالة اختصاص.
(٢) الأخبار ـــ رجب ١٣٤٥ هـ ـــ ١٠ مايو ١٩١٧
(٣) الأخبار ـــ ١ شعبان ١٣٤٥ هـ ـــ ٢٤ مايو ١٩١٧ م
(٤) المضمار ـــ ٣ ديسمبر/كانون الأول ١٩٢١ م والأعداد الأخرى التالية.
(٥) تاريخ آداب العرب ج ١ ـــ ٧٢

وقد أرسل قولتهُ المشهورة : « وما أراها إلا سَتَنْهَضُ في مصرَ والشام نهضة من يَسْتجمع — تأملْ — وربّما شهِدَ الناس دَهْراً يصلحُ أن يُسمّىٰ فيه ما بين العراق والأطلنطيق « جمهورية اللّغة العربية » وما هُو ببعيدٍ والله غالبٌ على أمره »[1]. وقد أضحَتْ اليوم شعارَ القوميّة العربية، وميدان جهادِها، وهدَفَ كَدْحِهَا، ونضالِها عن قيمها الموحّدة وإشراقِ دولةِ العرب !.

ومضى كذلك يحاوِلُ أن يُتمَّ ما كانَ بَدأهُ في « تاريخ آدابِ العرب » وما فاتهُ من فصولِه وأبوابِهِ الوساع ؛ يَدْعو الى القُدوةِ الحسنة، والأُسْوة بأولئك الأمجاد الأفذاذِ العظام.

ثم كانت نُقْلتُه الأخرى — وهو يفسر دينَ الإخلاصِ بحبّهِ، ويكشِفُ عن أسرارِ ذلك الحبّ في القَلْبِ العربي المؤمن، وكيفَ زكّى الاسلامُ الحنيف هذه العاطفة الانسانية النبيلة، فحفِظَها على أصحابِها ساميةً لا تلتاثُ، متميزةً بالرِّفْعَةِ التي تَنْشُدُ الكمال أبداً[2].

ثمّ وقفَ يَترصّد الطَّيْشَ والغُرورَ في مجازفاتِ التأليفِ والتَّلْفيف التي ولعَ أصحابها بالانْزلاقِ في متاهاتِ الأفْكار الضّليلةِ والآراءِ غير المُسْتقيمة — وكانَتْ لَهُم أقوالٌ في القرآنِ وتاريخهِ، والعقيدةِ وأبعادِها، والعُروبةِ وأبنائِها، والنظامِ وآياتِه — إذ جالَ في الذبِّ عن الحياضِ جولاتِهِ المُخاطرة، فكانَ لَهُ على الأمّةِ دَيْنُونةٌ سابقة، أدركَ بعدَها حقيقةَ المأساةِ

---

(١) الهلال — شباط/فبراير ١٩٢٠ م — ٤٠٠

(٢) سيرد في فصل آخر.
وقد يعجب المرء كيف تجري على لسانه هذه الكلمات والأمة في مختلف أقطارها تأرجح بين الولاية والسلطنة وأحلام المماليك.

التي تمثّلتْ في ضيَاعِ « الخلافة » وانفراطِ عِقْدِ الوحدة القوميّة، وذهابِ الآراءِ بَدَداً في مُخْتَلَفِ الاتّجاهاتِ، هائِمَةً على وَجْهِها، لا تَحْمِلُ تبعةَ إبدائِها، ولا هَمَّ لها في بيانِها، كأنّها مَعْدُومة المَسْؤُوليةِ والضمير.

« ونجمَتِ الناجمةُ من كلِّ عِلّة، ثم نُوزِعَ الأدبُ العربي الى سُخْرةِ التقليدِ، وإلى أن يكونَ لَصيقاً دَعِياً في آدابِ الأمم، واستهلَكَهُ التضييع وسُوء النظرِ له »[1].

الإمامة

لم يزَلْ يبحَثُ عن العِلّةِ الرئيسةِ في ذلكَ حتّى ظَفَرَ بها عند قولِهِ :

« يرجعُ هذا الخَلْطُ في رأيي الى خُلوِّ العَصْرِ من إمامٍ بالمَعْنىٰ الحقيقي يَلْتقي عليه الإجماعُ، ويكونُ مِلْءَ الدَّهْرِ في حِكْمتِهِ وعَقْلِهِ ورأيِهِ ولسانِهِ ومناقبِهِ وشمائِلِهِ ».

والإمامُ عنده « يُنْبِتُ في آدابِ عَصْرِهِ فكراً ورأياً، ويزيدُ فيها قُوّةً وإبداعاً، ويزينُ ما فيها بأنَّهُ في نهايتِهِ، ومُسْتَقْبَلَها بأنّه في بِدايتِهِ ؛ فيكونُ كالتَّعْديلِ بين الأزمنةِ من جهةٍ، وبينَ الانتقالِ فيها من جهةٍ أخرىٰ » ؛ لأنّ هذا الإمامَ عندَهُ « إنما يُختارُ لإظهارِ قُوّةِ الوجودِ الإنساني من بَعْضِ وجوهِها، وإثباتِ شُمولها، وإحاطتِها كأنه آيةٌ من آياتِ الجِنْسِ[2] يأنَسُ الجنْسُ فيها الى كمالِهِ البعيد، ويجِدُ في قومِهِ الاسْتطالةَ التي لا يُعازُ عِنْدَها مُبْطِلٌ بعناد، والحقيقةَ التي لا يُكابِر فيها

(١) الزهراء ــ ربيع الأول ١٣٤٧ هـ

(٢) يريد خصائص القومية.

متنطّعٌ بتأويلٍ، والصاخّةَ التي لا يَرُوغُ فيها متعسّفٌ بحيلَةٍ »[1].

وهذِهِ الخصائصُ بحقائِقها ودقائِقها كانَتْ فيهِ هو، ولكنَّهُ للحياةِ التي كانَ يحياها موظفاً في حكومةٍ ــ كان كالذي يحاوِلُ إبعادَها عن نفسِهِ في اجتماعِ صفاتها..

ألا تراهُ بعدَ ذلك ــ وقد جرىٰ على لسانِ يُوسف حنّا نعتُهُ بعبارةٍ لم يَقُلْها هو، وإنّما رُويَتْ عنهُ مبالغةً هكذا : « يخيَّلُ إليَّ دائماً أنّي رَسُولٌ لُغَوي، بُعِثْتُ للدفاعِ عن القرآنِ ولُغته وبيانِهِ »[2] يقولُ :

« أنا لم أَقُلْ هذا، ولَمْ أعتَقِدْها مُطْلَقاً ؛ ومن أجلِ ذلك أثّرتْ فيَّ هذه الكلمةُ تأثيراً عظيماً، وعدَدْتُها إنباءً من الغَيْبِ، واعتَقَدتُها ؛ لأن الزَّمَن أصبح فارِغاً.

وقد أصبَحْتُ أعتَقِدُ أنّ الأحوالَ سَتُيسّرُ إنْ شاءَ الله، وأستطيعُ الخروجَ من الحكومةِ، وإلاّ فكيفَ تُوَدّى الرسالةُ يا ترى ؟ أَرَسولٌ وموظف في الحكومة ؟!»[3].

* * *

إنَّ إمامةَ الرافعي للأدبِ العربي قد أقرَّ بها معاصروهُ بشكلٍ ما، وكانَ أسْبَقَهم الى بَيْعَتِهِ بها الأميرُ شكيب أرسلان مُذْ يَوْم أرسَلَ إليهِ

(١) الرسالة ــ ٤٣.
(٢) الرسالة ــ ٤٣
(٣) رسائل الرافعي ــ ٢٢٣

وخاطَبَهُ، ومنذُ عرّفَ بكتابهِ الجليلِ (تاريخ آداب العرب)[1] حتّى المعركةَ الاعتقادية التي ظاهَرَهُ فيها[2].

وخاطَبَهُ بمِثلها أميرُ شعراءِ العربية أحمد شوقي ـــ على ما كانَ بينهما من مُنافَسَة ـــ[3].

وقد عدّهُ ابراهيمُ عبد القادرِ المازني « أعْلَمَ أهلِ العربية بتاريخها وفنون آدابها[4]. كما عدّهُ عباس العقاد من أفذاذِ أدباء العرب[5] واعتَرَفَ له طه حسين بالفِطْنَةِ، ونظر إليه (من بعيد) إنصافاً يذكرُهُ بالحُسْنىٰ في بحثِهِ عن كلمةِ « أدب » وأطوارِها، وكيفَ كان يقرأ ويَفهمَ، ولا يأخُذَ أو ينقل إلا ما يحتاجُ إليه، وأقرَّ بها مُخالِفاً أيضاً[6].

وكذلكَ أرّخَ لَهُ الأستاذ عمر الدسوقي في الأدبِ الحديث، وأشارَ الى هذِهِ الإمامةِ حين قال :

« كانَ الرافعي ذا مذهبٍ في الأُسْلوبِ له أتباعٌ ومعجبون، ومُعْظم أتباعِهِ من هؤلاءِ الذين يَرَوْنَ برأيَهُ في الحياةِ المُعاصرة، ويَقيسُونَها بمقياسِ المُثُل العربية »[7].

---

(١) المؤيد ـــ غرة ربيع الأول ١٣٣٠ هـ

(٢) المعركة ـــ ٣١ ورسائله الخاصة.

(٣) رسالة خاصة في تموز/يوليو ١٩٢١ م

(٤) الحديث ـــ الحلبية ـــ ٦ ـــ ١٩٣٧ م، وكذلك أمين حافظ شرف ـــ الشعب ٢٤ يوليو/تموز ١٩٥٧ م

(٥) الرسالة ١٣ مارس ـــ ١٩٤٣ م

(٦) من بعيد ـــ ٢٦٢، حديث الأربعاء ٣ ـــ ٥.

(٧) نشأة النثر ـــ ١٠١

وبلهجةِ الناقدِ الحصيف يُرْدِفُ القولَ بحكمٍ يَسْتوفي الحيثيّات، ويَصْدُقُ في البيان : « .. وقد حاولوا أن يُقَلِّدُوهُ في أسلوبِهِ، ولكن أحداً منهم لم يَصِلْ الى ما وَصَلَ إليهِ من الصُّوَرِ البيانية، وغايةُ ما وَصَلُوا إليهِ هو مُحاكاة ذلك الأسلوبِ الجَزْل القوي الخالي من الأساليبِ الأعجمية »[1].

والإمامةُ في الأدبِ بعدُ واجبةٌ من الناحيةِ الاعتقادية، تكونُ قُدوةً ومذهباً في أدبِ الأمة، ولا سيّما في مثلِ حياتِنا الفكرية التي نُعاني من مضاعفاتٍ فيها وإفرازاتٍ منذُ اضطَرَبَتْ بنا ساريةُ الأيام، وهي كالخِلافة ــ الإمامة العظمىٰ ــ التي لا بُدَّ منها للأُمّة الاسلامية لحفظِ وَحْدتها والتحوّط لها.

« وقد طُبِعَ الناس في بابِ القُدرةِ على غَريزةٍ لا تَتَحول ؛ فمن انْفَرَدَ بالكمالِ كانَ هو القدوةَ، ومن غَلَبَ كان هو السمت، ولا بُدّ ممّن يَقْتاسُونَ بهِ ويتوازَنون فيهِ، حتّى يَسْتقيموا على مراشِدِهم ومصالِحهم »[2].

والإمامُ بعدُ « إنسانٌ تُتَخيَّرُ بعضُ المعاني الساميّة لتظْهَرَ فيهِ بأسلوبٍ عمليّ ؛ فيكونُ في قومِهِ ضَرْباً من التربيةِ والتعليمِ بقاعدةٍ منتزعةٍ من مِثالِها، مَشْرُوحةٍ بهذا المثالِ نفسِهِ » قال : « ولَعلَّ ذلك هو حكمةُ إقامةِ الخليفةِ في الإسلامِ ووجوبِهَا على المسلمين، فلا بُدَّ على هذهِ الأرض من ضَوْءٍ في لحمٍ ودَم »[3].

---

(١) تطور المقالة ــ مقال مرسل الى الحامعات الأميركية.

(٢) الزهراء ــ ربيع الأول ١٣٤٧ هـ.

(٣) الرسالة ــ ١٩٣ ــ ٢ محرم ١٣٥٦ هـ

ومن هنا ندركُ أيضاً سِرَّ تشبُّثِ الرافعي بالوحدةِ الاعتقادية والقوميةِ للأمة، وإيثارهِ لها في مفهوماتِهِ الفكرية والأدبية، وفي الفصلِ التالي ندرسُ «الموضوعات المحدثة في أدبِ الرافعي» لنقِفَ على شواهِدَ من هذِهِ الصفات التي عَرَضنا لها.

* * *

على أنّ إحاطةَ الرافعي بالعربيةِ وفُنون آدابها ومُفْرداتها وعَجائبها لا مثيلَ لَها في تاريخ آدابِ العرب، وما عُرِفَتْ لغيرِه[1]. والعجيبُ أنَّه جاءَ في تطوّرٍ أدبيّ فريدٍ بَعْدَ زمنٍ نَزَلَتْ فيه اللُّغة، وركّتِ الأساليب، واستحْجرتِ البلاغةُ، والتاثَتْ صُوَرُ البديعِ، فكان كالمَنْبهةِ على ثباتِ هذِهِ اللُّغةِ المُعْجِزةِ وانبعاثِها كلَّ حين.

ما افتقده كان فيه

ولعلَّ أوّلَ ما في الإمامِ من دَعْوتِهِ أن يكون سريعَ التأثير في مُريديهِ ومناوئيهِ بشكلٍ ما، ولو تحرّينا هذه الناحيةَ النفسيّةَ فيهِ، لوجَدنا أنّ الرافعي في الوقتِ الذي يتأثّرُ بالعصرِ تأثّرَ مُفاعَلَةٍ يطْبَعُ هذا التأثير بشخصيتِهِ، حتى لا يمكنُ فَصْلُ الرأي يأخذُهُ عن سِواهُ، فيطعمُهُ أدبَهُ وفنَّهُ عن رأيٍ آخر يقولُ بهِ هو.

وما كان للرافعيّ من تلامذةٍ يتحلَّقون حولَهُ فقليلٌ، ولكنَّهم كانوا

---

(١) أمين شرف — الشعب — السابق

يَلْقَوْنَهُ في كُتُبهِ وعلى صفحاتِ الجرائدِ والمجلات[1] والمقرّبون إليهِ أصدقاءٌ مريدون، ولكنَّهُ كان يؤثّرُ في هؤلاءِ وأولئكَ ؛ فتنطبعُ بَعْضُ سجاياهم، وفنون كتاباتِهم، كما يؤثّرُ في قُرّائِهِ تأثيراً يأخذُهُمْ بالإحساسِ والوجدانِ[2].

ولم يكُنْ يهمِلُ خُصُومَهُ، وإنّما يقدمُ لَهُمْ من بناتِ أفكارِهِ آراءَ وأمثلةً من الأدبِ الهادفِ الذي يُجدّدُ حياةَ الفِكْرِ، ولا يجورُ على أصولٍ، وقد أَقَرَّ بذلك أعتىٰ خُصومِهِ كالعقّادِ وطه حسين[3]. وهكذا الإمامُ هدفُه الإصابةُ، وغايتُهُ أن يُوَفّق باجتهادِهِ من يخالفُهُ النظرة.

وقِوامُ الدَّعْوةِ ثَباتُ الأَخْلاقِ، ولا أدلَّ على تَقْوَىٰ الرافعي من صبرِهِ على حياتِهِ الخاصّة، وكيفَ كانَتْ عليه من الالتزام الذي لم يَعْرِف النفاقَ يوماً :

« أنا رَجُلٌ ليسَ فيَّ أكثر مما فيّ، كالنجم يَسْتَحيلُ أَنْ تجدَ فيهِ المُسْتَنقعَ، فما أعرِفُ من طبيعتي مَوْضِعاً للنفاقِ تَتَحوَّلُ فيهِ البَصَلَةُ الى تُفّاحة، ولا مكاناً من الخَوْفِ تَنْقَلِبُ فيه التفاحةُ الى بَصَلة »[4].

وقد يَضْجَرُ أحياناً، ويَضيقُ، فيقولُ : « ما أشدَّهُ مَضَضاً أُعانيه !؛

---

(١) ج.م. ــ القاهرة ــ ١١ مايو ١٩٥٨ م

(٢) الحق اني لأَعْجَبُ من دعوى سيِّد قطب أنه كان يُكرِهُ نفسَهُ على أدبِ الرافعي، فتزداد كراهيتُه لَهُ. الرسالة ــ ١٥ نيسان/أبريل ١٩٣٨ م. وهو الذي اقتفى أثَرَهُ في « التصوير الفنّي في القرآن »؟!

(٣) راجع ما سَبَق وكتابُنا « الرافعي الناقد الأديب ».

(٤) الثريا ــ فبراير ١٩٠٥ م. وللنجم معنى السموّ عند العرب، وقد أتّخذه الرافعي عنوان اعتدادِهِ بنفسه.

إنّ عُمري ليذْهَبُ فُرُطاً ؛ أكلّما ابتغَيْتُ من الحياةِ مَرَحاً أطربُ لَهُ واهتزّ، جاءَتْني الحياةُ بفكرةٍ أستكدُّ فيها وأدأَبُ ؟!

أهذا السُّرورُ الذي لا يَزالُ يَقَعُ بين الناس، هو الذي لا يَكادُ يقع لي ؟!

وهل أنا شَجَرةٌ في مَغْرِسِها ؛ تَنْمُو صاعِدةً بفُروعِها، ونازلةً بِجذُورِها، غير أنّها لا تبرَحُ مكانَها ؟!

وتَقولُ له نَفْسُهُ : أنْتَ كالنائمِ ؛ لَهُ أَنْ يرىٰ، ولَيْسَ له أن يَأْخُذَ شيئاً مما يَرىٰ إلّا وصفَهُ وحكمَتَهُ، والسُّرورَ بما التذَّ منه، والألَمُ توجَّعَ له »[1].

وهكذا صاحبُ الدَّعْوةِ أبداً ؛ يَبْدُو في غُرْبتِهِ حتّى مع نفسِهِ، ولَعلَّ غربتَهُ التي يحكيها مُعاصروهُ كانَتْ من هنا أيضاً. حيثُ جَعَلَتْ منهُ الصراحةُ إنساناً حادَّ المِزاج، حُلْوَ الصَّداقَةِ، قد يَفْرُطُ في العداوةِ، ولكنّهُ يريدُ الرجولةَ والثباتَ على الاعتقادِ لذلك الخصم[2] وهو « يُحِسُّ منذُ الصّغَر أنّهُ رجلٌ هَرِم، أو كما يَقولُ في تعليلِ ذَكاء الأذكياء ؛ أنَّهُم يتذكرونَ ما يَرَوْنَهُ، ولا يَتعَلّمونه ؛ لأنَّ فيهم نُفُوساً خَرَجَتْ من الدنيا كاملةً، ثم رَجَعَتْ لتزداد كمالاً »[3].

وقد يكفي هنا أن نُورِدَ مثلاً من حياتِهِ مع الناس، كموقِفِهِ من المَنْفلوطي ــ مصطفى لطفي ــ أحدِ معاصريهِ الذي كان يُقَرّظُه ويَهْتِفُ

---

(١) الرسالة ــ ٧٤.
(٢) من رسالته الى اسماعيل مظهر ــ انظر المقتطف ٩١ ــ ١٩٣٧ م ــ ٢٠
(٣) رسائل الأحزان ــ ٤٨

له[1]. فلما ظَهَرَتْ مقالةُ « الثريا » في درجاتِ الشعراءِ، ورأىٰ نفسَهُ دونَ ما هو عندها، شَمّر لها فكَتَبَ ينقُضُ المقالةَ، ويتناوَلُ الرافعي بما شاءَ من القَدْحِ والذّمِّ، حتى جرّدَهُ من الألفاظِ والمعاني جميعاً[2]. فما كانَ من الرافعي إلّا أن يقدّمَ وصفَ المنفلوطي لَهُ بين يَدَيْ كلمةٍ في « المنبر » كذلكَ الفيلسوف الذي أكَبَّ على قَدَمي الملك — وقد رأى أذُنَيْ رأْسِهِ في رجليه[3].

ثم اطَّرَحَهُ، ولم يَعُدْ يكلّمُهُ، لأنَّهُ لا يَتَمسَّكُ بشيءٍ كالأخلاقِ، فلا يرجعُ عن كلمةٍ يقولُها[4] فلمّا ماتَ المنفلوطي لم يَرْضَ من أحدِ مُقَرَّبيهِ أن يَذِمّه وقال له :

« إتّقِ اللهَ في ما كَتَبْتَ عن المرحوم المنفلوطي — واذكروا محاسنَ موتاكم »[5].

وموقفُه من أحمد شوقي — وقد كان يَسْعىٰ في إيذائِهِ وصدِّهِ عن وجوهٍ يحظىٰ فيها بنوعٍ امتياز[6] وكيفَ وفّاهُ الرافعي حقَّهُ بعد موتِهِ[7].

وكذلكَ موقفُهُ مع بعضِ خصومِهِ الآخرين، كالعقّادِ، فقد رضي

---

(١) مختارات المنفلوطي — ٢١٥.
(٢) سركيس ٩ — ١٩٠٦ م
(٣) الرسالة — ١٠٩ — وحي القلم ٣ — ١٩٣.
(٤) رسائل الرافعي — ٤٢
(٥) رسائل الرافعي — ١٠٨
(٦) رسالته الى الخطيب في ٢ شوال ١٣٤٧ هـ
(٧) المقتطف — ٨٣ — ١٩٣٢ م — ٣٨٥، الرسالة — ١٢١

أنْ يَصْطلِحَ مَعَهُ، ويَطْوي صفحةَ اللّجاجة والمُشاكسة، ولكنّ الموتَ تَخَطَّفَهُ فلم يَقَعْ ذلك الذي راودَ الكثيرين[1].

أمّا مواقفُهُ من الموضوعاتِ والمَثارات الفِكريّةِ والأدبيةِ وحكايةِ المرأةِ والحضارةِ والتجديد وما إليها، فهي بعدُ معروفَةٌ وقد مرّتِ الإشارةُ إليها في فَصْلِ الفنون. وكيفَ كان يرعى قِيَمَ الأمّةِ، ويَسْعى بأعرافِها — وإنْ حاوَلَ غمطَهُ المُبْطلون.

* * *

لم يكتفِ الرافعي بجوانبهِ الأدَبيّةِ ومَواقِفِهِ الفِكريّةِ، ودعوتِهِ العربية المُؤْمنةِ التي أثْبَتَ فيها وجودَهُ في فنّهِ، وطَبَعَ شخصيتَهُ في آثارِهِ، وميّزَ النَّفْسَ الإنسانيةَ في أنواعِ الكتابةِ والشعرِ والنَّقْدِ، وأبانَ عن أثرِها في ذلك كلّه — وهو يحفَظُ على الكتابةِ أصولَها البيانيّةَ، ويَزيدُها رَوْنقاً من المقَابلَةِ، ويَبْعَثُها في الابتكارِ فكرةً ومنهاجاً، ويُشْرِقُ فيها بذلك الاسْتطراد، والاسْتغراق المَوْضوعي الذي يَلِدُ به المعنى معاني أخرى ؛ فيخْلَعُ على العربيةِ سِمَةَ العطاءِ الثَّرّ والكرم والسَّخاءِ، والتجديد بالجُودِ والثناءِ.

وإنما جاوَزَ تلك الآماد الى فُنونِ الكتابةِ نَفْسِها ؛ يَزيدُ فيها، ويُدْخِلُ إليها من الموضوعاتِ والمعاني ما كان وَقْفاً على الشعرِ وبعضِ فُنونه خاصّة، أو ما هي بجلالِ الخطابة أليقُ، أو فيما لم يكن لَهُ مجالٌ

---

(١) أشار الى ذلك العقاد — بيني وبين الرافعي — الرسالة — ٢٤٠
وقد حدثني بذلك الزيات رحمه الله ومحمود محمد شاكر — وهو صاحب الدعوة.

معروف في ماضي الأَدَب العربي ولا حاضِرِهِ، وإنما هو جلاءٌ لمادَّتِهِ، وصِقالٌ لمعانيهِ واسْتِغْلالٌ لجوانَب جديدةٍ يمكِنُ أن تَتَّسعَ فيهِ، أو هو يُثْمرُ فيها.

الانبعاث

ولعلَّ الرسالةَ الفِكريّةَ التي حَمَّلَها أدبَهُ، ونَهَضَتْ بها دَعْوَتُهُ، واستمزَجَتْ إرادةَ التغيير في الأُمّةِ، لم تكُنْ تقتصِرُ على جوانبِ الأَدبِ فحسبُ، أو تُلِمُّ بالاجتماعِ فقط، وإنما كانَ يمضي مُخاطِراً بها أكثرَ وأكثر، حينَ يَلْتَفِتُ إلى بَعْضِ الأَوْضاعِ القانونيّةِ المَجْلُوبةِ للاجْتماعِ المُختلط (الجديد) فيناصِبُها الخُصُومَةَ التي تُنبّهُ على المخاطِرِ، والمُعارضةَ التي تُريد الإصلاح، والإثارةَ التي تَجلِبُ المنفعةَ، ومن ذلك قولُهُ :

« الحقيقةُ التي لا مِراءَ فيها أنَّ فكرةَ الفُجُورِ — وما دامَ القانونُ هو أباحَها بشروطٍ، فهو الذي قَرّرَها في المجتمع بهذِهِ الشروط !.

وآفةُ هذِهِ القوانين أنها لم تُسَنَّ لمنعِ الجَريمةِ أنْ تَقَع، ولكن للعقابِ عليها بعد وقوعِها، وبهذا عَجِزَتْ عن صيانَةِ المَرْأةِ وحِفْظِها، والحقوقِ وأَهْليها.

وبخلافِ ذلك الدّينُ — فإنَّهُ قائمٌ على منعِ الجريمةِ، وإبطالِ أسبابِها »[1].

---

(١) الرسالة — ١٢٠، وحي القلم ١ — ١٢٠.

وهي قولَةٌ تَذْهَبُ بَعيداً في الجَرْأَةِ الى نقدِ الأَوضاع القانونيّةِ، وكيفيةِ الأخذِ بها على تلكَ الصُّورةِ الشوهاءِ التي وَفَدَتْ بها على حكوماتِ الانْفصال والتبعية في الديارِ العربيّةِ الإسلامية، وقد جَعَلَتْ جمالَ الدين الزرقاني يتناوَلُ (قانون العقوبات) بالدَّرْسِ والتحليل ؛ فيكشِفُ عن المباءاتِ الجنائية التي يُقَرِّرها وفق تلكَ الشروط[1].

أجلْ كانَ الرافعي كذلك أديباً مفكّراً، وإمامَ دَعْوةٍ تحمّلُ الأَدَب العربيّ رسالةً جديدة في الإصلاحِ الذاتي، والقيامِ الاجتماعي، والانبعاثِ بالسّماتِ الفِكْريّةِ والاعتقاديّةِ، وتلك هي نهضةُ التَّجْديد، وعطاءُ القوميّة، ومجالُ المُعاصرةِ والاتّجاه.

وقد خَلَعَ على الكتابةِ العربية من حُلَلِ البيانِ الجديد بإعادةِ إنباتِ الكلمةِ المُعْجَميّة في العبارةِ الوليدة، والجُمْلةِ التي تَحْفِلُ بالصّياغةِ تَقْديماً وتَأخيراً في موضوعاتِها ومنصوباتِها ومجروراتها اهْتماماً بالمُتَقَدّمِ، أو الْتزاماً بوَقْعٍ نَفْسيٍّ خاصٍّ يُحِسُّ بهِ المَرْءُ في جَوّ العبارةِ وجَرْسِ الحَرْفِ.

ويتألّفُ الكتابةَ الجديدة من بَعْدُ على معانيها المُبْتكرةِ وما يَحْضُرُ العَصْرَ من معارفَ وعلومٍ ومخترعاتٍ، كأنَّه يُتْبِعُها حضارةَ العربيةِ نَفْسِها !.

ألا تَراهُ في إيرادِهِ لمعاني (الكَهْرباء) وآثارِها، وعَجائب المُخْتَرَعات فيها مثَلاً، والإشارةِ الى نظريّاتِ تفسيرِها، كيفَ يجعَلُ نظريةَ (السيل الإلكتروني) بعضَ معاني وصفِهِ في رسائلِ الأحزان، فيقولُ من ثَمَّ[2] :

---

(١) الرسالة — ١٣٢ — ٧ شعبان ١٣٥٤ هـ

(٢) رسائل الأحزان — ٥٣

سَيّالةُ الأَعْطافِ أينَ ترنَّحَتْ تُطْلِقْ لكَهْربَةِ الهَوىٰ سَيّالَهـا

أو أَخْذِهِ لِتُفّاحَةِ « نيوتن » وكتابتِهِ رسالةً أخرىٰ في الجاذبيّةِ يقول فيها :

« ما الوجودُ إلّا انْسِيابُ قوى المادّةِ بعضُها في بعضٍ، وفي هواكِ تَنْسابُ القوىٰ من روحِك في روحي. فالأصلُ الذي بُنيَ عَلَيْهِ الكونُ في منافِعِهِ بَنَيْتِ أنتِ عليهِ محاسِنَك كأنّما هو يَعْرِضُ قوانِينَهُ التي لا تُحَسُّ ولا تُرىٰ في صُورةٍ منكِ تُحَسُّ وتُرىٰ، وتزيدُ على الرؤيةِ أنها آخرُ حدودِ العِشْقِ، وعلى العِشْقِ أنها أَوَّلُ حدُودِ العبادة »[1].

ويَمْتَدُّ الى علمِ تكوين الأجنة «Embryology» يُديرُ عليهِ تَفْسير آية[2].

أو يَلْتَفتُ إلى الكيمياءِ يَسْتجلِي المزجَ فيها لاسْتخراجِ صِفَةٍ إِلٰهيةٍ في النبيّ ﷺ[3].

وقد يَعُودُ الى الذرّةِ فَيجدُها في قَلْبِ كُلّ إنسانٍ معنى من الأزلِ ؛ لأنَّهُ كان ذرّةً في يدِ الله، بَيْدَ أنَّ هذه الذرّة تُمْحَنُ في بعض الناس أنواعاً من المِحَنِ، فتُصيبُ مثقالَ ذرّةٍ من حَسَنةٍ من رَجُلٍ حَقير، وتَزّايَدُ في بعضِ الناس وتَنْتفخُ فإذا هي في وَزْنِ الجبلِ الراسخِ بأعضادِهِ المُترامي بنواحيهِ »[4].

وهناك معانٍ من فنونِ الوَصْفِ والغَزَلِ والنَّسيب يَسْتأثِرُ بها الشعرُ

---

(١) أوراق الورد ــ ١٠٧

(٢) إعجاز القرآن ــ ٢٢١

(٣) الرسالة ٩٣ ــ ١٣٥٥ هـ ــ راجع الكتاب النبوي، الماثل للطبع

(٤) إعجاز القرآن ــ ٢٢١.

عاطفةً ووجداناً ويألَفُها فيهِ الغناءُ، وتُحَلِّق بها الأَنْغام أو تَنْفردُ بها الأَوزانُ والألحان، ولكنَّ الرافعي استطاعَ أن يجعَلَ للنثرِ أيْضاً تلكَ المكرُمَة، ويخلَعَ على الكتابةِ من فيضِ إلهامِهِ وذَوْبِ عاطفتِهِ وأثناءِ ذكائِهِ حُلَلاً جديدةً يرفُلُ فيها، ويَسْتَرْسِلُ مع الشعرِ في الوجدان الإنساني.

وهي صفحاتٌ وفقرات، وجمَلٌ وعبارات إن فاتها التَّنْغيمُ واللَّحْنُ، ولم تَرْتَفعْ به العَقائِرُ فإنَّ لها من الوَزْنِ ما يجعَلُ للقراءةِ فنًّا من التأمُّلِ والاسْتغراقِ لا تَتِمُّ تمامُها إلا بهما، فلا يَسْتطيعُ المرءُ أنْ يُضيفَ كلمةً أو يخترِمَ أخرى في جملةٍ مما يكتبُهُ في تلك الشؤون[1].

* * *

من هنا كانَ لَهُ ذلك المرمىٰ البعيدُ في دراسةِ عُلُوم العربيّة مُجَدّداً، وجَعَلَ قواعدَها أقربَ إلى الواقعِ الحقّ والعَدْلِ، والالْتزام بالقرآنِ ونَظْمِهِ، وجَعَلَ آياتِهِ شواهدَ لتثبيتِ تلكَ القواعد، والابْتعاد عن مُحاولاتِ الأَقْدمين الذينَ يَسْعَوْنَ وراءَ الشذوذِ، ويَتَلَقَّفون شواهدَ مُخْترعةٍ من أفواهِ رواة.

وقد دارَ مرّةً مع عُلماءِ النحو دَوْرةً رأىٰ فيها أقوالَهُمْ ساقِطةً، وقاعِدَتهم مُنْهارةً « وأن أساسَ رَفْعِ جوابِ الشرطِ مع شرطِهِ الماضي ــ الذي بُنِيَتْ عليهِ قاعدةٌ من السَّماعِ المجهولِ القائِلِ، لم يَأْتِ بهِ أحدٌ، وأنَّ الأصْلَ الصحيح ــ الذي هو القرآنُ الكريم ــ ينكرُ هذهِ القاعدةَ، فلم يأتِ بها مرّةً واحدة »[2].

(١) يوسف حنا الضياء ــ ٢٠ يناير ١٩٣١ م

(٢) المقتطف ــ فبراير ١٩٣٣ م

ورأى أنّ عِلْمَ المنطق كعِلْمِ البلاغةِ، لا فائدةَ في كِلَيْهما لِمَنْ لا يَسْتَطيع أن يكونَ مَنْطقيًّا أو بَليغاً بدَرْسِهِ وبحثِهِ[1] وكذلكَ كان رأيُه في مخترعاتِ الأعاجمِ من مُصْطلحاتِ البلاغةِ.

ولَعَلَّ من أغربِ مذاهبِهِ في تفسيرِ بَعْضِ أوضاعِ الأدب والشعر، هو ذلك المذهب الفِطْريّ الفريد الذي قالَ بهِ حين عَرَضَ لسقوطِ الشعرِ واضْطرابه في العصور المتأخرة :

« إذا عَرَفْتَ السرّ في ذلك لم تَرَ غريباً ما هو غريبٌ في نفسِهِ، من أنّ بَدْءَ النهضةِ الحديثةِ لم يكُنِ العِلْمَ الذي يُصحِّحُ الرأيَ، ولا الاطلاعَ الذي يُؤْتي الفِكْرَ، ولا الحضارةَ التي تهذّبُ الشعورَ، ولا نظامَ الحكمِ الذي يُحْدِثُ الأخلاق، وإنما كان ضَرْباً من الجَهْلِ وَقَفَ حَدًّا مَنيعاً بين زَمَنِ فنونِ البلاغةِ وبينَ زمانِنا !.

قال : « وللهِ أسرارٌ عجيبةٌ في تَقْليبِ الأُمور وخَلْقِ الأحداثِ، ورفعِ الحياةِ الفكرية من نَمَطٍ الى نمطٍ »[2].

وكان قد عَدَّ ذلك في البارودي خَرْقاً أَحْدَثَ الانقلابَ في تاريخِ الشعر العربي، وأنشأَ الذَّوْقَ الجديد، إذ حَسِبَ أنَّهُ لم يكُنْ يعرِفُ من عُلومِ العربيّةِ، وفنون البلاغة شيئاً، ولكنَّه تخرّجَ في دواوينِ العرب، وجَعَلَ الاجْتهادَ وقُوّةَ الكَسْبِ استعاضةً عن المواهبِ الوراثية التي تُؤَدّي الى امتلاكِ ناصيةِ الأدب »[3].

---

(١) رسائل الرافعي — ٤٠
(٢) وحي القلم — ٣ — ٣٢٢
(٣) رسائل الرافعي — ٣٦

وهو نفسُه كان يَعْتَدُّ بتلكَ الموروثاتِ فيه، بما ادّعاهُ من الرُّجولةِ والضمير والدم الكريم، «وقد اجْتَمَعَ في تاريخِهِ إنسانٌ بَلَغَ الزّمنَ، وإن تاريخَهُ كلَّهُ لَيَنْتفِضَنْ لأنَّهُ مُصِيبَةٌ ملكيّة مصوّرة في ملك »[1].

وأمامَ دعوتِهِ هاتيكَ، ومذهبِهِ هذا اتّخَذَ في الابْتكارِ بالمعاني والفُنون بعضَ وسائِلِهِ للتجديد، كما جَعَلَ للتوليدِ وتركيبِ الخيال، والبُعْدِ في سُمُوِّ الأدبِ وعَطاءِ الفكر سبيلَهُ وسِمةَ أسلوبِهِ الأُولىٰ، حتّى لم يُكْن يُعِدُّ الأديبَ ما لم تكُنْ له أوضاعٌ في اللّغةِ والأدب.

هكذا كان صاحِبَ عَطاءٍ مِثاليّ ؛ يُؤَثّرُ في الأدبِ والفكر، ويُؤْتَمُّ بهِ في الإنشاءِ والتعبيرِ والأَداءِ، ويشارُ إليهِ في التأليفِ والتّصْنيف، ويُلتَفَتُ إلى أوضاحِهِ في النقدِ والموازنةِ، مما لم يُنْسَجْ على طرازٍ سابقٍ، ولم يخرُجْ على أوضاعِ العَرَبِ ومذاهِبهم، وإنّما حافَظَ عليها بفِقْهٍ لعلُومِهم، ووقُوفٍ على أسرارِها.

قال محبُّ الدين الخطيب :

« إنَّ الأَدَبَ بمعناهُ الجدّي لا يُمثّلُه إلّا الرافعي، ولكَمْ أخرَجَ للنّاسِ من مُؤَلَّفاتِهِ ومكوناتِ أدبهِ ما مَلأَ نفوسَهم حكمةً وجَلالاً، وعواطفَهُمْ رِقّةً وجمالاً، وأسلوبَهُمْ رَوعةً وبهاءً.

إنّ الجمهورَ الشاعر من الأُدباء مَدينُونَ للرافعي بالزَّعامةِ الأدبية، ويرونَهُ كنزاً للعربيةِ ثميناً، وبَحْراً بالحكمةِ فَيّاضاً »[2].

* * *

---

(١) رسائل الأحزان — ١٦

(٢) الفتح — ٧٥ — ٢١ جمادى الآخرة ١٣٤٦ هـ

المبحث الخامس

ما يؤخَذ عليه
ملاحظات ومفارقات

لقد مرَّ بنا شيءٌ من نقدِ فُنونٍ من أدب الرافعي، والتنبيهِ على مآخِذَ وفَوْتاتٍ لم يُلْتَفَتْ إليها، وما أشارَ إليها ناقِدُوهُ الكثُر، ومَنْ كانوا في نقودِهم يُعْنَوْنَ بأشياء غيرِ ذاتِ موضوع، من الشكلياتِ ونحوها، أو هم يُصْدِرون أحكامَهُمْ كُلّيةً ؛ يُعْوِزُها الكثيرُ من « الحيثيات » أو هم يَهْتَمّونَ لجُزْئيّاتٍ قليلةٍ قد لا تعني شَيْئاً موضوعيًّا.

وإنَّ ما يُؤْخَذُ على الرافعيّ في تُراثِهِ الأَدَبي والفكري قد يَظْهَرُ في جوانبَ ثلاثةٍ ؛ من حيثُ الفكرةُ والمنهاج، ومن حيثُ اللُّغةُ والأُسلوبُ، ومن حيثُ الموضوعاتُ التي كَتَبَ فيها.

ذلكَ أنَّ انتظام أعمالِهِ الأدبية والفكريّة لم يكُنْ بالمُسْتَوَىٰ المرادِ لهُ، إذ لوِ انْتَظَمَتْ هذه الأعمالُ، ووفّيَتْ حَقّها من الإبانةِ والقَصْدِ، لصارَ لَهُ في آياتِهِ البيانيّةِ خاصّة خيرُ ما كان يؤمّلُ من أهدافٍ قوميّةٍ، وغاياتٍ ساميةٍ، ولرُبّما انسَحَبَ أثرُها على معاصِريه بشكلٍ ما، فلا تَبْقىٰ في دائرةِ محبّيهِ وتلامذتِهِ حَسْبُ !.

وعلى الرغم من أن حياتَهُ الخاصةَ في الأسرةِ كانَتْ مِثاليّةً، فانَّ الوظيفةَ ــ وسيلةَ عيشِهِ ــ لم تكُنْ بالمَنْزِلةِ اللائقة لمثلِهِ، وكذلكَ القلقَ الحادَّ الذي كانَ يَنتابُه أحياناً في نوباتٍ تَعْتريهِ من ضيقٍ ممّا حَوْلَهُ، أو حساسيّةٍ نفسيّةٍ يَسْتَفِزُّها فيهِ نَقْدٌ لا يخلُو من ضَغينةٍ أو إيذاء، أو حَسَدٍ لا يُعْدَمُ التجريح[1]، أو إثارةٌ من تلامذتِهِ الأَدْنين لمنازلةِ هذا والردِّ على ذاك[2]؛ فقد كان لا يكادُ يَهْدأُ من ثائرةٍ حتى يُغْرىٰ بأخرىٰ، أو تُلْقىٰ أمامَهُ، فتفوّتُ عليهِ الوقتَ والقَصْدَ في العَطاءِ الفكريّ والإثمارِ الفكريّ الذي يَتوخّاه، فَتَشْغَلُهُ فيما لا طائلَ وراءَهُ.

الفكرة والمنهاج

ومن ذلك ابتلاؤُهُ نَفْسَهُ بمشروعاتٍ جَمّةٍ في موضوعاتِ الأدب والتاريخِ والتفسير، لم يُنْجز منها ما كانَ يُنْتَظَرُ منه خاصّة، أو كما قالَ: « إنّهُ يَعْتسِفُ نَفْسَهُ يَبْتغي عَمَلَ الأعمارِ في عُمُر »[3] ولا هو أتمّ بَعْضَها الآخر.

ولعلَّ كتابَهُ في « طبقاتِ الشعراء والكتّاب المعاصرين » هو أوّلُ تلكَ المَشْروعات. وكانَتْ فكرتُه قد عَرَضَتْ له بعدَ مقالةٍ صغيرة في الشعرِ نَشَرَتْها « الثريا »[4] ثم أتْبعها من بعدُ بمقالةٍ نَقْديةٍ في « شعراءِ العصر » وَزَّعهم فيها درجاتٍ[5] وأَتْبَعها بأخرى بعدما أثارَتْ زَوْبَعَةً من

---

(١) راجع كتابنا (الرافعي الناقد الأديب) الماثل للطبع.

(٢) العريان ــ حياة الرافعي ــ ١٢٠، محمود أبو رية ــ رسالته في ٢١ سبتمبر ١٩٣١ م

(٣) رسائل الأحزان ــ ١٧.

(٤) الثريا ــ ٦ ــ ١٩٠٤ م

(٥) الثريا ــ ٩ يناير ١٩٠٥ م

الآراء، ورُدوداً تختَلِفُ بوجهاتِ النظر[1]، ولكنّها تأخُـذُ بقاعـدةِ (الطبقات) التي أدارَ من حولِها ذلكَ الحديث.

وعاد بعد ذلك بسنواتٍ فَنَبّهَ عليهِ في « حديث القمر » ورَسَمَ منهاجَهُ فيه[2].

وأحسَبُهُ قد هَمَّ غيرَ مرّة بإعدادِهِ، ومنها تلكَ المحاولة التي كتبَ فيها ما يشبهُ المقدّمةَ « في الشعرِ »[3] ولكنَّهُ لأمرٍ ما عادَ فقطَّعها وضمَّنَها بعضَ « رسائل الأحزان »[4].

* * *

وقد كَتَبَ الرافعي بعد ذلك في الشعرِ والشعراء دراساتٍ ونُقوداً وتقاريظَ تؤلّفَ مادةَ ذلك الكتاب بصورةٍ ما ؛ إذ عَرَضَ فيها لمسائِلَ وقَضايا خطيرةٍ، وما ضمّنها من مقالاتٍ وأحاديثَ ذاتِ شأنٍ ؛ أرسلَها على مَدى عُمرهِ ؛ وقد ضَمَّ بعضَها الى « وحي القلم » وما يزالُ قِسْمٌ آخر في مكانِهِ من الصحف — وفيه من الرُّدودِ والمُطارحاتِ الشيءُ غيرُ القليل.

وقد اجتَمَعَ لديَّ معظَمُها، ورأيتُ أن أُعِدّها جَميعاً لتؤلّفَ الكتابَ، ولتكونَ جزءًا خاصًّا من « وحي القلم » نفسِهِ.

---

(١) الثريا — ١٠ يناير ١٩٠٥ م

(٢) حديث القمر — ٥٣.

(٣) المضمار — يوليو/تموز ١٩٢١ م

(٤) رسائل الأحزان — ٨٩ وما بعدها.

أمّا مشروع كتابهِ الجليل « تاريخ آداب العرب » الذي كانَ قَدْ أعدَّ لَهُ منهاجاً حافِلاً ؛ ورتّبَهُ على اثْني عَشَرَ باباً وقال : إنّهُ قد يَجيءُ في خمسةِ أجزاء ـــ غيرِ الفصول والمُلْحقات، وغير الاثْباتِ والشواهِدِ والمراجع.

لكنّه لم يخرجْ منه غيرَ الجزءَيْنِ الأولين ؛ في اللّغةِ والروايةِ، وفي تاريخِ القرآنِ والبلاغةِ النبوية ـــ باعتبارِهما الأدبي،. فقد كانَ يَطْمَحُ أنْ ينالَ مكانَتَهُ في الجامعةِ وكتابَهُ معاً، فحيلَ بينَهُ وبَيْنَ مطمَحِهِ هذاك بسببِ زعموهُ من سَمعِهِ. لِيُبْعِدُوا المنهاجَ القوميَّ عن الجامعةِ، بإثارةِ صَنيعةِ ذوي المصالحِ (الخاصّة) لِصَنيعتِهم الشيخ طه حسين لِنَقْدِ الكتاب، واتّهامِ أسلوبهِ،.. وهكذا فاتَت الطلبةَ الإفادةُ من نهجِهِ العربي الأصيلِ وقيمتِهِ العلميّة.

كانَ على الرافعي ـــ وهو في ثباتِهِ الاعتقادي المعروف ـــ أن يَمْضي قُدُماً في هذا الشأن فيقدّمَ للأجيالِ الكتابَ بتامِّ أجزائِهِ الباقية ؛ وليثبت وجودَهُ العلمي أمامَ المفتريات، ومن يُسْتَعانُ بهم من المُسْتَشْرقين. ثم لينْصَرِفَ بعد ذلك الى موضوعاتِ الإنشاءِ والجمالِ التي كَلِفَ بها في تَرْبيةِ الأُمّةِ وإعدادِها، وميادينِ النَّقْدِ والمعاركِ والأحابيل التي كانَتْ تجرُّهُ إليها مُدافعاً عن الاعتقادِ القومي وتُراثِ الأُمّة ـــ بَعيداً عن ذلكَ الهدف النبيلِ في إعدادِ الدراساتِ المَنْهجيّةِ المتكاملةِ في تاريخ الآداب.

لكنّه فَترتْ بهِ الهمّةُ، وربما اطَّرَحَ البحْثَ جانباً، لِيُعالج ما تَقَدّم، ﴿ وما جَعَلَ اللهُ لرجلٍ من قَلْبينِ في جَوْفِهِ ﴾ ـــ الآية[1]. وعَوَّقَتْهُ هُمومُ

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٤.

الأهلِ والولْدِ، والصحةِ غيرِ المُعافاة، وأيامِ الحرب، فما تركَ من الأجزاءِ الباقياتِ غَيْرَ فُصولٍ وقصاصاتٍ جَمَعَها سعيد العريان في جزءٍ ثالث للشعرِ وفنونِهِ وللخطابةِ وللتأليف عند العرب، وقد افتقَدَ فيه أبواباً برُمّتها، كانَتْ لها إشاراتٌ في أوراقٍ وجُذاذاتٍ لم يَسْتَطع العريانُ أن يجمَعَ لها مادَّتها فيَتِمُّ بهِ تمامُها[1].

وقد ذكَرَ غيرَ مرّةٍ لاستئنافِ العَمَل فيهِ، وأن يُعيدَ طبعَ الجزءِ الأول منهُ — ولا سيّما بعدَ انتشارِ الجزءِ الثاني باسمِهِ المعروف « إعجاز القرآن »[2] وأنْ يُضيفَ إليهِ ما اسْتجدَّ له من مادةٍ ونَقْد، ولو في هوامِشَ وأمثلةٍ يُجْرِيها مع فصولِهِ وأبوابِهِ[3].

لكنَّ نَسْخَتَهُ الخاصّة — التي يمكن أن يكونَ قد أجرىٰ فيها شيئاً من ذلكَ — لم نقِفْ عليها، وربّما راحَتْ مع مأساةِ مكتبته !

* * *

أمّا كتابُ البلاغة العربية الذي دَعاه « أسرارُ الإعجاز » فقد ذَهَبَت صفتُهُ بعيداً في الآمال والأحلام، إذ كان يعتدُّ به اعتداداً كبيراً، ولا يَفْتأُ يتحدّثُ في موضوعِهِ لكلِّ مَنْ يلقاهُ[4] وكأنّه الشّغْلُ الشاغل !.

---

(١) أنظر مقدمة العريان — ٣

(٢) طبع ثانية وثالثة في حياته.

(٣) رسائل الرافعي — ١٩٣، وفي رسائل « ماري يني » إلحاحٌ عليه للمضي فيه وإخراج أجزائه الباقيات.

(٤) حدثني بذلك محمد بهجة الأثري وحسنين مخلوف ومحمود شاكر.

وقد وَرَدَتِ الإشارةُ إليه في هوامِش تاريخ القرآن[1]، وفي رسائِله الى الشيخ أبي رية[2]، كما اطّلع عليه تلميذُه الأثير محمود محمد شاكر، وتحدّثَ سعيد العريان عن نسقِهِ في منهاجِهِ وتأليفِهِ وقال : إنّهُ يردُّ البلاغةَ إلى أصولٍ غير التي اصطَلحَ عليها علماؤها منذُ كانت !. ثم يتحدَّثُ عن بلاغةِ القرآن، ويُفَسّر في القسمِ الثالث منه آياتِ القرآنِ الحكيم بأسلُوبٍ جديد يَنْفردُ فيهِ بمنهاجِهِ البلاغي الجديد[3].

أقولُ : إنّ أصولَ هذا الكتاب لم تَبْقَ في دارِ كتُبهِ، ولم أقفْ عليها فيما بَقي من أوراقِهِ، ولا في مخلّفاتِ العُريانِ نفسِهِ، ولا أحَدَ ممّن لاقيتُ يَعْرِفُ شيئاً عنهُ، فواضَيْعتاه !.

وكذلكَ ديوانُ شعرِهِ، وقد كان من أسْبَقِ الشعراءِ الى نَشْرِ ديوانٍ لَهُ ؛ إذ طَبَعَ منهُ ثلاثةَ أجزاء، ثم جُزْءًا رابعاً سمّاه (النظرات) وجَهّز لها جُزءًا آخر — ولأمرٍ ما انصرف عن طبعِهِ ونَشْرِهِ.

وقد هَمَّ غير مرّةٍ أَنْ يُعيدَ طبعَ الديوانِ كاملاً بَعْدَ نَخْله وتهذيبِهِ[4] ولكنّي لم أَقِفْ على مَلَفّ لذلكَ، ولا هو تركَ مُلاحظاتهِ على نُسْخَةٍ خاصة ربما أجرىٰ قَلَمَهُ في صفحاتِها، ولا رأيتُ النَّظَراتِ الثاني وما عرفْتُ أينَ بقايا شعرِهِ وديوانِهِ !.

ولكنّي أستطيعُ الزّعْمَ بأني أعدَدْتُ منها ما يأْخُذُ طريقَة الى حياةِ

---

(١) إعجاز القرآن.
(٢) رسائل الرافعي — ٢١٤، ٢٢٢، ٢٢٤... الخ.
(٣) حياة الرافعي — ٢٨٩
(٤) العريان — رسالة — ٦٤.

النشر، وحَسْبي أن أذكر فيها ديوانَ النظرات الكامل، وأغاريدَ الرافعي، والفُؤاديات وديوانَ الرافعي المنتقى[1].

* * *

ملاحظات نوعية

وممّا يؤخَذُ عليه في مؤلفاتِهِ ما كان يمكنُ أَنْ يتداركَهُ بطبعاتٍ تالياتٍ، أو يتّخذَ له نسخةً أو مَلَفًّا يضَعُ عليها ما يشاءُ من إضافةٍ وبَسْط، أو تعديلٍ وتَبْديلٍ من علمِهِ الغزيرِ وفنّهِ الأثير، ولكنّه كانَ كثيرَ الإرجاءِ[1] لما يَجِبُ أن يعجّل بهِ.

فقد أُحسّ بأنَّ « حديث القمر » يحتاجُ إلى زيادَةِ بَسْطٍ، وإلى أعادةِ كتابةٍ في بعضِ فُصولِهِ وجَوانبهِ[2] ولكنَّهُ لم يَفِ بما وَعَدَ حتّى في الطبعةِ الثالثةِ التي صَدَرَتْ في حياتِهِ[3].

وفي « تاريخِ آدابِ العرب » كانَ يُعْوِزُهُ إيرادُ الأمثلةِ والإيفاءُ بالشواهِدِ التي تحفِلُ بأحكامِهِ، وتُشْرِقُ في جوانبهِ، وتُرَوّح القارئَ العربيّ من المُراجعةِ المُضْنيةِ والتتبّع، ولكي لا يَبْقى كالمَتْنِ في بَعْضِ فصولِهِ وأبوابه.

* * *

---

(١) رسائل الرافعي — ٨٤

(٢) رسائل الرافعي — ١٠٤

(٣) عام ١٣٤٦ هـ — ١٩٢٨ م

وكذلك إيرادُهُ لمباحثَ في العلومِ الطبيعيةِ ـــ أدارهَا من حولِ العَرَب خاصّة[1] كانَتْ بها حاجةٌ إلى إسنادِها إلى مصادِرِها من المكْتَشفاتِ، إن لم يَتَسَيَّر لَهُ تقاريرُها باعتبارِهِ قليلَ الرجوعِ إلى اللّغاتِ الحديثة[1].

على أنَّ محاولَتَهُ إخراجَ مباحثِ « الإعجاز » الى العُلومِ والمُختَرَعاتِ الحديثةِ المُتَغيرةِ نَظَريًّا وعِلْميًّا، فيها مُخاطرةٌ : لأنَّ هذه العلومَ غيرُ مُسْتَقِرَّةِ النتائجِ، وما تَزالُ في المختبراتِ والأَجْهزَةِ، وهي تناوَبُ عليها في تَفْسيراتٍ قَلّما تقطَعُ برأيٍ أو تصيبُ قانوناً ماثلاً.

وقد تَفْتَحُ مثلُ هذِهِ المغامرةِ البابَ لمَنْ هُم أقَلُّ عِلْماً وأدنىٰ فَهْماً، فيلجونَ منهُ، وقد يَتخبَّطُونَ في مباحثِ الآياتِ ؛ يَحْملونَ عليها نظرياتٍ وافْتراضاتٍ تَرِدُ مع آراء ممّا يتّفق للأَيام !. فيتردّىٰ ذلك بمجازفةٍ الى الخَلْطِ والخطأ[2]، والكتابُ الكريمُ أنزَهُ من أنْ تُعرَضَ آيَةُ البيّناتُ الى مثلِ هذه المَداراتِ أو المثاراتِ.

ومن ذلك محاولتهُ إقحامَ إحدى نظرياتِ التَّخْليقِ ـــ علم تكوينِ الأجنّة وتخلُّق الطَّبقَاتِ بعدَ الإخْصاب «Emberyology» في تفسيرِهِ لآيةِ الخَلْق مَثَلاً[3] إذ يَبْدُو وكأنَّهُ يخاطرُ في غيرِ مَوْضوعِهِ ؛ لأنَّ التَّوْفيقَ فيهَا مع نظرياتٍ علميّةٍ قاصرةٍ حتّى الآن عن تفسيرِ أسرارِ التخليق الحَيَويّ، وقد تَبَدَّلَتْ وعُدّل فيها خَمْسَ مَرّاتٍ خِلالَ السنين الأخيرة[4]. ولَعَلَّ ذلكَ من أسرارِ الخَلْقِ الإلٰهي التي لَمْ يُطْلِعْ عليها

(١) أنظر تاريخ آداب العرب ج ١ ـــ ٧٢، وراجع المقتطف ـــ فبراير ١٩١٢ م.
(٢) كما وقع لأحدهم في دعوى أن الأرض لا تدور!!
(٣) أنظر تاريخ آداب العرب ج ٢ ـــ ٢٨٣
(٤) مجلة العلوم ـــ بيروت ـــ يناير/كانون الثاني ١٩٥٧ م

أَحَداً من العالمين. ولو أطْلَعَهُم عليها لكانَتْ نظرياتُهم أحكاماً كالقَوانين الثابتةِ في الكونِ، ولانْتَفَى عندئذٍ التَّفْسِيرُ نَفسُه.

ويُؤْخَذُ عليهِ أيضاً مدارُهُ لمباحثِ القرآن باعتبارِهِ التاريخي والبياني، من حولِ ما دَعاهُ الأقدمونَ بالإعجاز، وفي موضوعاتِهم نَفْسِها ـــ وإنْ جَلّىٰ فيها وكشَفَ عن كثيرٍ ممّا انْبَهَمَ على مَنْ كتبوا في تلك المباحثِ، كالباقلّاني والجرجاني والجلالِ السيوطي[1]، أو فاتَهم أن يُلمّوا بها، وإنّما مُتابَعَتُهُ لَهم في حُسْبانِ ذلك « إعجازاً » أُريدَ بهِ مُناجَزةُ الكفْرِ وإعجازُهُ، وقد انتهىٰ في الجزيرةِ، وإن اعتبارَهُ هذا مُصْطلحاً ثابتاً مما يُلامُ عليهِ، ولا سيّما بعد أنْ أضحى القرآن « آياتٍ بيّنات » عند العَرَبِ، و« تنزَّلَ منهم منزلةَ الفطرةِ الغالبةِ التي تَسْتبدُّ بالتكوينِ العقلي » ـــ على حَدّ تعبيره هو[2].

قد تَبْدُو تلكَ المتابعَةُ التزاماً لا مُوجِبَ له مع التُّراثِ، وقد اتّفقَ لَهُ من الكشفِ عن أسرارِ البيانِ ومَعانٍ في آياتِ الكتاب المبين، ونَظْمِهِ وجُملَتِهِ وحُروفهِ لم يقِفْ على مثلها سابقُوه، وكان مثالَ الانْبعاثِ في النهوضِ بالدراساتِ القُرآنية والتُّراثية.

وهذهِ الناحيةُ هي التي حامَ حولها عبّاسُ العقاد فلم يَفْلَحْ في إيفائِها حَقَّا في نقدِهِ[3]، ولا هو أصابَ فيها سَهْماً بتأليفِهِ بعد ذلك بسنين[4]، إذ ذَهَبَ ـــ كعادتِهِ في المراجعةِ والترجمةِ ـــ بَعيداً يَنقُلُ عن المَعْلَمَةِ

---

(١) عبد الكريم الخطيب ـــ اعجاز القرآن ج ١ ـــ ٢٨٣.
(٢) البيان ١٠ ـــ جمادى الأول ١٣٣٠ هـ ـــ الجنسية العربيّة في القرآن.
(٣) البلاغ ـــ ٣ ديسمبر/كانون الأول ١٩٢٦ م
(٤) أنظر في كتابه (الفلسفة القرآنية).

البريطانية كلاماً في المُعْجزةِ للفيلسوفِ اليهودي داود حاييم « ديفيد هيوم » ويعرّفُ الإعجاز كذلك، ليقولَ : إنّ المؤلّفين القُدامىٰ الذين تابَعهم الرافعي في التأليفِ لم يُدْرِكوا ما أدركَهُ (الفكر الحديث) في الموضوعِ !!.

* * *

ومما يُؤْخَذُ عليهِ أيْضاً ذهابُه في نقدِهِ بَعيداً بعضَ الأحيانِ، الى دَرَجة القَسْوةِ في الحكْمِ ــ لا على مُجادليهِ فحسْبُ، وإنّما على موضوعاتٍ في التراثِ العربيّ نفسِهِ، مثل قوله : في تماسُكِ الشعرِ العربي، واتّهامِهِ الشعراءَ العرب بالعِنايةِ بالجُزْئيات، وإبعادِ النَّظْرةِ الشاملةِ التي تهيِّئُ للشاعرِ ما دَعاه بالجمهور الشعري، حتّى قال :

« ومن ذلك يَنْبُغُ الشاعر ولَيْسَ فيهِ من الإحساسِ إلاَّ قدرُ نفسِهِ »..[1]

وقد رَدّ الدسوقي عليهِ حكْمَهُ هذا، واسْتَنْكَرَ صدورَهُ عنه[2] مع شدّةِ إعجابِ الدسوقي بهِ وأخْذِهِ بمعظم آرائهِ، والتّنْويهِ بِفَضْلِهِ بمناسباتٍ عديدة[3].

ولعلَّ هذهِ الاندفاعةَ وأمثالَها من الرافعي كانَتْ تَتأتّى لَهُ من مؤثرين : أولهما : أنّهُ لم يَحْظَ مُؤَلّفٌ في زمانِهِ بتقريظِ مُصَنّفاتِهِ ومؤلّفاتِهِ

---

(١) وحي القلم ٣ ــ ٣٠٠

(٢) النابغة الذبياني ٤٠ في الأدب الحديث ٢ ــ ٢٣٨

(٣) للدسوقي دراسات في أدب الرافعي، ولو تهيأ لها أن تجمع في كتاب لكانت من أحفل الدراسات في موضوع.

والثناءِ عليها كما حَظِيَ هو بالقِسْطِ الأوفىٰ من ذلك. وقلما وَقَفْنا على نقاطٍ مُتّزنةٍ لمُنْتَقديهِ ؛ إذ يلُوحُ الحَسَدُ والضّغينةُ والافْتراء، والالتـواءُ في القَصْدِ في السطورِ الأولى من نُقودِهم، فَتَحْجبُ ما قد يكون فيه قَصْدٌ علميّ في النَّقْدِ أو التعقيب.

وربّما كان هذا هو الذي جَعَلَهُ يجتازُ مرحلةَ المناقشةِ وأسلوبَها العلميّ إلى شِدّةِ الوَطْأة على أولئكَ المُنْتَقدين، وإلى الاعتدادِ الذي يدعُو إلى الإشفاقِ أحياناً، ويُفوّتُ على المنهاجِ العلمي الأثير الذي يَتحلّى بهِ أسلوبُهُ وإثمارُهُ في التأليفِ ــ شَرَفَ المراجعَةِ والامتياز في إعادةِ النظر ؛ بحيثُ تعودُ فصُولُ الموضوعاتِ تُشْرِقُ من جديدٍ بطيبِ الفكْرِ ووضوح القَصْدِ، ونُضْجِ الرأي، والغاية المرتجاة.

وثانيهما : محاولةُ إبعادِ تُهمةِ القِدَمِ عنهُ ــ تلكَ التي أَلْصَقَها بهِ مناوئُوهُ ؛ فهو ــ من حيثُ لا يَشْعُرُ ــ يُجاريهم في بَعْضِ أحكامِهم المُرْتَجَلَةِ والمقلّدة، حتّى ليبدوَ في مثلِ موقِفِهِ هذا غَيْرَ متماسِكٍ، ولا يَحْفَظُ توازُنَهُ ــ وهو يُصدِرُ مثلَ هذا الحكْمِ على الشعر العربي، ويُشَكّلُ تناقضاً واضِحاً مع ما كانَ أورَدَهُ في تاريخِهِ[1].

الإغراق

وممّا يُؤْخَذُ عليه إغراقُه قارئَهُ في خِضَمٍّ من مَعانيهِ لا يَرىٰ لَهُ ساحِلاً، كقوله :

« أنتِ ممْزوجَةٌ بآلامي، وآلامي منكِ هي أَشْواقي، وأشواقي إليكِ

(١) تاريخ آدب العرب ج ٣ ــ ب٥

في أفكارِي، وأفكارِي فيك هي مَعانيكِ في نَفْسي، ومَعانيك هي الحبّ !.

ولكنّ ما هو الحبُّ إلّا أن يكون آلامي وأشواقي وأفكاري ومعانيكِ في نفسي ؟! »[1]

إنّهُ يَجْعَلَ للتوليدِ الذي وفّقَ فيهِ تَوْفيقاً لا مَثيلَ لَهُ — استطراداً واندفاعاً،.. حتّى يعودَ فيجمَعَ تلك المعاني في نوعِ مُقابلةٍ دونَها ما عُرف في البلاغةِ من المقابلةِ والتشبيه البليغ.

ومثلِ قولِهِ : « لو رأيتني وأنا أتلُو رسائِلك لرأيتِ أنكِ لا تكتُبين لي كلاماً بل تَزْرَعينَ في الوَرَقِ زَهْرَ أنفاسِك، فيأتيني فأقرؤهُ ؛ أيْ أقطفُهُ، وبهذِهِ الطريقة أكتُبُ كلماتي ؛ أي أزرَعُ تَنَهّداتي يا حَبيبتي »[2].

وقد يتركُ القارئَ في حَيْرةٍ من أمرِهِ أحياناً، في مثلِ قولِه — وقد أهدَتْ إليه رسْمَها :

« .. لَكِدْتُ واللهِ يا حبيبتي أتخيّلُ هذا الرقَّ الموضوعَ أمامي يَبرُق بصورتِكِ، ويُشرِقُ بوجهِك — نافذةً سحْريةً فتحَتْ بيني وبيْنَ عالمِ الجمالِ الأَزَلي ؛ فأطلُّ فيهِ وجهُ حَوْراءَ من حُورِ الجنّةِ يَنْظُر إليَّ وأنظرُ إليهِ، يحمِلُهُ جسْمٌ خُلِقَ ليكونَ فِتْنَةً للجنّةِ ذاتِها، وكأنَّهُ بجمالِهِ ومَعانيهِ حقائقُ ذلك النّعيمِ جاءَتْ تترجم لذّةَ الخلودِ للنّفْسِ البشريةِ في بَلاغةِ صُورةٍ اختاروا لَها رسمكِ أنتِ »[3].

---

(1) أوراق الورد — ١٢٧

(2) أوراق الورد — ١٣٧

(3) أوراق الورد — ٣٧

ولا أدري بعدُ، هل يُريد أن يُعيدَها الى الجَنّةِ — وقد حاوَلَتْ إخراجَهُ منها ؟! أم أنّهُ يريدُ أن يَفْتح نافذةَ الجنّةِ على الدنيا لإدراكِ معاني أخرى للجمال ؟!

وإنّه ليقولُ من ثمّ : « إنّي لألْمحَ فيهِ — الرسم — سِرًّا عَجيباً يكونُ فقدانُ العبارةِ عندَهُ هو أبْلَغُ من العبارةِ في وصفِهِ ؛ إذ لا تتكلّم روعةُ الحسّ بالجمالِ، ولا هي تَنْزلُ في صورِ الألفاظ وإنّما تغمز على القلْبِ خافِقَةً تشْعِرُ الناظرَ أنّ رُوحَ المَنْظَرِ خامَرَتِ الروحَ، وأنَّ حياةَ الشكلِ انسكبَتْ في الحياةِ، وأنّ المعنى الغامِضَ في السِرّ قد اتّصَلَ بالمعنى الغامِضِ في النَّفْسِ».

وبمثل هذا السِرّ الذي يطالِعُني من جمالِ وجهكِ أصبَحَ الجمالُ على الحقيقةِ، هو عِلْمُ أفراحِ النَّفْس وأحزانِها »[1].

يقولُ أنيسُ المقدسي : « إنَّ المَعْنى الذي يَقْصُدُ إليهِ هذا الكلامُ جميلٌ، ولكنّ دونَ الوصولِ إليه حجاب[2]. وما أكثَرَ معانيهِ الطريفةَ المَحْتجبة !.

يُخيّلُ إليَّ أن ما عُبّرَ عَنْهُ برَوْعةِ الغامض التي تحدَّثَ بخَبرِها صديق شيبوب[3] وحرصَ الرافعي على الإبداعِ كانَ يَسْتَلْهِمُهُ أبداً أن يُعَوّض عمّا يَجْتَليهِ من ذلك الحُسْنِ هذه المعاني المهوّماتِ التي تكدُّ الذّهْنَ، وتَبْعَثُ على التأمُّل والاسْترجاع، وقد تُوجعُ القَلْبَ أحياناً — وإنْ جاءَتْ

---

(١) أوراق الورد — ٣٧
(٢) الفنون الأدبية — ٣٩٥
(٣) البصير — ١٩٢٥/٦/٧ م

بعد ذلك بلذّةٍ مُعَرْبدةٍ، وهي تُترجمُ للنّفسِ المُحبّةِ خاصّةً معانيَ ما وراءَها بَعْدُ.

وقد أورَدْتُ هذهِ من كتابهِ « أوراق الورد » لأنّهُ أدَقّ كتُبهِ الأخرى، وأحراها بالقراءَةِ والتأمُّلِ واسْتِعْذاب البيانِ، وما هو من الفكرِ الأديب.

ولكن ما في ذلك من الإغراقِ في التوليدِ والمقابلة والحَصْر الذي يَرجعُ بالمَعْنى، أو يتقلَّبُ في أطوارهِ والتَنقُّلِ في مناظِرهِ، ثم إغراء هذا الفنّ له بالابتعادِ عن الاتّساق في المعاني التي يريدُ استعراضَها الى الهَدفِ الذي يَرْمي إليهِ منها أحياناً، مما يرهقُ القارئَ إذ يَبْقى مَشْدُوداً إليهِ بإدمانِ القراءةِ وإعادةِ العبارةِ حتّى يلقَف حَبْلَ الاتّساقِ، ولا يَتيهُ دونَ القَصْدِ.

وهو نفسهُ يقولُ في ذلك:

« إن البلاغة التي كتبتُ بها رسائلي من قبلُ، وما احتَلْتُ لها بهِ وما صَوَّرْتُ من فنونِها هي بعينها التي تُنَبِّهُني الى أنَّ جمالَ المرأةِ الجميلة لَيْسَ في ذاتِ نَفْسِها إلا أسلوباً من الخداعِ، كالذي يكون في تَزْويقِ الكلامِ وتمويهِ الحقيقَةِ ببلاغَةِ التراكيب، غير أنَّهُ أسلوب حيٌّ في لحمْ ودم!. ثم تزيدُهُ المرأةُ بِفُتُونها تَزْويراً وتَسْمِيةً لأنَّ جمالَها في صورةٍ أخرى من صُوَرِهِ الكثيرة، هو نفسُهُ الرقُّ والاستعبادُ مُحَبَّباً في خِلْقةٍ جميلةٍ، لِيُطْلَب ويُعشَقَ، اسْتعبادٌ حيٌّ متى بدأ اسْتمرَّ يَقوىٰ ولا يضعُفُ، وينمو ولا يَنْقُصُ ».

قال: « ومن هذا كانَ قَيْدُ الجمالِ لا يُفَكُّ أبداً إذا غُلَّ به أسيرُهُ من العشاقِ، بل يكْسَرُ كِسَراً، ويصبحُ فيهِ أمر العاشِق من حبيبهِ كالاسْتقلالِ في الأممِ المُسْتَعْبَدة، لا يُعْطىٰ بل يُؤْخَذُ، ولا بُدَّ فيهِ

من الجُرْأةِ والمُصَابرة والاقْتحام، وسِلاحٍ من الأسلحةِ أيُّها كانَ؛ إما حاطِماً أو مُفْزِعاً أو مُتهدِّداً أو محتالاً أو سلاحِ الرِّضا أو سِلاحِ الثمن وما إليها..

لا بدَّ من سَطْوةٍ يَنْقلِبَ بها الأَسِيرُ المُسْتَعْبَدُ الى أَن يكونَ مالِكاً بوَجْهٍ من وجوهِ التملك، في تلك المَنْطقَةِ الإنسانيةِ السحريّةِ المُسَمّاة في لُغاتِ الناس بالحبيب »[1].

هو يريدُ أن يصوِّرَ كيفيةَ صَيْرُورةِ الانسانِ الى الحياةِ الكريمةِ التي لا تَتِمّ عندَهُ من غيرِ ولاءٍ للذاتِ بالحبِّ الذي يجدُ فيهِ سكونَ نَفْسِهِ وشعورِهِ بالمسؤوليةِ يَضْمَنُ فيه حريةَ وطنِهِ، وإنه امتثالٌ لصوتِ الله في ضميرِهِ بالإخلاصِ لعقيدتِهِ، ولكلٍّ أولئكَ وسائلها في كفاحِ الأيامِ ومصابرة الأنواءِ، ليكون الفوزُ والنصرُ والشهادةُ من بعدُ آياتِ تلك الحياةِ من الحبّ والجهادِ والفداء؛

إنَّهُ يُحشُدُ طاقاتِ المعاني وصُوَرَ البيانِ وأمثلةَ الحياةِ ما اسْتطاعَ في هذِهِ القِطْعةِ الجميلة.

وعلى الرغم من توفيقِهِ الذي لا يُبَارى في هذا المضمار، واعتدادِهِ بذلك، وغَمْزِهِ الآخرين الذّين يحَاولونَ تقليدَهُ فيَسْقطون[2] وحرصِهِ على انتظامِ التدّاعي الذّهْني الذي يلمحُ على البعدِ، وانثيالِ المعاني بالخواطِرِ والأفكارِ تربيةٌ للإنسانِ العربي، وإعداداً لملكاتِهِ في التفكير

---

(١) أوراق الورد ـــ ٣٨٣

(٢) البلاغ ١٠ ديسمبر ١٩٢٦ م. وقول العقاد : « سمعنا من طاغور فلسفة البساطة العميقة والعُمْقِ البسيط ».. فقد عقب عليها الرافعي بكلمة كذا؛ أي كيف يكون العمق بسيطاً، إذ لم يَستطع العقاذ أن يتمّ الجناس بالمقابلة.

والتدبُّر،.. إلا أنَّه قد يَفْقِدُ الكثيرينَ من القُراء الذين لا صَبْرَ لَهُمْ على احتمالِ ذلك التركيزِ في القراءَةِ، والجَذْبةِ في التأمُّل، وإنْ عَدَّ قارئَهُ بمئةٍ من غيره[1].

ومن هنا اتّهم بَالغمُوض، ورُميَ بأنَّهُ يَنْبهَم على الكثيرين، وأنَّه يصعُبُ فهمُهُ.

وقيل لَهُ غير مرّة أن لو بَسَطَ الموضوعاتِ تلك، ولم يَخِلَّ بالإيجاز والحَذْفِ احياناً، واستعاضَ عن الإفاضةِ في التَفْتيق الذهني، واصطِيادِ الخَيالات المجنّحَةِ والتشبيهات الغريبة، لتوفَّر لَه سَعَةٌ في التأليفِ، وَبْسطَةٌ في التعبير وأدبِ الإنشاء، ولغَدَتْ دائرةُ قُرّائِهِ أوسَعَ من الأفقِ نفسِهِ، ولوافَتِ الفائدة المُرْتَجَاة من أدبِهِ أشمَلَ في النفعِ وأينَعَ في العطاءِ، وأنضَجَ في الإثمارِ[2].

ولعلَّ مردَّ ذلكَ — غير الذي أورَدَهُ من سَبْقِ النهضة[3] — الى سَبَبٍ نَفْسِي في الحِرْصِ، يَتَأتَّى لَه من حياتِهِ غيرِ المُرَفَّهَةِ، وكان فيها سِتْرُ الحال لا يَتعَدّىٰ الكفايةَ. دونَ البُحْبُوحةِ أو الفَراهَةِ في العَيْش، بحيثُ يكونُ إيثارُهُ الاقتصادَ كالمادة النَّفْسِيةِ في الفكرِ والإثمار فيه أبداً، فلا يكتُبُ إزجاءً للفراغِ، أو قَتْلاً للوقتِ، أو تَدْليساً على القراء، وإنَّما يحرِصُ كلَّ الحِرْصِ أن يُتمّ أدبَهُ في قرائِهِ، فيكونُ منهم طَبَقَةً أخرى من الأدباءِ وذوي الفكر[4].

---

(١) البلاغ — ٣٠ مارس ١٩٣٣ م.

(٢) المقتطف — ابريل ١٩٢٥ م

(٣) راجع هيكل — في أوقات الفراغ — ٢١٣، والدكتور صروف — المقتطف — مارس ١٩٢٥ م وأن الرافعي لم يرحم قارئاً، ورسالة منصور فهمي، وغيرهم.

(٤) ومن ذلك يرى استاذنا الأثري أن لا شأنَ لنا بأولئك القاصرين.

وربما كان ذلكَ مُتَأتياً مما ألقاهُ الدكتور صرّوف في رَوْعِهِ من أنَّ مقالاتِهِ في « المقتطف » تُترجَمُ الى اللّغاتِ الأوربية، وأنْ لا بُدَّ من الارتفاع بالمعاني الاسلاميّةِ الى المرتبةِ الانسانية العُلْيا التي يُقبلُ عليها الاوربيون، كي لا يُتَّهم الإسلام بالتَّعَصُّبِ أو العرقيّة وما إليها، ويكون أدبكَ السَّبَبَ في الإساءَةِ من حيثَ تُريد الإحسان[1].

وقد قالَ في ذلك مرّة: « أما هذا الذي يُسَمُّونَهُ غُموضاً وتدقيقاً فما أنا بصاحبهِ، ولا العاملُ فيهِ، ولكنهُ طورٌ من أطوار الزمن لا بُدَّ أن يَسْبِقَ نهضةَ التجديدِ كما سَبَقَ من قبلُ، فقد كانوا يَصِفُون به سيّديْ شُعراءِ العربيّة أبا تمامٍ والمتنبي، حتى قالُوا في أبي تمام: إنّه أفسَدَ الكلامَ وأحالَهُ وعقّدَهُ بتعملُّهِ وصناعتهِ، وإنه أتعَبَ الناسَ حتى صارَ استخراجُ معانيهِ باباً منفرداً في الأدبِ يُنْسَبُ إليهِ طائفةٌ من العلماء »[2].

وكان الرافعي قد شُبِّه بأبي تمام وعنايتِه بالمعاني منذُ بِدْءِ أيامه في الشاعريةِ والأدب[3].

والحقّ أن لغموضِ بعضِ أدبهِ روعةً خاصة، وما وقَفْتُ عليه من جُمْلةِ مآخذِ العلماء والدارسين[4] فهو عندي مَقبولٌ وحَسَنٌ — وإن لم أستطع أحياناً تَرْجَمتَهُ أو إيضاحَهُ بغيرِ حُروفِهِ، وتلكَ حقيقة يقرُّني عليها كثيرون!.

---

(١) من رسالة لصروف غير مؤرخة، أحسبُهُ كتبها عام ١٩٢٣ م وقد وردت الاشارة إليها في رسالة للرافعي الى الخطيب في ١٩٢٨/٧/٢٥ م

(٢) المقتطف — ابريل ١٩٢٥ م

(٣) المنفلوطي — سركيس ١٩٠٦/٩ م — مختارات المنفلوطي — ٢١٥.

(٤) الرافعي الكاتب — ٣٧

والدسوقي لا يُرجعُ ذلك الى الأسْلوبِ اكثر مما يرجِعهُ الى الفِكْرةِ، وقُرْبِها تارة وعُمْقها أخرى، وبساطتِها حيناً وتركيبها أحياناً[1].

والرافعي نفسُه يضيفُ بقوله: إن أرفَعَ منازلِ البلاغةِ أن يكونَ في قوةِ صانعِ الكلام أن يأتيَ مَرّةً بالجزلِ، وأخرى بالسهلِ؛ فيلينُ إذا شاءَ، ويَشْتَدُّ إذا أراد.. ولا يبلُغُ هذهِ المنزلةَ أحدٌ فيحكِمُها ويُعطيها حَقّها من التمييز إلا جَعَلَتْهُ الأقدارُ وَسيلةً من وسائلِ حفظِ البلاغة يَتَسَلَّمُ الزمنَ فَيُسْلِمُهُ.. بل قُل بالألفاظِ الصريحة يَتَسلّم لغةَ القرآنِ ويسلمها[2].

فالرجُلُ يَشْعرُ إذَنْ بأنّه مُسَخَّرَ بيدِ العِنايةِ الآلهية أن يجعَلَ من أدبِهِ مادّةَ اعتقادٍ فكري ومثالَ بيانٍ، وبراعةَ بلاغةٍ لجيلٍ آخر كانَ ينظر إليهِ في لَوْحِ المستقبلِ، فيُخيّل إليهِ أنّه يُملي عليهِ.

وربما فوّتَ الحِرصُ هذاك أنّه كان يَجزِلُ ألفاظَهُ ويحكمُ جُملَتَهُ، وقلّما يأتي بالسَّهْل أو يلينُ!.. ولعلَّ السَّهْلَ والهيّنَ عندَهُ كان عامياً، وإلا فما بالَهُ يدعو زكي مبارك بالنّثْرور؟ مع أنه في ديباجتِهِ من خيرةِ كتّابِ العصر اللاّحق؟![3].

* * *

ويُؤْخَذُ عليهِ تناقُضُه أحياناً، ولا سيّما في الدفاعِ عن نفسِهِ، كما جاءَ في ردّه على طه حسين قولُهُ في العبارةِ التي لم يَفْهمها: إنَّ

---

(١) الرافعي الكاتب ــ ٣٧.

(٢) المقتطف السابق.

(٣) رسالته في ١ سبتمبر ١٩٣١ م

الذوقَ في شيءٍ إنما هو فهمُه أو إنّما هو عن فهمِهِ، أو إنما ينْشَأُ عن فهمِهِ، فالعبارةُ في بابِ المجازِ واحدة لا تختلفُ[1]. فهو هنا يقرُّ للبلاغةِ بوجودٍ في المجازِ.

ولكنَّهُ حين يرُدُّ على ابراهيم المصري قولَهُ في أوراقِ الورد: « ألاعيبُ ألفاظٍ »، ينسى ذلك ويردُّ بقوله:

« لَيْسَ عندنا عبادةُ لفظٍ، ولا ألاعيبُ ألفاظ، ولا شيءَ يُسمى استعارةً أو مجازاً، فانَّ هذهِ كلماتٌ اصطلحوا عليها بَعْدَ الإسلام، عند تدوينِ العلُوم، ولم يعرِفْها بُلغاءُ العرب، ولا تعمَّدَ صَناعتها البيان.. الخ[2].

نعم إنه يريد أن يقولَ: إن البيانَ العربي سجيّةٌ وطَبْعٌ، قبل أن يكون صناعةً بيانيّة مجازاً أو حقيقة، ولا يتحكم فيهِ غيرُ الحال النفسيّة التي عليها الكاتبُ البياني مع أداتِهِ من الثروة اللُّغويةِ والخيالِ، ولكنهُ عبر هكذا ليطْمِسَ على ناقدِهِ ويُعَميّ عليه بِبعضِ مَنْطِقِهِ هو، فتأمل!!.

لقد كان الرافعيُّ عربيَّ العَقْلِ، فقِيهَ الفِكرْ؛ يُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخر، ويَرىٰ القرآنَ المَثَل الكامِلَ في الادَبِ والفكر والفقهِ، فيحمِّلَ أدبَهُ دعوةَ القرآن العظيم.

وكانَتِ الحياةُ الثقافية المترجمة من حولِهِ تَسْتَولي على مَيادينِ النشاطِ الصحافي والأدبي بألوانها من صَفَحاتِ التقليد والمُتابعَةِ والمَسْخِ، قد جَعَلتْ منهُ حِسّاً عربيّاً مُتَّقِداً؛ يضَعُ نفسَهُ وأدبَهُ موضعَ الفِدائيّ من المعركةِ.

---

(١) وحي القلم ٣ ــ ٢٨٩

(٢) البلاغ ١٩٣٣/٧/٢٣ م

غير أنَّهُ قد تَشْغَلُه وسائلُ المعركةِ عن أهدافِها في بعضِ الأحيان. إذ لُوحِظَ عليهِ التراجعُ، لا ليكُرَّ فيُجْهزَ على خَصْمٍ، وإنما ليقرِنَ سلاحَهُ في اللّغةِ والأُسْلوب والبيانِ بأَسلحةِ أولئكَ المُسْتكبرين الذينَ خَضَعوا للحياةِ الغاشيةِ في الفكرِ والأدب، والاجتماع؛ فهو يُفَلْسِفُ كلَّ شيءٍ يتصدَّرُ للقَوْلِ فيه، ويعودُ فيكتُبُ على طرازِ المُترجمين الذينَ يَسْخَرُ منهم — فصُولاً تشبهُ ما ينقلونَهُ من شعرِ الأمم[1]، أو هو يحملُ مقالاتِهِ بَعْضَ أسلوبِ القصَص المُترجم؛ وهو وإنْ أشرَقَ ببعضِ معانيهِ، وحَلَّقَ بقيمِهِ وأعرافِهِ عند مَريديهِ في تلك الأيام خاصّة[2]، إلا أنَّهُ في مثل ذلك التَّراجعِ يبدو وكأنَّه يتَهَافَتُ فتَصْدُرُ عنهُ بعض أحكامٍ كما مرَّ في الشعر[3].

ومن هنا تسلّلَتْ الى قلمه بعضُ عباراتِ (التراجمة) وقد اسْتعملها من غيرِ أن يفطِنَ الى ما وراءَها، على الرُّغْم مِن شدّةِ حَساسِيّتِهِ!.

بعض ترخّص

منها ترخصُهُ في استعمالِ عبارة (التعصُّب الأعمى)؛ فالتَّعَصُّبُ قوّةُ الثباتِ على المبدأ، بل هو قوامُ الاعتقادِ الحَسَن، ولا يكونُ إلّا عَنْ بَصيرةٍ، وما إلحاقُ صفَةِ العمىٰ بهِ إلا من قبيلِ حَرْبِ اللغةِ التي يمارِسُها أولئكَ الأغرار.

---

(١) أنظر له : التنهدات : أوراق الورد — ١٣٣، نشيد اليمامة : وحي القلم ١ — ٢٧. لحوم البحر : وحي القلم — ٢٥٨. احذري — وحي القلم ١ — ٢٦٢.

(٢) مثل العريان — ٢٠٤، أمين حافظ شرف : الشعب ١٩٥٧/٧/٢٤ م

(٣) راجع ص ٤٦٠ — ٤٦١.

تُرى هل حَسِبَ أن وصفَهُ بالعمىٰ يُبْعِدُ عنه ما يُوجَّهُ إليهِ؟!

ومنها استعمالُهُ لكلمةِ المَثَل الأعلى؟ وهي عبارةٌ لا تمتُّ الى التَوْحيدِ.

أما ورودُها في أساليبِ القَومْ فهو من قبيلِ الأشياءِ المُبْهَمَة التي لا تدركُ، فالرافعي لم يتَنَبَّهْ على ما فيها من مغالَطةٍ في كونِ الرّبِ عندَهم وليداً؛ ألا تَراهُمْ يجمعونَها (مُثُل عليا)؟!

قال تعالى: ﴿ولله المَثلُ الأعلى﴾[1] فلا تَرِدُ إلّا في مَوْضِعِها المُلائم. وإن البديلَ المؤمن لها « الأُسْوَةُ الحَسَنة » الواردةُ في صفَةِ الرسولِ الأعظم.[2]

أما في بعضِ المُفْرداتِ اللّغوية، وتصرّفهُ بالأفعالِ، وتَضْمينُها معاني أخرى، أو حملُها على المجازِ، فقد كان كثير المخاطرةِ في ذلك؛ يَضَعُ لها أوضاعاً جديدة[3]، حتى يوشك أن يقَعَ في أغلاطٍ نحويّةٍ ولُغَويّة قد لا يقبَلُها من سِواه.

ومن ذلك استعمالُهُ لكلمةِ (النقص) يريدُ بها (العَوَز) في مثلِ قولِه في أَدَق عبارة مَنْطقيّة ثائرةٍ له: « أرأَيْتَ مقدارَ الدّرْهَمِ الذي (يَنْقُص) الشعب؟! »[4] مع علْمِهِ أنَّ النَّقْصَ عاهَةٌ، وهو غيرُ العَوَزِ، وقد تكرَّرَت عنده كثيراً فلم يَتَنَبّه لها.

---

(١) الآية : سورة النحل الآية ٦٠ ـــ وانظر الإشراق الالهي ـــ الرسالة ٥١، رسائل الرافعي ـــ ٢٢١

(٢) كما في الآية ٢١ من سورة الأحزاب.

(٣) رسائل الرافعي ـــ ٢٠٤

(٤) حديث القمر ـــ ٣١

واستعمالُهُ كلمة تَذْوي في قوله:

اتّقوها فتنةً سوف تَـذْوي ببروقٍ من جَهْلهم ورعود

وكان أولى بهِ أن يقول: ستذَوّي.

* * *

وكذلك استعمالُهُ لكلماتٍ أعجميّة كإقليم وبرلمان وفونوغراف وبنك والتلفون وغيرها وكان يمكن أن يتدارك ذلك بترجماتٍ لها متوفرة في القُطْر ومجلسِ الأمة والحاكي والهاتف والمصرف وقد جرَىٰ على استعمالها محمد كرد على من معاصريهِ.

وكذلك استعمالُهُ للاستفهام بهَلْ مع النفي الذي يرِدُ مع العاميّةِ مثل قوله: هَلْ لم[1].

ويلاحظُ عليه كذلك إضافاتٌ زَعم أنها له في باب الاتّباع في مثل قوله: شَيْطان ليطان، وسهْلاً مهلاً[2]؛ فهي من إلحاقِ الكلامِ الدائر وهي أكثر من أن تُحصىٰ. ولهم في ذلكَ كلماتٌ لا حَصْرَ لها، بحيثُ لا تجوزُ أمثالُها على غيرِ المُسْتَعربين من الأعاجم.

أو قولُهُ: كلُّ ذلك جَهْل في جهلٍ في جهل[3]، وأعاليلُ بأُضاليل بأباطيل[4]، فالأولى عامية نازلة، والثانيةُ أشبَهُ ما تكونُ بالتلاعُبِ بالالفاظ ــ وإن زَعَموا ورودَها في نهجِ البلاغة![4]

---

(١) الرسائل ــ ٦٨، المعركة ــ ٨١

(٢) الرسالة ــ ١٦٥

(٣) الرسالة ــ ١٣١

(٤) ولما كان نهج البلاغة موضع مناقشة نسبته فلا اعتداد.

وصوابُ الأولى: جَهْل على جهل؛ والمرادُ إطباقُ الجَهْلِ على التفكير والخيالِ المركب، قال تعالى في صفة الوضوحِ والإشراق ﴿ **نورٌ على نور** ﴾[1] وفي الصفةِ الأُخرى ﴿ **ظُلُمات بعضُها فَوْقَ بعض** ﴾ ووَرَدَ لأبي الطيّب قولُه: أرق على أرقٍ ومثلي يأرقُ. وفي الكناياتِ العاميّة (وردٌ على ورد) في استحسانِ الجمال والطربِ له.

* * *

أخذَ بشر فارس كلمة « التُّبَّان » وزَعَم أنها من وضْعهِ بَدَلاً من كلمةِ (المايوه) وصَححّ عدنانُ أسعد ذلك بنسبةِ الوَضْعِ للرافعي[2].

والكلمةُ ما تبرَحُ دارجَةً في الموصلِ من العراقِ والجزيرةِ، وكانَتْ سِروالاً صغيرةً تَسْتُر العورَةَ المغلّظة، تكونُ للملاّحين والمُصارعين أيامَ العباسيين[3] والرافعي نفسُه أشارَ الى استعمالِ الجاحظِ وذكرِهِ الكلمة[4].

ترجَمَ كلمة (سكرتير) بصاحبِ سر، وكان أخَذَها عن مُصْطَلح قال: كان أيامَ أحمد بن طولُون يومَ اتخَذَ له (كاتب سرّ) مع أن كلمةَ أمين أحرىٰ بها وأليق، وقد وَرَدَتْ في صفةِ يُوسف عليه السلام مع صاحبِ مصر في قوله تعالى على لسانه ﴿ **إنكَ اليومَ لدَيْنا مكينٌ أمِينٌ** ﴾[5].

---

(١) سورة النور الآية ٤٠.

(٢) الرسالة ـــ ٣٧٩

(٣) مروج الذهب ـــ للمسعودي ٢ ـــ ٣٠٧

(٤) الرسالة ٦٧ ـــ وحي القلم ١ ـــ ١٢٣

(٥) سورة يوسف الآية ٥٤.

وفي الوقت الذي يُصيب فيهِ بتَسْميةِ السيجارة: الدَّخينة، « والبَنْسِيون »: المثوىٰ، و« الروب »: المِطْرَف، ويُكنّي بأرملة حكومة، وعفيفِ البنطلون، في حالَيّ جدِّهِ وتَظَرُّفِهِ في المُفاصَحةِ، نراهُ يبعَدُ أحياناً في محاولةِ تفسيرِهِ لكلمة العَصْر الواردةِ في بَيْتِ حافظ:

خمرةً قيلَ إنّهم عَصَروها من خدُودِ الملاحِ في يومِ عُرْسِ

إذ يجعَلُ للكلمةِ معنى تَتَقزّز منه النَّفْس بقوله: كلامُ من لم يَنْضج في البيان ولا الذَّوْقِ، لا يكادُ يَتَوهم إلّا أن في خُدودِ الملاحِ (خُرّاجات) عُصِرَتْ، وأنّ العامّة تقول: عَصَرَ الدمّل!! الخ[1]

وربما فاتَهُ قولُه تعالى: ﴿ إنّي أَراني أَعْصِرُ خمراً ﴾[2].

أو ربما رمىٰ الى المعنىٰ من باب جَعَلَ فيهِ عصر الخمر معنًى من المعانيِ التي لا تحفِلُ بها النفس، ولا تَلتَذُّ وإنمّا تَشْمئِز وتتقزز!! وبذلك تَبْتَعدُ الناس عن الخمر وعَصْرِها.. ولكنّهُ لم يُوفَقّ لما قَصَدَ إليه في مثلِ هذا المركبِ البعيد من اعْتِسافِ الردّ والنُّضْجِ في البيان، ولو ردَّ الشاعر في سؤالِهِ:

الم يَجدْ في الخدودِ مَعْنى غيرَ العَصْر؟! ومن ذا الذي يَعْتَصِرُ الخدودَ؟! لكان في ردِّهِ نوعُ بيانٍ ودلالة للمعاني.

* * *

ومنه تصرُّفهُ ببَعْضِ الأَفْعالِ، وقد حَمَلَ بعضهَا على المجازِ الذي

---

(١) المقتطف ــ اكتوبر ــ ١٩٣٢ م ــ وحي القلم ٣ ــ ٣٨٢

(٢) سورة يوسف الآية ٣٦.

يوقعُ في الالْتباس[1]، فيضطرُّهُ الى التعقيب[2]، إذ كان ينبغي أن يَسْتدرِك ذلك ولو بِهوامشَ تُظهِرَ قصدَهُ الذي يخرجُ فيهِ على استعمالِ العربَ ـــ كما تقدم.

أما بعضُ تصحيحِهِ اللّغوي فلم يكُنْ يَسْتوفي الحيثياتِ، مثل نِسْبتِهِ (النسائية)[3] وقوله: إنَّ النّسْوي والنّسائي كلاهما صحيحٌ، والاختيارُ في كلِّ موضعٍ للأفصَحِ،.. من غير أن يُعيِّنَ المواضعَ التي تصِحُّ فيها النِّسبَةُ الى الجَمْعِ وأنواعه.

* * *

نوع مبالغة

هنالك مآخذ أخرى فيها من الادّعاءِ والمُبالغةِ ما لا تليقُ بهِ في حال!.

ومن ذلك ما رواهُ سعيد العريان في شأنِ مجلة (البيان) التي أصدرَها صهرُهُ عبد الرحمن البرقوقي وترك لَه الصدارةَ فيها؛ إذ أدارَ حديثاً له زعَمَهُ مع الإمام محمد عبده[4] ذهبَ فيه مذهبَه في الكتابة والصحافةِ والبيانِ وكأنَّ الإمامَ هو الذي يرسمُ له المنهاج[5].

وقد أشارَ محمد رشيد رضا إليهِ حين رحَّبَ « بالبيان » في مجلتِهِ

---

(١) طه حسين ـــ الأربعاء ٣ ـــ ٦٧
(٢) وحي القلم ـــ ٣ ـــ ٣٨٨
(٣) وحي القلم ـــ ١ ـــ ٣٦٢
(٤) البيان ١ ـــ شعبان ١٣٢٩ هـ
(٥) راجع فصل الفنون في الباب الأول.

(المنار)[1] ونبَّهَ الى أنَّ الحديثَ لم يكُن بحروفِ الإمام!..

وكذلك ادعاؤهُ أنه كتبَ الجزءَ الأول من « تاريخ أداب العرب » في ثلاثةِ أشهر[2] و« حديث القمر » في شهرٍ، و« رسائل الأحزان » ما بين ١/٣١ و٢/١٣ من عام ١٩٢٤ م مع انقطاعٍ أيامٍ[3].

ولا أُدري كيفَ فاتَتْ عليهِ ــ وقد مرّتْ بنا قصّةُ تلك الكتب، وكيفَ تَمّ لَهُ تأليفُها وتصنيفُها، ولا بأسَ من إعادةِ القَوْل؛ أن مادّة التاريخ كان منها ما هو منشورٌ منذ أعوام[4]، وأنّ مقـالَيْهِ في آدابِ الجامعة[5] لَتَشِفُّ بل وتكشِفُ عن أنَّ الكتاب كان مُهَيَّئاً لديهِ، أو أنَّ مادتَهُ ومنهاجَهُ في الاقَلِ ــ متوفرةٌ عنده، بما يَعْجَزُ عن مثلها سِواه.

وما جاءَ في كتابِ الأحزانِ كانَتْ مادته في الشعرِ والجمالِ بدأ بها منذُ عام ١٩١٩ م كما مرّ بنا[6] « وحديث القمر » كان مقالةً في مجلة « الزهور »[7] ما فتئَ يَزيدُ فيها ويولّدُ في معانيها، ويبتكرُ لها الأخيلةَ حتى اسْتَوت عنده في كتاب.

وعلى كلّ حال قد يجوزُ أنَّه جمَعَ مواد هاتيك الكتب، واتَمَّ تنظيمها وإعدادَها للنَّشْرِ خلالَ تلك المُددَ، ثم بَدا له أن يَعدَّها أيام التأليف!..

(١) المنار ــ رمضان ١٣٢٩ هـ. وقد زَعَم العريان أنَّ الرافعي حدّثه بأن الشيخ رضا طابقه الحديث وادّعى أنّه كان حاضِراً!!
(٢) رسائل الرافعي ــ ١٠٢
(٣) رسائل الرافعي ــ ١٠٣، ١٠٥، المعركة ــ ١٠٤
(٤) المقتطف مايو ١٩٠٥ م
(٥) عام ١٩٠٨ م
(٦) راجع مبحث المنشئ المكين.
(٧) الزهور/٥ ــ ١٩١٢ م

ومن المبالغاتِ أيضاً ما رواهُ العريان عن كلمةِ « مُصَيّف » التي قيلَ إنَّ الكاتبة الأديبة « ميّ » كانَتْ تتحبَّبُ إليهِ بها[1] إذ قال:

« يزعُمُ الرافعي أن « مصَيّف » هي تصغير (مصطفى) على قاعدةِ الترخيم، وصوابهُ (صُفَيّ). قالَ العريان: إنّ الرافعي على علمِهِ بخطأ هذا التصغيرِ كان حَريصاً عليه، لأنها هي رضيتْهُ، فلا كانَ سيبويهِ وأبو علي وابن حيّان إذا رضيَتْ هي »[2].

وقد فاتَ العريان أن الرافعيّ نَفسَهُ ربما فوّتَّ عليهِ ذلك أن الكلمة نَعْتٌ في لغةِ العرب، ما يبرَحُ أهلُ الشامِ والعراق والجزيرة يَسْتعملونها الى اليومِ، فيصفُونَ بها مواليدَ الصيفِ الذين يعتريهم الضَّعْفُ والهُزال كلّما قَرُبَتْ أيامُهم من ذكرى ولادتِهم، وتلكَ حقيقةٌ علميّة يدركُها الأطباءُ، بل أدركها العرب قَبْلَ عهد عهيد، قال سليمان بن عبد الملك راجزاً:

إنَّ بَنــيَّ صِبْيَــة صَيْفيّــون أَفْلَحَ من كـانَ لَـهُ ربعيّـون

وكانت أمُّ الرافعي تُناديه بهِ تحبباً، واسْتِلْطافاً، وربما كانَتْ « مي » التي نشأَتْ في الديار الشامية (فلسطين ولبنان) تعرفُ ذلك فتحبَّبُ إليهِ بهِ، وتذكّرُهُ بنداءِ أمّهِ له بهذا النَّعْتِ، وما يَتداعىٰ لَهُ فيهِ من عَواطِفِ الحبّ وحَنانِهِ،.. وأوّلُ ما تدخُلُ الحبائب من بابِ القُلوب الذي تَفْتَحُهُ الأمومة.

---

(١) رسائل الأحزان — ١٦

(٢) حياة الرافعي — ٨٠

والرافعيّ بعدُ من مواليدِ أول الصيف[1] وكانَتْ تَعْتَرِيهِ الصيفيّةُ كلَّ عام تقريباً، فتُضْوي جِسْمَهُ وتُنْحِلُهُ وتعودُ بهِ « مُصيّفاً » وما من بأسٍ بَعْدُ أن يضحىٰ ذلك ترخيماً، أَلَيْسَ الترخيمُ من النداءِ؟.

* * *

وقد أُخِذَ عليه أيضاً عَدَمُ تراجُعِهِ حين يذهَبُ بعيداً في تخطئةِ أحدِهم في مسألةٍ نَحْوية لها وَجْه من وجوهِ التأويل عند بعضِ النّحاةِ في رفعِ جوابِ الشرط إذا كان فعلُهُ ماضياً، وإصرارهُ على رأيهِ، وتخطئةِ النحاة جميعاً، واعتدادهُ بتحدّيهم بأنَّهُ لم يردْ لها شاهدُ حكم في القرآنِ، وما وَرَد في كلامِ العرب من شعرٍ ونحوه، إن هو إلا شاهِد مصنوع للقاعدةِ الشاذة[2].

ولو ذَهَبْنا نؤاخذُهُ على أمثالِ هذهِ وتلكَ وهاتيك لخرجْنا الى دراسةٍ أخرىٰ في عُلوم العربية التي كان من أوسعِ الناس عِلماً بها، ولكنه كانَتْ تفوتهُ أشياء منها، نتركها لِمثلِ تلك الدراسة التي قد يَتَصدّىٰ لها من هو أخصُّ بها وأكثرُ عِنايةً واهتماماً وموضوعاً.

* * *

(١) الأول من رجب ١٢٩٨ هـ ٣٠ مايو/أيار ١٨٨١ م
(٢) المقتطف ــ نونمبر/تشرين الثاني ١٩٣٢ م

خلاصة

إنَّ الكتابةَ عندَ الرافعي كانَتْ فناً أثيراً، ودعوةً كريمة، وبَياناً اعتقاديّاً ثائراً أبداً، فهو المفكر الأديبُ، وقد اجْتَمعَتْ له الوراثةُ انحداراً من وفاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فكانَ شديدَ المِراس مُستَصْعبا، وهو في حياتِهِ « كالملكِ الذي حالَتِ السيوفُ والأَسِنّةُ والقوانين بينَهُ وبين تاجهِ » أو كما أشار[1].

وقد أُوتي الحكمةَ والفَضْل، فلم يَبْخَلْ بهما على فنّ فيها، وأثرىٰ اللُّغةَ بمُعطياتِهِ من أساليبِ البيان، وتقدّم بالتعبيرِ والإنشاءِ خُطُواتٍ مشهُودة، ومكنّ للتأليفِ بمنهاجٍ عُرِفَ له في مُحَصَّلةٍ من ضَم المذاهبِ والأفكارَ والتقائِها، واتّخَذَ النقْدَ وسيلةً للإتيان على الجَوانبِ الضَّعيفَةِ من الفكرِ والأَدَب، وإقامةِ المَعْدَلَةِ من أمرهما، وآتىٰ الأدبَ فقهاً ونماءً، وعرّفَ بالعربيةِ أهليها، ومكن لها من الثبات أمامَ زحُوفِ اللُّغاتِ والفُسولات، واتّخَذَ الذَّوْقَ حجّة، والأسلوب تمكنا، والفكرَ مَيْداناً تجولُ فيهِ المعارفُ والصفات.

---

(١) رسائل الأحزان ـــ ١٧

وكان قد اجتَمَع له من العِلْمِ والبَصَرِ بالعربيةِ وآدابها، وفِتَنِ الجمال في بيانِها، ومن المعارفِ والثقافاتِ ما أشرَقَ بهِ عَلَيها في عَصْرٍ وقَفَتْ فيهِ على مُفْترقٍ خطير! فكان الأديبَ الذّوّاقَةَ بحق، والمُنْشئَ المكين بصِدْق، والمؤلّف الثّبْتَ باقتدار، والناقِدَ القويم، والإمامَ الذي تجْتمعُ فيهِ الرجولةُ والضميرُ والدّمُ الكريم، ويمضي بهِ الحبُّ والجهادِ والإخلاصُ، ويهيمُ فيهِ السّموّ والجلالُ والشهادة.

وما كانَ كذلك فحسْبُ، وإنما كانَ العربيَّ المؤمنَ الذي تَمثَّلَتْ في سيرتِهِ وأدبِهِ حَقيقةُ العَصْرِ الذي عاش!

الفصل الثاني

الموضوعات المحدثة في أدب الرافعي

تمهيد

كان العَصرُ الذي عاشَ فيهِ الرافعيّ عَصْرَ غَزْوٍ فكريّ وإلهاءٍ بالآراءِ الوافدةِ، وانتشارٍ لبعض المُعْتَقدات، واضْطِراب في الدراسات؛ تَسْتَغْرِبُ فتبحَثُ عن ثُغْراتٍ لها في تاريخِ هذه الأمة؛ تَلِجُ منها على قيمِهَا وأعرافِها، فتحاوِل الوقوفَ عليها وإدراكَ خصائِصها المّيزاتِ، ومَبْلَغِ الأَصالةِ والعُمْقِ الذي ثَبَتَتْ فيهِ على الزّمن اعتقاديًّا بما يَفْرِدُها بين الأمم، كالمُعْجزة الخارقةِ — على الرّغْم ممّا تعرَّضَتْ له من صُروفِ الدهر.

وكان ذلك الغزوُ يلاقي المقاومَةَ، ولكنها لم تكنُ، بالدَّرَجَةِ التي تثبُتُ فيهِ وتَتحدّاهُ، أو تَقْهرُهُ فترُدُّ عاديتَهُ، وإنما كانَتْ تبدوُ في مهمّتِها الدفاعيةِ حَسْبُ.

وكان لا بُدَّ للجهادِ الذي يَضْمَنُ النصر، من مَرْحلَةٍ يَتمُّ فيها الاسْتعدادُ، وتُسْتكملُ العُدّة، ويَتَهيّأ العَتاد، فقد كان لا بُدَّ من إرادَةِ التَّغْيير التي تَطَرأُ على ممارسةِ الجهاد الفكريّ نفسِهِ، بحيثُ تَسْتَشْعِر الأُمّةُ وجودَها

الاعتقاديّ الحق علماً وعملاً، ولا سيما بعد استطاعةِ الغَزْوِ هذاك التَسَلُّل الى صُفوفٍ فكريّةٍ فيها، والانْدِساسَ في مناحيها الأدبية، واستساغتَهُ في محاولاتِها الاقْتِصاديّة، ودَورانَهُ في مساربها الاجتماعية، ومبادراتِها السياسية وتصوّراتِها القوميّة.

أَجَلْ.. لقد وَصَل الحالُ عند بَعْضِهم أن أَضْحى الفكر الصهيوني عندَهُ المثَلَ؛ يَنقُلُونَ عن رأسِهِ « ماكس نورد » آراءَهُ في القوميّة[1]، وأفكارَهُ الفلسفية ومذهبَه في الجمال[2]. وذلك بعدما هيأتِ الماسونية لهذا، يظاهِرُها التبشيرُ بمدارسِهِ الكُثْرِ، عند ذلك التاريخِ تحتَ ظلالِ الغَفْلةِ والاحْتلال، وما دُعي بحريّةِ الفكر في بعضِ الأحيان! ولِيَنْشأَ عنهُ الكفْرُ إذا كانَ.

مهمة الكاتب

ومن هنا كانَتْ مهمةُ الكاتبِ العربي خَطيرةً، ومسؤوليتُه أكبرَ؛ تريدُ لها الدعوةُ بأسَ الصَّناديد، وعُقولَ الأفذاذِ، ومُصابرةَ أولي العَزْمِ من الأبطال.

وقد شاءَتِ الأقدار أن يعرِفَ الرافعي نفسَهُ على حقيقتها، وأنَّ الله ادّخرَهُ لِمُهمّةٍ أعظمَ وأجلَّ شأناً، وأنَّهُ هُيِّئَ ليكونَ هِبة العليّ القدير لهذِهِ الأمة؛ يدافعُ عن عُروبتها وإسلامِها بالحُجَةِ الدامغة والعَقْلِ الرجيح والبيانِ الخلّاب »[3].

---

(١) أنظر عادل جبرة في ترجمة (روح القومية).

(٢) راجع عباس العقاد ـــ الفصول.

(٣) الدسوقي ـــ الرافعي الباحث العليم ـــ الرسالة الاسلامية ـــ ٦٤

وهكذا عادَتْ مَسْؤُوليةُ الرافعي الكاتب في هذا العصر خطيرةً بالغةَ الشأْنِ.

ولعلَّ التفسيرَ من أنّ حرمانهُ مراحِلَ من التعليمِ (الرسمي) قد جَعَلَ منه يدركُ مهمّةَ المُعلّم، فيتخذَ وسائِلَهُ لنفسِهِ أولاً، حتّى إذا أثْمَرَ فيها عادَ يُهَيِّئُ تلكَ الوسائلِ للمُعلّمين والتلامذةِ معاً، ثم يَتميَّزُ فَيجْعَلُ مذهبَهُ في الحياةِ الدعوةَ الى العِلْمِ الحقّ والفَهْمِ الصحيح، والإلمامِ الذي ينتقل فيهِ الإنسانَ العربيّ من مَرحلةٍ الى أخرى!.

وهكذا كان في مُعظَم ممارساتِهِ من الكتابةِ والأدَب والنقدِ؛ وقد دَلَّ فيها على أَصالةٍ في هذا المضمارِ، وعلى عُمْقِ نَظْرتِهِ وبُعْدِ دعوتِهِ في تمييز الغاياتِ وإصابةِ الأهداف؛

فهو في ديوانِهِ يفتَحُ باباً للتهذيبِ في منظوماتٍ يُرَدِّدُ فيها الحكمةَ والمثل، ويقوّمُ اللّسانَ والإنسان، ويجعَلُ منها محفوظاتٍ لأبناءِ الجيل[1].

ويعودُ الى ملكةِ الإنشاء وضَعْفِها لدى الناشئةِ، فيحاولُ وضْعَ أمثلةٍ لها من فَنّ أدبهِ الذي يُغْنِيهِ بالمُفرداتِ، ويُنبتُهُ بالكلماتِ، ويقوّمهُ بالمعاني والابتكاراتِ، ويُوَشّحُهُ بالكناياتِ والاسْتعارات؛ يُوَلّد بعضهَا من بعض، ويجعَلُ للتّشْبيهِ وفنون البلاغةِ الأخرى أجنحةً من الخيالِ تَسْمُو بالإبداعِ، وتتبارك بالتفتيقِ الذهني، وتَصْطَف في تقابلِ الصور، وازْدِحام المشاعر، وانثيالِ الأحاسيس؛ مما يَنْمُو مع الممارسةِ والدّرْسِ والتأملِ والاسْتغراق.

ويومَ وَجَدَ دروسَ الأدبِ في «الجامعةِ» قاصِرةً عن مُهَمتِها في

---

(١) أنظر ـــ أغاريد الرافعي.

إنشاءِ الأُمّةِ إنشاءً سامياً، بادَرَ في دعوتِهِ، وكانَ له أثرُهُ في موضوعاتِ الدراساتِ الأدبيّةِ التي تعمرُ بها كليّات اللُّغةِ العربية الآن[1] وحسبُه ذلك الكتابُ القيّم الذي لم يُنسَجْ على منوالِهِ، ولا هو قلَّدَ فيه سابقينَ في الأبوابِ والموضوعاتِ التي مَضى يفتَحُها للدارسين، فكان تأليفهُ فيها مُحْدثاً صِفةً ومنهاجاً، وكان موضوعُهُ كأنَّه بِكْرٌ ينفردُ بين محاولاتِ المُسْتَعربين والمستغربين آنذاك، وكذلكَ سائرُ أدبهِ في ميادينهِ العلمية، تأليفاً ونَقْداً، أو في مجالاتِهِ الإنشائية والتحليليةِ الفَلْسَفيّة التي كَتَبَ بها سائرَ فنونِهِ النثريةِ الأُخرىٰ، فكانَ الدليلَ على الهدايةِ التي تَتحرّاها الأُمّةُ أبَداً.

* * *

أما الكتابةُ المحدَثَةُ في أدبِ الرافعي فهيَ من الكَثْرةِ والاتّساع بحيثُ تَسْتَصْعبُ على الدارسِ أن يُحيطَ بها مَرّة، وإنما قد يُميّزُ فيها مذهبَهُ واتجاهَهُ في أقربِ الموضوعات التِصاقاً بالحياةِ والجُمْهورِ.

وفي مقدّمتها « الحبّ » هذا الناموسُ الإنساني الذي لا تُغادِرُهُ حياة، والاجتماعُ بأوضاعِهِ الاقتصاديةِ والحضاريةِ، وما تتميَّزُ بهِ الأمةُ من ضميرٍ يَنهضُ بها أبداً..

وللرافعي فيها مدارسَةٌ ونَقْد وحُسْنُ توجيهٍ.

* * *

(١) راجع موضوعات الاطروحات في السنوات الأخيرة، وتأمل منهاج كتابه !!

المبحث الأول

الوجدان والحبّ والجمال

من أظهرِ المَوْضوعاتِ المُحدَثَةِ في أدبِ الرافعي، ما كانَ من دَعْوةِ الحُبّ وتقديرِ الجمال، تلكَ الظاهرة التي قد تَبْدوُ غريبةً في جيلِهِ، فينفَردُ بها، ثم يَدْعُو لها تربيةً وإخلاصاً.

نَشَأ الرافعي شاعِراً مَفْتُوناً بالجمالِ؛ يألَفُ الحبَّ، ويَهيم بالحُسنِ، وكانَ لَهُ في صِباه وشبابهِ صَبَواتٌ أُثمر فيها رائقَ شِعْرِهِ، وحُلْوَ رَسائِلِهِ ونثرِهِ، وضَرَبَ المثَلَ بنَفْسِهِ في العفة والحبّ، والإنسان الذي يسمو بغرامه فوق الغرائز والشهوات،.. فما فتئَ يجاهِدُ خَطَراتِ الفِكْرِ بَعيداً عن الآثامِ وتكريماً لذاتِهِ:

« لا سمُوٌّ للنَّفْسِ إلا بنَوعٍ من الحُبِّ مما يَشْتَعلُ الى ما يَتَنسَّم؛ من حُبّ نفسِكَ في حبيب تَهْواهُ، الى حُبّ دَمِكَ في قريب تعِزُّهُ، الى حُبّ الإنسانيةِ في صَديقٍ تَبرُّهُ، الى حُبِّ الفضيلة في إنسانٍ رأيتَهُ إنساناً فأجلَلْتَهُ وأكبَرْتَهُ »[1].

---

(١) السحاب الأحمر ــ ٢٣

وفي هذا السموّ يتجدَّدُ الدينُ، وتَجيء الرسالاتُ، وتباركُ الدَّعَواتُ، وكذلكَ يرىٰ الرافعيّ « أن الحُبَّ الصحيحَ — إذا سَلِمَتْ فيهِ دَواعي الصّدْرِ، واعتدَلَتْ بهِ نوازي الكبد، وتوثّقَ فيهِ عَقْدُ النيّةِ، واسْتَوى غيبُهُ ومَشْهدُهُ، كانَ أشْبَهَ بقُوّةٍ سَماويّةٍ تعمَلُ عَمَلَها لتُبدِعَ من الإنسانيةِ شِعْراً أَسْمىٰ من حقائِقها، كما كانَت الانسانيةُ نَفسُها قُوّةً عملَتْ أعمالها لتُبدِعَ من حقَائِق الطَّبيعَة أَخْيلَةً أجمَلَ من مادّيّها؛ فشِعْرُ العَقْلِ تَخْلقُهُ الإنسانيّةُ من الطبيعةِ بالعِلْمِ، وشِعرُ القَلْبِ يخلقُهُ الحُبُّ من الإنسانيّةِ بالجمالِ، ومن ثمَّ فالحبُّ كالطبقَةِ بين الإنسانيةِ والإلٰهية، ألا تَراهُ يأبىٰ حينَ يكونُ إلّا أن يكون وحدَهُ هو الحَقّ؟! »[1].

لوثة الاجتماع

كانَتْ هنالك أفكارٌ ودَعَواتٌ مُترجمةٌ بأقلامٍ مُختلِفَةٍ في موضوعاتِ الحُبّ والجمالِ[2]، وكلُّها يَنْحُو مَنْحىٰ الحوادِثِ، مما تكثُر صوَرهُ في القِصصِ والروايات بسُوقيّةٍ مُبْتَذلةٍ، وتخانيثَ ومُعابثاتٍ كانَتْ خِشْيةَ الرافعي من شُيوعِها « أنْ تَنْزِلَ بالصّفاتِ السامية الى الدَّهْماءِ والأوشابِ، وهذا الهَمَجِ الهامجِ في إنسانيةِ الحياةِ — وقد نَحَلُوها من طباعِهم لا طِباعِها أسماءَ، فتغدُو الفَضيلَةُ عندَهم غَفْلةً، والسُّموُّ كبرياء، والصَّبْرُ

(١) أوراق الورد — ٢٤

(٢) منها ترجمة رسائل الغرام لسليم عبد الأحد، وقد نُشِرَتْ في « البيان » مُنَجّمةً، ثم دارَتْ في مطبوع، وكذلك شيوع آراء شوبنهور، وأفكار ماكس نوردو التي تولّى نقلها العقادُ وبقيةُ تراجمةِ الوكالة!

بلادَةً، والأَنَفَةُ حماقةً، والرُّوحانيةُ ضَعْفاً، والعِفّة خَيْبَةً، والحُبُّ اسمُهُ الفِسق »[1].

ذلك أن اضطرابَ الأَيَامِ السياسية، وتَقَلُّبَ الحالِ الاجتماعية، وتَفرُّقَ الأفكارِ آنذاك ــ ولا سيّما عَقيبَ الانقلابِ الاتّحادي وما لحقَهُ من مجزرَةِ (اسلام بول) ونُزولِ السلطانِ عبد الحميد عن عَرْش الخلافةِ، وتفَاقُم خَطَر الاحْتلالِ بمصرَ الى الدَّرَجَةِ التي استطاعَتْ فيها الفِئةُ الباغيةُ من ذَوي النزعات الإِلْحادية من « الماسون » وسِواهم، ممن كانوا يَنعتونَ أنفُسَهم بذوي « المصالح الخاصة »، الهَيْمنَةَ على مَقاديرِ البلادِ هنا وهناك.

كلُّ أولئكَ أَوجَدَ حالةً مأساويّةً للفكرِ العربي بخاصّة والانساني بعامة،.. كانَ من بعضِ ذُيُولِها الموافقة على مناهجِ « دانلوب » التبشريّة في التعليمِ والتأليفِ الدراسي بمصر، ثم ما كانَ من ذَرِّ الفتنةِ الطائفيةِ الرَّعْناء التي أودَتْ بحياةِ رئيس النظار بُطرس غالي، في ذلك الفَصْلِ من تاريخِ مِصرَ الضّليل الذي تنطّع فيه الخونة بالعمالة والدناءة.

كما أنّ الدعوةَ الاسلاميّة كانَتْ في حالٍ من الضَّعْفِ وسيطرةِ الجَبْريةِ والزُّهْدِ على أصحابها بحيثُ تبْتَعد بهم عن الحياةِ.

« فالزاهِدُ يحسَبُ أنَّه فرَّ من الرذائِلِ الى فضائِله، ولكن فرارَهُ من مجاهدِةِ الرذيلةِ هو نَفسُهُ رذيلةٌ لكلّ فضائِلِهِ!..

وماذا تكونُ العِفّةُ والأَمانَةُ والصِدْقُ والوفاءُ والبر والإِحسانُ وغيرها، إذا كانَتْ في مَنِ انقطَع في صحراءَ أو على رأسِ جَبَل؟!

---

(١) أوراق الورد ــ ٢٢

أيزعم أحَدٌ أن الصّدْقَ فضيلةٌ في إنسانٍ لَيْسَ حولَهُ إلا عَشَرةُ أحجار؟!

وأيّمُ الله إنَّ الخالي من مجاهَدَةِ الرذائِلِ جميعاً، لَهُوَ الخالي من الفضائِل جميعاً »[1].

لقد مكن هذ وسِواهُ من أن يتَصدّى الصَّليبيّون العائدونَ وعملاؤهُم في البلاد للإسلامِ ودينِهِ القويم، ونبيهِ الأَمين، وأهليهِ؛ يتهّمونَهم بأَسْوأ التُّهَم[2] مُمهَدّينَ بذلك للإثمارِ في الحركاتِ التبشيرية والمفارقة التي كانَتْ حتى ذلكَ الوقتِ تُعاني من المقاومَةِ الاعتقاديةِ بشكلٍ ما!.

الواجب القومي

ومن هنا وَجَد الرافعيُّ أن الواجبَ القوميّ يدعوهُ للارتفاعِ بالدَّعْوةِ العربيةِ المؤمنة الى منزلةٍ من الاسْتشْرافِ والمحجةِ؛ يُصَوّرُ فيها للنّاس بوازعٍ من ضميرهِ اليَقِظِ هٰذاك أمام الغزو الفكري الأَثيم؛ أنَّ الإسلامَ الحنيف والايمانَ العظيمَ يتمثَّلانِ في سُموّ الحبّ والعاطفةِ الإنسانية، ولا تَنْفردُ النصرانية بذلك، ولا تمتازُ بدينِ المحبةِ كما يُصَوّرُها ذلك الغزوُ، وإنما الدينُ الحنيف هو الإخلاصُ في الحُبّ لا الحب وحده، ولهذا سُميّ الإسلامُ دينَ الإخلاص، وفي هذا التسامي يقول:

« الحبّ إيمانُ النَّفْسِ بكائنٍ ظاهِرٍ، والدينُ إيمانُها بكائنٍ خَفِيّ،

---

(١) وحي القلم ٢ ــ ٩٧

(٢) راجع الباب الأول، وأنظر أنور الجندي في (معركة التغريب)!!

ألا يكونُ ذلك أُسلوباً في الطبيعةِ لحفظِ الإيمانِ في الإنسانية؟! »[1].

ألا تراهُ يرُدُّ على اعْتراضِ الخطيب بقوله: « إن الحُبَّ ناموسٌ لا يمنَعُهُ شيءٌ، وتركُ الكتابَةِ فيهِ لا يمنَعُ وقوعَهُ، والوجهُ أن يُكْتَبَ في اصلاحِهِ وتَطْهيرِهِ وتَحويلهِ الى المعاني الرُّوحانيةِ ليكونَ وسيلةَ سُموّ »[2].

ولمّا كانَ القلبُ « هو سِرُّ الجمالِ الإنسانيّ؛ لأنَّ فيهِ بَرَكةَ النَّفْسِ وزينتَها وسَكَنها، فالبركةُ تَنْبُتُ من الخُلُقِ الطيّبِ، والزّينَةُ تخرُجُ من الفكرِ الجميلِ، والسكنُ يَثْبُتُ بالإيمانِ واليقين، وما جمالُ النَّفْسِ الإنسانية إلا خُلق وفكرةٌ وفَضيلةٌ مؤمنَةٌ »[3].

تمام الشريعة

ومَنْ ذا الذي يكشِفُ هذا السِرَّ غيرُ الكاتبِ البليغِ الذي هو من رُوحِ الدّين وتمامِ الشريعة واتّساقِ العقيدةِ في الانسانيةِ، غيرُ مَنْ كانَ في مواهِبِ قلمِهِ لقباً من ألقابِ التاريخ؟!

ذلك الذي يَسْتطيعُ تَفْسِيرَ الحياةِ بإعادَةِ تَلوينها، والتّنبيهِ على مكامِنِ السِرّ والقُوّة فيها، وهَلْ حارَ الفلاسِفَةُ والمفكرون في تعريفِ شَيْءٍ كما حارُوا وتَمَذْهَبوا طرائقَ في تَفْسيرِ ظاهرةِ الجمال؟!

---

(١) أوراق الورد ــ ٢٤٣
(٢) من رسالته المؤرخة في ١٩٣١/٣/٦م
(٣) رسائل الأحزان ــ ١٠٦

ميدان التجربة

إنَّ الرافعي ليجعَلُ من نفسِهِ ميدانَ التَّجْرِبَةِ والتَّفْسيرِ، فَيُصيبُ من الأهدافِ ما فاتَ أولئك إذ يقولُ:

إرْسِمُوا شَخْصَ الوَفا ثُمَّ انْظُروا مِنْ بَعْدُ رَسْمي
لو يُسَمّى في الأَنامِ الحُبُّ ما اختارَ سِوى اسْمي

وهل سُمو الحبُّ في غيرِ الاصْطفاءِ الصادقِ ورفْعَتِهِ؟!
إنَّهُ يَخْترقُ الصفوفَ ويَمْضي الى الغايةِ في مثْلِ قوله:

« لو أنيّ سُئِلْتُ تَسْميةً لِعلْمِ الجمالِ لسَمّيتهُ « عِلْم تَجديد النفس »!.. فإنّ الجميلَ الذي لا يُجَدّدُ بمعانيهِ حواسَّكَ وعَواطِفَكَ ويُعيدُها غَضَّةً طريةً كما فُطرَتْ من قَبْلُ، لا يُسَمّى جَميلاً إلّا على لُغَةِ المجاز »[1].

وَليْسَ بجمالٍ إلّا ذلك الرّوح الذي يرفَعُ النَّفْسَ الى أُفُق الحقيقةِ الجميلةِ، ثم يَنفُخُ فيها مِثْل القُوّةِ التي يَطيرُ بها الطيرُ، ويَدَعُها بعد ذلك تَترامىٰ بَيْنَ أُفُقٍ الى أُفُق »[2].

وهو إذْ يحلّلُ الجمَالَ يَرْقىٰ في تَفْسيرٍ فَريدٍ فيقولُ:

« الجمالُ في حَقيقَتِهِ التي لا تَخْتلِفُ على التأويلِ والتَّعْليل، إنّما هو مَعْنى من المعاني يَعْلَقُ بالنَّفْسِ فيُحْدِثُ فِكْراً مُتَمكناً تَتَطاوَعُ لَهُ النَّفْسُ العاشِقةُ حتى تَنْطبعَ عَليهِ، وحتّى ينطبعَ فيها فَيَسْتَحْوِذَ على الإنسانِ كلِّهِ بجزءٍ من عَقْلِهِ، ومن ثمَّ يَتقيّدُ المحبُّ بقَيْدٍ لا فكاكَ لَهُ؛ إذ

---

(١) المضمار — نوفمبر ١٩٢٢ م
(٢) السحاب الأحمر — ٢٢

لا يَجِدُ ما يَنْتزِعُهُ من عَقْلِهِ منه، وبهذا يكونُ الجمالُ على مِقْدارِ ما يُحْسِنُ الإنسانُ أنْ يفهَمَ منه، ثم على مِقدارِ ما يُؤَثِّرُ في هذا الفَهْمِ، ثم على مِقْدارِ ما يَثْبُتُ من هذا التأثيرِ، وتلك هي درجاتُهُ الثلاث؛ فجمالٌ تَسْتَحْسِنُهُ، وجَمال تَعْشَقُهُ، وجمالٌ تجنُّ به جُنوناً »[1].

القيم والأعراف

وهو حينَ انْصرفَ الى الجمالِ يَتأمَّلَهُ ويَبْحَثُ عن آثارِهِ في نَفْسِهِ، ويَلْجأ الى معانيهِ، إنما كان يُدْرِكُ هذه الحقيقةَ في الإنسانِ، فأرادَ النَظْرةَ التّنْزيهيّةَ لَهُ، ليكونَ من ثمَّ مادّةَ الفطرةِ الإلّهية التي فَطَر النّاسَ عليها، وليَعُودَ الحبُّ بعد ذلكِ قيماً وأَعْرافاً يُتوسَّلُ بها الى أشرفِ الغاياتِ وأسمىٰ الأهداف.

الحبُّ عندَهُ « بَعْضُ الإيمانِ، وكما أنَّ الطريقَ الى الجَنّةِ من الإيمان بكُلّ قوىٰ النَفْسِ، فانّ الطريقَ الى الحُبّ من قُوّةٍ لا تَنْقُصُ عن الإيمانِ إلّا قَليلاً، والخُطْوةُ التي تَقْطَعُ مسافةً قَصيرةً الى القلب تَقْطع مسافةً طويلةً الى السماء »[2].

ومن ذلك كانَتْ عَزيمةُ المَضاءِ عِندَ العُشّاق، ومُخاطَرةُ الإيمان عند المُحبّين، وصبرُ الجِهادِ لَدىٰ المُتَيَّمين، بما يُشْرِقُ على أرواحِهم من يقظةِ الوجدانِ، وما يَنْمُو في أفكارِهم من حياةِ الضَّمير، وما يَصْفُو في قلُوبِهم من جَلاءِ البيانِ وجَلالِ البلاغةِ في الرَّوْعةِ ودليلِ الفصاحةِ في الإعلان.

---

(١) المضمار — ٤ ديسمبر ١٩٢٢ م — رسائل الأحزان ١٢٨

(٢) السحاب الأحمر — ٢٤

المترجمات

وأَحسَبُ أَنَّ وقُوفَ الرافعي على قَضايا مُتَرْجَمَةٍ في رواياتٍ، ووقائعَ مُقَلّدةٍ في قَصَص، فيها من الأَخْبارِ ما يَحِلُّ ويحرُمُ، وما يُوشِكُ أَنْ يتهدَّدَ العُرْفَ في أَخصّ مراحلِ الحياة والشَّباب، هو الذي كانَ يَدْفَعُهُ الى هذا السبيلِ الذي اخْتَطَّهُ لِنَفْسِهِ أولاً، وليكونَ بعد ذلكَ سُلوكاً أميناً للحياةِ عندَ الشبابِ.

ألا تَراهُ بعدما انْقَلَبَ الى موضوعِ الزواج حيثُ تقومُ لَهُ في الشرقِ العربيّ المختلفِ على وسائِلِهِ مُشْكلة تعقَّدَتْ والْتَوَتْ مثلُ مُعْظَم مُشْكلاتِهِ الأخرى — يقول:

« .. ومِن فسوقِ الكتّابِ والكَثْرةِ من العَباقرةِ أَنَّ الحياةَ طغَتْ فيهم طُغْيانَها العَصَبيّ الشّديد؛ يُريدونَ المرأةَ المُغِلَّةَ كأَنَّها من الفَنّ الحيّ تَغُلُّ عليهم من ثَمَراتِها، وهؤلاءِ تركة على الفَنّ، ولكنّهم بلاءٌ على الدين والفَضيلةِ، ومن سُخْرياتِ الحياةِ بهم، أن يكونَ العبقريُّ فيهم هو من ناحيةٍ أخرىٰ الحيوان العظيم »[1].

إنشاء الأمة السامية

إنَّهُ يتحامىٰ بالشبابِ عن مَواطنِ الشُّبُهاتِ، وَيرْتقي بهم صُعُداً الى الفَضيلةِ، سُمّواً بالحياةِ نفسِها، ولذلك كله.. ما كادَ ينتهي من حَلَقاتِ أدبهِ هذا في الحُبّ والجمالِ وفلسفَةِ الحياة، فيُخْرجُ فيها روائعَهُ في

---

(١) مجلة الاشاعة — ١٩٣٤ م — الرسالة — ٤٨٢، ثم أزمة الزواج — ١٩٤

« حديث القمر » ومناجاتِهِ، وفصولاً منه جَعَلها رسائلَ ثم سمّاها على (الأحزانِ) التي انْتَهَتْ إليها، حتى عادَ يَسْتمطرُ « السحاب الأحمر » جَليلَ معانيهِ، وطَفِق يَخْصِفُ عليهِ من (أوراقِ الوَرْد)، وقد همَّ أن يَجْعَلَ ربيعَ كلِّ عامٍ مَوْعِداً مع الحُبّ في أناشيدِهِ العُلْويةِ مع الرُّوح الانسانية(١).

ويُثبِتُ في كُلّ ذلك وجودَهُ الفكريّ والاعتقادي معاً في تجديدِ عَطاءِ العربية في آدابها صِفةً ومادّةً؛ يَتحوَّلُ بها الى جوانبِ الحياةِ والاجتماعِ يَخُصُّها بالدراسةِ والتأمُّلِ، ويَنْتهي مَعهَا الى أحكامٍ وحقائِقَ لا عبرٍ وعظاتٍ فحسبُ!.

على أنْ كُتُبَهُ هذه لم تكُنْ وَقْفاً على الحُبّ وخاصّ معانيهِ، ولا الجمالِ وأسرارِهِ، وإنما ضمّنَها دَعْوتَهُ العربية المؤمنة التي أرادَ بها إنشاءَ الأُمّةِ إنشاء سامياً، كما هيَ مهمةُ الأديبِ عندَهُ.

ولما كانَ (حديث القمر) هو الثَّمرة الأولى في غَرْسِهِ الفكري الأديب، وكونُه لم يَظْفَرْ بدراسةٍ أو مُناقشةٍ أو مُناظرة، كما ظَفِرَتْ آثارهُ الأخرى، وإنما اتُّهِمَ بالغمُوض، فإنيّ لمورد بعضَ محتوياتِهِ من الدّعْوةِ القومية التي أرادَ الرافعي بها تغييرَ نَمَطِ الحياةِ الوجدانية لدىٰ شبابِ الأمة، ليكونوا على بينةٍ من انفُسِهم أولاً.

كان الكتابُ مقالةً صَرَفَ فيها وَجْهَ الحديثِ الى القمر، وقالَ فيه تورية، وأنَّهُ هو الذي سَمّى حبيبتَهُ (القمر) لفَرْطِ جمالها(٢). وقد

---

(١) محمد الصاوي عمار : المعرفة ٣ — ١٩٣١ م

(٢) رسائل الرافعي — ٦٤

كتَبه « على نَمَط من الكتابةِ يَجْعَلُ طالبَ الإنشاءِ بإدمانِ قِراءتِهِ وتأمُّلِهِ مُنْشِئاً؛ إذ يُربّي فيهِ مَلَكة التَّخَيُّلِ الصَّحيح التي هيَ أَصْلُ البلاَغةِ، ولا بَلاغةَ بدونِها » كما أعلَنَ ذلكَ على غِلافِهِ[1].

ثم انه مَرَّ عليهِ، وأَصْلَحَ منهُ قليلاً ما يستبين بهِ بعضُ معانيهِ، مع إضافةِ قليلٍ من شَرْحِ المُفْرداتِ؛ ليكونَ في الطبعةِ الثانيةِ شَيْءٌ جديد[2].

غير أنَّه رأىٰ « أنّ الكتابَ يَحْتاجُ الى زيادَةِ بَسْط، وربّما احتاجَ الى كتابةٍ جديدةٍ في بعضِ فصُولِهِ وجِهاتِهِ، فادَّخَر ذلك الى الطبعةِ التالية مَتى هَدَأَ الزمنُ قليلاً[3].

كتَبَ « حديث القمر » على أسلوبِ المقالةِ البيانية[4] والطريقةِ الشعريّة في توليدِ المعاني وتركيبِ الخيال[5] وتَفْتيق الذّهْنِ لانثيالِ الأفكار وتساوُقِ الآراء مع نَغَمِ العبارة الفُصْحىٰ، ووفاءِ الأُسلوبِ ورَوْعةِ البيان، وانتظامِ صُوَر المقابلة، وحبْكِ الفَن في اسْتقبال البناءِ وهي الطريقةُ التي يكتُبُ على نَسَقِها فحولُ أدباءِ الأمم في المَغْرب والمَشْرق[6] ممّنْ يَتَناولونَ البيانَ والشعرَ والفَلْسَفةَ في مجالِ الأَدَبِ والفِكْر؛ أولئكَ الذينَ يَنْفَسِحُ لَهُم الوقتَ وتَدْعَمُهم المحافلُ والمنْتَديات.

---

(١) الطبعة الأولى ـــ الأخبار ١٣٣٠ هـ ـــ ١٩١٢ م

(٢) الطبعة الثانية ـــ المعاهد ١٣٤٠ هـ ـــ ١٩٢٢ م

(٣) لم تتحقق في الطبعة الثالثة ـــ ١٣٤٦ هـ ـــ ١٩٢٨ م هذه الأمنية ـــ رسائل ٨٢، أما الطبعات التجارية فقد آذته بالأخطاء.

(٤) راجع الفصل الثالث من الباب الأول.

(٥) الدسوقي ـــ الرسالة ـــ ٥٤٠ خيال الرافعي.

(٦) رسائل الرافعي ـــ ١٨٧

فهم جديد

يقولُ الرافعي في المُقدّمة التي جَعَلَها لغرضِ الكتاب:

« هذِهِ مَقالةٌ صَرَفْتُ فيها وَجْهَ الحديثِ الى القَمر، وبَعَثْتُ الى الكونِ في أَشِعةِ كلماتِها » فكادَ يَشِفُّ عن ذلكِ الغَرض، ثم قال:

كتَبْتُها وأنا أتناوَلُ ألفاظَها من تَحْتِ لِساني، وأكشِفُ من قَلْبي معانيها، وأنفُضُ عليها ألوانَ الطبيعةِ التي تُصَوّرُ أحلامَ النَّفْس وخيالاتِها، وأنا أرجو أن أكونَ وَضعْتُ لطلبةِ الإِنْشاءِ المُتَطّلعين لهذا الأُسْلوبِ أمثلةً من عِلْمِ التّصوُّرِ الكتابي[1] الذي تُوضَعُ أمثلتُهُ ولا توضَعُ قواعِدُهُ؛ لأَنَّ هذِهِ القواعدَ في جُمْلَتِها إلهامٌ يَنْتهي الى الإحساسِ، وإحساسٌ يَنتهي الى الذَّوْقِ، وذَوْقٌ يَفيضُ بالاحساسِ والإلهامِ على الكتابةِ، فيَتركُ فيها حياةً كحياةِ الجمالِ، لا تُداخِل الروحَ حتّى تَسْتَبِدَّ بها، ولا تَتَّصِلُ بالقَلْبِ حتى تَسْتَحْوذَ عليهِ، فتكون فكرة في ذاتِهِ »[2].

وقد كشَفَ بذلكَ عن فَلْسَفَتِهِ الخاصّةِ في بَعْثِ الذاتِ العربية برُوحِها المُؤْمنِ للأديبِ المنشىء الذي يَبْني الفكرَ بياناً، ويُفردُهُ بطابَعِهِ الذي يُميّزهُ عن سواهُ من الآدابِ والأفكار.

ثم يتحدَّثُ عن البلاغةِ وعُلومها، أو بقايا تلك العلُوم التي وَصَلتْ إلينا بعدَ انقضاءِ عُصورِها، ومرورِ الدُّهورِ عليها، وتَعْفِيةِ الحَدَثانِ على رَوْنَقِ الحياةِ فيها، وكيفَ عادتْ تَلُوحُ في قواعدِها وأمثِلتها هاتيك

---

(١) يريد به محاولة تجديد (البلاغة). وقد مرَّ بنا في الفصل السابق سوء ظنه بعلومها التي جعلت الانشاء تصنّعاً واستحجرت فيها أمثلتها.

(٢) حديث القمر — ٥

كما تَلُوحُ رسومُ الآثار في أرضِ الخراب، تتحدَّث بصوتٍ خافتٍ عن حضارةٍ كانَتْ؛ فهو لا يُصَرِّح بعَدَمِ نَفْع تِلك العُلوم أو قلّةِ جدواها، وإنّما يعرضُ لذلك بمثلِ قَوْله:

« البلاغَةُ التي حارَ العُلَماءُ في تَعْريفها ـــ على كثرةِ ما خَلّطوا ـــ لا تَعْدُو كلمَتَيْن: قوةُ التصوُّرِ، والقُوّةُ على ضَبْطِ النّسْبةِ بينَ الخيالِ والحقيقة ـــ وهما صِفتانِ من قوىٰ الخلْقِ تقابلانِ الإبداعَ والنِّظامَ في الطبيعةِ، وبهما صارَ أفرادُ الشعراءِ والكتابِ يَخْلِقُونَ الأُمَمَ التاريخية خَلْقاً، ورُبَّ كلمة من أحدِهم تَلِدُ تاريخَ جيل »[1].

وبعد ذلكَ يَفْتح البابَ على فصُولٍ في موضوعاتِ الحياة تَسْتَبقُها حَقيقَةً وواقعاً، وتُخْرِجُ بها بفكرة أو فلْسفةٍ، أو نظرةٍ جديدةٍ تَلِدُ تاريخاً من التأمُّلِ الواعي والحِرصِ الفَريد؛ الذي يَفْرُطُ أحياناً فَيُزَوِّقُهُ بقَدَحاتِ الجمالِ، أو يَلْتَفِتُ بهِ في صِفاتِ الحب، أو يَعُودُ فيجعَلُ ذلك كلَّهُ عَقيدةً مُسْتَقِرةً هي من وَحْي الإيمانِ الذي يَعْمُر قلُوبَ العُشاق والمُتَيّمين، فَيُميّزهُم مِثالاً سَويّاً للإنسانيةِ المُلْهمةِ التي تَسْمُو الى الله أبداً حيثُ المثلُ الأعلى الذي لا يُدرك.

ثورة قومية

عَقَدَ الفصل الأول من هذهِ المقالة للحديثِ عن آلامِ الانسانية وفَلْسفَتها، فاشْفقَ على البائسين، وتَوجّعَ للمحرومين، ومَسَحَ دُمُوعَ المحبّين البائسين، وواسىٰ سِواهُمْ من المُعذبين الباكين، والآخرين

(١) حديث القمر ـــ ١٠

الشاكين، وتَفَلْسَفَ لهم في ذلك ما شاء؛ لا يُخفّفُ عَنْهم آلامَهم، وإنما ينبّهُهُمْ الى مواقِعهم في الحياةِ ما امْتدتْ نوازعُه الوجدانيةَ في الفَلْسفَة والاجْتهاد، فهو يقول مثلاً: « ما إنْ رأَيتُ بَاكياً إلا رأَيْتُ وجهَهُ مُقبِلاً عليَّ يَسْأَلني: ترىٰ من أينَ يُذْبَح الانسانُ إذا كانَتْ دموعُهُ دِماءَ روحِهِ؟!.

ذلك أن الدُّموعَ لم تَعُدْ دموعاً على طَبيعتِها؛ بَلْ هي عَلاماتُ الأَلم والسُّخْطِ؛ الأَلَم من المخلوقِ والسُّخْطِ على الخالقِ؛ فهي أَلْفاظٌ من لُغَةِ العَجْزِ، قد تكون أَفْصَحَ منها في الأداءِ كلماتُ السَّفاهِ والحِنْقِ وما إليها »[1].

ولا يترك هذه الحالَ هكذا، وإنّما يَعودُ بالقارئ ــ وقد أرادَهُ أَديباً عَرَبياً مُنْشِئاً ــ الى الدراسةِ والتأمُّلِ في هذا الموضوع الخطير، فيقول:

« وأنْتَ إذا أَردتَ أن تدرُسَ عِلْمَ البلاغَةِ من هذِهِ البَلاغة الطبيعيّة، فادْرُس المصائبَ والآلامَ والأَحْزان؛ إنّها أقانيمُ البَلاغةِ الثلاثة: المعاني والبيانُ والبديعُ، وإنك إن دَرَسْتَها وتدبرتَ شواهِدَها الصَّحيحةَ التي لم تَصْنَعْها رُواتُها، ولم يَجيئُوا فيها بمنكرِ القَوْلِ وزُورِهِ، أَصْبَحْتَ أَفْصَحَ مَنْ يَنْطقُ عنها في هؤلاءِ البُكْمِ الذينَ يَقْرأ أحدهُمْ صفحةَ الزَّهْر بعَيْنين في منخرِهِ، ولا يَسْتَحي الغَبيُّ أن يقولَ لكَ: إنَّ في الزهرة مَعْنىً جميلاً؛ كأَنَّ في أَنْفِهِ عَقْلاً من العقول العشرة »[2].

---

(١) حديث القمر ــ ١٢

(٢) حديث القمر ــ ١٥، والعقولُ العشرة هي من نظرية المعرفة عند اليونان وتوزيعهم للعُلوم ــ أنظر كتاب (الأخلاق) لأرسطو ــ ترجمة لطفي السيد.

في هذهِ الفَقْرةِ ثورةٌ حقاً؛ تجتثُّ جُذورَ التخَلُّفِ في دراسة البيانِ العربي عَمِيتْ عنها عيونُ شانئيهِ — من مُدعي التَّجْديد والفكرِ والمُعاصرة — ولو وافَقَتْ منهم هوى يدركُ، أو فهماً يَسْتوعبُ، لأَقاموا الدنيا وراءَها ضَجةً وتَهْريجاً، ولَما بَخلُوا عن نَعْتها بالخارقةِ.. وهي عندي تمثّلُ شارَةَ البَدْءِ، ومُنْطَلَقَ الاتّجاه، والولادةَ القَوْميَّة للأَخْذِ بزمامِ المُبادرة في الإقبالِ على الحياة وفِقْهها، والمُساهمةِ بدراسةِ جَوانبها جَميعاً، ومُناولةِ الأدبِ العربي الرسالة في هذا المضمارِ الوليد، من الرُّوحِ الإنسانيةِ الصابرةِ على كفاحِ الأَيَّام.

ولذلك تَراهُ في الفصل الثاني كالذي يَنْفَجرُ يذيعُ بيانَ تلك الثورة، ويقِفُ بالأُمّة على مُقَدّماتها؛ فيصِفُ ضميرَ الطبيعةِ في اسْتبدادِ الطُّغاة، وظُلْمِ المساكينِ، وحالِها مع الشعب الضَّعيفِ المسْتكين وما يُعْوِزُهُ من عُنْصُر التكافؤ النفسي فيقولُ:

« من الذي ينكرُ أنَّ اسْتبدادَ الملوكِ الطُّغاة، وما إليهِ من اسْترقاقِ الشعوب وتعبُّدِ الضُّعفاءِ، وظُلْمِ المساكين إنما هي أحلامٌ مُزْعجةٌ من أحلامِ الانسانية؟!

أنظر: أترَى ثمةَ شَعْباً مُسْتَعْبداً يَجْتمع كما تَتَراكم الأنقاضُ، ويَفْترقُ كما تتبدَّدُ وَلْيسَ منهُ في الاجْتماعِ والتَّفرُّق إلا صورتانِ للخراب!!»[1].

إنَّكَ لتَنْظُر الشَّعْبَ الذي يَحلُمُ وهو مُسْتيقظ — ألا تَراهُ يعمَلُ على السُّخْرةِ؟ ويُطيعُ بالإرادةِ أو بالوَهْم الذي صارَ له كالإرادة؟! ويَشُكُّ

(١) حديث القمر — ٢٦ .

في أنَّهُ يخافُ من المُسْتبدِّ، أو يخافُ من أن يشكَّ فيهِ، ويرجُو على قُوّتِهِ ما يَرْجُوهُ الأَجيرُ أنْ يَمْلِكَ يدَهُ ساعةً ليتناوَلَ بها لُقَيماتٍ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، وأنْ يَنتهي عَمَلُ يومِهِ ليُوقِنَ أنَّهُ إنسانٌ كالنّاس لَهُ يدٌ يملكُها!..

الرجل الإلهي

هذا دأبُ الاسْتبدادِ ودأبُ الشَّعْبِ الضعيفِ الذي ابْتلي بالنقص (العوز) عن مكافاةِ المُسْتَبدّ بهِ، ومُساواتِهِ.. وكثيراً ما لا يكون هذا (العَوزُ) فيه إلا بمقْدارِ دِرْهمٍ واحدٍ من الفِضّة التي نَزَلَتْ عن مِقْدار الذهب »[1].

بهذِهِ الجرأة في تَقْرير الواقعِ الإليمِ الذي كانَتْ تُعانيهِ الأُمّةُ آنذاك، من الاسْتبداد والاخْتلالِ والضَّياع، يَمْضي للبَحْثِ عن دِرْهمٍ للشَّعْبِ يكونُ بالشَّعْبِ كلّهِ « ويَجْعَلُهُ مالكاً بعد أن كان مملُوكاً. هذا الدّرْهَمُ الذي يَبْقى في يَدِ القَدَر حتّى يَجيءَ يومُ الحسابِ الذي وُعِدَتْ به الحريّةُ المَظلُومةُ للانْتصافِ من ظالِميها، فيُعطيهِ الله للشَّعْبِ، ولا يكونُ هذ الدرْهمُ إلا رجُلاً، ولكنَّهُ رجلٌ إلٰهي »[2].

وبعد أن يُعَدّدَ صفاتِ هذا الرجل، ويُغْرقَ في نَعْتِ خَصائِصِهِ وميّزاتِهِ، ويُبالغ في وصفِ الدَّوائِر التي تُلْحِدُ لَهُ، وكيفَ يَتخطّىٰ قُبُورَها، يَنْتهي الى حقيقتِهِ في مِرآة الاعْتقاد حيثُ يراهُ عن مُعايَنةٍ: « لا يَنثَني لأنَّهُ الحَق، ولا يَنحرِفُ لأنَّهُ العَدْلُ، ولا يخافُ لأنَّهُ البأْسُ، ولا يَضْعُفُ

---

(١) جديث القمر — ٢٨

(٢) حديث القمر — ٣١

لأنَّهُ القوةُ، ولا يَحيفُ لأنَّهُ الإنْصافُ، ولو تَعلَّقَ بهِ أهلُ الأرضِ جَميعاً لمشىٰ بِهم مُطْمئِناً؛ لأنَّهُ في نَفْسِهِ كقطْعَةٍ من نظامِ السَّماءِ الذي يَجْذبُ الأرضَ في فَضائِها ».. هذا ما انْتَقَل الى خبرهِ عادَ يقولُ:

« هذا الرجلُ هو الذي يَتعرَّفُ بهِ الناسُ معاني اصْطلاحاتِ النفس القَويّة، كالشَّهامةِ والنجدةِ والصّدْقِ والإخلاصِ والإيثارِ، وما إليها من سائِرِ المُفْرداتِ التي يَتألَّفُ منها مُعجَمُ الفضيلةِ »[1].

وهكذا حتّى يُصَرّحَ قائلاً:

« أرأيْت إذَنْ مقدارَ الدرْهمِ الذي يُعْوِزُ الشعب؟ »

وكانت هذه الفَقَراتُ وما يَلْحقها من الكلماتِ الأُخرياتِ من أولياتِ محفوظاتِ الشباب في المدارسِ والمعاهد عندَ فجر الثورةِ العربية في مصر بهلالِ ذي القعدة ١٣٧٢ هـ فقد سَبقها الرافعي بالدَّعْوةِ نصفَ قَرْن!..

* * *

الفلسفة والفكر

ومن هنا يُطلُّ على الفصلِ الثالث، ليتكلَّمَ في مسألةِ المسائل الفلسفية في السَّعادةِ، وكنهها، وضلالِ الفَلاسفَةِ بتَيْههم في ظُنُونِهم، فيقول:

« لَشَدُّ ما اجْتَهَدَ العُلماء والفلاَسفةُ في تَعْريفِ السَّعادة، ولكنَّهم عَرَّفُوها بتَنكيرِها، إذ ألْبسُوها ألفاظاً من لُغَةِ البُؤْسِ كانَتْ لها كثيابِ الحِداد؛

---

(١) حديث القمر — ٣٢

التي هي أكفانُ الحي المتّصلِ بالمَوْت!. فاذا أردْتَ السعادَةَ من تَعريفاتِهم، وانتقيْتها من أوصافِهم، فإنكَ تكونُ سَعيداً جِداً؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ مِنْهم يَتَوَهَّمُكَ سَعيداً متى لَبِسْتَ تَعْريفَهُ، ولا ضَيْرَ أن تَبْقى بازاءِ كلّ هذا النعيم بائِساً في يقينِكَ »[1].

إنّه يَرى السعادةَ ـــ التي ضَلَّ ضلالُ الفلاسفةِ والعُلماء فيها ـــ طفُولةَ القلبِ، راجِعاً بالإنسانيةِ الى الفِطْرة الإلٰهيةِ التي فُطِرَ الناسُ عليها، بَعيداً عن تَعقيدِ الحياةِ، ويُبَيِّن من ثمَّ كيفَ تَذهَبُ هذه السعادةُ بالبُخْلِ والاحْتضارِ، وتَصْدُفُ عن الفقراءِ بالجريمة[2].

ويَتَسامىٰ في وَعْظٍ موفَّقٍ عائِداً الى فَلْسَفتِهِ الخاصّة بتَرْبية الضمير، حتى يَرىٰ الرأيَ السامي الذي حَثَّ الإسلامُ عليهِ « الصَّبْرُ والقَناعَةُ وشَرَفُ الضمير، يَشْتَري بها الانسانُ هناءَ القلبِ، وعافيةَ الجِسْمِ، ومحبَّةَ الناس، وثَوَابَ اللهِ وابتسامَةَ الموت »[3].

* * *

الشعر

ثم يَمْضي كذلكَ في هذِهِ الأُسُس التي يَبْني عَلَيها الحُبُّ كالذي يُنْشِئُ الأُمّة إنشاءً سامياً في معهدِ الحياةِ، لتَخْرُجَ في التاريخِ صُورة أخرى، فيَعْقِد فَصْلاً للشُّعراءِ باعْتبارِهم أوّلَ ما في الإنسانيةِ من الإنسانِ، فَيُخيِّلُ إليه جَمْعُهُمْ وقد أقْبلوا: « يَنْظِمونَ الشعرَ الإلٰهي الذي تَمْتَزِجُ فيهِ ألحانُ الملائكةِ بأنْغامِ الطيورِ، وآهاتِ العُشّاق، فَيَمْتلئُ من أسرارِ

(١) حديث القمر ـــ ٣٤
(٢) حديث القمر ـــ ٤٤
(٣) حديث القمر ـــ ٥٠

الفِكْرِ والعاطفةِ والقَلْبِ، ويكادُ يَخْلِقُ منه العَقْلُ، وترىٰ فيهِ الرُّوحُ باباً من أبوابِ السَّماءِ كأنَّهُ الطهارةُ، وكِنّاً من أكْنانِ الطَّبيعةِ كأنَّهُ القَناعةُ، ومَنْفَذاً من منافِذِ القُلوبِ كأنَّه الحُبّ، وإذا كلمات تملأُ ما بَيْنَ السَّماء والأرض، ثم تَرىٰ الفِكْرَ الإنسانيَّ ــ وقد استحالَ الى أمْواجٍ من الخَيال؛ يَجْري فيها القَلْبُ كأنَّهُ زورقٌ، وما هي إلا أنْ يَحْتويها حتّى تتناولَ مجدافَهُ المَصْنُوعَ من جَوْهَرِ العَواطفِ، والذي لا يَبْرَحُ مُلْتَصِقاً بهِ كأنَّهُ يَدُ الحسناءِ على قَلْبِ عاشِقها.. ومن ثمَّ يَجْري بها في بَحْرِ الجَمالِ الذي تَشْبَهُ السَّماءُ كلُّها مَوْجَةً من أمواجِهِ الأبديةِ، والذي لا ساحِلَ لَهُ الا نُورُ الفجر »(١).

ولكنه فَتّشَ في شُعراءِ الشرقِ عن « رجُلِ الكمالِ السَّماوي » هذا الشاعر الصحيح الذي لو عَدا طورَ التكوين الشّعريّ، لما كانَ منه غيرُ نَبيّ، فلَمْ يجدْ في الشرقِ العربي من يَصْلُح وَجْهُهُ في شعرِهِ لتلكَ الصُّورة؛ ذلكَ أنَّ العظائمَ الكُبْرىٰ التي يتمثَّلُ بها تاريخُ العَقْلِ الإنساني، هي أفكار وُلِدَتْ بَدّياً في قَرائحِ الشُّعراء، ثم كَفَلَتْها الطبيعةُ في مَهْدٍ من قَلْبِ امرأةٍ جميلةٍ، أو تَمهَدُ لها في عَقْلِ رجُلٍ حكيم، أو فيما تختارُهُ هي كائناً ما كانَ »(٢).

ومن ذلك فانَّ الشاعر الزائفَ، كالدينارِ الزائف؛ كلاهُما رذيلةٌ في نَفْسِهِ بالغُشِ، ومصيبةٌ على غيرِهِ بالخُسارةِ.

* * *

---

(١) حديث القمر ــ ٥٠
(٢) حديث القمر ــ ٥٣

المعركة الفكرية

وبعد ذلك يَقْتَحم بالشبابِ المحبِّ على المعركةِ الرَّهيبةِ التي غَزانا بها الغربُ في بعضِ عَقائدِهِ، ونَظرياتِ أفكارِهِ المَجْلُوبةِ؛ فيَعْرِضُ بِهم للإِلْحادِ والفِئَةِ الباغيةِ التي تُلْحِدُ للعَقْلِ الإنساني فتصرفُه عن حُرّيةِ الفكر.

ذلك أنّ « المُلْحِدَ بسَخافَتِهِ يكفُرُ بالله، ويُريدُ أنْ يَعْمَلَ بَعْضَ عملِ الله؛ فهو لا يُقِرُّ بشيءٍ يُسَمى فَلْسفةُ النَّفْسِ، أو يُسَمّى ديناً، فهو يَكْفُر بإيمانِك ليَجْعلَك تُؤْمِنُ بكُفْرِهِ »[1].

وبعد أن يرىٰ تَهافُتَ أفكارِ الملحدين في مَزاعِمِهِمْ ودَعَواتِهِمْ وتَناقُضها يقولُ:

« أيُّ بُرْهانٍ أقوىٰ على فَسادِ الإلحادِ من إرادتِهِ أن يكونَ في المُلْحدِ عَقْلُ انسانٍ وقَلْبُ وحشٍ؟ » فقد زعموا أنّهم أنشَطُوا الفِكْرَ من عِقالِهِ، فكانَ من ذلك ما انْتَهوْا إليهِ، فكأنَّهم يقولونَ:إنّ الدينَ الفَلْسفي في الحقيقة هو الرَّجُل الحرُّ، فما بالُهم يَنْسَوْنَ أنَّ هذهِ الكلمةَ عينَها تُخْرِجُ لَهُمْ — لو عقلوا — أنَّ الحريّةَ في الحقيقةِ هي فَلْسَفَةُ الدّين »؟![3].

ويَنْتَقِلُ إليهم يَتأمَّلُهم في مُضْطرَبهم هذاك فيقول:

« لو رأيتَ فِرَقَ الجَدَليّين المختلفةَ — على كَثْرتِها وتَعدُّدِ مَذاهبها — لرأَيْتَ أن كلَّ فِرقَةٍ هي في الحقيقةِ عَقْلُ رَجُلٍ ذكيّ، لا دينُ رجُلٍ عاقلٍ؛ لأنَ الدّين لا يَتجزّأ؛ إذ هُو عِبادةُ القلب — الذي لا

---

(١) حديث القمر — ٦٠

(٢) حديث القمر — ٦٥

(٣) حديث القمر — ٦٦

يَدُلُّ على وَحْدانيّةِ اللهِ في شَيءٍ مثلُهُ للإلٰهِ الذي لَيس كمثلِهِ شيءٌ »[1].

وعندما يصلُ الى هذا المُفترَقِ في منازِلةِ قُوىٰ البَغْي والعُدوانِ فيخذِلَها ويَعطي إشارةَ البَدْءِ ليَجْتثّها من أصولِها، بعدَ أنْ أَسْقطَ عليها عَرْشَ طُغْيانها هكذا، يَلْتَفِتُ الى المُوازنةِ العادلةِ بَيْنَ أن تكون القُوّةُ آتيةً للقَلْبِ من العَقْلِ، وبَيْنَ أن تكونَ آتيةً للعَقْلِ من القَلْبِ؛ فالعَقلُ موضعُ الخَطَأ والصَّواب؛ لأنّه آلتُهما جميعاً، وأظهرُ خواصِّهِ الشكُّ (تأمَّلْ)؛ لأنَّهُ الخاصيّةُ التي يمكنُ أن تُوفّقَ بَينَ الخطإِ والصوابِ قَبلَ أن تتزايَلَ اثناهما فَيَتبَايَنا..

« أما القَلْبُ فهو موضعُ الحقيقةِ السّماويّةِ التي تَظْهَرُ بَينَ الناسِ في هَيْأتها فَيُسَمُّونَها المحبّة، وبين الملائكةِ فيُسَمّونها الإنسانية، وعنْدَ اللهِ فيُسمّيها الإيمان »[2].

وهكذا حتى يتمثَّلَ لَهُ أن يَرى في نفسِهِ ذلكَ الانسانَ المحبَّ القَويم ــ وقد كرَّمَهُ اللهُ أمامَهُ فقال:

« أَسْعَدُ النّاس، وأهنأُهم بسعادتِهِ ذلكَ الذي يَجْمَعُ قَلْبَهُ وعَقْلَه أن لا يُصْدرَ أحدُهما عن الآخر إلّا راضِياً مَرضياً، فترى في آثارِ عَقْلِهِ طهارةَ القلبِ وإيمانَهُ، وفي آثار قَلْبهِ إجادةَ العَقْلِ وإحسانَهُ. ولو كُشِفَ لكَ عن بَواطن الأشياءِ لَتَجلَّتْ لعينيك هذه الحقيقة »[3].

---

(١) حديث القمر ــ ٦٦

(٢) حديث القمر ــ ٦٧

(٣) حديث القمر ــ ٦٧

وهل تراءَىٰ هذِهِ الحقيقةُ في غيرِ فُقهاء الأُمّة هذِهِ وعلمَائِها؟! أولئك الذين أرْفَدُوا الفكرَ الانسانيّ بعَطاء دونَهُ عطاءُ الأمم كلّها مجتمعة.

وهذِهِ الحقيقة هي التي تَعامىٰ عنها بصائر شانئيهِ من النُّقّادِ المَوْتُورينَ، فاتّهموهُ بما شاءَتْ لَهمْ سَخائمُ أنفُسِهم من الاتّهام والإيذاءِ[1].

* * *

الجمال والخير

ولمّا تمثّلَ لَهُ ذلك الانسانُ السَّويّ الذي كرّمَهُ الله بالوجودِ، ونَعّمَهُ بالعَقْلِ، ووفاهُ بالدّين، دلفَ الى الفَصْل الآخر؛ ليتَحَدَّثَ لذلكَ الإنسان عن الفكرِ وحُدودِ الطبيعةِ التي تحفَظُ لَهُ تَوازُنَهُ وتَقِيهِ مَغَبّة الانْحرافِ أو الشَّطَطِ، وتحولُ دونَ انزلاقِهِ أو تردّيهِ في السقوطِ فقال:

« إذا اسْتطاعَ المرءُ أَنْ يتّحِدَ بقَضاءِ الله وقَدَرِهِ، فلا يَتَسَخّطُ أحدهما، ولا يَتَبرَّمُ بأمرِ الله، فقدْ استطاعَ بذلكَ أن يَبْتَسِم الابْتسامَ الإلَهيّ الذي يكونُ علامةَ نُبوَّتِهِ الإنسانية، في هذه الطبيعة »[2].

وقد لا يَتوفَّرُ على ذلكَ إلاّ مَنْ آتاهُ الله رَحْمة من لدنْه، ونَفْساً سَواءً، ورُوحاً كريمة تَنالُ من خيرِهِ أَبَداً، فلا تَراها إلا مَطبوعَةً على الحريةِ، ولا تَراها ثَمَّةَ إلا مُطْمَئِنَّةً!.

---

(١) راجع طه حسين ــ الجريدة ١٩١٢/١٢/٨ م ــ الجريدة ١٩١٣/١/٧ م وتدبّر.
(٢) حديث القمر ــ ٨٥

« ولولا النفوسُ التي تُدْرِكُ قيمةَ الجمالِ ما وُجِدَتْ على الأَرْضِ نفوسٌ تدركُ قيمةَ الخير، وهَلْ هذا الخيرُ إلا بعَض جمالِ النفوسِ؟! »[1]. فكأنَّ طهارةَ النَّفْسِ عندَهُ الشرطُ المُلازِم لحريّةِ الفكر.

وهل النفسُ غَيرُ العمل؟ وإلا فكَيْفَ تُدْرَكُ طهارتُها من غيرِ معرفةِ آثارِها؟!

ومن هنا تَراءَىٰ له فَلْسَفَةُ الأَلَمِ التي جُبِلَتْ عليها النُّفُوسُ الكريمةُ، فدارَ من حَوْلِها في الفصل السابع متسائلاً:

« ليْتَ شِعْري ما هيَ الهُموم؟! إنَّ الانسانَ يُفَسِّرْ هذه الكلمةَ المفردةَ بمجموعِ ما حفِظَ من تاريخِ مَصائِبهِ، ويَرىٰ أَنَّهُ لم يَفْرَغْ من الشَّرْحِ بَعْدُ، فكأَنَّهُ يُفَسِّرُ حقيقةَ الحياةِ التي تَسْتَنْفِدُ الكلامَ كلَّه، ويكونُ خطَأً صراحٌ وصوابٌ ممزوجٌ، ثم تَبْقَى الكلمةُ الصحيحةُ عندَ اللهِ لا يكشِفُ عنها لإنسان، لِئَلاَّ يَغْشاهُ من سِرّ الأُلوهيّةِ فَيَنْهتكَ حجاب قَلْبهِ »[2].

« وما الآلام إلّا رياضَةٌ نَفْسِيّةٌ تَشْتَدُّ بها النفوس وتَصْلُبُ، فلا تَهُدُّها أَثقالُ الحياة التي لا يَضْطلِعُ بها إلاّ ذُو المِرَّةِ السويّ »[3]. فكأنَّه أرادَ بذلكَ الإنسانَ المحبّ الذي حَسُنَ دينُهُ فَعَرَفَ القَدْر الإنساني أمامَ القَدْر الالٰهي، فرضيَ بقضائِهِ، وآمَنَ بهذهِ الرُّوحِ التي تجعَلُ منه مَثَلاً سَويًّا للصَّلابةِ الاعْتِقادية التي تَسْتبدُّ بهِ، ويَسْتَبِدُّ بها على أيامِهِ أبداً، وقد أدركَ البَلْوىٰ ليَحْسُنَ عملُهُ، ألا تَراهُ يقولُ بعد ذلك :

---

(١) حديث القمر ـــ ٨٥
(٢) حديث القمر ـــ ٩٣
(٣) حديث القمر ـــ ٩٥

« الإنسانُ لم يكُنْ يَوْماً نَسِيًّا من اللهِ، ولكنَّهُ يَنْبُذُ المكانَ القَصِيَّ من الظنّ، كأنَّهُ يرىٰ أن يكونَ نَسياً منهُ، فهو يَشُكُّ في رَحْمةِ الله وعنايتِهِ، كلّما رانَ عليهِ الخير »![1].

وهذا الشكُّ هو الذي يُرَجِّحُ النَّفْسَ الانسانيَّةَ بين الإيمانِ والكُفْر، ولا شِفاءَ لها منْهُ بغيرِ الطمأنينة، ولا طمأنينةَ بلا حُبّ، وإلاّ فما أدْناها من الشقاء ؟!

« يا شقاءَ الإنسانِ ويا وَيْلَهُ ؛ إذْ يُرْسِلُ الله على قَلْبِهِ شُعاعَ الرحمةِ والإيمانِ، ويأبىٰ من غَلَبَتْ عليه شِقْوَتُهُ إلا أَنْ يضرِمَ من هذا الشّعاعِ الإلٰهي ناراً يُنضِجُ فيها غِذاءَ شهواتِهِ »[2].

ومن ذلك هذه الحالُ التي تَحْتَطِبُ للأَسْواء، وتُثير المتاعِبَ، وتَعْصِفُ هنا وهناك آلاماً ومَصائبَ، لا تَفْتُرُ أبداً إلا برَحْمةٍ من اللهِ، « إنَّ الطَّبيبَ الحكيمَ لا يُجاري العليلَ، ولكنَّهُ ينظُرُ الى العِلّة، وإنَّ الله سبحانَهُ ولَهُ العزّةُ ـــ لا يُبالي باصْطِلاحِ الناس، ولكنَّهُ ينظُرُ الى مَصْلَحتِهم حينَ يُعطي ويَمْنَعُ ؛ فَلَيْس في الأرضِ فقيرٌ قَطُّ إلا عندَ نَفْسِهِ، ولو اطّلَعَ كلُّ إنسانٍ على الغَيْبِ لما اختارَ إلاّ ما هو فيه »[3].

حين يدرِكُ هذا المثالَ في النَّطاسَةِ وطِبِّ الانسانية كأنّما خُيِّلَ إليهِ أنَّه دُعي إلى عيادةِ (الشرقِ المريض) فوضَعَ لَهُ وَصْفةً في قصيدةٍ عامرة، هي آيةٌ في البلاغةِ العصرية والشعرِ العربي المُحْدَث، ربّما قَصَّر

(١) حديث القمر ـــ ١٠١
(٢) حديث القمر ـــ ١٠٣
(٣) حديث القمر ـــ ١٠٥

عن مثل بيانِها سائر الشعراءِ من مُعاصريهِ، وما أدركَ شيْئاً من توفيقِها الدارسون[1] فشُغِلُوا عنها في سُرُور !.

قدّم لها بدراسةٍ موضوعيّة في حالِ الشرق العربي الاجتماعيّةِ، ولا سيّما في بناءِ الأسرة على المُغامرة وكيفَما اتّفق، ووهم السعادةِ بالمال، وما يدورُ في هذِهِ من حالاتٍ في إنسانةٍ بعَيْنها، رأى تَوثيقَ عَقْدِ زواجها يَرْبُطُ بين قَلْبين في المُصادَفةِ والنَّحْسِ والعداوة، وقلَّما أحسَّ إنسانٌ بإحداهما، إلا فُوجِئَ بثلاثتها، وكأنّما تمثَّلَ له المنظرُ المُحتَضِرُ فصرخَ قائلاً :

« واهاً لهذا المريض الذي يُوثِقُونَهُ بتلك الرُّبُطِ المُمزَّقَةِ من المقالاتِ، ويَدْفُنونَهُ في هذِهِ الأكفانِ المنشورةِ من جَراثيمِ اللُّحىٰ والشَّوارب التي تُريهِ ظِلالَ الآخرة ـــ وهو في كلِّ ذلك الكربِ الذي أخَذَ بأنفاسِهِ لا يَجِدُ السَّبيلَ الى رُوحٍ من الحياة الطيّبةِ في نفسِ امرأةٍ فاضلة »[2].

ثم راحَ يطبُّ للشرقِ، فعرَفَ من أمراضِهِ الكثير، ولكنَّهُ وقَفَ طويلاً عند أقْتلِ داءٍ فيه وهو الروحانية التي لا شِفاءَ لَهُ بغيرِ دوائِها ؛ فذَهَبَ يَلْتمسُ لها العِلاجَ في صَيْدليةِ الإنسانيةِ، لعلَّ قِيَمها ومُثُلَها وعقاقيرَ أعرافِها تُشْفِيهِ !.. فوجَدَ أن لا بُدَّ لهذا المريض من المعالجةِ تَقُومُ بها مُمرّضَةٌ رؤومٌ كما تَتَعهَّدُ الأُمُّ وليدَها بالرّعايةِ والحنانِ وتُعِدُّ له دارَ السعادة.

---

(١) راجع ضيف الله ـــ نثر الرافعي ـــ ١٣٤ وما بعدها، ومحاولته بمقارنتها بقصيدة الرندي في نهاية العرب بالأندلس! قياس من غير فارق. أنظر الانبعاث القومي للضمير العربي.
(٢) حديث القمر ـــ ١٢٢

ثم يظهرُ كالرّسولِ جاءَ ومعَهُ البُرْءُ والشِّفاء، ولكنْ بحقيقةٍ من المعالجةِ الاجتماعيةِ الظاهرةِ تَرْبيةً وإعداداً، دونَ الإغراقِ بالمَتاهاتِ الصُّوفيّةِ، أو الـدَّوَرانِ في الخيالاتِ المعقّدة شِعْريًّا، أو الذهابِ في الأَضاليل المُتَشيِّعةِ، أوِ الابْتعادِ في الأَوْهامِ المُمَنْهجَةِ سِياسيًّا، فهو يتّفقُ على الصّفةِ التي لَحِقَتِ الشَّرْقَ (المريض) ولكنَّهُ يختلفُ في تَشْخيصِ المرض، ومن ثمّ يُفرّقُ في طريقةِ العلاج، فلا تُرضيهِ المُسَكّناتُ (الدمقراطية) ولا مخدّراتُ (تقرير المصير) ولا حقنُ النظراتِ الوافدةِ تبحَثُ في القُطْريات، حتى ولا العَزْلُ الانتدابي الذي يُجَرّعُهُ المراراتِ، لِيَسْتَقْبِلَ الأَيامَ في نَيْلِ الأوطارِ، كما كان ذلك دائِراً وطائراً في زحامِ الأَحْداث، إذ أَنَّ ذلك كلَّهُ مدعاةٌ للسخريةِ من المريضِ نفسِهِ، وإيهامِهِ بالشّفاءِ في إطالَةِ أيامِ مرضِهِ وتنويعِ العلاج عليه.

القوام النفسي للانبعاث

من هنا يَنْفردُ بدَعْوتِهِ الوجدانيةِ التي عُرِفَ بها في التربيةِ القوميّةِ على أساسٍ من المحبّةِ، حيثُ يكونُ بناءُ الخليّةِ الاجْتماعيّةِ الأُولى في الأُسْرةِ قائماً على الحُبّ لأَنَّهُ الإيمانُ، عامراً بالغرامِ لأَنَّهُ التضحية، لِتَهْتِفَ فيهِ السعادةُ لأَنّها المروءَةُ، وتقوم كرامةُ الحياةِ على هذه المرساةِ[1].

وحين يُوافي هذهِ الحقيقةَ في الحياةِ الانسانيّةِ التي كرَّمها الله بالوجودِ، ويدرِكُ القوميةَ اللاّزمةَ للنَّهْضةِ واعتدالِها، ويبصِرُ في الاعتقادِ الجليلِ،

---

(١) لا يذهبنّ عن البال أنّ ما يدعو إليه الرافعي ليس هو حبّ السيما والشوارع الأوربية والروايات، وإنما هو نظام الخطبةِ العربي الذي تحجب فيه الفتاةُ حتّى العرس!

يُشرِفُ على الفَصْلِ الذي يَخْتَتم بهِ المقالةَ في الكلامِ المُجْمَلِ عن الحُبِّ والبُغْضِ في حياةِ الناس، فيرىٰ الحُبَّ « إحدىٰ كلمتَيْنِ هما ميراثُ الانسانيّةِ، وهديّةُ التاريخ حقيقةُ الأُلوهيّةِ في الرُّوحِ وحقيقةُ الانسانيةِ في القَلْبِ »، كما يرى « الدّينَ في تَقْوى آدمَ والحُبَّ في جَمالِ حَوّاء ودُموعِها »[1].

وبذلك يُثْبِتُ الأساسَ الاجتماعي والقِوامَ النفسيَّ للانبعاثِ القَوْميّ للأمةِ، والمُنْطَلَق السديد في سبيلِها الذي تخطرُ بِهِ في أخلاقِها الثابتةِ، وقِيَمها المتمكِّنَةِ، ووسائِلها الشريفةِ التي تَمْضي بها إلى أهدافِها النبيلةِ وغاياتِها البعيدةِ على هُدًى وبصيرة من مثلٍ رفيعةٍ يَعْمرُها الإيمانُ العظيم.

* * *

تقويم

و « حديثُ القمر » بعدُ يأخُذُ بمجامعِ القُلوب، ويَسْتهويها بما فيهِ من الأساليبِ البلاغيّة العالية، والاسْتعاراتِ الجميلةِ الجديدةِ، والكِنايات المبتكرَة والأَخْيلةِ الشاعريّة المُهَوِّمة، والتصوُّراتِ الحيّة الموفقَةِ والمعاني الوليدةِ الراقيةِ التي تَضْرِبُ على أوتارِ القَلْبِ الإنساني بوَصْفِ الجمالِ وتحليلِ عناصرِهِ، وبيانِ مظاهرِها العاطفيةِ، وآلائِها الطبيعيّة، والقولِ في أُمّهاتِ المسائلِ الإنسانيّة التي مرّتْ بنا، ثم التَّبَسُّطِ على وجهٍ بديعٍ في مسألةِ المسائلِ الإنسانية التي طَرَفاها الإيمانُ والإلحاد[2].

---

(١) حديث القمر ــ ١٢٧

(٢) البيان ــ ٨ شعبان ١٣٣٠ هـ

إِنَّهُ كتابُ دَعْوةٍ عربيّةٍ مؤمنةٍ تَخِذَتِ الحُبَّ قِوامَها، ومَهَدَتِ الجمالَ سَبيلاً لَها، وجَعَلَتْ سُموَّ الإِنسانِ بالاعتقادِ غايةَ أهدافِها.

كلُّ ذلك في صَفاء من اللُّغةِ، وجمالٍ في التَّعْبيرِ، وجَزالةٍ في الألفاظ، وإفصاحٍ في العباراتِ ورُقيٍّ في الأُسْلوبِ «يَضيفُ إلى البَيانِ إضافاتٍ جديدةً ليست فيه»(1).

«ولا نعرفُ أحداً من أُدَبَائنا فكّر في تعليمِ الإنشاء على الطريقةِ التي ابتكرَها الرافعي، مع أنّها الطريقةُ الطبيعيّةُ، وما من كاتبٍ قد نَبَغَ في الكتابةِ التي تَدِقُّ في الوَصْفِ إلاّ وهو يعرِفُ من نفسِهِ أنّها كانَتْ طريقَ نبُوغِهِ وإجادتِهِ»(2).

وذلك مما يَفْرِدُ الكتابَ ويجعَلهُ نسيجَ وَحْدِهِ «والعِيانُ يدلُّنا على أنّهُ لو ظَهَرَ في الأُمّةِ ألفُ كاتبٍ من كتّابِ الألفاظ لأَخْملَهم كاتبٌ واحد يَنْبُغُ بفكرهِ وخيالِهِ، ولاسْتبدَّ بقَصَبِ السَّبْقِ دونَهم؛ لأنَّ الأُمم لا تَنْقادُ بالأَلْسِنةِ، ولكن بالعقول»(3).

وقد قالَتْ فيه «المؤيد» كبرىٰ صُحُف العالم الإسلامي يومئذٍ: «إنّهُ نَثْرٌ مُطْرِبٌ ولكنّهُ مفصَّلٌ في آياتٍ، وشِعْرٌ مُرْقِصٌ ولكنّه في غير أبياتٍ،.. بل رَقَّ فسالَ، وجَلَّ فكانَ الحقيقةَ ودَقَّ فكان الخيالَ، بل كتابُ القَلْبِ الإنساني؛ لأنَّهُ مقالةٌ واحدة صُبَّتْ فيها عواطفُ النفس

---

(1) طه حسين ــ الجريدة ــ ٧ فبراير/شباط ١٩١٣ م

(2)، (3) البيان ــ ٨ شعبان ١٣٣٠ هـ

صبًّا في طرازٍ من بديعِ الإنشاءِ وأُفْرِغَتِ حقائقُ العالم الأَرْضي في كلامٍ من نُورِ السماء »[1].

وقالت « الهلال » — وكادَتِ تدركُ بعضَ موضوعِهِ :

« هو في ظاهِرِهِ حديثٌ موجَّهٌ إلى القَمَر، ولكنَّهُ يَشْتَمِلُ على خيالاتٍ شِعريّة منتخبة مسبوكة في قالَبٍ إنسانيّ هو من قَبيلِ الشعرِ المنثور، يَسْتفيدُ من مطالعتِهِ الشاعرُ والناثر ويُعوّدُ الذهن على التصوُّرِ الشعريّ، ويُسَهِّلُ ملكةَ الشعرِ والنثرِ معاً »[2].

* * *

قيلَ في سَبَبِ كتابتِهِ : إنّ « فَتْرةً من الفراغِ عَرَضَتِ لأديبنا الرافعي في صيف ١٣٢٩ هـ — ١٩١١ م أرادَ فيها أَنْ يَقْضيَ حقَّ نفسِهِ، وأَنْ يَغْنَم أنفاسَ الرّاحةِ مما يُعاني في إنجازِ كتابه الفريد في (تاريخ آداب العرب)، فهَجَرَ الكُتُبَ والكتابةَ، ولكنَّه ما تَنَسَّمَ أنفاسَ الطبيعةِ حتى استحالَتْ في قلبِهِ الكبير مَعاني من الشعر أو من السِّحْرِ بكلِّ ما يَضْرِبُ لَهُ قَلْبُ الإنسانِ، حتى كأنها صفحة كلِّ قلب »[3].

وقيلَ أيضاً إنَّهُ عَزَفَ « القمر » يومَ رأىٰ وَجْهَ فتاةٍ عَرَفَها في رَبْوَةٍ من لُبنان ؛ ينتهي الوصفُ إلىٰ جمالِها ثم يقفُ، فكان يَرىٰ الشمسَ

---

(١) من إعلان المكتبة الأزهرية عنه — وارجح أن التقريظ للسيد محب الدين الخطيب الذي كان المحرر الأول في المؤيد آنذاك.

(٢) الهلال — مارس/آذار ١٩١٣ م

(٣) البيان السابق — وأرجح أنّ التقريظ للرافعي نفسه.

كأنّما تجري في شعرِها ذَهَباً، وتَتَوقَّدُ في خَدِّها ياقوتاً، وتَسْطَعُ في ثغرِها لؤلؤةً.

« وكنتُ أرى الوَرْدَ الذي يَزْرعُهُ الناس في رياضِهم، فإذا تأمّلْتُ شَفَتَيْها رأيتُ وَرَقتين من الورد الذي يَزْرَعُهُ اللهُ في جَنَّتِهِ، وكانَتْ لها حِيناً خِفّةُ العُصْفور، وحيناً كبرياءُ الطاووس، ودائماً وداعةُ الحمامةِ المُسْتأنِسةِ. وكانَتْ رُوحُها عَطِرةً تَنْفُحُ نَفْحَ المِسْكِ إذا تَشامَّتِ الأرواحُ الغَزِلةُ بالحاسّة الشّعريّة التي فيها »[1].

كانَتْ شاعرةً من شواعِرِ ذلك البَلَد[2] وكانَ بَيْنَهُ وبَيْنها حديثٌ طويلٌ في الحبّ[3] ومراسلات تطارَحَها معها[4].

وقيلَ : إنَّهُ سَدَّ بهِ فراغاً كان يُبْصِرُهُ في أَدَبِ الإنشاء[5] وقيلَ غيرُ ذلك ثَناءً وتقريظاً،[6] ولكنَّ طه حسين اتَّهمُهُ بالغُموض أولاً، وعابَهُ فكرةً وأسلوباً فقالَ فيما قال :

« ليس الغُموضَ وحدَهُ في هذا الكتاب، بَلْ هنالك أمرانِ آخرانِ لا بُدَّ من ملاحَظتهما ؛ أحدَهُما إغرابُه في الإضافاتِ والنّسَبِ حتى لَيخيَّل إلى القارئ أنّ الرافعي يكتبُ بلُغةٍ ليس بيننا وبَيْنَها عهدٌ، ولم تطّلعْ إليهِ نفسُهُ لِفَهْم الحقيقةِ وتمثال الفَنّ الإلٰهي ــ كذا ــ والثاني ؛

---

(١) السحاب الأحمر ــ ٢٠ .

(٢) حياة الرافعي ــ ٧٢ ــ والبلد لبنان.

(٣) حياة الرافعي

(٤) الزهور ــ ١٩١٠ م

(٥) المقتطف نوفمبر ــ ١٩١٢ م

(٦) صحف ذلك العهد : الزهور ــ ديسمبر ١٩١٢ م، الجريدة ــ ٥، ٨ ديسمبر ١٩١٢ م، المنبر ديسمبر ١٩١٢ م، وغيرها.

وجوهُ الشَّبَهِ التي لا يمكِنُ أن تُفْهَمَ ؛ لأن موضوعاتِها أمورٌ لم يَهْتدِ إليها إلّا عقل الرافعي »[1].

ولمّا رَدَّ عليهِ الرافعي مُتّهماً إيّاهُ بالحَسَدِ من احْترافِهِ الأدَبَ، واتخاذِهِ إيّاهُ كبَعْضِ الصناعات[2] عادَ فتراجَعَ قليلاً، وقال ما قدّمناه آنفاً[3]وإنَّهُ يضيف إلى البيانِ العربي إضافاتٍ جديدة[4] على الرُّغم من مُعَابَثَتِهِ الأخرى !.

ويبقى الكتاب بما اشْتَمَلَ عليهِ من موضوعاتٍ خطيرةٍ، ومسائِلَ دقيقةٍ أخصّ بحياةِ الأُمّة ونهضتِها — وقد استعْرضناها بوقفاتٍ متأمِّلةٍ — يَدُلُّ دلالةً واضحةً على القَصْدِ التربوي والهدفِ القومي، والغايةِ الاعتقادية، والدَّعْوةِ العربية المؤمنة التي رمىٰ إليها الرافعيُّ من الكتاب، وهٰهنا يَنْجلي الغُموض، ويَذْهَبُ الانبهام، ويظهَرُ الأدبُ الحيُّ ابنُ العقل البكر دليلاً على النفسِ وصَفْوها، وعلامةً على المرحلةِ التاريخيّة للأُمّة.

ذلك أنّ الجمالَ يُوجِدُ الحبَّ، والحُبَّ وحدَهُ يَلِدُ الأدبَ الصحيح الذي هو لُبابُ فكرِ الأمة في كلِّ عَصْرٍ ومصر. ونَظَراً لحالةِ الاحْتلالِ الصليبية — الإنجليزية، والغَزْوِ المُسَلَّح الآخر في سائرِ أنحاءِ الدّيارِ العَربية آنذاك، فقد آثر الرافعيُّ أَنْ يكتُبَ كتابَهُ، ويُعِدَّ رسالتَهُ على هذا النحو من الأَدَبِ الرَّمْزي في الحُبِّ والضَّرْبِ الشّعْريّ من النثرِ، كَيْ لا يَصْطدمَ برقابةٍ أو نحوِها مما كانَ — وكأَنَّ الرافعيَّ فيهِ يُجدّدُ

(١) الجريدة ١٤ ديسمبر ١٩١٢ م

(٢) الزهور — يناير ١٩١٣

(٣) الجريدة — ٧ يناير ١٩١٣ م

(٤) الجريدة — ٧ فبراير ١٩١٣ م — راجع الرافعي الناقد. كتابنا الآخر.

رُوحَ الفقهِ الإسلامي في إدارةِ أصولِهِ من المصالحِ المُرْسَلةِ التي سَبَقَهُ إليها فقهاءُ الأُمّة من أتباعِ مالك والشافعي، ونَهَضَ بها العزُّ بن عبد السلام في جَمْعِ الأُصول والفروعِ من حولها.

وقد بَلَغَ بذلك فوقَ ما أرادَ من قَصْدٍ وغايةٍ، وإنْ لم يَعْتَرِفْ بذلك مناوئُوهُ، تَدُلُّ عليها كثرةُ تداوُلِ الكتاب في حياتِهِ وبعد موتِهِ، وآياتُ الثناءِ عليهِ في تقويمهِ وألوانِ النقد.

الميثاق

و « حديث القمر » بعدُ خيرُ ما يمثّلُ أَدَبَ الأداءِ النفسي، ويصوّرُ الاسْتبطانَ الذاتي ويُشيعُ التأمُّلَ الواعي، وكيفَ تَسْتَرسِلُ النَّفْسُ الانسانية على سَجِيّتها تقولُ ما يشاءُ لها فنُّ القَوْلِ البليغ، واللُّغةُ الفصيحة أن تصدُرَ فيه أو تَتحدَّثَ بخَبَرِهِ.

وجملةُ القول فيهِ أنه ليس بكتابِ إنشاءٍ وتَعليمٍ على فُنُون البلاغةِ والأداءِ في التعبير، والقولِ الصحيح، وتربية ملكة التخيّل فحسبُ، كما عُرِفَ من قَبْلُ، وإنّما هو كتابُ الأدبِ الاعتقادي الذي ينشِئُ الأُمّة إنشاءً سامياً في هذا العصرِ العصيبِ ؛ يَجْمَعُ إليهِ القَلْب والعَقْلَ في مُوازَنةِ التأمُّل والتفكيرِ، ومُقارَنَةِ العَمَلِ والصبر الجميل، بحيثُ لا يَطْغى أحدُهما على الآخر، وإنما يَقيهِ مَغَبَّةَ الانحرافِ والسُّقوطِ.

وقد يكفي الدَّليلُ على ذلكَ أنَّ طَبْعَتَهُ الأولى[1] ظَهَرَتْ إبّانَ حَمْلةِ

(١) صدرت عام ١٣٣٠ هـ ـــ ١٩١٢ م

الغَزْوِ المُسَلّح على ديارِ العُروبةِ والوطنِ الإسلامي، ويَوْمَ زادَ سُعارُ الاسْتعمارِ في الأفكارِ التي تُلْحِدُ للأمة ودينِها الحنيف، حيثُ وُجِدَ مَن يُسَوّغُ لهذِهِ الأفاعيلِ عَمَليّاتها التّسلُّليّةِ الغادرة، ويألفُ مُدّعياتِها الماكرةَ، ويَحْتَجُّ لها بالتّمْدينِ والتّنميةِ، والتّدْريبِ الحضاري والانتدابِ للارتفاعِ بالمُسْتَويات، وما إلى ذلك من صُوَرِ السقوط الفِكْريّ في الشرقِ العربي الذي عاناهُ أساطينُ التربيةِ باسمِ العِلْمِ والنّهْضَةِ، أو كراهيةِ الدولةِ العثمانية « لتَوَرُّطِها العنصري والطائفي » — كما زَعَموا !.

وأُخرجَتِ الطبعةُ الثانية[1] منه عند ابتداءِ حَمْلةِ الاسْتغرابِ التي شَنّها الشّعوبيون المُحْدثون من دُعاةِ القُطريّاتِ الفرعونيّة، والفنيقية والآشوريّة، على التّراثِ العربي والفكرِ الإسلامي، بدَعاوى المَنْهَجيّةِ الحديثةِ والبَحْثِ والتجرُّد، وما إليها من أباطيلِ المُدّعياتِ التي تُبْطِنُ الشرَّ للأمّةِ، فكانَ الكتابُ كالبيانِ الاعتقادي ليَقْظةِ الضميرِ العربي وانتباهةِ الفكرِ السليم.

وعادَتِ الثالثةُ[2] مع بَوادِرِ تَقْليدِ المُقَلّدينَ للمُسْتغْربين، وَتَنَطُّعِ دَعَوَاتِ التّغْريبِ في الفكرِ والسياسةِ والحياةِ والحضارةِ والمدنيةِ واللّباس، ومع محاولاتِ إبدالِ الحياةِ نفسِها، واللّغةِ وحروفها، وما إلى ذلك من شُرور.

وقد أفادَ منهُ الجيلُ الثاني بعد الرُّوادِ، ولا سيّما أولٰئكَ الذين تَوَفَّروا على الإسهامِ في النهضاتِ القوميّةِ والانتفاضاتِ السياسيّةِ التي مَهّدَت

(١) صدرت عام ١٣٣٩ هـ — ١٩٢٢ م
(٢) صدرت عام ١٣٤٦ هـ — ١٩٢٨ م

للثورةِ العربيةِ المُعاصرةِ، أيما فائدة، وهو عندي مِثالٌ حَيّ قائمٌ بذاتِهِ للأَدَبِ الاعْتقادي الذي يتّخِذُ اللّغةَ، فنونَها وآدابَها مَعْهداً للتربيةِ البَيانيّة، والإفصاحِ الذي يُنْشئُ الجيلَ السّليمَ الذي يُؤْمِنُ باللهِ، ويَثِقُ بنفسِهِ، ويَعْتَزُّ بتفكيرِهِ وهُداه، ويَرْقىٰ في الحياةِ صُعُداً بثباتِ خطاه.

وهو مثالٌ تطبيقي للميثاقِ القَوميّ الذي ألزَمَ الرافعيُّ نفسَهُ بهِ منذُ أولِ يوم جرى فيه قَلَمُهُ في هذا المضمارِ على طريق الوِجْدانِ والعاطفةِ السّاميةِ، والحبِّ العَفّ النبيلِ الذي يَرْقىٰ بالنفسِ الانسانية الى منازِلَ عاليةٍ من السُّمُوّ على الشُّبُهات.

* * *

وإذا نحن مَضَيْنا على هذا النّسَق من التّحْليل لرسائِلِهِ في كتُبِهِ الأُخرىٰ التي تَخِذَتِ الحبَّ قَواماً لها، وجَعَلَتِ الجمالَ سِرَّها المُودَعَ في بيانِها، فَلَسَوْفَ نكتَشِفُ أمثالاً مما وَقَفنا عليه في الحديثِ، أو بالأَحرى نَجِدُ التفسيرَ فيها مُحْضَراً لِمُعظم الجوانِبِ التي مَرّتْ بنا في هذا البَسْطِ بزيادةِ عَرْضٍ وإيضاح، أو بتَحْليلٍ لجوانبَ أخرىٰ من هذا الموضوعِ الوِجدانيّ الخطير الذي ارْتَفَعَ بهِ من الشّهوات الجنسية إلى دَرَجَةِ الاعتقاديّةِ القوميّةِ للأُمّة، باسْتعراضِ قيمها وخَصائصها، وبالإشراقِ على وَسائلها الشريفة، والمُضيّ بها لإدراكِ أهدافِها وغاياتها،... وحَسْبُنا قولُه ـــ وقد رأىٰ النّقّاد يتهافتون بأمثالٍ من أفكارِ كتّاب أوربةَ وأدبائِها ـــ وهم يتصدَّوْنَ لـ « أوراق الورد » المُعْجزةِ التي غَلَبَ فيها الرافعي القديمَ والجديدَ معاً[1] :

---

(١) لطفي جمعة ـــ المساء ١٩ نيسان/أبريل ١٩٣١ م

« إنَّ الفنَّ عِنْدَنا في كتابةِ فَنّ إسلاميّ عَرَبي يقومُ على الضميرِ الطاهر، والنزعةِ الشريفة، وعلى الخُلُق القويّ الدالّ على المُروءَةِ والشجاعةِ وضَبْطِ النفسِ، وعلى الإيمان بحقّ المرأة في شَرَف الحياةِ وسُموّها ؛ لأنّ وراءَ حُبّ المرأةِ ما هو أسمىٰ منها، وإنّ الكاتبَ الإسلاميّ يضَعُ في كتابتِهِ نَفْسَهُ لا أغراضَهُ، ويَجِيءُ بما هو إلٰهي فيهِ لا بما هو حَيوانيّ منهُ، ويكونُ كالطبيعَةِ نَفْسِها ؛ تُظْهِرُ للأَعْين ما بَدا من جمالٍ، وتَسْتُرُ ما في داخِلِهِ ؛ لأنَّ هناكَ أعمالاً هي أعمالُ حُبّ، فهي غيرُ مقصودةٍ بذاتِها، ولَيْسَ لكَ إلّا ما تُنْتِجُهُ »[1].

وحسْبُنا شواهِدَ من ذلك كلّهِ ما توزَّعَ في هذهِ الرسالةِ وفصولِها من فَلَتاتِ البيان وفرائدِ البلاغة، وما عُرِفَ عنه من إبداعٍ على الرغمِ من جميعِ التُّهَمِ التي وُجّهَتْ إليهِ تَنْعتُ بعضَ جوانب أدبِهِ بالغموض — وهي تناوئه في الفكرة ولكنّها لا تقوىٰ على التصريح لمكان الخيانة من أنفسِها !

أقولُ : إن « حديث القمر » قد جَعَلَ الرافعي يَنْعطِفُ ناحيةَ أدبِ الإنشاءِ التي برعَ فيها يُجدّدُ للبلاغةِ العربيةِ ما كانَ قد خَلِقَ عَلَيها من أسْمالِ القرون، ويَنْسِبُ إليها من مادتِها في ألفاظِها ومُفْردَاتِها عباراتٍ وتراكيبَ يُنْبتُ فيها المعاني نَباتاً حَسَناً، ويثْمِرُ في الكناياتِ، ويولّدُ الاستعاراتِ الجديدة، ويُبْلغ في المجازِ قَصْداً، ويُصيبُ أهدافاً ما تطاوَلَتْ إليها أقلامُ الكتّابِ من حَوْله. وكانَتْ له فيها حياةٌ مع الحياةِ التي يُعاني من أيامِها، ويَتَفاعَلُ مع أحداثِها، ويَنْصَبُّ مُنْدفِعاً كالتيّار يحمِلُ الدَّعْوةَ البيانيّة لخصبٍ جديد في الأَدبِ ونمائه.

---

(١) البلاغ — ٨ يونية ١٩٣١ م

ولعلَّ من أروعِ رُدودِ الرافعي في الموضوع أنّه كتَبَ الى السيد محبّ الدين الخطيب يقول :

« أما رأيكُمْ عَدَمَ الكتابةِ في الحبِّ والغَزَل لما نَحْنُ فيه، فإنَّ الحبَّ ناموسٌ لا يمنَعُهُ شيءٌ، وتركُ الكتابةِ فيه لا يَمْنَعُ وقوعَهُ، والوَجْهُ أن يُكتَبَ في إصلاحِهِ وتَطْهيره وتحويلِهِ إلى المعاني الرُّوحيّة، ليكون وسيلة سُموّ، وهذا ما فعلْتُهُ، وهو من بعضِ أغراضي في وضعِ هذه الكتُبِ، وقد أفادَتْ كثيرين في تَصْحيح اعتبارِهم للحبّ »[1].

---

(١) من رسالته المؤرخة في ١٩٣١/٤/٤ م

المبحث الثاني

الاجتماع وإرادة التغيير

كان الرافعيُّ شاعر النَّفْسِ، رَهِيفَ الحِسّ، رَقيقَ القَلْبِ، قويَّ العاطفة؛ يرىٰ المَنْظرَ المؤْلمَ فَتنْفَعِلُ بهِ نفسُهُ، ويَتَحرّك خاطرُهُ، ويَنفَطِر قَلْبُه[1].

ومع ذلك كانَ من ثباتِهِ وأخلاقِهِ ما تجعَلُ منهُ التَّقْوىٰ مُوازنةً دائبةً بين عقلِهِ وقَلْبِهِ لا يَطْغىٰ أَحَدُهما على الآخر.

وقد عاشَ في عَصْرٍ تصارَعَتْ فيهِ الأَحداثُ، وجَرىٰ التَّغْيِيرُ في أَشْواطٍ، يَنْقَلِبُ بالحياةِ ويَختَلِطُ بالاجْتماعِ، وكانَ للفِكْرِ والاقْتِصادِ مكانُهما من الأَحداثِ،... فكان في أيام يفاعَتِهِ وصدْرِ شبابهِ يُبْصِرُ الهدْمَ والبِناءَ الذي دار بحياةِ الأُمّة دورتَهُ، فأَتى على دَولتِها؛ يُقِيمُ على أنقاضِها أقطاراً يُلَفِّقُها على مَفْهوماتٍ بادَتْ، ويَرْفِقُها بفَلْسفاتٍ سياسيّةٍ عادَتْ تَلْبَسُ من المُحتلّين الأسمالَ، ورأىٰ اليهودَ والأَروام في مصرَ خاصّة وقد ملكُوا كلَّ شيءٍ، وجَعَلُوا الدّرْهَمَ والدينارَ دُولَةً بَيْنَهم يَسْتَنبتونَها بين

---

(١) العريان — حياة الرافعي — ٦٠

حاجةِ الناسِ ودُوَلِهم، ويَسْتَثْمِرون فيها عَرَقَ هؤلاء وجهادَهم، وقد هيّأتْ أوربةُ بحروبها في القارّاتِ ديارَ الشرقِ العربي لتألَفَ الفاقةَ، وتَسْتَضيفَ العَوَزَ، وتَجْعَل من الفَقْرِ الغالبِ سُلُوكاً في الحياةِ.. فتَنَبَّهَ للحالِ شاعِراً، وأَرْسَلَ في ذلك غَيرَ صوت[1].

ثم عادَ يَسْتَمْزِجُ الأفكارَ، ويَقْرأُ من آثارِ المُؤلّفين في الاقتصادِ ومذاهبِهِ، والفكرِ ومسالِكِهِ ما يحاولُ إلحاقَهُ بمبادِئِ الإسلام تارةً — كما فَعَلَ بمَذْهبِ المَنْفَعَةِ فقارَنَهُ بقاعدةِ الأجرِ والمَشَقّةِ[2] أو يَنْفَتِلُ في شَطْحَةٍ يرىٰ فيها المالَ أَخْماساً[3] فَيُوزِّعُها فيما بدا له[4] !

الإسلام وأفكار الأمم

وهنا تُخفِقُ إحدى الحركاتِ في نَيْلِ الزمام السياسيّ في رُوسية[5] فتَنْدفعُ بعضُ التَّحْليلاتِ والدراساتِ من حَوْلِ الأفكارِ الاقتصاديةِ ؛ فَيَأْلفُها مُتَأَمِّلاً حلاًّ لمُعْضلةِ الإنسانيّةِ وصراعِها بين الفَقْرِ والغنىٰ حتّى يألَفَ الناسُ من حولِهِ (الاشتراكيةَ العلمية)[6]، وينظرونَ إليها نَظْرَتَهُمْ إلى المُخَلّص،.. ولكنَّهُ يعودُ بِحصِيلةِ ذلك كلِّهِ فَيُوازِنُ بَيْنَ مبادئِ دينِهِ وحياةِ الأمم، فلا يَرىٰ في مُعْظَمِ ما حَقَّقَتْهُ هاتيكَ من آراءٍ وأفكارٍ ومذاهبَ إلّا كُتُباً ورسائِلَ تَسْتَمْرِئُ الانْقلابَ، وتَسْتَحِثُّ الثَّوْرةِ، وتَتَوسّل بهما في حقد وضغينة !..

(١) أنظر النظرات — ٦٩
(٢) ديوان الرافعي ٢ — ٢٦
(٤) ديوان الرافعي ٢—٣٦
(٣) سركيس — ٧ يونية ١٩٠٥ م
(٥) ثورة المانشفيك في روسية عام ١٩٠٥ م
(٦) المقتطف — مايو/أيار ١٩١٣ م

وهي مهما كانَتْ فإنّها أشبَهُ شيءٍ بجُمُوحِ الحيوانِ، إذْ يَحْمىٰ أنفُهُ، ثم يَجْمَحُ، ثم يَسْتَرْسِلُ في جماحِهِ، ثم يَشْتَدُّ، ثم يَسْكُنُ مُكْرَهاً بعد أنْ جمح راضِياً، فإنْ لم يُسْكِتْهُ الألَمُ، أَسْكَتَهُ التَّعَبُ!.

ذلك أنَّ التخلُّصَ من شيءٍ في فِطْرةِ الإنسان وانْتزاعَهُ من مَغْرِسِهِ في نَفْسِهِ، لا يكونُ بالتخلُّصِ من إنسانٍ بعينِهِ[1] وفيما انْتَهَتْ إليهِ تَجْربةُ الحياةِ الثورية.

* * *

وقَفَ على مِنْبرِ « جمعية الاحسان » يُحاضِرُ في الفقرِ والفُقراء مُتأمِّلاً أحوالَ الاجْتماع الصاخبِ من حَوْلِهِ، فتساءَلَ : ما الفَقْرُ ؟! فما وَجَدَ في النّاس جميعاً من يَصْدُقُ إذا ادّعىٰ أنه لا يعرفُ الفَقْرَ غير اثْنين لا خَيْر فيهما : غنيٌّ جُنَّ من فَرْطِ الغِنىٰ، وفَقيرٌ جُنَّ من فرطِ الفَقْرِ ؛ فالأوّلُ لا يعرفُ هذا الفقيرَ في جُنونِهِ ؛ لأنّه جُنَّ بغيرِهِ، والثاني لا يعرِفُهُ لأنَّهُ جُنّ بهِ !. مع أنَّ الفَقْرَ فَصْلٌ من كلّ عَمَلٍ، كالشّتاءِ فَصْلٌ من كلِّ سَنةٍ »[2].

جبروت الفقر

ولكنَّهُ حينَ تساءَلَ : مَن الفقير ؟! أطلَّ عليهِ بِوَجْهِهِ ــ وقد تنكَّرَتْ لَهُ الدنيا، وأقامَتِ الحياةُ على وجهِهِ علامةَ الاسْتفهام، وقد رَأىٰ من

---

(١) المساكين ط ٢ ــ ١٠

(٢) المقتطف/يونية ١٩١٣ م ــ المساكين ٦٧

بأسِهِ وقُوّتِهِ ما عادَ بهما « يَخْتَصِمُ الاجتماعَ كلَّهُ، ويَخْشىٰ أَنْ يَرتَفعَ فيكونَ قاضِياً عليهِ، ويأْخُذَهُ بالجِنايةِ التي أوحاها إليهِ بالأمسِ.

وإذا حكَمَ اللهُ على عَصْرٍ من عُصُورِ الجبابرةِ بالشَّنْقِ، فلَنْ تكونَ الشَّنّاقَةُ بِجذْعِها وحبالِها إلّا من ذِراعَيْهِ وأصابِعِهِ »[1].

إنَّهُ يُحاذِرُ من جَبَروتِ غَضَبِ الفقيرِ، ويُحذِّرُ من فِتْنَةٍ تُدَوّي باسْمِهِ في الآفاقِ، أو تَجيءُ مع القَدَرِ، فمضىٰ يدرُسُ الحالَ، ويُباعِد من المآلِ — وقد رأى سِنيَّ الحَرْبِ تأْكُلُ أقواتَ الناسِ، وتَزيدُ في صُفوفِ الفُقَراءِ مُعْدمين ومُشَرَّدين آخرين !.. وكانَ هو يقفُ في الجانبِ الآخر يَتَحرّى الأساسَ الاجتماعي الذي تُبْنىٰ عليهِ القاعدةُ في حَلِّ مُعْضِلةِ الإنسانيةِ في الفقرِ والفقراء، فالإنسانُ « إنّما خُلِقَ اجْتماعيًّا، وهو بشَخْصِهِ لا قيمةَ لَهُ ولا مَنْفَعَةَ إلّا حَيْثُ يكونُ شخصُهُ جُزْءًا من مجموعٍ »[2].

« وكلُّ خَلَلٍ في النّظامِ الاجتماعي فإنّما مَردُّهُ إلى طُغْيان بعضِ الأَفْرادِ وجُنوحِهم إلى أَنْ تكونَ شَخْصِيّةُ الواحدِ منهم من الكِبَرِ والعَظَمَةِ بحيثُ تُوازِنُ المجموعَ كُلَّه أو أكثرَهُ، بَيْدَ أنّ هذه الموازنةَ الفَرْديّة متى اتَّفَقَتْ كانَتْ إخلالاً بالمُوازَنةِ الاجْتماعيةِ ؛ لأنَّها تَجْعَلُ كلَّ حركةٍ من هذا الفردِ زَلْزَلةً في المجموعِ، كالثُّقْلِ في إحْدىٰ كفَّتَيْ الميزان، إنْ خَفَّ سَقَطَتِ الكفَّةُ الأخرى »[3].

---

(١) المساكين — ٦٨

(٢) المساكين — ٧٨

(٣) المساكين — ٧٨

على أنَّهُ يُبْصِرُ الحقيقةَ حينَ يردِفُ قائلاً : « والموازنَةُ الاجتماعيةُ لا تَتَهيّأُ إلّا إذا تَطَبَّعَتْ قُوى المجموع فانْدَفَعَتْ في تيّارٍ واحدٍ إلى جِهةٍ مُعَيّنة »[1].

ولذلكَ اضْطرّ الناسُ، من عَهْدِ اجتماعِهم على نظامٍ أو شريعةٍ، إلى ابْتداعِ الوسائِلِ للتوفيق بَيْنَ قُوّةِ الفَرْدِ وقُوّةِ المجموع حتّى لا يَسْتَشْري الدّاءُ في الموازَنةِ الاجتماعيةِ فيُفْسِدَها.

غير أنّ هذهِ الوسائلِ على اخْتلافِها لم تكُنْ إلى عَهْدِنا ـــ عَهْدِ الاشتراكيةِ العلميّة ـــ إلّا ثوراتٍ، مهما كانَتْ فإنها أشْبَهُ بجموح الحيوان[2].

ورأى كيْفَ « تَنحازُ طبائعُ النّاس كلُّها في جهةٍ، والفَقرُ في جهةٍ، حتّى لا يُرىٰ في العالمِ على سعَتِهِ غيرُ اثنين : هو واسْتبدادُ الغنىٰ ».

وهنا انْدَفَعَ بهِ المَعْنىٰ الاعتقاديّ، ليَتَساءَلُ :

« تُرىٰ أينَ تكونُ شرائعُ الآدابِ إذَنْ ؟! هَلْ هي في ضمائِرنا ؟! أم هي في كاتبيها ؟! أم صارَ الحَقُّ كلُّهُ إنسانيًّا بَحْتاً ؛ لي عليكَ ولكَ عليَّ ؟! ولَيْسَ للهِ عَلَينا شيء ؟! وفَصَلْنا أنفُسَنا من السَّماءِ، وقَطَعْنا الرّوابطَ التي تَربُطنا بها، ونَبَذْناها فَرَثَّتْ ثم رَثَّتْ فإذا هيَ على أجسامِ الفُقَراءِ تلكَ الأَسْمالُ البالِيةِ ؟ »[3].

---

(١) المساكين ـــ ٧٩
(٢) المساكين ـــ ٨٠

أنَّه لَيَفْتَقِدُ النظامَ الإسلامي الذي لم تَعْدِلْهُ صورةُ الحياةِ في ذلك الاجتماع، فيَرىٰ أنَّ الإنسانيّةَ لا تَرى في الأَرْضِ إلّا الضمائر، وما هذِهِ الأَجْسام إلّا أدواتٌ صناعيّة رُكِّبَتْ هذا التركيبَ لِتَصْلُحَ لحياةِ الضمير »[1]. فهو إذَنْ لم يكُنْ قد وَجَدَ فيما وَقَفَ عليهِ من مذاهِبَ وآراء في الاجتماعِ والاقتصاد ما يَعْدِلُ الضميرَ الذي « يَحْفَظُ مُوازَنَةَ الحياةِ الاجتماعية، فلا بُدّ إذَنْ من إنْباتِ الإنسانية مع الضميرِ إنْبَاتاً حَسَناً، وتعهُّدِهِ فيها بالإعدادِ والتربيةِ، ثم تذكيرها بهِ وتذكيرِهِ بها في مَوْعظَةٍ حَسَنةٍ كلّما جَدّتِ الأيامُ وتوالى الحدثان.

ذلك أنَّ « الفَصْلَ بين الغِنىٰ والفَقْر من الأمورِ التي تَتَعَلَّقُ بالضميرِ وحده، ورُبَّ غَنيّ يزيدُ أَهلَهُ بالحِرْصِ والدَّناءَةِ فقراً » !

وفي عِظَةٍ بالغةٍ وتذكيرٍ أمين يقول :

« انظروا في باطنِ الإنسانِ بالفَضيلةِ التي هي من نُورِ الله، والحَقيقةِ التي هي من نُورِ الطبيعةِ، فانّكُمْ لا تَرَوْنَ حقيقةَ الغِنىٰ من حَقيقةِ الفَقْرِ إلا بمقدارِ مِلْءِ هذِهِ المعدة »[2].

ثم إنَّهُ دعا إلى « الإحسانِ الاجتماعي » عن طريق التَّربيةِ الاجتماعيّةِ، بعدما رأىٰ من كثرةِ الجَمْعيّات في البلادِ، والإخفاقِ الذي يُرافق مَساعيها ؛ لأنَّها لا تُحْسِنُ عَمَلَ الخير، فلا تجتمعُ عليهِ ؛ لأنّ قوامَ كلِّ عَمَل بنظامِهِ وتَصْريفِهِ على أصولِهِ الطبيعيّةِ، فالإحسانُ عندَهُ « ضَرْبٌ

---

(١) المساكين ــ ٨٣

(٢) المساكين ــ ٨٩ ــ قلت هي من موعظة بدوية قائمة في قولهم (ملءُ هذي وستر هذي وبينهما فتر).

من ضُروب الإصْلاحِ الاجتماعي، يُؤْتي نتائجُهُ الطبيعيّةَ ظَهَرَ أَوْ خَفِيَ، ولا يَذْهَبُ بهِ ضَعْفُهُ أو قِلَّتُهُ، ولكنَّ الذي جَعَلَ المَوْجُودَ منهُ ضائِقاً، والمُثْمِرَ مُنْقَطِعاً هو جَهْلُنَا كيفيّةَ الإحسان »[1].

ذلكَ أن الأُمّة في ضَيْعَتِها أفرادٌ لَيْس فيها مَجْموعٌ في الحسابِ، فالذي يُعْوِزُها هو المَبْدأُ الذي يَجْتمعُ عليهِ الأَفْراد، « ولكنَّ أكبرَ رذائِلنا أنّنا لا نَتّحدُ ؛ لأنّنا نجهَلُ التربيةَ الاجْتماعيّة، فَتخَلَّقْنا بالأَخلاقِ الفَرْديّةِ، فصارَ الألفُ منا والأكثرُ من الألفِ، لا يُحْسِنونَ عَمَلَ اثنينِ مُتّحدَيْنِ »[2].

ومن الطريفِ أن أحَدَهم كان قد ساءَلَ الرافعي عن موضوعِهِ في الفقر، وإشارتِهِ إلى الاشتراكيةِ، ونَعىٰ عيهِ تَحْريم الربا، وقال : إنّهُ تَقُومُ عليهِ حياةُ الاقْتِصاد في العالم[3] فأَهْمَلَ الرافعي أنِ يُجيبَهُ، فعادَ بعد ذلك التاريخ بسنين يزعُمُ « أنَّ الرافعي يَعْتقِدُ أنَّ الفقرَ ضربةَ لازبٍ قَدْ حَكَمَ الله بهِ ولا مَرَدَّ لحكْمِهِ، كأنَّهُ لم يَسْمَعْ بالاشتراكية في حياتِهِ »[4]. وكأنّ الاشتراكية التي يَعْنيها هي بُرْء الإنسانيّةِ، أو مِسْحَةُ الرسول (؟!) التي تأتي بغير حكم الله !..

وهنا أدركَ الرافعي كأنَّ دَعْوَتَه هاتيك لتربيةِ الضميرِ وإعدادِهِ لم تَلْقَ فهماً مُسْتَوْعِباً من بعضِ مُعاصريه، فكتَبَ في الردّ يقول :

« ينعىٰ علينا أنّنا نَتجاهَلُ الاشتراكيّة كأنّنا لم نُلِمَّ بها، وهو يَراها

(١) المقتطف ــ سبتمبر ١٩١٤ م
(٢) المقتطف ــ سبتمبر ١٩١٤ م
(٣) المقتطف ــ سبتمبر ١٩١٣ م
(٤) الهلال ــ يناير ١٩٢٤ م

مائدةً مُدّتْ في الأرضِ للنّاسِ جميعاً، على أنّنا نَراها تلكَ المائدةَ بعينِها، غيرَ أننا نَزيدُ عليهِ أنّها ممدودةٌ للنّاس جميعاً، ليتَدافَعَ عنها الناسُ جميعاً فلا يَصِلُ إليها أحدٌ »[1].

« ونُفَضّلُ على كلِّ هذهِ المائدة الخياليّةِ بما حَفِلَتْ من لذائذِها وألوانها، تلكَ اللُّقَيْمات التي يَفْرِضُها نظامُ الزكاةِ في الإسلام فَرْضاً، لا يَتِمُّ تمامُ الإسلامِ لأَحَدٍ إلّا بهِ، وعلى هذا فاعتبر »[2].

* * *

العصر

ولمّا رأىٰ الحياةَ الفِكْريةَ من حواليْهِ تَندفعُ فتَلْقَفُ كلَّ ما تقولُ بهِ منابرُ الغَرْبِ من آراء، وتَسْتَمرئُ مذاهبَها في الاجْتماع والاقتصادِ والمصارفِ الربويّة، مُؤْمنةً بأنَّ ما جرىٰ هنالكَ من مُوافقاتِ العِلْم وامتيازِ القانون كفيلٌ بإعادةِ الموازنةِ الاجتماعيّة التي يَفْتَقدُها الرافعي، عاد بصراحتِهِ المَعْهودةِ يقولُ :

« يزعمونَ أنّنا في عَصْرِ العِلْمِ وفي دَهْرِ القانون، ويُريدونَ أن يَسْلِبُوا الناس إيمانَهُمْ، كأنَّ الإيمانَ هو مُشْكلةُ الإنسانيّةِ، مع أنَّهُ لا حَلَّ لمشكلتِها إلّا بهِ !.

إنَّ مَسْأَلةَ الغِنىٰ والفَقْرِ وما كان من بابهما لا يَحلُّها العِلْمُ ولا القانونُ ؛ إذ هيَ من موادِّ القضاءِ والقَدَر في إنْشاءِ الآلامِ والأحزانِ،

---

(1) الهلال ـــ فبراير ١٩٢٤ م

(2) الهلال ـــ فبراير ١٩٢٤ م

وأضدادِها التي تُقابِلُها، وما دامَ فَوْقَ الإنسانيةِ منَ السَّماءِ قُوةٌ لا تُحَدُّ، وتَحْتَ الإنسانيةِ من القَبْرِ هُوَّةٌ لا تُمَدّ، فلا نظامَ إلّا على تَصْريفِ النَّفْس أَمْراً ونَهْياً، وتَأْويلِ الحياة معنًى وغايةً ؛ فإنْ لم يكُنِ الشَّأْنُ في ذلكَ مُقَرّراً في الغَريزةِ على جِهةِ الإيمان، فلَنْ يكونَ العِلْمُ والقانون على ظاهرِ النَّفْس إلّا ثورةً بما في باطِنها في معنًى من معاني النَّفْسِ لا إنسانيةَ فيهِ[1].

ثم قالَ : « ... ومتى كانَ العِلْمُ والدينُ يقومان جميعاً على تَنْظيمِ الطَّبيعةِ في مادَّتِها وإنسانيّتِها لم تَجْرِ الإنسانيةُ إلّا على ناموسِ بقاءِ الأَصْلَح في الجهَتَيْنِ ، فإذا تَخلّىٰ بها العِلْمُ وحدَهُ، فلن تَجْرِيَ أبداً إلّا على بقاءِ الأَصْلحِ في ظاهِرِها لإيجادِ الأَفْسَدِ في باطِنِها »[2].

إنه يدعو إلى الإيمانِ حيثُ الفَضائِلُ الإنسانيّةُ العُلْيا، وحيثُ الأَخلاقُ الثابتةُ، « وما كانَتِ التقوى إلّا عَمَلاً من أعمالِ الإرادة غايتهُ إيجادُ الغرائزِ العُلْيا في الإنسانِ بالأُسْلُوب الذي لا تُخْلَقُ الغَريزةُ العلميّةُ في النفسِ إلّا بِهِ، وعلى النحوِ الذي لا تَصْلُح في الحياةِ إلّا عَلَيْهِ ».

ذلك أنَّ الإيمانَ يُحدِّدُ أَبداً غاياتِ الإنسانِ ويُنَسِّقُها، ويُلائمُ بَينها، كي لا تَطْغىٰ أو تَتَشابكَ ؛ فهو من أهلِهِ فوقَ الحكومةِ مع مَنْ تحكُمُهُم ؛ فهو الأمرُ والنهي بلُغةِ الدَّمِ والعَصَب، فإنْ لم يكُنْ من الدّينِ أُصُولٌ تأْمرُ وتحكُمُ، وفي الطباعِ من اليَقينِ أصولٌ تَسْتَجيبُ وتَخْضَعُ، رَجَعَتِ الحكومةُ في الناسِ أداةَ سُلْطَةٍ لا تُغني في الخيرِ والشرّ »[3].

---

(٣) المقتطف ــ يناير ١٩٢٩ م
(٢) المقتطف ــ يناير ١٩٢٩ م
(٣) المقتطف السابق ــ المساكين ــ ١٠

وهنا التفتَ إلى ناحيةِ المَدنيّة المُحْدثَةِ في تَقْليدِ التَّقْليدِ، وقد رآها تعمَلُ ما تَعْملُ فقال : « إذا عَمَلتِ المدنيّةُ في هَدْمِ الحُدودِ، وتركَتْ قُوّةَ الإيجابِ في طيبةِ الحياةِ بغيرِ قُوةٍ سلبيّةٍ من الإيمانِ في طبيعةِ النَّفْس، كَشَفَتْ للإنسانِ عيوبَهُ ببَلاغةٍ من تعبيرِ شهَواتِهِ »[1].

وهكذا حتى تساءَلَ قائلاً : « تُرىٰ أيخرُجُ الإنسانُ في هذِهِ المدنيةِ من عَصْرِ العَقْلِ الى عَصْرِ القلب ؟ أَمْ هو مُنْحَدِرٌ من عَصْرِ عَقْلِهِ إلى عَصْرِ مِعْدَتِهِ ثم إلى.. »[2].

وكان قد رأىٰ من ضُروبِ الخَلَلِ في الاجتماعِ بوَجْهِ المُنافق[3] أو بِيَدِ البخيل[4] وغَيْبِ الحظ[5] ما رأىٰ من ألواحٍ وصُوَرٍ، قابَلَها مع الحياةِ والنَّفْسِ والمَعْدلَةِ الاجتماعية، حتى خلُصَ إلى المعنىٰ الإسلامي الأثيرِ في النيّةِ وصلاحِها، فكانَتْ في وصيَّتِهِ على لسانِ الشيخ علي بقوله : « ما النيّةُ إلّا خُلاصَةُ الفكرِ والضَّمير، وتتابُع ما بينَهما، فلا تَنْطوي على ما يَسُوؤكَ أن تتمَّ بهِ أَلْسِنةُ الغيبِ، ولا تَعْقِدْ هوى ضَميرك على ما تحبُّهُ أصلاً من حَيْثُ لا يكونُ إلّا حَمْداً للنّاس، وحَسْبكَ من المتاجرةِ مع السَّماءِ بضاعةٌ صالحةٌ من الإيمانِ الذي لا غِشَّ فيهِ، ومن المُتاجَرةِ مع الأرضِ بضاعةٌ طيّبةٌ من النيّةِ التي لا دَنَسَ فيها ؛ فإنَّ رِبْحَكَ

---

(١) المقتطف السابق ــ المساكين ــ ١١

(٢) المقتطف السابق ــ المساكين ــ ١٢

(٣) الهلال ــ مارس ١٩٢١ م

(٤) البيان ــ ٣/٨ ــ ٤٥٧

(٥) المساكين ــ ٢١٧

من هذِهِ البضاعةِ التي لا تَكْسَد في أسواقِ السَّماء والأرضِ أن يُلْقي اللهُ عليكَ محبةً مِنْهُ. وتأييداً وسكينَةً »[1].

وكذلك الضميرُ عِنْدَهُ أبداً، هو الذي يَحْفَظُ المُوازَنَةَ والعَدْلَ في الاجْتماع الإنساني.

وقد أعادَ طَبْعَ « كتاب المساكين » بزياداتٍ مُنَقَّحَةٍ، وتلاحَقَ بعضُ هوامشِهِ بالرأي والسَّدادِ، فما كادَ يمرُّ بإشارتِهِ السابقة إلى « الاشتراكيةِ العلمية » حتّى قال:

« ليس في مثل الوسائلِ الاجْتماعيةِ كلّها ما يعدِلُ نظامَ الزكاة في الإسلام؛ فَلَوْ أُخِذَ ربعُ العُشْرِ من ثَرْوَةِ العالَم بأجمعِهِ كلَّ سَنَةٍ، وجُعِلَ في مَصالحِ الفقراء، لأَصْلَحَ الفَقْرَ والغنى معاً »[1].

وكذلك لاحقَ الرّبا فلم يَرَ فيهِ خَيْراً اجْتماعيًّا، ولا نَفْعاً إنسانيًّا صَحيحاً، وقد رآهُ أَحَدَ الرذائلِ الإنسانيّة التي تَدْخُل في الاجْتماعِ الفاسد، لِيَسْتكين إليهِ ضُعَفَاءُ الناس؛ يُخْرِبُونَ بيوتَهم بأيديهم، قال:

« لعلَّ حكمةَ تحريمِ الرّبا في الإسلامِ أنَّهُ في الأكثرِ أَكْلٌ لبقيّةِ الفَقير، وانتفاع باضطرارِهِ، وإرهاقٌ له بمضاعَفَةِ الحاجةِ عليه؛ وهي كلُّها أدواتُ قَتْلٍ اجتماعي »[2].

إنَّهُ أقوىٰ مُعاصِرِيهِ ثَوْرةً على الواقعِ الاجتماعي الأَليمِ الذي تُعانيهِ

---

(١) المساكين — ٨٠ الهامش، وهذا ما بدا لوزارة الشؤون الدينية فأعدّت له نظامها الآن!
(٢) المساكين — ٧١ الهامش.

الأُمورُ في الخَلَلِ والاضطراب ولكن إرادةَ التغيير عندَهُ لا يتمُّ تمامُها، ولا تُؤتي ثمارُها ما لَمْ يكن لها دينٌ عاصمٌ، وضميرٌ يُلزِمُ، ونيّةٌ خالصة.

* * *

الأسوة الحسنة

ثم بَدا للرافعي أن يُعنىٰ بالسيرةِ النبويةِ، ويَرىٰ فيها من بَراهينِ الحياةِ تلك الأسوةَ الحسنةَ لمن كان يَرْجُو الله واليومَ الآخر، فكانَ لَهُ من بينِ الموضوعاتِ النبويةِ أن شَهِدَ سُمُوَّ الفقرِ في حياةِ النبيّ ﷺ؛ فهو فَقْرٌ يُعَدُّ من معجزاتِهِ الكبرىٰ، فيهِ الخصائصُ النَّفْسيّةُ والاجتماعية[1].

« وفي مُضطَرِبِ النَّزَعاتِ المُتقاتلةِ تَتَلفَّتُ الإنسانيةُ إلى التاريخِ: تسأَلُهُ دَرْساً من الكمالِ الإنساني القويمِ؛ تُطِبُّ منْهُ لهذِهِ الحماقاتِ الجديدة، قال:

« لو علمت لعلمت أن درس هذا العصر في علاج مشكلاته الانسانيّةِ هو محمّد ﷺ الذي لم يَبْلُغْ أحدٌ في وصفِهِ الاجْتماعيَ، ما بلَغ هو في قولِهِ: « إنّما أنا رَحْمَةٌ مُهداة ».

هذا المصلحُ الاجْتماعي الأعظم يُلْقي فقرَهُ دَرْساً على الدنيا العِلْميّةِ ــ الفَلْسفية، لا من كتابٍ وفكرٍ، ولكنْ بأخلاقِهِ وعَمَلِهِ وسيرتِهِ؛

(١) الرسالة ــ ٥٣، وحي القلم ٢ ــ ٤٨

إذ المُصْلحُ هو الحيُّ العظيمُ الذي تَلْتَمِسُهُ الفكرةُ العظيمةُ لتحيا فيهِ »[1].

وخُيِّر ﷺ أن يكونَ لَهُ مِثلُ (أُحُدٍ) ذهباً فقال: لا يا ربُّ، أجوعُ يوماً فأدعوكَ، وأشبَعُ يوماً فأحمدُك، وَكان يقولُ في دعائهِ ويُكثِرُ منهُ: اللَّهم أَحْيِني مِسْكيناً، وأمِتْني مِسْكيناً، واحْشُرني في زُمْرةِ المساكين» كلُّ ذلك إنَّما يُثبتُ للدنيا، أنَّهُ خُلِقَ وبُعِثَ وعاشَ ليكونَ دَرْساً عَمَلِيًّا في حَلِّ المشكلاتِ الاجتماعية.

على أنَّهُ ﷺ حَثَّ على طَلَبِ اليَسَارِ والتَّعَلُّلِ من الأعمالِ الشريفة بالغلَّةِ والمالِ، فقال: « إنَّكَ أنْ تَدَعَ عِيالك أغْنياءَ خَيْرٌ من أنْ تَدَعَهُمْ عالةً يتكفَّفون الناسَ » !.

وحين يكونُ سيِّدُ الأُمَّةِ وصاحبُ شريعتها رَجُلاً فقيراً عامِلاً مُجاهداً؛ يكدَحُ لِعَيْشِهِ ويجوعُ يوماً ويشبَعُ يوماً، فَلَمْ يقلِّبْ يَدَهُ في تِلالٍ من المالِ يُورِثُهُ، ولم يَجْمَعْهُ على طريفٍ يُوَرِّثُهُ، فذلكَ هو الأمرُ النافذُ الذي لا رُخصَةَ فيهِ، بَلْ هي المساواةُ النَّفسِيَّةُ لا غيرها ــ وإن اختلفت دَرَجاتُ الاجتماع. وعلى هذهِ الأسوةِ الحَسَنةِ يَتَجلَّى تجديدُ الحياةِ في الإسلام، ويَنْتقلُ الإنسانُ من حالٍ إلى حال بالكدْحِ والجهادِ والمُثابرة، مع الالْتِزام بالقيمِ والمُحافظةِ على الأعْرافِ، فلا تجمَحُ بهِ شهواتُهُ، ولا تجاذِفُ به نَزَواتُه، ولا يُغْريهِ العِلْمُ بتحليقاتِهِ ولا القانونُ بموافقاتِهِ، وإنَّما هو الضمير عليه تَنْبتُ الأُمَّةُ وتَتَربَّى الرجالُ، وتُصْقَلُ المواهبُ وتَنْتظمُ الأَعْمالُ وتَخْلُصُ الوسائلُ بشَرفِها إلى الغاياتِ والأَهْداف بسموِّها.

---

(١) الرسالة ــ ٥٣، وحي القلم ٢ ــ ٤٨

ولم تَزَلْ هذهِ المعاني تَجُولُ في ذهنِهِ، ويَنْتَقِلُ مَعَها في حياتِهِ من عَهْدٍ إلى آخر، وفي كلّ مرحلةٍ منه يَنْضَجُ له فِكْرٌ فيه، حتى اسْتَوَت في الموازنةِ يَوْمَ رأىٰ في شهرِ رمضان شهراً للثَّوْرةِ فقالَ في لَهْجةِ مَنْ لَمْ يكُنْ ظَنُّه قد حَسُنَ بأصحابِ الفكرِ وفلاسفةِ أوربة المحدثين في هذا الاتجاه :

« يَضْطَرِبُ الاشْتراكيونَ في أورُبّةَ ـــ وقد عَجِزُوا عَجْزَ مَنْ يحاوِلُ تغيير الإنسانِ بزيادةٍ أو نقصٍ في أعصابِهِ، ولا يَزالُ مذهبُهُم في الدنيا مذهبَ كتُبٍ ورسائلَ، ولو أنَّهم تَدَبَّروا حكمةَ الصَّوْمِ في الإسلامِ، لرأَوْا في هذا الشهرِ نِظاماً عَمَليًّا من أَقْوىٰ وأبدعِ الأنظمةِ الاشتراكية الصحيحة. فهذا الصومُ فقرٌ إجباريّ تَفْرِضهُ الشريعةُ على النّاس فَرْضاً ليَتَساوى الجميعُ في بواطِنِهِم سواءٌ منهم مَن مَلكَ (المليون) من الدنانيرِ ومن ملكَ القِرْشَ الواحد ومن لَمْ يملكْ شَيْئاً. كما يَتَساوىٰ الناسُ جميعاً في ذهابِ كبْريائِهِم الإنسانيةِ بالصَّلاةِ التي يَفْرِضُها الإسلامُ على كلّ مُسْلمٍ، وفي ذهابِ تَفاوُتِهِم الاجتماعي بالحجّ الذي يَفْرِضُهُ على مَنِ استطاع »[1].

الصّيامُ عندَهُ كالتدريبِ العسكري يَعُدُّ الجيوشَ للمعركةِ، وهذا يَعُدُّ الأُمّةَ كلّها لمعركةِ الحياة ؛ فالبلاءُ الحَسَنُ عند الجنديّ الفَرْدُ، يقابِلُهُ الصبرُ الحليمُ عندَ الصائم !.

« الصَّوْمُ يضَعُ الإنسانيّةَ كلَّها في حالةٍ نَفْسِيّةٍ واحدةٍ تَتَلَبَّسُ بها النَّفْسُ في مشارِقِ الأرضِ ومغارِبِها، ويُطْلَقُ في هذهِ الإنسانيّةِ كلّها

(١) الرسالة ـــ ٧٥، وحي ـــ ٣، القلم ٦٦ ـــ ٦٧

صوتُ الرُّوحِ يُعَلِّمُ الرَّحْمةَ ويدعو إليها، فيشبعُ قِيَمَها بهذا الجُوعِ فكرةً مُعيَّنَةً هي كلُّ ما في الاشْتراكيةِ من الحقّ.

وهي تلكَ الفكرةُ التي يكونُ عنها مساواةُ الغنيّ للفقير من طبيعتِهِ، واطمئنانُ الفقيرِ الى الغني بطبيعتِهِ، ومن هذَيْنِ : الاطمئنانِ والمساواةِ، يكونُ هدوءُ الحياةِ بهدوءِ النفسَيْنِ اللَّتَيْن هما السَّلْبُ والإيجابُ في هذا الاجتماعِ الإنساني »[1].

اضطراب الاقتصاد

إنّ الرافعيَّ لَيَرىٰ في المجتمعِ وما في جَوانبِهِ من اضْطرابِ الاقتصادِ، ودَورانِ الغنىٰ والفقر ودُولة المالِ مَظْهراً من مظاهِرِ الحياة، وعلى ما في الحياةِ من صَلاحِ الضمير وخُلوصِ النيّةِ وتمامِ الإيمان تَحْسُنُ هاتيكَ الجوانبُ، وتطمئِنُّ النفوسُ، وتقوىٰ العَزَمات. فإذا ما اختلَّتِ الحياةُ، ودَبَّ الفسادُ إليها من إحدى جَوانبها، واضْطَرَبَتِ الأحوالُ فيها فأَخَذَتْ برذائلِ الرّبا، واسْتَنامَ الضميرُ، وساءَتِ النيّةُ، ولم يَنتظمِ الإيمان ولا حَسُنَ الإسلامُ ؛ فإنَّ مَرَدَّ ذلك الجهلُ في حقيقةِ المبادِئُ التي عليها نظامُ الحياةِ في الإسلام، ولا مُقوّمَ لها بدونه.

ولا يقتصر عنده الرأي على المسلمين فَحَسْبُ، وإنّما يتعدّاهم إلى إصْلاحِ المدنيةِ في العالم كلّه ؛ ذلك أن إرادةَ التغيير لا تَصنَعُها القوانينَ، ولا تُقيمُها القراراتُ، ولكنْ تَصْنَعُها النفوس و﴿ **إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرَ ما بقوم حتّى يُغيروا ما بأنفُسِهم** ﴾[2] الآية.

---

(١) الرسالة ـــ ٧٥، وهي القلم ٦٦ ـــ ٦٧.

(٢) سورة الرعد الآية ١١.

وهو بعد ذلك يُعْلِنُها صَريحةً مُدَوِّيَةً في وجهِ المَذْهبيّاتِ المستوردةِ من نَزَعاتِ الفسولات في الأقْوام غيرِ العربية، وغيرِ المُسْلمةِ، فيقولُ :

« تعالَوْا أيُّها الاشْتراكيّون فاعْرِفُوا نبيّكم الأَعْظَم ؛ إنَّ مَذْهَبَكُمْ ما لَمْ تُحْيِهِ فضائِلُ الإسلامِ وشرائعُهُ، إنَّ مَذْهبِكُمْ لكالشَّجرةِ الذابلةِ تُعلِّقونَ عليها الأثمارَ تَشُدُّونَها بالخيطِ كلَّ يومٍ تُحِلّونَ، وكلَّ يومٍ تَرْبطون، ولا ثَمَرَةَ في الطبيعة »[1].

وكذلكَ هذه المذاهبُ ما تبرحُ تحلُّ وتَربُط، وتعودُ فتقرّرُ، وتعدّلُ وتَرْجعُ، أو تَقْفزُ بحُسْبانٍ قد لا يرد في أصْلٍ، ولكنَّها مذاهبُ فيها من الاجْتهاداتِ ما يكادُ يَجْعَلُ من الاجتهادِ نفسِهِ فيها فَوْضىٰ تضربُ في الفكرِ وتَضْطربُ بالاجتماع !..

* * *

(١) وحي القلم ٢ ــ ٦٤ ــ وهي الحكمة التي طار بها أمين البعث فكانت مضمون تنظيره ــ انظر الرسالة الاسلامية ٢٠٨.

المبحث الثالث

الضمير العربي

من المَوْضوعاتِ الجليلةِ المُحْدثَةِ في أدبِ الرافعي، ذلكَ الموضوعُ الاعْتقادي الخطير الذي تَقومُ عليهِ حركةُ الأُمّةِ في اسْتعدادِها للقيامِ بمجدِها الحضاري الذي تُعيدُ بهِ مُوازَنَةَ القُوىٰ في العالمِ، وتُقيمُ المَعْدلَةَ التي عُرِفَتْ بها في دينها.

هذِهِ الحركةُ القَوْميّةُ العربيّة التي عادَتْ تَنْتظم الأُمَّةَ في صفُوفِها بالحياةِ والجهاد، وتحاولُ أن تَغْنَمَ أَكثرَ من مَجْدٍ، وتُوَحِّدَ الديارَ والبلادَ، بحَشْدِ طاقاتِ العباد، وتوفيرِ فرصِ الانتصار لها.

وقد لا يَتمُّ ذلكَ الحَشْدُ إلّا بوازعٍ من ضميرٍ يُمْليهِ الوعيُ بظَرْفٍ رباني[1] ذلك أنّ الضميرَ هو صَوْتُ الله في الإنسانِ[2] ولا يَنْبَعثُ هذا

---

(١) زكي الأرسوزي ــ بعث الأمة العربية ورسالتها ــ ٢٣
(٢) الزهور ــ ٤ ــ ١٩١٢م

الصَوْتُ إلا بوحيٍ ذاتيّ يَنْطلقُ بهِ لسانٌ مبينٌ، ويتمثّلهُ أدبٌ رفيع، ويمتازُ فيهِ فكرٌ سَديدٌ.

والضميرُ يشابهُ العَقْلَ في بعضِ أعمالِهِ كما يُشابهُ الوِجْدانُ العاطفةَ في نَزَعاتِها، فانَّ من الأعمال العقليّةِ إدراكَ الأَوّلياتِ والبَدائهِ التي لا تَحْتاجُ إلى بُرهانٍ ؛ فالمُسْتَقيمُ في أعمالِهِ، الصادِقُ في أقوالِهِ، المُتَحلّي بالفَضائِلِ، والسَّالكُ إلى الكمالِ في منهاجِهِ، لَهُ من راحةِ الضميرِ سُرورٌ لا يُحيطُ بهِ الوَصْفُ، ولا يَقْوىٰ على تِبْيانِ محاسِنِهِ البيانُ، ولَهُ غِبْطَةٌ لا يُدانيها في التأثيرِ جمالُ الطبيعةِ ولا عُذوبَةُ المُوسيقىٰ ولا طَرَبُ العواطفِ.

وهو شيءٌ خَطيرٌ في حياةِ الإنسانِ ــ كما تَقَدّم بنا القَولُ « ولا بُدَّ لَهُ من تربيةٍ وتَنْشِئَةٍ خاصّة ؛ ليكونَ سَليماً ويحتفظَ بنقائِهِ، ويُصْبِحَ حكمُهُ على الأشياءِ صَحيحاً »[1].

فطرة الله

والضميرُ بَعْدُ الفطرةُ النَّقيَّةُ، فما جاءَ منهُ هو الدّينُ بعينِهِ، ولا يمكنُ أن يقومَ ضميرٌ بلا دين ؛ إذ الدّينُ هو الضميرُ القانوني للأُمّة، وحقيقةُ الخلُقِ الاجتماعي فيها[2] ذلك أنَّ الدّينَ والضميرَ صِنْوانِ لمَضْمونٍ واحدٍ، لا يمكِنُ لأَحَدِهما أن يَنْفَرِدَ دون الآخر[3] وبالدّينِ الإسْلاميّ

---

(١) عمر الدسوقي ــ الرسالة ١١١٥ ــ ١٩٦٤ م
(٢) الرافعي ــ الرسالة ١٤٥ ــ وحي القلم ٣ ــ ٣٥
(٣) كتاب المساكين ــ ٢٧٦
ومما تجدر الاشارة إليه أن محمود الشرقاوي قد حاول نقل مفهومٍ غريب في كتابه =

المُنْبَعثِ من ضميرِ الأُمّةِ العربية قامَتْ هذهِ الأُمّةُ على فضائِلها النفسية، وفيه — لا في سواه — مَعْنى إنسانيةِ القَلْب[١].

الضمير القومي

ولمّا كانَ الإسْلامُ دينَ الفِطْرة، فانّهُ الضميرُ القوميّ للأُمّةِ العربية ؛ الذي يُضْفي على الوجدانِ الانسانيّ النُّبْلَ وسائِرَ الفضائل العُلْيا أبداً ؛ لأنَّهُ الفِطرةُ الإلٰهيّةُ التي فُطِرَ الناسُ عليها[٢].

ومن هنا كانَت الأُمّةُ العربية مَتْبُوعَةً لا تابعةً في دينِها وفضائلِها النفسيّةِ ولسانِها وبيانِها[٣]، ولو صَلُح للإسلامِ غيرُ العربِ لقُدّموا عليهم[٤].

ومن هنا أيضاً جاءَ المَعْنىٰ الجليلُ للعُروبةِ ؛ فقد وَجَبَ على الأُمّةِ العربية أن تَعْمَلَ على نَشْرِ دينها ولسانِها وعاداتِها وآدابها وأعرافِها ؛ لتَجْعَلَ من هذهِ الأقوامِ الإسلامية أمّةً واحدةً في دينِها وقِبلتِها ولُغتها ومقوّماتِ حياتِها، ولتكونَ أُمة وَسَطاً، وليكونُوا شهداءَ على الناسِ — الآية، كما قالَ الإمام الشافعي[٥].

وهنا أضيفُ أن الإسلامَ الحنيفَ بهدايتِهِ كأنّما جاءَ لتَعْريبِ النّاس فِقْهاً وبياناً !.

= (الدين والضمير) زعم فيه أن المستقبل للضمير من غير أن يُلْزِمَهُ بدين، ولَسْنا من مذهبه، فالحياة الاعتقادية والفكرية لا تقرُّ ذهاباً كهذا.

(١) الرسالة — ٤٣، ٩٣

(٢) تاريخ آداب العرب ١ — ٧٣

(٣) الامام الشافعي — الرسالة — ٤٩

(٤) رسائل الرافعي — ٨٠ وهو مذهب الأنصار من تلامذته.

(٥) أحمد محمد شاكر — هامش الرسالة — ٤٩ والآية من سورة البقرة رقم ١٤٣

« التاريخُ كلُّه دليلٌ على أنّ العربَ مادةٌ كريمةٌ في عُنْصرِ الإنسانيّةِ، وقدْ خَصَّهم الله بإقليمٍ وطَبيعةٍ لم يَخُصَّ غيرَهم بهما، فخرَجُوا من أثرِ هذا الاقليمِ وهذِهِ الطبيعةِ — وهم أكرمُ الخَلْقِ غريزةً وطَبْعاً في النَّفْسِ والخُلُق والعَقْلِ والرُّوحِ، لا يَحْتاجونَ من التهذيبِ والتَّدْريبِ إلى أكثرَ ممّا يَحْتاجُهُ الألْماسُ الكريمُ في الصَّقْلِ والرَّوْنَق، فإذا هو مُشْرقٌ يَتَلألأُ من كلِّ جهاتِهِ، وإذا هُوَ يُنْبئُ عَنْ صَفاءِ معدَنِهِ بنُورِهِ، ويَبين عن كرمِ عُنْصُرِهِ بفضيلتِهِ.

ولمّا أرادَ الله أن يَبْعَثَ في الأرضِ خَلْقاً جَديداً، ويُنْشِئَ للدُّنيا أُمَماً مُسْتَحدثَةً فتيّةً، بَثَّ فيها العَرَبَ تحتَ ظلالِ سُيوفِهم وأروقةِ أخلاقِهم وطباعِهم، فكانوا مادّةً قويّةً في دِماء الشُّعُوبِ انْبَعَثَتْ بها تلكَ الأجيالُ المُتَحضّرةُ التي أنشأَتِ التاريخ العظيم، وأدارَتِ الأرضَ دورةً جديدةً بما دَفَعَتْ فيها من القُوّةِ والنَّشاط »[1].

وهذا مذهبٌ التزمه الأنصار من تلامذته، وما برحوا يلحّون في السؤال لماذا نزل الإسلام في جزيرة العرب، ويستفيضون في الجواب بما يؤلّفُ شروحاً متوازنة للميثاق ونقداً متواصلاً للفلسفات والأفكار.

وربّما كانت عثرات الثوار العرب وخُوازِ بعضهم من غفلتهم عن هذه الحقيقة الحرّة والتفكير المؤمن السليم.

* * *

ولمّا كان من أولى واجباتِ « العُروبةِ المؤْمنةِ » الحقَّة أَنْ يعمَلَ أُدباؤُها على نَشْرِ أهدافِها وإذاعةِ لُغتِها في بيانِها وأفكارِها وفقهِ حياتِها، فإنَّ

(١) الرافعي — مقدمة أعجب العجب من أحوال العرب — ٥

من أولياتِ الأمور في الواجبات أن يَنْهَضَ بذلك مَنْ نَذَرَ نفسَهُ فداءً وجِهاداً حتّى ينفرِدَ الأَدَبُ العربي بطابَعِهِ القوميّ المميّز، الذي يُعرَفُ بهِ بينَ آدابِ الأُمَمِ وأفكارِها، فلا يَعُودُ مُرَقَّعَةَ اسْتِجداءٍ، ولا مباءَةَ اسْتِجْلابٍ، كحالِ مَنِ انْتَهَتْ بهم الأيام!.. — وقد رَضُوا لأنفُسِهم ولَهُ أن يكونُوا تَبِيعاً في مُعْظَمِ ما يَحْمِلُونَهُ من فكْرٍ وسياسةٍ لآدابِ الأُمم الأُخرىٰ غيرِ العربيّة، بما فيها من ألواث اليهودية وأدرانِ الشُعوبيّاتِ الأخرى».

إنّ الرافعيّ لم يكنْ كذلكَ وإنّما كان حَرْباً على الحالِ التي آلَتْ إليها، حَيْثُ ذهَبَ الأدباءُ نَشْراً مُتبدّدين لا يَجْمَعُهُم زِمام[1].

لقد كان معروفاً باتّجاهِهِ العربي وضميرِهِ القومي منذُ سالَ قلمهُ يَسْطُرُ نظيمَهُ ونَثيرَهُ، في العقُودِ الأُولى من القَرْن، وقَدْ أحسَّ بِهِ مُناوِئوهُ، وتَصَدَّوْا لَهُ ولآثاره[2] قَبْلَ أن يَفْطِنَ المفكرونَ العرَبُ لخطَرِ أدبِهِ!.

موافقات

وقد حَفِلَتْ حياتُهُ الشّعريّة بمُوافقاتٍ طريفةٍ في مَوْضوعاتِ العرُوبةِ والقوميّةِ والوطنيةِ سَبَقَتْ دراستُنا لها[3] وحَسْبُنا الإشارةُ إلى بعض آثارِها هنا.

---

(١) الرسالة ١٩٣ — وحي القلم ٣ — ٢٠٨

(٢) كلُطْفي السيّد الذي ردَّ الرافعي عليه «مَضْرَبَته» وعَدَّها كالنّزعة القبليّة التي نهى الاسلام عنها، وكسلامة موسى وطعنِهِ على العرب، وكطه حسين وحُسْبانِهِ العربَ على المُستعمرين الغُزاة، والعقّاد واشتهار عداوتِهِ للوحدة العربية وغيرهم — راجع الرافعي الناقد الأديب.

(٣) هي رسالة الاختصاص (الماجستير): الشعر عند الرافعي.

منها قصيدتُهُ التي ما تَفْتأُ تَرَدَّدُ على أَلْسِنةِ الناشئةِ في المدارسِ الابتدائية في الشامِ والعراقِ، وكان أرسَلَها ولَمْ يكَدْ يتخطّى العِقْدَ الثاني من سِنيهِ :

بلادي هَواها في لساني وفي دمي   يُمَجّدها قَلْبي ويَدْعُو لها فَمي

وقد جَمَعَ في البَيْتِ عطاءَ القَوميّة حقّها وفاءً وكرَماً ؛ إذْ أظْهرَ الفكرةَ، وعَلّقَ العاطفةَ، ودعا بإيمانٍ عظيمٍ، وصَوّرَ ذلك كلَّهُ برياضةٍ أدبيّةٍ بارعةٍ تُتَرْجِمُ عن حركةٍ اعتقادية نبيلةٍ في نفسِهِ. ولم يَنْسَ أنْ يذكُرَ فيها مُقَوّماتِ العُروبةِ جميعاً، فهي تجري على لسانِهِ لُغَةً، وتَحيى في عُروقِهِ أصالةً ودماً كريماً، ويشارِكُ فيها بحبّ الوطن، ويجعَلُ من ذلك كلّه ديناً يعمرُ بهِ قَلْبَهُ، ويحيا بأمجادِهِ، حتى عادَتْ نشيداً يَتَردَّدُ شِعاراً لا تُبليهِ الأيّامَ، ولا السياسات[1].

وهو ككلِّ شاعرٍ قوميّ تخِذَ من إحساسِهِ بالواقعِ الأليمِ للأُمّةِ مُنْطَلَقاً للتعبيرِ عمّا في ضميرِها من نوازعَ وأشجانٍ، فقالَ من قصيدة أخرى :

لقد وَعَظَتْنا خُطُوبُ الزّمـان   وبعضُ الخُطُوبِ كبَعْضِ الخُطَبْ
ألَسْتَ تَرىٰ العَرَبَ الماجِدينَ   وكَيْفَ تَهـدَّمَ مَجْدُ العَـربْ

(١) من المفارقات الأدبيّة الطريفةِ في العصر أنّ الشاعر محمود صادق كان قد أغارَ على المطلعِ هذا فانتظمه في نشيدٍ نالَ به الجائزة الأولى! في مسابقة عام الاستقلال ١٣٥٥ هـ ــ ١٩٣٦ م إذ قال :

بــلادي بــلادي فــداكِ دمــي   وهبتُ حياتـي فِـدىً فاسْلمـي
غــرامك أوّلُ مــا فــي الفـؤاد   ونجـواك آخـرُ مـا فـي فمـي

وقد أخذَ فلم يترك للرافعي بضاعة، أنظر (أغاريد الرافعي) الأقلام ١ ــ ١٩٦٧، ثم راجع الرسالة ــ ١٥٠ ــ والرابطة العربية ٦٣ ــ ١٩٣٦ م وتدبر!!

ولو انْتَقَلْنَا مَعَهُ إلى مَرْحلةٍ أُخرىٰ في حياتِهِ الأدبيةِ الشاعرة، لوَقَفْنا على الوُضوحِ في أرادةِ الاعتقاد، ربما لَمْ يَتَهيّأْ لمُعاصِريهِ الذين آثروا الصِّفَةَ السياسيّةَ أو اللونَ الطائفي آنذاك، فهو يَبْتَعِدُ عن مجالاتِهما ليتَفرّدَ بالنظرةِ المَوْضُوعيّةِ التي لا تثير من حَوْلِها الغبارَ، ولكنْ تَجْعَلُ التأمُّلَ والتفكيرَ دائبَيْنِ كالرّفيقَينِ المُلازمينِ لها، وربّما كان ذلك يَسْتَبِق بالعَقْلِ الأَدبيِّ بوادِرَ النُّهْضةِ العِلْميّةِ للأُمّة في تلك المرحلةِ، ويَحْتاطُ لها بالتَّمْهيدِ الذي هو التَّشْخيصُ والمعرفةُ والفَهْمُ، وما يكونُ من وَعْيٍ الحقيقةِ الواقعةِ بِروحِها الاجتماعي.

إنَّهُ يَذْهَبُ مذهبَ الإمام الشافعي في اللُّغةِ وكونِها الأساسَ البيانيَّ للاعْتقادِ القَوْمي فكرةً وهدفاً[1] فإذا ما تَمَثَّلَتْ له بظُروفِها نَظَرَ إليها نَظْرةَ الأديبِ الذي تَتمثَّلُ فيهِ حكمةُ التجربةِ وفَضْلُ السَّبْقِ في الاتفاقِ، وثباتِ الجَنان مع الاتساقِ وشبابِهِ الغضّ هذاك :

إذا اللّغاتُ ازْدَهَتْ يوماً فقد ضَمِنَتْ ... للعربِ أيَّ فخارٍ بَيْنَها الكتُبُ
وفي المعادِنِ ما تَمْضي برَوْنَقِهِ ... يَدُ الصّدا، غَيْرَ أنْ لا يَصْدأُ الذَّهَبُ

هذا إلى أمثالٍ أُخَر عَرَضنا لها في الدراسةِ السابقة.

---

(١) راجع ما تقدّمت الاشارة إليه، وتدبّر مذاهب القوميّة في أوروبة وكيف أنّ النظرية الألمانية خاصّة من هردر الى هيجل وفختـه الى ما صرّح به ماكس نوردو في (روح القومية) وقد غدا ميثاق الصهيونية ــ عادل جبرة عام ١٣٤٠ هـ ــ ١٩٢٢ م مط ــ المقتطف.

ثم تأمّل « الرسالة » للامام الشافعي ص ٤٢ وما بعدها، لتقف على شَكْل الأخذ والتمثيل عن أولئك الأقوام، ولتعرف بعد ذلك ما عليه (قوميّونا) المصنفون من النقلِ والترديد الذي يخضعُ للغفلة ويرينُ على الغباءِ! وعفاء على تلك الأيام والصفات! راجع كتابي الحصري والبزاز في القومية ــ على سبيل المثال..

ثم إنَّ الرافعيَ قد انتقل بفكرهِ العربيّ الثاقبِ من هذهِ الناحيةِ الأَدَبية وصُوَرِها الوجْدانيّةِ، والحماسَةِ والثّوْرةِ ومحاولةِ النظرةِ المُميّزة، والرؤيةِ الواضحةِ التي يَحْياها بضميرهِ المؤمن فيَنْقَلِبُ عائِداً بالعُروبةِ إلى الدراسةِ المَنْهجيّةِ مُتَثَبّتاً من الرُّوحِ العِلْميّةِ ؛ يُوثِّقُ العهودَ التي يقطعها لأُمّتِهِ مُمَهِّداً لها سبيلَ إعدادِ (الميثاقِ القومي) الذي تَتّخِذُهُ منارَ الهدى، ومثارَ الدراياتِ ومُلْتَقى الأفكارِ، ومحتدمَ الآراءِ ومجالَ البَحْثِ والمُقارَنَةِ.

فقد وَجَدَ أن « العرب جيلٌ من الناسِ تَدَلّتْ عليهِ الشَّمْسُ منذُ القِدَم، في هذهِ الجزيرةِ التي كأنَّها قِطْعَةٌ انخزَلَتْ من السَّماءِ مع الإنسانِ الأول، فلا يَزالُ أهلُها أَبْعَدَ النّاسِ مَنْزعاً في الحريّةِ الطَّبيعيّةِ، وأشدَّهم مُنافَسَةً في مُغالبةِ الهِمَمِ، كأنّما ذلكَ فيهم مِيراثُ الطبيعةِ الأُولىٰ، فهُمْ منهُ يَنْبتُون وعليهِ يَمُوتون »[1].

ويبلُغُ بهِ الإعجابُ بهم والاكبارُ لَهم أنَّهم « سُكّانُ الفيافي وتَرْبيةُ العَراءِ، يَنْبَسِطُونَ مع الشَّمسِ، ويَفيئُونَ مع الظلّ، ويَطيرونَ في مَهَبّ الهواءِ، بَلْ أولادُ السَّماءِ ؛ ما شِئْتَ من أنوفٍ حَمِيّة، وقُلوبٍ أبيّةٍ، وطباعٍ سَيّالةٍ، وأذْهانٍ حِداد، ونُفُوس مفكّرة »[2].

وقد وقَفَ البَحْثُ العِلْميّ أمامَ بَقاياهم موقِفَ العَجَبِ الذي يَنْبهرُ له العُلماء ــ وقد أصبَحَتْ بقاياهُم الضاربةُ في بَوادي العَرَبيّةِ ومِصر

(١) تاريخ آداب العرب ١ ــ ٣٤

(٢) تاريخ آداب العرب ١ ــ ٣٤

والشام لهذا العَهْدِ موضعَ العَجَبِ من عُلماءِ الطبائع[1] ؛ حتى أجمَعُوا على أنَّهُ لا نِدَّ لهذا الجنْسِ في جميعِ السُّلالاتِ البَشَريّةِ، من حيثُ الصفاتُ التي يَتَبايَنُ فيها أجناسُ البَشَرِ خَلقاً وخُلُقاً، حتّى صرَّحَ بعضُهم[2] بأنَّ هذِهِ السُّلالةَ تَسْمُو على سائِرِ الأجيالِ ». ويُفَسّرُ ذلكَ بقولِهِ : « بالنَّظَرِ إلى هَيْأةِ القُحْفِ، وسِعَةِ الدّماغ وكثرةِ تَلافيفِهِ، وبناءِ الأَعْصابِ وشَكْلِ الأليافِ العَضَلية والنَّسيجِ العَظْمي، وقِوَامِ القلب، ونِظامِ نَبَضاته، فَضْلاً عمّا هُمْ عليهِ من مَلاحَةِ السّحْنَةِ، وتَناسُبِ الأعضاءِ وحُسْنِ التقاطيعِ ووضُوح المَلامحِ، وفَضْلاً عمَّا في طباعِهم من الكرمِ والأَنَفَةِ والأَريحيّةِ وعِزّةِ النَّفْسِ والشجاعةِ[3].

ومن أجلِ ذلك كانُوا أهلَ هذِهِ اللُّغَةِ، ورُعاةَ هذا الدين، وهَلْ مِثلُهما مقوّمانِ لأُمّةٍ ؟!

« لا جَرَمَ كانوا أَهلَ هذِهِ اللُّغة المعجزةِ التي ناسَبَتْهم بأوضاعِها في معاني التركيبِ، حتّى كأنّما كُتبَ لها أن تكونَ دِينَ الأَلْسِنةِ الفِطْريّ، لِتَصْلُحَ بعدَ ذلكَ أن تكونَ لسانَ دينِ الفِطْرةِ »[4].

---

(١) يريد بهم علماء الأجناس الذي يُعْنَونَ بالدراساتِ النفسيّة للأمم أمثال جُوستاف لوبون الذي التفتَ الى هذهِ الناحية في ميراثِ الحضارة العربية.

(٢) لعلّهُ صموئيل لانج الذي كتبَ في (العرب وقِدَم مدنيتهم) ـ الكوثر ٥ ـ ٣ ـ ٣٦٩

(٣) تاريخ آداب العرب ـ السابق : وقد كتب المقتطف ٢ ـ ١٩١٢ م مُشِيداً بالكتاب ومُلْتَفتاً الى هذه الناحية العلمية من موضوعاتهِ التي عَدّها كالسابقةِ ذاتِ الشأنِ في الكتاباتِ المعاصرة، ولا بدعَ، فقد تفاعل الرافعي والمقتطف مع النهضة العلمية، وعاصر الانقلاب المنهجي في الدراسات والبحوث، وهو جدير بالاكبار من هذه الناحية أيضاً التي امتاز بها على معاصريه من المؤلفين الأدباء ـ وإن لم يرجع بأخذه الى مصادره فَحَسْبُهُ سعة إطلاعه وإلمامه العلمي.

(٤) راجع ما سبق آنفاً.

فإذا كانَتِ اللُّغةُ بِنْتَ الاجتماعِ، والأُمّةُ لا تَجْتمع إلّا بقُوّةٍ من التَّجاذُبِ النَّفْسي تَبْني عليهِ الأغراضَ الاجتماعية، التي هي اللّبناتُ الأولى في الحياةِ صِفَةً ومادةً، فأيُّ اجتماعٍ هذا الذي نَزَلَ عليهِ القرآنُ العظيم ؟! ذلكَ الكتابُ الذي « تَنَزّلَ من العَربِ منزلةَ الفِطْرةِ اللُّغويةِ التي يُساهِمُ فيها كلُّ عربيّ بمقدارِ ما يَتَهيّأُ لَهُ من أَسبابِها الطبيعيّةِ » حين « صَفّى القُرآنُ تلكَ الطِّباع، وصَقَلَ جوانِبَ الرُّوح العربيةِ حتى صارَتِ المعاني الإلٰهيّةُ تَتَراءى وكأنّها عن معاينة »[1].

* * *

أمّا تاريخُ هذِهِ الأُمّةِ الصابرةِ ثباتاً على الأيام والحَدَثان، فهو كما يُقَرِّرُه بقوله :

« لمّا اسْتقامَ العَرَبُ للكتابِ الكريمِ أقامَهُمْ على طريقِ التاريخِ التي مرّتْ فيها الأُمم، وطَرَحَتْ عليها نقائِضَها، وأقامَتْ فضائِلَها ؛ فَجَعلُوا يَبْنُون عِنْدَ كلّ مرحلةٍ على أنقاضِ دَوْلة، ويَرْفَعُونَ على أطلالِ كلّ مذلّةٍ صَوْلَة، ويَخِيطُونَ جَوانبَ العالمِ المُمَزّقِ بإبرٍ من الأَسِنّةِ وراءَها خيوطٌ من الأعِنّة، حتّى أصبَحَ تاريخُ الأرضِ عَرَبيًّا، وصارَ بعد الذلّةِ أبيًّا، واسْتَوْثَقَ لهم من الأمرِ ما لَمْ ترو الأيامُ مِثْلَ خبرهِ لِغَيْرِ هؤلاءِ الأعرابِ، حتّى كأنّما زُوِّيَتْ لَهُم جوانبُ الأرضِ »[2].

وبذلك تَنَزّل القرآنُ منهم « مَنْزِلَةَ الفطرةِ الغالبة التي تَسْتَبِدُّ بالتكوينِ

---

(١) البيان — جمادى الأول ١٣٣٠ هـ — وتاريخ آداب العرب ٢ — ٧٠

(٢) تاريخ آداب العرب ١ — ٣٦

العَقْلي في كلِّ أمةٍ ﴿ولقَدْ ضَرَبْنا للنّاسِ في هذا القُرآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يتذكَّرُون، قرآناً عَرَبيًّا غيرَ ذي عوَجٍ لعلَّهم يتّقُون﴾ الآية[1] إذ هو فطرةُ هذِهِ الأُمةِ وميثاقها[2].

* * *

المفترق العقائدي

في هذا المفترق الاعتقادي الذي يقِفُ فيهِ الرافعيّ بضميرِهِ العربيّ وروحِهِ العِلْميّةِ وفنّهِ البياني ؛ يضَعُ الخطوطَ الأُولى لميثاقِ الأُمّةِ القومي ــ قد يتبادَرُ للذهنِ ويتداعى على الخاطرِ موقفُهُ من الدَّعْوَيَيْنِ المُتناقضَتَينِ في الموضُوعِ نفسِهِ ما هو ؟!

تلكَ التي تَقُولُ بها فِئاتٌ وطوائفُ افْتَرَضَتْ وجودَها في الأُمّةِ ــ وهي تَزْعمُ أنّ الإسلام قد قَضىٰ حُكماً بالتّقوى[3] على كلّ ما للعَرَبِ من صفاتِ القوميّةِ، وميراثِ العُروبةِ وميراثِ الجِنْسِ، والخصائصِ النفسيّةِ الأُخرى ــ حين ساوىٰ بَيْنَ البَشَرِ، وجَعَلَ الفَضْلَ لفضيلةِ التقوى !.

---

(١) سورة الزمر الآيتان ٢٧ و٢٨.

(٢) تاريخ آداب العرب ٢ ــ ٩٦ : وماذا يعني بعد إبعاد العرب عن القرآن؟! غير الردّة والحران؟!
أنظر ما سبق من مذهب الإمام المطلبي ــ الرسالة ٤٢ وما بعدها، وقف على حقيقة منزلة الأمة في حمل الرسالة الربّانية للناس أجمعين. وتدبر.

(٣) التقوى : هي الأصلِ الذي تقوم عليه الأخلاق، ولا يمكن أن تفسَّر على التحديد والتعيين في كلمةٍ تَستوعب معانيها إلّا بالخُلق الثابت، ولَيْسَ لهذا المعنى المُتَعارف من ضَعْفٍ وفسادِ الاجتماع الذي لا يجلبُ منفعةً ولا يدرأ مَفْسَدَة.

والأخرىٰ التي احْتمىٰ بها تلامذةُ (الثورة) الفرنسية، وحَمَلَةُ الفكرِ الأوربي المحدث ؛ للدخولِ على العَرَب بعلْمانيّةٍ ابْتَدعوها[1] بموازاةِ الحركةِ الصليبيّةِ العائدةِ بالتّبْشيرِ والغَزْوِ الفكري الماسُوني ؛ للتّغْريبِ بالأُمّةِ أولاً، ثم إلقائِها ما بَيْنَ مَدّ شيوعيّ، وآخَر صِهْيوني، وبَعْثرة أيامِها بينَ يدَيْها ثانياً ؛ ولو في بَعْثِ الشعوبياتِ، وإيجادِ القُطْرِيّاتِ وتوزيعِ الاتّجاهات !..

« ذلك أنّهم يَغْفَلُون عن الروحِ الدينيّةِ التي يَنْشأ عليها المسلمونَ ــ أهلُ هذِهِ العربيّةِ ــ في جهاتِ الأَرض، وأنّ هذِهِ الروحَ قائمةٌ على نَفْيِ العَصَبيّةِ الوَطنيةِ كالمِصْريّة وغيرِها، فقد كانَتْ هذه العصَبية عامّة في قبائِلِ العرب حتّى محاها الإسلامُ، وما عَصَبيّةُ قبيلةٍ وقبيلةٍ في المعنى إلّا كعصبيّةِ بَلَدٍ وبَلَدٍ، ومَضَرٍ ومَصرٍ، وما يقولُونَ به من تَمْصيرِ العربيةِ لا يَعْدو أن يكونَ وجهاً من وُجوهِ هذِهِ العصبيّةِ المَمْقُوتة »[2].

إنَّ الرافعي لم يكُنْ يَغْفلُ عن ذلك حِينَ عَرَضَ لموضوعِ الجِنْسيّةِ الذي عادَ يتذرّعُ به الشعوبيون الجدُد من مُضَيِّعي الأيام ؛ فقد أوضَحَ ذلك برأيٍ سديدٍ، ووثّق الجِنْسيّةَ العربية بمنْطقٍ حكيمٍ، وناظرَ المَسألَةَ بصِدْقٍ أديبٍ حين ذَهَبَ يقول :

---

(١) العَلْمانية : كلمة مبتدعة حديثاً؛ يحاولُ مدعوها الظهور بالمظهر العلمي وإخفاء ما وراءَها من صفةِ الالحاد إذ هي ترجمة مموّهة لكلمة «securalism» ولا أدري ما العلمانُ الذي تُنسَبُ إليه؟!

(٢) المعركة تحت راية القرآن ــ ٦٩، راجع « البحران الفكري » فيما وراء الحركات السياسية في المنطقة.

« إنّ من أعْجَبِ ما يروعُنا من أمرِ الجِنْسيّةِ العربية في القرآنِ أنّها تأبىٰ إلّا أن تَحْفَظَ على أهلِها تلكَ الصّفاتِ العربيّة من الأَنَفَةِ والعِزّةِ والصَّوْتِ والغَلَبِ، وما يكونُ من هذا البابِ الاجْتماعي الذي ما يَزالُ يَفْتَح للشُّعوبِ عن مقاصيرِ الأرض »[1].

لقد تعرّض العَرَبُ في تاريخِهم الطويلِ لألوانِ الامتحانِ، ومَرّوا بصُروفِ المِحَنِ، وقاسَوْا من الأَسْواءِ والأَدْواءِ، وعانَوا من الأنواءِ ما لَوْ تَعَرّضَتْ له أمةٌ من الأمم غيرهم لانْدَثَرَتْ في طوايا التاريخِ، أو اخْتَفَتْ في زَوايا الضياع ؛ ولكنّ العَرَبَ كانوا يثْبِتُونَ وجودَهم هذا بثباتِ الأَخْلاق ؛ فهو الذي يَحفَظُ لهم سُنَنَ الحياةِ، ويَقيهِمْ شُرورَ الأيامِ، ويَدْفَعُ عنهم غَوائل الأحداثِ، قالَ الرافعي :

« لم يَجْرِ من الأحكامِ النَّفسيّةِ على أُمةٍ من الأمم ما جَرى عليهم، فإنْ أرَدْتَ أن تَعرِفَ مِصْداقَ ذلك فاعْتَبِرْ ما اتَّسَعُوا فيهِ من المحفوظِ ؛ فإنك لَسْتَ واجدَهُ إلّا في المعاني النفسيّة »[2].

المعجزة القومية

أمّا المُعْجزةُ القوميّةُ للعربِ فقد كانَتْ في ذلك الاختيارِ الإلٰهي لهم في حَمْلِهم لرسالتِهِ، ﴿ **واللهُ أعلَمُ حيثُ يَجْعَلُ رسالَتَهُ** ﴾ ـــ الآية[3]

---

(١) البيان ـــ جمادى الآخرة ـــ ١٣٣٠ هـ
(٢) تاريخ آداب العرب ١ ـــ ٢٨٧
(٣) ١٢٤ من سورة الأنعام.

« لقد كانَ مِن إعجازِ القرآن أنْ يَجْمَعَ بينَ هؤلاءِ الذينَ قَطَعوا الدَّهْر بالتَّقاطُعِ على صِفَةٍ من الجِنْسيَّةِ لا عَصَبيَّةَ فيها إلّا عَصبيةُ الرّوح »[1].

إذ أخذَهُمْ بالفِطْرةِ، حتّى ألّفَ بين قُلوبهم، وساوىٰ بين نُفوسِهم، وأجراهم على المَعْدَلةِ في أمورِهم ؛ فجَعَلَ منهم أمّةً تَسَعُ الأُمَمَ بوَجْهِها كيفَ أقْبلَتْ ؛ لأنّها لا تُوَجّهُهُ إلّا لِلّهِ، فكأنَّ بَيْنَها وبينَ اللهِ كلَّ ما تَحْتَ السماءِ، ومن هذا المعنى نَشَأَتِ الجِنْسيّةُ العربيّةُ في القرآن »[2].
وإلّا « فما بالُ هؤلاءِ العَرَبِ قد خرَجُوا من تاريخهم بَعْدَ الإسلام كأنّما نَزَعوا جِلْدَتَهُمْ نَزْعاً ؟! على حينٍ كانَت لهم الأمورُ المُطْمَئِنّةُ والصفاتُ المتوارثة ؛ من أخْلاقٍ شَبُّوا عليها، وأخلاقٍ ينازعونَ إليها، وطبائع هُمْ بها أَخَصُّ وهي بهم أملكُ، ولم يكونوا مَقْطُوعينَ من التاريخِ، بل كان لَهُمْ ماضٍ كأحْسَنِ ما تكْلَفُ الأُمم، وكانُوا عليهِ أحرصَ ما تكونُ أمّةٌ على ماضِيها »[3].

أَجَلْ، لقد كانُوا مُهَيَّئِينَ ربّانيًّا في حياتِهم لذلكَ الانْقلابِ الذي انْتَقَلَ بهم من طورِ الأُممِ العام إلى الأُمّةِ الوَسَط ؛ ليكونُوا شُهداءَ على النّاسِ، وليكونَ الرَّسُولُ عليهم شهيداً ؛ فيحملُوا رحمةَ اللهِ في رسالتِهِ الخالدة، ويرقوا بالإنسانيّةِ إلى ثَباتِ الأخلاقِ وحكمِ التقوى، حيثُ يطْمئن الضميرُ، وتَنْبَعِثُ المروءاتُ بما عُرِفَ عنهم من خصائِصَ وميّزاتٍ، استطاعَتْ أن تَسْتَوعِبَ البَشريّةَ كلَّها بشُعوبها وأحلامِها جميعاً.

---

(1) تاريخ آداب العرب ٢ ــ ٩٩

(2)، (3) تاريخ آداب العرب ٢ ــ ١٠٤

ثم ما عَتَم الرافعيّ أن راحَ يَدْعُو إلى إحياءِ بعضِ سُنَنهم في الحياةِ، واسْتمزاج أعرافهم، عسى أن يَجِدَ التاريخُ لهم أمثالاً من أبنائِهم يجري على بَعْض تقاليدِهِم، فَيَسْتَعيدونَ شيئاً من عِزّتهم، ويَرْتَفِعُونَ بأخلاقِهم ويَلْتفتون إلى أنفُسِهم ؛ يدركونَ مَعْنى سُموّ الذاتِ بالأَنَفَةِ والأَريحيّةِ، ولا سيّما بعدما نَظَرَ فإذا بكتابهِ « تاريخ آداب العرب » عربيٌّ يُرَدُّ إلى العَرَبِ باسمِهِ، وموضوعِهِ وبيانِهِ، وهو كذلكَ عربيٌّ يَنْزَعُ إليهم بالعُروقِ من الواشِجةِ والنَّسَبِ الوَسيط[1].

غلبة الطبع

ويرجعُهُ بعد ذلك إلى الوراثةِ وغَلَبَةِ الطبعِ؛ «فإذا مَحْلٌ من عاداتِنا، وشرَفٌ جديبٌ من فضائِلِنا، فكانَ حقًّا عليَّ أَنّ أُحْيي في أدباءِ الزَّمن سنَّةً من أكرمِ سُنَنِ العربِ عليهم وأحقِّها بهم، وأشرفها عندهم، وأَمَسّها بتاريخهم، وأَعْلَقها بأسمائِهم، وهي سنّةُ الكُنْيةِ واكتفيتُ بأبي السّامي، وأوّلُ راضٍ سُنّةً مَنْ يَسُنُّها ».

وقال : « كانَ العربُ أهلَ عَصَبيّةٍ وتشدُّدٍ وأَنَفَةٍ، وكانَتِ العِزّةُ فيهم بطبيعةِ اجتماعِهم، لِمَنْ هو أكثَرُ عَدداً من قومِهِ، وأوفَرُ قَبيلاً من عُصْبَتِهِ، ثم هم بَعْدُ من طبيعةِ أرضِهم وزمنِهم كيفَ لا يُبالون إلاّ أن يكونَ تاريخُهم نَسَقاً واحداً كأنّه غير متجدّد »[2].

---

(١) الذي يتوسطهم لصراحته وتمكنه، والرافعي بعدُ يتّصل بنسبهِ الكريم برجلِ الاسلام العظيم عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) لذلك معنى بسطه في تاريخه الكبير — كما مرّ.

« ومن ثمّ نشأُوا على حفْظِ الأنسابِ والأَحْساب، والمُفاخرة بها، والمنافرةِ فيها، وبالَغُوا في ذلك حتّى كانَ أكبرَ عِلْمهم تاريخُ آبائِهم وأوليّتِهم، وما يَجْري فيهِ أو يداخِلُهُ من خبرٍ وشعرٍ ونثْر، فلا جَرَمَ كانَ النَّسْلُ فيهم مَظْهرَ الوُجودِ التاريخي، وكانَ العقم أقبَحَ ما تعابُ بهِ المرأةُ من عَيْبِها، حتّى آثروا السَّوْداءَ الولودَ على الحَسْناءِ التي لا تَلِدُ، وحتى لم يَعْدِلُوا في فضائِلِ النّساءِ بالنجيبةِ التي يكونُ حملُها غُلاماً، وفي حِجْرها غلام وإلى جانبها غلام..

« وإنما تلكَ أخلاقُ شَعْبٍ لَيْس وراءَ ما بهِ من الأَنَفَةِ والثّقةِ بالنَّفْس غايةٌ، فمن هٰهنا استَخْرَجوا لأَنفُسِهم الكُنيةَ، وجَرَوْا علَيْها يعظِّمُ بعضهُم بَعْضاً، كأنّ أحدَهم إذا كنّى الآخَرَ : أبا فُلان فانّما يقولُ يا أبا التاريخ، أو يا أبا فخر أبيكَ أو يا رَجُلين في رَجُلٍ، وإذا كنَّى امرأةً : يا أمَّ فلان، فكأنّما يقولُ لها يا أمَّ القبيلةِ أو يا أمَّ الوجود أو يا أم المستقبل.

« وعلى هذا جَرَتِ الكُنيةُ بَينَهم مجرى الاسْمِ نفسِهِ حتّى لم يكنِ الوجودُ التاريخيّ بحقيقةِ معناهُ عندَهم إلا فيها، وبذا صارَتِ الكنيةُ من شعارِ الأبطالِ البارزينَ في الحَرْب، كما أن المبارزَ يُظهر نفسَهُ مملوءةً من تاريخِ آبائِهِ وتاريخِ نَفْسِهِ، فيَسْتَنْغِص عَدُوَّهُ ويَسْتَفِزُّهُ ويُرْعِدُهُ هيبةً ومخافةً، أو يَسْتَجيشُ على حربهِ النَّخْوةَ التي تكونُ لَهُ مع القوة قوةً أخرى »[1].

وهكذا يمضي يُحيي في الذاتِ تقاليدَ العَرَب وأعرافَهم ؛ لينتظم الضمير

(١) هذا فصلٌ كان قد أعدّه لينشر في (الزهور) إلّا أنّها توقفت عن الصدور، فبقي مطويًّا حتى قيض الله لنا أن نقف على شيء من مسودّته!

قِوَاهم النفسيّةَ والمعنوية، فيكون بذلك فَضْلاً متجدّداً من تاريخهم يَستقبل الحياة بإرادة التغيير[1].

* * *

الضمير العربي والمرذولات القطرية

ولمّا كان من عَنَتِ الأيّام من حواليهِ، وبُرُوزِ المرذولاتِ القُطريّة في أنحاءَ من الدولةِ الاسلاميّة، ولا سيّما بعد ظُروفِ الاحْتلالِ بأفريقيا ومِصْرَ بخاصة، فانّهُ راحَ يُفتّشُ عن « الرجل الإلٰهي » الذي يُعْوِزُ الأُمّةَ ليقيها من تربُّصِ الأخطارِ المُحْدِقةِ بها، ويُنقِذَها من بَدَدِ الاتّجاهاتِ وضياعِ المَشْروعاتِ في تَسْميةِ الهلالِ الخصيب ووادي النيل والخديويّات وغيرِها من محاولاتِ التخديرِ حتّى ينتهي تَقْطيعُ الديار.

أو يَحْفظُها من اندحارِ الحركاتِ وصرعةِ الأماني[2] حتّى أعياهُ أن يجِدَ لذلك الرجلِ صُورةً في وجهٍ ولو بلَوْحِ الغيب ![3].

وقد وَقَفَ يوماً يَدْفَعُ ذلك الافْتراق الذي يُؤْذي الناسَ، ويُوجِعُ القُلوبَ فقال :

« متى وَجَدْتُم رَجُلَ المَبْدأ الذي يظهَرُ مبدأُه في عملِهِ، والذي لا يعمَلُ إلّا ليتمَّ تاريخَ أُمّةٍ، وليكونَ صفحةً من كتابِ مُسْتقبلها، والذي لا يَخْرُجُ من الدنيا حتّى يتركَ من فضائِلِهِ المَنْسُوبةِ إليهِ شَخْصاً مَعْنويًّا

---

(١) وبها أخذت الحركة الثورية العربية المعاصرة.

(٢) في تجديد الدولة الاسلامية بالخلافة العربية ــ أنظر المنار عام ١٣١٦ هـ

(٣) مرّ بنا آنفاً.

يُسَمّى باسْمِهِ ويُلَقَّبُ بلَقبهِ ويُؤَرِّخُ بتاريخِهِ ؛ متىٰ وَجَدْتُم هذا الرجُلَ، فقولوا فيهِ — بَلْ دَعُوا بلادَهُ تقولُ فيهِ : إنّه شامي أو مصري »[1].

* * *

ويمرُّ بالأحداثِ عابِراً، ويَتَخَطّى الحربَ وما جرَّتْهُ من ويلاتِ المصيرِ العَربي بخاصّة، ليخرُجَ بالفِكْرِ إلى الرأي والمُصارَحَةِ مع جُمْهورِ الأُمّة فيقولُ : في معرضِ ردّ له على أسئِلةٍ دارَتْ بها مجلةُ (الهلال) على عددٍ من أدباءِ العرب ومفكّريهم[2].

« ما أراها إلا سَتَنْهَضُ في مِصْرَ والشامِ نَهْضَةَ مَنْ يَسْتَجمِعُ، وربّما شَهِدَ الناسُ دَهْراً يَصْلُحُ أن يُسَمّى فيهِ ما بَيْنَ العراقِ إلى الأطلنطيق « جُمهوريةُ اللّغة العربية » وما هو ببعيدٍ واللهُ غالب على أمره[3].

وقد يَعْجَبُ المرءُ كيفَ تجري لفظة « الجمهورية » على لسانِهِ من غيرِ أن يغمزَها برأيٍ يُبعِدُ صِفَتها اليُونانية — الوثنيّةَ أو يُفَسّرها بالنسبةِ إلى (الجُمهورِ) الذي عليهِ فِقْهُ الأمة !!

ومصرُ والأقطارُ العربية الأخرى تترجّحُ يومئذٍ بين الولايةِ والسّلْطَنةِ وأحلامِ المماليك ؟!..

* * *

---

(١) المقتطف — سبتمبر ١٩١٤ م
(٢) الهلال عام ١٣٣٧ هـ — ١٩١٩ م
(٣) الهلال — يناير ١٩٢٠ م

لم يكَدْ يولَدُ ظرفٌ جديد تَحْتَدِمُ فيهِ السياسَةُ بَيْنَ الجمهورِ والمُحْتَلّين الإنجليز في مصر حتى تَشيع في صفوفِ المصريين دَعَواتُ الفُرْقَةِ ؛ من اقترافِ بَعْضِهم لآثامِ العَمالةِ والتجَسُّس، وفي التفاتةٍ بارعةٍ يَنْدفعُ الرافعي ليضَعَ على لسانِ أبناءِ مصر نشيداً يتردَّدُ فيهِ شعارُهم، وتردُ فيه روحُ وَثْبتهم، وتَنْتظم أخلاقُ ثَوْرتِهم ؛ فلا يكتَفي بنشرهِ في (الأخبار) ـــ جريدةِ الحزبِ الوطني ـــ وإنّما يُعْلِنُها حَرْباً شَعْواء على لجنةِ النَّشيدِ وفيها أحدُ الوزراء، حاوَلَتْ إبعادَهُ عن هَدَفِهِ في ضَمِّ الصُّفوفِ ـــ وقد رأى السياسةَ المِصْريّةَ آنذاك وقد أضَلّها أهلُها « ولا حيـاةَ لأمـةٍ يَلْعَـنُ بَعْضُهـا بَعْضـاً لَعْنـاً مُقَدَّسـاً »[1]

ولكن روحَهُ العربيةَ وضميرَهُ القوميّ أَبيا علَيْهِ إلاّ المُضِيَّ في جِواءِ العُروبةِ في مجدِها، يَبْحَثُ في صَفحاتِ أيامها عن « نوادِرِ القُوّةِ عندَ العرب » وكأنَّهُ يُلْفِتُ أنظارَ الأُمّةِ إلى ما يُعْوِزُها من وسائِلِ الجهادِ والصَّبْرِ على المكارِهِ وهي تُحاوِلُ أَنْ تَنْطَلقَ بالحياةِ كرّةً أخرى، فقال:

« العربُ قَوْمٌ خَلَقَهُمْ اللهُ خلْقَةَ الباديةِ في البَأْس والجفاءِ، وأنشأهُمْ إنشاءَ الحَجَر في القُوّةِ والصَّلابةِ، وجَعَلَ أنفُسَهم من حِسّ الأَلَمِ في كثافةِ الرمل، كأنَّهم لا يَأْلمون، وكأنما الأوجاع انما تمسُّ من قُوّتهم نفساً مُنْكِرَةً ينهالُ بعضها على بَعْضٍ فيُعْطي شيءٌ منها على شيءٍ، ولا تَزالُ تَجيءُ منها عِنْدَ كلِّ وَطأةٍ قوةٌ، ولا يَزالُ فيها الصبرُ والجَلَدُ ؛ لأنّها على ذلك خُلِقَتْ.

« وهم أشبَهُ شيءٍ بالخَيْلِ الكريمةِ في وثاقةِ التركيب، وانْدفاعِ

(١) رسائل الرافعي ـــ ٩٦، وأنظر خبر المعركة في كتابه (النشيد الوطني).

الحيوانيّةِ، واسْتِمرار القُوّة، وشِدّةِ الاعْتِزام وهولِهِ، وَكرم الصَّبْرِ واستنفادِ الجُهْدِ، وأنه كلّما ذَهَبَ منها شَوْطٌ جاءَ شوط، ثم هم أبناءُ الشمسِ والريحِ، وتربيةُ الفيافي والعَراء، وتخريجُ الظُّلْمةِ والهَوْلِ، وحبك السيفِ والرمح، وصِناعةُ الجُوعِ والعَطَش ـــ وهم نفوسٌ وعواطفُ، إذا كان غيرُهم بُطُوناً وأَمْعاء!..

« وقد نَزَهتهم طبيعةُ أرْضِهم عمّا تَمُجُّهُ نفوسُ الحَضَريّين من الأبخرةِ والعَفَنِ، وما فيها من الثّقل والوَخامةِ، وما يَعْتَريها من الضَّعْفِ والاسترخاءِ؛ ومن أجلِ ذلك غَلَبَتْ نفوسُهم عى أجسامِهِم، وتَسَلَّطَتْ أغراضُهم على أنفُسِهم، فَلَيْس إلّا أنْ يَعْزِمُوا إذا عَزَموا حتّى تَسْتجيبَ لَهُمْ مصادِرُ القُوّة ومَوارِدُها، وقد تمدُّهُمُ النَّفْسُ الإنسانيّةُ بكلٍّ ما فيها من أَثَرِ القُوّةِ الأَزَليّة؛ فإذا هُمْ قد استحالُوا إلى أشياءَ طبيعيّة كأنّها على الألمِ والفَزَعِ لا حَياةَ فيها »[1].

ويمضي بعد ذلكَ يُعَدّدُ من نوادِرِ القُوّة ما اتَّفق لَهُم من وقائعَ تَبرُزُ قوةُ الفِتْيان وخوارقُ الفُرسانِ، وتُسَجِّلُ لهم في الحدثانِ أيّاماً هي دروسُ الحياة لمن أرادَ أن تكونَ له كرامةُ الحياة، وهل هناكَ أَجْلى من مِثْلِ هذِهِ الدروس في نَهَضَاتِ الأمم؟!

إنّ الرافعيَّ كان وحْدَهُ في هذا الميدانِ، ولو شُدَّ عَضُدُهُ بإخوةٍ من أَهْلِ الفكرِ والأَدبِ والفِقْهِ، لفَرَضَ وجودَهم على الحياةِ التي انْقَلَبَت بها ساريةُ الأَيّام آنذاك، ولَما انْتَهَتْ بنا إلى ما نحنُ فيهِ من متاهاتِ الفِكْر والانحرافِ والضَّعْفِ والخذلان.

ولكن حينَ مضَتِ السياساتُ القُطْريّةُ في افتراقاتِها، وخَيْبةِ الأُمّةِ

(١) المضمار ـــ ٣ ديسمبر ١٩٢١ م

في أشْباهِ الرجال، واندحارِهم أمامَ أحابيلها وضَلالاتِها، فما كادَ يَنْتهي الحالُ إليهِ من مأساةِ الائتلافِ بين الأحزابِ في مصر عام ١٣٤٦ هـ ـ ١٩٢٨ م حتى قال :

« أما الأحوالُ الحاضِرةُ فلا نَتيجةَ لها إلّا وَضْعُ لَوْنٍ جديدٍ على الواقعِ المَوْجودِ من زَمن، وهيهاتَ هيهات ! إلّا أن يَنْزلَ عزرائيل فيقْتلعَ أهلَ الضغينةِ والحِقْد، أو تُبدَّلُ الأرضُ غير الأرضِ والسّموات »[1].

عروبة الرافعي

ولعلَّ في مواقفِ الرافعي هاتيك بعضَ ما انْبهَمَ على مُناوئيهِ، فاتّهموهُ في وطنيتِهِ الوليدةِ في (المصرية) ورَأُوا من صراحةِ نَسَبهِ العربيّ شائبَةً ينالُونَه منها ؛ فهو يردُّ بقولهِ : مُخاطباً أَحدَهم : « زَعَمْتَ يا صاحبَ (المجلة الجديدة) أنَّه لَيْسَ في دمي قَطْرةٌ من الدمِ المصريّ، وهذا كذِبٌ، فإنَّ والدتي مصريّة، وأنا مولودٌ في مصر »[2].

أو قوله بأَسًى بالغ : « أتَراهم يَتّهمونَني في مِصْريّتي لأنّي غيرُ مصري في زَعْمهم ؟! وفي مصرَ مولدي، وفي أَرْضِها رفاتُ أَبي وأُمّي وجَدّي »[3].

ومن هنا ندركَ أنَّ عُروبةَ الرافعي لم تكنْ لِتَقْتَصر على نَسَبهِ الكريم أو مكانِهِ ومَوْلدِهِ، من الوطنِ العربي والقُطْر، « وإنّما كان لَهُ من أدبهِ

(١) رسائل الرافعي ـ ١٦٨

(٢) الفتح ـ ١٨٦ ـ ١٤ رمضان ١٣٤٨ هـ،

(٣) حياة الرافعي ـ ٢٣ ويريد بجده الامام عبد القادر الرافعي الكبير.

العظيم وفكرِهِ السليم ما يراهُ لِنَفْسِهِ في كلّ أرضٍ يخفقُ فيها لواءُ الإسلام، وترفوفُ رايةُ العَربية، وما مصر والشام والعراقِ إلّا أجزاء من هذا الوطن يَنْتَظِمُها جميعاً كما تَنْتَظِمُ الدولةُ الديارَ »[1].

ومن هنا أيضاً نجدُ الضمير القومي عند الرافعي سابقاً ؛ لا يقِفُ عندَ حدودِ مصر فَحَسْبُ، وإنّما يتَعدّاها بشعورٍ اعتقادي عظيم في جوانب من أدبِ الحياةِ وأدائِهِ النفسي الذي يجبُ على الأديبِ العربي المُسْلم أن يحياها في آفاقِ الفكر والفَلْسَفة والاجتماع في أرجاءِ الوطن كلِّه. فهو مثلُ الفدائيّ الذي يَذْهَبُ رَبِيئاً يَتَقَدّم الرّعيلَ لاسْتكشافِ الجَبْهةِ من ساحةِ الجهاد.

وهكذا تَنَبَّه الأنصارُ إلى « خطَرِ أدبهِ، وعَدُّوهُ ميراثَهم الذي عَلَيْهم أن يدرسوهُ ويُعيدوا إنباتَهُ في نفوسِهم — في أرضٍ طيّبةٍ وبيئةٍ مؤمنةٍ، والتفاتةٍ إليهِ بالتَّهْذيبِ والتوجيهِ والعنايةِ ؛ ليُثْمرَ فيهم، وفي الأجيالِ اللّاحقةِ ممّن عَدُّوهم من نوعِهِ.

فقد « كان في حياتِه إحْساساً خالِصاً بالعربيةِ الخالفةِ، وشُعوراً مُلْتهباً وراءَ الفكرةِ المَنْشُودةِ، ممتدًّا في مجرى الحقّ الإسلامي». ولِساناً مُتَّصِلاً بمعينِ البلاغةِ العُربية، وعَدّوا موتَهُ نموًّا لهذِهِ الحياةِ الفكريّة في حياةِ غيرِهِ من نوعِهِ في مرحلةٍ أُخرى من الانبعاثِ والإشراق.

وكان الرافعي عِنْدَهم قد شادَ حِصْناً كبيراً على حُدودِ العربيّةِ — وإنْ تصدَّعَتْ بعضُ أركانِهِ من وَحْشَتِهِ وعُزْلَتِهِ !

وعلى ذلك كانَتْ رسالةُ « الأنصار » في العَصْرِ أَنْ تُحوّلَ الإحساسَ

---

(١) حياة الرافعي — ٢٣

الغامِضَ الذي قاتَلَ بهِ جَيْشُ الثقافةِ العربية في طبقةِ الرافعي، إلى فكرةٍ مُشْرقةٍ يَسَعُها العقلُ كما يَسَعُها الشعورُ »[1].

ثم إنَّهم دَرَسُوا ما يَجْري في دمِهِ من خصائِصِ العَربيّةِ الخالدةِ، فلا يكادُ ذلكَ العطْرُ يَنْتَشِرُ في جَوّ حياتِهِ حتى يَلْتَبِسَ شعورُهُ بشعورِ المجتمعِ الأبكم الذي عاشَ فيهِ، واكتَسَبَ منه أخلاقاً ومعارِفَ[2] وقد أخذوا عليهِ ما ورَدَ في الفصلِ السابق[3].

* * *

الأدب الاعتقادي

لمّا استبانَ ضوءُ الرافعي وظَهَرَ نَوؤُهُ، اسْتَدَارَ من حَوْلِ معاصريه، ليرسِمَ لَهُم منهاجَ الأَدَبِ الاعتقادي الذي يَلْتَزِمُ بهِ، والسَّبيلَ العربيّ الذي يُؤْثِرُهُ، والصراطَ القوميّ الذي يَسْلكُهُ، والضميرَ الذي يحمِلهُ فقال :

« من الأُصولِ الاجتماعية التي لا تَتَخَلَّفُ أنّهُ إذا كانَتِ الدولةُ للشَّعْبِ كان الأدبُ أَدَبَ الشَّعْبِ في حياتِهِ وأفكارِهِ ومطامِحِهِ وألوانِ عَيْشِهِ، وزخرَ الأَدَبُ وتنوّعَ، وأفتنّ وبُني على الحياةِ الاجْتماعية.

وإن كانَتِ الدولةُ لغيرِ الشَّعْبِ، كانَ الأَدَبُ أَدَبَ الحاكمينَ، وبُني على النّفاقِ والمُداهَنةِ والمبالغةِ الصّناعيةِ الكاذبةِ والتَّدْليس، ونَضَبَ الأَدَبُ من ذلك وقَلَّ وتكرّر من صورةٍ واحدة »[4].

---

(١) الأنصار ــ ٣٠ جمادى الآخرة ١٣٦٢ هـ

(٢) الأنصار ــ ٢١ رجب ١٣٦٢ هـ

(٣) الأنصار ــ ١٥، ١٧، ٣٥، ٣٧. وهي تؤلف فصلاً متميّزاً على سائر الدراسات.

(٤) المقتطف ــ يناير ١٩٣٣ م. وما أصدقه بقوله هذا على حياة الأدب .

في الأولى يَتّسعُ الأديبُ من الإحساسِ بالحياةِ وفُنونِها وأسرارِها في كلّ من حولَهُ، إلى الإحساسِ بالكونِ ومجاليهِ وأسْراره في كلّ ما حَوْلَهُ.

أمّا الثانيةُ، فلا يُحِسُّ فيها إلّا أحوالَ نَفْسِهِ وخَليطِهِ، فيُصْبحُ أدبُه أشبَهَ بمسافةٍ محدودةٍ من الكونِ الواسعِ ؛ لا يزالُ يَذْهَبُ فيها ويَجيءُ حتّى يَمَلَّ ذهابُهُ ومجيئُهُ »[1].

قال : « والعَجَبُ الذي لَمْ يَتَنبَّهْ لَهُ أحدٌ من كلّ مَنْ دَرَسُوا الأَدَبَ العربيَّ قديماً وحَديثاً أن لا نَجِدَ المعنى الفلْسفي الاجْتماعيّ للأَدبِ في أسمى معانيهِ إلّا في اللُّغَةِ العربية وحدها، ولم يَغْفَلْ عنهُ مع ذلك إلّا أهلُ هذِهِ اللُّغة وحدهم !.

فإذا أردْتَ الأدبَ الذي يُقرِّرُ الأُسْلوبَ شَرْطاً فيهِ، ويأتي بقُوّةِ اللُّغةِ صورةً لرقّةِ النَّفْسِ، وبدقّتِهِ المُتَناهيةِ في العُمْقِ صُورةً لدقّةِ النَّظْرةِ إلى الحياةِ، ويريك أن الكلام أمةٌ من الألفاظِ عاملةٌ في حياةِ أمةٍ من النّاس ضابطةٍ لها المقاييس التاريخيّة، مُحكِمةٌ لها الأوضاعَ الإنسانيّةَ، مشترطةٌ فيها المَثَل، حاملةٌ لها النورَ الإلٰهي على الأرض...

وإذا أرَدْتَ الأَدَبَ الذي يُنْشِئُ الأُمّةَ إنشاءً سامياً، ويَدْفَعُها إلى المعالي دَفْعاً، ويَرُدّها عن سَفْسافِ الحياةِ، ويُوَجّهُها بدقّةِ الإبرةِ المغْناطيسيّةِ إلى الآفاقِ الواسعةِ، ويسدّدها في أغراضها التاريخيّة العالية تسديد القنبلة خرجت من مِدفعها الضخم المحرّر المحكم، ويملأُ سرائِرَها يَقيناً،

---

(١) المصدر السابق ـــ أقول ولا سيما في مثل هذا الغثاء الذي يلوكُهُ صانعوه وحدهم بعيداً عن الناس وحياتهم.

ونُفوسَها حَزْماً، وأبصارَها نَظَراً، وعقولَها حكمةً، وينفُذُ بها من مظاهِرِ الكوْنِ إلى أسرارِ الألوهية،..

إذا أردْتَ الأدَب على كُلّ هذهِ الوجوهِ من الاعْتبارِ وَجَدْتَ القرآن الحكيمَ قد وَضَعَ الأساسَ الحيّ في ذلكَ كلّه، وأعجبُ ما فيهِ أنّهُ جَعَلَ هذا الأساسَ مُقَدّساً، وفَرَضَ هذا التقديسَ عقيدةً، وجَعَلَ هذهِ العقيدةَ ثابتةً لا تتغيّر.

ومع ذلك كلِّهِ لم يَتّجهْ لهُ الأدباءُ، ولم يتّخذوه مَثَلَهُمْ، وحَسِبوهُ ديناً فقط، وذَهَبوا بأدبهم إلى العَبَثِ والمجُونِ والنّفاق ؛ كأنّهُ لَيْسَ منهم إلا بقايا تاريخٍ محتضر بالعِلَلِ القاتلةِ ذاهبٍ إلى الفناءِ المحتّم.

والقرآنُ بأسلوبِهِ ومعانيهِ وأغراضِهِ لا يُسْتَخْرجُ منه للأدبِ إلّا تعريفٌ هو هذا (إنّ الأدبَ هو السُّموُّ بضميرِ الأمّةِ). ولا يُسْتَخْرجُ منه للأديب إلّا تعريفٌ واحد هو هذا : أنّ الأديب هو مَنْ كانَ لأمتِهِ ولِلُغتِهَا في مواهبِ قلمِهِ لَقَبٌ من ألقابِ التاريخ »[1].

وكذلكَ كان الرافعي ؛ يَنْطبق عليهِ التعريف في الحالتينِ من نفسِهِ وأدبِهِ ومواهبِ قَلَمِهِ.

ومن هنا نَجدُ للضميرِ عِنْدَهُ المكانةَ الأولىٰ في الاسْتهدافِ لكلِّ ما يَسْعَى إليهِ إصطلاحاً وتربيةً وسُموًّا في الحياةِ وفي الأدَبِ والفَنّ ومجالاتِهما في الاجْتماعِ والتربيةِ النَّفْسِيّةِ للأمّة، وما كان يَجْتَهدُهُ من أجلها.

---

(١) المصدر السابق.

فالضميرُ يتَرَدَّدُ على لسانِهِ، ويَسيلُ على قَلَمِهِ، كلّما خَطَرَ لَهُ خاطرٌ، أو خَفَقَ قلبُهُ لمعنًى، أو نَظَرَ في أمرٍ من الأمورِ، وفقَ ذلك الميثاقِ الذي وافَقَ عليهِ نفسَهُ أولاً، وجَعَلَهُ سُلوكاً للأديبِ العربيّ من ثمّ، حتّى ليكاد لا يرنُو إلى ما يصبُو إليهِ من معاني إلّا من خِلالِهِ !

* * *

ومن أجلِ ذلكَ كانَ يَعْتَدُّ بثلاثٍ فيهِ ؛ الرجولةِ والضميرِ والدم الكريم ؛ يقفُ بها على قَدَمَيْهِ في بَسالةٍ نادرةٍ، وبثباتٍ قوميّ ظاهرٍ، أمامَ الناس أجمعين !.

ذلك أن هَدَفَ الدراسة المَوْضُوعيّة في الاجتماعِ الإنساني واعتقادِهِ عنده، أَنْ تتحرّىٰ الضمائر أبداً ؛ لإعدادِها للحياةِ الحرّة الكريمة.

جوانبُ الميثاق

إنّ الرافعيَّ لَيتّضحُ لَنا في فَلْسَفَتِهِ الفكريّة كاتباً عَرَبيًّا سَوِيًّا، وباحِثاً اجْتماعيًّا منصفاً، يَجْعَلُ للحقّ والعَدْلِ سماتٍ لا يَرْضىٰ للواقعِ أن يقومَ بدونهما.

وعلى ذلك الأساس المتين من الإيمانِ بالحقّ والعِلْم بالعَدْلِ والاعتدادِ بالضمير، والامتيازِ بالرجولةِ والعُنْصرِ الكريمِ كانَ يَتَصدّى من بعدُ لموضوعاتِ الحياةِ الوليدةِ في السياسةِ والاجْتماعِ المختلط، ولُوثاتِ الحضارةِ الجديدةِ، ومُفارقاتِ المدنيةِ الوافدةِ، وأنواعِ الرّقاعاتِ التي غَشيَتْ دُنيا الناسِ في البَيْتِ والمدرسةِ والنادي والشارع ؛ حيثُ يَهْتَمُّ بدراستِها على الطبيعةِ أولاً، ويَتَعرّفُ أمثلةً منها، وربّما عَرَضَتْ لَهُ،

فيعودُ يَسْتمزجُ المذاهِبَ والآراءَ، ويَتَحرّى الأنظمةَ والقوانين، لِيَعُودَ فَيُثْبت للدين الإسلامي الحنيفِ امتيازَهُ في الأَخْذِ بالأسبابِ التي تَسْمُو بها حياةُ الإنسانِ أبداً، وتحفَظُ لَهُ كرامتَهُ في تلكَ الحياة.

ففي التعليمِ كان لَهُ رأْيٌ توزَّعَ مقالاتِهِ ودراساتِهِ التي هي في مُسْتَوى الإشرافِ في الاختصاصِ الجامعي، وقد ظَهَرَ في توجيههِ لأولادِهِ وتعليمهم ـــ على ما حفِلَتْ بهِ حياتُهُ.

ومنه التفاتته الرائعةُ في آخرِ أيامِهِ إلى المَسْجدِ، وربّما افْتُقِدَ مكانَتَه في الجيلِ اللاّحقِ فَلَمْ يجدْ له أثارةً فيهم، فصوَّرَ ذلك الجوَّ النفسيَّ الفريد الذي نحنُ بأَمسِّ ما نكونُ حاجةً في نَهْضتنا القوميةِ بالتعليم.

وكذلك موقفُهُ من موضوعِ المرْأةِ ؛ الذي اضطَربَ فيه العَصْرُ من حولِهِ، مُذْ يومِ قَذَفَ القاضي (قاسم أمين) بكتابَيْهِ، حتّى كانَتْ الدعوةُ إلى السُّفُور، وقيامِ التنظيمات النسْويّة والمطالبة بما دُعي بالمُساواةِ، ورفعِ نُون النسوة من اللُّغة، ونيْلِ الحقوق الدمقراطية،.. الخ وقد اجْتمعَتْ لَهُ في ذلك مقالاتُ « الطائشة ودموعها »(١) فصوّرَ ذلك الانْقلابَ الذي انتهى بكرامةِ المرأةِ وصَوْنِها مع جميعِ ما حصلَتْ عليهِ من تعليمِ إلى ما تُتَّهَمُ بهِ أحياناً.

وموضوع الأَخْلاقِ بعامّة كانَ هو المحورُ الذي يدورُ بأدبهِ وفكرهِ من حولِهِ أبداً، فيرفَعُ عَقيرَتَهُ صائحاً : « أخلاقُنا قَبْلَ مدنيّتهم » ؛ ليثْبِتَ للأُمّةِ أصالَتَها، ويحفَظَ لها خصائِصها وميزاتِها، ثم يعودُ فيصوّرُ ما لِثَبَاتِ

---

(١) راجع ما سبق، وأنظر « وحي القلم » الجزء الثاني.

الأخلاقِ من سيادةٍ وسُموٍّ في شتّى مرافِقِ الحياةِ ومُخْتلفِ جوانبِ النشاطِ الإنساني.

التنظيم وسبيل الإصلاح

أمّا ما وَصَفَهُ في نَهْضَةِ الأُمّةِ قَوْميًا — غيرِ الأُسسِ الاعتقاديّةِ والتربيةِ القوميّةِ والسُّموِّ بالضميرِ — فهوَ التَّنظيمُ والعَمَلُ لتقويمِ أَوَدِ حياةِ الشعب، والانتظامُ في المَسْؤُوليّةِ وحَمْلُ التَّبعاتِ، فَحَسْبُه تلك المقالاتِ التي دَعاها (أحاديث الباشا) ونَسَبَ رِوايتَها إلى أخيهِ محمود الرافعي، وكيفَ جَعَلَ منها مِيثاقَ نَهْضَةٍ، وبيانَ عَمَلٍ وأُسَّ بناءٍ وبلاغَ حقيقةٍ للناس؛

فهو يقفُ من دُعاةِ الوَعْظِ الخائب، وبقايا (عُلماء) الأُمّةِ موقف العَجَب من تَخَلُّفِهم عن حقيقةِ الدَّعْوةِ، فيقولُ: « ما يَنْقَضي عَجَبي من هؤلاءِ (العلماء) الذين هم بقايا تتضاءَلُ بجانبِ الأَصْلِ؛ يَبْحثونَ في سُنَنِ النبي ﷺ، كيفَ كانَ يأْكُلُ ويَلْبَس ويشربُ، ويَمْشي ويتحدَّثُ، كأنّهم من الدين في قانونِ المائدةِ وآدابِ الولائم ورسمِ المجتمعات !..

« أما تلكَ الحقيقةُ الكبرىٰ — وهي كيفَ كانَ النبي ﷺ يُقاتِلُ ويحارِبُ لهدايةِ الخَلْق، وكيفَ كانَ يَسْمُو على الدُّنيا وشَهَواتِها، وكيفَ كانَ بطباعِهِ القَوِيّة الصريحةِ تَعْديلاً فَعّالاً في هذهِ الإنْسانيةِ للنَّواميس الجائرة، وكيفَ كان يَحمِلُ الفَقْرَ ليكْسِرَ بهِ شرّةَ النَّواميس الاقتصاديّة التي تَقْضي بجَعْلِ الاختلافِ أثراً من آثارِ السَّعَةِ والضيقِ، فتخرجُ من الغني مُتَعَفّفاً، ومن الفقير لصًّا ؟ وكيفَ استطاعَ ﷺ بفقرهِ السامي

أن يحوّلَ معنى الفَقْر في نفُوسِ أصحابهِ فيجعلُهُ ما اسْتَغْنَىٰ عنه الإنسانُ من شهواتِ الدنيا وتركَ، لا ما نالَ منها وجَمَعَ »[1].. أمّا هذا ونحوه،.. فقد أهملوه!..

ولا يكاد يَنْتهي في تلك الأحاديثِ حتى يضَعَ السبيلَ العَمَلي للتَّنظيم الحديث، على مثالٍ لا يَبْعُدَ كثيراً عن مَنْهج (أهلِ الحلّ والعَقْد) الذي تفرَّدَتْ به الشريعةُ فيقول :

« سَبيلُ الإصلاحِ أنْ يَنْهضَ أهلُ الرَّأْي في كلِّ مَدينةٍ بَيْنَ عالمٍ وأديبٍ ومُحامٍ وسَريّ ومَنْ كانَ بسَبيلٍ من هؤلاءِ، فيَجْعَلُونَ لمدينتِهم دارَ نَدْوةٍ للاجتماعِ والبحثِ والمشورَةِ، وقَولِ (نعم) بالحُجّةِ، وقولِ (لا) بالحُجّةِ، ثم يُعْلِنونَ ذلك في جمهورِهم ويَنْزِلُون منهُ مَنْزلَةَ الأُسْتاذِ والأبِ والصَّديق في تعليمِهِ وهدايتِهِ وإرشادِهِ.

وتَتَّصلُ هذه الدورُ في كُلّ قُطْرٍ بَعضها ببَعْض، وتَنْتهي بالمجالسِ، وبذلكَ يُمْلأُ الفَراغُ الذي نَراهُ خاوِياً بَيْنَ الشَّعْبِ والحكومةِ، وبَيْن الكبَراءِ والجُمهورِ، وإنّما أكثرُ مصائِبنا من هذا الفراغِ ؛ فهو الذي يَضيعُ فيهِ ما يَضيع ويختفي ما يختفي »[2].

وفي صيحةٍ قوميّة ثائرة يقول :

« منا قَوْمٌ موظفون في الحكُومةِ، ولكنَّ أينَ القَوْمَ الذين تكونُ الحكومةُ نفسُها موظفةً عندهم ؟ »

---

(1) وحي القلم ٢ ـــ ٢٧٣، ٣٠٥

(2) وحي القلم ٢ ـــ ٣١٥. ولاحظ فكرة مجالس الشعب التي تنهض بالاجتماع الآن.

وبذلك وسواهُ ممّا ورَدَ لَهُ من شواهِدَ في هذا الفصل وما لَمْ يرِدْ كان الرافعي من أحدثِ الكتّابِ والأدباءِ موضوعيّةً في الحياةِ القوميّة والاعتقاديةِ التي تُعانيها الأُمّةُ في شتّى مناحي الحياة.

* * *

الخاتمة

الحمدُ لله على نَعْمائِه والصَّلاةُ والسلام على خاتم رُسْلِهِ وأنبيائه.

أما بعدُ فقد وافتْ هذه الدراسةُ الجَديدةُ في الرافعيّ الكاتب بما كُتِبَ لها من التوفيق وهي تَتناول فنُونَ الكتابةِ ومَوْضوعاتِها عندَهُ، وتبين كيفَ توفَّر عليها بجدارةِ الثَّبْتِ، فحافَظَ على العربيّةِ ورُوحِ البيان، وقد تخذَ البلاغة سَمْتاً؛ إذ بَعَثَ الحياةَ في الكلمةِ يُنْبِتُها النباتَ الحسَنَ، فتُثْمرُ في أسلوبهِ بمعنىً جديد، وتَنْتَظِمُ في عبارتِهِ بفنّ من الأداءِ وليد، وتقبلُ في جملتِهِ تَنَقُّلَ بين الحقيقةِ والمجازِ.

وكان لَهُ من فيضِ إلهامِهِ وصريرِ قَلَمِهِ وابتكارِهِ في الصِّياغةِ والمثل يُرْسِلُهُ والحكمةِ الآبدة يَصْطادُها ما خَلَعَ على العربيّة أبْراداً قَشيبَةً من الجلال والجمال.

لقد استطاعَتْ الدراسةُ الأدبيّةُ أن تتوفَّرَ على ذلك كلِّهِ، ومكّنَتْ لها المادةُ العِلْميّةُ بجوانبها التاريخيّة والموضوعية، ووثائِقُها، والعنايةُ القُصْوىٰ التي حَباها الدّسوقيّ المُشْرِفُ والأثري الشيخُ للتلميذِ الوَفيّ ما جَعَلَ الدراسةَ نَفْسَها تُمَنْهِجُ لِنَفْسِها، فتَكامَلُ بضَمٍّ حَسَناتِ ما في مناهجِ البَحْثِ وتَجيءُ بما يُشْرِفُ على الغايةِ.

في المقدّمةِ التفاتٌ الى دَواعي الكتابةِ في الموضوعِ من الاختيار والاختبار، وما وصَلَتْ إليهِ من دقائق عِلْميّة وفوائدَ تاريخيةٍ وحقائق أدبيةٍ، غير ما توصَّلَتْ إليهِ من نتائج خطيرة، وما حقّقَتْهُ من أهدافٍ وما التَفَتَتْ إليهِ من غاياتٍ سامياتٍ.

وكذلكَ التمهيدُ كان ذا التفاتةٍ جديرة تُنيرُ حقيقةً كانت خافيةً وهي أحرى بالتّنبُّهِ لها، وهي تمثّلُ وجهةَ نَظَر قومية في أسبابِ قيام البيانِ العربي بجوانبهِ البلاغيةِ وفنُونِهِ الأدبية.

حتى إذا وافى البابُ الأولِ ليُعرّفَ بالرافعيّ الأديب ويبصرَ في حياتِهِ وعَصْرِهِ حاوَلَ أن يُدلَّ على ذلك بفنونِ أدبِهِ ونثرِهِ بفصولٍ ثلاثة أوجَزَتْ رَسْمَ صُورةِ العصرِ بجوانبها الاجتماعية والسياسية والثقافية، كما اختصرَتْ سيرةَ الرافعي في حياتِهِ الأدبيةِ والانسانية، ودلَّ الفصلُ الثالث على ذلك كلّه بقطوفٍ من فنونِ الكتابةِ والأدبِ والبحث تتحدَّثُ بنَفْسِها عن ذلك الأديب في ذلك العصر — وهي بتوزيعٍ نَقْديّ جديد فيه تحليلٌ وفيه استيعاب.

أما الباب الثاني فهو الدراسةُ الأدبيّة والفَنّية التي تَتَحرّى المحافظةَ والتجديد في الكتابـةِ عندَهُ، يجتهدُ الفصل الأول أن يتوفَّرَ على الناحيةِ الفنّية التي امتاز بها أو قَصَّرَ عنها في جوانبهِ الانشائِيّةِ والبحثِ والنقدِ والامانةِ التي تحلّى بها، وما يؤخذ عليه.

وينتظم الثاني دراسةً في الموضوعاتِ المُحرَّمَةِ في أدبِهِ فيتحرّى ما لم يَسْبق الالتفاتُ إليه من تلك الموضوعات. حتى يخلُصَ الى موضوعِهِ الأكثر من تصدير الحبّ الباسِلِ والمَعْدَلةِ الاجتماعيّةِ والضميرِ القوميّ للأمة.

كلُّ ذلك بشواهِدَ وأخذٍ واعتبار بما قدّم من كتابةٍ وأدبٍ وبَحْث...

وإذا ما تكرّرت الشواهِدُ، وأعيدَ الالتفاتُ، وتعدَّدَ التّنبيهُ، فإنما ذلك من وَحْدةِ الموضوع أن يتجلّى على حقيقتِهِ من أيّ الجوانبِ نُظِرَ إليهِ.

وبذلك وسواهُ مَثُلَ الرافعيّ في هذه الدراسة ــ الأديبُ العربي الحارسُ لقيمِ العربية وأغْرافها في عُلومها وفنونها، المجدّدُ لأساليبِ البيان فيها، الباعثُ المُثْمِرُ للحياةِ الأدبيّةِ في التأليفِ والتربية والتقويم.

١٢ ربيع الأول ١٣٩٦ هـ

سامراء ــ مصطفى نعمان البدري

and a method, and he was distinguished by its implementation upon himself.

Then, he was devoted to Arab Nationalism, and his ideology in this respect. He portrayed his inspirations in reconstructing the new society.

The third chapter indicates the position of Al-Rafei among his contemporaries, all the positions of his supporters and opponents are discussed, besides with their results till he became an ideal for the Arab literatured in conservatism and renovation.

Finally, the conclusion gives an abstract, and recommends publishing of his works with due care.

Moustafa Nouman Al-Badri

and was transferred to «Mansourah» and «Damanhour», till he became stable in «Tanta», where he stayed till the end of his life. His salary didn't exceed some tenths of dinars. It is worth mentioning that his sons are forbidden from his pension till today!

He died in the dawn of Monday, 29th Safar, 1356 of Hijrah, 10th May, 1937 A.D.

The thesis includes a study in his literature, and contains an introduction, two parts which are consisted of six chapters, and a conclusion.

The introduction draws the method of research work, and a preface which deals with Arabic Rhetoric as a product of Qoranic studies to jurisprudence and its principles. Then, it treats various factors of eloquence that entailed Al-Rafei to develop in his artistic career.

The first Art discusses Al-Rafei position in the mirror of his age. So, the first chapter reveals the range of intercourse between his literature and his age, and how he had prepared himself in his social, political, and intellectual aspects.

The second chapter summarizes a biography in family, study, and occupation, besides with his literary life in all its poetic and eloquent aspects. His compilation and criticism till he became the pioneer of his age, are also discussed.

The third chapter criticizes his prose, and gives unique examples distributed on all these branches in a new evaluation.

The Second Art deals with his literature in such a study which takes conservatism in consideration, and renovation at the same time.

The first chapter criticizes his writings in all their evolutions, and a significance to all artistic features and objectiveness in them. It, also, includes what could be considered as a reproach for him in some of his texts.

The second chapter treats the recent subjects in his literature in an objective study such as love and beauty, in which he clarified a philosophical look in education. This look was exposed as a theme

in which he revealed his purposes, and showed up his theft and betrayel.

He had, also, debates with Taha Hussein» which began by warning till they ended in disputes and arguments; in which he revealed the truth of Taha Hussein's claims about liberty of thought, and compilation which was practised prematurely and misunderstanding, particularly in the subject of «Pre-islamic Poetry».

Al-Aqqad was picking a quarrel with Al-Rafei till the first wrote against the Rafei's book of «Iajaz Al-Qoran» (The miraculous character of Qoran), and accused him of being narrow-minded. So, he challanged him, and criticized afterwards Al-Aqqad's diwan, and some of his other works with severe cruelty, particularly in his book «On the spit».

He had, also, various literary battles with other writers; which enriched the literature in this period, and let the literates seek originality, and fear falling in criticism. Hence, they looked for precision and strictness.

After these battles, Al-Rafei turned his efforts to elevate the standard of the literary article, in which biography, story, and interpretation were exploited successfully; so they yielded various speeches, that were full of prettiness in literature. Some of them were collected in his book «Pen's Inspiration», which became the sanctuary of literature: the paradise of recent eloquence, and the address of Al-Rafei literature.

Articles in Prophet's biography, lectures in sociology; and its needs of Islamic morals and respectable life were included, besides with chapters in literary history, and principles of literary criticism. They are, still, a flowing spring to all those who write in such topics.

Al-Rafei's literary life endured more than a third of a century. He attained his wide reputation under the roof of his parents at first, then in the accompaniment of his virtuous wife — a sister of his bosom friend Al-Barqouki — who disposed him to flourish in his art, and gave birth to about ten of sons and daughters; only «Austaza Zeinab» was a literatured, but most of the rest were genies in recent sciences. He enjoyed family's happiness, and was too kind to all members of his family.

He was earning his living from a small job (as a clerk in a tribunal),

and literature. He documented their history, and attracted attention to their importance. The second part was specialized to the history of «Koran» and its sciences, particularly, the «Miraculous character» (Iajaz) of the style and composition of the Koran, and the preservation of that Great Book of Allah.

Then, he dealt with «the science of Tradition» (Hadith), and clarified its compilation, writing, and eloquence.

He was intending to publish other parts, but what he had left didn't form more than another third part, which was dealing with Arabic poetry, speech, and compilation.

Al-Rafei is known by his eloquent literature, which could be considered of unapproachable excellence. His book «Hadith Al-Qamar» (Moon's speech) is an article to the moon, in which he used metaphor, and is included by his opinions and ideas about life, love, happiness, Arab Nationalism, and Humanity. They clarified his Arab-Moslem point of view towards renovation of recent civilisation.

He had, besides, had speeches and lectures in poverty and miserable economic life. They were compiled in his book «Book of miserables». He blamed those who take care of people, and forget God!

His ever adequate opinion in the doctrines of new Sociology; including Socialism is enrolled in this book. He says that Socialism is unable to solve the problem of humanity, and that its solution lies in the equation between brain and heart through religion of faithfulness (Islam).

It happened that he had fallen in an unique love-affair, within which he wrote his three books (Sadness letters), (Red clouds), (Roses papers). They include his attitudes in faithfulness through love: eminence through chastity; distinction through conscience; and regularity through free and virtuous life.

Al-Rafei had relations with his contemporaries, they are distinguished by sweet friendship and bitter hostility. They caused him much pain and sorrow, even he gained popularity of strong demonstration. He defended himself against «Salama Mousa» — who accused him by conservatism — till he gave him the finishing stroke by his articles,

Summary

Al-Rafei, the Writer between Conservation and Renovation

Moustafa Sadek Al-Rafei is considered as one of the most famous Arab writers and literates. He represents a special period in Arabic eloquence, which is signified by renovation, and keeping — at the same time — all the characteristics of language, and its literary style in most of his works.

He was born in Bahtim — a village in «Kalioubieh Governorate» — in Egypt on the first of Ragab, 1298 of Hijrah, 30th, May 1881 A.D. He grew up under his father's care, Sheikh Abdul Razzak Al-Rafei.

His admittance to primary school in «Damanhour» delayed until he surpassed twelve years old. He attained his primary certificate in «Mansourah», and it was all his harvest of certificates. He ceased to continue his high education because of illness. But, he completed his needs of knowledge by studying Jurisprudence, Arabic language and its literature by himself, so that poetry and literature were bursted on his tongue when he began his third decade of age. Some years later, he became the genius of his age.

He published four parts of his «poetical works» (Diwan), and continued on writing, and taking interest in research work. Consequently, he published his book «Tareikh Adab Al-Arab» (History of Arab's Literature) in a new method, which was considered as a new conquest in literary studies. He dealt in the first part with language,

المصادر والمراجع

أولاً ـ المصادر الأصل

أ ـ مؤلفات الرافعي المطبوعة

١ ـ ديوان الرافعي.

أ ـ الجزء الأول، المطبعة العمومية، ١٣٢١ هـ

ب ـ الجزء الثاني، مطبعة الجامعة، ١٣٢٢ هـ

ج ـ الجزء الثالث، مطبعة الأخبار، ١٣٢٤ هـ

٢ ـ ديوان «النظرات»، مطبعة الجريدة، ١٣٢٦ هـ ـ ١٩٠٨ م

٣ ـ تاريخ آداب العرب، الجزء الأول، مطبعة الجريدة، ١٣٢٩ هـ ـ ١٩١١ م

٤ ـ تاريخ آداب العرب، الجزء الثاني، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط ٣، مطبعة المقتطف، ١٣٤٥ هـ ـ ١٩٢٧ م

٥ ـ تاريخ آداب العرب، الجزء الثالث، مطبعة الاستقامة، ١٣٥٩ هـ ـ ١٩٤٠ م

٦ ـ حديث القمر، ط ٣، مطبعة المعاهد، ١٣٤٠ هـ ـ ١٩٢٢ م

٧ ـ كتاب المساكين، ط ٢، مطبعة العصور، ١٣٤٧ هـ ـ ١٩٢٩ م

٨ ـ نشيد سعد (اسلمي يا مصر)، المطبعة السلفية، ١٣٤٠ هـ ـ ١٩٢٢ م

٩ ـ النشيد الوطني، المطبعة السلفية، ١٣٣٨ هـ ـ ١٩٢٠ م

١٠ ـ رسائل الأحزان، مطبعة السلفية، ١٣٤٢ هـ ـ ١٩٢٤ م
١١ ـ السحاب الأحمر، مطبعة السلفية، ١٣٤٢ هـ ـ ١٩٢٤ م
١٢ ـ المعركة، تحت راية القرآن، مطبعة الاستقامة، ١٣٥٩ هـ ـ ١٩٤٠ م
١٣ ـ على السفّود، مطبعة العصور، ١٣٤٨ هـ ـ ١٩٣٠ م
١٤ ـ أوراق الورد، مطبعة السلفية، ١٣٤٩ هـ ـ ١٩٣١ م
١٥ ـ رسالة الحج، مطبعة المستقبل، ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨ م
١٦ ـ وحي القلم، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٦ م
١٧ ـ رسائل الرافعي، ط ٢، دار المعارف، ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧١ م
١٨ ـ أغاريد الرافعي، دار الحريّة، بغداد، ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٨٠ م

ب ـ مؤلفات الرافعي ـ غير المطبوعة

١ ـ النظرات، ديوان تام، الأول والثاني، تحت الطبع.
٢ ـ ديوان الرافعي، الجزء الرابع.
٣ ـ الفؤاديات
٤ ـ الكتاب النبوي
٥ ـ الشعر العربي
٦ ـ أسرار الاعجاز
٧ ـ فصح الكلام
٨ ـ قصص الرافعي
٩ ـ وحي القلم، الرابع والخامس

ثانياً ـ المؤلفات الخاصة

١ ـ حسنين حسن مخلوف، مصطفى صادق الرافعي، كتاب الهلال، ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٦ م
٢ ـ عبد الستّار السطوحي، الجانب الإسلامي في أدب الرافعي، دار الفكر، بيروت ١٣٩١ هـ

٣ ــ عبد السلام هاشم حافظ، الرافعي وميّ، الدار القومية، القاهرة، ١٣٨٣ هـ ــ ١٩٦٤ م

٤ ــ عمر الدسوقي، مع الرافعي الكاتب، مطبعة جامعة القاهرة، ١٣٨٨ هـ ــ ١٩٦٩ م

٥ ــ محمد الأخضر بن مسعود، نثر الرافعي، المكتبة الشرقية، الجزائر، ١٣٨٧ هـ ــ ١٩٦٨ م

٦ ــ محمد سعيد العريان، حياة الرافعي، مطبعة الرسالة، ١٣٥٨ هـ ــ ١٩٣٩ م

٧ ــ محمد عبد القادر العمادي، الرافعي وطه حسين، دار الفكر الحديث، ١٩٥٨ م

٨ ــ مصطفى الشكعة، مصطفى صادق الرافعي، كاتباً إسلامياً، بيروت، ١٩٧١ م

٩ ــ مصطفى نعمان البدري، الإمام الرافعي، دار البصري، بغداد، ١٣٨٧ هـ ــ ١٩٦٨ م

١٠ ــ مصطفى الجوزو، مصطفى صادق الرافعي، الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٨٥ م

١١ ــ نعمات أحمد فؤاد، دراسة في أدب الرافعي، الدار القومية، ١٩٦٤ م

ثالثاً ــ المعاجيم والفهارس والاثبات

١ ــ أحمد أدهم الجندي، أعلام الأدب والفن، بيروت ١٩٥٢ م

٢ ــ خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط ٢، ١٣٨٠ هـ ــ ١٩٦١ م

٣ ــ خلدونْ الوهابي، تراجم الأدباء العرب، بغداد، ١٩٥٧ م

٤ ــ زكي محمد مجاهد، الأعلام الشرقية في القرن الرابع عشر الهجري، القاهرة، ١٣٨٢ هـ

٥ ــ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، دمشق، ١٣٦٦ هـ ــ ١٩٥٧ م

٦ ـ يوسف أسعد داغر، مصادر الدراسة الأدبية، بيروت، ١٩٥٤ م
٧ ـ يوسف الياس سركيس، معجم المطبوعات العربية، ١٩٢٨ م
٨ ـ فهارس دار الكتب المصرية، ج ٢ ـ ٣، مطبعة الأميرية، ١٩٣٩ م
٩ ـ فهارس المكتبة الظاهرية بدمشق
١٠ ـ فهارس المكتبة المركزية، جامعة بغداد
١١ ـ محفوظات دار الهلال والأهرام وأخبار اليوم

رابعاً ـ مصنّفات عامة

١ ـ اسماعيل عبد الحميد، الأدباء الخمسة، مطبعة السعادة، ١٣٥٢ هـ ـ ١٩٣٤ م
٢ ـ اسماعيل اليوسف، وحي الأدباء، بيروت، ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٦ م
٣ ـ أنور الجندي، أضواء على حياة الأدباء، الرسالة، ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٥ م
٤ ـ أنور الجندي، الشعر العربي المعاصر، الرسالة
٥ ـ أنور الجندي، المعارك الأدبية، الرسالة
٦ ـ أنور الجندي، النثر العربي، الرسالة
٧ ـ أنور الجندي، نساء في حياة الأدباء، الرسالة
٨ ـ أنور الجندي، المساجلات، الخ.، طه حسين، الخ..، الرسالة
١٠ ـ سعد ميخائيل، آداب العصر في شعراء العراق والشام ومصر، ١٣٣٩ هـ ـ ١٩٢١ م
١١ ـ عبد السميع المصري، في موكب الخالدين ١٩٥١ ـ ١٩٦٨ م
١٢ ـ عمر الدسوقي، تطوّر المقالة، بحث مرسل إلى جامعات أمريكا
١٣ ـ عمر الدسوقي، في الأدب الحديث، الرسالة، ١٩٦١
١٤ ـ عمر الدسوقي، نشأة النثر الحديث، الرسالة ١٩٦٢
١٥ ـ عمر الدسوقي، المسرحية، ط ٣، ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٢ م

١٦ ـ محمود ابراهيم، الأدب العربي الحديث، بغداد، ١٣٦٦ هـ ـ ١٩٤٧ م
١٧ ـ كتب مدرسيّة أخرى لشتّى مراحل الدراسات الثانوية والجامعية

خامساً ـ كتب التراجم والدراسات الأدبية والنقدية

١ ـ ابراهيم المازني وعباس العقاد، الديوان، ج ١، فبراير ١٩٢١ م، ج ٢ ديسمبر ١٩٢٠ م
٢ ـ احسان عباس، فن السيرة، بيروت، ١٩٠٨ م
٣ ـ احسان عباس، فن المقالة، بيروت، ١٩٦١ م
٤ ـ أحمد حسن الزيات، في أصول الأدب، الرسالة، ١٩٤٣ م
٦ ـ أحمد حسن الزيات، وحي الرسالة، الرسالة، ١٩٤٣ م
٥ ـ أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، الرسالة، ١٩٥٣ م
٧ ـ اسماعيل أدهم، خليل مطران، المقتطف، ١٩٤٣ م
٨ ـ أنيس المقدسي، الاتجاهات الأدبية الحديثة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٧ م
٩ ـ أنيس المقدسي، الفنون الأدبية وأعلامها، دار العلم للملايين، ١٩٦٨ م
١٠ ـ جميل جبر، مي في حياتها المضطربة، بيروت، ١٩٥٤ م
١١ ـ حامد عبد القادر، دراسات في النقد
١١ ـ حامد عبد القادر، دراسات في علم النفس الأدبي
١٢ ـ حامد عبد القادر، العلاج النفسي
١٣ ـ حلمي علي مرزوق، تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في مصر في الربع الأول من القرن، المعارف، ١٩٦٦ م
١٤ ـ ستانلي هايمن، ترجمة احسان عباس، النقد الأدبي، بيروت، ١٩٥٩ م
١٥ ـ سلامة موسى، البلاغة العصرية، العصرية، ١٩٣٨ م
١٦ ـ شوقي ضيف، مع العقاد، اقرأ، دار المعارف، ١٩٦٤ م
١٧ ـ طه حسين، حديث الأربعاء، ج ٣، دار المعارف، ١٩٥٣ م

١٨ ـــ طه حسين، من بعيد، بيروت، ١٩٦٥ م
١٩ ـــ عباس محمود العقاد، حياة قلم، كتاب الهلال، ١٩٦٤ م
٢٠ ـــ عباس محمود العقاد، محمد عبده، اعلام العرب، ١٩٦٣ م
٢١ ـــ عباس محمود، ساعات بين الكتب
٢٢ ـــ عباس محمود العقاد، الفصول
٢٣ ـــ عباس محمود العقاد، المراجعات في الآداب والفنون، العصرية
٢٤ ـــ عبد الحي دياب، العقاد ناقداً، الدار القومية، ١٩٦٦ م
٢٥ ـــ عبد الرحمن الرافعي، جمال الأفغاني، الدار القومية
٢٦ ـــ عبد الرحمن الرافعي، مذكراتي، ١٩٦١ م
٢٧ ـــ عز الدين الأمين، النقد، القاهرة ١٩٦١ م
٢٨ ـــ محمد حسين هيكل، في أوقات الفراغ، العصرية، ١٩٣٤ م

٣٠ ـــ محمد خليفة التونسي، فصول من النقد عند العقاد
٣١ ـــ محمد رشيد الرافعي، عبد القادر الرافعي الثاني، الأزهرية ١٩٠٧ م
٣٢ ـــ محمد دياب، الفاروق عمر، اليوسفية، طنطا، ١٩٣٤ م
٣٣ ـــ محمد صادق عنبر، ذكرى فقيد الوطن، أمين الرافعي، ١٩٢٨ م
٣٤ ـــ محمد سيد كيلاني، طه حسين الشاعر الكاتب، دار القومية العربية، ١٩٦٣ م
٣٥ ـــ محمد صالح سمك، أمير الشعر في العصر القديم
٣٦ ـــ محمد صبري، أدب وتاريخ، الأميرية، ١٩٣٤ م
٣٧ ـــ محمد صبري، تاريخ مصر الحديث، الأميرية، ١٩٣١ م
٣٨ ـــ وغيرها...

سادساً ـــ الصحف والدوريات

١ ـــ أبولو، أحمد زكي أبو شادي، ١٣٥٠ هـ ـــ ١٩٣٢ م
٢ ـــ الإحسان، كلية العلوم الإسلامية بحلب، ١٣٦٦ هـ ـــ ١٩٤٧ م

٣ ــ الأخبار، أمين الرافعي، ١٩١٧ ــ ١٩٢٥
٤ ــ الأخبار، علي أمين، ١٩٥٣ م
٥ ــ أخبار اليوم
٦ ــ آخر ساعة، محمد التابعي، ١٩٣٤
٧ ــ الإخوان المسلمون، صالح عشماوي، ١٣٦٥ هـ ــ ١٩٤٦ م
٨ ــ الآداب، سهيل ادريس، بيروت، ١٩٥٢
٩ ــ الأديب، البير أديب، بيروت، ١٩٤٢
١٠ ــ الأسبوع، ادوارد حنا سعد، ١٩٣٤
١١ ــ الأنصار، أحمد (صبري) شويمان، أحمد موسى سالم، ١٣٦١ هـ
١٢ ــ الأهرام، جبرائيل تقلا، ١٨٧٥ م
١٣ ــ البلاد، رفائيل بطي، بغداد، ١٩٣٤
١٤ ــ البلاغ، عبد القادر حمزة، ١٩٢٦
١٥ ــ البيان، عبد الرحمن البرقوقي، ١٣٣٠ هـ
١٦ ــ الثريا
١٧ ــ الثقافة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٥٧ هـ ــ ١٩٣٨ م
١٨ ــ الجامعة، فرح أنطون، ١٣٢٠ هـ ــ ١٩٠١ م
١٩ ــ الجريدة، أحمد لطفي السيد، ١٣٢٥ هـ ــ ١٩٠٧ م
٢٠ ــ الجمهور، بيروت
٢١ ــ الجوائب، خليل مطران، ١٣٢٠ هـ ــ ١٩٠٠ م
٢٢ ــ الحال، خليل صادق، ١٩١٧ م
٢٣ ــ الحارس، رفيق الجراح، بغداد، ١٩٥٣ م
٢٤ ــ الحديث، سامي الكيالي، حلب
٢٥ ــ الحرية
٢٦ ــ الدنيا المصورة، اميل زيدان، دار الهلال
٢٧ ــ الرابطة العربية، أمين سعيد، ١٩٣٥
٢٨ ــ الرسالة، أحمد حسن الزيات، ١٣٥٠ هـ ــ ١٩٣٢ م

٢٩ ـ الزمان، توفيق السمعاني، بغداد، ١٩٣٠
٣٠ ـ الزهراء، محب الدين الخطيب، القاهرة ١٣٤٥ هـ
٣١ ـ سركيس، سليم سركيس، ١٨٩١ م
٣٢ ـ السفور، عبد الحميد حمد، ١٩١٥ م
٣٣ ـ السيدات والرجال، نقولا ورُوز حداد، ١٩٢١ م
٣٤ ـ الشباب، محمد علي الطاهر
٣٥ ـ الشعب، أمين الرافعي، الحزب الوطني، ١٩١٣ م
٣٦ ـ الضياء، ابراهيم اليازجي، ١٩٠١
٣٧ ـ الضياء، عبد القادر حمزة، ١٩٣٠
٣٨ ـ الظاهر، أحمد أبو شادي، ١٩٣٠
٣٩ ـ العلم، عبد العزيز جاويش، الحزب الوطني، ١٩١٠
٤٠ ـ العربي، أحمد زكي، الكويت، ١٩٥٩ م
٤١ ـ العروسة، دار الهلال، ١٩٣٤
٤٢ ـ فتاة الشرق، لبيبة هاشم
٤٣ ـ الفتح، محبّ الدين الخطيب
٤٤ ـ الفكر المعاصر، زكي نجيب محمود، وزارة الثقافة، ١٩١٣ م
٤٥ ـ الكاتب المصري، طه حسين، ١٩٤٥ م
٤٦ ـ الكتاب، عادل الغضبان، دار المعارف، ١٩٤٥
٤٧ ـ الكواكب، دار الهلال
٤٨ ـ كلّ شيء، دار الهلال
٤٩ ـ لغة العرب، انستاس الكرملي، بغداد، ١٩١١
٥٠ ـ اللواء، مصطفى كامل، ١٨٩٣ م
٥١ ـ المجلة، خليل مطران
٥٢ ـ المجلة الجديدة، سلامة موسى، ١٩٣٠
٥٣ ـ المجلة الشهرية
٥٤ ـ المساء، عبد القادر حمزة

٥٥ ــ المسلمون، سعيد رمضان، ١٣٨٠ هـ
٥٦ ــ المصري، حسين أبو الفتح، ١٩٤٠
٥٧ ــ المضمار، أسعد داغر، ١٩٢٠ م
٥٨ ــ المقتبس، محمد كرد علي، دمشق، ١٩٠٠
٥٩ ــ المقتطف، يعقوب صروف وفارس نمر، بيروت فالقاهرة ١٨٧٥
٦٠ ــ المقطم، يعقوب صروف وفارس نمر، القاهرة، ١٩١١
٦١ ــ المنار، محمد رشيد رضا، ١٣١٨ هـ
٦٢ ــ منيرفا، ماري يني، ١٩٢١ م
٦٣ ــ الناس،
٦٤ ــ ... وغيرها

المحتوى

تعريف :

الراعي : مصطفى نعمان بن حسين بن علي البدري(*).

ـ وُلِد في سامراء يوم الاثنين ١٦ رمضان ١٣٥٣ هـ ـ ٢٤ كانون الأول ١٩٣٤ م

ـ دخل الابتدائيّة في الدجيل وأنهاها في المحمودية

ـ واصل الثانوية في سامراء ونال شهادتها في الأعظمية

ـ تخرّج في دار العلوم ـ الشريعة ـ بحق الرواية في آداب العربية والعلوم الإسلامية

ـ حصل شهادة الاختصاص ـ ماجستير ـ الدراسات الأدبية ـ دار العلوم ـ بالقاهرة

ـ أنهى رسالة الرعاية (دكتوراه) بشرف في الرافعي الكاتب ـ دار العلوم ـ بالقاهرة

أخرج في الشعر ـ ولمّا يزل طالباً :

١ ـ في مولد الفجر ٢ ـ معجزة العروبة ٣ ـ يوم العروبة ٤ ـ وادي الهوى

وله الآن :

١ ـ بعض وفاء ٢ ـ هدير الأفئدة ٣ ـ لقاء مع الزهراء
٤ ـ افتراق ـ مهيأة للطبع..

(*) يتصل نسبه ببدر الدين الحسيني.

وله في الدراسات :

١ ـ عصر الرافعي ـ الأديب الإمام ـ مطبعة البصري، ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٨ م

٢ ـ أغاريد الرافعي ـ الحرية ـ وزارة الثقافة، ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٨٠ م

٣ ـ الانبعاث القومي للضمير العربي ـ بيروت، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م

٤ ـ العرب المتنصّرة ـ تحت الطبع

٥ ـ دراسات وبحوث ومقالات ونقود في شتيت الصحف والمجلات تؤلف موضوعاتٍ شتّى

٦ ـ الإسلام الحنيف والموجة الدينية المضطربة ـ المؤتمر الاسلامي الشعبي ـ بغداد ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م

* سلك في الوظيفة المدنية كاتباً وملاحظاً في وزارة المعارف والجامعة. ثم انتقل إلى التدريس محاضراً ومدرّساً وأستاذاً للأدب الحديث في كلية الآداب ـ بغداد.